

الدولة العثمانية

دولة إسلامية مفترى عليها

تأليف

أستاذ دكتور عبد العزيز محمد الشناوي

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ
بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر
فرع النيل بالقاهرة

الجزء الأول

مركز الطبع والنشر
مكتبة الأقباط والصليبية
١٩٨٠
القاهرة

طبعة جامعة القاهرة

١٩٨٠

الدولة العثمانية

دولة إسلامية مفترى عليها

تأليف

أستاذ دكتور عبد العزيز محمد المشناوي

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ

بكلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر

لورع البنات بالقاهرة

الجزء الأول

مركز النشر والتوزيع
مكتبة الأنجلو المصرية
مصر
القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٨٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وقل رب زدني علما »

الكتاب التالي :

هو الدولة النازية في نشر الإسلام في أوروبا
وموقفها من أهل السنة .

استطرتنا :

القاللة تمضي في مسيرتها ، شوطاً بعد شوط ،
ونترك وراعتنا العجزة الخفلة يتكفلون ويتآمرون .
« ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .
صلى الله العظيم .

فجر رعد الرضا والميم

والمصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى سائر رسله وأنبيائه وأصفياه .

مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب ، في دراسة علمية موضوعية محايدة ، تلويح الدولة العثمانية من بعض جوانبها . وكنت قد تناولت في مؤلف سابق بعض المعالم البارزة في تاريخها السياسي منذ قيامها حتى فتح جزيرة كريت عام ١٦٦٩^(١) . وعلى مبلغ علمي لم تعرض دولة في العالم لمثل ما تعرضت له هذه الدولة من حملات عنيفة ضارية استهدفت التشهير بها والتبيل عنها . وقامت هذه الحملات المكثفة قولان عاليتان حائتان ، هما : الاستعمار الأوروبي والصهيونية . واتخذت هذه وتلك من المؤلفات التاريخية والبحوث (العلمية) ، والتصريحات الرسمية ومن مجموعات الوثائق التي نشرتها بعض الحكومات الأوروبية مجالا رحباً لإفاعة ما راق لها أن تفسره عن الدولة تحاملاً عليها . وقد ردد بعض المؤرخين والباحثين العرب عن جهالة أو تجاهل أو سخط تلك الآراء الخاطئة والظالمة بما في مؤلفاتهم . واستقرت في أذهان الأجيال المتساقبة من رجال الفكر العربي والإسلامي صورة خائكة الظلام عن الدولة العثمانية ، واقرن ذكرها في أفئدتهم بمظلم وعمن تكلمت على رعاياها من استغلالهم بتفريز ضرائب تصفية وجزائية عليهم ، ومن مصادرة أموالهم وأراضيهم وعاصيلهم وملثمتهم ، ومن تخلف ، ومن إجراء ملابيح عامة ، ومن حيلة عن العالم فرضتها الدولة على ولاياتها العربية مما أدى إلى نشر الفقر والجهل والمؤرض . وغفل أولئك المتعاملون عن الخدمات التي أسستها الدولة لولاياتها العربية بوجه خاص ، وهي خدمات يجب أن تذكر لها وتشكر عليها . وتناسوا أيضاً أن الدولة العثمانية واجهت أسطواراً دولية جسيمة كانت تهدد

(١) ذكره عبد العزيز عبد الفتاح : أوروبا في مطلع العصور الحديثة . انتشار دار المطبوعات بالتحفة ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ ، ص من ٥١٥-٨١٠ .

العالم العربي بأندلس الأعظم . وكان من بينها وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية وتسليمهم إلى شرق الجزيرة العربية واستيلائهم على مواقع عسكرية هامة ومحاولاتهم المكرورة دخول البحر الأحمر من منفذه الجنوبي للاستيلاء على جدة والزحف منها على مكة المكرمة لحلم الكعبة الشريفة ثم موالاة الزحف على المدينة المنورة لنيش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وكان الفزو البرتغالي لشرق الجزيرة العربية هو أول غزو أوروبي عسكري صليبي في التاريخ الحديث لأقاليم عربية . وكان شعاره « الصليب أو المدفع » .

لقد علشت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون واجتاحت جيوشها الإسلامية العثمانية أقاليم شاسعة في جنوبي شرق أوروبا ووسطها ، وهي أقاليم لم تخضع قط من قبل لحاكم مسلم . وأحرزت باسم الإسلام انتصارات عظيمة وباهرة ، ونالقت في أيديها دول أوروبية عديدة . وامتثلت قلوب الحكومات والشعوب الأوروبية فرحاً وعلماً من هذه الدولة الإسلامية العظيمة حليها في مقر دارها . وتعرضت الدولة في مسيرتها في أوروبا لتكتلات صليبية دولية تنادت إليها البابوية في روما وأسهمت فيها دول أوروبية عديدة . وفي بعض الأحيان تبادلت الدولة مع أعدائها الحزائم والانتصارات . ولم تترك الدول الأوروبية للدولة فرصة لاكتقاط أنفاسها . وعلى الرغم من ذلك كانت الدولة تنهض من كبوتها وتعيد بناء قواتها البرية والبحرية وتستأنف مسيرتها المتقطعة .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد عايشت الزمان أكثر من ستة قرون فإن إمبراطورية نابليون الأول لم تعمر أكثر من أحد عشر عاماً منذ تنويعه إمبراطوراً (١٨٠٤ - ١٨١٥) ثم انهارت هذه الإمبراطورية إلى مضيّب عقب هزيمته في معركة وترلو Waterloo في اليوم الثامن عشر من شهر يوليو - حزيران - عام ١٨١٥ أمام القائد الإنجليزي ولنتون والقائد الروسي بلوخر Blucher ، وكذلك الإمبراطورية الثانية La Seconde Empire ، فقد انهارت هي الأخرى ، وأصبحت هباء

منجاً بعد ثمانية عشر عاماً (١٨٥٢ - ١٨٧٠) عقب هزيمته في معركة سيدان Sedan في اليوم الثاني من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٠ . وتسلل نابليون الثالث مع قلة من غلبائه لواناً إلى البحر فاصدين إنجلترا الحق التقليدي لحكام فرنسا . ومع ذلك حرص المؤرخون الأوروبيون على إحاطة تاريخ هذين العاهلين بهالات من المفاخر والمجد في الوقت الذي نعتوا السلطان العثماني بأنه « السلطان المسلم الجاهل المتبرير المستغرق في ملذاته مع حواريه القانتات » . والحق أن وصف الدولة العثمانية بأنها « دولة إسلامية مغترى عليها » هو أصلى قليلاً من أى وصف آخر .

وإذا كان تاريخ الدولة العثمانية قد تكاثرت حوله الافتراءات والأباطيل ، فليس معنى ذلك أنها كانت مبرأة من المآخذ والعيوب . فكل دولة مزايا تذكر لها ، ومآخذ تسجل عليها . وليس من الدراسة الموضوعية ولا من الأخلاق إضفال المزايا لأى دولة والاقتصار على تسجيل عيوبها ، بل يجب عرض الجانبين معاً . ولم تغفل هذه الدراسة عن ذكرهما تمحيضاً مع مناهج البحث التاريخي .

وقد شملت هذه الدراسة جوانب مكثفة وحديثة من التاريخ الحديث والمعاصر في الشرق والغرب والتاريخ الإسلامى في العصور الوسطى والنظريات والنظم والعلوم السياسية والقانون الدولى والعلاقات الدولية ، فضلاً عن قواعد الشريعة الإسلامية من حيث عمليات الخصاء بنوعها ، وتعدد الزوجات ، واحتماء الجوارى وإنسال سلاطين الدولة العثمانية منهن وتغير الوضع القانونى لحولاء الجوارى بعد الإحتجاب منهن وأنواع القرش التى حددتها الشريعة الفراء من فراش قوى وفراش متوسط وفراش ضعيف وما إلى ذلك من دراسات تطليها معالجة هذه الموضوعات وغيرها .

ومن حق أن أذكر أنى كتبت معظم فصول هذا الكتاب وأنا اجتاز ظرفاً صحية بالغة الخطورة : وكان قياى بهذا العمل نوعاً من المغامرة بحياتى ، إذ كنت ممنوعاً من بذل أى مجهود عقل . وكان مطلوباً منى أن أعيش في حالة استرخاء ذهنى كامل . وكان مما قضى مضجعى أن يدركنى الموت قبل

أن أفرغ من وضع هذا الكتاب . وشاء الله سبحانه وتعالى أن تسبق رحمة ،
فأعانتني على اجتياز هذه الفترة الصعبة المعصية ، وعلى أن أمضي قداماً في
استكمال الكتاب . ولعلنا استغرق وضع الكتاب وطعمه ستين عدداً .

وكانت الخطوة التي وضعها أول الأمر لهذه الدراسة تشمل ، فيما تشمل
عليه ، سبعة فصول عن الدور الذي قامت به الفتوة العثمانية في نشر الإسلام
في جنوب شرق أوروبا ووسطها ، ثم موقف الفتوة من أهل السنة ، ولكني
زأيت أن أكتفي بهذا القدر من الكتاب ، وأن أفرغ لجلين الموضوعين دراسة
إضافية مستقلة ستظهر في قبال الأيام وفي وقت قريب بإذن الله ، لأن مادتها
العلمية هتزة في ذهني . وشرعت فعلاً في كتابة بعض فصول الكتاب
الجديد .

وما توفيق إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

أ . د

عبد العزيز محمد الفتاوى

مصر الجديدة في
 { غرة رجب عام ١٣٩٨
 السابع من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٧٨

الفصل الأول

الدولة العثمانية

بعيدا عن حملات التشهير بها

الوجود الإسلامي العثماني في أوروبا :

تشمل الدولة العثمانية جزءاً كبيراً لقناة في التاريخ - سواء تاريخ العالم الإسلامي أو تاريخ العالم الأوروبي المسيحي . امتدت خضاتها إلى ثلاث قارات هي : آسيا وأوروبا وأفريقية . ولعلدت دولة آسيوية أوروبية إفريقية . وكانت جيوشها أكثر الجيوش الأوروبية تصاداً وأحسنها تدريباً وأعظمها تسليحاً وأكملها تنظيماً . عبرت جيوشها البحر من الأكافول إلى أوروبا عام ١٣٥٦ على عهد السلطان أورغان ثاني السلاطين العثمانيين ومضت في زحفها تكتسح أقاليم مسيحية أوروبية واستولت على بلاد البلقان بما فيها شبه جزيرة المورة ، وبلغاريا ، ورومانيا ، والصرب ، والمجر ، وترسلانيا ، واليوستة والمهرسك وألبانيا ، والحليل الأسود . ومضت جيوشها في زحفها حتى بلغت مشارف فيينا عاصمة النمسا في أواسط أوروبا . فكانت الدولة العثمانية هي أول دولة إسلامية في التاريخ الأوروبي تصل بقواتها الجواراة إلى هذه الأراضي الأوروبية . وكان الوجود الإسلامي العثماني - العسكري والسياسي - في هذه الأقاليم الأوروبية حقيقة وثيقة لا مرأى فيها . وقامت الدولة بدور هام في نشر الإسلام في أصقاع حتى من هذه الأقاليم الأوروبية . ويلاحظ أن العثمانيين اعتنقوا الإسلام طوعاً منذ وقت مبكر يرجع إلى حكم حيان مؤسس الدولة العثمانية . وهذا الإسلام حقيقة دينية رسمية لم (١) .

وكان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شيء . فكان ولاؤهم ينتجه إلى الدين الإسلامي أولاً ، ثم إلى السلطان ثانياً ، ثم إلى الدولة ثالثاً (١) . وكانت روح الجهاد الديني غالبة في إسلام العثمانيين . وازدادت قوة وصلابة عندما استمفروا في الأناضول على حدود أو على مقربة من الكيانات المسيحية المتناثرة وظلوا في هذا الإقليم . وحفظوا بهذه الروح في مسيرتهم الحربية في أوروبا . فالإسلام عند العثمانيين دين محاربين ، وشعارهم الصيحة للحرب وحمل السلاح . ولزادت الروح النابية الحربية تأججاً في نفوس العثمانيين عند ما واجهوا تكتلات صليبية متعاقبة واسعة النطاق ضمت حديد الدول الأوروبية . وكانت البابوية في روما تتنادى إلى هذه التكتلات . وكان الحركة الصليبية التي شهدتها الشرق الإسلامي منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حتى أواخر القرن الثالث عشر قد انتقلت يادها إلى أوروبا . ولكن شان بين الحركتين : فالصليبيون في أوروبا واجهوا قوات إسلامية صليبية مسلحة ونفت في وجه الصليبية الأوروبية صفاً كأنها بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً . ولم تجد الحركة الصليبية في أوروبا ثغرة تنفذ منها لتتبع وحلة للصف الإسلامي العالي . فكان النصر حليف القوات الإسلامية العثمانية في معظم المعارك الضارية التي تشبث بين الفريقين . وكانت الدولة العثمانية روم تحوّل « دار الحرب » إلى « دار الإسلام » . وسار في أثر القوات الإسلامية العثمانية القضاء والمفتون ومن إليهم من رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة (٢) ، وذهب في أعقابهم أتباع الطرق الصوفية ورجال الفكر . وأمسهم الجميع في غمر بلور الإسلام في الأقاليم المفتوحة مما ساعد على نشر الإسلام في أوروبا . وبذلك اقترنت حركة الفتوح الإسلامية العثمانية سواء في الأناضول أو في أوروبا بعشر الإسلام . وقد انتشر انتشاراً سريعاً وواسعاً في بعض الأقاليم ، وانتشر انتشاراً وثيقاً في أقاليم أوروبية

(١) Lewis Bernard; The Emergence of Modern Turkey. Second Edition. London, 1968, p. 2. ١

(٢) انظر في هذه الدراسة من ص ٢٩٦ - ١٥٣

أخرى . وغدت العواصم التي انحطت الدولة العثمانية بها وهي : قونية ،
برومة ، وأدرنة ، وإستانبول ملأها إسلامية عثمانية ومراكز للدراسات الإسلامية
والحياة الإسلامية . وتنافس السلاطين وزوجاتهم وسائر أفراد الأسرة العثمانية
الحاكمة وأترياء العثمانيين على إقامة المساجد الرائعة والمعاهد والمدارس لتلويح
علوم الشريعة وأصول الدين وما يتصل بها من دراسات إسلامية عليا ،
وكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم . كما أقاموا العديد من الكتايا والأسبلة
واتفاقيات (١) والحمائم العامة . وأوقفوا الكثير من الأوقاف الدارة للاسحاق
من رعيها على تلك المؤسسات العلمية والخيرية .

أسماء الدولة العثمانية عبر تاريخها :

وقد حرفت الدولة العثمانية في التاريخ بعدة أسماء . ففي عصورها الأولى
أطلق العثمانيون عليها « دولت عليا » أي الدولة العلية ، ثم أطلقوا عليها
« سلطت سنية » أي السلطنة السنية ، كما أطلق عليها بعد اتساع ممتلكاتها في
أوروبا وآسيا وإفريقية « إمبراطور لق عثمانلي » أي الإمبراطورية العثمانية .
وعرفت أيضاً باسم « دولت عثمانلي » أي الدولة العثمانية . ولفتاح العثمانيون
للإمبراطورية الأخيرة لاسموا كل منها على لقب عثمانلي (٢) ، إذ كانوا يعززون
باتسليمهم إلى عثمان الأول مؤسس الدولة ، وهو الذي سميت باسمه الدولة
والأمة ، ويرون فيه المثل الأعلى للحاكم المسلم النازي (٣) والمخفف في
حياته الخاصة . ويذكرون عنه أنه لم يترك عنهما جاز إلى ربه سوى ثوبين
وقميص (٤) . ويتضح من هذا العرض أن استخدام كلمات تركيا وآراك وتركي
وهي مصطلحات وردت من أوروبا بمعنى الدولة العثمانية والعثمانيين والعثماني
بعيد عن اللغة في الصياغة اللغوية حتى أوائل القرن العشرين . أما كلمة

(١) مقالات أو عرائق . مفرداتها عشتاد . ومنها عشار التي ظهرت في العرفية
للمعنى والذكر وكلاهما الأوراد . والتواتر غير المتوافق التي تنسب للرئيس للمسيحية .

(٢) الصلة من اسم مكان في اللغة التركية « عثمانلي » وفي اللغة العربية « عثمانلي » .

(٣) النازي كلمة تركية مأخوذة من اللغة العربية بمعنى المجدد .

(٤) محمد حول يوم : قصة التاريخ العثماني . أسباب انقراض الإمبراطورية العثمانية ورواها .

تركي وأترك فقد كان العثمانيون يطلقون هاتين التفتين على الأجناس التركية المختلفة في نظرم والتي كانت تطلق في آسيا ، مثل السلاجقة والتركمان والأوزبك^(١) *Buzbaks* فكان العثمانيون يسمون بكلمتي «عثماني» و «عثمانيين» لقباً مميزاً لم يعبأ عن احترازهم بالتماسيح إلى عثمان الأول من ناحية ، واستعلاء على هذه الأجناس التركية الآسيوية المتبررة في نظرم^(٢) *Les Berbantes saintiques de race turque* من ناحية أخرى .

ومضى المصور والأجيال والأحقاب استخدم العثمانيون حتى أوائل القرن العشرين كلمتي تركي وأترك في معنى يثبت عن الاستعلاء الذي كان صفة بارزة في أصلاتهم . فكانوا يطلقون لفظة تركي على الفلاح العثماني الجاهل أو أحد سكان القرى الأناضول بمعنى واحد هو الجلف^(٣) تهكاً عليه ، أو تحقيراً له ، أو صبرية به . وقد ذهب العثمانيون إلى أبعد من ذلك ، إذ كان إطلاق كلمة تركي على أحد العثمانيين القميين في العاصمة أو في إحدى المدن العثمانية يعتبر إهانة له^(٤) ، حل الرغم من أن لقبهم كان يطلق عليها في جميع المصور التاريخية اللغة التركية^(٥) .

(١) *Levise Brunt et Rambaud Alfred; Histoire Générale du*
Quatrième Siècle à Nos Jours. 12 Tomes. Paris. t. v, 3 ème édition.
1922, p. 226.

Loc. cit. (٢)

(٣) الجلف بكسر الميم وتكون اللام - حمياً أجوف ، حل وزن حل وأحل . وهي مأخوذة من أجوف الفاء ، وهي المملوكة بلا رأس ولا قوائم ولا جناح . وكان العرب يطلقون كلمة جلف على الشخص الذي قلب القلب الذي لم يكتب أعلاه أهل الحضر في رثهم ولين طابعهم وسمكة أغلامهم . فلذا تطلق مثل هذا الشخص يملوكتهم الاجتاهل المتأخر فكانه زرع جلفه وليس غيره .

(٤) *Lewis Bernard; op. cit., pp. 1-2, f.n. No 1, p. 2* (٥)

(٥) يجمع بعض المؤرخين على هذا التسميم ، فيذكرون حين يحكمون من اللغة التركية عبارة « اللغة التركية عثمانيّة » .

ويحدد أحد المؤرخين الحرب العالمية البرتانية التي اشتعلت في عام ١٨٩٧ (١) تاريخاً قنبر فيه قنبراً تاماً مدلول كليات تركيا وآراء تركي للدلالة على الوطن التركي والشعب التركي (٢) ويستند في رأيه إلى قصيدة نظمها الشاعر اللبناني محمد أمين بك بمناسبة هذه الحرب جاء فيها .
 « بن بر نوركم منم نور در (٣) » .

ومعناها « أنا تركي ، ديني وحنيني من أعظم الأديان والأجناس » . ولا يمكن الأخذ بهذا التصعيد الزمعي ، لأن الحالة التي تكلم عنها مينورسكي Minorisky تعد من الحالات النادرة والشخصية . أما التصعيد الزمعي والقانوني والقول لاستخدام تلك الكلمات الثلاث بمعناها الحديث فهو عام ١٩٢٣ حين أعلن قيام النظام الجمهوري في تركيا . وكان الباحث مصطفى كمال أتاتورك وزعيم الحركة الكيالية وأول رئيس الجمهورية التركية على استخدام تلك الكلمات الثلاث بمعناها الحديث هو الابتعاد بقصه عن الخط الإسلامي للدولة ونيل تعاليفها وتغير حياتها الثقافية والاجتماعية وتشريعياتها الإسلامية ونظمها السياسية ، ولزيادة الاقتراب من أوروبا في حركة عبور الشعب تركي بحدود حدود بلاده لاستبدال حضارة أوروية جديدة بحضارة إسلامية كانت تطبع حياة الدولة وشعبها بطابع إسلامي مسيطر وبارز .

(١) قس على هذه الحرب حرب الثلاثين يوماً ، لأنها استمرت ثمانية شهر ، إذ أعلن السلطان عبد الحميد الثاني الحرب في السابع عشر من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٩٧ ، ثم أعلنت المدة في التاسع عشر من شهر مايو - أيار - عقب فشل الدول الكبرى . وأمرته سلطنة الأستانة في اليوم الرابع من شهر ديسمبر - كانون أول - ١٨٩٧ ، وأصبحت على أن تجتهد القوات التركية من إقليم كاسيا Theanly ماها قرية واحدة ويضرب مواقع إستراتيجية . وتمسكت اليونان على هذا الإقليم للمرة الثانية .

انظر أسباب الحرب ومطاميرها وتصورها صفحة ١٨٨ في :

* Miller W. ; The Ottoman Empire and its Successors 180—1927.

London, 1927, pp. 435—438.

Minorisky V. ; Encycl. of Islam Art. Turan.

(٢)

Loc. Cit.

(٣)

وانظر تقديرات أولي من هذا المؤرخ كتيبة الأستاذ Lewis B. ; qqq 333—343.

نظرة الأوروبيين إلى الدولة العثمانية :

ونظر الأوروبيون إلى الفتوح العثمانية في أوروبا على أنها فتوح إسلامية .
ووفق في أذهانهم أن أي نصر عسكري يحققه الدولة العثمانية إنما هو نصر
للإسلام وهزيمة للمسيحية . وباسم الإسلام فتح السلطان محمد الثاني عام ١٤٥٣
القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وأعلنها عاصمة لدولته . واستبدل اسماً
جديداً هو إستانبول^(١) ، ومعناها دار الإسلام ، باسمها القديم وهو
القسطنطينية . وأطلق على هذا السلطان « محمد أبو الفتوح » اسماً ، و « محمد
القائم » اسماً آخرى . وباسم الإسلام شرع هذا السلطان يتخذ مشروعا
خطراً هو الاستيلاء على روما مقر البابوية . ونزلت القوات الإسلامية العثمانية
في أوترانت *Otranto* في مملكة نابولي عام ١٤٨٠ ، وأسرت أحد عشر
ألفاً من سكانها ، واعتزم محمد أبو الفتوح أن يتخذ من أوترانت قاعدة يرحف
منها هجلاً في شبه جزيرة إيطاليا حتى يصل إلى روما . وأقسم ليفتحن الطعام
يبيده إلى حصانه وهو واقف على ملبح الكنيسة البابوية في روما . ولكن
عاجلته المنية في اليوم الثاني من شهر مايو آيار عام ١٤٨١ وتناقص
أوروبا الصعداء حين علمت بوفاة ، وأمر البابا أن تقام صلاة الشكر *Te Deum*
ثلاثة أيام . وباسم الإسلام استولى السلطان سليمان المشرع على بلغراد ثم جزيرة
رودس ، وكانت معقلاً لطائفة فرسان القديس يوحنا ، ثم دخل بودابست
عاصمة المجر . وباسم الإسلام والانتصار للإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة
حرب هنالي لإفريقية في الصراع الصليبي الذي احتدم بينهم وبين الإسبانين
والبرتغاليين الذين أرادوا احتلال هذه الأقاليم وتحويل سكانها إلى المسيحية .

(١) يرد اسمها في صيغ مختلفة هي :

إستانبول (صرف فنون) ، إستنبول (بحرف الميم) ، إستانبول (بحرفي الألف واللام)
وكان يطلق عليها في بعض الأوقات دار الخلافة ودار السلطنة . وفي القرن التاسع عشر ،
يُرد ذكرها في كثير من الترميمات السلطانية على هذا النحو : الاستانة ، وهي كلمة فارسية معناها
العبة . ولا يطلق عليها هذه الألقاب النظام الجمهوري في تركيا الحديثة سوى إستانبول . انظر
جوت لصلحات التركية في نهاية هذه المخرسة .

وبذلك حفظت الدولة العثمانية لثقال إفريقيا إسلامه وعروبته . وأوطلت الحياوش العثمانية في رحبها على قلب أوروبا حتى بلغت مشارف مينا . وكانت الأساطيل العثمانية تحفّز أبحاراً حربية رائدة ومتلاحقة على التكتلات الصليبية وخاصة في الحوضين الشرقي والغربي لبحر المتوسط^(١) . وتصادم العناء نتيجة هذا الصراع بين أوروبا المسيحية والدولة الإسلامية العثمانية .

ولذلك لم يكن أمراً عابثاً أن الأجيال المتعاقبة من الأوروبيين والتي عاصرت الدولة العثمانية على امتداد تاريخها الحافل قد ربطت في عقولها بين الإسلام والدولة العثمانية . وتعدت إلى أنفسهم ذكريات الفتوح الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام . واعتقدوا أن هذه الدولة هي الرمز الحى المصد للإسلام . وعرض السونات والأحباب والأقطار ازداد هذا الربط حمقاً ورسوخاً في أذهانهم . فكان إذا دخل أحد مسيحي أوروبا في الإسلام لم يقل عنه الأوروبيون إنه أصبح مسلماً ، بل قالوا عنه إنه غداً عثمانياً . حتى لو كان هذا التحول قد حدث في قاس أو أصفهان^(٢) . وهكذا أصبحت عبارة الدولة العثمانية مرتبطة بالدين الإسلامي بمرور رثى لا انفصام لها ، مما أدى إلى تصاعد موجات الحقد والعناء بين الغالبية العظمى من الحكومات والشعوب الأوروبية للدولة العثمانية بصفتها دولة إسلامية تحكم شعوباً مسيحية أوروبية .

وبما هو جدير بالذكر أن ريتشارد كوفلز Richard Kooler مؤرخ عصر الملكة إليزابيث Elizabeth في إنجلترا (١٥٥٨ - ١٦٠٣) وصف الشعور الأوروبي العام تجاه الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد أوروبا فكأن هذه الحملة المعبرة « إن الإمبراطورية العثمانية هي مصدر الرعب في العالم »^(٣) . ومع ذلك فإن العثمانيين لم يزوجوا بأنفسهم في الصراع الملهي

(١) من لشهد الأسطول السيف أنظر ص ٨٦٦ - ٨٦٨ في الفصل الثاس والشرية في هذه الدراسة

Lewis Bernard; op. cit., p. 13.

(٢)

Lewis Bernd, Politics and War. Princeton. Near East Paper. (٢)

Number. Program in Near Eastern Studies. Princeton University. 1975. p. 192.

الدعوى التي نسب بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولذلك كانت الدولة
العثمانية ملائمة لتسوية أقدمة المصلحين والمصلحين في الأرض الأوروبية
يلتمسون في رحابها الأمن والملاذ والقسط . وقد كتب مارتن لوتر في كتيب
نشره في عام ١٥٤٩ أن الفقراء المسيحيين الذين يظلمهم الأمراء الجشعون
وأصحاب الأراضي يفضلون أن يعيشوا تحت حكم الأتراك ولا يعيشون في
كتف حكام مسيحيين يلمسون أساليب ظالمة في حكم الفقراء (١) .

أما الحكومات وال شعوب الأوروبية التي خضعت للدولة العثمانية لتجدها
نفسها تخضع لأول مرة في تاريخها لحاكم مسلم ، ومن ثم علت جاهدة على
تصفية هذا الوجود الإسلامي العثماني من أراضيها ، وأسهمت معها دول أوروبية
لم يمتد إليها الحكم العثماني . ولكن جمت بينها وحدة المهدف في الانتصار
للمسيحية واقتضاء على الإسلام ودعم مصالحها الاستعمارية بتوزيع الممتلكات
العثمانية أسلابة بينها ، وتأسيساً على هذه النظرة الأوروبية فإن العلاقات الدولية
التي واجهتها الدولة العثمانية عبر تاريخها الحافل—وما كان أكثر هذه العلاقات—
كانت في أحسنها وسداها علاقات صليبية ضد الإسلام ، أملها روح صليبية
ووجهتها روح صليبية . وكانت حكومات بعض الدول الأوروبية تعرض
رحاباً للدولة العثمانية المسيحية على الثورة ، وتقدم بالأسلحة والعتاد
والأموال لإجراء مذابح عامة بين رحاباً الدولة المسلمة أصلاً ورحابها الذين
اعتنقوا الإسلام لتشر الرهبة والنهر بين هؤلاء الأتراك كى يرتدوا إلى
المسيحية . وكانت هذه الحكومات تبذل لم وعوداً صنية وبراقة بتعويضهم
مالياً وعمرانياً إذا فشلت أمثال هذه الثورات أو لم تسفر المذابح العامة عن
تحقيق أهدافها المرجحة . وأطلقت الحكومات الأوروبية على السلطان العثماني
شئ الأوصاف : فهو « رجل أوروبا المريض » حيناً ، و « المريض الذي
لا يرجى شفاؤه » حيناً ثانياً ، و « المريض الذي يجب الإجهار عليه شقعة به
ورقة عليه حتى يسريح ويريح » حيناً ثالثاً .

الدولة العثمانية دولة متوسطية :

تعد الدولة العثمانية دولة متوسطية *Un Etat Méditerranéen* أي

من حول البحر المتوسط . وكان يطلق عليه العثمانيون « آق دكنيز » (١) . إذ كانت الدولة تطل على معظم سواحل هذا البحر : الساحل الشرقى بأكمله ، والساحل الجبوى بطوله ابتداء من مصر حتى الحدود الشرقية لمراكش ، المملكة المغربية حالياً (٢) ، والساحل الشمالى فى ثلثه الشرقى تقريباً حتى البحر الأدرياتي (٣) الذى تطل على منطقتيه ألبانيا ، ويطلق عليها العثمانيون « أرناؤوط لى » ، كما يطلق عليه إقليم الجبل الأسود Montenegro ، ويطلق عليه العثمانيون « قره داغ » . وعززت الدولة العثمانية وجودها العسكرى والسياسى والدينى فى البحر المتوسط باستيلائها على عدد من الجزر المهمة القائمة فى حوضه الشرقى مثل رودس (١٥٢٢) ، وقبرص (١٥٧١) وكريت أو كريد (١٦٦٩) (٤) . وإن كانت قد أنقضت فى الاستيلاء على جزيرة مالطة عام ١٥٦٥ أو أواخر حكم السلطان سليمان المشرع بعد أن تكبد العثمانيون خسائر فادحة فى الأرواح والسفن والعتاد . وكان فرمان القديس يوحنا قد انقلوا من جزيرة مالطة مركزاً لنشاطهم الصليبي ضد السفن الإسلامية فى حوض البحر المتوسط . وظلوا بها حتى شهر يونيو - حزيران - ١٧٩٨ عقب استيلاء يونانرت عليها وهوى طريقه إلى مصر على رأس الحملة الفرنسية . وتبصحت أيضاً الدولة العثمانية فى الاستيلاء على عدد من جزر البحر الأيوى وبحر

(١) أطلق العرب عدة أسماء محلية مختلفة على البحر المتوسط . وكان من بينها

بحر الروم أو البحر الرومى على الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

بحر الفرنج ، أو بحر الفرنجة ، أو بحر الإفرنجية على حوضه الغربى .

بحر مصر ، أو بحر الإسكندرية فى جزئه الشرقى أمام السهل المصرى .

بحر الشام ، أو بحر الشام فى جزئه الذى تطل عليه بلاد الشام

(٢) لم تشمل مراكش فى نطاق الاتفاقيات التى امتدت إليها الفتوحات العثمانية فى شمال إفريقيا ، لأن

هذا الفتوح لم يطل أكثر من بضعة شهور فى عام ١٥٥٤ على عهد السلطان سليمان المشرع . واستمررس هذا الموضوع فى موطئ تقدم فى هذه الدراسة (ص ٩٣١ - ٩٣٦) فى ثنايا الفصل الخامس والمشرع فى الجزء الثالث .

(٣) يطلق عليه أيضاً البحر الإديرياقى .

(٤) كان العرب يطلقون على جزيرة كريت اسم كريتلى .

(٥) - الدولة العثمانية

وجهه (١) . وكانت هذه الجزر أو معظمها جيواً صليبية بعد انحصار موجة المد الصليبي الأوروبي من الشرق الإسلامي بسقوط عكا آخر معقل للصليبيين في بلاد الشام في اليوم الثامن عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٢٩١ على عهد السلطان خليل ابن السلطان قلاوون من سلاطين دولة المماليك البحرية : فاحتلت الحركات الصليبية من هذه الجزر قواعد عسكرية بحرية تتعرض للسفن الإسلامية ، المنيائية والغربية ، في أعالي البحار وتستولى على شحناتها ، وتأسر كبار ركبها وسيداتها ، وتضلع بالباقيين في أعماق البحر . كما كانت السفن الصليبية من وقت لآخر تقوم بتارات تخريبية مياخنة على موانئ مصر والشام والأناضول . وصحت حزيمة الدولة المنيائية على قصبة هذه البليوب أو القواعد الصليبية تأمياً لأرواح المسلمين وأموالهم في البحر والبحر من شرور الصليبيين . وهكذا سيطرت الدولة المنيائية على ما يمكن أن نسميه جزر وقواعد الخوض الشرق البحر المتوسط . كما سيطرت سيطرة كاملة في معظم الأوقات على البحر الأسود . وكان المنيائيون يطلقون عليه « قره ذكيز » . وجاء حين من الدهر نجح المنيائيون في جعل البحر الأسود بحيرة منيائية مغلقة ، ومنعوا خروج السفن الروسية من هذا البحر إلى المياه النافذة - أي مياه البحر المتوسط - ثم سمحوا ، تحت الضغط الروسي حياً ، وتحت ضغط الدول الأوروبية الكبرى حيناً آخر ، بمرور السفن عبر مضيق الدردنيل وبحر مرمرة ومضيق البوسفور إلى البحر الأسود والمخرج منه تحت قبو مينية . وستعرض لهذا الموضوع في شيء من التفصيل في موطن قادم في هذه الدراسة (٢) .

الدولة تتعرض صراعاً حروباً ضد الدولة الصفوية في فارس :

خاصت الدولة المنيائية صراعاً حروباً ضارباً ضد الدولة الصفوية في فارس . وكان يحكم الأخيرة الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠١ - ١٥٢٤) ، وهو المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية . واتخذ المذهب الشيعي مذهباً رسمياً

(١) كان يطلق على جزائر بحر إيجة جزائر بحر مقيده .

(٢) انظر في هذه الدراسة ص ١٩٠ - ٢٢٠ .

للدولة (١) . وعمل على نشره في العراق . ونجح في ذلك إلى حد بعيد . ثم حاول نشر هذا المذهب في الأناضول ، وهي الموطن الأصلي للدولة العثمانية . ولحق المذهب الشيعي استجابة واسعة من رعايا الدولة وبخاصة في شرق الأناضول . واشتهر هؤلاء الشيعة باسم قزل باش (٢) أي أصحاب الرموس الحمراء . فهدب السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) لاستكمال الخطر الشيعي للأحاف عليه ، وانتصر على شاه اسماعيل في موقعة تشالديران في أغسطس - آب - عام ١٥١٤ ودخل في العام التالي تبريز العاصمة ، وهرب الشاه إلى جوف بلاده . واستولى سليم على كثير من بلاد أرمينية الغربية وما بين النهرين وتبليس وديار بكر وجميع الأراضي الجنوبية حتى الرقة والموصل وهبط بالدولة الصفوية إلى دولة من الدرجة الثانية . ثم عاد سليم إلى استانبول ليعد الحملة لصراع حربي ضد أقاليم الشرق العربي الإسلامي .

الدولة تتجه نحو الشرق العربي الإسلامي :

فتح الشام ومصر :

وفي هذا الصراع ضد الأقاليم العربية الإسلامية في الشرق ظهرت الدولة العثمانية لأول مرة في تاريخها كنزلة من دول البحر الأحمر . ولحق سليم وجهه شطر بلاد الشام (٣) وكانت جزءاً من دولة المماليك لشراسة وانتصر في معركة مرج دابق في أغسطس - آب - ١٥١٦ على السلطان الممروسي .

(١) أمر شاه اسماعيل الصفوي بعد احتلاله العرش الخليفة في أذربيجان أن تكون الخليفة باسم الأئمة الاثني عشر . وأمر الخليفة أن يسموا إلى الأكلان صيغة الشيعة ومن « أشهد أن علياً ولي الله » . وأمر بالحدود بقتل كل من يمارس ذلك .

(٢) قزل باش كشيكن تركيكن . « قزل » سماعاً أحمر اللون . و « باش » سماعاً رأس .

(٣) أطلق فريق من المؤرخين والسياسيين المسلمين عبارة « بر الشام » على بلاد الشام ، بينما أطلق فريق آخر سيم عليها « الشام » وأطلق عليها ألقابهم الأوروريون كلمة « سوريا » وكتب أيضاً « سورية » و « Syria » بالفرنسية و « Syria » بالإنجليزية . بينما تملك سكانها بأسماء محلية كان بعضها ذا طابع جغرافي ، وكان البعض الآخر ذا طابع ملكي . ولما فتح المسلمون بلاد الشام فسموها إلى هذه الأقسام إدارية أطلقوا على كل قسم اسماً خاصاً كما جرى في موطن قادم في هذه الفترة .

وقاطعت في يديه تاجاً المذنب الرئيسية : حلب ، حماة ، وحص ، ودمشق .
وانساب حنوياً واستولى على فلسطين ودخل مصر حيث انتصر على السلطان
طومان باي آخر سلاطين دولة المماليك الشراكسة في معركة الريدانية في يناير -
كانون ثان - عام ١٥١٧ ودخل سليم القاهرة في اليوم السادس والعشرين
من ذات الشهر . وتم له بعد حين القبض على خريمه طومان باي واقتيد إلى
المشقة . وبذلك طويت صفحة دولة المماليك الشراكسة ، وانتقلت من مسرح
التاريخ إلى كنفه .

دخول الحجاز وبعض مناطق في اليمن تحت السيادة العثمانية :

وفي أثناء إقامة السلطان سليم في مصر استقبل وفداً من أعيان الحجاز بعث
به الشريف بركات أمير مكة المكرمة . وكان على رأس هذا الوفد ابنه
« أبو نجي » وحمل معه رسالة من والده أعان فيها الشريف بركات قبوله دخول
الحجاز تحت السيادة العثمانية ، وأرسل مع ابنه مفاتيح الكعبة الشريفة وبعض
مخفات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : وبذلك دخل الحجاز دخولاً
تلقائياً وسلمياً تحت السيادة العثمانية . ونهج هذا النهج الأمراء المماليك الذين
كانوا يحطون وتلك بعض مناطق في اليمن . على هذا النحو دخلت في خلال
سنة واحدة (١٥١٦-١٥١٧) أربعة أقاليم إسلامية حربية هامة هي : الشام ،
ثم مصر ، ثم الحجاز ، ثم أجزاء من اليمن ، تحت الحكم العثماني ، وزاد عدد
رعاياها المسلمين العرب زيادة كبيرة للغاية . وأصبح البحر الأحمر بحيرة
عثمانية تقريباً . فمصر والحجاز واليمن تطل على أجزاء طويلة من ساحليه الشرق
والغرب ، وتدم الطامع الإسلامي العثماني البحر الأحمر حين فتح السلطان سليمان
المشرع (١٥٢٠-١٥٦٦) الذي خلف والده سليم الأول كلا من مصروع
وسواكن عام ١٥٥٧ منهزماً فرصة اندلاع حرب أهلية في الحبشة . وقد
نجحت الدولة في تخفيف الضغط البرتغالي على للتجار العرب والإمارات
العربية الساحلية . كما أوقعت الاحتواء البرتغالي إلى حد جعله يعجز عن أن
يعد موقته إلى داخل البحر الأحمر وإلى الولايات العربية الناطقية ، وحطمت
المحاولات التي يلمها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية منهم ومن الأجاش ضد

القوى العربية الإسلامية في البحر الأحمر وشرق إفريقيا . ولكن إحقاقاً للحق لم يكن الحسم النهائي سياسياً من التجارة العالمية التي استطاع العرب أن يجلبوه إلى الطريقين التجاريين القديمين - وهما طريق العراق والشام، وطريق البحر الأحمر ومصر - على الرغم من الحصار البرتغالي لم يكن كافياً لأن يعيد الازدهار الاقتصادي الذي عاشه العرب في ظلالة الوراثة من التجارة العالمية قبل وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية . ولكن حسب الدولة العثمانية أنها أضعفت الأمن والأمان على البحر الأحمر وجعلته بحراً إسلامياً متقفاً في وجه السفن البرتغالية، ثم حميت هذا المبدأ على جميع السفن المسيحية فحرمت عليها الإبحار في مياه البحر الأحمر شمالاً فخرنقاً في اليمن فكان على هذه السفن أن تفرغ شحناتها في هذا الميناء ثم يصاد شحنها على سفن إسلامية يصل عليها قباطنة وبحارة مسلمون وتمنح حجاب البحر الأحمر وتتردد على شؤره حتى السويس شمالاً . وكانت حجة الدولة أو ذريعتها في هذا المنع أن أهم الأماكن الإسلامية المقدسة في العالم على الإطلاق تقع في الحجاز . وتظل سواحل هذا الإقليم على مياه البحر الأحمر . فيجب أن تكون الملاحة فيه مقصورة على السفن الإسلامية . وظلت الدولة حريصة على تطبيق هذا المبدأ حتى القرن الثامن عشر الميلادي .

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين بعامه والمؤرخين العرب بخاصة كانوا يطلقون على البحر الأحمر بحر الحجاز^(١) قبل أن تصبح الدولة العثمانية صاحبة

(١) من بلاد المؤرخين على سبيل المثال :

أبو شامة - المؤرخين في أخبار التتار، التتار، والصلابة ج ٢، ص ٣٥ ، ٢٧ .
ابن راسل - فرج الكروب في أخبار بني أيوب تحقيق المحرم الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين الشاذلي ج ٧ ص ١٣٠ .

أبو لؤس - نتائج الزهود في نتائج الفهرود تحقيق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى ج ٤ ص ١٠٩ .

انظر أيضاً الدكتور حسين محمد رفيع في :

مجلة كلية العلوم الاجتماعية - جلد الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المباذلة على معظم الأقاليم التي تطل على ساحليه . وكان مرد هذه التسمية إلى أن البحر الأحمر هو الطريق البحري المؤدى إلى بلاد الحجاز حيث يأتي إليها المسلمون من كل فج عميق لأداء الحج والعمرة ، أو الاختار فقط .

وهكذا أصبحت الدولة العثمانية تضم بين أقاليمها العربية ، منذ حكم السلطان سليم الأول ، الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز وعلى رأسها المسجد الحرام حيث الكعبة للشفقة في مكة المكرمة ، والمسجد النبوي الشريف مثوى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في المدينة المنورة ، فضلاً عن المسجد الأقصى في فلسطين وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله عليه الصلاة والسلام (١) ، مما أضيق على الدولة زعامة دينية في العالم الإسلامي وأضيف إلى ألقاب كل سلطان من سلاطين الدولة العثمانية لقب «حاوي الحرمين الشريفين» تأكيداً لزعامة المدينة للدولة على العالم الإسلامي الذي . وأوقعت الدولة أوقافاً كثيرة على الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز . وكانت إراداتها نصب في حراته مستقلة بالقصر السلطاني صرف باسم «حرمين دولاي» (٢) . وجرت العادة في معظم الأوقات على تعيين كبير الأغوات الخصيان السود ناظرأ على أوقاف الحرمين . كما رصدت الدولة أوقافاً على المسجد الأقصى وأقامت أسواراً على طرفيه الجنوبي والشرقي .

- قريش العدد الأول عام ١٣٩٧ هـ تحت عنوان «بحر الحجاز في الصور الوسطى» ص ٢٩٩-٣١٦ .

وما يذكر أيضاً أن البحر الأحمر كان يطلق عليه «بحر القلزم» نسبة لمدينة «قلزم» الواقعة في أقصى الشمال في هذا البحر بالقرب من مدينة السويس . أما اسم «بحر السويس» فكان لا يطلق إلا على خليج السويس . ويرى البعض أنه باب للتلذذ وعنيج حلا وعليج بريرة هو بهجة البحر الأحمر من ناحية الجذب .

(١) يقع المسجد الأقصى في الجزء الجنوبي الشرقي من مدينة بيت المقدس القديمة ، وهو يعد المسجد الخامس في بيت المقدس .

(٢) انظر في هذه التسمية ص ٤٤٥-٤٤٦

وكان مما أضفى على الدولة الطابع الديني الإسلامي الراسخ والخمير أنها كانت حريصة الحرص كله على الالتزام بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية تطبيقاً دقيقاً في تصرفاتها وإقامة الشعائر الإسلامية واحترام التقاليد الدينية ، وأنها أنشأت ، منذ زمن مبكر ، الميخ اللببية الإسلامية الحاكمة وجعلت لها اختصاصات واسعة ووصلت لها موارد مالية ضخمة ، وكان شيخ الإسلام هو الذي يرأس هذه الميخ ، وكانت تمولونه مجموعات من كبار علماء الدين يشكلون أجهزة فنية متعددة الأسماء والاختصاصات وألحقت بمكتبه . وقد أحاطت الدولة شيخ الإسلام بكل مظاهر الإجلال والتكريم وتبوأ مكاناً طلياً . وكان مركزه يتنادد مركز الصدر الأعظم .

أمانات مقدمة :

أهم سلاطين الدولة بحفقات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والتي كانت قد جاءت عليه من الشريف بركات أمير مكة المكرمة إلى السلطان سليم الأول في أثناء إقامة الأخير في مصر كرمز لفخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . وقد حمل سليم هذه الهدية معه إلى إستانبول حيث حفظت في خزنة قصر طوب قاني وأطلق عليها « أمانات مقدمة » وهي جملة حرية وصحت في صياغة تركية . وكانت هذه الآثار تضم ردة وعرفت في اللغة التركية وعرقه شريف . وسادة صلاة ، والبرق النبوي - أي العلم النبوي - وقوساً ومهبطاً ، وحلوة فرس ، وسماً من أسنانه ، وشعيرات من لحية ، وحجر أبيض أثّر قلعه ، ومفاتيح الكعبة ، ونسختين من القرآن الكريم يقال لهما كانتا للخليفين عثمان ، وحلي . وضمت إلى هذه المجموعة أسلحة وأدوات وثياب يقال إنها كانت لأتينا السابقين والخلفاء والصحابية . وعصمت الدولة قوة عسكرية تتكون من أربعين فرداً لحراسة المظلمات النبوية . وكانت هذه القوة هي هيئة الفرقة الخاصة وتسمى « خاص لوطه ليه » وكانت بمثابة حرس شرف لردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وغيرها من المظلمات النبوية . وكان يقام في منتصف شهر رمضان من كل عام حفل ديني يطلق عليه وعرقه سعادت . برتل فيه القرآن الكريم ترتيباً إلى ما بعد منتصف الليل ، ويحضر

هذا الحفل السلطان وشيخ الاسلام والصدر الأعظم وكبار رجال الدولة من أعضاء لمة الدينية الإسلامية الحاكمة وقادة أسلحة الجيش والأسطول وغيرهم. واستهدفت الدولة من إقامة هذا الحفل الديني تعميق الفكرة الدينية الإسلامية في نفوس رعاياها وحملهم على مزيد من الالتصاق بالدين ونشر الجو الديني الباقي في شهر رمضان المعظم .

وقد فتح السلطان سليمان المشرع إقليم العراق عام ١٥٣٤ وأمنه التمدد العثماني إلى الأحساء المطل على الخليج العربي ثم إلى بعض إمارات ومشيخات هذا الخليج ، كما استولى على عدن . ومن ناحية أخرى أنشئت ثلاث بيئات عثمانية في شمالي إفريقيا ، هي : الجزائر ثم طرابلس ثم تونس ، وبذلك امتد التمدد العثماني إلى الخوض في البحر المتوسط . وحل هذا النحو اتسع نطاق الوجود العثماني في العالم العربي من الجزائر غرباً إلى الخليج العربي شرقاً ، ومن حلب شمالاً إلى خليج عدن وبحر العرب جنوباً . وزاد عدد الرعايا العرب في الدولة بزيادة كبيرة للغاية بعد أن اتجهت في فتوحاتها نحو العالم العربي وأصبحت ذات صبغة عربية قوية بعد أن كانت ذات طابع أناضولي وأوروبي ، كما أنها غدت تضم - فضلاً عن قلب الإسلام : مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس - الواصم والأصوار الإسلامية العربية الكبرى مثل دمشق عاصمة الدولة الأموية ، وبغداد عاصمة الدولة طغرافية التي كانت مركز إشعاع حضاري للعالم ، والقاهرة عاصمة الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية ودولتي المماليك حيث قام بها الأزهر الشريف القليلة العلمية الأولى للمسلمين ، والقبرون في تونس ، والكوفة والبصرة ، وكان يطلق عليهما «المصران» (١).

الدولة تحقق نجاحاً دينياً ملمحياً في الأناضول والعالم العربي :

وقد حققت الدولة العثمانية في حروبها ضد الدولة الصفوية وفي فتوحاتها في العالم العربي نجاحاً كبيراً من الناحية الدينية المذهبية . فقد استأصلت الشيعة من الأناضول . ومنعت زحف المذهب الشيعي على الشرق العربي الآسوي وعلى مصر . أما العراق فكانت له أوضاع خاصة . كان موطن الثنات

(١) بكسر حرف اللام ، وسكون حرف الصاد .

أو المزارات المقدسة ويصم آثار الشيعة. وكان الشاه اسماعيل المصفوي قد نجح كما ذكرنا في نشر المذهب الشيعي في ربوع العراق وأصبح الشيعة يشكلون قطاعاً رئيساً من قطاعات السكان، ولم تقاليدهم وعاداتهم ولا يرضون عنها بشيلاً، إذ أصبحت جزءاً من عقيدتهم الدينية. ولما فتح السلطان سليمان المشرق العراق ودخل بغداد في ديسمبر - كانون أول - عام ١٥٣٤ حيث أقام أربعة أشهر عمل خلالها على إرضاء مشاعر أهل السنة وأهل الشيعة معاً. ورصد أوقافاً يتفق إيرادها على أهل المذهبين. وخرج من بغداد في رحلة تعرف فيها على قبر أبي حنيفة وأعاد بناء ضريحه. وكان الشيعة من أهل فارس قد دسوا رفاقه وهدموا القبة والضريح وعلى الرغم من أن السلطان سليمان كان مسلماً حقيقياً، زار العتبات المقدسة. وكانت المنطقة التي تحيط بكنزبلاء تفرها مياه القيصان وتصل إلى العتبات المقدسة. فأمر ببناء سور يسمى السليمانية حول المدينة لوقايتها من مياه القيصان، ثم وسع ترعة الحسينية كي تنساب فيها المياه على مدار السنة فزعت المنطقة حول العتبات المقدسة باليساكن وحقول القمح. وزار قبر الإمام علي في النجف. وهكذا انتجع السلطان سليمان المشرق بجاء أهل السنة والشيعة سياسة تم من الحكمة والحصافة وروحانية الأئمة العظمى. أما أهل اليمن فقد لاحظوا بملابسهم الشيعي وهو مذهب الإمامية الزيدية. كما كانت هناك طائفة قليلة تعدد نسبياً من الشيعة في لبنان يطلق عليهم «الطويون». وغيا هذا ذلك كان سكان الولايات الدرزية من أهل السنة.

لم يكن الاحتلال العثماني للعالم العربي استعماراً تحت ستار الدين :

ومثل مطلع القرن العشرين ارتفعت أصوات بعض الباحثين وأصحابهم ممن ليست لديهم خلفية تاريخية سليمة وعميقة يصفون الاحتلال العثماني للعالم العربي بأنه كان شراً مستعبراً. ولعل أحدث هذه الأصوات ما كتبه بعض مستشاري الرئيس الراحل جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة في الميثاق الذي صدر في الحادي والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٩٦٢، إذ قالوا إن هذا الاحتلال كان استعماراً مقنناً باسم الدين، والذين منه براء. وهم يجهلون أو يتجاهلون عدة حقائق هامة، منها أن المجتمعات

في العالم العربي وتلك كانت مجتمعات دينية إسلامية بكل ما تحمله هذه العبارة من مدلولات ، وأن الوشيجة الدينية ويطت المسلمين من رعاية الدولة بالسلطان العثماني بعروة ومضى على أساس أن السلطان كان الرئيس الأعلى لأكثر دولة إسلامية في العالم ، وأنه بحكم منصبه كان المهيمن على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والتي كان يرأسها شيخ الإسلام - مفتي إستانبول سابقاً - وذلك قبل أن يصل السلطان على نفسه لقب خليفة في أواخر القرن الثامن عشر لأسباب سياسية استهدف منها لإرهاب الدول الأوروبية الطامعة في ممتلكات الدولة ، كما أن العلاقة الدينية الإسلامية كانت أكثر تأصيلاً وعمقا في نفوس رعاية الدولة من العلاقة الوطنية . وعلى أحسن الفروض كانت العلاقة الدينية والوطنية ممزجتين متشابكتين بحيث كان يصعب الفصل بينهما . وكان يتصاعد ذلك الارتباط الوثيق بين الرعايا المسلمين والدولة كلما تعرضت لمزعة عسكرية من الجيوش الأوروبية فكان هؤلاء الرعايا يزحادون تنصافاً بالدولة العثمانية ويزداد ولاؤهم عمقا للسلطان العثماني .

ويرتجح التصاق الولايات العربية وولاؤها للدولة العثمانية إلى أنها كانت تنظر إلى هذه الدولة على أنها الشرع الواقى الذي يحسبها من شروء أطماع الاستعمار الأوروبي ، ويتيح لها في ظل الدولة العثمانية المسلمة قدراً كبيراً من الحرية في الحفاظ على تقاليدها المحلية الموروثة وفي مزاولتها شعائرها الدينية ، وفي أن تحيا حياة أفضل - في نظرها على الأقل - فيما لو احتلتها دولة أوروبية مسيحية . وأطلق السكان العرب على القوات العثمانية للرباطة في بلادهم اسم «إخامية العثمانية» بدلا من «جيش الاحتلال العثماني» . وعلى هذا النحو نشأت مصالح مشتركة بين الدولة العثمانية وولاياتها العربية . وكانت هذه المصالح هي الروابط الدينية والمصالح السياسية والحفاظ على التقاليد الإسلامية (١) .

وإذا كانت قد قامت في بعض الولايات العربية حوادث تمرد أو عصيان ،

(١) دكتور محمد رفعت رسلان على بك الكبير : القاصر حار الفكر العربي المتغيرة .

فن انطلقا وصغها بأنها حركات استقلالية أو انفصالية عن الدولة العثمانية ، لأنها كانت تزعجها أصحاب عصيات أو قواد عسكريون (١) أو رعاة دينيون من أتباع مذاهب دينية إسلامية استهملوا منها الانتقادات بشأن الحكم والإدارة والمال على أن تكون الولاية في الأهم الأغلب في نطاق الدولة العثمانية . ومن الأمثلة التي تماق في هذا الصدد على بعض هذه الحركات بشي قياداتها : حركة على بك الكبير في مصر (٢) ، والنزاع بين قبائل الأكراد والباشوات العثمانيين في العراق ، وكذلك النزاع بين الزيدية والدولة العثمانية في اليمن وأسفر في إحدى مراحلها عن عقد اتفاق دهان (٣) .



(١) يشي من خلال القواد العسكريين كائنان أحدهما جان برصه القزالي نائب الشام قد أعلن نفسه سنة ١٥٢٠ على عهد السلطان سليمان الشرح حلياً على الشام وأمر بأن يذكر اسمه دون سواء في حجة الحجة وأنه اقتراب السكة باسمه على السلطات المحلية والقضائية ، وأطلق على نفسه بالملك الأشرف أبو الفتح وأرغفت له دعوى ثلاثة أيام وأرغفت له الدعوى أمام المحاكم وقبل له الأمر الأرض وقد فشت قواته في دخول حلب وأنهت حركته بالقتل . ولحق مصرعه وأرسلت رأسه إلى إسطنبول .

انظر :

ابن خلدون ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٢٦٧-٢٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢-٣٧٤ ، ٣٨١-٣٨٢ .

أما القائد الآخر هو أحمد باشا ثالث غزاة المماليك على مصر . تولى منصبه في أغسطس - آب - ١٥٢٤ وسرقت له نفسه المماليك على الفتنة وأمر بأن يضرب باسمه في المسبحة وأن تقرب السكة باسمه واستطاعت حركته . وقد تصدى له الإنكشارية وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى إسطنبول . وكانت مدة ولايته ستة أشهر .

(٢) ذكر عبد التيز محمد الفاي : دور الأكراد في الحطاط على السطاح العربي لمصر لبنان الحكم العثماني بحث لتتوة الفتوة لألفية القاهرة (٢٧ مارس - آذار ١٩٠٧) - نيسان ١٩٠٩ ، مطبعة دار الكتب بالقاهرة ، ج ٢ ، ١٩٧١ ، ص ٦٦٧ - ٧٢٥ .

(٣) انظر خطاب الإمام يحيى إلى وفد طلبة مكة المكرمة بتاريخ ١٨ من شهر شعبان عام ١٢٢٥ الموافق ٢٨ من شهر محرم ١٣٠٧ ، وقد أعلن فيه ولائه وخضوعه للسلطان العثماني ولكنه طالب في ذات الوقت بالاعتراف بوعده الخاص له يحيى . وانظر أيضاً - نصوص اتفاق دهان التي حدد بين الإمام يحيى والقواء أحمد عزت باشا في فترة شهر ذي القعدة -

ب وفاة السلطان سليمان المشرع عام ١٥٦٦ ينتهي العصر الأول من تاريخ الدولة وهو عصرها الذهبي ، بلغت فيه الأوج من التوسع الدولي والقوة الحربية والتوسع الإقليمي المطرد . ويبدأ العصر الثاني وقد تولى فيه الحكم عدد من السلاطين أطلق على عدد كبير منهم « السلاطين الثنابلة » (١) *Les Sultans Peintants* انصرفوا عن مباشرة اختصاصاتهم وانغمسوا في حياة الفنون مع الجوارى القناتات في الحريم السلطاني . وأصبحت الكفة العليا في الدولة لمراكز القوى ، وهي القبائل الإنكشارية ، والحريم السلطاني ، والأخوات الخصيان . وأخلت الدولة تفقد رويداً ورويداً ممتلكاتها في القارات الثلاث . وكانت معاهدة كارلوفيتز *Karlovitz* (٢٦ من يناير كانون ثان - عام ١٦٩٩) أول معاهدة تفرض عليها كنولة منهزمة بعد حرب خاضتها وتنازلت فيها عن أقاليم واسعة كانت تحت الحكم العثماني وتمتد جزءاً من دار الإسلام وانتقلت إلى دار الحرب . فكانت هذه المعاهدة استهلالاً سيقا لقرن الثامن عشر في تاريخ الدولة . وتعاقب فرض معاهدات جائرة عليها . واستطاع اضمحلالها فترة تاهزت المائة والخمسين عاماً لأنها كانت دولة ذات جلور عميقة ودعائم واسعة بحيث لم يكن من السهل أن تخضع هذه الدولة العملاقة في سنوات ذات عدد . وبعد مؤتمر برلين الأوروبي (١٨٧٨) هو بداية النهاية بالنسبة لها إذ تكتلت عليها في هذا المؤتمر وفي خلال السنوات القليلة التي لحقتها الدول الكبرى مثل روسيا ، والنمسا والمجر ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والكيانات السياسية البلقانية التي كانت خاضعة للدولة ونجحت هذه وثلاث في تعزيز أوصال الدولة . واستطاع السلطان عبد الحميد الثاني في ظروف متعاهة في ظللها وقسوتها أن يحافظ على تماسك ما تبقى من الدولة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وأن يتسلك بتقاليدها وعاطفها الإسلامي

- عام ١٣٢٩ الموافق ٢١ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١١ في : دكتور محمد مصطفى سالم تكوين الجوز المحدث بين الإسلام وبين . (١٩٠٤ - ١٩٤٨) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٤٨٩ - ٥٩٧ .
(١) أنظر ص ٩٠٣ - ٩٠٤ في هذه القوسمة .

حتى إذا عزله رجال الطغيان المسمى وبعض الصليبيين عام ١٩٠٩ (١)
انحدروا بالحكم ورجوا بالدولة في منطرات عاجية لتضيق قسملهم في الحكم .
وكانت النتيجة أن سقطت الدولة في أحقاب الحرب العالمية الأولى بعدد هذه
مروم Madron (٣٠ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٨)
ومعاهدة سيفر Sèvres (١٠ من أغسطس - آب - عام ١٩٢٠) .

مدى نجاح الدولة في نشر الإسلام في أوروبا :

ولم تنجح الدولة العثمانية نجاحاً كبيراً في نشر الإسلام بين جميع رعاياها
المسيحيين في ولاياتها الأوروبية لأسباب عارضة عن إرادتها . ومنبسط هذا
الموضوع في شيء من التفصيل في كتابنا القادم بحسب الله وهو « دور الدولة
العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا وموقفها من أهل اللغة » . ولكن النجاح
« المحدود » الذي حققته الدولة في مجال الدعوة الإسلامية كان من حيث نتائجه
وأثاره أكثر بكثير من نجاح الدولة في فتوحاتها العسكرية الإسلامية وفي حشمة
L'Ottomanisation للشعوب المسيحية الأوروبية التي دانت لحكمها (٢)
فإن الفتوحات الإسلامية العثمانية قد انحصرت في القرون الثالثة للقرن السادس
عشر حيث بلغت الدولة أقصى اتساعها الإقليمي في هذا القرن . وأصبحت
الفتوحات الإسلامية العثمانية تاريخياً روى للأجيال المتعاقبة من مجد عسكري
دوى : أما العظمة فكانت تكون معلومة . ولكن تركت الدولة بصمتها قوية
واضحة في مجال نشر الدعوة الإسلامية في أوروبا . فعمل امتداد قرون وتعاقب
عصور ودهور ظلت حاغات إسلامية تعيش إلى اليوم على توى الأرض
الأوروبية التي كانت جزءاً من الممتلكات العثمانية وتشكل على نحو من الأنحاء
أقاليم هامة من « دار الإسلام » . ولم ترض هذه الجماعات الإسلامية عن دينها
بديلاً . وقوتت شئ أنواع القسوط التي بللت لتحويلها إلى المسيحية بعد أن

(١) أنظر الصليبين الثاني والثلاثين والثالث والثلثين بنولان (أراء بحسب م حكم السلطان
عبد الحميد الثاني) في الجزء الثاني من هذه الدراسة .

(٢) أنظر في هذه الدراسة من ص ٢٢١ - ٢٢٧ ٤ ٢٤٠-٢٤٢ .

تحاب النفوذ الإسلامى الميثاقى - المسمى والىامى - من هذه الأقاليم ، وجاءت على أنقاضها دول مسيحية ذات حكومات مسرقة فى تمصها روم القضاء على كل أثر إسلامى تركه الميثاقون وراهم . ولكن ظل الأثر الخفى المبدى الباقى من الحكم الميثاقى فى أوروبا : جماعات إسلامية تعيش إلى الوقت الحاضر فى بلغاريا ، ورومانيا ، وألبانيا^(١) ، واليونان ، ويوضو صلافيا بما كانت تصمه الدولة الأخيرة قبل إنشائها من أقاليم كانت تسمى مصر والجبل الأسود والبوسنة والهرسك فضلا عن بعض الجزر التابعة فى الموضع الشرقى لبحر المتوسط وبحر إيجه وبحر الأرجنيل .

وسوق هنا مثالا يوضح هذه الحقيقة . فقد شهد الأسبوع الأول من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٧٧ أكبر حدث إسلامى دينى وتقافى فى أوروبا ، إذ افتتحت لأول مرة كلية للدراسات الإسلامية فى يوغوسلافيا حيث يعيش فيها اليوم أربعة ملايين مسلم . وستكون هذه الكلية نواة لجامعة إسلامية تدفع بالعمل الإسلامى فى أوروبا خطوات واسعة . واشترك فى افتتاح الكلية ، وقد أقيمت فى مدينة سراجيفو Sarajevo عدد كبير من وفود الدول الإسلامية والجاليات الإسلامية فى أوروبا وأمريكا واشترك مندوب عن الأزهر الشريف تحدث باسم مصر . وتقوم الكلية حالياً بإعداد العلماء والأئمة والوعاظ والمدرسين ومن إليهم من العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية فى أوروبا وبعثاً للجبل الجليل من مسلمى أوروبا بالإسلام وغرس مبادئه فى قلوبهم . وهكذا

(١) أغلقت ألمانيا وكذلك الكتانى والملايد اليهودية وألبانيا منذ أن صاد الحكم الشيوعى هذه البلاد فى الستينيات من القرن العشرين . وكان عددها ٢١٦٩ مسجداً وكنيسة وبيت . وقد تم إغلاقها بإرادة الشعب الألبانى كما جدد فى كليات الرسمية . وقد نص الدستور الألبانى الشخصى على تحرير النشاط للمذهب أى كان نوعه . وفقدت السلطات الشيوعية فى ألبانيا بهم عدد من دور العبادة ، واحتفظت بقلة منها كعلم ثقافة أثرية ، فيما أحادت فتح بقبورها كدور المسارح والمسارح كسكن أو كمسوحات .

نجد أن المسلمين في يوغوسلافيا -- وهم حفنة أولئك الذين احتفظوا بالإسلام إبان الحكم النازي -- عملوا على حفظ التراث الإسلامي وحداسته وتجليته ونشره ، وإيجاد أجيال صاعدة من المسلمين يجمعون إلى الكفاية العلمية والمهنية التي اكتسبوها في المجتمعات الأوروبية الإيمان بالله والثقة في العقيدة والشريعة ويقومون سداً منيعاً في وجه الدعوة التي تقوم بها القاديانية والبهائية في أوروبا ، ويصبحون مؤهلين للقيادة والريادة في كل المجالات الروحية والعلمية والمهنية (١).

والخلاصة أن الوجود الإسلامي النشأ في أوروبا بصفة خاصة قد أوجد موجات من الذعر بين الحكومات والشعوب الأوروبية من هذه الدولة التي كانت العسكرية الخصيصة الأولى البارزة في بيانها والقالية على تصرفاتها . ومحب هذا الذعر فقد دفن عليها ، ومن ثم نشأت في أوروبا حملات إعلامية للتشهير بها . وبمضي الزمن انتقلت الحملات التشهيرية إلى بلاد الشام بوجه خاص ، إذ كانت بيئة صالحة لنمو هذه الحملات بسبب كثرة التنوع البشري والثنوي والديني بها ، وكثافة عدد الميخات التشهيرية بها واعتمادها على تدخل الحكومات الأوروبية وحل نظام الامتيازات الأجنبية . وكانت الدولة قد أسهمت بطريق غير مباشر في تعميق حملات التشهير بها ، إذ أبت بصفة عامة من التقسيات الإدارية التي كانت قائمة أيام دولة المماليك لثراكية ، كما أبت على المصنوعات الإقطاعية . وكانت ذات تأمس شديد . ولم يكن أمراهما يكونون ولاء أو تقديراً للدولة النشأة . وردد المؤرخون والباحثون ورجال السياسة العرب حملات التشهير وأضافوا إليها جنباً .

(١) محمود مهدي ، رسالة بهت بها من يوغوسلافيا بعنوان : أربعة ملايين مسلم في يوغوسلافيا ، ونشرت في جريدة الأهرام ، العدد ٢٢١٩٤ ، الصادر في ١٦ من شهر ذي القعدة ١٣٩٧ الموافق ٢٨ من أكتوبر -- تشرين أول - ١٩٧٧ ، ص ١١ ، بمجموعة الصفحة ١٠٢ .

وبرجىء الحديث عن هذه الحملات إلى أول الجزء الثاني حيث أفردها لها أربعة فصول (١) بعد أن نبحث أولاً بشأه الدولة وخصائصها العامة ومبادئها العليا وحيثياتها الحاكمة ومراكز القوى فيها . فهذه الموضوعات تشكل عناصر أساسية في تاريخ الدولة بما انطوت عليه من مزايا وعيوب ، وما أتاحت من رغبة في التغيير ، أو اتجاه نحو التقشف الموضوعي المتزايد .



الفصل الثاني

نشأة الدولة العمانية

أصل الأتراك العثمانيين :

دخل الأتراك العثمانيون آسيا الصغرى في الثالث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي كقبيلة من القبائل التركية التي كانت ، على فترات متباعدة حيناً ومتقطعة حيناً آخر ، تخرج من مناطق الإستانبول في وسط آسيا متجهة غرباً نحو آسيا الصغرى أو الأناضول .

وتنحصر في التاريخ للسكر العثمانيين روايات أدنى إلى الأساطير منها إلى الحقائق وعلى الرغم من أن المؤرخين استقروا هذه الروايات من الحواريات العمانية القديمة ، فإنهم لا يزالون على خلاف عميق حول هيمتها التاريخية : منهم من يلقى عليها ظلالاً كشيعة من التشكك فيها . ومنهم من يعتبرها حقائق لا تشوبها شائبة من ادتياب تأسيماً على أنها دونت بحمرة أناس هامسوا أحداثها .

وقرر إحدى هذه الروايات أن تلك القبيلة التركية قد أسست سنة ١٢٣٢ ، في أثناء رحلتها في وهاد الأناضول حملة حليفة لملاي الدين الأول (١٢١٩-١٢٣٥) سلطان دولة الروم السلاجقة -- ووطئ عليها أيضاً دولة الأتراك السلاجقة -- فقد حدث أنها شاهدت جيشين يقتتلان ، وأدركت أن أحد الجيشين ليس نساء للجيش الآخر ، فانصرفت للقبيلة إلى جانب الجيش الضعيف الذي كاد يلقى هزيمة محققة . وكان انضمام القبيلة إليه سبباً في انقضاءه . وبعد المركة كانت مفاجأة سارة للقبيلة التركية حين تبين لها أنها فعلت لنصرة بني جلدتها ، وهم الأتراك (٣٤ - دولة العمانية)

السلاجقة الذين كانوا يحاربون فرقة مغرورية من جيش الخان أوكتاي
ابن جاسكيز خان ، وكان قد عهد إليها استكمال فتح آسيا الصغرى .
وتدريجاً لتدخل القبيلة التركية في الحركة القامها علاء الدين الأول سلطان
دولة الأتراك السلاجقة بقعة مترامية من دولته ^(١) التي كانت تحتل دور الاستقلال .
وتدل هذه القصة على الطابع الحربي المميز الذي اضم به أفراد القبيلة التركية ،
لقد خاضوا الحركة لمير مصالحة لهم . وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الألمان
يتصورون هذه القصة من قبل الأساطير التاريخية ، بينما يرى البعض الآخر من
للمؤرخين الإنجليز أن هذه القصة حقيقية لا مراد فيها ، ويسبقون تطبيقاً عليها
بقولهم إن الملقب الحقيقي الذي دفع السلطان علاء الدين الأول إلى منحهم الأرض
أنه لم يرحب في قرارة نفسه بهذه التهمة . فقد أبحث أنها على حظ موثوق من
الشفاعة والخبرة الحربية والكفاية القتالية ، ومن ثم فلم يطمئن إليها ، ولذلك لم
يرغب في إدماج هذه القبيلة في قواته وانتهى بتكثيره إلى منحها تلك الأراضي .
وبهذا الإجراء يخلص من هذه القبيلة من ناحية ، ويشغلها بالحرب - ضد الدولة
الرومانية الشرقية - الدولة البيزنطية - المجاورة لها في بقية من ناحية أخرى .

وفي ذات الوقت ظهر رئيس تلك القبيلة التركية واسمه أوتغرل بلقب « أوج
بكي » أي محافظ الحدود . وكان منح هذا اللقب أمراً جنس مع أحد القبايل
التي درجت عليها الحكومة المركزية في دولة الأتراك السلاجقة ، وهو منح أي
رئيس من رؤساء العشائر بظلم أمره ، ويلحق به عدد من العشائر الصغيرة لقب
محافظ الحدود . وكانت دولة الأتراك السلاجقة تحرص أيضاً حرصاً بالغاً على أن
تعيّن من بين رجالها رئيساً أو عدداً من الرؤساء ، بلقب كل منهم لقباً أكثر رفعة
هو « أوج أمير » أي أمير الحدود .

غير أن أوتغرل رئيس تلك القبيلة التركية كان ذا أطماع سياسية بعيدة ،

(١) كانت هذه القصة فصل للفتنة الصغرى من جبال طومانج Tomanidji

وليس Ewerdi يفتي فيها أفراد القبيلة فصل العبد ، وسهول سر كوه Soğud
يضمون في يومها فترة الفتنة .

فم يفتح بيده المنطقة التي أهلها إياه السلطان علاء الدين الأول ، ولم يفتح بالقلب التي ظن به ، ولم يفتح بحمة المنطقة على الحدود ، بل شرع بهاجم ، باسم السلطان علاء الدين ، ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية - الدولة البيزنطية - في الأناضول ، وبحبح في سياسة التوسع الإقليمي ، فضم إلى المنطقة التي يحكمها مدينة إسكي شهر ^(١) . وقد مات أوتشك من ثلاثة وتسعين عاماً . وكان له أخوه سر كود متراً له ودفن فيها . وحلقه في حكم المنطقة سنة ١٢٩٩ ابنه عيإن الذي سميت باسمه الأمة والدولة . وسرطان ماتت هذه الإمارة حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت لفلانها وولاياتها في آسيا وأوروبا وأفريقيا ، وغبت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدتها التاريخ ومن أشدها بأساً وأزمها جشاً ^(٢) .

(١) يرد اسم هذه المدينة في بعض المصادر والمراجع التاريخية مكتوباً كلمة واحدة : إسكبير . وإسكي معناها في اللغة التركية « قديم » وتدخل هذه اللفظة في أسماء الأماكن . فيقال إسكي شهر بمعنى المدينة القديمة ، وإسكي حصار بمعنى الحصن القديم . وإسكي هيريق في الجزائر القروي من إقليم الأناضول الأوسط ، على نهر يورسون ، وهو فرع من نهر سغوليا . وتحت مدينة واسط وعريضة من مصور التاريخ . وفي الوقت الحاضر تشتهر بأنها ملهى هام للفنانين المبدعين من إسطنبول إلى أهرة ، ومن إسطنبول إلى قونية . كما تشتهر بتأسيسها للحلوة والحلالم الذي يوجد بمحورها .

(٢) ظهرت في سنة ١٩٣٥ دراسة للجمعية بالبنية الفرنسية من نقاد الدولة العثمانية تكلم فيها الأستاذ ٤٤ فولاد كورملي أحد كبار المؤرخين الأتراك حول فيها حالة حديثة على آراء المؤرخ الإنجليزي جيبونز Gibbons الذي يسطر في كتابه تأسيس الإمبراطورية العثمانية *The Foundation of the Ottoman Empire* والذي نشره في سنة ١٩١٦ وخلاصة الدراسة التي انتهى إليها الأستاذ كورملي أن الترك الثنائيين يمتدحون إلى شبة وضعت على الأناضول مع السلاجقة القاضين . وفي أواخر القرن الثالث عشر كان أوتشك من مثلاً من بعده وليس له بعدة سفيرة من عفاثر الحدود تنسب إلى قبيلة قايي ، وكان موطنها إسكي شهر على الحدود التركية البيزنطية . وفي نفس الوقت كان برايت من حدود الأناضول الغربية بعد من أمراء الحدود يقيمون على حدود يزنط كلمة وانهم القرس ، وما كان أكثرها ، وحاولون فيها السلب . وكان من بين أمراء الحدود من استولى على بعض الأصابع كالمات والدين ، ولكن استطاع خيالن في مثل هذه المنطقة وبين هذه القوى المتنافسة أن يؤسس كياناً سياسياً مستقلاً تحتل في الدولة العثمانية . وتعرض هذا المؤرخ التركي إلى معارضة من قبل علماء منها ما هو خالي بالحقائق الثنائية الذين الإسلام ، أو يولون لإدخاله إلى مصور ساعة على أموميها إلى آسيا الصغرى . ويصور في كتابه روح الصلف التركي والرفعة وإسناد

البنانيون يحتفون بالإسلام :

وعلى عهد الأمير عثمان وفي وقت مسكون محمد الوضع الديني والسياسي للأتراك البنانيين ، فقد اعتنق هذا الأمير الدين الإسلامي وتبناه الأتراك البنانيون . وكانت عقيدتهم الدينية قبل ذلك غير واضحة تماماً ، ويحتمل أنهم كانوا في حالة تحول من الوثنية أو من عقائد أخرى إلى الإسلام .

هناك رواية مستمدة من المصالحات البنانية القديمة تشير إلى اللابسات التي أدت إلى اعتناق عثمان الحياة الإسلامية . تقول هذه الرواية إن الأمير عثمان كان يتردد على منزل أحد السادة للسفينة المصطفى في الدراسات الدينية ، واسمه الشيخ أحد بني ، ووظف عليه المراجع العربية « أدب علي » ، وكان يقيم هذا العالم في قرية محاورة لمدينة إسكي شهر . وفي خلال زيارته كان يطلع أخته الفتية واسمها « مال خاتون » فراه حائفاً وظل يدها من والدها ، ولكنه رفض نظراً لما كان هناك من فرق بينه وبين عثمان من الفلحة الاجتماعية ، ولكن عثمان داوم على زيارة

شكل مايمى فيه . سناً بالثبات في هذا ظهور لشكر من تاريخهم . ومن ثم كان محمد القديس على آراء جـوزيل ونهرجه . وقد طبع الأصل التركي لهذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٩٢ بمقدمة المؤلف لم تظهر في الكتاب القرمي ، كما أضاف إلى الملاحظات الحديثة ، وقد تولى الأستاذ الدكتور أحمد محمد سليم أستاذ الدراسات التركية بكلية الآداب بجامعة القاهرة تحرير الكتاب التركي سنة ١٩٦٥ عليه « قيام الدولة العثمانية » ونشر بالقاهرة سنة ١٩٦٧ . ومن المصعب أن نحل كل الآراء التي تحصل بلغاً بقوة الثباتية والتي ودهت في دراسته لسنتين : روح التنافس الشديد ، واعتقاده بأن النتائج التي وصل إليها ليست حاسمة ، فقد سجل عليه كلمة هذه المرة المرة « ومما يمكن من أسرار لابد أن نعرف بأن النتائج التي حصلنا عليها ليست كافية لا كياً ولا كماً ، وبأننا لا تزال جبهتين من أن نكون قد حققنا لتز تأهين الإمكانيات الشافية أو حتى أن نكون قد وسعنا على الشيء » . من ص ٧ من نفس المجلد .

وما يدكر في هذا الصدد أن عهد فؤاد كوبرلي كان من أحوال مصطلح كمال ، استعان به في دعم فكرة التولية التركية الحديثة من طريق كتابة التاريخ على النحو الذي أراد مصطلح كمال من تخليق من المقام الإسلامية كأيدي الإجراءات العثمانية . وقد بينه مصطلح كمال وزير الخارجية في الثلاثينات من القرن العشرين . ويجب ملاحظة أن الخطبة في التاريخ التركي أصبح عهد فؤاد كوبرلي يلقب بأستاذ المثل في تركيا الحديثة .

الشيخ لما سأل فيه من العلم والفضل ، أو لأنه كان يجد مراده وسأوى في التردد على الدار التي تسم القنطرة التي بلغ جبه لها شغل قلبه . وكان الشيخ لا يرفض أن يستضيفه عتبان كما زل في رحابه ، وفي إحدى الزرات دعا عتبان في منزل القبة ورأى في اللدام القدر يلتقي هلالاً من صدر هذا القبة ، ثم تعاوكر في الصبح حتى اكتمل بدرًا ، وعقدت تولري في ظهره . لم خرجت من ظهره شعيرة ضئيلة باسقة واردة للقتال امتدت أحضانها ذات الميرن وفات اليسار وغطت القبايا والقفار غير جبال التوقر والبلقان وطوروس وأطلس . ومن جنود هذه الشعرة انسابت المياه في أنهار الحجلة والخرات والليل والدانوب . ثم هبت عجة رياح قوية حولت أوراق الشجر إلى فصل حبيب بارم وكان على مقبضه خاتم مرمع بالياقوت والزمرد ، وقد أسلكه عتبان بهاسة عندما استيقظ من هذا الإعطاء ، ولا قص على منيفه هذه الرؤيا - وكلن طلاء جأويل الأحلام - بشره بأن أسرة عتبان ستحكم العالم ، ووافق على أن يوجه ابنه . وقام تنفيذ الشيخ بعد قرن عتبان . وبعد ما أسبغ عتبان أمير نيلته شيد نكبة لهذا التلميذ أوقف عليها أوقافاً عظيمة في القرى والأرض الزراعية .

ووجد رواية أخرى ساجدة عاينها ولسكنها غريبة منها ومستقلة أيضاً من الحواريات المنيابة القديمة تقول إن أرطغرل - والله عتبان - تسمى لبة في دار أحد الزهاد المسلمين . وقيل أن بأوى إلى فراشه جاء الزاهد بكتاب ووضه على رءه فساه عتبان عن هذا الكتاب فأجابه بأنه القرآن الكريم ، واحتسب منه عن محتواه ، فقال له صاحب الدار إنه كلام الله أنه الناس على إنسان عهد سنوات لله عليه . وحمل أرطغرل الكتاب وأخذ يقرأه والفتى حتى الصباح ، ثم قام فقرأى ديا يرى التأم كلن ملاكا يبشره بأنه ودوده سيولد قديم جولا بعد جيل على مدى القرون ولأنهم لهذا احترامه القرآن .

ويرى جيرة Giese - وهو أحد المؤرخين الألمان المتخصصين في الدراسات التركية - أوما يطلق عليها التراكيات - أن هاتين الروايتين محاولتان لعدم مشروعية حكم التتانيين لسائر القبائل التركية بأسماء الصغرى بتدخل إلى . وقد

حل المؤرخ التركي الحامر الأستاذ محمد فؤاد كوبرلي حقه عطية على هاتين الروايتين (١).

ومهما يكن من أمر ، فإن سلاتهم الوثيقة بدولة الأتراك السلاجقة في الأناضول - وهي دولة إسلامية - كانت عاملاً هاماً ساعد على اعتناقهم الدين الإسلامي في سرعة وسهولة . وعلى ذلك فقد تمجد الإسلام عقيدة دينية رسمية للأتراك السليانيين من عهد الأمير عثمان ، واصل عثمان في حكمه على مدى إيمان ميق وبساطة في الدين ، وكان متحمساً لمبادئه الدينية ، وأخضع حكمه لشريعة الفناء المسلمين . وكانت العدالة أبرز ما تميزت به في عصره كان يسمح بالظور والنعم . وكان للإسلام أثر كبير في مستقبل السليانيين لا يقل عن الأثر الذي تركه الإسلام في حرب شبه الجزيرة العربية قبل السليانيين بسبعة قرون عند ما بث محمد صلوات الله عليه ، فقد هيا الإسلام للأتراك السليانيين وحدة العقيدة وعام بشور ديني دافع جسامهم جند متحمسين للإسلام . واجتمعت إلى هذه الساطعة الدينية المتأججة روح عسكرية طاغية بحوت تحت حمة بارزة في الأتراك السليانيين . وقد استمدوا هذه الروح العسكرية من ينشهم الأصلية وسهول آسيا ، ثم حمل السلاطين على تصديقها في هوسهم ، فلا تمتهم طوال تاريخهم المعاصر عبر القرون والأدهار السليانيون بطورون أسلوب حياتهم :

ومن ناحية ثانية أظهر الأمير عثمان مقعدة قائمة على وضع النظم الإدارية لإمارته بحيث قطع السليانيون على عهد شوطاً يتبعاً على طريق التحول من نظام القبيلة للتحوّل إلى نظام الإحالة المستقرة مما ساعدها على توليد مركزها وتطورها تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى وإعدادها للعبور الضخم الذي قامت به بعد ذلك . ومن ناحية ثالثة فإن أهم دولتين كانتا في آسيا الصغرى ، وهما الدولة البيزنطية ودولة الأتراك السلاجقة ، كانتا قد وصلتتا إلى حالة إعياء شديد نتيجة الصراع الطويل الذي

(١) محمد فؤاد كوبرلي : أيام الدولة السليانية . ترجمة الدكتور أحمد النجيد سليمان .

خاصته كل منهما ضد الأخرى ، ونتيجة تعرض الدولة البيزنطية للتزؤ اللاتيني ،
ونتيجة تعرض دولة الأتراك السلاجقة للتزؤ للتؤل . فكان في شبه جزيرة
الأناضول فروع سياسي ، وكانت الأوضاع السياسية مهبة لتظهور دولة تملأ هذا
الفراع السياسي على أفاض الدولتين المتداعيتين ، ومن ناحية واحدة فإن نشأة
الإمارة الدنايية في الشمال التزؤ للأناضول على حافة العالم للسيمي - وهو
ما يسمى دار الحرب - وعلى حافة العالم الإسلامي - وهو ما يسمى دار الإسلام^(١) -
قد فرضت عليها سياسة حربية معينة ، ذلك أن هذه الإمارة كانت على الحدود .
والثابت في تاريخ الأناضول أن الإمارات التي نشأت على الحدود كانت أولر نصيباً
في عوامل التزؤ والتطور من إمارات القتل ، وأه لم يكن في استطاعة هذه
الإمارات الساحلية أن تتطور وتندو بنفس السرعة التي تطورت ونمت بها إمارات
الحدود^(٢) . واستطاع الأمير عبا أن يبرز اختصارات عسكرية على البيزنطيين ، وقد
أبدى علاء الدين كيقباد الثالث سلطان دولة الأتراك السلاجقة تقديره العميق
لخدمات عبا فقتله لقب « عبا عازي حصر قري مرزيان عاليجه دشتان شاه »^(٣) ،
أي « حصره عبا عازي ، حارس الحدود ، السال الجاه ، عبا شاه » .

عبا سلطان استقلاله :

وكان من حظ عبا أن أعاد للتؤل سنة ١٢٠٠ على دولة الروم السلاجقة في
آسيا الصغرى ، وحدث ما كل متوقفاً إذ زالت دولة الأتراك السلاجقة ونؤ

(١) يطلق على مثل هذه الفروع في التاريخ الإسلامي لفظ « للتزؤ » .

(٢) من الأمثلة التي توضح هذه الظاهرة السياسية أن إمارة كربيان على الرغم من
أنها كانت تفككياً سياسياً لولاً - صهرت عن التقدم والنؤ حين تحولت إلى إمارة داخلية
طبيجة لا أحاط بها من لوى سياسية جبهة ألامها هذه من الكربيانيين أعسم ونتيجة أيضاً
لتصديق قريمانيس .

(٣) كلمة مرزيان فربية تتكون من (مرز) ومعناها حدم (بان) ومعناها حارس ،
وعكفاً يكون معنى الكلمة كليها حارس أو عاقل الحدود - أما (عاليجه) فكلمة تركية
معناها عالي الجاه أو سلب المقام المرتفع . وأما (شاه) فهي لفظة فارسية ومعناها عامل .

السلطان علاء الدين كيتباد الثالث سنة ١٣٠٧ ، وأعلن مثلي استقلاله مقتدياً
 بنبیره من الأمراء الذين بلغ عددهم ثلاثة عشر أميراً^(١) أسس كل منهم حكومة
 مستقلة على أخصاص دولة الروم السلاجقة أو الأتراك السلاجقة . وأبدى مثلي اهتماماً
 صريحاً بدعم الجيش وتنظيم الحكومة ، وتفتح بشهرة مريضة بين معاصريه من
 الأمراء واعتبر مثلي المؤسس الأول للدولة الصنانية . وقد نسبت للدولة والأمة
 إليه^(٢) قسماً باسمه كما سبق أن ذكرنا . ويقال إنه اتخذ لنفسه لقب سلطان، بينما
 يرى البعض أن ابنه أوردجان كان أول من تلقب بهذا اللقب .

الزواج من الأجنبيةات :

أيقن مثلي أن عشيرته التركية تتعداها التتليل لن تستطيع بمفردها تأمين
 الدولة التي تطمح إلى تكوينها تحت الأشراف مهنية الحجاب . فرسم سياسته على
 على أحاسن معاصرة الدول أو السكيات السياسية المجاورة أو الخاخة ، واستقدام
 الرقيق بمختلف الوسائل من شتى البلدان ، واستخدام التامرين الذين تسببهم
 الشهرة وللنام الكثيرة في ميادين القتال ، فاختار مثلي لنفسه روحاً مسيحية
 من قبطيا ، ورضع سيده يونانية مسيحية رائدة الجبال زوجة لإبنه أوردجان كما
 سنرى في موطن قائم . وهكذا رى أن اقتران السلاطين بالأجنبيات رائج نشوء
 الإمارة ثم السلطنة .

وقد حل بعض الباحثين على رواج سلاطين الدولة الصنانية من الأجنبيةات ،
 واعتبروا هذه الزيجات من أسباب اضمحلال دولة الصنانية وضعفها . والواقع أن
 الزوجة الأجنبيةة لم تنس قط وطنها الأصل أيأ كان : الروسية أو جمهورية البندنية
 أو غيرها ، ولم تنس قوميتها السابقة ، فاستتلت وضعها في القصر السلطاني بصلتها
 باش قادين ، أو كلزكي Kanéki ، أو كلزكي قادين Kanéki Kadim^(٣) .

(١) تذكر بعض المراجع أن عدد هؤلاء الأمراء كان أحد عشر أميراً .

(٢) الصفة من مثلي باللغة التركية « غياض » . وسما في اللغة العربية « مثلي » .

(٣) باش قادين ، لقب يطلق على السلطان الأول وهو والده أكبر أولاد السلطان .

أما كلزكي فلق يطلق على أمهات أبناء السلطان، بينما تلقب أمهات بناته كلزكي قادين . وكان
 السلطان يلتزم بحكم العريسة فلا يتعدى عدد زوجاته الأربع وطلاق عليهن « باش لاديسر » .

وامتدعت اهتماماً عميقاً بخدمة مصلحة وطنها الأمل على حساب مصلحة الدولة المبنية . وسرى في مواطن كثيرة قادمة في هذه الدراسة أمانة عديدة لازدواجية الولاء أو بعبارة أكثر دقة تضارب الولاء وتضارب المصالح وللمهم أن أولئك الباحثين القتين حلوا على تلك الزيجات ذهبوا إلى أن مساوئها لم تظهر مريماً ، لأن الدولة كانت في عتوان قوتها . ولما أخذت الدولة في الضعف بدت الممان أخطار هذه الزيجات . وفي هذا الصدد يقول أحد أولئك الباحثين « لا ريب في أن الملل الفعالة التي تسرى إلى الأجسام في مقتبل العمر ، وإبان اشتداد الصحة ، قد لا تظهر علاماتها في عهد الشباب والصحة ، بل يتأخر ظهورها إلى أن تصف للناقة مد من السكوة . ومن هذا القليل ما أصاب الإمبراطورية العثمانية من جراء نهات السلاطين على الزواج من الأخريات والعسرى حين ^(١) » ثم يود هذا الباحث إلى التفريق بين نوعين من الزيجات فيقول « إن المؤمنين الفاضلين من آل عثمان ، انحازوا الزواج من الأخريات فناية سياسية ، غير أن القين أتوا من بينهم انحصرت غايتهم في هذا الزواج ، على انتقاء المستويات من الجوارى والمرارى » ويختتم تعليقه قائلاً إن السلاطين العثمانيين قد متوا بحكم المخطيات ^(٢) .

عثمان يوسف وقمة بلاده

أحمد عثمان من ميخائيل ذى النخبة للفرجة Michael Fork Beard — وهو برعلى مرتد عن المسيحية — نائباً له في ميادين الحرب . ومضى عثمان يوسف وقمة بلاده . وكان مسرح نشاطه الحربى مقصوداً على مقاطعة بيلينيا Bithynia إذ أمرته أطرافها المالية من وسائل القناع الإمبراطورى على شن الإعلاوات المتطاغة على أراضي الدولة البيرظلية . وقد قام بهذه العمليات الحربية بمقتضى أمراً في خدمة السلطان المخبوق للسلم علاء الدين كيهناد الثالث ، ثم

(١) محمد جميل وهم : تلخنة التاريخ العثمانى . أسباب اصطلاح الإمبراطورية العثمانية وزوالها . بيروت ، ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م ، ص ١١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢ — ١٤ .

بصلته - بعد سنة ١٣٠٧ م - أميراً مستقلاً بهذه الإمارة تمام الاستقلال ثم سلطاناً عليها .

وعلى هذا النحو مضى عثمان يوسع دفة بلاده . وفي سنة ١٣٠٨ وبعد وفاة السلطان علاء الدين الثالث استولى عثمان على قلعة حلك حصار ، وباستيلائه عليها أطلق السبائون على البوسفور ، لأن هذه القلعة كانت آسراً لحجز أمام رحب السبائين في شبه الجزيرة الضيقة التي تحده بين ميوميديا والبحر الأسود والتي تكون الزكن الشبلي الغربي من شبه جزيرة الأناضول

وفي نفس السنة سيطر السبائون على الطريق المائي الموصل بين القسطنطينية وبيروسة بعد أن استولوا على جزيرة كالوليني Kalolimni التي تقع في بحر مرمرية على مقربة من خليج ميوميديا Miodania

وسقطت في أيدي السبائين أيضاً قلعة تريكوكا Tricoon وطلق عليها السبائون هودج حصار ، وكانت هذه القلعة تشرف على المواصلات بين نيقيا وميوميديا .

وسمع عثمان وهو على فراش الموت سنة ١٣٣٦ بفتح مدينة بيروسة (١)

(١) يطلق السبائون عليها أيضاً بيروسة ، وأصبح لها شأن كبير في العالم الإسلامي منذ أن أخذها أورخان بن عثمان مغراً لمؤثر فيها أول سكة لسياسة لها قبتها وهي الآلية سنة ١٣٣٧ (١٣٣٧ هـ) . ولما تمت القسطنطينية وأخذها السلطان عبد الله حارساً لمدونة صدرت الأوامر لملك سكالديروسة بالتوجه إلى العاصمة الجديدة . على أن بيروسة استقلت من السماع دفة الإمبراطورية إذ خلت مركزاً لتجارة الحملات العسكرية في العراق . والأهمية الاقتصادية لمدنة بيروسة تنويع أهميتها السياسية في التاريخ السبائي ، من سمرقند لأفكار الإسلامية إلى العالم للبحر . وازداد وصول القوافل العربي الفارسي إلى سولديروسة ونمت هذه القوافل إلى حد ما من أسواقها القديمة مثل طرابزون وحلب . وحدثت في سنة ١٤٠٠ مركزاً من أهم المراكز الدولية لتجارة البحر وسنائه وتفتح سماء البحر وتظهر في بيروسة من أسباب الازدهار الاقتصادي الذي تمت به المدينة . وكانت كثرة الخانات - المراكز والمؤسسات التجارية - في المدينة إلى القرن الخامس عشر الميلادي وانقسم البحري حليلاً مادياً على حجم النشاط التجاري فيها . وبيروسة عاصمة ولاية حلاوتدكار .

Brouma وكان ابنه أوروخان على رأس القوات التي زحفت عليها ، وأوصى عثمان بأن تغفل رفاته إلى يروسة في كنيسة القصر التي حولت فوراً إلى مسجد ، وأصبحت يروسة عاصمة جديدة للأتراك السبانيين في سلسلة المواسم التي أخذوا إليها عبر تاريخهم . وشيد السلاطين السبانيون الأوائل في هذه المدينة عدداً من المساجد الرائعة ، نذكر منها على سبيل المثال ثلاثة مساجد ، هي : يشيل جامع ، أولو جامع ، ويهدم .

نخلص من هذا كله إلى أن التصولات الحربية التي قام بها السبانيون في هذه المرحلة الأولى من تاريخهم كانت تحتاج عدة عوامل ، هي : الروح الدينية الحياشة ، والمناخية العسكرية الصارمة ، والفرق الجغرافي لإيمانهم ، والأوضاع السياسية في المنطقة المحيطة بهم . وكانت هذه التصولات الحربية بداية لسياسة حربية نشيطة حرصوا على الالتزام بها ، وانعسجوا في بقاع آسيا وأوروبا وأمريكا عراة قاتمين .

نظرة أوروبية إلى الأتراك السبانيين :

ومعذ أن سر المسلمون بقيادة طارق بن زياد بوغاز جبل طارق سنة ٧١١ م واجتاحوا بلاد الأندلس في القرن الثامن الميلادي لم يتعرض المسيحية لثل هذا الخطر الداهم إلا عندما وعت أوروبا ابتداء من القرن الخامس عشر يزحج الأتراك السبانيين على بلاد البلقان وتوغلهم فيها ثم اتجههم إلى قلب أوروبا . وقد نظرت أوروبا إلى الفتوح السبانية على أنها فتوح إسلامية ، وكان الأتراك السبانيون - في تقدير أوروبا - هم الرمز الحلي للجسد للإسلام ، واحتل الأمر على الأوروبيين في ذلك الوقت مكاناً يظفون على المسلم لفظ تركي ، وحلوا بين الغرب والأتراك . وكان هذا الخلط في أذهانهم نتيجة طبيعية . فقد كانت فتوح السبانيين في البلقان ووسط أوروبا فتوحاً إسلامية ، وباسم الإسلام استولى السبانيون على جزر البحر المتوسط التي كانت قواعد عسكرية صليبية ، أو ما يسمى بالتمبير العسكري الحديث جيواً صليبية . وباسم الإسلام فتح السلطان محمد الثاني

القسطنطينية ، وباسم الإسلام ناد السلطان سليمان المشرح^(١) ست عشرة سنة عسكرية في جوف أوروبا ووصل بها إلى أحوال قبيحة ، وباسم الإسلام والاقتدار للإسلام تقدم الشبان يونس لمساعدة العرب في شمال أفريقيا في كفاحهم ضد الإسبان ، ودكوا القواعد العسكرية الأوروبية أو الجيوب الصليبية التي أقامها الإسبان على امتداد الساحل الشمالي لأفريقيا لتكون محطات عسكرية صليبية تأوي إليها السفن الإسبانية وعبرها في مراعيها من القوتى الإسلامية فأمدى الشبان يونس خدمات جليلة لعرب شمال أفريقيا ، إذ حفظ الأتراك الشبان يونس لهم عروبتهم وإسلامهم . وكان إذا اعتنى أحد المسيحيين الذين الإسلامى قاتل من عرقاته الأوروبيون المسيحيون وعشيرته إنه ضار تركياً ، ولم يقولوا عنه إنه أصبح مسلماً حتى إذا كان اعتناقه الإسلام قد حدث في غاس أو أسفيان .

"It is curious that while in Turkey the word Turk almost went out of use, in the West it came to be a synonym for Muslim, and a Western convert to Islam was said to have 'turned Turk', even when the conversion took place in Fez or Safabau". (2)

وعلى الرغم من أن كلمة تركى كان قد بطل استخدامها في الدولة إلا أن هذه

(١) يطلق جمهرة الباحثين على هذا السلطان عدة ألقاب ويطلقون على المشرح . ولكن كلمة [المشرح] أكثر دقة من حيث الصياغة اللغوية ، لأن هذا السلطان قد أدام الدعوة العثمانية في وضع التدريجات وعرض الألف التفاصيل عند وضع أى شرح . نعم تذكر لغيره تآخر سنة ولا كلمة (لا تربط لها ، فقامت جلسة مائة . كما أن هناك فرادى من المصلحين : المشرح والقوتى وضع من قسم السلطات في الدولة إلى ثلاث سلطات ، السلطة التدريسية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية . ويوح أن أحد الباحثين القدامى قد أطلق من جهالة ودون تمحيص أو ترويض القاتل على سليمان ، وجاء الباحثون بعد ذلك وفقاً لتقليد الأعمى فالتقوا عليه سؤلين القاتل ، والتصقت به عدد التسمية كما انحصرت أدمان الأجيال للضلالة . ويذكر بلاك أن التراجم الفرنسية والإنجليزية يطلق عليه القلم الصحيحة وهي المشرح على هذا النحو : *Soliman Le Législateur*.

Soliman, The Legislator.
(2) Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey*, Second Edition, London, 1962, p. 12.

السكك كانت مرادفة لكلمة مسلم في أذهان الأوروبيين الغربيين^(١). وهكذا زالت فكرة الروية من أذهان الأوروبيين أو كانت، وحولت عملها فكرة الإسلام في عمومها نظراً لقوة الأتراك الشماليين بعد أن احتل مشعل الإسلام إلى سواحلهم القوية. ولم تعد الروية حيز في أوروبا سوى ذكريات بعيدة ترجع إلى ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية والفتوح الأولى للمسلمين العرب والمسلمة العربية على عهد الخلفاء الراشدين والمؤلفين الأموية والباسية، وهي ذكريات تصلح لكي تكون موضوعات علمية للدراسات التاريخية مستفيدة بعد أن ازوى العرب من ميادين السياسة الدولية والاقتصاد المالي وظهر حصرهم عن إقامة كيان دولي خاص بهم قائم بذاته يجمع شتاتهم وسط التيارات والتنافس والساومات الدولية في مطلع السور الحديثة^(٢).

وفي ضوء هذا الرأي لمقى استقر في أذهان الأوروبيين عن الأتراك الشماليين واعتبروا أي نصر عسكري تحقه القوات الشمالية سواء في البر أو البحر إنعاماً على مصر للإسلام وجزعة للمسيحية. وتأسيساً على هذه النظرة الأوروبية إلى الأتراك الشماليين فإن الحالات الدولية التي تكونت ضد الدولة الشمالية عبر تاريخها الخافض كانت في حقيقتها وحداها محالفاً صليبية ضد الإسلام أمثلها روح صليبية

(١) استحدثت لأول مرة وصلة رسمية كلفا تركيا وتركيا من الدولة والمواضع منذ إعلان النظام الجمهوري في تركيا سنة ١٩٢٣.

انظر المرجع السابق ص ٤.

(٢) الدكتور محمد بدیع شريف وزكي المجلسي وأحد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة. من مطبوعات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية. الناشر مكتبة الأعلى المصرية بالقاهرة. لم تذكر سنة الطبع ص ١٩٢.

وله أجاد الدكتور عزت نصر الفصيلي القدير كتبها في هذا الكتاب وحدا الثالث والسادس في كتاب جديد بعنوان « دراسات في تاريخ العرب الحديث » وقد ضم هذا الكتاب، فضلاً عن مدين القليلين، دراسات في تاريخ العرب الحديث، الأولى عن « القسم الإداري السورية في العهد العثماني »، والثانية عن « حقوق وخصائص القرن التاسع عشر »، وأصاب إلى هذا الكتاب دراسات جديدة في الأولى سمات إقليمية بعنوان « المائدة الجزائرية في السياسة الدولية من تأسيس الثيابة إلى سنة ١٨٣٠ » والثانية بعنوان « العالم العربي في تاريخ القضية الفلسطينية ».

ولقد تولت « النهضة العربية العلمية والنصر » في بحث نصر هذا الكتاب سنة ١٩٧٠

ووجهتها روح سلبية. وعلى ذلك فإن الحروب الصليبية التي شهدتها الشرق الإسلامي لم تكن يسقط حكا آخر معقل للصليبيين في يد المسلمين حتى عهد السلطان خليل بن قلاوون في الثامن عشر من مايو ١٢٩١، بل استمرت متجددة متقطعة في نفوس الأوروبيين في العصور الحديثة وإن اختلفت مياديقها وشخصياتها والدول التي شاركت فيها والأسلحة التي استعملت فيها. وسنقرض لهذه النقطة عند الكلام في مواطن فادحة على خصائص الحروب الصليبية في العصور الحديثة. ومن ناحية أخرى فإن الاتصارات العسكرية الراهنة التي أحرزها الأتراك الضابطون على الأوروبيين قد أضحت عليهم حلة من الحديد وأرجاء العالم الإسلامي، ونظر المسلمون في مشرق الأرض وسطريها إلى القوة الشامية على أنها دولة الإسلام الكبرى يستظلون بظلمها للظليل، ونظروا إلى السلطان الشامي وهو بمحوس الحروب تبعاً ضد هول الأوروبيين على أنه الأمل الرئوي في إعادة الجهد العابر للإسلام. فسكان عواطف المسلمين وآمالهم متمكنة بالدولة الثانية وعالمها بصفتها حليلة وسلطاناً، ولم تكن الساطعة القومية قد وجدت بعد في عوس الشعوب الإسلامية في ذلك الوقت المسمى من العصور الحديثة. وكانت الوثنية القبلية هي التي رطت بروود وثق بين الدولة الثانية والشعوب الإسلامية سواء التي دامت لحكمها أو ظلت بمنأى من سيطرتها.

تأمل جس المؤرخين الأوروبيين :

ويبدو بعض المؤرخين الأوروبيين الأسف المبين لأنه حين استحصل خطر الأتراك الشانين على وسط أوروبا في شتل شافل عن هذا الخطر الإسلامي التي أحقق بها، واشتلت على بكرة أيها - أباطرة وملوكا وأمراء وشعوباً - بالمرأع الدين للدين بين أنصار الكاثوليكية وأنصار الحركة الوثنية وما تفرع عن الحركة الأخيرة من مذاهب، فأصبح الأوروبيون في ذلك الوقت المسمى طرائق قديماً، واشتلت بينهم حروب خضت أرض أوروبا بالهباء. وكان الزاوج في نظر هذا الفريق من المؤرخين أن يسر نسقط شطوط النعاع الأوروبية في

أبدى المثانيين عن وقف الصراع الديني للذهبي فقص القول الأوروبية كتلة واحدة وفي صف واحد كالبيتين للرصوص فهو خطر هذا الصلاق التركي التي داهمها . وقد قلنا هذا الفريق من المؤرخين في اللتامين المزوين أن المشروعات المائية كانت في القرن السادس عشر بلقنات هي « المونة » *La Mode* الشائعة في المياسة الدولية . وقد تكررت ظاهرة إعلامية في أثناء الحروب الإيطالية التي نشبت بين فرنسا وإسبانيا واستطاعت تحسناً وستين سنة (١٤٩٤ - ١٥٥٩)^(١) . كان لونسوا الأول ملك فرنسا وشارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة جلفسان حياً وهاجراً حيناً آخر بمشروعات سلبية تسبب إجلال المثانيين عن ممتلكاتهم في أوروبا وعزو إسبانيول وطرد الأتراك المثانيين منها . وقد شهد القرن السادس عشر عمليات سلبية ضد الدولة الثانية وحسبنا أن نشر على واحدة منها على سبيل المثال ، وهي الحملة التي عقدت في سنة ١٥٣٨ بين القابرية وإسبانيا وجمهورية البندقية حين زلت القوات المثانية في أوتراست *Otrante* في إيطاليا^(٢) . وقد استطاع الأسطول الثاني تحميم الأساطيل المتصاعدة ضد في مونة برشيزا *Pescheria* جنوب جزيرة كورفو .

نخلص من هذه الإشارة السريعة لتعامل بعض المؤرخين الأوروبيين إلى أن الأتراك المثانيين واجهوا تكتلات دولية سلبية في القرن السادس عشر ، كما واجهوا أمثال هذه التكتلات من قبل ومن بعد هذا القرن . ولعل الرأي الذي يبداه معظم المؤرخين الأوروبيين يعني وراح محاولة لتقليل من شأن الانقسامات

(١) أظن مرشحاً لهذه الحروب الإيطالية في سلفط مرحاحنا :

دكتور عبد الرزاق عبد الفتاوى : أوروبا في مطلع السور الحديثة - الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة - مارس ١٣٩٦ - ٢٩٩٠ .

(٢) هي مدينة بحرية جنوب إيطاليا ، تقع في إقليم بريف . بهذا الاسم على مقربة من مضيق أوتراست الذي يصل بين البحر الأديريكي والبحر الأيوني ، كما أن إقليم أوتراست يعكس كسب الحذاء الإيطالي *le talon de la botte italienne* .

التي حققها الأتراك العثمانيون براً وبحراً ، أو لتجريد الهزائم التي زلت بالشعوب الأوروبية ، وهو على أي الحالتين يسكتف من روعة سلبية لازال كلمة مستعرة في نفوس فريق من المؤرخين الأوروبيين في القرن العشرين . ويبدو أنهم على ما حدث في القرن السادس عشر كان إبتهاجم للوقت السلي الذي أتخله الأتراك العثمانيون في القرن السابع عشر حين اندلعت في أوروبا حرب دينية طاحنة بين الدول الكاثوليكية والدول البروتستانتية هي حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨) ، إذ لم ينهز الأتراك العثمانيون هذه الفرصة للاقتصاص مرة أخرى على وسط أوروبا ثم التوغل في غربيها ، وكانت القوة العثمانية تمر في أثناء هذه الحرب بقوة منصف أساليبها بالشلل العسكري .

الفصل الثالث

الخصائص العامة

للدولة العثمانية (١)

أولاً : دولة عسكرية

تجسدت في الدولة العثمانية مجموعة فريدة من الخصائص العامة ، نذكر منها ما يتصل اتصالاً مباشراً بموضوع هذه الدراسة . كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية ، وتبوقراطية *un état ibéocratique* أى دبلية ، وطلية ، وذات حكم مطلق ، وطبقية ، وإقطاعية من نوع خاص .

والحق أن العسكرية الصارمة كانت الخصصة الأولى للدولة . وقد طبعت هذه العسكرية أخلاق العثمانيين وطبعت تصرفات الدولة بل وسياستها العليا بالطابع العسكري الضعيف . ولم تكن الزعة الحربية لدى العثمانيين زعة طائفة ، بل كانت زعة أسية استمدوها من يتيمهم الأولى في أواسط آسيا قبل أن يتجهوا إلى آسيا الصغرى . وقد هزز هذه الزعة الحربية للوضع الجغرافي لإمارتهم في شبه جزيرة الأناضول حيث أحاطت بالعثمانيين كيانات سياسية كن بستانها مسيحياً والبعض الآخر إسلامياً . وكانت العلاقات بين العثمانيين وهذه الكيانات السياسية علاقات صداقية في معظم الفترات ، إذ قامت الإمارة العثمانية — كما سن أن ذكرنا — على سياسة التوسع الإقليمي في شتى الاتجاهات ، ومن ثم اضطرت جبهة العثمانيين بالسبنة العسكرية ، وعلى ذلك فإن الحياة العسكرية بكل ما تطوى عليه من معاني النظام والعزيمة والشجاعة واسترخاس اللوت والبطاعة الممياء كانت مصاحبة لنشأة إمارتهم . واستمروا العثمانيون هذه الحياة ، فلتصقت بهم والتصقوا بها عبر العصور والأدوار .

كان الشعب الشباني مدبراً للحرب، مطواعاً للسلطين ، نظر إلى الحرب على أنها واجبه الأول . واستأثر الجيش بالكافة الأولى من عناية السلطين ، ولذلك كان الجيش الشباني يتميز بالتنظيم العسكري الصارم والتدريب الدقيق للطويل، والتماد الوفير وتنوع الأسلحة من مشاة وفرسان ومدفعية . وكان سلاح اللصبة فتاً كبيراً رهيباً لكل الشبانين المتصالحات ساحقة وخطيفة على أعدائهم ، وبخاصة عندما كان هؤلاء الأعداء يعتمدون اعتماداً أساسياً على سلاح الفرسان .

كان المبدأ الأساسي للدولة الشبانية هو أنها بدأت بإمارة عزلة بحاريتين ، فالتفت رعايتها وتطورت إلى إمبراطورية شاسعة الأرجاء ، ولكنها تلتزم أولاً وعجل كل شيء بنفس المبدأ لا تحيد عنه ، وهو أن الدولة قاعدة لجيش يجب أن تصغر البلاد في خدمته ، وفي تزويده بالتقوى البشرية واللادية ، وبشر التفتة الروحية بين أفرادها ، وهذا المبدأ هو الذي دأب به الأتراك الشبانين ، وكانوا لا يبتزون عنه حوالاً .

وشيفتان للجيش :

وفضلاً عن ذلك جاءت الدولة الشبانية للجيش وهيتين : الحرب والحكم . فهي تعتمد على الجيش ولدت السلم كما هو حدثها زمن الحرب . ويميل في هذا الصدد إلى الجيش الشباني كان بمثابة حملة تمتد على أحد وجهيها كفة الحرب ، وتنتشر على الوجه الآخر كفة الحكم . وفي ضوء هذا الاختصاص التثنائي للجيش الشباني كان العسكريون في الدولة لا يشملون للعاسب العسكرية تحجب ، بل كانوا مشمولون أيضاً المالية المعطى من العاسب للدنية القيادية وما دونها ما عدا متعصب القضاء والوظائف المدنية .

وفي ظل هذه النظرة مدت الدولة الاختصاص التثنائي للجيش إلى الولايات الشبانية . وهاتان الهمتان — الحرب والحكم — التان حشاً من اختصاص الجيش الشباني قد ارتبطتا ببعضهما بعضاً أشد الارتباط . ومن هنا كانت سيطرة الجيش

على أحزمة الحكم وعلى السالبيه السطى من شق للطاعات ظاهرة واضحه فى تاريخ الدولة المنيانية .

يقول للؤرخ الإنجليزى أدولف تويبي Arnold Toynbee إن المنيانيين يستمدون طريقتهم فى حكم الشعوب التى دانت لهم من واقع البيئة الأولى التى نشأ فيها هؤلاء المنيانيون، وهى بيئة البرارى فى أواسط آسيا والتى تسمى أيضاً أراضى الإغتبس Steppes Land ، فالسلطان المنيانى كان يمارس حكم تلك الشعوب كما كان المنيانى يمارس دعى اللاتية فى أراضى الإغتبس أو البرارى . ويقول هذا اللؤرخ إن عمادة الرعى كانت تتكون من ثلاثة عناصر : الرامى واللأشيه وكتب الحراسة . فالسلطان - فى رأى هذا اللؤرخ - هو الرامى ، أما اللأشيه فهى الشعوب التى خضعت للدولة ، أما كتب الحراسة فهو الجيش المنيانى^(١) .

وفى العروب المدينة للفلاحة التى غاضها المنيانيون فى أوروبا وبخاصة فى القرن السادس عشر كان للراقيون المسكرويون والسياسيون الأوروبيون يذهلون للمستوى الرابع الذى بلغه الجيش المنيانى تسليحاً وتدريباً وتنظيماً . وقد سجدوا آراءهم عن عظمة الجيش فى تقارير يشتملونها إلى حكوماتهم . وقد كرمها على سبيل المثال ما كتبه بوسميك Bonbecq السير النمساوى فى إستانبول عام ١٥٥٤م، وقد هالته الفروق الصارخة بين الجيش المنيانى والقوات المسلحة للدولة الرومانية المقدسة . وقال إن دهشة بالغة تخفيه حين يقد المقارنات بينهما، ثم يسكرى النتائج التى يسر عنها الزحف المسكرى المنيانى على أوروبا فتروعه هذه النتائج . وكان مما قاله إن هاتين الدولتين كانتا تفتلن فى مواجهة عسكرية ومع الاشتباك السلى بينهما . وفى جانب توجد الدولة المنيانية وهى إمبراطورية عظيمة قوية على درجة كبيرة من الثراء، تحشد جيوشاً جرارة تسودها روح عسكرية عالية . وأفراد هذا الجيش مدبرون على الحرب يتعاونون بالمصر والنظم والأعناد والتيفظ . وفى جانب آخر

(١) Toynbee Arnold I: A Study of History. London, 1945, Vol- III. pp. 22-28.

توحد الدولة الرومانية القديمة ، ويصف وجودها بالإغراق في الترف ، والليل إلى العناد ، والشاكة والاستخفاف بالنظام وحسب الشهوات من اللطافة والنعارة والوجود والإصرار في الأكل . ويخلص هذا المبعوث النمساوي من مقارناته إلى القول بأن النمانيين قد أعدوا للتزو ومحقق الاتصافات ، أما حدود الإمبراطورية الرومانية المتخفة فقد أعدوا لتحليل التزام^(١) . وهذه شهادة لها قيمتها من عدة نواح : لأنها صادرة عن رجل صامس ، ولا يمكن أن يحسف بالتحيز النمانيين ، ولأنه رجل عرف بدراساته الدقيقة في تاريخ الأراك النمانيين ، وهي دراسات تقوم على المشاهدة والاتصالات الشخصية برجال الدولة النمانية^(٢) .

وهناك أستاذ أمريكي — يسمى ليبر Lybber — توفر على دراسة النظم النمانية يقول إن الجيش النماني كان يجمع بين أفراد جميعاً شهور اقواله العميق للسلطان . وإذا صدرت الأوامر باستدعاء الجيش لحق عسكري كبرى اجتمع الجيش على بكرة أبيه حول السلطان ، وفي مسيرة الجيش وفي مهاجمة المعسكرات وفي خوضه للمارك كل كل فرد في فرق الجيش يأخذ مكانه بأوامر تصدر إليه من السلطان . وكان السلطان أيضاً هو الممرور الرئيس الذي ينظم جميع عمليات التشكيل التي تتم في المعركة ، والشكل يدين له بالولاء التام جسداً ومثلاً وروحاً .

(1) When I compare the difference between their soldiers and ours I stand amazed to think what will be the event. For on their side there is a mighty strong and wealthy Empire, great armies, experience in war, a veteran soldiery, a long series of victories, patience in toil, concord, discipline, frugality and vigilance. On our side there is public want, private luxury, soldiers refractory, commanders covetous, a contempt of discipline, licentiousness, rashness, drunkenness, gluttony; and what is worst of all, they are used to conquer, we to be conquered". see Hubbard G. E's The Day of the Crescent. p. 85.

(٢) من مؤلفات هذا السير النمساوي نذكر :

a) Legationis turcicae epistolae. Leyde, 1633.

b) Opera omnia quae exstant. Bala, 1640.

The Sultan was commander-in-chief of the entire army, standing, feudal, and irregular. When the army was summoned for a great campaign, it gathered about him; on the march and in campaign, every body of troops had its place with reference to him; in formation of battle, he was the central point about which the whole vast display was organized. When the army was assembled, and then only, the Sultan stood forth visibly and palpably as the head and center of the ruling institution and of the Ottoman Nation upon which it rested. His kullar ⁽¹⁾ were gathered about him in devotion of body and soul, they were going forth under his leadership against the infidel or the heretic. . . . They marched, encamped and fought under his eye and command, they formed an honored and privileged nucleus in the midst of a vast, loyal, and ambitious national army. (2)

الأسطول:

وعلى الرغم من أن السلاطين لم يكونوا رجال بحر و كانوا يهيئون أول الأمر ركوب البحار إلا أنهم سرعان ما أدركوا أهمية السفن الحربية في المحافظة على ممتلكاتهم السعيدة وضم مزيد من الممتلكات، ومن ثم أنشأوا الأسطول البحري لتنازع الدول التي كانت تعتمد على السلاح البحري مثل الدولة الرومانية للشرقية وجمهورية البندقية وجمهورية جنوة وغيرها . وسفرود في موطن قادم في هسنة الدراسة فصلا القوات المسلحة الثمانية بحسبها الجيش والأسطول

(١) كلمة Kullar التي وردت في النص الإنجليزي كلمة تركية هي لولاء وسنما
ميد وهي جمع قول Kul أو Kull أي عبد .

(2) Albart Howe Lybyer, The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent, Harvard University Press. 1913. pp. 109-110.

ثانياً : دولة دينية

والدولة الثانية دولة دينية . ويضمد بهذه المبالغة الطابع الديني الإسلامي الذي اتسمت به تسمياتها ومسلم تصرفاتها .

كان للهيئة الإسلامية في الدولة وضع متعرف به ومركز مرموق . وكان يطلق على رئيسها الفتى أو مفتى إستانبول ، ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم شيخ الإسلام . وكانت الهيئات القضائية والمحيطات ذات الطابع أو النشاط الديني تخضع للدولة . وكان السلاطين حريصين على تدعيم سلطته ويسمون على استقلالها كما حاربهم أمر أو اندموا على مشروع خطير . كان الفتى يسد نفوى تميز الحروب التي تخوضها الدولة دفاعاً أو هجومياً ، وعقد الصلح وغير ذلك من الأحداث الجسام التي واجهتها الدولة عبر تاريخها الطويل ، وكانت الدولة تهتم اهتماماً بالغاً بفكر الصحبة الروحية بين أفراد القوات المسلحة وإثارة عاطفتهم الدينية ومولاً إلى « تسخين » الجلود روحياً قبل خوض المارك .

للمسجد الكبير :

وكان من مظاهر الطابع الديني التي اتسمت به الدولة الثانية العناية الفائقة التي أبدتها السلاطين بإنشاء العديد من المساجد الكبرى التي غدت رمزاً محسناً ليس للملوك الثاني وما يقته من تطور حيث ظهر أثر الفن البيزنطي فيه . ونشير هنا إلى أن السلطان عبد الناصر لم يقتع تحويل كاتدرائية القديسة سمونيا إلى مسجد حتى فتح مدينة القسطنطينية ، بل اعتم بفناء مسجد جديد في قلب العاصمة بعد أن أطلق عليها اسم إستانبول . وأقام للمسجد الجديد على أنقاض الكنيسة الرسولية التي كانت مستخدمة في وقت سابق مدقاً للأبطرة . وأطلق على هذا المسجد الجديد الجامع الحمدي أو جامع السلطان محمد الفاتح . ولما تولى السلطان سليمان الشرح العرش شرع في سنة ١٥٥٠ — وكانت الدولة قد بلغت أوج قوتها — في إنشاء

مسجد عظيم في إستانبول قدره أن يجب مظة النبي المهاري المصنم الذي عرف
بكتدرائية القديسة آيا سوفيا. وتنا جلع سليمان من أجل وأدوع المساجد في
الدولة^(١). ولذا دانت إستانبول بمسجد رائع آخر شهده السلطان أحمد الأول
(١٦٠٣ - ١٦١٧) وتنازت المساجد الكبرى في البلد الثانية مثل بروسة
وأدنة وغيرها. ويقول أحد الباحثين إن رصد الإعانات المالية الضخمة على تشييد
هذه المساجد دليل على عناية السلاطين بمراعاة الشعور الديني للتسلط على الرعايا
الثنيين. ومن ثم قام تنافس من أجل إقامة المساجد بين السلاطين الذين تصافوا
على عرش الدولة. ولم يكن سبب هذا التنافس حاجة ملحة إليها بقدر ما كان الهدف
هو اكتساب القلوب للشعب عن طريق الدين^(٢).

ولم يكن إهتمام السلاطين بإنشاء المساجد مقصوراً على الأقاليم التي كانت مهاداً
لثنيين عند نشأة دولهم، بل امتد هذا الإهتمام إلى الولايات الإسلامية في مصر
— على سبيل المثال — كان الباغوات الثنيون يشيدون — بناء على أوامر تصدر
لهم في طلب الأحياء من إستانبول — مساجد جديدة لا تزال إلى اليوم تعمل مقام
المراني في مصر إبان الحكم الثنائي. ونذكر من هذه المساجد : مسجد سليمان
باشا في القلعة (١٥٢٨) ، والمحمودية (١٥٦٧) ، وحفلان باشا (١٥٧١) ،
والنسكة سنية (١٦١٠)^(٣). وكان السلاطين يسمدون إلى الولاة في مصر بإصلاح

(١) بروكلمان كاول: الأثر الأثنيون وحضارتهم، ترجمة الدكتور تبه أمين فارس،
والأستاذ سبه البليكي - دار القلم للنشر - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩١٩، ص ٧١-٧٢.

(٢) محمد جميل زيم: العرب وفكر في الصراع بين العرب والفرس، الطبعة الوطنية،
بيروت، ١٩٥٧، ص ١٢٥.

(٣) أنظر بخصوص المساجد التي هيئت في مصر إبان الحكم الثنائي كتاب من :
حسن عبد الوهاب باشا - تاريخ المساجد الأثرية - الناشر وزارة الأوقاف بالقاهرة ،
طبعة دار الكتب سرية، ١٩٤٦ ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٨ ، ص ٣٠٢ - ٣١١ .
دكتور محمد الرض زكي : قلة صلاح الدين وفلاح إسلامية أخرى - مشروع الألف
كتاب - مكتبة تحفة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٣٤ ، ص ٧٩ .
دكتور عبد الرزق زكي : موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام - الناشر مكتبة
الأهل المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣١٥ ، ص ٣١٩ .

وتجديد المساجد القديمة وعلى رأسها الجامع الأزهر^(١).

التطبيق الممارس للشريعة الإسلامية :

ووضح الطابع الديني وجمته في الدولة من حرمها على تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية تطبيقاً صارماً من ناحية، وعلى المحافظة على التقاليد الإسلامية من ناحية أخرى. فمن الناحية الأولى كانت الدولة تؤكد في شتى المناسبات أنها ملتزمة التزاماً حقيقياً بمبادئ الشرع. وتذكر هنا على سبيل المثال أنها حين أصدرت قانون نامه الذي وضعه السلطان سليمان للشرع توجت هذا القانون بعمله مسجود وردت في صدره « قانوننامي سلطاني كي شرعي شريف موانعائي عرر اولوب » أي « القانون نامه السلطاني الذي يحقق مع الشريعة الشرعة »^(٢).

أما من الناحية الثانية وهي المحافظة على التقاليد الإسلامية، فنذكر على سبيل المثال أيضاً أن السلطات الثمانية لم تكن تسمح لأحد بإتهاك حرمة شهر رمضان، وذلك لم يكن يمر أحد، مهما كان مركزه، وسواء كان مسلماً أو غير مسلم، على أن يأكل أو يشرب في مكان عام في أثناء النهار طوال شهر الصيام. كان ضرب هذا الشخص أو تجريمه من الإجراءات القومية الرادعة التي تتخذ منه. وكان التجريس عقوبة مقررة ومعترف بها. فكانوا يحلفون نصف الحبة للذئب ونصف شاربها، ثم يضمنونه على ظهر حمار، ووجهه متجه إلى ذيل الحمار، ويتبعض بيده على ذنب الحمار، ويسمون هذا الشخص بحمارين ديبعة أي

(١) عبد الجواد صابر إسماعيل : دور الأزهر في مصر إبان الحكم العثماني رسالة أعدت تحت إشراف لؤي وأجيزت مودة للبيتر بهدير جيد جداً في التاريخ الحديث من قسم التاريخ والحضارة بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر سنة ١٩٧٠، ص ٣٣٧ - ٣٤٤ (لم تطبع الرسالة بعد) .

(2) Gibb Hamilton and Harold Bowen, *Islamic Society and the West. A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East. Volume 1, part 1 and Part II. Oxford University Press. 1962. Vol. I Part 1, p. 23, fn., 2.*

بأمتانها ، ويضمون على كتفيه كرشها أو جفها ، ويطوفون على هذه الصورة
للنكرة المشلولوع والطرفات ، ورجال أشداء يصدونه ويضربونه بالتمثال ،
وكانوا يجمعون حوله السبية يصرخون ليجمع حوله مزيد من الناس .
وكان المجرى يستخدم إذا كان الفطر مسلماً شاباً قويةً صحيح الجسم .
وكان يطلق أيضاً على هذه العقوبة التشهير . وكل لا بد أن يقب إحدى
هاتين العقوبتين توقيع عقوبة أخرى هي الرجم في الترسيم أى الاعتقال^(١) .
وكانت العقوبة الأخيرة تطبق على المسلم وغير المسلم على حد سواء .

أربع فوائد وميزة لأداء الحج :

تولت الدولة تنظيم الحج إلى الحجاز وأشرفت عليه إشرافاً شاملاً ، واعتبرت
هذا العمل واجباً يقع على مالكيها على الرغم من أن الدولة كانت تخلص الحسنة
في نطاق سبق جيداً لم يكن يعملون بضعة قطاعات ، مثل الإدارة المالية
وتشمل جمع الضرائب من المولين معتمدة على للترمين في الأوقاف وشيوخ
الطوائف في لندن ، ثم المحافظة على الأمن العام ، وتنظيم مرفق القضاء .
فكانت لا تتدخل الحكومة من أم مايجسد به الحكم الضار^(٢) . وقد
نظرت الدولة إلى الحج على أنه الركن الخامس من أركان الدين الإسلامي ،
وأن واجب على الأمر تيسير الحج أمام الراغبين في أدائه هذه الفريضة .

(١) كانت تستخدم في بعض الترسيم كلمة « المرافقة » بنفس معنى الترسيم . والمرافقة
مبين يوضح به المثلون والذين سموت عليهم أحكام قضائية .

(٢) «كتور عبد العزيز عبد المظوى : دور الأزهر في الحفاظ على النظام العربي الحسنة
إبان الحكم الناصر . بحث في إحدى وستين صفحة من المجلد الكبير لوائح في الدولة
لتاريخ القاهرة (٢٧ مارس - ١ أبريل ١٩٦٩) وطبع في المجلد الثاني من مؤلفات
المؤلف ، ص ٢٦٦ - ٢٦٥ .

فأشادت الأبلر على طول الطرق المؤدية إلى المحازر وأقامت في البادية حصونا لحراسة الآبار وشجعت على تشييد المناطات^(١)، وأقامت الخافز، وكانت تتحرك كل ستة أربع فواصل حيدر عيسى من كلية أحماء الخوذة في مواعيد محددة ووفق نظام رتيب وفي دفعة قوة عسكرية يتزودها أحد كبار المسكرين يسمى سردار الحج^(٢) . وكانت كل قافلة ترأسها شخصية كبيرة تسمى أمير الحج . وكانت هذه القوافل من حيث الأهمية العددية : قافلة الحج الشامي وتضم حجاج بلاد الشام والجزيرة وكرديستان وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان وحجاج إستانبول همسا ، وكانت أوفر مدن الصحراء لتتوسط سكناً بين البندقية . وكان عدد أفراد قافلة الحج الشامي يتراوح في كل عام بين ثلاثين ألفاً وخمسين ألفاً ، ثم قافلة الحج للصري

(١) كانت جم حال وهو غدي أو وكالة ممددة لاستقبال التجار الأتراك والمحتاج وغيرهم من المسافرين والمجان عابرة من بلاد وسطه ساحة كبيرة مربعة الشكل تسمى الخوش ، ويحيط بهذا الخوش رواق على الجوانب الأربعة ، والرواق مرفوع على أعمدة . وينزل المسافرون في الدور الخوي ويسمى الطابق (وتردهما طابق) ، والطاق طبقة إلى عدد من الغرف تطل على الخوش التي يتوسطها الفناء . وفي الدور الأرضي كان يحبس على لإيواء الجمال والخيول وغيرهما من الحيوانات التي يركبها المسافرون . كما كانت توجد في الدور الأرضي محلات أو مسالين تودع فيها بضائع التجار النازلين في الفناء وفي القرن السابع عشر أدخل تعديل على تصميم الفناء ، فأصبحت الساحة المباحية — الخوش — أقل مساحة . وكان الخوش يمتلئ بالقباب ، ليتحول إلى مستودع إمداد لتكوين البضائع تأمين من التقلبات الجوية . وكان يوجد بالفناء بئر ماء ومباعدة ومسجد ، وكان للفناء عنصران حياً صلاحيات المدن في تلك العصور .

انظر كلام .

يحيى سويلية : دمشق الشام . شعبة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر ، تعريب مؤلف أكرم البستاني . الطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ص ٤٢ — ٤٦ . دكتور محمد عبد الفتاح عاشر : العصر المملوكي في مصر والقاهرة . القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤١١ .

(٢) سردار منها ما تقدم .

وقسم حجيج مصر وشمال أفريقيا ، ثم فافقة الحج العراقي وقسم حجاج العراق وفارس ، ثم فافقة الحج الهندي وتجمع حجيج اليمن والهند والجزيرة واندونيسيا ومصرها .

تفجيم التصوف :

وكان من مظاهر الاتجاه الديني في سياسة الدولة تشجيع التصوف بين الثمانيين . وقد تركت الدولة مشايخ الطرق الصوفية يمارسون منظمات واسعة على للردين والاتحاد . وانتشرت هذه الطرق الصوفية انتشاراً واسعاً أول الأمر في آسيا الصغرى ، ثم انتقلت إلى معظم أقاليم الدولة . وقيل في هذا الصدد إن حياة الجماهير الدينية قد خضعت لتأثير مشايخ الطرق الصوفية أكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة المرسمين^(١) . ولقد مددت الدولة يد السون للمال إلى بعض الطرق الصوفية ، أو على الأقل إلى الطرق الصوفية القريبة للمذهب وفتحتها على غيرها^(٢) . وكان من أهم الطرق الصوفية : القشقرية ، والمولوية ، والبكتاشية ، والرقاعية أو الأحمدية ، والخلعونية ، والكلازونية نسبة إلى المصروف الإيراني أبي الإسماعيل الكلازوني ، ولما تسمى أيضاً الطريقة الإسماعيلية أو للرشدية^(٣) . وقد نجم عن تعدد هذه الطرق الصوفية من ناحية وانتشارها من ناحية أخرى أن بدأ الطابع الديني ملحوظاً بل قوياً في نفوس الثمانيين وامتازت حياتهم الدينية بالصورة .

(١) بروكسان كارل: الترك الثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٢ .
(٢) Hourani Albert; The Ottoman Background of the Modern Middle East. Koenig, England, 1970. p. 8.

(٣) كان أتباع هذه الطريقة يحضون سداً الدعوة الدينية وعاصمة الكمار وقد دخلوا شبه جزيرة الأناضول في النصف الثاني من القرن الثالث عشر بعد الفزو المقول مباشرة ، واولوا انشطتهم في منطقة الإمارات التي كانت لأمة في غرب الأناضول ، ونشروا بمرکز ممتاز في دوائر الحكومة الثمانية ، وأسس السلاطين الثمانيون حياتهم على أتباع هذه الطريقة للاستفادة منهم في إذكاء الروح الدينية الإسلامية في تلك المنطقة المهمة التي كانت مسرحاً لعمليات حربية متعاقبة خاضها الثمانيون ضد السكياكات المسيحية .

انظر : محمد قزاق كوبر على ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٥ .

نظام الفتوة :

وإذا جاب الطرق الصوفية وجد في الفتوة نظام الفتوة الذي كان الطابع الإسلامي القروسية السرية. وكان هذا النظام موجوداً في الأناضول قبل قيام الثورة السليمانية، ولستأخذ مظهراً حديثاً على يد الأتراك السليانيين. وعرف أفراد هذا النظام بجنة أسماء منها آخيان روم ، والأخوة الفتيان ، والآخيات . وكان الاحتقاد السائد بين جمهرة الباحثين إلى عهد قريب أن كلمة آخيان مأخوذة من اللفظة التركية بحوان ، وأن مفرد آخيان هو آخي . ولكن فرد المستشرق الفرنسي Dany J. أن كلمة آخي جاءت من اللفظة التركية آخي بمعنى الرجل الذي يجمع بين الشهامة والكرم ، وأنها ليست مأخوذة من الكلمة التركية آخي^(١) . وهذا التصبر أدل إلى الحقيقة ، لأن هاتين الصفتين . وهما الشهامة والكرم - كانتا من أبرز صفات أفراد هذه الجماعة . وقد التقى بهم الرحلة للمسافر ابن بطوطة^(٢) في جولاته في الأناضول في أثناء رحلته الأولى التي كانت أطول وأهم رحلاته الثلاث ، وقد قضى في رحلته الأولى ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً^(٣) . وعاصر اثنين من سلاطين الدولة السليمانية هما عثمان الأول (١٢٩٩ - ١٣٢٩) وانه أوردخان (١٣٢٩ - ١٣٦٠) . وقد زار ابن بطوطة بلاد الأناضول في أثناء حكم هذا

(١) محمد غزاد كوبريل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٠ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم ، وكنيته أبو عبد الله ، ولد في دمشق في شهر ربيع الثاني سنة ٦٠٣ هـ الموافق الرابع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٣٠٤ م وجزل إلى ديه في مدينة غاس سنة ٦٧٠ هـ (١٣٦٨ - ١٣٦٩) م . وكان قد تولد على السابعة والستين من العمر في رواية أخرى أنه توفي سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧) م وله من العمر قرابة أربعة وسبعين عاماً . وكان إلى وفاته يتولى القضاء في غاس .

(٣) بدأ ابن بطوطة رحلته الأولى من طنجة سلط رأسه في يوم الخميس الثاني من شهر رجب المفرد عام حسنة وعشرين وسبعمائة ستمائة حج بيت الله الحرام ووزارة قد الرسول عليه أفضل الصلوة والسلام (١٤ يونيو ١٣٢٢ م) وأنها ما في مدينة غاس التي وصل إليها في يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المسكر من عام حسنة وسبعمائة (١٤ نوفمبر ١٣٢٩) . وقد انتهى من رحلاته الثلاث في سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٤ م) .

الابن السلطان أودخلن وقابه وقال عنه إنه أكبر ملوك التركان وأكثرهم
مالاً وبلاًداً وعسكراً ، له من الحصون ما يقارب مائة حصن ، وهو في أكثر أوقاته
يتنقدها ، ويقوم بكل حسن أياً ما لإصلاح شئونه . وقد أحلى ابن بطوطة صورة واضحة
للدولة النشائية في دور مثانها ، إذ وصف الإمارات والولايات التركية لتتسند قبل
أن يجمعها كلها الأتراك السبانيون في دولة واحدة^(١) . ويحتمل في هذه الدراسة أن
إبن بطوطة حاط الإغوان الأتراك ووقف على نظمهم ودولهم وأسلوبهم في
الحياة ، ثم تحدث عنهم في كتابه^(٢) حديثاً شائقاً شاملاً تحت اسم الأسماء العتيق^(٣) .
وقال إنهم كانوا مثلاً فريداً في الشهامة والكرم وقضاء الصوائع والوفاء في وجه
النظم والاقتصاد من النظة ومن لحيهم من أهل الشر . وكانوا يحملون معهم
الأسلحة في حلهم وترحلهم . وذكر أنهم كانوا يقتلوا على استصافه القريب

- (١) دكتور محمد محمود السيد: رحلة ابن بطوطة . بحث منشور في « ترافالاجيا »
للقاهرة ، المجلد الثالث لسنة ١٩٦٥ ، العدد الثاني ، فبراير ١٩٦٥ ، ص ١٠١ - ١١٦ .
- (٢) من الجائز أن نحاط كلمة « كفاية » ، لأن لم يفسح هذا الكاتب ، فإنه لا
انتهى من رحلته الثلاث ، وكان قد أمضى فيها عامين سبعة أسابيع في الأرض . حاط رحلة
في داس استنداعاً من السلطان أبي عباس ملوك بين مرس ليطس لله الناس في تلك المدينة
يخدمهم في شامدات في البلاد التي رارها . وطلب السلطان من أحد موظفيه وهو عبد بن جزى
الكلبي أن يدون أحداث ابن بطوطة ، وبقى في هذا السبل ثلاثة أشهر ينتج إلى الرحلة
ويدون ما يلقوه . وفرغ من هذا السبل في الثالث من شهر ذي الحجة سنة ست وخمسة
وسمائه (ديسمبر ١٣٥٥ م) ويلاحظ أن هذا التدوين كان مجرد صورة للرحلة ، فأما
صياغتها ، فكان الفراع من تأليفها في شهر صفر عام سبعة وخمسة وسمائه (فبراير
١٣٥٦ م) أي أنه أخذ في كتابة ثلاثة شهور في تيسر المودة وومعها في صورته القليلة .
وأشأن من الكتاب اسم « تحفة القطار في غرائب الأمصار ومعائب الأسفار » .
- (٣) اللبوني (محمد بن منج الله بن محمد البليوي) : المتن من رحلة ابن بطوطة الطنجي
الأندلسي وهي مخطوطة محفوظة في مكتبة الأهرم برقم ٤٠٦٣ ، وقام في ٢٩ وفاة أي ١٤٢٢
معه . وقد رجعا إلى هذه المخطوطة التي تناولت أجلا الأسماء العتيق مرس ١٥ - ٢٨ .
وقد طبعت عدة طبعات ومختبرات خلاص هذه المخطوطة ورجعنا إلى كتابين آخرين
أحدثا . « رحلة ابن بطوطة السيرة تحفة القطار في غرائب الأمصار ومعائب الأسفار » .
روجب وصنعت على عدة نسخ خطية بجمرة لجنة من الأبناء سنة ١١٦٤ م - ١٢٢٣ هـ
وهي في جريدتين في مجلد واحد ، وقد نشرتها المكتبة القبطية الكبرى بالقاهرة مرس
١٤١ - ٢٠٩ والكتابة الأحر يسمى « رحلة ابن بطوطة من طنجية إلى الصين والأندلس
وأفريقيا » للاستاذ محمد الفرقاوي . وطبع هذه الطبعة أيضا في جزئين في مجلد واحد
ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٦٨ هـ مرس ١٥٦ - ١٦٦ .

الوافد إلى بلدتهم - وكان نظام هذه الجماعة أن يختبأ أهل كل صناعة أو مهنة أو حرفة رئيساً لهم يختبأ أحى، ويشترط أن يكون الرئيس وجاراً من الشبان المزبأ للثعديين، ويقدمون رئيسهم عليهم - ويبنى الرئيس زاوية وداراً للصيانة ويشترك الجميع في ثياباتها وخففتها ولففات ثيوبها، ووصف ابن بطوطة زواياهم وقال إنها منتشرة في طول البلاد وعرضها، وأنها توجد في كل مدينة وبندوة وقرية، كما توجد في مناطق الحدود - وكانوا يدفعون سواك إلى المسجد في صلاة الجمعة والمهدين وفي المناسبات الدينية الأخرى، ومحيطون بحاكم الإقليم أو المدينة، وكل منهم يحمل سلاحه.

ويذكر الأستاذ محمد فؤاد كوبرلي - إعتقاداً إلى النقوش وشواهد القبور والوثائق والصادر التاريخية - أنهم كانوا جياً عزاباً، ويقرر أن أعداداً كثيرة العدد منهم كانوا متزوجين، وأنهم كانوا من أرباب الثروات المصنعة والتمرد المريض، وأن من بينهم من تقلد المناصب الإدارية العليا. وكل لهم دواوير حطيرة في تأسيس الدولة العثمانية وفي إنشاء فرق الإنكشارية في الجيش. وكان السلاطين العثمانيون وكبار القادة ينزلونهم منازل التكريم^(١).

وقد احتل أفراد هذه الطائفة بطوائف الصنائع في المدن، واتصلوا بأصحاب الأراضي في الريف اتصالاً وثيقاً، ثم انضم إليهم عدد من رجال الدولة في الأناضول، ومن القضاة والجنجال والشايج الذين يهتمون إلى طرق صوفية شتى. والصنم هؤلاء وأولئك روايا الآحيان. واحتل الأمر على كثير من الباحثين، فذهب بعضهم إلى أن الآحيان كانوا يشكلون منظمة لأرباب الحرف، واعتقد البعض الآخر أنهم كانوا إحدى الطرق الصوفية. ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن أفراد طائفة الآحيان قد استطاعوا بالطمع الصوفي، ولستكمهم يشكلوا طريقة صوفية خاصة بهم. ويجدير بالذكر أنهم كانوا ينفقون للذهب المسى. ولم

(١) محمد فؤاد كوبرلي، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٩ - ١٦٢.

يكن في استعظامهم اعتناق المذهب الشيعي لأنهم كانوا يجمعون لزينة الدولة .
وكانت السلطات البائية متعصبة جدا للتصعب للمذهب السني وقد زاد تعصبها لهذا
المذهب حدة طول رعاها مع الدولة الصفوية في فارس .

اختيار اسم إسلامي بدلاً من القسطنطينية :

ومما تجدر الإشارة إليه — ونحن نتكلم عن الطابع الديني للدولة البائية —
التسمية الإسلامية التي أطلقها السلطان محمد الفاتح على القسطنطينية عقب استيلائه
عليها في ٢٩ من مايو ١٤٥٣ ، فقد استبدل بهذا الاسم اسماً جديداً هو إستانبول^(١) ،
وهي كلمة تركية معناها دلو الإسلام . ولا يخفى للفرز الذي يلي لهذا الاسم الإسلامي
الذي أطلقته السلطات على عاصمة دينية وسياسية ظلت قروناً وأحصراً وأدهلوا
مقراً للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية — اليونانية — فهو إليها لولب الملايين
من أتباع هذه الكنيسة ، كما كانت عاصمة سياسية للدولة الرومانية الشرقية منذ
أن أسست سنة ٣٣٠ م على يد الإمبراطور قسطنطين^(٢) (٣٣٧ — ٣٠٦)^(٣)
وظلت القسطنطينية قلعة حصينة صمدت في وجه المسلمين الأوائل وحالت دون
امتداد الفتوح الإسلامية إلى شرق أوروبا حتى جاء الزحف العسكري البائي
بطرق شديدة مختلفات الدولة الرومانية الشرقية منذ مطلع القرن الرابع عشر .
واستولى البائيون على هذه العاصمة التي كانت يونانية الحضارة واللغة والثقافة ،
أرثوذكسية المذهب الديني . ولم يشأ السلطان محمد الفاتح أن يطلق اسمه وأولهم
أحد من أسلافه على هذه للفة على الرغم من أنه كان يحك تلك الفترة على مثل هذا

(١) تكتب بـ و يعني المراجع إستانبول قارة وإسلامبول قارة أخرى .

(٢) دكتور — د. عبد الفتاح طهوس : أوروبا الوسطى . جزء ١ ، الجزء

الأول . التاريخ السياسي ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٥ ، ص ١٠

التنوير، ولكنه اكتفى بتغيير اسمها ووجه اسمها إسلامياً، ولقد نقل عاصمة دولته إليها. وهذا التنوير كان أبداً من أى تنوير آخر.

تخليد ديني عند إرتقاء السلاطين العرش :

استقى سلاطين الدولة تقليداً دينياً عقب فتح القسطنطينية وإطلاق الاسم الإسلامي «إسلامبول» عليها. كان السلاطان عند التتاج في قمة أبتهاجه بهذا النصر العظيم الذي حققه بإستيلائه على عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، وتقدراً منه لدور الذي قام به الصحابي أبي أيوب الأنصاري أحد قادة الجيش الأموي الذي رحب على القسطنطينية سنة ٦٧٠م على عهد يزيد بن معاوية لفصحها واحتشده في معانيات المعارك. وكل كنف موقع قبره على مقربة من أسوار القسطنطينية قبل فتح هذه العاصمة البيزنطية بأيام قد أدى إلى تعجير الشعور الديني الإسلامي لدى الجيش الثماني المهاجم - رأى هذا السلطان أن يشيد مسجداً بالقرب من ضريح الشهيد أبي أيوب الأنصاري، وازدنا هذا المسجد بالرخام الأبيض. وإلى جانب هذا المسجد، وفي مقام الشهيد أبي أيوب الذي لا يبدو أن يكون بناء مذهباً بسيطاً تلوذ به، كان يقام حفل ديني رسمي عقب إعتلاء كل سلطان جديد العرش. فكان السلطان يذهب في موكب رسمي حافل إلى هذا المسجد، ثم يقدم إلى ضريح أبي أيوب الأنصاري. وفي جو ديني عابق كان السلطان الجديد يتسلم من يد شيخ الطريقة اللولوية - بيوك چلي - سيف السلطان عباس الأول الجند الكبير السلاطين السمانيين^(٢).

اهتمام مهين بالمعابر:

ويبرز الطابع الديني للدولة في اهتمامها الكبير بإقليم الحجاز منذ أن غدا ولاية عثمانية. فكانت تسمية الحجاز للدولة قد أضفت عليها مركزاً دينياً مرموقاً في جميع

(١) انظر لصال في هذه الدراسة بعنوان فتح القسطنطينية.

(٢) بوكسان كارل : الأتراك السمانيون وسنارتهم. مرجع سبق ذكره، ص ٤٦.

أرجاء السلم الإسلامي حتى أساس أن هذه الولاية نعم أم الأما كن للقدسة الإسلامية على وجه الأرض. وتحلى هذا الاهتمام في عدة امتيازات قررها السلطان سليم الأول وهو لا يزال في القاهرة لولاية الحجاز دون سائر الولايات الشامية. وسار على هذا النهج السلاطين الشاميون الذين تربعوا على عرش الدولة من بعده، ومحاوا على دعم هذه الامتيازات بحيث أصبح في حكم الاستحالة المساس بها. وكل من بين هذه الامتيازات الإعفاء الضريبي، فكان الحجاز لا يتهم جربة متولية للدولة على الرغم من أن السلطان كل يحرص على فرض هذا الالتزام على معظم الولايات الشامية، أما ولاية الحجاز فكانت تخفى كل طم اعتبارات مالية ضخمة ترصد في ميزانية الحكومة المصرية^(١). وقد أمر السلطان سليم الأول بزيادة الاعتمادات المالية المخصصة للحجاز، كما أمر بأن تحصل الحكومة المصرية هذه الالتزامات النقدية والتعددية. وكان يطلق عليها المصطلح التاريخي «الصرة» وترسل مع ثقله الحج للصوى. وكان يرسل «الصرة» إلى الحجاز يد من أم واجبات الباشا الشامي في مصر، ويحاسب حساباً عسيراً إذا قصر في إرسالها. وإلى جانب إعفاء الحجاز - كولاية شامية - من دفع الخزينة للدولة تمتع أهل الحجاز من قبيل الرعاية لهم - بالإعفاء الضريبي من معظم الضرائب الشخصية والعقارية سوى ضرائب على أصحاب الأقطام والحدال^(٢). - وتمتع سكان الحجاز أيضاً بالإعفاء من التجنيد أو الخدمة العسكرية، كما أمنت الدولة على الحكم الذاتي

(١) كانت هذه الاعتمادات تتكون أساساً من حصة الأراضي الزراعية وغيرها من الطوائف الخيالة التي أوقفها أهل البلد من المسلمين وغيرهم ولا بد أن تصرف على المربين المصريين، و مكة للحكومة وللجنة الفتوة وعلى الأشراف وغيرهم من سكان مدن الحجاز. ويحاطب الأموال السائلة كانت تخص إلى الحجاز كميات من الفصح والقدرة والأرد.

(٢) انظر كلامي :

حسين بن محمد نصيف: ماضي الحجاز وحاضر. جدة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠-١٩٣١م) ص ٩١.
خاطر وجه : جزيرة العرب في القرن العشرين - الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٣٨٢هـ (١٩٦٧م) ص ١٥٢.

الذى كان يمثل في نظام الشراقة وأقامت بجانبه نظاماً مدنياً . (١)

لبنان دويلتان :

أقدم سلاطين الدولة العثمانية أملاً عظيماً لماية بإرار لبنين دويلتين من بين ألقابهم الصليبية ، إذ كان هذان اللتين يضحيان على سلاطين آل عثمان صبة دويلية لها يربتها ووزنها في أرجاء العالم الإسلامي . كان أولها لقب « حاوى على الحرمين الشريفين » أو « خادم الحرمين الشريفين » وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليبلغ السلطان سليم ولاءه واحترابه بالسيادة العثمانية على الحجاز . وتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الديني . وكان مود اهتمامهم بهذا اللقب إلى تأكيد رعايته الدولة العثمانية للعالم الإسلامي ، بعد أن انصر العثمانيون على الشاه إسماعيل الصفوي في معركة قشادران (٢٢ من أغسطس ١٥١٤) ودخلوا تبريز عاصمة فارس التي سقطت إلى دولة من الدرجة الثانية ، وبعد أن غننى العثمانيون بعد ذلك على دولة المماليك البرجية واستولوا على الشام ثم مصر ، وبعد أن دخل إقليم المحلة تحت السيادة العثمانية سنة ١٥١٧ وأصبح ولاية عثمانية تضم أم الأماكن الإسلامية القديمة مجتمع فوق ثلها كل علم حضود إسلامية كثيفة العدد يأتى أفرادها من كل فج حيق يؤدون فريضة الحج ويشهدون منافع لهم في بلاد تابعة للدولة العثمانية . ومنذ ذلك الوقت يمز في الدولة الطابع الديني الإسلامي بروزاً قوياً ثنائية ، واعتقد هذا الطابع الديني كلها مصت السنون في القرون التالية .

(١) أنظر كلامي :

أبين سيد : الثورة العربية الكبرى تاريخ بحسب جامع القضية العربية في ربع قرن . ثلاثة أجزاء ، ج ١ : القتال بين العرب والترك . القاهرة : مطابع مصر ، ١٩٣٤ م ١٠٤ . دكتور سيد رجب حرق : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠ - ١٩٠٩ . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٩٠٦ .

أما القاب الديني الآخر الذي اعتم به سلاطين الدولة فهو لقب خليفة ، وقد بدأ اعتمادهم به في القرن الثامن عشر واشتد هذا الاعتماد في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وانخفضوا من الخلافة وإحياء مجدها واسترداد ما كان لها من الهيبة والنفوذ والكرامة وسبب لمقاومة منشط الدول الأوروبية الاستعمارية عليها ، وبخاصة الدول التي كثر لها رعايا مسلمون مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا . وكان السلاطين يهدمون بصريته هؤلاء الرعايا المسلمين ضد حكومات دولهم الأوروبية عن طريق إعلان الجهاد الديني ، وهو فرض دين على كل مسلم بالغ قادر . وسعروض لهذه . للسألة في موطن قادم عند الكلام عن موضوع « الخلافة عثمانية وعلاقتها بتاريخ أوروبا الحديث » . وحسبنا أن نذكر هنا أنه بإلصاق لقب خليفة بالسلطان الشافعي - وهو إلصاق متسدد عائد - نستطيع أن نقول إنه أصبح لرئيس الدولة الشافعية لقب مدني هو السلطان ، ولقب ديني هو الخليفة .

وأى الجبرتي في الدولة العثمانية :

وللؤدغ للشهور الشيخ عبد الرحمن حسن الجبرتي - كأحد كبار رجال الفكر الإسلامي - يسميه الطاج الدين البار في سياسة الدولة العثمانية ، فيقولكم بإعجاب ، في عبارات مسجعة عن اعتماد السلاطين العثمانيين « بإقامة الشعار الإسلامية والسنن الحميدة ، وتنظيم البناء وأهل الدين ، وخدمة الحرمين الشريفين ، والتمسك في الأحكام والقرائن والقوانين والشرائع ، فصصحت دولتهم ، وطالت مدتهم ، وهابهم القويك ، وأعاد لهم لالك والملك » (١) .

نظام القل :

والهوية العثمانية دولة دينية لأن رعاياها غير المسلمين كانوا يخضعون لنظام

(١) الجبرتي الشيخ مد الرحمن : عجائب الآثار في التراجم والأخبار . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ ، أربعة أجزاء ، ج ١ ، ص ٢١ .

اللؤلؤ، وهو نظام يقوم على تصنيف رعايا الدولة حيز السلمين تصنيفاً لا يقوم على أساس الجنس أو القومية أو اللغة، بل على أساس للفح الديني الذي يدين به هؤلاء الرعايا. وكان يطلق على كل مذهب ديني «معة». وكان لكل معة رئيس ديني ينظر في المسائل الدينية؛ ويقوم - مستعيناً ببعض مساعدين من رجال الدين للسبحي - بالفصل في قضايا الأحوال الشخصية المتعلقة بأنبياع هذه الملة دون تدخل من جانب الدولة التي تركت لرئيس كل معة ممارسة هذا الاختصاص. وقد منح نظام اللؤلؤ الرعايا غير المسلمين كياناً ذاتياً خاصاً. وكان الروم الأرثوذكس - أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية - أهم معة غير إسلامية في الدولة العثمانية. ويحدرج تحت هذا الاسم اليونانيون والبلغار وسكان البوسنة والمهرسك والحبل الأسود وبعض الألبانيين وغيرهم. وكان مقر رئيس هذه المبعة في إستانبول، ويسمى البطريرك، ويطلق عليه أيضاً بطريرك القسار نسبة إلى حي القسار، وهو أحد أحياء العاصمة، وكان يقوم فيه مبنى البطريركية. وكانت تسكن هذا الحي عائلات يونانية عريقة تمثل فيها أرسطراطية المال والتجارة والمجد الأسيل، ويسمون «القساريون» phasariotes مصداقاً لما يخطرون عن اليونانيين الموجودين في شبه جزيرة البلقان. ولما كان البطريرك يونانياً، فقد احتكر اليونانيون عامة السيادة الروحية على الشعوب التي تدين بمذهبهم مثل الصرب والبلغار وغيرهم. وكانت الملة الثانية هي معة الروم الكاثوليك، وكانوا أقل شأنًا من الروم الأرثوذكس، ثم الملة الثالثة وهي معة الأرمن، وأحياناً معة اليهود.

وبضار نظام اللؤلؤ مع فكرة الدولة الحديثة التي تنظر إلى رعاياها على أساس المساواة في الحقوق والواجبات ينص التنظر عن ديانتهم. ولكن كانت التفرقة الدينية موجودة في تلك العرون في كلغة أنحاء العالم. ومع ذلك فقد كانت الدولة العثمانية متفهمة عن الحقول الأوروبية الماصرة لها، لأنها كانت تسمح بوجود ديانتين هما المسيحية واليهودية ومذاهب دينية مختلفة وهدفت في بلادها

بجامع الدين الإسلامي . وسنلتاول هذا الموضوع بشيء من التفصيل عند الكلام على الطابع المالي للدولة .

فترتان من وثيقتين :

ونتقس هنا فترتين جاءتا في وثيقتين من الوثائق الرسمية التي صدرت عن الدولة العثمانية . جاءت الفترة الأولى في الوثيقة للروقة باسم خطي شريف . جملتها وقد صدرت هذه الوثيقة في سنة ١٨٣٩ وجاء فيها : إن الدولة كانت تراعى الأحكام التشريعية فلينت فة الجهد . وعند مائة وخمسين سنة أمملت الإدارة الشرعية بسبب التوازل وما عرض من حوادث ...»^(١)

أما الفترة الثانية لجأت في الوثيقة للروقة باسم خطي همايوني . وقد صدرت هذه الوثيقة في سنة ١٨٥٦ وكفى بما ورد فيها لا يخفى أنه منذ إحصاء ظهور دولتنا الحالية كانت الأحكام الشرعية الجلية والقوانين الشرعية للبيعة في غاية الرعاية الكاملة ، ولقد كانت قوة سلطتنا السنية ونسبتها مع راحة جميع الرعايا ورفاهيتهم وعمر البلاد في غاية ما يكون من الكمال . ولكن منذ مائة وخمسين سنة لم يد انقياد ولا امتثال لا للشرع الشريف ولا لقوانين للبيعة لسبب ما طرأ عليها من الحوادث الكثيرة . ولما تحولت تلك القوة إلى ضعف ، والراحة إلى التعب ، والعمار إلى التناثر . وأية مملكة لا تقوم بحسب القوانين التشريعية تزول إلى الاندحار ...»^(٢)

تدل هاتان الفقرتان على الطابع الديني الإسلامي الأصيل في الدولة العثمانية . فإن السلطان الذي أصدرهما — وهو عبد المجيد الأول (١٨٣٩ — ١٨٦١) — كان يفتق رأياً مع كبار رجال حكومته على أن اللبّد الذي حققته الدولة

(١) « كتوبر عبد الكريم خراية : سوريا في القرن التاسع عشر (١٨١٠-١٨٧٦) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية للنجاح لجلسة الدول العربية . القاهرة ، ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، ص ٢٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨-٣٩ .

في عصورها الذهبية إنما مرجه إلى التزامها بمبادئ الشريعة الإسلامية، وأنها إذا كان قد أسسها ومن أو « انتمحلال » خلال القرن التاسع عشر فلأنها أملت لب أو لآخر تطبيق مبادئ الشريعة . وقد جاءت الفترة الثانية أكثر إيصالاً وتفصيلاً : فهي تقرر أن الدولة التزمت التزاماً دقيقاً بأحكام الشريعة ، وأن حرصها على اتباع أحكام القرآن الكريم قد صاحب نشأة الدولة ، وأن هذا الحرص قد أدى إلى النتائج التالية : قوة الدولة المالية ، استقرارها ، وراحة الرعايا ورفاهيتهم ، حرمان البلاد . ولا باعديت الدولة بينها وبين تطبيق المبادئ الإسلامية تحولت قوة الدولة إلى سبب ، وراحة السكان إلى متاعب ، كما تولدت مشروعات الإصلاح والتغيير ، وأدثر بعضها . ثم تخلص الفترة إلى حكم عام شامل تقول فيه إن الدولة التي تبعد عن الأخذ بمبادئ الشريعة ولا تطبق قوانينها يكون مآلها الانحلال . وسفرض قوتين اثنتين اشتملتا على هاتين القوتين في الفصل التالي عند الكلام على الخصيصة الثلاثة للدولة الثانية وهي أنها دولة مالية .

الجامعة الإسلامية :

وللولة الثانية هي التي احتضنت حركة الجامعة الإسلامية في القرن التاسع عشر ، وهي حركة كان قد نادى إليها السيد جمال الدين الأفندي (١٨٣٩ - ١٨٩٧) ، وكانت تدعو إلى وحدة العرب الإسلامي في عتواء الكبير ، شعوباً وحكومات . في متعلق الأرض وفي مثاليها ، والمغفور كالبيان الرسومي وشبهه بهته بمصاً حول الدولة المالية بمثلها أكبر دولة إسلامية في العالم في ذلك الوقت . ولم تستهدف هذه الحركة التفوق السياسي أو السيطرة على العالم أو سيادة المجلس أو الفتنة ، ولكن كان غرضها تخلص العالم الإسلامي مما يؤمنه من سيطرة أجنبية مسيحية ، وتدخل أوروبي ، وأزمات سياسية ، واحتفالات مالية ، ونهب ثروات ، واستغلال شعري . ويلاحظ أن حركة الجامعة الإسلامية عاصرت حركتين أخرين في العالم المسيحي هما : حركة الجامعة العقائدية وحركة الجامعة الجبرمانية في

أوروبا^(١)، ويلاحظ أيضاً أن حركة الجلاسة الإسلامية أهم وأشمل من حركة القومية العربية التي تنادى إليها فريق من القوميين للسيحيين في بلاد الشام رداً على حركة الجلامة الإسلامية. ومهما قيل في بواش وأهداف حركة الجلامة الإسلامية، فإن الدولة الثمانية باحضانها هذه الحركة كانت رمزاً حياً عمداً للتضامن الإسلامي لتلوث في وسع الخلف الأوروبي الاستملاى على العلم الإسلامي.

وقد أصبح أحد الباحثين الأسيريين - وهو لوثرود ستودارد Lothrop Stoddard - عن الضرورة للغة التي كانت تتطلب من المسلمين الاستجابة لحركة الجلامة الإسلامية. فقال إن العلم للمسيحي على اختلاف شعوبه تسوده روح صليبية وتغصب ديني محيى. ويريد تحطيم الدولة الثمانية وغيرها من الدول الإسلامية، ويريد أيضاً سحق الإسلام. ومضى يقول إن الدول للمسيحية في عدائها وحقداء على الدول الإسلامية تلجأ إلى العلوان للسلح إجهاء إذلال الدول الإسلامية، كما تعمل دائماً على القضاء على كل حركة إسلامية بماؤها للسلوان في بلادهم. وكان مما جاء في كتابه وهو يسط آراءه في موقف المسيحيين الغربيين من دول الشرق بامة والدول الإسلامية بعامية «العلم النصراني» على اختلاف أممه وشعوبه، عرباً وجسية، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم، وللإسلام على الخصوص، لجميع الدول النصرانية متحدة معاً على ذلك، لذلك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً». وعقضى في كتابه

(١) كانت حركة الجلامة الصليبية تسمى لهم جميع متآلية أوروبا على اختلاف حقارهم ومنابعهم تتخلص من السيطرة الثمانية والتعود الألمانى. ثم تكوين كتلة حضارية سياسية شرقى أوروبا ووسطها تقوى على مناهضة غرب أوروبا وتسمى لتطيق آمال روسيا ل الشرق. أما حركة الجلامة الجرمانية فصلت على السكون وحدة سياسية من العناصر الجرمانية تسل أولاً لسيطرة على وسط أوروبا ثم على بقية أجزائها، وتقف سداً متيناً أمام فرنسا من جانب، وأمام الصقلية من جانب آخر، وتفرق رعايتها على الاتية.

دكتور محمد مصطفى سموت. الاحتلال الإنجليزي لمصر ومواقف الدول الكبرى لواءه. القاهرة، ١٩٥٢. دار الفكر العربي. ص ١٢ - ١٨.

يقول « والروح الصليبية لم تبحر كاملة في سدود النصارى ككون النار في الزماد ، وروح التمصب لم تنفك حية محتلقة في قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت في قلب بطرس الناسك^(١) من قبل . فالنصرانية لم يزل التمصب مستقراً في عناصرها ، متغلغلا في أحشائها ، ومنتشياً في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء ، والحقد ، والتمصب الذي للموت ... وجميع الشعوب النصرانية بحجة متلفة على هداه الإسلام ، وروح هذا الهداء متمثلة بمجد جميع هذه الشعوب جيداً خفياً مستقراً متوالياً لمسحق الإسلام مسحقاً » . ووضعت عرض لآرائه بقوله « جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يصعد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الأطراف وثيق الرى ، ليستطيع بذلك التواري عن كيانه ووقايته نفسه من الهناء القبل ، وللوصول إلى هذه الناية الكبرى ، إنما يجب عليه اكتتاه أسباب تقدم التريب والوقوف على ثقافته وقدرته »^(٢) .

(١) كان بطرس الناسك أحد قادة الحروب الصليبية أخذ بطول في أوروبا بعد المجلس العام الذي عقده البابا إرياني الثاني Urban II في كليرمنت Clermont بجنوب فرنسا سنة ١٠٩٥ . وناقش ضرورة اتحاد بيت القدس من المسلمين إلى كمال بطرس في طوائفه من المسيحيين على غاربه المسلمين . وكان رجلاً طاعناً في السن ، على خط موهور من القدرة على الخطابة وكانت مساحته وحسنه القوية : يشابه الملهة ، وبقية الماريتج ، وجاره الأهرج ، جعلت منه شخصية ذات تأثير على جماعات الماسة والدماء في غرب أوروبا ونجح في جمع صفوف آسية كثيفة السدد من الرماح وخرنبي السجون والأهلياء والرفيق . واصطب كثير منهم نساءهم وأطفالهم . والتمسوا في طريقهم إلى القسري جرائم منكورة جعلت سكان البحر ودمانيا الهولة اليرمالية يتورون عليهم ووصلوا إلى القسطنطينية . وسارع اسامطور الهوة الرومانية القصرية بمساعدتهم على السور إلى آسيا القصرية رغبة في التمسك بهم . وكان عددهم ثلاثمائة ألف رجل . فطالهم الأثر السلاجقة في ليليا وأولموا بهم حزمة منكورة . وبعده بطرس الناسك هو المشول من هذه الهوة الحفاه .

انظر

دكتور سعيد عبد الفتاح حاضور : الحركة الصليبية - جزءان ، ١٩٦٣ ، الناشر : مكتبة الأنجلو لغسية ، القاهرة . ج ١ ، ص ١٣٥ - ١٤٠ .

(٢) لوثوب ستودارد : حاضري السلام الإسلامي - ترجمة هاجز فريش . ومليح الأمير حكيم أوسلان - جزءان ، القاهرة ، ١٣١٣ هـ ، ج ١ ، ص ١٢٧ - ١٣٨ .

الانحاديون يجمعون بالشعار الديني :

وقد ظل الطابع الديني الإسلامي ملحوظاً في الدولة على الرغم من أن قادة انقلاب سنة ١٩٠٩ - وهم أعضاء جماعة الاتحاد والترقي ومعظمهم من ضباط الجيش - كانوا قد ابتعدوا عن الخط الإسلامي الواضح ، وتغلبوا بين حركة الجامعة الثمانية^(١) وحركة التتريك^(٢) والحركة العلوانية^(٣) ، وأسفروا في الأخير بنظام الحكم المركزي الذي وجدوه دائماً حين جاءوا إلى الحكم ، ثم حاولتهم تحطيم نظام الشرافة في الجبل . حتى إذا دامهم المدون الاستعماري الإيطالي على طرابلس الغرب في سنة ١٩١١ طادوا يرفسون شعار الجامعة الإسلامية ابتداء

(١) الجامعة الثمانية تهدف إلى صبح القوميات المختلفة في داخل الدولة بالصفة الثمانية أو ما يدعى حديثة القوميات . فالكل مثاليون لا فرق بين عرب وأتراك وأكراد وآلبان وأرمن . وتطبق حركة الجامعة الثمانية يؤدي إلى كبت القوميات الخاضعة لقوة الدولة وحلها في التحدي من أمابيا القومية . وهذه أحد المؤثرات حركة الجامعة الثمانية بيننا بتمام على الترمال .

انظر :

Kedourie, Elie; England and the Middle East. The Disintegration of the Ottoman Empire. 1914-1921 London. 1956. p. 59.

(٢) التتريك هو صيغ جميع ولايات الدولة بما فيها الولايات العربية والعربية للتركية وعرشامة التركية لفرسجيان للفرس والمهاكم وترجيح مصالح الأتراك ينشئ النظر من الإسراء بأرضها مع الأتراك . وتطبيق سياسة التتريك يؤدي إلى حكم الدولة على أسس البعده الجسدية للعصر التركي ، وتكون الدولة الثمانية دولة تركية لا ثمانية . وقد تطرب فريق من الأتراك فصحوا إلى إزالة أسماء القضاة المنعدين من الفروع ووسم أسماء السلاطين الثمانية الأوائل عليها مثل سليم وسليمان وغيرهما . وقد ظهرت هذه الحركة عقب الحرب البلقانية الأولى .

(٣) الحركة العلوانية تنرم على أن الشعب التركي ينسب إلى أصول طورانية ، وأن السبيل لبثت الجلس التركي يمكن في اتحاد من جديد مع الشعوب التي تحت إايه دولة القرن من السلاطة العلوانية . وكانت الحركة العلوانية تدعو إلى إحياء أجداد الأتراك الأوائل وربط الأتراك المسلمين بتراثهم الحضاري القديم والحديثة إلى تخليص التراث الحضاري التركي من المؤثرات الفارسية والعربية التي دخلت عليه . وقد أدى هذا الاتجاه إلى تأسيس الأكاديمية التركية سنة ١٩١٣ وإلى ترجمة القرآن إلى لغة التركية . وظهرت الدعوة إلى إعطاء لغة جديدة وأدب جديد . وأهمه اتحاد « بين لبنان » أي اللغة الجديدة ، وهذه اتحاد « بين حياء » أي الحياة الجديدة . ولم يثبت أن الفصح هناك الاتحاد في اتحاد واحد . وقد أقيمت

الحصول على تأييد الشعوب الإسلامية في السلم واستتارة الماطفة الدينية الإسلامية في تنوع هذه الشعوب وحكوماتها وحياتها وجماعاتها كي تسارع إلى دعم القوات الثمانية - أو المجاهدين كما كان يطلق عليهم - بالمال والأقسط والسلاح والرواد التمويلية والساعات الطبية لخدمة هؤلاء المجاهدين .

الطابع الديني في الحرب العالمية الأولى :

وفي أقل من ثلاث سنوات برز الطابع الديني الإسلامي للقوة مرة أخرى واضعاً قوياً معتب دخول القوة الحرب العالمية الأولى في اليوم الخامس من شهر نوفمبر ١٩١٤ إلى جانب دولتي الوسط - ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية - ضد روسيا وبريطانيا وفرنسا^(١) . ولم تسكت عن ساحات معبودات على دخول

كلمة «طوران» اختصاراً وأساساً في الأوساط الرسمية والفسحة حتى أصبحت محلات الخلاعة وللطعام وللتفاني تحمل اسم طوران - وتسمى المخبزون والمكسرون والكتابات وس اسم بطورانيهم وقد ظهرت الحركة الطورانية عقب الحرب العالمية الثانية (١٩١٢-١٩١٣) . وما هو جدير بالذكر أن الحركة القومية التركية الحديثة والجمهورية التركية المعاصرة استمدتا الكثير من ساهم الحركة الطورانية .

انظر كل من :

أحمد سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٥١-٥٨ .
تولين طي برو : العرب والترك في العهد الدستوري الثاني (١٩٠٨ - ١٩١٤) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية القاهرة ، سنة ١٩٦٠ ، ص ٥٦٢-٦٩٠ .

دكتور عسود صالح طلس : حركة البقعة العربية في القرنين الأسبقين . دار الفكر العربي . القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٢٧-١٢٩ .

(١) انتهت الحرب العالمية الأولى في ٢٨ سبتمبر (أكتوبر) ١٩١٨ حين زحف الجيش النمساوي على بلغراد ، وحازت ألمانيا في ٢٨ أغسطس (آب) الهزيمة لأن الحرب على فرنسا وروسيا ، دخلت بريطانيا الحرب في منتصف ليلة ٤/٥ أغسطس وتتابعت دخول الدول في هذه الحرب ، وظهرت تركيا في هذا الحشد ، ولكن كانت كل التلاليات تهم إلى أنها ستدخل الحرب وشبكا إلى جانب ألمانيا . وكان أنور باشا وزير الخارجية التركي قد اقترح على التتالي والمسلمين

تركيا الحرب حتى صدقت لقوى من شيخ الإسلام في إستانبول ، ثم لحقت بها قوى أصغرهما السلطان محمد رشاد الخامس (١٩٠٩ - ١٩١٨) بمقتضى حليلة ، ثم أعقبها قوى ثالثة وقع عليها شيخ الإسلام وعثمانية وعشرون من كبار العلماء من ذوى للناسب الدينية الكبرى^(١) والدراسة المتطيلة لهذه الفتاوى الثلاث توضح صفة حقائق تؤكد رغبة الاتحاديين في إبراز الطابع الديني للدولة ، منها :

أولا : إن هذه الفتاوى الثلاث موجهة إلى جميع المسلمين في نطاق الأرض سواء الذين يمشون تحت حكم الدولة العثمانية أو الخاضعين لحكم الدول « عدوة الإسلام » وهي الروسيا وبريطانيا وفرنسا أو غيرها ولا أولئك من مسلمي العالم .

ثانياً : إن الحرب التي تخوضها الدولة هي حرب دينية تستهدف تحرير المسلمين المستعبدين ، والقطاع عن الدولة ، وأنه قد وضع - بما لا يدع مجالاً للشك - أن النصارى من أعضاء الإسلام يستهدفون تدمير الدولة وتحطيم الإسلام ، لأن الدولة العثمانية هي دولة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة ودرع الإسلام .

ثالثاً : دعوة جميع المسلمين في مشرق الأرض ومنابها إلى الاتحاد والاشتراك

تمت من هجر يوليو (نور) ١٩١٤ على البارون فون وانينهايم Baron von Wangenheim السفير الألماني وإستانبول فقد سلمته مائة ألف مع ألمانيا . وقد وقعت في يوم الاثنين ١٩١٤ وافلتحت البوالتان على أن تظل الطمعة حرة . وفي ذات اليوم أعلنت الحكومة التركية القسبة العامة . ونهالان على تركيا وألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية على أن تقدم تركيا المدينة حتى نهاية شهر أكتوبر (نفسى الأول) ١٩١٤ . وفي نفس الوقت كانت أليشة المجرية الألمانية باخر عليها في تركيا وأصبحت مسئولة عن قيادة الجيش التركي . وكانت هذه المرة تحت رئاسة الجنرال ليمان فون ساندرز General Liman von Sanders وكان قد مثل منصب القمى العام للجيش التركي منذ يناير (كانون الثاني) ١٩١٤ .

Burawits J.C.; *Diplomacy in the Near and Middle East*, 2 vols. vol 1 (1535-1914) vol. II (1916-1956) New York, 1956, vol. I, pp. 1-2.

(١) جورج أكلونوس : خطة العرب - تاريخ حركة العرب القومية ، تقديم دكتور لييه أمين فارس ، ومترجم دكتور فاسيلين الأسد ودكتور إحسان عباس . بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ، الناشر : دار العلم للملايين ، ص ٢٢٢ .

في النطاق عن الإسلام وعن الأما كن القصة و مكة المكرمة والديانة للثورة
والقدس الشريف .

رابعاً : إن الجهاد الديني مرض عين على كل مسلم بالغ وقادر . وعلى المسلمين
أن يعطوا كتاب الله وأوامره كما أمرتها تلك الفتاوى الشريعة .

خامساً : إن الدولة استهفت إثارة الشعور الديني في جميع أنحاء العالم الإسلامي
على بريطانيا وحقباتها .

حرب المنشورات الدينية :

وعكفت الحكومة التركية بالصلون مع المستشرقين الألمان على طبع تلك
الفتاوى الثلاث مع تعليقات دينية عليها في كتيبات ومنشورات للتأثير في الجماهير
التي تنتسب للإسلام . وكنت بجميع الفتاوى التي كان يحكم بها للمسلمين في أنحاء
العالم الإسلامي وحررت إلى مصر والسودان والمند وقوس وأصاستان وماوراءها
عصلا عن بابل شمال أفريقيا . ولتختلف أسلوب هذه الكتيبات والمنشورات:
كان بعضها يحرص الجلود على الحرب من جيوش بريطانيا وحقباتها ، وبعضها
يدعو إلى القتل والاختلال وغيرها من الاعتداءات الفردية ، وبعضها كان يطلب
من المسلمين الامتناع عن تقديم أية مساعدة للدول عدوة الإسلام حتى حينما
يكونون معرضين لتقوية الإعداء . ولكن كانت جميع هذه المنشورات تحقق في
إبراز فكرة واحدة ، هي : أن الإسلام معرض للاضطراب بسبب أطاع بريطانيا
وحقباتها ، وأن الجهاد في سبيل النطاق عن الإسلام إنما هو فرض عين على كل
مسلم بالغ قادر .

إنشاء بحوث دينية إلى العالم الإسلامي :

وعمدت الحكومة التركية إلى إنشاء بحوث دينية تؤيد بالقول والمسانداتصمته
الكتيبات والمنشورات والبلاتل الرسمية كي يكون لها مزيد من التأثير في عروس

المسلمين . وكل الرسل من شتى الفئات : كان من بينهم وحط متحولون ، وعلماء ذوو ثقافة دبية ، وعرضون عثرهم ، انتسروا في جميع البلاد التي كان في استطاعتهم التسلل إليها ، فدخلوا الأقاليم الأفريقية التي كانت تحت حكم بريطانيا أو رداً أو إيطاليا مثل مصر والسودان وطرابلس وتونس والجزائر ، كما ركزوا جهودهم على الشعوب الإسلامية من غير الأكراد رغبة في إسمالها إلى نلبية دعوة الجهاد الديني . فدوا نشاطهم الفعالي إلى الممرد والأصل والإرانيين ، وفي مقدمة هؤلاء العرب طلب منهم للسرعة إلى الجهاد دفاعاً عن الإسلام وعن الأماكن المقدسة .

تلهم الدولة على استصدار إعلان ديني من الشريف الحسين :

وحسباً على إسماعيل مزيد من الظالم الديني على هذه الحرب طلبت الدولة من الشريف الحسين بن علي أمير مكة وتوحيها أن يصدر إعلاناً عاماً يوجهه إلى العالم الإسلامي فاحية يدعو فيه المسلمين إلى الجهاد الديني ضد بريطانيا وحليفاتها على غرار الفتاوى الثلاث التي صدرت عن إسماعيل . ولكن الشريف أحجم عن الاستجابة لهذا الطلب . ونشطت عليه الحكومة في إسماعيل سنطاً لا هوادة فيه . وأنشأت عليه البرقيات والرسائل من الصحة : من سعيد حليم باشا الصدر الأعظم ، وأود باشا وزير الخارجية ، وطلمت باشا وزير الداخلية وغيرهم من أعضاء الوزارة ، كما أخذ أحمد جمال باشا القائد العام للجيش الرابع في دمشق ^(١) بحث

(١) يوجد هضيتان عسكريتان تحمل كل منهما اسم جمال باشا . أولها أحمد جمال باشا الذي ورد ذكره في المتن . وقد كان وزيراً للجريدة في الوزارة العثمانية وصواً بارزاً في حصة الاعتماد والترقي . ووقع عليه الاختيار ليقود الحلة العسكرية من مصر لإحلاء الإصعير عنها . وقد منح من السلطات بحكم القانون العسكري ما أصبح اختصاصاً رئيساً للحكومة في بلاد الشام وقتئذياً عاماً لجيش الرابع - وقد وصل دمشق في الخامس من شهر ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩١٤ . ووصل دمشق في موكب رسمي - واتخذها مقراً لقيادته . وكان لا يهاجر زملاءه في الأخذ باتهمعت الحركة القلورية ، بل كان يؤس بالأساس الإسلامي . واعتمد في أول الأمر كسب الرضا العرب إلى جانب الدولة وسعدالة المسلمين للتعازلة القاتلة في الجهاد الديني ضد بريطانيا وحليفاتها .

الشرع الحسين على أن يصدر إعلاناً بالجهاد الديني ، وأن يبعث إلى دمشق راية الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأن يمتد جيشاً من قبائل الحجاز . وهكذا أظهرت الفواتر العليا في الدولة تلفاً على اعتصار إعلان الجهاد الديني من الشريف الحسين . وكان مرد هذا التلف إلى الملكية الدينية المرتبطة كل يتبناها الحسين . ويقول أحد الباحثين إن مكاتبة « لاسادها مكانة شخص آخر في العالم الإسلامي ، تلك المكاتبة التي تستند قوتها من سببه ومن منصبه أيضاً . وبينما كانت سلطة جبرانه ^(١) محصورة في نطاق أراضيه ، فإن سلطته كانت تتجاوز حدود بلاده ، ويقتد صوته إلى الجوار النيرة من سكان العالم الإسلامي ، فهو حفيد النبي والنبي على الأماكن القدسة . وهناك الأمران اللذان يستوجبان التجميل وضياء في منزلة يفردهما ولا يخالوهما فيها أحد ، يفتت من الرقة بحيث كان يستطيع أن يتدبر سلطان الخليفة نفسه في الشؤون التي تحصل بسلامة الدينيتين المقدستين ، فقد كان أمير مكة ، حاضرة الإسلام ومناجاة ، ولا يستطيع مسلم مؤمن أن يهمل أذنيه عن ندائه ، وخامة إذا كان مسلماً حريصاً . وكان يقع عليه وحده دون غيره عبء تأييد السلطان حينما يبان للناس أن الأماكن القدسة في مكة والمدينة ممرضة المضطر . وهكذا فإن مؤلفه - في أمر كالدعوة للجهاد - كانت عاملاً مهماً بل عاملاً حاسماً ، ولتلك كل الأثر كما يسمون بالهبة إلى المصنوع على هذه المؤازرة ^(٢) . وينسب إلى هذه الأسباب سبباً آخر هو أن رجالات الدولة في إسطنبول كانوا

== أما القضية العسكرية الأخرى التي تحمل اسم جهاد باعاً فهي شخصية محمد جمال باعاً . وكان محاصراً لبيته ، وكان لثلاث الجيشين الثامن لخلال هذه الحرب . وكان مركزه سائر . ولما ذكر اسم جهاد باعاً فيكون المقصود هو أحمد جمال باعاً .

(١) لذكر من بين هؤلاء الجيران : ابن سعود في نجد ، الإمام يحيى في اليمن ، وعبد الإله في مصر ، وبارك آل الصباح في الكويت ، وابن الرشيد في مصر .

(٢) جورج أنطونيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢١ .

يبدو كون جيداً أن الدعوة الوهابية^(١) في شبه الجزيرة العربية ، والثورة الهدية في السودان ، والمقاومة الإسلامية المليفة التي فيها الاستمرار الأوروبي في الجزائر وتونس والمغرب وطرابلس قد أظهرت أن استخدام الدافع الديني في الدعوة إلى الحرب لا يزال يحتفظ بقوته القديمة ومقدرته على إثارة النفوس ضد الاستعمار المسيحي . ولكن الشرف المحين كان يقدم رجلاً ومؤخر أخرى ، إذ كان في متفرق الطرق . هو بشكر في القيام على الدولة العثمانية وتحريك ثورة عربية هادئة تستهدف تخليص البلاد العربية الآسيوية من الحكم الممالي . وكان قد

(١) لا تدل كلمة « الوهابية » ، دالة صحيحة على الحركة الإسلامية التي نادى بها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩١) في إقليم نجد بجهة الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي أولى الحركات الإسلامية التي ظهرت في الدولة العثمانية ، وبمباركة أكثر دلة ، بين الثغوب العربية الخامسة الدولة العثمانية ، وقد أطلق مصوم عبد الحمزة الإسلامية حديثاً أسم « الوهابية » إضافةً إلى أنها وإحصاراً بأنها لا تبدو أن تكون مثلاً جيداً من المذاهب الدينية . وقد نسب هؤلاء المصوم دعوة الأراء إلى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب إلى اسم والده ، على غرار التسميات التي لحقت بالطرق الصوفية ، في بعض أسماها من أسماء مؤسسيها . أما أنصار الدعوة فيرسمون تسميتها بالوهابية . ويؤثرون أن يسدوا أنفسهم الوهابيين أو المسلمين فأحياناً على أن مركبهم الإسلامية تطلق في الرجوع إلى الفرقان والحسن ، إلى الإسلام في حالته الأولى ، إلى التوحيد . وتعتبرهم بينهم وبين من لا يؤس بمبادئهم التي هي في واقعها « الإسلام الأول والصحيحة » . وقد حدثت هذه المجاهدة في الفترة الأولى من تاريخهم التي تميزت بالعدد . أما الآن فينطلقون على أنفسهم كلمة « المسلمين » ، وقد تأكدت هذه التسمية بصفة رسمية وصريحة في قانون الذي صدر عن محكمة السيف في ٢١ من أغسطس سنة ١٩٢٦ تبرز على أن «ذهب الدولة الرسمي هو المذهب السني» .

انظر كلامي :

Documentation Française, Notes et études documentaires, no. 1529, 10 septembre, 1951.

Godohat J. E.; Les Constitutions du Proche et du Moyen-Orient. Paris, 1957, pp. 28-42.

دكتور جمال الدين الدبال: الحركات الإسلامية ومراكزها في الشرق الإسلامي الحديث - الجزء الأول : الهند والجزيرة العربية. من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ، ١٩٥٧ م ص ٥٥ - ٦٦ .

دكتور السيد رجب حرق : الدولة العثمانية وحب جزيرة العرب مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٩ ملحق رقم ١ .

تلقى في اليوم السادس عشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩١٤ عرضاً مؤرخاً في ٣١ من أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩١٤ من لورد كاتشر Kitchener وزير الحربية البريطاني . وكان هذا العرض ضمن وعداً قاطعاً للصين بأنه إذا وقف هو وأبنائه إلى جانب بريطانيا في الحرب ضد تركيا ، فإن الحكومة البريطانية تضمن له بقاءه في منصب أمير مكة واحتفاظه بجميع حقوق هذا المنصب وامتيازاته ، وأنها تحميه من كل اعتداء خارجي . وانضم لورد كاتشر ههنا الرمس بتفصيص يشير إلى أن الشريف الحسين في حالة منابته بالخلافة يستطيع أن يفتح إلى اعتراف بريطانيا به . وكان تلويح بريطانيا بهذه العروض الثرية أحد الأسباب في استنفاع الشريف عن إصدار دعوة إلى الجهاد الديني ، ولكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن مكتون قلبه ، فرد على الطلبات للكرورة التي بثت بها إليه رحلات الحكومة في إستانبول بأنه يؤيد الدعوة إلى الجهاد ويشاركها في صمت ، أما تأييده لها في الظن فأمر يؤدي إلى عواقب وخيمة ، لأنه يخشى أن يسند الأسطول البريطاني الوجود في البحر الأحمر إلى فرض الحصار على ميناء جدة وميناء بئع وسواحل الحجاز للمتعة ، ويتقطع وصول اللؤلؤ بجرماً ، فيواجه السكان أزمات خائفة في المواد القولية ، ولا تفت أن تعقب إلى عاعة ، وهو أمر يؤدي إلى اشتعال الثورة بين التباثل^(١) .

الحرب النفسية :

كظم رجل الدولة في إستانبول عيظهم ، فهم يرون أن يؤكدوا مراراً وتكراراً أن الحرب التي تخوضها الدولة ضد بريطانيا وحليفتها هي حرب دينية ، ويريدون أن يستغل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أن الثانيين هم حملة الإسلام وحماة الأما كن للعفة ، وأن أمير مكة وشريفها يؤيد علناً الدعوة إلى الجهاد . فصدت التعليلات إلى أاعة للمساعد في ولايات الشام بأن تضمن حفظ أيام الجمعة ما يبعد أن الشريف الحسين قد بارك الدعوة إلى الجهاد الديني . وصدرت التعليلات أيضاً إلى الصحف العربية بأن تقوم بدورها في المجال الإعلاني ، وتشرأن

وتضع الحقيقة التاريخية بين هذين الرأيين التضاربين أشد التضارب، ولكل رأى أساسه وحججه. ومع ذلك فلتسير إلى حقيقتين قروضنا عسيما فرساً في هذا المجال .
وتتمثل الحقيقة الأولى في أن تعطيل الدستور لم ينجح عندئذ بل لدى الأتراك السنيين .
ويقول أحد الباحثين تعليقاً على هذه العملية « إن عمل السلطان هذا لم يولد أى رد فعل في البلاد ، لأن الحياة الدستورية لم تكن عندئذ مدعومة برأى عام واضح »
ولا بطبقة قوية من المستعيرين . بل كان من عمل مدحت بشا مع جماعة محدودة من العسكريين » .^(١) أما الحقيقة الثانية فإن تعطيل الدستور استمر إحدى وثلاثين سنة لم تنتج خلالها أبواب « ضوله بأصبعه » التي كان يجمع فيها اللوالب . وكانت المحافظة على سلامة المبنى كطلب فتح قاعاته وأبوابه ونوافذه على فترات اسعس مظارة أو متباعدة لتركيب أنواع جديدة من زجاج الأبواب والنوافذ بدلاً من تلك التي تجمعت بفعل الرياح والمواسف . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث قط .
وبدل التحليل للوسومي لماتين الحقيقتين على تأمل دوح الحكم المطلق في السلطان عبد الحميد ، ففى بحكم الدولة في خيبة دستور أوقف تنفيذ أحكامه ببعض رغبته ، وأن الأتراك السنيين - كقطعة جماعية مريضة - لم يجدوا عضادة في الخضوع لما ألهه ألبؤم وأجدادهم من حكم مطلق كان يحلوه سلاطين الدولة طوال عرون وعصور وأحوال^(٢) .

(٢) صليح المصري ، مرجع سبق ذكره من ٩٨ .

(١) لم ينجح هذا السبب الذي ران على ثوب الأتراك السنيين بعد تعطيل الدستور سنة ١٨٧٨ من وجود نشاطات من ضباط الجيش والكتبة الأتراك كانوا يؤمنون إيماناً راسخاً بضرورة قيام حكم دستوري محل عمل الحكم المطلق الذي يمارسه السلطان عبد الحميد . وكان لهم نشاط واسع أحمد طابع السرية مرسومه في المجال وفي الخارج مثل جيب سنة ١٨٩١ وباريس سنة ١٩٠٧ وتكونت جهات سياسية سرية في الداخل وفتية في الخارج . وكان من بين المناهضين أحد رشا - هو الذي انتخب فيما بعد رئيساً لأول مجلس نيابي لجمع في للصروية الثانية بعد كمال وفتيات اسعرا نحو عشرين سنة . وقد أسفر من باريس جريدة « مفوريت » وصحفاً للقفرة .

(م) - الدولة الثانية >

أما الرأى للوضوح الذى نطرحه فى هذه الدراسة فيقتضى فى أن نطيل
المستور بقوله نقرم الحكومة لمواجهة المشكلات الخارجية لم يجمع ونمزع كوكورث
التيه حالت بالدولة وأظهرها بمظهر الدولة التي لا تحدة لها على إطرة شئونها . فكان
من بين هذه الكوكورث : احتلال بريطانيا جزيرة قبرص (١٨٧٨) واحتلال
فرنسا لتونس (١٨٨١) واحتلال بريطانيا لمصر (١٨٨٢) وضم الروماني
الشرق إلى بلناريا (١٨٨٥) وفرض الرقابة المالية العولية على الدولة (١٨٨١)
وفرض للرابعة الإدارية على مقدونيا (١٩٠٣)^(١) ، وعلى ذلك فإن العودة السريعة
إلى الحكم للطاقم لم تكن إلا انكساراً لنزعة أصيلة فى السلطان عبد الحميد
لهذا النوع من أنواع الحكم .

وعلى هذا النحو باتت التجربة الدستورية فى حياة الدولة النهائية فى القرن
التاسع عشر بالإخفاق .

وتكرر التجربة الدستورية فى العقد الأول من القرن العشرين حين اشتد
نشاط جمعية الاتحاد والترقى ، وكانت تضم خليطاً من أجناس وأديان شتى ،
ولكن كانت السكينة النهائية فيها من الأتراك ، وعلهم اليهود . وكان الضباط
الأتراك هم أصحاب القوة فى مجالس الحزب .

وانتهزت هذه الجمعية فرصة فرض نظام الرقابة العولية على الشؤون المالية
وأجهزة الأمن فى ثلاث ولايات هى موناستير Monastir ، وفلوسوف ، وسلايك ،
وهى الولايات التى يطلق عليها اسم جياى هو مقدونيا Macdonia . وكان قوام
هذه الرقابة خمس دول هى بريطانيا وفرنسا والروسيا وألمانيا وإيطاليا . ووجدت
الجمعية فى هذه الولايات الثلاث مفاعلاً مفعياً لمباشرة نشاطها من أجل « إصلاح

(١) انظر عرضاً شاملاً ليس هذه الكوكورث لى القسطنطين السابع عشر والثامن عشر
فى كتاب :

Miller, W.; op. cit., Chapter XVII, pp. 299-326.
and Chapter XVIII, pp. 427-473.

الأحوال السامة في الدولة النمساوية وإنهاء الحكم للظفر وإعادة الدستور. وقد نجحت الجمعية في حل السلطان عبد الحميد الثاني على إعلان الدستور. وقد تم إعلان هذا الدستور، ويسمى الشرطية الثانية^(١)، في اليوم التالي من شهر يوليو (تموز) سنة ١٩٠٨. وعلى أثر ما حدث حدد إعلان الشرطية الأولى أطلقت للظفر ابتهاجاً بصعود الشرطية الثانية. وأجريت الانتخابات العامة لأول مجلس مهوولان يجمع في عهد الشرطية الثانية. وتخلت جمعية الاتحاد والترقي في عمليات الانتخابات لصالح مرشحين^(٢). وكانت الدوائر الانتخابية قد حددت تحديداً يحقق مصلحة القصر التركي على حساب الأجناس الأخرى. وكان العرب يمثلون أغلبية عديدة على الأراك بنسبة تقارب ثلاثة إلى اثنين^(٣). وجاء تكوين مجلس للبهوتان معارفاً مع هذه الأغلبية العديدة للعرب^(٤).

(١) تم سن الشرطية الثانية لى الشرع الذى كان لهه مدتها سنة ١٨٧٦ بكل ما كان يجره من جرمه أصحت ل سنة ١٩٠٨ أهد صوا . وأعيدت إليه الحياة بحرة ظم . انظر مرشاً لأهم موكد ل :

توفيق على مر : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٠ - ١٠٤ .

(٢) انظر سياسة حبة الاتحاد والترقي في توجيه الانتخابات وجهة محمد حنرم ، في

توفيق على مر : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٤ - ١١٧ .

(٣) كان تعداد رمايا الجموة النمساوية ل سنة ١٩٠٨ ماكتة مصر قد بلغ اثنين وعشرين

مليوناً ، منهم سبعة ملايين ونصف مليون من المجلس التركي . وعشرين مليون ونصف مليون من العرب ، والأربعة ملايين الباكين من اليونانيين والألبانيين والأرمن والأكراد والعناصر أخرى أقل عدداً وأصغر وزناً .

انظر :

جورج انطونوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٩ طبعة رقم ١ .

(٤) كان عدد النواب الأتراك ل مجلس البهوتان ١٤٢ ، وعدد النواب العرب ٦٠ ،

وعدد الألبانيين ٣٥ ، واليونانيين ٢٤ ، والأرمن ١٢ ، واليهود خمسة ، والصرب ٣ ، والأفلاق واحداً .

انظر :

سالم المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٠ .

باب في سرية محمدية

فصل في السرية المحمدية :

ولم تكذب نمر تسعة أشهر على عهد للشروطية الثانية حتى اندلعت ثورة طرمة في حاصنة الدولة في اليوم الأخير من شهر مارس (آذار) سنة ١٩٠٩ فطالب بإلغاء للشروطية وإعلان « السرية المحمدية » وإسقاط الحكومة القائمة وقض المجلس العالي . وضمت هذه الثورة عصريين هامين : عنصر دهبى تمثل في الدواوين وأئمة المساجد ومن إليهم من رجال الدين ، وعنصر عسكري تمثل في جنود الحامية العسكرية للمرابطة في إستانبول . وقد وقع هؤلاء الجنود تحت تأثير الدواوين الذين نجسوا في إقائهم على زعم أن الشروطية تعالف للسرية الإسلامية ، وأن عبد الحميد خليفة المسلمين لا يوافق على الشروطية في قرارة نفسه ، ولكنه أسدوها تحت الضغط والإكراه . وفي هذه الثورة أريقت دماء حريرة وبرقة عندما تلاحق الجنود مكشاهم وحاصروا شوله بأعجبه ، وهى مغر مجلس الميوتان ، كما حاصروا الباب العالي ، وقتل الجنود وزير المالية وأحد الأعضاء الموب في مجلس الميوتان ، وقتلوا طائفة من كبار الضباط وسنارم في مكشاهم وفى خارجها ، وأرسلوا وفداً إلى السلطان يطالب بتنفيذ رغباتهم .

ولارتاح السلطان عبد الحميد لهذه الحركة أو الثورة المضادة . ولتبت مطالب الثوار استجابة قوية منه ، وقألت وزارة جديدة لتنفيذ هذه المطالب . وقال الثوار : « عند إعلان للشروطية أطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة ، فيجب أن يتم الاحتمال بإعلان السرية المحمدية بإطلاق مائة طلقة وطلقة » . وأخذ جنود الجيش يطرقون الشوارع في إستانبول ، ويطلقون الأعمرة النارية من هاتمهم ، ويسبحون بأعلى أصواتهم « بشا سون شريعة محمدية » أى عطفها للسرية المحمدية ^(١) .

وكانت حكومات الجيش تمير على هذا النوع مع دورى طليقات الرصاص وسبعات النخبة من الجواهر . وفي مقدمة كل مجموعة من الجيش - جماعة من الدواوين حامين أعلامهم المختلفة الألوان ، ويشيرون الجاس الدخان في الجوده ، ويردون الهتاف الذى اتخذوه شعاراً لهم وهو : باشا سون شريفة محمدية .

وفي هذه الثورة آتاه الجنود أنجاءاً خطيراً : نهبوا في غير هراية الضباط « المكتبية » أى الضباط المتخرجين في المعاهد العسكرية الحديثة . وكان الجنود يحتلون عنهم في كل مكان لتكلمهم بحجة تطهير الجيش عنهم ، وحتى لا يبقى في الجيش سوى الضباط « الأكلالية » ، وهم الضباط الذين نشأوا وتكلموا من بين صفوف الجنود ، بناء على خدماتهم وخبراتهم السلبية دون أن يظفروا تعليمات في المعاهد أو للدروس العسكرية (١) .

وقد واجهت جمعية الاتحاد والترقي هذه الحركة بعمل عسكري سريع وحسم . فخررت تحريك الجيش للرباط في الولايات الثلاث التي كانت مهد المشرطية الثانية إلى الآستانة . واستطاع هذا الجيش الذى عرف باسم جيش الحركة أن يحتل الآستانة . واجتمع أعضاء مجلس البورلمان مع أعضاء مجلس الأعيان في أيا استانبولوس - الذى أصبح مقراً لجيش الحركة - وحققوا جلسة رسمية فردوا فيها خلق السلطان عبد الحميد وتعيين أخيه الأمير محمد رشاد سلطاناً باسم السلطان محمد الخامس . وكان رجلاً طامعاً في السن بلغ الرابعة والستين من العمر ، ارتضى لنفسه أن يكون حمية يتركها رجال جمعية الاتحاد والترقي أنى شاموا .

واتخذ رجال الاتحاد والترقي بحكم الدولة خلال الفترة من سنة ١٩٠٨ أو سنة ١٩٠٩ على أحسن تقدير حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ إلا في فترة زمنية قصيرة . وبنشروا حكماً مطلقاً على الرغم من وجود دستور ووجود سلطان يحمل لقب خليفة ووجود مجلسين نيابيين - البورلمان والأعيان -

(١) صالح المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١ - ١١٢ .

وأُسروا إسراراً جهناً في الأخذ بنظام الحكم الاستبدادي. وكان الأتراك السلاويون الماصرون. — الذين عاصروا حكم السلطان عبد الحميد وحشوا الفترة التي حكم فيها رجال الاقتصاد والتزلم — يترجمون على حكم السلطان عبد الحميد ويذكرون هذا السلطان بالخير الكثير^(١).

والنتيجة التي تنتهي إليها من هذا العرض السريع هي أن الحكم للطلق كان سمة بارزة في الدولة العثمانية ، وأن هذا النوع من أنواع الحكم قد صاحب الدولة في جميع مراحل حياتها : في نشأتها ، وفي مجدها ، وفي انحسارها ، وفي عتوئها ، وفي انتمعالها وضمها .

(١) عبد الحميد بييم : نسخة المخطوط العثماني الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٨ .

الفصل الخامس

الخصائص العامة للدولة العثمانية (٣)

خاصة - دولة عليقية

والدولة العثمانية دولة طبقية ، يمين أنها كانت تضم أفراداً من العبيد أو الأرقاء ، وأفراداً من الأحرار . وكانت للمدينة الحاكمة العثمانية بأكلها من أسنر فرد فيها إلى الصدو الأمثل - أي رئيس الوزراء - ما عدا أفراد الأسرة السلطانية - عبيداً للسلطان ، ويطلق عليها جميعاً للمصطلح التركي بحولاد Kullar أي العبيد . ويطلق على كل فرد في المدينة الحاكمة لهذا . قول Koni أو Koni أي العبد ، ويقصد به عبد السلطان . وكان هؤلاء الأفراد يوسعون في أوراق الدولة الرسمية بصفة العبيد^(١) وكانوا لا يفسرون بشضاعة في إلصاق هذه الصفة بهم ، بل كانوا يجد نفوذهم بها .

وكانت الدولة تحصل على هؤلاء العبيد من أربعة منابع : أسرى الحروب ، الشراء ، الهدايا ، ضريبة النطق . أما للنبيح الأول وهو الأسر فقد حصلت الدولة على عدد كبير من الأسرى في الحروب التي خاضتها في أوروبا بوجه خاص . ويصبح هؤلاء الأسرى عبيداً يحكم ونوعهم في الأسر . وسفرهم إلى موضوع أسرى

1) D'Ohrson, Ignatius Mouradgou; Tableau Général de l'Empire Ottoman, 7 vols., Paris, 1788-1824, t. VII, p. 203.

ولد ولد حقا للزواج في تركيا ، وأقام فيها ردها طويلا من الزمن ، وصكف على وضع هذا الكتاب من سنة ١٧٨٨ إلى سنة ١٨١٨ . وبعد هذا الكتاب كتابه موسوعة . ولد طبع طبعين : طبعه ثامرة ، وطبعه مائة . وما يذكر أنه تولى قبل أن يتم طبع جميع أجزاء الكتاب ، فقام ابنه بالإشراف على طبع الأجزاء الثلاثة الأخيرة التي كانت معلقة .

الاربعين للسلطان في موطن قائم في هذه الدراسة . أما للنبع الثاني وهو الذراء ، فكان يتم في سوق الرقيق في حامية الدولة وفي غيرها من المدن حيث كانت تعرض تاجع بشره غفلة ، كان يسمى : بها تجار الرقيق عقب جولانهم في شتى أنحاء أوروبا . أما الهدايا وتخل للنبع الثالث من منساج البعيد ، فن المعروف لدى الملمرين والمرايين السياسيين والمكرمين وهناك إن أحب الهدايا إلى قلوب سلاطين الدولة كانت تتخل في الشبان الأصماء الأنوية . وأخيراً فإن ضريبة التلنان كانت أحص المابع الأربعة حسية . وكانت إحدى الدعائم الرئيسية التي استندت إليها الدولة ، سواء في القوات المسلحة أو في أجهزة الحكم . ويعنى لما من انحصرت للمابع الأربعة في متبين ها : الأسر ، وضريبة التلنان .

ضريبة التلنان :

هي ضريبة أسمية فرضتها الدولة على وعايها المسيحيين الذين يتقنون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة في إسطنبول . وكانت تجمع أولادهم ، وهم من خمسة ، وتحوّلهم إلى الدين الإسلامي ، وتنظم لهم دراسات علمية - مدنية وعسكرية - لتجبل منهم في نهاية المطاف أدوات إسلامية للعرب والحكم في خدمة الدولة . ويطلق على هذه الضريبة الأسمية للمصطلح التجاري : ديو ضريبة Deschurme أي ضريبة التلنان (١) .

كانت الدولة تميث مندوبين إلى المناطق التي تحتلها الممالك المسيحية . ويجمع المندوب بقميس القزيرة ويطلب كشفاً بأسماء الأطفال الذكور الذين قام بصيدم . ولم يكن هناك قانون معين أو لائحة تحدد طريقة اختيار الأولاد . وكانت الحكومة تحدد لكل مندوب عدد الأولاد الذين يحين إحتصارهم للسلطان . ويشكل المجموع الكلي للأولاد الرقم النهائي للتلنان الذين تحتاج إليهم الدولة في

فترة معينة لإعدادهم سواء للخدمة في القوات المسلحة أو في ما سبب الحكومة زوما إلى ذلك .

كانت الحكومة تمارس جمع الأولاد من الريف في العادة ، وكانت تأخذ أولاد ظرارعين ، وتستجيب لقواعي الرحمة ، فلا تأخذ الطفل وحيد والديه ، وكانت لا تأخذ الأطفال الذين في سن الرضاعة ، لأن أمثال هؤلاء الأطفال يشكون عبقاً . تميل إلى الموظفين المختصين بتفتحة النفلان ، وكانت الحكومة لا تأخذ الأولاد الذين تجاوزوا الحلق ، لأنه يصعب فصل أمثال هؤلاء الأولاد عن ماضيهم وعن أهلهم . وعن بعضهم الأول . وذلك كان مندوب الحكومة يأخذون في معظم الأحوال الأولاد الذين تفرح أحلامهم بين من السابعة ومن العاشرة^(١) . ومنذ أن يتحرك مندوب الحكومة هؤلاء النفلان من القرية إلى عاصمة الدولة تنقطع الصلة نهائياً بينهم وبين ذويهم . وكان المندوب الحكومي يخرج من القرية بحصيلة مالية وبشرية . وتمثل الحصة المالية في الرشا التي يحصل عليها من بعض الآباء اللوسرين في ميل التناسل عن جمع أولادهم ، وكانت هذه الحصة المالية تختلف فة وكثرة تبساً للفرجة وراء الآباء من ناحية ، ومدى جشم المندوبين من ناحية أخرى . أما الحصة الملبسوية فتتمثل في أولاد يحصل عليهم لحسابه بطريقة غير قانونية ، وفي بعضات القاعات ليسهن لمن يهوى جمال القوام وفتحة الوجه وميزة السبا . وكان المندوب

(١) يقرر مجلس المؤرخين أن الدولة الشياية كانت تأخذ الأولاد الذين تفرح أحلامهم بين الثانية عشرة والخمسة . انظر Iybyay op. cit. p. 59 ومن الصعب أن تأخذ بهذا الرأي ، لأن الأولاد في مثل هذه المرحلة للتأخرة نسبياً في السن يمكن في حكم الاستحالة عليهم أن ينسوا آباءهم وأميهم ومدى تربسهم وديانتهم والوسط الذي تربسوا فيه . وكانت الدولة تحرس حرساً بالغا في أن ينس هؤلاء الأولاد ماضيهم . ولذلك كانت تسرع في مجرد وسولهم إلى الخدمة في تحويلهم إلى الإسلام وفي تدريبهم تدريباً مدنياً وعسكرياً . انباء استدال سائر كتيبت : وسبح من اللحيان لدى الأطفال ، فلا يدركون هؤلاء ماضيهم . وهو أمر لا توفر إلا إذا انزعوا من أهلهم في سن مبكرة . وسبيل موضوع تحديد السن التي كان يؤخذ فيها النفلان موضع خلاف بين المؤرخين . ولكل فريق أسابده .

لا يتورع عن عرض هذه الحسية البشرية التي جسمها لنفسه لييهما في سوق الزميق بالماسمة أو يطوف بها على كبار الموظفين أو حل من يأنس فيهم شتاً بالجلس ومقعدة على اعتداء الآتلت الفاتحات .

وي عاصمة الدولة كان حصول الأولاد إلى الإسلام ، وتجري لهم جراحة الفخنان *Le circoncision* ، ويحققون أول الأس تربية دجلة ، فيضطون مبادئ الدين الإسلامي ، ويحشرون دراسات في اللغة التركية ، والتاريخ الإسلامي العام والتاريخ الثاني ، والنظم الثمانية وما إلى تلك وفق مناهج وضعت بمسألة ، واستهدفت نحو كل أثر من آثار أسوظم وعواظهم للمسيحية الأولى ، فيلشأون على التمدك بالدين الإسلامي وينتلق بالدولة الثمانية . وكانوا إلى جانب هذه الدراسات للمدية يققون تربية عسكرية سارمة بترداد عتفاً كلاً أشهد صاخدم .

وكان هؤلاء الأولاد يقسمون إلى ثلاث مجموعات حسب لياقتهم البدنية ولدراتهم العقلية ، فيوزعون في السكان التي يبدو مناسباً لكل منهم .

المجموعة الأولى : ويعد أفرادها لشغل وظائف التلطن في القصور السلطانية وكانوا في الخدمة أجمل الأولاد شكلاً . وهؤلاء يققون نوعاً من التدريب في القصور السلطانية في بروسة ، أو أدنة ، أو غلطة ، أو عاليولى ، كما كانوا يلتحقون بمدارس سلطانية خاصة في قصور إستانبول . وكان يطلق عليهم إيج أوغلانات أي غلمان الهلاط (١) ويسمون للخدمة في القصور السلطانية .

المجموعة الثانية : ويعد أفرادها لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة . وهؤلاء أيضاً يققون تلياً عسكرياً ومدنياً ختساً . وكان بعضهم يسل إلى منصب الممدارة العظمى أي رئاسة الوزارة . وكان يطلق على أفراد المجموعتين الأولى والثانية المصطلح للتاريخي أو التركي « أوج أو غلان » ومؤدى هذا النظام أن الدولة الثمانية سمحت طوازية يسمح أطفال مسيحيين من أبناء وعاياها ثم حوت

هؤلاء الأبطال إلى الإحلام ودرجهم تدريجاً مدنياً وعسكرياً على أرفع المستويات ،
ولكن جنتهم عبيداً أرقاء وصحبت لهم بالزواج من أميرلاتومن في مستواهن ،
وانخفضت مع هؤلاء السيد للسلمين الدارين - وفي وضعهم الجديد الاجتماعي والديني
والرسمي - حكماً ما يشتركون في حكم دولة إسلامية ويوشون في مستوى رفيع
ويجسسون بين اللزوم والجلد والنفوذ .

الجموعة الثالثة : كان يد أراهما لم يكونوا فرق مشاة في الجيش الثاني ،
ويطلق على أفراد هذه المجموعة : الإنكشارية . وكان تعدادهم ساحقاً جداً بالنسبة
لسد المجموعتين الأخرتين . وسنرجع الحديث عن أفراد المجموعة الثالثة ، وم
الإنكشارية ، إلى موطن قادم في هذه الدراسة عند شرح تشكيلات الجيش الثاني
امتيازات الفولار :

نحج الفولار - وهم السيد أفراد الهيئة الحاكمة في الدولة - بمة امتيازات
كان من بينها :

أولاً : كان شغل المناسب في الدولة مقصوداً على طبقة الفولار ، وكانوا
يخرجون في هذه المناسبة إلى أعلاما ، فتمصروا بمركز اجتماعي ومادي وأدبي
مرموق . ولم يكونوا يشعرون - كما سبق أن ذكرنا - بفضاضة أو امتحان من صلة العبد
التي تلحق بكل منهم ، بل إنهم كانوا جميعاً يشعرون بشرف وشرف لأنهم عبيد
السلطان ، وطريق السبوحية هو الذي سما بهم إلى الدرجات التي في حياتهم الوظيفية
ثانياً : نحج الفولار بالإعفاء الضريبي . وقد حافظ الأستاذ الأمريكي ليرير

Lybyer من هذا الإعفاء ، قائلاً إنه من التفانيات أن يقوم السلطان بالإعفاء
على هؤلاء الأفراد السيد إعفاءً كلياً يشمل للسكن والمأكل والملبس وغير ذلك من
وجوه الإعفاء ، وينفق عليهم في ثلث الوقت للرتبات والامتيازات ، ثم يرضى

عليهم ضرائب . ثم يقول إن السلطان لم يوفر لهم كل ضرورات الحياة فحسب ، بل هيأ لهم - أو لعدد كبير منهم - حياة متونة خلقة بالكفايات بفضل الدخول المالية التي كانت الدولة تقدمها لهم تحت مختلف الأسماء . ويخلص من تلميحته إلى القول بأن السلطان كان يريد من السيد أفراد الهيئة الحاكمة أن يهتموا بمرغاً تاماً بخدمة السلطان والدولة ، كل في الموضع الذي يميل فيه ، وكيف لا يريد أن يشغلوا أذهانهم بأى تدكير في مسألة طارئة أو خالصة من صميم عملهم .

وهذا القول هو دفاع واه لا يأخذ به أى باحث محايد فلا يستبر دفع الضرائب نظراً الدولة أمراً يدعو الفرد إلى الانصراف من مهام منصبه أو مكانه يشتهه عن التفرغ لعمه . والحكومات لا تفتى أصحاب الدخول الكبيرة أو التوسعة من دفع الضرائب ، بل إنها على العكس تتعاقد بسبب الضرائب كلما ازداد حجم الإيراد المأم للبولين . وفي ضوء هذه الاعتبارات يمكن القول إن الإغناء الضريبي الذي تمرته الدولة لطائفة الثولار هو تمييز للنظام المطبق الذي أخذت به الدولة ، وأحدث جنوة متقدمة من الحقد في نفوس الجماهير السكادحة ، وبخاصة بعد أن نفت الدولة الإغناء الضريبي إلى الهيئة الحاكمة الأخرى وهي الهيئة الإسلامية .

ثالثاً : الإغناء من الخوض للقضاء المادى الذى كان يخضع له رعايا الدولة
الذين هم خارج نطاق السيد أفراد الهيئة الحاكمة . وكان القضاء المادى يمثل في الحكم الإسلامية حيث كان القضاء للسلمون يخلصون في القضايا التي ترفع إلى هذه المحاكم . وسر السيد أفراد الهيئة الحاكمة بضائنة بل وكراهية لخضوعهم لسلطانها كقضاء الإسلامية المادية ، لأن عصاة هذه المحاكم كانوا يظهرون الهيئة الإسلامية ، وهم بذلك ينفقون إلى تشكيل طبلى آخر . وكان السيد يرون أيضاً أن الدراسة التي تلتها القضاء كانت مقصورة على القانون ، بينما كان تعليم السيد يشمل الدراسة الدينية والمسكزية . وخرجوا من هذه الفارقة إلى أن تعليمهم كان أرقى وأعمق وأكثر تعدياً من دراسة رجال القضاء .

رأى السلطان بايزيد الثانى (١٤٨١-١٥١٧) - وكان يميل إلى السلم - أن يرضى خيوط عتولا- الفولار ، فقرر إعطائهم من الخنوع قضائى العادى ، وإنشاء عراك خاصة بهم تتكون من منباط منهم ، تنظر فى القضايا الخاصة بهؤلاء السيد ، سواء كانوا من القوات المسلحة ، أو من أعضاء البلاط السلطانى ، أو من رجال الإدارة . وكان إعطاء الفولار من الخنوع للمعالم المادية تنبيراً جذبياً فى النظام القضائى للدولة وإكثراً من امتيازات السيد وتسميها للفروق بينهم وبين أفراد الهيئة الإسلامية . وسرطان ما ظهرت آثار هذا النظام القضائى ، مما أدى إلى فصل الفولار عن بقية مكان الإميراطورية ، كما أصبح هؤلاء السيد يكونون لومة قائمة بذاتها ، أو كما يقول المؤرخ الأمريكى ليبير « لومة منفصلة » ^(١) . a separate nationality

وعلى الرغم من هذه الامتيازات فقد كان وضع الفولار شامكاً حقيقياً ، كانوا محرومين من الحقوق المدنية ، إذ كانوا يعتبرون ملكاً للسلطان . وى استطاعته أن يأمر بإعدام من يشاء منهم دون اللجوء إلى إجراءات قضائية ، وى وسه أيضاً أن يصادر ما يشاء من ثروتهم عقب وفاتهم ، بل قبل أن يحتويهم القبر ^(٢) . وقد نفاسى هر من الباحثين هذه الصورة القاعة من حياة الفولار ، واستقرت فى أدهانهم للصورة الأخرى الموضحة ، وى امتيازاتهم . والدراسة للوضعية تتطلب أن نذكر كلا الجانبين - التام والوضى - ونخلص إلى أن هذا النظام ، على الرغم من اللأخذ التى سجلناها عليه ، قد أخرج الدولة رجالاً على جانب كبير من الكفاية ، ولكنه أوجد بعض الزمن حقناً طبعياً ، وحمل على تقبيل وحنة المصفين المسلمين فى خدمة الدولة .

حدد الزحيا للمسلمين الأحرار على السيد :

« ذكرنا أن الفولار - وهم طبقة السيد - قد انصهروا قضائياً ومالياً وغريباً

1) Lybyer A.H., op. cit., p 116

2) D'Ohannon ; op. cit., t. VII, p 148

واجتماعياً عن رعاية الدولة . وأصبح العبيد يشكلون طبقة قائمة بذاتها تجمع بمقوق واستعازات لم يجمع بها سائر رعاية الدولة . وكان هذا الفصل بين العبيد ورعاية الدولة الأحرار في الحقوق والامتيازات من أم الأسباب التي أدت إلى تقود الرحالة الأحرار من العبيد وتزايد الحقد الطبقي ، مما أدى إلى خصم ما يمكن أن نسميه الوحدة أو الالتصام بين الجماعة الجاهلية في الدولة وبين الهيئة الحاكمة فيها . وقد أدى هذا الاتصال من ناحية ، والامتيازات التي أعطت على القولا من ناحية أخرى ، إلى انهيار هذا النظام ، فلم يأت القرن الثامن عشر إلا وكان النظام القائم على وجود هيئة حاكمة من العبيد قد تهاوى . إذ انزعج للمسلمون الأحرار تقريباً كل الوظائف التي كان يحكمها أفراد طبقة القولا^(١) . وكانت هذه النهاية أصراً طبيعياً ومتوقفاً ، لأن احتكار العسكريين العبيد لمناصب الدولة العسكرية والمدنية ساءاً ، وحجب هذه الوظائف عن رعاية الدولة الأحرار ، والحيلولة بينهم وبين ما يشتهون من الاشتراك في شئون الحكم والإدارة وإيجاد نصيب : هذه ممتازة ومتميزة هي فئة العسكريين أو أهل الثقة ، وفئة مهمة هي فئة أصحاب التخصصات العلمية الرفيعة ، أو أهل الخبرة ، كل أولئك أدى إلى حدة نتائج ، كان من بينها دفع الحكم الثاني بالطابع العسكري للتصعب ، والحقد الطبقي ، وحرمان البلاد من كفاءات كثيرة ، بحيث لم يعد لدى الدولة رصيد من العناصر غير العسكرية تستطيع أن تدفع بها بحجة الإصلاح إلى الأمام . ولم يدرك المسلمون كل هذه الجيوب إلا في وقت متأخر^(٢) .

وكان رعاية الدولة للمسلمون الذين ولدوا مسلمين من آباء وأسبقت مسلمين Moslem born subjects يشعرون بحاجة للنظم الرابع طبعهم ، لأنه كان عموماً عليهم الانتهاء إلى الهيئة الحاكمة التي احتكرت مناصب الدولة في البلاط السلطاني والحكومة والجيش . وزاد من مرارة هؤلاء المسلمين أن أجدادهم وآبائهم أرتابوا

1) Gibb, Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. I. Part I, p. 66

(٢) دكتور عبد الكريم خرايه ، مرجع سبق ذكره ص ٣٢ .

دماءهم غزيرة على ترى الأراعى التى فصرها انتصاراً للحبة النبيلة ، ثم لى خذتهم
الفت ، فلا تسمح لهم الدولة بطلب الوظائف ، ينيا تنفق الامتيازات إعتنائاً على
أولئك السيد الحديى عهد بالإسلام ، لأنهم ولعوا جميعاً مسيحين من آباء
مسيحين وأمهات مسيحيات . واختفى الأمر بأن وضعت شئون الدولة فى أيدى
أناس جاءوا إلى الحياة الدنيا مسيحين ثم أخذتهم الدولة وحملتهم على اعتناق
الإسلام ودرتهم على شئون الحكم والإدارة والحرب وقصعت لهم أبواب الرزق
كولبر على مساريها .

The Moslem born population came to feel that somewhere there was a great injustice. They whose ancestors had shed their blood for the faith were, in the lands which their fathers had conquered, dealed admittance to the class which not only filled most of the offices of army and state but enjoyed high privileges. Some of the conquered inhabitants, infidel-born, might alone become nobles paid by the state rather than contributing to its expenses, not subject to the judges trained from boyhood in the Sacred Law; which their own Moslem sons were riding excluded from the honored class, were obliged to bear a part in the burdens of the state with small hope of sharing its glory, and were expected to take their chances before the same courts to which Christians and Jews were brought for civil and criminal cases. The very extent of the Kullar made toward the break-down of the system.¹⁰

1) Lypps, A. H., op. cit., p. 117.

وقد أسفر نظام القولا — العبيد — عن وجود طبقتين مسلمتين كائناً من العبيد أو الأرقاء : طبقة عسكرية تتمثل في فيالق الشاة ، وهم الإنكشارية ، وطبقة حاكمة تتولى للناسب القيادية و الهلاط السلطاني وى الإدارة وى حكم الولايات . وقد دوت كل من هاتين الطبقتين لفرض الذى خصصت له فالجرب والحكم وى الدولة العثمانية كلاًهما علم يحصل عليه بالدراسة والتدريب الأفراد العبيد وهم الهيئة الحاكمة . وبذلك كانت الكفاية هى الميار الأول وى الالتحاق بالجيش أو وى تعلق للناسب الإحاربة الكبرى . ومن هذه الناحية كانت الدولة العثمانية تختلف عن الدول الأوروبية المناصرة لها . فقد كان تقلد للناسب الكبرى فيها مقصوداً على عرلة الأسى وكرم المجد ، فلا تشغل وى مظلم الأحوال إلا طبقة نظام القروانة يتقلدها النبلاء والبارونات والأدواق ومن إليهم من أسعاب الرتب والألقاب اللوونة .

طبقة الأحرار :

وإلى جانب طبقة القولا — الأرقاء أو العبيد — وكان أفرادها يشغلون مناصب قيادية و غير قيادية و العديد من المصاطات الحكومية العسكرية والمدنية و يشتمون بإعانات وامعيازات شتى ، كانت توجد طبقة أخرى من الأحرار هى أفرادها وظائف قيادية و غير قيادية وى قطاعات حكومية أخرى معينة ذات طابع دى إسلامى . وىسمى أفراد هذه الطبقة إلى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة The Religious Islamic Ruling Institution وهو مصطلح جرت به أفلام الباحثين الأمريكين والأوربيين . وكان أفراد هذه الهيئة أحراراً ، بمنى أنهم لم يكونوا قط عبيداً ، ولم يسلكوا الطريق الذى سار فيه القولا . وكان أبائهم مسلمين ، وولعوا مسلمين أحراراً ، ونشأوا وترعرعوا أحراراً ، وقلعوا أحراراً . وكانت هذه الهيئة تضم جميع المسلمين فى الدولة العثمانية خرج الهيئة الحاكمة التى

كان أفرادها في مستوى أعلى من مستوى السلم الهادئ^(١) وكانوا يعولون مناسبات القضاء والإفتاء وإدارة الأوقاف ، وينظرون في جميع المسائل التي تعلق بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ويباشرون مهنة التعليم ويشرفون على المساجد ومسائر المنشآت الدينية والؤسسات الخيرية ، وكان لهم نظام تعليمي خاص يختلف عن النظام التعليمي الذي خضع له التتولار .

ولذلك كان أهم اختلاف بين الهيئة الإسلامية والهيئة الحاكمة - التتولار - أن أعضاء الهيئة الإسلامية جاؤوا إلى الحياة من حالات مسلمة ، وظلوا على الإسلام في شتى مراحل حياتهم ، بينما جاء أعضاء الهيئة الحاكمة من حالات مسيحية ، ثم جمعتهم الدولة طبقاً لنظام ضريبة الثلثين ، ثم حولتهم إلى الإسلام ، ودربتهم تدريجاً حاسماً توطئة لشغل وظائفهم في البلاط السلطاني أو في مناسبات إدارية أو مراكز عسكرية .

وكان السلطان على رأس الهيئة الإسلامية ، وهو الذي يمين من أعضائها كبار المسلمين في المناسبات العليا في الهيئة الإسلامية ، وله الإشراف على دخلها المالي ، ويعين مشرفين يعولون المرتبة على شئونها المالية . وعلى ذلك ظاهرياً الرئيسيان في الدولة العثمانية ، وهم التتولار والهيئة الإسلامية الحاكمة ، كانتا تلتقيان في شخص السلطان ، كما كانتا تلتقيان في المستويات الأقل في العلاقات المالية الحكومية وغيرها . ونظراً لأهمية هذا الموضوع على أساس أن الدولة العثمانية كانت ذات طابع ديني إسلامي عميق ، سنفرد في موطن تقدم في هذه الدراسة معاملاً مستقلاً عن الهيئة الإسلامية كهيئة حاكمة .

(١) محمد الأستاذ الأرميني ليد تكملة الكتب الإسلامية وهو ما في هذه النسخة

على النحو التالي :

It (The Religious Islamic Ruling Institution of the Ottoman Empire) included all those Mohammedans in the Ottoman Empire, outside of the Ruling Institution, who were in any way lifted above the level of the ordinary believer ,

Bybryer A. H., op. cit., p. 199.

(م - ٩ - الدولة العثمانية)

الفصل السادس

الحصائص العامة للدولة العثمانية (٤)

سادسا : دولة إقطاعية ، من نوع خاص

والدولة العثمانية دولة إقطاعية من نوع خاص . وتغلط طائفة الإقطاعيين ، نظام الإقطاع الحربي من ناحية ، ونظام الالتزام من ناحية أخرى . وسعبر من أولا عرضاً سريعاً للملامح العامة لنظام الإقطاع الحربي ، ثم مستكمل عرض بعض ملامح أخرى لهذا النظام في موطن قائم في هذه الدراسة عند تناول تشكيلات الجيش العثماني وتكوينها واختصاصاتها .

نظام الإقطاع الحربي :

طبقاً للنظام الإقطاعي الحربي كان السلطان يمتع أولاً زراعية لأفراد من سلاح الفرسان - أو انطباعاً بمصطلح ذلك العصر - ويستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بعضهم مستأجرين . وكانت هذه الأراضي تسمى إقطاعيات^(١) ، وكان يطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش عن طريق الإقطاع الحربي اسم السباهية الإقطاعية^(٢)

(١) كان يطلق على هذه الإقطاعيات اسم « دربريكات » أي دوق . ومفردها « دربريك » ، وقد استخدم هذا المصطلح للملاة على أي مورد رزق يقدمه السلطان لمن يخدمونه ، سواء كان هذا المورد في صورة أموال سالكة أو على شكل أرض .

(٢) السباهية كلمة تركية مأخوذة من أصل فارسي ومعناها الفرسان . وتكتب في نسخة لفرانسوا سيامي . ونجس ل اللغة التركية سيابيهي . وتظهر في التراجم الفرنسية والإنجليزية في عدة سياقات البلية ملحقة مثل :

Sipab	—	Sipahi	—	Spahi
Spacollain	—	Spai	—	Spachi

Federal Spahis . وكان هذا النوع من الفرسان الإقطاعيين^(١) لا يتناولون مرتبات نقدية من الحكومة ، بل كانوا يعتمدون في معيشتهم على المحاصيل الزراعية التي تفلحها لهم الإقطاعيات المنوحة ، ولذلك كانوا يعدون الملاحين مادة بالماشية والبذور . وفي هذه الحالة كل السباهية الإقطاعيون يسفلون على نصف المحصول^(٢) ، كما كانوا يعتمدون على حسيه الشجر وغيرها من الضرائب المقررة على الملاحين - الأرض أو المحاصيل - ويعومون بمجانيها منهم لحسابهم . وكانت الإيرادات التي يسفلون عليها يطلق عليها للمصطلح التركي « مال مفتاة » بمعنى مال الفتاة . وهاتان السكتتان عريضا الأصل .

وفي مقابل هذه الامتيازات كان على هؤلاء الفرسان الإقطاعيين أن يقدموا للبحر - طائفاً تشكك القوة في حرب - ومعهم عدد من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم . وكان عدد هؤلاء الفرسان الإقطاعيين يتناسب تناسباً طردياً مع مساحة الإقطاع الخريف ومع الإيراد الذي تنه عنه هذه الأرض الإقطاعية .

أنواع الأراضي الإقطاعية :

وكانت الأراضي الإقطاعية على ثلاثة أنواع ونسبة ، هي :

أولاً : إقطاع مساحة صغيرة نسبياً ، ويسمى « تيلر »^(٣) و Timer وكان

(١) يختص الكلمة في الصيغة الأصلية أن تعرف كلمة « إقطاعيين » بـ « تلة فرسان » أو سباهية تيمراً لهم من ست مرق من فرق الجبل أو الجيش الثابت Standing Army وكان يطلق على هذه الفرق التي : القيلة فتاة standing Cavalry كانت من « بها » لذلك تسمى « مفوق جي » أي الرجال الذين يتناولون مرتبات ، وغير ذلك تسمى « غريباء » وفرسان تسمى بالسفارات ، يعني هذه السلاح أو السيوف ويستمرى هذه الفرق التي بالمرح هذه الكلام على الجيش الشبان .

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. 1, (٧)
Part 1, p. 247.

(٢) تيلر كلمة فارسية التيها التنايون من اللغة الفارسية ، وهي ترجمة لكلمة pronia اليونانية ، وهي تابل في اللغة اللاتينية فتاة cura ، وأخذت منها curator الإمبرية curatore الفرسية . ومثلاً ، علف وه ، أو وصي ، أو وكيل تركي ، أو ولي ، أو ليم .

يطلق على التابع الإقطاعي « تيارحى »^(١) . ويقل هذا التيار على صاحبه إيراماً يبلغ ثلاثة آلاف أقبية، وهي حصة ثابتة من الخمسة^(٢) . وكان على التابع الإقطاعي أن يقدم إلى الجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان يتراوح بين اثنين وأربعة بخيولهم وأسلحتهم^(٣) .

ثانياً : إقطاع أكبر مساحة من الإقطاع السابق ، ويسمى « زعامت »^(٤) يمنحه السلطان لفارس إذا أظهر كفاية قتالية . وكان يطلق على صاحب « الزعامت » اسماً جديداً هو « زعيم » . ويقل هذا الإقطاع على صاحبه دخلاً يصل إلى مائة ألف أقبية . وفي مقابل هذا الدخل الكبير نسبياً كان على الزعيم أن يقدم للجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم . وكان هذا العدد يحدد بنسبة فارس عن كل خمسة آلاف أقبية

وكان هذان النوعان من الإقطاع الحرى - تيارحى وزعامت - يخضعان لنظام التفتيش يقوم به موظفو الحكومة المختصون ، ويسمون « القرداريون »^(٥)

(١) كان يطلق أيضاً على صاحب التيارح تيارحى ، أو أهل تيارح ، أو تيارحى .
(٢) الأقبية مئة فنية صغيرة الحجم ، واسمها بالكامل أقبية مقابل وللظم الأول من السلطنة « آق » ، أحوذ من الفنة التركية ومائة أقبية ، وللظم الثاني من السلطنة « آق » ، مأخوذ من الفنة الفارسية وهو يصير سلطنة أقبية . وكان يطلق على السلطنة في نظام الأحيان ضيائل . وقد صرحت هذه السلطنة على عهد السلطان أورخان بن غازي (١٣٢٦ — ١٣٦٠) وكانت لعدد من كلمة آق ، الفنة كلمة رسمية لم يتجر وزبها أو طرزاها حتى نهاية القرن السابع عشر . وكان للزورقون الأوروبيون عندما يحرصون الفنة النهاية يذكرون كلمة أسر Aspre أو Aspre وهي كلمة يونانية بمعنى أبيض . ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن كلمة آقبة قد استخدمها الأتراك للإشارة قبل الأتراك الدينايين وكان وربما لا يريد على وجه مثالي من الفنة الخامسة نسبة ٩٠ ٪ ولم تكن قبلها مستقرة .
الظر :

Gibb Hamilton and Harold Bowen. op. cit., Vol 1, Part II, p. 49. f. n. 2

(٣) كان السلاح أول الأمر القوس والنفخ ، ثم تطور إلى الرمح الخفيف والسيف القصير ، ثم المنفرة الحديدية ، والخنق الصغير للستدر ، وأحياناً الدرع والقنطرة الفاتكة .
(٤) زعامت اخذت من السلطنة العربية « زعامت » .
(٥) القرداريون سرحداً القرداريون والقرداريون هم فئة من كبار رؤساء اللوثقون المختصين في الشؤون المالية سواء في الحكومة المركزية أو حكومات الولايات المحلية .

وكانت تربية الخيول والمطالبة بها وتدريبها تدريجاً متواصلاً أموراً تعدى مقدمة واجبات صاحب الإقطاع العرفي . فإذا استثنى لوهي الحكومة في أثناء دوراتهم التنفيذية على الإقطاعات الحرية إجمالاً أو تراخ من صاحب الإقطاع في تربية الخيول كان هذا الإجمال أو التراخي سبباً كلياً لانزعاج الإقطاع منه .

وكانت الإقطاعات التي من نوع « تيارات » و « زعامات » توجد في ولايات الدولة المحكومة من إستانبول رأساً حواء في أوروبا أو في آسيا ومع ذلك فلم تطبق للدولة هذا النظام على جميع تلك الولايات ، فكان هذه الإقطاعات لم تكن تخضع تماماً للنظام واحد في جميع المقاطع . ومن الأمثلة التي طبق فيها نظام الإقطاع العرفي : الروملي - بودا - اليوسفة - طمسفر (١) - Turnover - ديار بكر - أدرورم - دمشق - حلب - بغداد - شهر دور - الإمارات الأناضول - جزر الأرخبيل - قرمان - صوحى - سيواس .

وكان أسوأ السباهية مركزاً يذهبون إلى الحرب دون اتفاق ، راكبين خيولهم ، ويرتدون صديريات من الزرد ومعهم خيامهم .

القلبيج والقرقي :

وكانت الأرض المملوكة سواء كانت « تيارات » أو « زعامات » تتسكون في العادة من جرعين هما : الأرض الأصلية ، وتسمى « قلبيج » (٢) ، وإضافات تسمى « قرقي » (٣) وكانت هذه الإضافات تتمتع بقصد توفير حشر المحصول التي يدرها « القلبيج » . وكانت أجزاء الإقطاع المكونة من هذه الإضافات تسمى

(١) ملحقاً أحد أقاليم البحر . ولد قسم في سنة ١٩١٩ في ديوجوسلانيا ورومانيا .

(٢) طبع لفظاً تركية بمعنى سيف . وكانت الأرض الأصلية من الإقطاع تسمى بهذا الاسم .

الاسم ، لأن إيرادات التي يملكها هذه الأرض الأصلية تخرج كلية لتغطية نفقات السباهية وإعطائهم .

ومن هنا كانت تعد السطاح سبباً في أثناء الحرب .

(٣) التهمت هذه الكلمة من الكلمة العربية: قرقي .

أيضاً « حصة »^(١) وكانت الحكومة تلتجأ إلى اقتراح هذه الحصص من حوزة إقطاعي وإسائها إلى إقطاعي آخر. وقد استغلت الحكومة هذه القاعدة لتشجيع كل سباهي على الوفاء بالتزاماته على أكل وجهه ، لأنه يرى رأى العين أن الإقطاعي الذي يظهر تراحياً في منه تواقبه الحكومة بجمعيته من الحصص وإسائها إلى إقطاعي آخر . ويستبر هذا الإجراء بمثابة إنذار للإقطاعي للتراجع في عمله . فإذا استمر متكسلاً لحالت الحكومة إلى إجراء أكثر حزمًا وأشد قسوة ، وهو تجريد من الأرض الأصلية - طليح - بصفة مؤقتة أو دائمة . ولكن ما حدث كان العكس تماماً ، فإن التجارية - وهم أدنى درجات السباهية المعادين من أصحاب التيارات - كانوا يطعنون في جبر تاريخ الدولة الثمانية إلى الترتي إلى مرتبة « زعيم » أي صاحب « زعامات »^(٢).

ثالثاً : إقطاع أكبر سلسلة من الفوجين الأولين ويسمى « خاص » . وقسماً من ساحتها الكبيرة ، وهذه كانت في حد ذاتها ميزة ، كانت له ميزة أخرى تتمثل في عدم خضوعه لتفتيش المفتدلو أو غيره من موظفي الحكومة . وكان هذا الإقطاع « الخاص » يحص فولاة الدين في الخدمة الحكومية . فإذا ما تركوا مناصبهم نتيجة الرقعة أو التمرل أو الترقية إلى منصب آخر ، تزع منهم الإقطاع « الخاص » . وجدد بالذ كر أن بعض « التيارات » و « الزعامات » كانت تمنح لبعض شاعلي المناصب الكبرى في الدولة ، فكانت تشبه الإقطاع « الخاص » الذي كان يرتبط بالمناصب .

وقد طبقت الدولة النظام الإقطاعي العمومي منذ وقت مبكر جداً يرجع إلى بداية حكم الأتراك العثمانيين حين كانوا يشكلون إمارة صغيرة في القبائل التتار

(١) جاءت هذه الكلمة من لفظة عربية هي « حصة » هي نصيب الفرد من نصيب لإيراد محاسبات نظرية مثلاً .

2) Gibb Hamilton and Harold Bowden : op. cit., vol I, Part I, p 49

لأهلها المعنوية ، ثم توسعت الدولة في تطبيق هذا النظام الإقطاعي المعرف .
وكل بشرط في الأتباع الإقطاعيين أن تكون أسولهم عثمانية بجهة ، ولذا تفرق
الشك إلى أن أسولهم خير عثمانية سرحوا قوفاً وانشرع منهم الإقطاع المعرف
وما يستقيمه من امتيازات .

خواص هايون - يورتقلات :

ويحاط هذه الإقطاعات العرقية كانت بعض الإقطاعات التي من نوع
« الخالص » ملكاً حاصراً السلطان ويطلق عليها « خواص هايون »^(١) وكانت
أكبر وأهم الإقطاعات جميعاً من حيث المساحة وجودة الأرض ، وكان السلطان
يجمع أجزاء منها لبعض أعضائه الأسرة الحاكمة من أميرات وسيدات من حريمه .
كما كانت هناك أراضي أخرى لما الطابع الاقتصادي العسكري تأسيساً على
أن الإيراد الذي تلت هذه الأراضي يخصص لإعاقته على الأفراد العسكريين
مثل أفراد حرس الحصون والجانبيات الخفيفين على السلاح المعرفي وإستابول .
وكانت هذه الأراضي تعرف باسم اليورتقلات^(٢) و « الأوجاقلات »^(٣) .

توزيع الإقطاعات العرقية :

كان نصف الأراضي الإقطاعية في أيدي السباهية ، وتوزع على شتى نواحي

(١) سبق أن شرحنا معنى هذه الكلمة في هذه الدراسة ، ص ٩٧ ، جنسية ولم .

(٢) يورتقلات ومفردتها يورتقل ، معناها الخيمة ، أو البيت ، أو مسطد الرأس ، أو
الوطن - والإسماء في نهاية الكلمة - وحسب أن « في صيغة التثنية ، ولأن في صيغة الجمع
معناها « ملكة » وبذلك يكون للملك شكل : ملكة بيت أو الخيمة أو مسطد الرأس
أو الوطن .

(٣) أوجاقلات كلمة تركية تعني من أوجاقل بمعنى سوك ، أو قرية عسكرية .
ويستخدمها المعرف على هذا النحو : وجاقل أي رجل ، تنسب إلى قرية عسكرية . ولأن هذا
اللازم يسميها وجاقلية

والإضافة الزائدة في نهاية هذه الكلمة : أوجاقلات وحسب ذلك هي صيغة الجمع ، وإنما
أن في صيغة المفرد ، ومعناها ملكة - - - . وبذلك يكون معنى الكلمة المذكورة في المتن
هو رأس الخيمة أو أوجاقل أو أرض ملكة للقرية العسكرية .

السكروين الإقطاعيين . فكانت الأرض الإقطاعية ذات الدخل في متناول^(١)
جاذى توزع على العصر الآتي :

(١) منقول لغة تركية لها عدة معان : (١) علم أو بعث *une benedice*
(٢) نزل أو فرقة ، أي تفصيل ، أي تفكيكات الجيش *une brigade* (٣) قسم إداري كبير
وولاية يمكنه أحد البكوات *une circonscription territoriale administrative*
per un boy (٤) الحاكم على أحد القسم الإداري الكبير ، كما كان يطلق على الإقليم الذي
يمكنه منقبة .

وفي تاريخ مصر ليلان الحكم العثماني كانت ترد كلمة منقول في أحد منتهين . أولها مراد
رنة أو وظيفة *titre ou fonction* لهذا كان يحمل الرتبة ولا يشمل منصباً ، أطلق عليه
« منقول بقال » وهذا اللفظ مأخوذ من كلمة بقال أي عدم وجود عمل . وكان طباقاً
العثماني في القاهرة يحس رتبة المنقبة . وكان يصحب منحه الرتبة ترقية صاحبها إلى رتبة
أعلى . وكان يتم حقل كسب في القصة يطلق عليه للتسوية والقسمة . أما الذي التاني لاستخدام
كلمة منقول فهو أحد أسماء « حيلة شياخ مصر » أو « جماعت أمراء محافظين
مصر الخروسة » وكان عددهم في معظم الأحيان أربعة وعشرين شخصاً . ويسمى كل منهم
« منقول طليقانة » واسمك أحياناً « منقول طيل حانة » أي تدق له الطبول عند منظم
الفرس ول فرجه ، وعند ممراته وظلال الدبراً لمركزه وسور حانه . وقد احتفظت
حكومة إستانبول لنفسها بحق تعيين أربعة منهم هم منسحب التنوير الملة القلعة وهي
الاسكندرية ، ودمياط والقويس ، وكذلك وكيل الدعا للعثماني والقاهرة ويسمى الكتفان .
ويلاحظ أن عدد البكوات المنسوبة في مصر لم يكن دائماً أربعة وعشرين ، فظهر أن يقل
من هذا الرقم ، وتارة أخرى يضافه . وعلى العموم كان البكوات المنسوبة انبثاقه
من كنبون الأقاليم الإدارية الكبرى الملة وهي القربية ، المنوفية ، القهربية ، البحيرة ،
جرجا ، كما كانوا يشغلون مناصب كبرى مثل القومدار ، أمير الحج ، أمير الخربة ، الإرسالة
أي قائد القوة العسكرية الرافعة لخدمة مصر المرسلة إلى إستانبول ، قيادة الحملات العسكرية
التي ترسل من مصر للانضمام إلى الجيش العثماني في وقت الحرب . ويلاحظ أيضاً أن مصطلح
« منقول طليقانة » كان متفاوتاً ، مصر في العصر المملوكي قبل العثماني ، إذ أن بعض
الأمراء وهوالة المليك كانوا ، أمراء طيل حانة أي يكسبهم مركزهم أن تدق لهم الطبول وغيرها
من الآلات الموسيقية التي تتكون منها طليقانة السلطان المملوكي .

الفر .

Gandefroy - Domenehyam :

La Syrie à l'Époque des Mameloukides d'après les Auteurs
Arabes, Paris, 1928, p 38

واسمك كلمة منقول بحرف الصلة تارة ، وبحرف السين تارة أخرى ، كما تكتب
في سبع صفحات ، منها :

- $\frac{2}{3}$ مساحة الإقطاع من نوع الديارات
 $\frac{1}{3}$ مساحة الإقطاع من نوع الزمادات .
 $\frac{1}{3}$ مساحة الإقطاع من نوع النواص .
 $\frac{1}{4}$ مساحة الإقطاع من نوع أويالقات
 $\frac{1}{5}$ أوقاف .

وكان السكرويون الإقطاعيون يمتصون بحقوق وراثية بولئك ارتبطت مصالحهم ومعاملهم عائلاتهم بهذا النظام، ونجم عن تقرير حق الوراثة في الإقطاعات

ستينجى — ستينجى — ساجاق

ستينجى — ستينجى — ساجاق

ومجموع على الجو المال

ساجاق — ستينجى

ستينجى — ستينجى

١ نظر

Barbier de Meynard; Dictionnaire turco-français, 2 vols., Paris, 1881-1886, vol. II, p. 63, 100, et 218.

Boutor; Dictionnaire français-arabe, revu et augmenté par A. Caussin de Perceval. 2 vols., Paris, 1829, vol. I, p. 94.

Bony; Supplément aux dictionnaires arabes, 3^e édition : cyde—Paris, 1927, t. I, p. 691, 846.

الجبري : مصدر سبق ذكره : ج ١ ، ص ٢٥

سجيد آفندي : مرجع سبق ذكره : ص ١١ ، ص ١٤ ، ص ١٦ ، ص ١٧

أن انتفى احتمال قيام حركات تمرد أو مناساة من جانب أفراد هذه الطبقة للسلطين^(١). وستتناول نظام الوراثة في الإقطاعات البحرية بشيء من التفصيل في موطن قادم في هذه الدراسة عند الكلام على القوات للخدمة الثمانية .

مزايا الإقطاع العربي :

من مزايا هذا النظام أنه ساعد على التوسع الأخرى والرأسي في زراعته مساحات شاسعة من الأراضي داخل الأقاليم الثمانية في أوروبا وآسيا . واعلمت الدولة إلى أن جهوداً سادقة تبذل لفتح من يراحتها بفلاح الصلحة المشتركة بين الأمصار الإقطاعيين وبين الفلاحين . كما أن هذا النظام كفل للدولة الحصول في زمن الحرب على قوات من المهرسان كانت تبتلع في بعض الأوقات ما تبقى البوخل^(٢) دون تكاليف تذكر ، لأن الفلاح كان يذهب إلى الحرب ومعه جواده وسلاحه . وفصل عن ذلك فقد وفر هذا النظام على الدولة مرتبات المسكرين سواء في زمن الحرب أو في أوقات السلم . ولد طبع هذا النظام على سلاح الخيالة سلاح المهرسان — ولم يطبق على سلاح البادية — سلاح المشاة . وفوق كل هذا لمزايا وأصعبها ذكر المستوى الحربي العالي الذي كان يجمع به المهرسان الإقطاعيون . وعند فرد أحد كبار المؤرخين الأتراك وهو أحمد جودت^(٣) أن أقوى قوات قتالية في الدولة العلية كانت تتكون من أصحاب الفيارات والرحلات^(٤) ونصاب إلى مزايا الإقطاع العربي مزايا أخرى فقد ربط المسكرين بالأرض ، وحل دون اعتقاد الفتوح الثمانية طابع الاحتلال العسكري .

1) Gibb Hamilton and Harold Bownes; op. cit., vol. I, Part 1, p 52

2) Loc. cit.

3) op. cit, p. 53, f.m. 1

هذا من أحمد جودت : تاريخي جودت ١٢٤٠ جزء ١ ، İstanbul ١٣٠٩ م . جودت عليه أن جميع قوات عسكري أرباب يار وزمانت أبيه ٤ - ج ١ ، ص ٩٠ .

وأجراً لقد خفف نظام الإنقطاع العربي عن الإدانة المالية في الدولة حين
جمع الضرائب من الفلاحين في الأراضي التي طلبت عليها هذا النظام .

عيوب الإنقطاع العربي :

لم يدخل نظام الإنقطاع العربي من عيوب . فإن ارتباط أصحاب التيارات
والعائلات بالأرض قد جعل بعضهم يتعاضد عن ميلوحة أراضيهم عند دعوة
الحكومة لهم بالانقطاع بل يلبث عند شوب الحرب . فإذا استعصموا للغير العام
وأخذوا أمانتهم و سلحة القتال ، تمردوا شوقاً إلى العودة إلى أراضيهم . ولذلك
كانت تهمس الحكومة على أن يكون تعودها عليهم خوفاً خشية أن تصبح هذه
القوة عديمة الفائدة إذا تراخت هيئة الحكومة عليهم .

كما كان بعض أصحاب الإنقطاع العربي يميلون للرأى الشاق الطويل سواء
لهم شخصياً أو لأبنائهم الأحرار الذي كان يؤثر على كفايتهم القتالية . كما كان
البعض الآخر لا يميى العناية الخاصة بتربية الطيور وهي مواد سلاح الخيالة . وفي
أمثال هذه الحالات كانت الحكومة تدخل وتزع منهم أراضي الإقطاع
وتجبرهم من استيانتهم .

ويؤخذ على نظام الإنقطاع الحربي أيضاً أنه جعل الفلاحين أداة مسخرة و
بد العسكرية و أوقات السلم . كان الأولون ينصرفون إلى فلاحة الأرض
واستغلالها تحت إشراف العسكريين الذين كانوا يوزون بالنسب الأكبر مادياً وأدبياً ،
وأصبحوا في وضع يشبه وضع المند . وبقي الفلاحون في وضع أقل بكثير
من وضع العسكريين ، بل إنهم كانوا في حكم الأرقاء . وفي ضوء هذه الملامح
يعد الإقطاعيين العسكريين والفلاحين يميلون للرأى الذي يقرره بعض الباحثين
بأن الإقطاعيين والعسكريين انضربوا أنفسهم على الزمن شتماً واحداً منها

كانت أمروهم المذمومة ، وذلك باستثناء الحالات التي كانت الاختلافات الدينية تمحور حول ذلك^(١) .

لم يتسكروا الثنايون الإقطاع الحربي :

وكان أخذ الدولة الثنائية بالنظام الإقطاعي الحربي أمراً طبيعياً ، لأنها كانت دولة عسكرية بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى . وكان الجيش يظفر — كما سبق أن ذكرنا — بأعظم قسط من اهتمام الدولة وعنايتها ، وفرت له جميع الإمكانيات البشرية والمادية لهندو أكبر قوة عسكرية ضاربة

ولم تتسكروا الدولة الثنائية نظام الإقطاع الحربي ، فقد كان هذا النظام صفة يابرة في الدولة السلجوقية التي كانت ذات صبغة حربية ، كما أن مصر قد عرفت نظام الإقطاع الحربي وبخاصة عندما أدخله السلطان صلاح الدين الأيوبي فيها أمام الدولة الأيوبية . وكان صلاح الدين قد شاهد ومارس الإقطاع الحربي في الدولة الزنكية على عهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الذي أسس دولته ذات الصامتتين : حلب والموصل ، وأوغل في حروبه ولحقاً إلى تميم نظام الإقطاع ، ودرج على ذلك ابنه نور الدين . وتولد نظام الإقطاع الحربي في مصر والشام زمن السلاطين الأيوبيين الذين أودعوا هذا النظام لدولتي المماليك البحرية والشرابية . وهكذا نجد أن النظام الاقتصادي العسكري ساد مصر إبان حكم الدول ذات الطابع الحربي والتي قامت فيها .

كان في مصر زمن صلاح الدين وحلفائه سلاطين الدولة الأيوبية تولى من الإقطاع : الإقطاع الحربي ، ولم يكن يختص في أسواره وقواعده ومظاهره عن الإقطاع السلجوقي ، إذ افترق بما يؤديه صاحب الإقطاع من خدمات حربية ضمن خضوعه لسيطرة الحكومة المركزية .

^(١) Gibb Hamilton and Harold Bowen, op. cit., vol 1, Part I pp. 46-47.

ومن أم هذه المظلمات تقديم عدد معين من الفرساني بجنودهم وسلاحهم إلى الجيش عندما تشترك الدولة في حرب ما - وأصبحت مصر منقسمة إلى إقطاعات لأهله التيئ السلاطني الأيوبي وإقطاعات لأمرأه الأجناد وإقطاعات للفرسان . أما النوع الثاني فهو الإقطاع الإداري ولخص به الأمرأه من الأسرة الأيوبية الحاكمة وكبار للوعيين . وكان السلطان يوصى أرباب الإقطاع الحربى بأن يكونوا دائماً « في القاهب للخدمة كلهم للوضوح في وزيه » وأن يكتروا من الفرساني بزيادة السطاء لهم^(١) . وكان من وجوه القصى الإقطاعى فى التنظيم الأيوبي أن للقطعين كانوا يذهبون إلى إقطاعاتهم للإشراف على جمع المحصول وتجزئته . والتزم السلاطين الأيوبيون بذلك ، فكان إذا خرج أرباب الإقطاع إلى ساحل القتال ثم حلت مواعيد الحصاد ، فإنهم يوصون سراغأ إلى إقطاعاتهم ، بينما تكون العمليات الحربية دائرة فى منتهى القراوة .

ومع ذلك فإن الدولة الأيوبية لم تنجست إلى حد بعيد فى حابة الملاحين والمظامين للإقطاع الحربى من سادتهم الإقطاعيين المسكرين ، فكانت تحدد الإبحارات والمجاهلات التى يذهبها الملاح لسيده الإقطاعى ، وترافق تنفيذ هذه الالتزامات مراقبة دقيقة منأ لاستغلال المسكرين للملاحين . ومن هنا انطلقت السيرة المشهورة ونحى أن السادة الإقطاعيين المسكرين فى مصر الأيوبي كانوا فى ضمة محدودة^(٢) .

(١) انظر :

«كتوز السيد الباز العريس . الإقطاع والعرق الأوسط سد طرون السامح حق القرن الثالث عشر الميلادى . حولت كلية الآداب ، جامعة عين هسس ، العدد الرابع ، يناير ١٩٥٧ .

«كتوز حسين محمد رسم : القلم القلية فى مصر ومن الأيوبي . مطبوعات كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) للرجع السابق ، ص ٣٤ .

وجرت دولة المماليك الشراكسة^(١) على توزيع الأراضي - وسواها
أخرى في بعض فترات الحكم - إقطاعات بين السلطان والأمراء والأجناد .
وكانت الأراضي للإقطاع ثلاث درجات من حيث الرى والتخصيص ووفرة
الإنتاج . وأطلق على ديوان الجيش ديوان الإقطاع دلالة على إيصال الدولة
في تطهير نظام الإقطاع العربي . وكان هذا الديوان يولى إصدار الوثائق
الإقطاعية الأولى ، ثم يقوم ديوان الإنشاء بإعداد الصياغة القبطية النهائية
للمقطع ، ويعرف هذا السند باسم المشور ، ويسمى المقطع ، وبذلك يأخذ الإقطاع
الصيغة القانونية . وكان يعرف إقطاع السلطان باسم « التخاص السلطانى »
أو « بلاد الخاص » أو « التخاص الشريف » تمييزاً له عن « الأملاك السلطانية »
للعموم الشريفة ، « التخاص هو الإقطاع الذى يحوز به السلطان يومه سلطاناً ،
وهو إقطاع استقلال كغيره من الإقطاعات ، فهو يحوز له لكنه لا يملك رقبته ،
وقد تلك ينتقل إلى غيره بزوال السلطنة عنه ، أما الأملاك الشريفة السلطانية فهى
التي يشتريها السلطان بماله من إيراداته المتنوعة . وكان أولاد السلاطين يحوزون
إقطاعات حربية كبيرة وهم لا يزالون سنن السن في بعض الأحيان ، ويحوزون
أيضاً الرتب المالية في الجيش المملوكى . وكانت أهم فرقة في هذا الجيش من حيث
حياسة الإقطاع الحربى هى فرقة أجناد الحلقة . وكانت هذه الفرقة هى الأصل في
حياسة الإقطاع الحربى ، وكانت تابعها فرقة المماليك السلطانية ثم فرقة أجناد
الأمراء^(٢) . وكانت الدولة تمنح إقطاعات الريس والتركمن والأكراد . وكانت

(١) تقرأ أن تتكلم عن إحدى دولتي المماليك كدولة للإقطاع الحربى المذكور . من حسن
الاحتصار ، وبذلك تكون أدلة كلنا عن دولة الأمراء . ودولة المماليك الشراكسة من ناحية
اللامع العامة للإقطاع الحربى وربما وسيل من يد الإقطاع على هذا النظام . ودولة المماليك
المصرية إلى دكتور صيد عبد الصالح عاشور : المص المائى الحى برسم سبق ذكره ، ص ٣٤٨ -
٣٥٢ وكتاب الأحر : مصر في عصر دولة المماليك البحرية للامامدة ، ١٩٥٩ ،
القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٩٧ .

(٢) دكتور ابراهيم على طرخان : الإقطاع الإسلامى (مجلة الجمعية المصرية للدراسات
التاريخية ، المجلد السادس ، سنة ١٩٥٧) .

والمبار أيضاً لى المؤلف : مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة ، القاهرة ،

١٩٦٦ ، ص ٢٦٥ - ٢٣٩ .

هذه العناصر الثلاثة الأخيرة تخضع الدولة عن طريق حماية الحدود ورد هارات القتائل التركانية الأخرى للمادة . وكان هؤلاء البريان والتركمان والأكراد سجن خاص في ديوان الجيش تدون فيه جميع البيانات عن إقطاعاتهم الحربية على هذا النحو كان سلاطين الدولة الأيوبية ودولتي المماليك يتقنون الأمراء أراض زراعية وغيرها لاستغلالها تسمى إقطاعات . وكان كل إقطاع يختص بهن الآخر من حيث حجمه ، أى مساحته ، وموقعه ، وخصوبة تربته مما يؤثر في النهاية على مايلنه من إيراد . وكان صاحب الإقطاع لا يتقاضى عن خدمته في الجيش مرتبات نقدية أو عينية من الدولة ، بل كان يؤدي للدولة ، نظير الإقطاع للملوح له ، خدمات حربية ومالية ومدية . وكان أهمها الخصمات الحربية فتقدمات تشب الحرب كان يتعين على كل مقطع - أى صاحب إقطاع - أن يقدم إلى الجيش عدداً من الفرسان يخيولهم وأسلحتهم وملاييمهم وذخيرتهم وكان هذا العدد يتناسب مع مساحة الإقطاع ويميزاته^(١).

وكان السلاطين يمددون إلى حرمان القلع من إقطاعه إذا بنا منه تقصير في تربية الخيول أو إعداد الفرسان . وكانت الدولة تفيجاً - كإجراء وقائي - إلى تفتيت الإقطاع بحيث لا يكون كثرة إقطاعية واحدة خشية أن يستغل بها صاحب الإقطاع أو يرداد بها نفوذه على حساب السلطة المركزية . وكان يجوز نقل الإقطاع من شخص إلى آخر .

(١) تفلت الخدمات التالية التي كان يؤديها صاحب الإقطاع أن يؤدي من حصبة الأموال التي قام بمجانيتها لثروات الدولة ، مثل أداء حرية الجواهر - وهي حرية الرأس المرفوعة من أهل الثمة من اليهود والنصارى الياليتين دون النساء والنسب والرحبان والأرقام والحاسب فضلاً عن الفروج - وكذلك لصوب الدولة في الأسان - أى الخيول - والفراريج - أى الدجاج . وكان رسم الأمدان يقسم إلى ثلاثة أقسام: لفهيدون الجيش ورسم للقطع ، ورسم الفزارع وكان رسم الفروج أو الفراريج يقسم كذلك إلى ثلاثة أقسام: دجاج الدولة ، ودجاج المدام ، وفالسي بدمار الفلث يسمى أصاب القرية أى أجرة القرية ومحصى الملاح أما الخدمات الدالية التي كانت مفروضة على صاحب الإقطاع فتتصرف في صيانة المسور والمداد الثلاثة بالخطوى والاهتمام بالزراعة بوجه عام .

نظر .

دكتور حسنة ع - ربيع التمهيد الثانية ، مرسوم حقيق ذكره ، ص ٢٥ - ٣٩

تلك ملائع مربية جداً للنظام الحرى الذى طبقته الدول ذات الطابع الحرى، والتي تأسست في مصر قبل الفتح السباني لها، وهى الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية ودولة المماليك الشراكسة. ومن هذه الملائع يتضح أن كلا النظامين الإقطاعيين: السباني من ناحية، والأيوبي والمملوكي من ناحية أخرى يتشابهان في بعض الجوانب ويختلفان في جوانب أخرى. ولكن الفكرة الأساسية وراء منح الإقطاع الحرية كانت واحدة في ذهن ولى الأمر، وهو السلطان في هذه الدول الأربع، وهذه الفكرة هى ضمان حصول الدولة على قوات قتالية تتألف بمجرد إعلان التبعة العامة. أما وحره الاختلاف فكانت تنسب على مسائل شكلية في أثناء التطبيق للعمل لهذا النظام و كل دولة من هذه الدول الأربع.

ويلاحظ أن الدولة السبانية طبقت النظام الإقطاعي أول ما طبقته في الولاياتين الأسليبيين المقيمين ترغفان باسم الأناضولى^(١) والروملى^(٢). وتحتل الولاية الأولى الأناضول أو شبه جزيرة الأناضول أو آسيا الصغرى، وتشمل الثانية بلاد البلقان في أوروبا. ولما تمت الدولة معظم الأقاليم العربية في آسيا وإفريقية في القرن السادس عشر شرعت في تطبيق الإقطاع الحرى أو نظام الالتزام أو كليهما معاً في الولايات العربية. ولم يكن هذا التطبيق تطبيقاً حرفياً لما كان عليه العمل في تسكيا الولاياتين، لأن التوائين والإجراءات التى سبقت لهما في القرن الخامس عشر كانت تمسك الأحوال السائدة في الأناضول وبلاد البلقان وهناك. ولذلك يمكن القول إن الدولة العثمانية طبقت النظام الإقطاعي على نحو من الأنحاء في الولايات العربية.

وستتكمّل هنا - كتمال - من ثلاثة من الأقاليم العربية التى وقعت تحت السيادة العثمانية وهى مصر وبلاد الشام والعراق

(١) يحتل عليها و يسمى الرابح ليل أنانولى

(٢) يحتل عليها و يسمى الرابح شل روملى .

النظام نظاماً آخر هو نظام الإلتزام . وسنقدم بإلاماً سريعاً لمفاهيم السامة لهذا النظام .

ويتضمن نظام الإلتزام كانت الدولة تصيد - بعد إجراءات معينة - إلى شخص من ذوي الثروة والثراء في المادة بزيادة الضرائب للربوطة على الأراضي الزراعية والثروة على الفلاحين في قرية أو أكثر من قرية لحد زمنية محددة أول الأمر . وكان يطلق على هذا الشخص المصطلح التاريخي « النلتزم » . وكان عليه ، قبل أن يباشر عمله كملتزم ، أن يدفع ميلاً من المال يعادل ضريبة سنة من الضرائب للثروة على المنطقة التي يحرص فيها اختصاصاته ، وكانت هذه المنطقة تسمى « دائرة الإلتزام » .

إجراءات الحصول على حق الإلتزام

كانت الحكومة تطلق هذا الحق بطريقة للزاد بين راضي الحصول على حق الإلتزام أو بطريقة الاعتاق . وكان إجراء الزاد هو أكثر الطريقتين تطبيقاً^{١١} . وكان تطلق على الزاد لفظة « مزايعة »^{١٢} .

وكانت جلسات الزاد تنقد في أوائل شهر توت من كل سنة ، أي أوائل شهر سبتمبر ، لأن المصريين اعتادوا أن يطلوا كأسلافهم مواسم الزراعة ومواعيد القيسان ووقت الوقت بشهور التقويم القبطي لانساق مواعيده ، ولكن

== 10

Bulletin of the School of Oriental and African Studies.
University of London. vol. 26, 1, 1963, pp. 185-186

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. 1, Part 2,
p. 21 v.

1) Arminjon Pierre; La Situation Economique et Financière
de L'Egypte Le Soudan Egyptien Paris, 1911; p. 678

2) Shaw Stanford J; Landholding etc, op. cit., p. 96.

كانت الحكومة تدعى في وثائق الإلتزام على التاريخ المحجى الموافق لتاريخ التقبلي ، لأن حداد المال للبري كان يتم حسب أشهر التقويم الهجري ^(١) .

وطبقاً لنظام الإلتزام كانت الأرض الزراعية في القرية تنقسم إلى أربعة وعشرين قيراطاً . وهذا التقسيم لعلامة له بترايط التندان المروفة . فقد يصل القيراط في نظام الإلتزام إلى عشرات الأقد ^(٢) . ومن المعروف أن الزاد يرسو على من يحرص أكبر مبلغ بين للترايدين . وعقب حداد المبلغ في ديوان الروزنامة ^(٣) ، يحمل هذا الشخص بصفة رسمية لقبمخترم ، ويطلق ثلاثة مستندات رسمية ، أولها « تسميط الإلتزام » ويحدد فيه تحديداً دقيقاً المال للبري الواجب سداد ، واسم القرية أو التري للقرية ، وعدد قرايطها ، ومساحة هذه القرايط .

(١) إبراهيم اللويحي : الأرض والفلاح في العصر الثاني - بحث مفقود في « الأرض والفلاح في مصر على مر العصور » الناشر : الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٤ ، الفصل السابع ، ص ٦٢٥ - ٦٥٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تتكون كلمة رورنامة من « رور » وهي كلمة ناصية معناها النهار ونامة بمعنى دفتر الحوادث أي دفتر الحوادث اليومية أو الحساب اليومي . لم أصح معناها الدويان الذي يلوم بتحرير وضبط الحسابات في الدفاتر الرسمية وكان رئيس هذا الديوان يسمى رورنامجي . وكان في أول الأمر « ناي » محصر من إستاتبول لفضل منصبه . وظل منصب الرورنامجي على هذا الوصف إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر حين شمله الأمراء للباليك ذور الدولة .

في القسم الأول الخامس يشرح مصطلح الروزنامة ، انظر :

دكتور حسن عثمان : تاريخ مصر في العهد الثاني (١٥١٧ - ١٦٩٨) في كتاب : المحرر في التاريخ المصري تأليف صفى أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول سابقاً (جامعة القاهرة) القاهرة ١٩٦١ هـ ١٩٩٢ م ، ص ٦٣٦ - ٦٨٤ انظر ص ٦٦١ ، حاشية رقم ١

وفي القسم الثاني الخامس مخصصة الروزنامجي ، انظر : يوسف اللواتي (ابن المركب) مجلة الأحياء بمصر من التراث والتوثيق . مطبوعة مكتبة جامعة الطبشاري بسوهاج تحت رقم ٦٨ تأريخ : ص ١٠٣ .

ينظم أحداً منهم»^(١). وكان للترنم يسلم في ذات الوقت مستخدماً بطلاق عليه نعيمة أو تأنيك ، ويرد هذا المصطلح في المراجع الفرنسية *habmik*^(٢). ويكتب هذا للسند على ورقة لا يمدو حجمها راحة اليد ، وهذا للسند بمثابة أمر موجه من الحكومة إلى فلاحي منطقة الإلزام قبلتهم بأنهم أصبحوا منذ ذلك الوقت فصاعداً في حوزة للترنم ، عليهم أن يلتزموا بطاعته^(٣)

وفي ذات الوقت كانت تصدر عن ديوان الروضامة « تذاكر ديوانية » إلى سكان كل قرية يحدد فيها اسم للترنم ومقدار المال الذي الربو على أراضي القرية وغير ذلك من التزامات مالية ، وذلك من قبيل الرعاية لصالح الفلاحين فلا يطالبهم للترنم بأكثر مما هو مقرر عليهم .

نشاط للترنمين :

إذا أخذنا مصر كمثال لولاية عثمانية طبقت فيها الدولة نظام الإلزام نجد أن للترنمين كانوا أخلاقاً شقي من الجشاعات التي وجدت في مصر إبان الحكم العثماني . كان من بينهم عسكريون ومدنيون وحبيبات . فمن العسكريين رجال الأوساط أي فرق الحماية العثمانية ، والضباط العثمانيون المتقاعدون ، وهؤلاء كانوا يمتصون شهور السنة في القنصل بين القاهرة وإستانبول^(٤) . وكان من بين للترنمين العسكريين أيضاً أصحاب المصصيات كأمرأه المالك ومن يلتصون إليهم مثل الجلبية ، وهم المالك القديم لم يولدوا في مصر ، بل جلبوا من خارجها ، ويسمون أيضاً الأجلاب . أما للترنمون المدنيون فكان من بينهم الأثريين وكهلاء علماء الأزهر ، ونههم شيخ الأزهر ، وأواباب السجايبند وهم طائفة تجمع أفرادها بالاحترام للمسيح من

(١) إبراهيم الموصلي مرجع سبق ذكره ص ٢٢٧

(٢) Arminjon Pierre; op. cit., p. 679.

(٣)

(٤) دكتور أمين مصطفى عيسى صيانة : تاريخ مصر الاقتصادي وللألفى العصر الحديث .

النشر مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٤ : ص ٣٨١ .

(٥) Shaw Stanford J.; Landholding etc.; op. cit., p. 96

المصريين تكريمًا لأجدادهم الأولين من كبار الصحابة ^(١) وكان من بين المنتمين
الدينيين أيضاً التجار ومشايخ العرب مثل المولوة وغيرهم ، ثم دخلت النساء
ميدان الالتزام في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وطرات على الزيف
للمصري هذه الظاهرة الاجتماعية الجديدة ، وهي وجود سيدات ملتزمات إلى جانب
المنتمين ، ولزادت هذه الظاهرة وضوحاً وبروزاً في النصف الثاني من القرن
الثامن عشر ^(٢) . وكان يطلق على السيدات اللاتزمات مصطلح تركي عربي هو

(١) كان أرباب السجديد ينتمون إلى عدة أسر ، هي أسرة الشيخ السكري ومنحصر
من أصنافه ، يذكر السدي ، وأسرة الشيخ الساعات وتنتمي إلى أسرة علي بن أبي طالب ،
وأسرة الشيخ الناني وشكل أفرادها من عمر بن الخطاب ، وأسرة الشيخ الغضيري ،
وترجع أصولها الأولى إلى الوجه بن المولم .

ولما فتح السلطان سليم الأول مصر احتدم بأمر أرباب السجديد اهتمام كبيراً حاداً ،
وزيت لهم موارد رزق سخية وخاصة ، وأعطاهم بلائاً ومكسباً كبيراً . وكانوا
أعضاء في ديوان القاهرة وكان الباشا الثاني في مصر وكبار موظفي الحكومة
يرجعون إلى أرباب السجديد — وكان معظمهم يجمع إلى عرف المختد قرارة العلم —
لهرجبون إليهم عندما تستدق عليهم دقائق المسائل العامة ، ويستمدون بأرائهم . وكانوا
يطلقون « القادم » أي الجنايا من الباشا الثاني عند تعيينه منصبه وقدموه إلى مقر منصبه .
وكانوا يمدون إليه في القلعة في أول كل شهر من تسعة محلول الفهر . وكان يقدم لهم
في حق المناسبات على مدار السنة فراوى صبور ، وهو الرداء الرسمي للرجال للناسب
السكري والعصيات السكيرة .

(٢) يقرر الأستاذ محمد عفيف خريال في تعليقه على إجابة حسين أحمدى — وهو أحد
أندية ديوان الزمامة التي قال إن الالتزام أصبح «اجرمات» — أنه يجرم أن هذا الأستاذ
لم يقصد إطلاقاً أن يقول إن المنتمين في عصره كانوا جميعاً من النساء . ولكن الأستاذ
خريال يقول في ذات التطبيق إنه من الصحبة طلبة « ملحا يريد أن يقول »
حسين أحمدى .

ولقد يكون أحد الأبواب الذي حدثت منه السيدات ميدان الالتزام هو حق التوريث
التي طرد للمصريين في القرن الثامن عشر أو أواخر القرن السابع عشر على حصص إرثاتهم
فإن أمّا حصة الميراث أمام الزوجات « توريث من أزواجهن نصيبهن الميراثي في حصة
الإنتماء بعد أن أتمت الإجراءات التي كان يتطلبها القانون من حيث تقديم الطلب ودفع
المالوان ، وهو المرحم للقرى ، كما سترى بعد قليل .

انظر : حسين أحمدى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩ .

خواتين، والمخواتين جمع تكسیر عربی لكلمة حانون التركية ومعناها حيدة^(١). وكانت السيدة للفرقة مطبق عليها ذات الإجماعات التي يخضع لها الرجال للفرقون فكانت السيدة قد دخل مزاد الإلتزام، فإذا رما عليها المزاد كان اسمها يدرج في دفاتر الروزنامة. وتعين الماويل لها في منطقة الإلتزام، وتزور المنطقة من حين لآخر لتطمئن على سير الأمور. وكانت تهذب هذا، وتنهز ذلك، وتشهد ضرب الفلاحين الماويلين. وكان المشد^(٢) يصحبهم من شوارعهم، وتسلم الأموال فاحذ صيها وتسد ليدوان الروزنامة الضرائب للفرقة وتسلم المالحات. واستمر العنصر الفساق ونظام الإلتزام حتى أوائل القرن التاسع عشر حين أثنى محمد علي نظام الإلتزام كلية في سنة ١٨١٤ بدأ أن قرر تقديم توصيات هدية مالية أو عينية للفرقة والفرقات^(٣). ويشير المؤرخ الجبرتي إلى نشاط السيدات للفرقات في مقاومة محمد علي حين قرر إنشاء نظام الإلتزام وقياسه بظاهرة إلى الحامع الأزهر حيث طلب من صفاته تسهيل للدراسة والأزهر والولوف يمانين في وجه هذا الرأى^(٤).

-
- (١) إبراهيم النابلسي: مرجع ذكره، ص ٢٤٢.
- (٢) للفرد هو الشخص للكلمة بسمة وإحصاء املاح المايل ومصره، ومتمرس في بعد قليل عند الكلام على مساوي للفرقة في أواخر الإلتزام.
- (٣) لم يبلغ محمد علي نظام الإلتزام في جنايه الأول الأميرة دمية واحدة، بل مر الإلقاء بسمة مراحل بدأت في سنة ١٨٠٩ والتم في سنة ١٨١٤. وفي تلك السنة ترو لمرق من المتفرغ أراضي الرسية بصفة مستقلة يستوطنها على يد حياهم دون أن يدعوا عنها ضرائب، ثم ترد إلى بيت المال عقب وفاتهم. وقرر لمرق آخر من المتفرغين مبالغات صوية لدية تبادل دخلهم من نظام الإلتزام بناء على تقديرهم. وكانت هذه التبرعات أقل بكثير من الأقساء، وهو دخلهم الذي كانوا يحصلون عليه، لانهم لم يكونوا يملكون وقت تقديمها للفرقة التي طلبت من أسلاف هذه التبرعات.
- انظر.

- دكتور محمد مهدي لحيطة: تاريخ مصر، الاقتصاد في الصور الحديثة. القاهرة.
١٩٤٠. القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ص ١١٢ - ١١٥.
- (٤) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ج ٤ ص ٢٠٤ حوادث اليوم الخامس من شهر ربيع أول سنة ١٢٢٩ الموافق اليوم السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٨١٢.

أرباح الملتزم :

كل الملتزم بمحق في ظل نظام الإنزام أرباحاً مادية وعينية تنوعت أشكالها وطبيعتها فهو أولاً يحصل على « الفائض » وهو الفرق بين ما يدفعه أو يقدمه بدفعه للحكومة^(١) وبين حصيلته ما يجنيه فضلاً من فلاح القرية أو القرى الواقعة في دائرة الإنزام . وفصلاً عن هذا « الفائض » كان الملتزم يحفظ لنفسه بجزء من الأرض يسمى أرض « الوسية »^(٢) وكانت هذه الأرض تبادل من حيث مساحتها عشر مساحة الأراضي التي في أيدي الفلاحين والواصلة في منطقة الإنزام^(٣) . وكانت أرض الوسية أيضاً مضافة من الضرائب . وهذا الإغناء الصري للملزم لأرض الوسية كان امتيازاً في ذاته ، وأضيف إليه امتياز آخر ، هو تكليف الفلاحين بدراعة هذه الأرض بالجان وفقاً لنظام السخرة . وعلى الرغم من هذين الامتيازين كان بعض الملتزمين يمتثلون تأجير أرض الوسية للفلاحين . وقد وجد هذا الفرق بين الملتزمين أن تأجير هذه الأرض يحقق لهم كسباً مالياً يلوئى الكسب الذى يسود عليهم من رعايتها لحسابهم الخاص^(٤)

(١) كان الملتزم يتقدم باسم لئالى القرى على ثلاثة أقاليم :

١ - آل عوى يطلق عليه ثلث أول

٢ - آل عوى موقوف إلى زمن سنى ، ويطلق عليه ثلث ثان .

٣ - آل عوى ، ويطلق عليه ثلث ثالث .

انظر : أمراء الويلس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٦ .

(٢) تروى هذه الأنظمة من المصادر والراىر مكتوبة ، الأوبه « وقد كثر لا

استخدام المظلة الأولى لسهولة وديوع احتمالياتها .

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op cit. vol. ١, Part ١, p. 261.

Il leur (moultexime) était d'autre part alloué des terres (٥) comprises dans les limites de leur *thizaw*, partie pour leur usage personnel, partie en vue de subvenir aux charges de leurs concessions, telles que les frais d'habillement, l'entretien des mosquées et celui des écoles. Ces terres étaient dites *oussateh*. Les fellahs devaient les cultiver par voie de corvées au profit du moultexim qui trouvait parfois plus rémunérateur de les leur affermer.

voir

Arminjon Pierre; op. cit. p. 579

مساوئو للثرم في أرض الإلتزام .

كان للثرم بعض الإقامة في القاهرة ، وذلك كان لا يذهب إلى مملكة إلتزامه إلا مرات معدودة وعلى فترات متباعدة على مدخل السنة ولا يقوم في كل مرة أكثر من أيام قليلة . وكان يستهدف من الزيادة تحقيق مصلحة الشخصية ، فيشرف بنفسه على بيع محصول الوحية . وكذلك كان للثرم في حاجة إلى أعوان يقيمون ويسلمون بضعة مستعدة في دائرة الإلتزام . وكان من بين أعوان للثرم :

شيخ البلد :

كان بمثابة وسوط — أو صابط اتصال بالصير الحديث — بين للثرم وأهل القرية ، بينهم أوامر للثرم ويحرص عليه طلباتهم . وكان يقوم بالإشراف على الأراضي ويراقب تصرفات الأهالي وأتباعهاهم وتحركاتهم إذا فكروا في ترك الأرض التي يملكون في فلاحها أو فكروا في الهجرة كلية من القرية . وكانت الحكومة حريصة الحرس كلسه على منع هروبهم أو هجرتهم حتى لا تترك الأراضي الزراعية دون استغلال . وقد تضمن قانون غامه سليمان النص الآتي : « حين يفتي الخلق دون رعاة نتيجة خطأ الزراع ، فليهم (أى على الكشف والمفتشين ومن إليهم) ألا يدعروا جهماً في ضبط وإحصار هؤلاء الزراع . وبعد أن تم إعادة كل فلاح إلى قريته ، وبد توقيع القرية عليه ، يقوم الكاشف أو المفتش بإلجاءه على بذل البذور في حقله ^(١) . وكان على شيخ البلد في ضوء هذا النص وعيره من النصوص ^(٢) إبلاغ للثرم أسماء الفلاحين المصاة أو الشاغبين .

Gibb Hamilton and Harlod Bowen; op. cit., vol. 1, (١)
Part 1, p. 260.

(٢) « يجر الفلاحون الذين فاضروا غرام سد تاريخ الضلع (المشاي) على العودة إليها بها الكفا من أصناف ».

الزوجه السابق ، نفس المصصة ، ملهية رقم ٦

وكان شيخ البلد معين من أهل البلدة، ويحظر من بين المائات الشرطة الثرية . وكان يعتبر رئيس الموظفين المحليين في القرية ، وبحل محل الالتزام في أثناء غيابها ، ولذلك كان يطلق عليه لقب « قاعنام »^(١) . وكان يوفر الأمن للدلاحين الذين يردون الأرض في منطقة الالتزام . ويرتب قوة يطلق على أفرادها الخفر يحمون المرفقات ، ويقومون بتقييد الأهالي عند اقتراب غارات العربان من القرية

ولم يكن شيخ البلد يعلو سلطته على الزارعين فحسب ، بل على جميع سكان القرية . وكان يتميز بالنظافة والنظفوة والنظافة . ولكن كان الفصل يود إليه في حفظ غمسات القرية ، ولذلك كان يوصف بأنه جبر الزاوية في عتيم القرية ، وأصبحت كل قرية وحدة مكتفية بذاتها self contained unit تحكمها التقاليد والعادات والعرف ولا تتأثر بالأحداث الخارجية . وكانت علاقاتها بالحكومة نكاد تكون مقصورة على شيخ البلد والالتزام . وتؤدي الضرائب نقداً وصيغاً ومهلاً . وكانت كل قرية تضم بجانب الزارعين وأعوول الالتزام إمام المسجد ، والقهار ، والحداد ، والحلاق ، وكثيرون يتناولون مرنبات صليبة موسمية ، ويترمون بأداء الخدمات لسكان القرية .

وكان شيخ البلد يتمتع بصفة إمتيازات مادية : كانت له قطعة أرض معقدة من الضرائب تسمى « طين مسوح بالمال الحر من غير مصروف »^(٢) ، وكان يطلق على هذه الأرض أيضاً « مسوح للشايخ » ، كما كان له خصصات مالية كان يدون مدداتها في كشوف للمصروفات في نظير الخدمات التي يؤديها ، وفي مقابل استضافة أو استقبال الضيوف الذين يقفون إلى القرية — وهم في العادة رجال

(١) قاعنام لقب أسماء من ملوك و لباد على كل من يقوم مقام أحدى أثناء غيابها مثل قاعنام الممر الأعظم أى الوزير الذى يحل محل الصدر الأعظم من أثناء غياب الأخير في الحرب ، وقاعنام الناحى أى القصر الذى يحل محل اختصاصات الباشا المثانى في مصر عندما يكون منصب الباشا شاغراً أو في أثناء الفترة التى تتلصق به سفر الباشا الموقوف من مصر وحضور الباشا الجديد ، وقاعنام الملتزم أى وكيل الملتزم .

(٢) حسب أفتى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٠ .

الحكومة - وأخيراً يمين على الالتزام أن يقدم إلى شيخ البلد ملابس تسمى الكساوى. وفي مقابل هذه الملابس كان على شيخ البلد أن يقدم للقرى التزاماً^(١) على فترات معينة كل سنتين أو ثلاث سنوات. وكان من حق للقرى أن يمين أكثر من شيخ بلد إذا كانت مساحة الأرض التابعة له كبيرة. وكان كل شيخ يخدم قرية أو عدة قرى من أرض الالتزام. وكان أكبر المشايخ سناً يسمى «شيخ المشايخ»^(٢). ويمسى الزمن استعمل هود مشايخ البلد، فندوا في القرن الثامن عشرم بالحكم الحقيقين والقليبين و الزيف المسمى بدلا من الموظفين المشايخين^(٣).

المباشر :

كان بمثابة وكيل التاجم ويباشر اختصاصاته وصلاحياته حين يسافر التاجم إلى القاهرة لتقابة للقرى. وكان من اختصاصه بعد كل ما يخدمه فلاحو الالتزام بالتصديق في سجل خاص به

الشدة :

يملك أوامر شيخ البلد أو شيخ للشيخ فيقوم بضبط وإحضار الملاحين المتأخرين في سداد الضرائب المستحقة عليهم. ويملك العقوبة التي يأمر المتردد بتوقيفها على

(١) الخدمة جمعا تقدم. والتقدم مصطلح قانوني ومصطلح تاريخي. والمصطلح القانوني نوعان: التقدم للسلط والتقدم للكسب وهو طرح من موضوع هذه الدراسة. أما المصطلح التاريخي فمعناه الهدايا التي تقدم في المناسبات العادية، وهي عادة درج عليها المصمم في مصر في أثناء الحكم العثماني بوجه خاص. ويكثر المعنى من تردد بعضا عند قدماء الباشا الثماني إلى مصر لينقل منهم ماله، أو مودة أحد كبار الصباغ من الجبل، أو زواج ابنة شخصية كبيرة، أو إجراء عملية ختنة لإحدى كبار رجال المصمم في مصر، أو عند زواجه.

(٢) ذكره محمد تقي ليلطة - مرجع - ج ١، ص ١٤.

(٣) Shaw Stanford J., The Financial etc., op. cit., pp. 22-25. (٧)

الفلاحين إذا توفقوا عن دفع الضرائب أو امتنعوا عن أداء الأعمال التي يطلب الالتزام أو شيخ البلد منهم أحدهما في أرض الرسية بالبحان ، أو إذا أظهروا تراخياً في أدائها ، وكان الحد هو العقوبة الثالثة التي يتعرض لها الفلاحون . وكان الشد يحفظ عن ظهر قلب أسماء جميع فلاحى منطقة الإقترام . وكان يتقاسم أجره من الملتزم .

الشاهد :

يحتفظ بسجلات الأراضي ويدون فيها كافة البيانات التعميلية عن مساحتها من حيث عدد الأنددة ، والأحواض ، وأسماء الفلاحين الملتزمين لها ، ومقدار الضرائب المقررة عليها . وكان الشاهد يختار من بين أهل البلدة ، ويقدم في دحلته على مصدرين : محصيات يطلق عليهما « عوائد من داخل القرجات »^(١) ، وعوائد ياتزم الفلاحون بأدائها إليه . وكان يطلق عليه في بعض الأحيان لقب « العادل »^(٢) ، لإشاعة العدالة في قلوب الفلاحين نظراً لأثر اختصاصاته بحس

(١) القرجات هي الأموال التي يجسها الملتزمون ، وليكنها لاندلس في حمام أموال السلطان .

الطر :

حسب أفندي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩ .

Faïez le Comte: Mémoire sur les finances de l'Égypte, (٧) depuis sa Conquête par le Sultan Solyman Ier, jusqu'à celle du Général en chef Bonaparte.

dans

Description de l'Égypte; ou Recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Égypte pendant l'expédition de l'armée française. Seconde édition, sous de Panchouche, Paris, de 1821 à 1829, 26 vols. de texte in 8 o et le même nombre de planches t. XII, pp. 41-248.

Voir particulièrement les deux sujets suivants :

- a) de l'administration des villages. pp. ٥١-68.
- b) des perceptions. pp. 68-84.

أوضاع الفلاحين ، إذ كان في مقدوره — إذا لم يكن على مستوى خلق دنيء —
تقلب مصالح فريق من الفلاحين على حساب مصالح فريق آخر منهم .

الصراف :

مهمته جباية الضرائب من الفلاحين طبقاً — من الناحية النظرية —
لتوزيع للدون في سجلات الشاهد . وهو شرط لم يكن يحترم في حالات كثيرة .
وكان من مهام الصراف تسليم ما يجمعه من ضرائب — نقداً أو عيناً — للسلطان .
ومن المعروف أن الضرائب في أي بلد تؤدي نقداً أو عيناً أو محلاً . والمستوى
الاجتماعي والاقتصادي في البلد هو الذي يحدد نوعية الوسيلة التي تؤدي بها
الضرائب . وكان لكل صراف ضمان كفيل في القاهرة بضمانة لدى الخزانة . وإذا
وقع منه أي تصرف محل بالشرف والأمانة فإن الضامن يكون ملزماً بأداء المبالغ
التي استولى عليها بغير حق أو سدد من التناول . والصراف يشبه الشاهد من
حيث اعتماده في دخله على ذات المصدرون الماليين .

وكان المتزعم يختار الصراف عادة من الأقباط . وقد نأسل هذا التقليد أو العرف
في الريف المصري حتى أصبحت الغالبية الساحقة من الصيرفة أقباطاً^(١) ، وذلك
لأمانتهم . وحلهم المسائل الحسابية والمالية وعدم تحيزهم^(٢) . ويؤكد هذا الرأي
أيضاً إستيف Estève مدير حرازة الحملة الفرنسية على مصر ثم مدير الشؤون
المالية في أواخر عهد الحملة^(٣) وبإشرافه في هذا الرأي جيرار Girard وهو من

1) Gibb Hamilton and Harold Bowen; op cit., vol. 1,
Part 1, p. 262.

2) Loc. cit., p. 265.

3) Estève Le Comte.,

dans:

Description de l'Égypte; t. XII, Des perceptions. pp. 68-88.

علماء الحملة ومتخصصين في شئون الري وحوض ترع مصر^(١). وهناك وحالة
فرنسي يسمى فولقي Volney يؤيد رأى جيرار، ويقول إن السيارفة الأقباط قد
استغلوا الأمية التي كانت تلبسها بين الفلاحين أصواً استغلالاً، إذ كانوا يشتاقون
قديم إيصالات الفلاحين عن الضرائب التي دفعوها، وكان يطلق على هذه
الإيصالات « ورقة النفاق » أي المستند الخلال على الصدأ، لينظر الفلاحون إلى
أداء الضرائب مرتين^(٢). ويطلق أحد المصريين الذين عاشوا في العصر العثماني في
القرن الحادي عشر الهجري أي القرن السابع عشر الميلادي صوراً قاعاً عن خراب
دعة السيارفة الأقباط وإسرافهم في ظلم الفلاحين الذين كانت ترتفع فرائضهم عند
ما يتقدم إلى أساحهم نبأ وصول الضرائب إلى القرية. وكان الفلاحون
يطلقون على وصوله « زكاة الضرائب » ويتسابقون إلى إكرامه وتقديم
الأطعمة الفاخرة له ويغتنفون في التعجب إليه حتى يكف أنذامهم^(٣). ومهما
يكن من أمر، فم يكن هذا المصنم عاماً، ولم يشمل جميع السيارفة الأقباط، بل

1) Girard P.S.; Mémoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Egypte.

dans

Description de l'Egypte; op. cit., t. XVII pp. 1-436.

Voir spécialement les trois sections suivantes:

Section IV. Du l'état des cultivateurs en Egypte. Quelques-
notions sur l'administration des villages pp. 37-48

Section VII De l'aménagement des terres dans les
différentes provinces de l'Egypte. pp. 133-148

Section IX. Du droit de propriété et de la perception de
l'impôt. pp. 189-197.

(٢) فولقي، مرجع سبق ذكره - ص ١٤٥.

(٣) يوسف بن عبد بن عبد الجواد بن حضر المصري: هو المعروف في شرح قصيد
أبي حامد - القاهرة، مطبعة بولاق - القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٠٥ هـ (١٨٩٠)
وهو كتيب يصور بالهـ كلمة السائرة والكلمة اللاذعة. كما كان عليه القصب وديف مصر لجان
المركب النهائي من نفر وجبل ومصدع، ولوحده عدة نسخ من هذا الكتاب مودعة في
المكتبة والوثائق القومية بالقاهرة. وقد رجنا إلى النسخة المحفوظة بها تحت رقم ٢٧١٣
(أدب)، ج ١ ص ١٤، ج ٢ ص ١١٦ - ١١٧.

كان كثير منهم مثلاً طياً للإخلاص والزراعة والعمال في الخدمة ونهوا هذا الفريق من الأكليل مراكر اجتماعية مرسومة ، وجمروا ثروات ضخمة بعيداً عن وسائل الكسب عبر الشروع ، وتجنبوا نفوذ كبير وبخاسة الذين عملوا مع كبار المتمردين من الأمراء البكوات للماليك .

الملاح:

كان يقوم بحبس أرض الالتزام ، وتقدير للساحات البور لها والمساكن الزراعية^(١) .

مساوون الالتزام في أرض الوسية :

لما كان من بين امتيازات الالتزام الاختصاص بأرض الوسية والتي تشكل - كما سبق أن ذكرنا - عشر مساحة دائرة الالتزام ، كان بين لها مساوون للإشراف على رعايتها . وكانوا جميعاً يأخذون أجورهم منه . ومن هؤلاء :

الوكيل : يقوم بحفظ التلال وغيرها من الحاصل التي تنتجها أرض الوسية ، ويحفظ بأدوات الزراعة مثل النوايرج والمخارث والمؤوس وغيرها من الأدوات التي تتعلق بأرض الوسية .

الغولي : يختص بقياس الأرض الزراعية بدورها وقبل الشروع في رعايتها ، ويعمل في الملاحظات التي قد تنال في هذا الشأن ، ويجمع التالعين الذين يسفرون في زراعة أرض الوسية .

الكلاب : يعنى بالماشية على اختلاف أنواعها والخاسه بالوسية ويقوم بتطعيمها أي بدلاجها في ضوء مفاهيم الطب البيطري في تلك الأزمنة الشاذة إذا أجاز لنا

(١) إبراهيم الرياحي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٩ .

استخدام هذا المصطلح . كما يقوم بتطبيق ماشية الفلاحين الناصين لفارة الالتزام
خوفاً من انتقال المرض إليها واتخاذ شكل وياه
السقا : علا "أزوار الوسية بماء الشرب" (١) .

وضع الالتزام :

وقد أصبح الالتزام بفضل هذا العدد من الموظفين ، والإحصاءات الواسعة التي
حولها له القانون والقرى ، يمارس سلطات واسعة على الفلاحين في القرية أو مجموعة
القرى التي تقع في دائرة الالتزام . وحلّ الالتزام محل السلطات الناصية في مباشرة
اختصاصات الحكومة . وأصبح من حيث القواعد الفعل هو الشخصية الأولى في

(١) لم تكن المصطلحات التي ذكرناها خاصة بمنازل للقرى سواء في أراضي الالتزام
أو في أرض الوسية هي المصطلحات الوحيدة المتبعة بنظام الالتزام الأراضي . فقد كانت هناك
مصطلحات أخرى لم نذكر منها على سبيل المثال « التذكرة جي » وهو الذي يمرر بتأسيط
الالتزام ، و« التارخجي » وهو الذي يضم تاريخ كل مستند رسمي ، و« أمين السنادين »
وهو أمين عقوبات الروزنامة ، و« كافد أمين » وهو أمين الأوراق الرسمية ، و« المهر دار »
وهو حقل أخيراً للروزنامة .

وقد يظن البعض أن المصريين في العصر النشائي قد امتلأت أذهانهم بتلك هذه المصطلحات
الثقة والإدارية تتعلق بها ألتهم ، وأن هذه الظاهرة قد تسببت لنا أعماق الربح المصري
يوحه خسر مع نظام الالتزام . والحل أن ظاهرة المصطلحات الجديدة لم تكن الأولى من نوعها
في مصر إبان الحكم النشائي . فقد شهد - على سبيل المثال - حكم الدولة الأيوبية ودوائ
سبائك الحربة ونظم أكمة - وهي للموليدات الإقطاع العسكري - أمثال هذه المصطلحات
الحركية وفيها ضد مع سلطين هذه الدول . وعلى سبيل المثال عرف المجمع في مصر سواء
في الربد أو الحضر في العصر الأيوبي مجموعة من المصطلحات كان يصعب على مأكوف يطلق
على المجهز الإقطاعي في الربد المصري وعلى خاتمي للناس في النواحي الحكومية التي تعرف
على الإبراديت والمسروفت ، مثل التناظر ، خاد للمولون ، لذتوي ، لنج ، لتاسخ ،
تعاليل ، الكلاب ، المجهد ، الأيمن ، التماسح ، العليل ، الحايّر ، الخنزير ، الحاضر ، والحارث ،
الناب الذي غير ذلك من مصطلحات .

الفترة والشخصية الثنائية والكاشفية^(١). وعبر للقرن فغضون القرن الثامن عشر كأنه المالك الحقيقي للأرض التي عرس فيها حق الإلتزام وغدا بأجهزته الإدارية والمالية والتقنية عبارة عن حكومة داخل الحكومة *imparium in imperio*

(١) الكاشفية وجها كاشفيات هي وحدة إدارية مستقلة في مصر في أثناء الملك النشائي وتنازل في الوقت المنقصر (١٩٥٦) مركزه وحدها «مركز» في التقسيم الإداري للمنظمات. وقد اشترى بها لسط كاهن وهو الذي يحكم الكاشفية، أي كان بمثابة مأمور مركز. كما كان الكاهن يتوب من الصيغ التي كان يحكم المسجبة، وهي إحدى الأقسام الإدارية الكبرى في مصر وتنازل إحدى محافظات مصر بالتبعية الحديثة. فكان الكاهن يعمل على الصيغ في أثناء تيب الأخير من مقر منصبه وعقبه قضاء. نظم ظهور السفي القاهرة. وكان هناك نوع ثان من لوطيين يعمل كل منهم لقب كاهن. وكان هؤلاء الكاهن هم وكلاء الأباشا النشائي الذين يعرفون الكاشفيات التي كان دخلها مخصصاً لياها في أقاليم معينة في مصر.

وما هو جدير بالذكر أن كثرة من المراسم العربية والعربية تذكر كلمة «كشوفية» *koucheoufiah* بدلا من كلمة وتبسيما كشوفيات بدلا من كاشفيات. وقد رأينا - أحدا بالأموح - أن نعتقد لفظة كاشفية وجها كاشفيات طالما أن مصطلح الكاشفية مأخوذة منه ومتسوية إلى كلمة كاهن.

وكان الكاهن من السكركين من ذوي الرتب السنية، ويحتلون إلى إحدى فرق الحماية الشخصية السبع. وكان من عاداتهم في أثناء جولاتهم في مناطق عملهم أن يركب الواحد منهم حواصة، وحوله حشود من الرعوى الطبول لفرقة الرعية والرحيل لفرقة الفلاحين، فيسارعون إلى تقديم الهدايا إليه من الرغيم من أن الأولئك كانت تصدر مقدمة إلى الكاهن بضرورة حماية الفلاحين والمحافظة على أرواحهم وأموالهم. وبعض الرمن تأملت عادة في الرتب المصرية، وهي أنه أصبح من حق الكاهن أن يأخذ من كل قرية كبيرة يمر بها الهدايا الثمينة أو الطعام بقية ذلك العصر:

عدد

- ٣ وهو من السبع
- ٣ أرواح من السبع
- ١ كبة من السبع
- ١ كبة من السبع
- ٥ أرواح من السبع
- ٥ حجابات

==

وضع الفلاح في ظل نظام الإنعزام :

ويعتقد نظام الإنعزام أن الملتزم بوزع الأرض على الفلاحين ، كل على حسب قدرته على الزراعة . وكانت تقسم الأرض من حيث الحفوة إلى ثلاثة أنواع : عال ، وسط ، دون . وكان على الفلاحين أن يؤدوا للملزم القيمة الإيجارية التي يفتح عليها منهم . وقد آثرنا استخدام عبارة « القيمة الإيجارية » لأنها كانت تصور الأمر الواقع بين الملزم والفلاحين . وكانت القيمة الإيجارية أعلى بكثير من المال الذي يلقى للقرى على الأرض . والفلاح في ظل نظام الإنعزام كان لا يملك الأرض التي يرونها بل يحوزها . وعربياً من هذه القاعدة كل الفلاح لا يملك حق بيع الأرض أو رهنها أو غير ذلك من أشكال التصرفات . بجميع أراضي مصر كانت تدير ملكاً لسلطان بمقتضى طبقاً لمبادئ الشريعة الإسلامية . وكانت تنص على أنه إذا تمتعت بلد حقوة فإنها تكون ملكاً للفلاح . أما إذا تمتعت سلماً فتكون شيئاً للمسلمين ، أي يفتح الفلاحون مع أهل البلاد المفتوحة على مقدار الحزبة

== ومن كز قرية صغيرة كان الكاهن يأخذ في صورة ملزم :

٢ رأس من الخنم

٣ أردب من القمح

٣ أرطال من السن

٢ كبة كفاف

٢ كبة برغل

وكانت تكاليف هذه الهدايا أو التنازل توضع على سكان القرية.

أبراهيم اليازجي : مروج سيني ذكره : ص ٢١٤

وكان يستقدم في القصر الثاني مصطفى خان آخراي يتنص ليبدأ الأمر على بعض الفلاحين ، ويأخذ مال الكاهنية ، ومعنى مال الكاهنية . أما مال الكاهنية عبارة من فئات الإدارة . فليلاً في الأناجيل مثل مربي الكاهن وترسيم المسود وتطهير قنوع ومربيات السكر الخليل . وكان أمان القرى يدفعون هذه الرسوم للكاهن . أما معنى مال الكاهنية فهو ما يسمونه كل كاهن الحكومة .

والطراج الذي يدفع القلتين دون أن يحسوا الأرض أو يأخذوا منهم عترة
وفهراً^(١).

أرض الأحرار

وكان لبعض فلاحى الإنترام مساحات زراعية متيرة يطلق عليها المصطلح
التاريخي «أرض الأحرار» يقومون بخدمتها وزراعتها والحصول على محصولها، وفي
بعض الحالات يحصلون على جزء من هذا المحصول. ولكنهم لا يستطيعون التصرف
فيها بالبيع أو الهبة أو التنازل أو الإيجار، ولا تورث قدرتهم من حيث هي أرض،
وإنما يتوارثون حق زراعتها والتصرف في المحاصيل التي تنلها. وكان الفلاح
يستمرى في التمتع بحق الانتفاع بهذه الأرض طالما كان مواظباً على أداء التزاماته
المالية نحو الملتزم، وطالما كان مستمراً في زراعتها. وكان لللتزم لا يستطيع طرده
من أرضه، إلا إذا توقف عن دفع الطلوفات للقررة عليه أو ثبت عجزه عن
فلاحة الأرض^(٢).

والأصل في أرض الأحرار أنها كانت ملكاً لثلاث ملثت عليها وانصرفت
إلى زراعتها أقطاعياً وأجيالاً، ولكن لما تمت عملية مسح الأراضي الزراعية ومصر
في أول الحكم السني لم تصطلح هذه المثلثات إثبات ملكيتها للأرض بأي مستند
فالتوى لطلول العهد، ولكنها أثبتت ملكيتها بشهادة الشهود. ورات السلطات
السنية ترك هذه المثلثات تصطلح هذه الأرض باعتبارها أثراً للسلطة عبر ثابتة
بحسبة شرعية. ويطبق أحد الباحثين التخصمين في تاريخ مصر إذن الحكم السني
بأن هذا التصرف من جانب السلطات السنية كان تصرفاً إنسانياً^(٣) ويمكن
إضافته أيضاً إلى حركات النظام السني في مصر قبل تنصيبه، إذ كان في ملودور
الحاكم السني يترج ملكية مثل هذه الأراضي. ومن حقائقه أيضاً أنه منع لللتزم
من طرد الفلاحين من أترهم إن عجزوا عن دفع المال لليرى الرموط عليهم.
ولكن لللتزم تجاهل هذا النص أيضاً وراح يصاب الفلاح الماثل بطرده من أتره

(١) دكتوراه سيدة امينيل كلف: مصر في فجر الإسلام من فتح العرب إلى ام
الدولة الطولونية. القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٠. الناشر دار النهضة العربية، ص ٣٩.
Shaw Wanford J., The Financial etc., op. cit., pp. 30-31. (٢)

علاوة على ^{٩١} وقد تدخلت السلطات الثمانية في مصر لوقف هذا التصرف الجائر الذي كان يصدر عن الملتزم. وأصدر الوالي البشاي مسيح باشا أمرًا تأقي سنة ٩٨٥ هـ (٧٧ / ١٥٧٨ م) بجمع الملتزم من طرد الفلاح من أرض الأثر إذا حذر من الوفاء بالتزاماته المالية بسبب عدم استطاعته زراعة أثره، كما نص هذا التمرين على إرجاع كل من الملتزم والكاشف على مساعدة الفلاح بعدة بالبنور اللازمة، على أن يجتنب هذه البنود في سجلات الشاهد لتحصيلها من الفلاح بعد بيع محصوله ^{٩٢}.

واكتسب الفلاح في القرن الثامن عشر حقاً جديداً - سد الحق الذي كان قد تقرر له في القرن السابق شروث الفلاح حق الانتفاع بأرض الأثر بالشروط الصلوة - وبمقتضى الحق الجديد أصبح للفلاح الحق في أن يؤجر لمدة سنة أو أكثر من سنة أرض الأثر لأي شخص آخر يفتق منه فائدة عن معين في مقابل هذا الإيجار أو يرحل جزءاً من أرض الأثر رهنًا كل يطلق عليه « القاروغة » ^{٩٣}. أما إذا حلت الفلاح دون عقب أو كان وركته ضغاء لا يستطيع أحد منهم فلاحه الأرض أو الوفاء بالالتزامات للقروضة عليها، فإن الأرض ترجع إلى الملتزم الذي يستطيع إلى مزارع آخر طبقاً لقانون « بيت المال » الذي يحصل زراعتها أمراً ضرورياً حتى لا يحرم من مالها الذي يفتق منه على حيازة البلاد ^(١).

وقد أحلقت على الأرض التي يعطى للفلاح حق حيازتها والانتفاع بها في الوجه البحري عدة أسماء : مثل : أرض الأثر، أثر الفلاح، الأرض المؤثرة في

(١) إبراهيم الطوبى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤١ -

(٢) الترخيم السابق .

(٣) « قاروغة » : فقد ينضم بمقتضى الدائن أرض الفلاح المدمر ويستغلها الدائن ويستعملها عليه فائدة منه حتى يسدد الدين هذا الدين .

(٤) دكتور أمين مصطفى عيسى عبد الله : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦١ .

الفلاحين ، الأطنان الأثرية . وقد استهدفت هذه التسميات التمييز بين أراض
الفلاحين وهي الأثر ، وأرض المنزعين وهي الوسية (١) .

أرض الساحة :

وقد لقي الفلاح في الصعيد الكثير من المتاع والتفتت سماً بسبب الحاجة للعبارة
للمصان النيل كل سنة . إذ كل مقدراً من الحاجة الظرفية أن الأرض التي
تساقها مياه المصان هي وحدها التي يدفع الفلاح عنها الضرائب . فإذا جاء
المصان في إحدى السنوات شحيحاً وعرست الأرض الزراعية للشرق ، أو جاء
المصان طالياً هادراً وعرست الأرض للفرق ، كانت هذه الأراضي وثلاث تعدد
مساحتها بإجراء قياس لها ، وتخصص نحبها من المجموع الكلي للضرائب
المربوطة على القرية ما عدا ضريبة للمدى التي تبقى دون أي تخصيص . ولذلك كان
يطلق على الأرض التي يزرعها الفلاح في الوجه القبلي مصطلح آخر هو « أرض
الساحة » . أما من الناحية السلية فإن هذه الرجة بالفلاحين كانت رجة ظاهرية ،
لأنه إذا جاءت السنة التالية رعيحة بالنسبة للمصان ، فإن التخفيض الضريبي من
السنة السابقة كان يضاف إلى ضرائب السنة الجديدة (٢) .

(١) محمد أندي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٦ - ٥٢ ، حاشية رقم ١ .
والمراد بإياديهما ، أندي من التطورات القانونية التي مرت بها أرض الأثر . انظر الحاشية
عصر ، الأسنة والأجيوة من رقم ٢ حتى رقم ٤ .

وأخر أيضاً :

دكتورة ليلى عبد الحليم أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩١ - ٣٩٢ حاشية
رقم ٣ .

(٢) Laquet Michel-Ange, Mémoire sur le système d'imposi-
tion territoriale et sur l'administration des provinces de
l'Egypte dans les dernières années du gouvernement des
Mamlouks.

dans

Description de l'Egypte, op. cit., tome XI, pp. 461-571.

Voir spécialement les trois sujets suivants :

تطور التركيز القانوني للملزم :

وكان الإلتزام يعلو في البداية لمدة سنة واحدة ثم لعدد من السنين ، ثم أصبح يعلو مايقابل الملزم على قيد الحياة ، وتطور الوضع القانوني للملزم بعد ذلك ، «متعذر أن يكون حتى الإلتزام وراثياً في غيبه إذا كان الملزم المتوفى ورقة تادرون على الوفاة بمشؤوليات الإلتزام»^(١) . وكان يطلق على حصص الإلتزام التي يموت ملتزموها «بلاد الأموات» . وكان في استطاعة الورثة نقل هذه الحصص إليهم بشرطين ، أولها أن يقدم أحدهم يطلب إلى ديوان الرورنامة يطلب صدور «تمكين» له أي تجديد تسييط الإلتزام أو عقد الإلتزام أما ثاني الشرطين فكان يتمثل في دفع مبلغ من المال يسمى «المالوان» أو «حلولان بلاد الأموات» وهو بمثابة رسم تسجيل . ويحدد مقدار هذا المالوان بثلاثة أمتار فاقص للملزم أي ثلاثة أمتار الفحل السوي للملزم المتوفى من عملية الإلتزام . أما إنزاله يسكن للملزم المتوفى ورقة تادرون على زراعة الأرض ، ففي هذه الأرض ، وهي بلاد الأموات بمصطلح ذلك العصر^(٢) ، تطرح في الزراد وتعطى للفرم -ديد . وتغادر من هذا المرض إلى أن حصص الإلتزام لم تكن تعود للحكومة ولا يستطحق الملزم فيها إلا في حالات قليلة ، منها : امراض ذرية للملزم أو عدم رغبة أحد من ورثته في الاتضاع بالحصة أو مصادرة

a) Des différentes manières dont les terres sont possédées; des titres de propriété et des impositions principales. pp. 466—476.

b) De l'administration des terres. pp. 476—487.

c) De quelques usages particuliers à la Haute-Egypte. pp. 487—492.

(١) كان يتبع هذا الحق أيضاً اماليات الملزم اليحي .

(٢) كان يطلق على مثل هذه الحصص مصطلح آخر هو الحلول ، أو الحصة المأهولة . انظر كلامي :

دكتور أحمد أحمد لغنة . تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير . القاهرة : ١٩٥٠ ، ص ٢٠ - ٢٦ .

Shaw Stanford J. : Landholding etc, op. cit., p. 96.

الحمة نتيجة وقوع اضطرابات سياسية عتيفة وتغير ميزان القوى في البلاد،
فليجأ الأمراء للتصبرون إلى الانضمام من حصصهم بمصادرة حصص التزامهم .

مرأيا نظام الالتزام :

وابنات الحكومة الثمانية إلى نظام الالتزام فيها يختص بجمع الأموال
الأميرية ، لأنه يوم عليها متاعب الاتصال بالملادين وغيرهم بزيادة الضرائب
والرسوم ، وألفت هذا الصء على كامل للترمين . كما أن نظام الالتزام كان يمشى
مع طبيعة الحكم الثنائي للولايات التي خصت بسيادة المولى ، إذ كل من أم
خصائص الحكم الثنائي لا تدخل السلطات الثمانية في حياة الجاهير ، بحيث
كل هذا التدخل في أميق تطلق ممكن .

وذهب أحد الباحثين الأمريكيين إلى القول بأن نظام الالتزام كان مثالياً
بالنسبة لمصر فإن الحكم الثنائي في ظل اللابسات التي كانت سائدة قبل القرن
الثامن عشر ، وأضاف إلى ذلك قوله إن هذا النظام أتاح لمراة الحكومة تدفقاً
مستمراً من الإيرادات مع أقل قدر ممكن من المصروفات أو التكاليف الإدارية ،
وأعطى للمترمين مصلحة دأعة ومستمرة في العمل على الحفاظ على خصوبة الأرض
حتى لا يفسدوا في استغلالها أو إتهاك التربة الزراعية والمروص على عدم إخراج
المزارعين منها ، كما أن نظام الالتزام أضحى للمزارعين للظلم ضريبي مستنظم وحال
بينهم وبين التعرض لإجرامات تعسفية^(١) .

والحق أن هذه الزايا كانت تحقق لسلطان^(٢) وللقرم والفلان طاملاً كان

1) Shaw Stanford J : Landholding etc . op. cit. , p. 102

(٢) كان « بدل الالتزام » - وهو المثل الذي يقدمه كل ملزم لمرأة الحكومة
في مقابل شراء حق الالتزام - يقدمه إلى السلطان كجزء من المال الذي « وكان
توجيهه حصبة بدل الالتزام إلى حوزة السلطان أمراً ذا مغرى سياسي وقانوني ؛ فهو يؤكد
السيدة المستمرة لسلطان على مصر ، ويحدد ملكية السلطان التامة على الأرض .

انظر :

Shaw Stanford J. : Landholding etc. , op. cit. , p. 95

الباشا الثباتى في مصر ومعاونوه فادرون على تحقيق حقوق نفوذ الدولة السياسي والحربي في البلاد . بنظام الإلتزام كان نظاماً ملائماً للفلاح الصغير يوجه خاص ويوفر له وسائل الزراعة والأمن والاستقرار . وكانت تطلق مصلحة الفلاح مع مصدرة القرض في عدم إيهاق الفلاح في العمل في أرض الوسية طبقاً لنظام السخرة ، وعدم إبراز الأموال منه ، أو مصادرة المحاصيل ، وفرض ضرائب جزافية عليه ، ومعاملة حالة فيض النيل كل سنة .

تدهور نظام الإلتزام :

تدهور نظام الإلتزام من الناحية التطبيقية في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وذلك بحكم اللزاسات التي أحاطت بتطبيقه . فقد عدا الأمراء للماليك مراكز القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية في مصر وبخاصة في الفترة من ١٧٦١ حتى سقوط الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨^(١) وتركزت حصص الإلتزام ، في أيديهم وأبدي ممالئهم ورواجهم وأولادهم^(٢) . وكانوا يهتزون كل فرصة لدعم مركزهم الإلتزامي ، فإذا خلت حصص من حصص الإلتزام ، لسبب أو لآخر ، كانوا يهتزون المتقزمين المحدود من بين أتباعهم . وكان ديوان الزعامة والديوان القوي يستحق رغبة الأمير الملوكي ويتفادلان من إجراء مزاد بين الراغبين في الإلتزام . وفي بعض الأحيان كان الأمراء للماليك — أصحاب السلطة الفعلية في مصر ، ومنهم المفترقون

Holt F.M.: The Pattern of Egyptian Political History (١)
from 1517 to 1798, pp. 86—90.

وهو أحد بحثن تقدم بها هولت أستاذ تاريخ العالم الغربي في جامعة لندن إلى المؤتمر الدولي الذي عقد في شهر أبريل ١٩٦٥ من تاريخ مصر الحديثة من الفتح للشبان مصر سنة ١٥١٧ إلى مساعد قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ والتي سبقت الإشارة إليه . وكان موضوع بحث الآخر « مصر العشائرية ١٥١٧ - ١٧٩٨ » الصادر التاريخة العربية « . وقد نشر هذان البحثان في الكتاب الذي صم بحوث المؤتمر وسبقت الإشارة إليه . وبعد الاستاد هولت أحد كبار علماء الاقتصاديين في تاريخ مصر إبان الحكم العثماني . وقد وضع عدة بحوث تناولت منها مصر بالوزارة التنفيذية الموضوعية »

Shaw Stanford J.: The Financial etc., op. cit., p. 35. (٢)

والوزن اعمى - يحاولون إشفاء نوع من التشريعية على هذا التبيين التفسري ، فأطلقوا على هذا الأسلوب في تبيين للتزمين « الصالحة » ويدفنون مبدئاً من المال يسمى « بدل الصالحة » وهو « جابل » الحلوان ^(١) . وفي أميان أخرى كانت تخدمت مزادات سورية ، أي على الورق ، تستر عن تعيين الأتباع وللتزمين إلى مواكر التوى ، وفي ذات الوقت كانوا يمتصون الإغفاء من قطع « الحلوان » ، وفي أميان ثالثة كلن الإقترام يحصل من شخص إلى آخر قسراً على الرغم من أن القانون يمنع هذه التصر صماً باتماً .

انصكست هذه الأوساع على حالة الفلاح للمصري ، يوحى الكثير من الاستبداد والجور ، سواء من للتزم وأهوانه ، أو من الأمراء للمالك وأتباعهم ، إذ كانوا يقومون على قراعت متقاربة بيجولات في الرب يطهرون فيها الحاصل الزراعية وللأشنة ، كما كانوا يقتصبون بيوت الفلاحين بمنأى من مدحراتهم ، ولتويل كل الويل لمن تلحق به مظلة التراء ، وكلن الفلاح يدفع للتزم أكثر مما هو مقرر عليه رسمياً ، وانتشرت الجبايات والأوبئة مثل الطوابع . وكل أشدها فشكاً طابعون إسماعيل بك ، وتأخرت الزراعة وتقلص تعداد الفلاحين وعمدوا إلى ترك الأرض ، بل والمجورة كلية من القرية والكشعبة . ويدكر تولي Volney أنه شاهد للمصريين في سوريا سنة ١٧٨٥ أنواجاً وجماعات . وقال إن أزمنة صيدا وحيلا وسائر مدن وقرى فلسطين كانت تسج بالمصريين . وقد توغل فريق منهم في أنجاله الشمال حتى حلب وديار بكر ^(٢) . وقد أفاض الجبرتي في وصف حالة الشقاء التي طش فيها الفلاحون وغيرهم من الطوائف المتسفة .

(١) Shaw Stanford J., Landholding in Egypt, op. cit., p. 100.

(٢) تولي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٧ .

الجوارك ونظام الإلتزام .

وعد طهت الدولة العثمانية نظام الإلتزام على الجوارك التي كانت قائمة في جميع
موانئ الدولة^(١). وكل يطلق على هذه الرأى كلمة أسا كل^(٢) des échelles

1) Combe Etienne: l'Egypte Ottomane de la conquête par Sélim (1517) à l'arrivée de Bonaparte (1798). p. 88

dans

Précis de l'Histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues. Tome troisième. Imprimé par l'imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire 1988,

2) أسا كل ومعناها أسكة ، اتبعت من اسكة الإيطالية سكالاس
بعض مباء أو مقر . وهي تكتب في المصادر والمراجع العربية التاريخية أشكال عني :
في صيغة المفرد : أسكة - سكة - سكة - أسكة .

في صيغة الجمع : أسكات - سكات - سكات - أسا كل .
وتزد أحياناً في بعض المصادر التاريخية العربية كلمة سكلر ، وهي مقبولة من اللغة
الإسلامية ومعناها ميناء للبحرين أو للقرن .
انظر كلام من :

Recueil des textes du quatrième congrès des Orientalistes,
p. 461

Colin, Notes de dialectologie.

par

Bulletin de l'Institut français, XX, pp. 51, 69, 73, et 202.

Brunot, Notes lexicologiques, sur le vocabulaire maritime
de Babat et Salé, Paris, 1929, p. 61.

Barbier de Meynard, op. cit., vol 1, p 55.

Bastier, op. cit., vol. 1, pp. 268 - 269.

Dony: op. cit., t. 1, p 23, 660 et 839.

المحررين : مصدر سبق ذكره : ج ٣ ، ص ١١٧ : ج ١ ، ص ١٤ .

كما كان يطلق على إيرادات الجمارك « محصول أسكلة » . وكانت تباع رسوم كل جرك^(١) إلى الشخص الذى يرسو عليه الزاد مقابل مبلغ من المال يؤديه للحكومة ، ويصبح لقبه الملتزم ، ثم يشرف هذا الملتزم على جباية الرسوم الجمركية . وكانت حصيلة الرسوم الجمركية تأتى فى المرتبة الثانية بعد مراتب الأراضي الزراعية بالنسبة لإيرادات الحكومة . وكان للفرم لا يدير الجرك ، بل كانت لديه هيئة من الموظفين يرأسهم موظف يسمى « كرك أمبى » أى أمين جرك . وكان يطلق عليه أحياناً جركى . وكان هذا الجركى فى العادة رجلاً يهودياً ، وبخاصة فى الجمارك التى تقوم فى الموانئ . السجوى دلت النشاط التجارى المكثف . وكان لاسم الجرك فى الولايات العربية يذكر مسبوفاً بكلمة « للملم » .

وإذا أخذنا مصر مرة أخرى كمثل لولاية عثمانية طبقت فيها الدولة نظام الإنترنم على جماركها فى سائر الموانئ سواء كانت للموانئ البحرية أو النيلية نجد أنه كان فى مصر إبان الحكم العثماني عدة جرك ، وكان أهمها جرك الإسكندرية ، وكان يقسمه جركن فرعيان فى أبى قير ورشيد ، ثم جرك دسياط ، ثم جرك البرلس . وكان نشاط هذه الجمارك منصباً على التجارة الخارجية - استيراداً وتصديراً - مع القبول المتوسطية ، أى الدول التى تقع فى حوض البحر المتوسط ، والدول التى تقع ليا وراء هذا البحر . وعلى الرغم من أن حركة التجارة الخارجية كانت فى نطاق سين فى مصر على عهد الحكم العثماني ، فقد كانت لها أهميتها فى الحياة الاقتصادية فى مصر فى ذلك العصر . وكان هناك أيضاً جرك البهار ، وهو يقع على الطريق الصحراوى بين القاهرة والدمرس ، وكانت تحصل فيه الرسوم الجمركية

(١) يذكر بعض المؤرخين أن كلمة جرك أصلها تركية ، وهى كلمة يونانية Koumerke ، ثم انتقلت إلى اللغة اللاتينية ككوميركيوم Commerceium ، وحررت لى اللغة العربية إلى جرك ، وهى اللغة التركية إلى كرك .

انظر :

Gibb Hamilton and Harold Bowen: op. cit; vol I Part 2. p. 127 n. 5

على السلع الواردة من بلاد الحبشة والتي تشحن من ميناء جدة أو ميناء بلبع، ثم البضائع الواردة من ميناء حماي اليمن . وكان القرن أم السلع الواردة من اليمن ، ثم تجارة الهند التي كان جزء منها يرد إلى مصر في طريقه إلى أوروبا على الرغم من كشف طريق رأس الرجاء الصالح . وأخيراً كان هناك جرك في ميناء بولاق القهري يقوم بتجميع الرسوم الجركية على البضائع التي تطلقها السفن الليبية من بلاد الوجه البحري . وكان لهذا الجرك جرك آخر يتبعه ويقع في مصر القديمة - عند ساحل أثر القبي - لاستقبال السفن الليبية القادمة من أغاليب الوجه القبلي وتبلغ فيه الرسوم الجركية ^(١) .

وكانت حصيلة الرسوم الجركية التي يتم تحصيلها من كل جرك تخصص لجهة مثل مرتب الباشا الثاني، ضباط العامة وأى جيش الاحتلال، الصرة وهي الأموال التي ترسل إلى الحبشة في كل سنة مع ثلاثة المص للصرى ، وحزبة السلطان . وكان جرك البهار هزماً لباشا الثاني ^(٢) . وكان أوجاق الإنكشارية ^(٣) في مصر يتقدم بمصر الجنازك مثل إسكندرية ودمياط وجرك بولاق وجرك مصر القديمة ، فيدفع مال الجركي المفرد على الجرك ويستولى الأوجاق على الأموال الباقية .

ونظراً لظروف السياسة التي مرت بمصر في العصر العثماني المملوك لم يطبق نظام الإنزمام على الجمارك تطبيقاً حليماً . فقد أسرف للتزموه وأموالهم في إبراز الأموال من التفتلين في تجارة الاستيراد والتصدير . وكانت غالبيتهم من الأجانب مثل البنادقة واليوغانيين والفرنسيين وبعض الإنجليز .

Combe Etienne op cit., p. 88.

(١)

(٢) دكتور حسن عياد : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٠ .

(٣) كان أوجاق الإنكشارية أم الأوجاقات السبعة التي كانت تتألف منها الحامية العثمانية في مصر . وكان القائد هذا الأوجاق وهو أبا الإنكشارية - الرضا الطيا في حفظ النظام في مدينة القاهرة ويقتب لهذا الأوجاق عدد من أكر أصحاب المناصب في مصر ، منهم وكيل الباشا - الإنكشار - وسردار الحام أي قائد القوة العسكرية التي ترافق قائد الحام للصرى ، وسردار الحزبة وهو قائد القوة المرافقة للفرقة المرسلة إلى السلطان . وكانت تحتل برأس القنطرة إلى إستانبول . وكان يطلق على أوجاق الإنكشارية أوجاق السلطان أحياناً ، وأحياناً أخرى أوجاق مستعقلان أي رجال الخط .

ولما اعتمد على بك الكبير بحكم مصر (١٧٦٨ - ١٧٧٣) حارل القضاء على بعض عيوب تطبيق نظام الالتزام على الجبلارك^(١). فأيّد للتزوين اليهود وأحلّ عليهم سوريين مسيحيين كانوا قد رزحوا من دمشق إلى القاهرة والإسكندرية في مطلع القرن الثامن عشر. وكانوا في أول الأمر قد أعدّوا لم يتجاوزوا أفراد ثلاث مائات. ولكن الأرباح التي حققتها من إلزام الجبلارك بمد إبعاد اليهود ومن نشاطهم التجاري جذبت مائات سورية مسيحية بلغ عددها جماعة أسرة حق أفرادها أرباحاً وفيرة^(٢). وبعد وقت على بك الكبير ماتت تطل برأسها عيوب تطبيق نظام الالتزام الجبلارك.

ويذكر أحد الرحالة الفرنسيين وهو فولبي - وقد زار مصر والشام ونسى بهما سنوات ثلاث ١٧٨٣ - ١٧٨٥ - أنه في عهد الحكومة العثمانية التي كان جولاهي مصر إبراهيم بك ومراد بك، كانت هناك ظاهرة تكررت، وهي أنه كلما احتاج هذان الأميران للمالوكيان إلى أموال وفيرة تسليماً في كل مرة إلى جماعة ألف ليرة، كانا يستدعيان ملزم الجبلارك لتقديم البهق، فلا يتردد للالتزم في أدائه ما يطلبان. ولتوانح للالتزم إلى أمثال هذه المطالبات، لأن الأميرين إبراهيم بك ومراد بك كانا يظنّان بد للالتزم في دفع الرسوم الجبلركية بصورة رسمية موصفاً له من المبالغ التي دفنها. وهكذا كان للالتزم لا يقتصد بالتسوية الجبلركية. كان يرض ما شاء له جسسه من رسوم إضافية لا تقطى المبالغ التي

(١) وما يذكر أن على بك أقر نظام الالتزام على الأرمن والبابلي لصره دون أنه عليه. واكتفى بالأيّد ناصر الخديعة من ميدان الالتزام الأرضي إلى حد بعيد ولم يسمح بذلك إلا أن لا كد من إختلاسهم له. أظهر دكتور عدويست ومبانت، مرشح سبي ذكره، ص ٨١.

(٢) تبسّ في أيدي هؤلاء اليهود للمسيحيين ثروات ضخمة ورؤوسهم الآمال في جمع مدي من الثروات. وأصبحت لهم مكانة يفتي منها أن يصعدوا إلى ماصار ذلّة لليهود. وقد اعتمد الناس أن ساهتم في ذلك وأكثرت. حين مرّ بهم أطول فرعون إلى ليرنو *Livorno* في إيطاليا سنة ١٧٨٤ حوفاً من أن يفتضح أمره، وعرض أن يعطي بنية حياة =

بذلكها للأمراء المماليك فاسب، بل لتحقيق له مزيداً من الأرباح، وعلى هذا النحو تلاقى أو التهمت مصالح ملئزى الجمارك مع مصالح الأمراء المماليك، وقد شخصوا بأبصارهم إلى الرسوم الجمركية كورد مالى لا يتضبط معيله، وقد ارتفعت أسعار التجار بالشكوى من تصرفات ملئزى الجمارك. ووقت فئاسل الدول في مصر إلى جانب مواعدهم التجار، وتظاهروا مراد بك بعبته في القضاء على عيوب تطبيق نظام إلزام الجمارك، وفرد أن يفرد هو دون سواه بالإشراف على الجمارك^(١). وازداد الموقف تدهوراً، إذ لم يكن هدفه الإصلاح، وإنما الاستيلاء على حصيلة الرسوم الجمركية دون أن يشارك فيها رعيه في الحكم الأمير المملوك الكبير إبراهيم بك. ومن المعروف أن هذه الحكومة الثنائية ظلت رابضة على تلويب المصريين حتى قدمت الحجة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ فحلت بها.

الإقطاع الحربي والإلزام في بلاد الشام:

وإذا اعتقلنا من مصر إلى إقليم عثاني آخر هو بلاد الشام فمما يلفت الإداوية التسلية نجد أن الدولة العثمانية طبقت فيها نظام الإقطاع الحربي ونظام الإلزام. وكانت هناك الأراضي العامة، ويطلق عليها ديموز، وتعتبر ملكاً للحكومة، وبعض إقطاعات عسكرية وفقاً لأنواع الخلاصة المروقة: قنار، زمامت، خاص، لحكم الولايات والأقوية والحدود الإقطاعيين، على أن يقوم الإقطاعيون عند نشوب الحرب بإعداد وتجهيز عدد من الفرسان المحاربين يتناسب مع إيراد الإقطاع الحربي.

== جو آمن يستعمل بآروء القسمة.
انظر:

قولي، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٥.

وتنيزت بلاد الشام بوجود عصيات إقطاعية عليا احتلت قوة وعدداً وثراء وثقوة. وكانت هذه العصيات على نوعين : عصيات مدنية كالإسماعيلية ، والنصيرية والدروز والمولانة ، وعصيات عنصرية كالأكراد والتركمان والعرب ، وبذلك وجد في بلاد الشام نوعان من الإقطاع : الإقطاع الحكومي والإقطاع الخاص . وكان الإقطاع الخاص أوسع حدوداً من الإقطاع الحكومي ، ولاسيما في لبنان حيث كانت توجد ثلاث استقراطية من الدروز والمولانة وغيرهم من بيوت المصيات الإقطاعية ويسرف زعماء هذه البيوتات بالمشايخ ، ويدير الشيخ ششرون مقاطعة ويرج (أمير الجبل) فوق هذا البناء الإقطاعي والتي هي الرئاسة العليا على الأمراء والشيخ والسلمة .

وكان نظام الإقطاع في بلاد الشام أشد قسوة على الفلاحين من مثيله في مصر . كل للفئزوم يندمون إلى كبار الإقطاعيين العسكريين أو المشائرين أو رؤساء الطوائف الدينية . كل للفئزوم يحسبون انخراج والأموال السلطانية من الفلاحين ويسددون مقداراً معلوماً لهاشا المنيان في دمشق أو الباشا في سيدا بواسطة حاكم الجبل .

ولقد أدخلت الدولة على نظام الإقطاع في بلاد الشام في أواخر القرن السابع عشر نظام المالكانة . ويقتضى هذا النظام كانت الدولة تمنح الملتزمين حق الإقطاع مدى الحياة حتى يستطيعوا تحقيق أرباح مقولة لهم على مدى الأيام . ولكن جاء هذا النظام بنتائج عكسية بالنسبة للفلاحين والدولة - فقد كل الملتزم - ولقد استمر وضعه ووسخت أقدامه في دائرة الإقطاع - يعتبر نفسه مالكاً حقيقياً للأرض ومن عليها يستبد بالفلاحين ويسومهم سوء العذاب مريباً أو سحناً أو مصادرة لأموالهم وحاسلاتهم . أما الدولة فقد أصبح من الصعب عليها مواجهة الزيادة في النفقات بموارد مالية ثابتة وقديمة غير قابلة للزيادة . وذلك لم يكن في مقدورها زيادة الدخل الحكومي من مصادر الإيراد إلا عند

وَقَدْ أَحَدَ الْمُتَرَبِّعِينَ لِقَطْرَحِ الْإِثْمَانِ فِي مَزَادٍ مِنْ جَدِيدٍ وَلَقَدْ تَلَا سَمْعُو السَّاعَةَ^(١) .
وَمِنْ الْخُصَائِصِ الَّتِي تُمَيِّزُهَا نِظَامُ الْإِثْمَانِ فِي بِلَادِ الشَّامِ أَنَّ السُّلْطَانِ السَّنْيَانِيَّةَ
كَانَتْ تَطْلُبُ مِنَ الْمُتَرَبِّعِينَ أَنْ يَسِينُوا مَصْرِييْنَ فِي السَّاسَةِ كَيْ يَتَمَّ دَفْعُ الْأَمْوَالِ
السَّلَاطِيَّةِ فِي الْمَوَاعِيدِ الْمَحْدُودَةِ وَلِلْمَنْصُوسِ عَلَيْهَا فِي عَقْدِ الْإِثْمَانِ . وَكُلُّ الْمَصْرِيِّينَ
مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ وَالْيَهُودِ وَيَشْكُلُونَ طَبَقَةً وَرَاقِيَةً مُمْتَازَةً . وَكَانَ لَا يَدَّ لِكُلِّ مَصْرِيٍّ
أَنْ يَحْصُلَ عَلَى رِايَةِ مَوْفَقَةٍ مِنَ السُّلْطَانِ سِوَا أَنْ يَدْفَعَ مَلْتَأً بِأَعْطَى السُّلْطَانِ وَجَدَ
أَنْ تَتَأَكَّدَ الدَّوْلَةُ أَنَّهُ عَلَى حِظِّ مَوْجُودٍ مِنَ الْأَثَرِ بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسُدَّ فَجْرَانَةَ
الْأَمْوَالِ لِلطَّلُوبَةِ مِنَ الْمُتَرَبِّعِينَ حَالًا يَحِلُّ مَوْعِدَ سَدَادِهَا^(٢) . وَكَانَ الدَّامِغُ لِلدَّوْلَةِ
السَّنْيَانِيَّةِ عَلَى إِحْدَالِ نِظَامِ الْمَصْرِيِّينَ هُوَ أَنَّ الْمُتَرَبِّعِينَ كَانُوا يَسُوقُونَ فِي
أَدَاءِ الْإِثْمَانِ الْمَالِيَةِ أَوْ يَهْجُرُونَ مِنَ الْوَقْفِ بِهَا . وَرَضِخَ الْفَلَاحُونَ لِمَسَدِ الْمُتَرَبِّعِينَ ،
وَكَانَ لَا يَجْنِي لِلْفَلَاحِ أَنْ يَحْزَرَ بِالشَّكْوَى أَوْ يَشَارَ فِي رِقَبَتِهِ وَعَاشَ الْفَلَاحُ حَيَاتَهُ بِالسَّكَنِ
وَالْكَثَافِ . وَلَمَّا رَضِخَ الْمَصْرِيُّونَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِأَكْلِ الْخُبْزِ طَوَالَ السَّنَةِ إِلَّا فِي
الْمُنَاسَبَاتِ كَالْأَعْيَادِ وَخَفَلَاتِ الرَّاكِسِ^(٣)

وَأَسْرَفَ أَسْحَابُ الْإِقْطَاعِ الْحُرِيِّ وَالْمُتَرَبِّعُونَ فِي طَعْنَانِهِمُ وَالْإِسْتِهْنَاءِ بِالسُّلْطَانِ
السَّنْيَانِيَّةِ . فَكَانُوا يَتَقَوَّنُونَ مَعَ بَعْضِ أَوْلِيَاءِ عَلَى الْقِيَامِ بِمَحْرَكَاتِ تَحْرُكِهِ ، وَلَا يُؤَدُّونَ
الْخِدْمَاتِ الْمَقْرُورَةَ عَلَيْهِمُ لِلدَّوْلَةِ . وَوَاجَهَتِ الْحُكُومَةُ السَّنْيَانِيَّةُ هَذِهِ الْأَحْزَاقَ بِأَتْعَافِ
بَعْضِ التَّدَابِيرِ لِتُخَفِّفَ مِنْ مَسَاوِيءِ كِلَا النِّظَامَيْنِ . كَانَ السُّلْطَانُ سَلِيمُ الثَّالِثُ
(١٧٨٩ - ١٨٠٧) يَشْتَهَرُ قَرَسَةً وَقَدْ سَاحَبَ الْإِقْطَاعِ الْحُرِيِّ أَوْ الْمُتَرَبِّعِينَ وَيَسْتَوَلِي
عَلَى أَرَاذِلِهِ ، وَكَانَ يَطْلُقُ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جُوقَ ضَبَا أَسْعَابِهَا اسْمُ

(١) دَكْتُورُ مِيدَ التَّزْيِيرِ عَمْدُ حُوسِ : الْإِدَارَةُ السَّنْيَانِيَّةُ فِي وَلايَةِ سُورَا (١٩٦٤) -
(١٩٦٤) ، دَوْرُ الْمَرْفُوفِ - الْقَاهِرَةِ ، ١٩٦٩ ، ص ١٨٢ ، حَقِيقَةُ رَقْم ٢
(٢) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ ، ص ١٨٣ ، حَقِيقَةُ رَقْم ٣ -
(٣) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ ، ص ٣٦٩ .

الأراضي المحيطة - ويصمها إلى أراضي الأوقاف السامة لينفق إيراداتها على إنشاء الجسود الجديد الذى شرع فى تكوينه بعد إنشاء نظام الانكشافية . وسار على هذه السياسة السلطان عمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩)

وحدث تحول هام فى نظام الإنقطاع ونظام الإلتزام فى بلاد الشام فى أثناء العقد الرابع من القرن التاسع عشر (١٨٣١ - ١٨٣٩) خلال الحكم المصرى لهذه البلاد . فقد كان من الطبيعى - بعد أن جمع محمد على فى إنشاء نظام الإلتزام فى مصر ونجح فى فرض التجديد المسمى الإيجارى - أن يهيج هذا النهج بشبهه فى بلاد الشام . فبعد إلى إنشاء الإنقطاع الحورى وإلى حل القوات العسكرية الإقطاعية وإلى تجريد السكان من السلاح بالقوة دون تفرقة بين الأشراف والأعيان وبين عامة الشعب . ومحمد محمد على أسساً إلى إدخال نظام التجديد العسكري الإيجارى وإلى إنشاء نظام الإنقطاع ونظام الإلتزام وإلى منح التلاحين حق رفع الشكاوى على التفرزين ، وأعلن المساواة بين جميع الطوائف والمذاهب . ولكن لما انتهت فترة الحكم للمصرى فى بلاد الشام حدثت الأمور إلى أوضاعها السابقة على الرغم من أن الدولة أعلنت فى وثيقتين هامتين صدرتا فى سنة ١٨٣٩ ، ١٨٥٦ سبق أن أشرنا إليهما ^(١) وسعود إليهما يدحى ، إنشاء نظام الإلتزام وتقرير التجديد لجميع دمايا الدولة بدون تمييز بسب الدين أو الجنس أو المذهب .

الإنقطاع الحورى والإلتزام فى العراق :

إذا انتقلنا من بلاد الشام إلى إقليم عثاق آخر هو العراق نجد أن الدولة العثمانية طبقت فيه كلا النظامين : الإنقطاع العسكري والإلتزام . ولم يصبها التجاع المرتضى بسبب ضعف الحكم العثاقى فى الولايات الأوسع التى كان يخالف منها العراق بعد أن استعصمت الدولة العثمانية خصها البلاد العراقية . وكانت هذه

(١) انظر مصرى ٩٦ - ٩٨ فى هذا الموضع .

الولايات هي الزسل^(١)، وشمر، دوز (كرهستان)^(٢)، وينداد^(٣)، والبيصرة^(٤). وكان ظهور المصيبيات المحلية في العراق من الأسباب التي أدت إلى عدم نجاح كلا النظامين، وكذلك المصدام الذي كان يحدث بين القوات الإقطاعية والقوات الإنكشارية. وكانت الدولة تمهدة قوات كثيفة للمعركة من الإنكشارية في المدن الكبرى في العراق، وظهور المالك كحصة حاكم في بغداد. وكان من نتائج هذه العوامل مجتمعة أن أصبح قرحان الإقطاعيات العسكرية - تبار وزعامات - يهيرون من الخدمة العسكرية. وكان من بين القوايح التي صيغت لتحرير مصلحتهم الأولى كثرة الحروب الداخلية التي كانت تخوضها الدولة تبعاً لمراسم فارس في جبهة بين أو ضد دول أخرى في أوروبا، فكانت هذه الحروب تجبرهم على الإجهاد فترات طويلة عن إقطاعياتهم، وكانوا يخشون انخفاض دخلهم من هذه

(١) كانت ولاية الزسل تدار من قبله الإيالات العراقية بتطبيق نظام الإقطاع العسكري فيها بكترة لم يمتد إلى الإيالات الأخرى في العراق.
انظر.

دكتور عبد القادر - ابن فوفل: تاريخ العراق الحديث من إلهية حكم داود باها إلى إلهية حكم مدحت باها. المجلد ١، الصفحة ١٦٨٥ - ١٦٩٤ م، ص ٧.

(٢) كانت إلهية دوز دليش بالإمارات والمعارز العسكرية السنية. وقد حدثت أزد الدولة لتأجيل أهاء الحروب المدرسة النهائية. وكان من بين هذه الإمارات: الإمارة القروانية، والبيسانية، والراية. وقد اعتدت الدولة النهائية بحكم المصيبيات المحلية، واليه الأمر بالامداد هذه المصيبيات الساطم ولم يمددوا إلى المصبات لعلها يقرسها هناك.
(٣) كانت ولاية دوز أم الولايات العراقية حتى أن ولاية البصرة عجلت إلى مجرد متسوية تابعة لإلهية في أواخر القرن الثامن عشر، كما أصبحت ولاية شهر زور تحت إشراف وإلى بغداد.

(٤) لم تطلق القوة نظام الإقطاعيات العسكرية في ولاية البصرة، ولعل بها الأسماء. وسماها أصبحت الأسماء تحت حكم المعارز. أما البيصرة فقد تباطأ حكمها الولاية المبدأون وشيوخ المتعلق.

الإقطاعيات التي كانوا يجمعونها في ممتلكاتهم . وبسبب إلى هذه الأسباب سبب آخر هو أن عدداً كبيراً من أصحاب الإقطاعيات العسكرية كانوا من غير أهل العراق ، إذ كانوا بسبب خاصة من العسكريين الأتراك ، فكانوا يولون وجودهم شطر إستانبول ، وكانت مشاعرهم مرتبطة بها أكثر من ارتباطها بولايت العراق ، ولذلك كان دورهم في تاريخ العراق ضئيل الأثر أو دوراً هامشياً .

وتمثل نظام الإقطاع في العراق - كما نسل في مصر - إلى مختلف نواحي الدخل الحكومي مثل الأراضي الزراعية والمجاريك . وكانت المدن والقرى تلتحق بالإقطاع ، كما كان شيخ العشيرة يقيم بجميع الأموال الأميرية من أفراد عشيرته^(١) . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر تعرض الاقتصاد للهبان لمرات عديدة وتدهورت قيمة العملة اللبنانية وارتفعت الأسعار . ولجأت الحكومة إلى زيادة الضرائب ، لجأ الملتزمون بدورهم إلى قس الرسمية ، وأدفعوا الفلاحين من أمرهم عسراً ، وفرضوا مزيداً من الضرائب والرسوم الجزافية القسفية . وتكسدت الأموال في أيدي المتمردين ، وظهرت في المجتمع العراقي طبقة جديدة من كبار المتمردين جمعوها بين الأتراك الرئيس والمتمرد الكبير وأطلق عليهم « أعيان مملكت »^(٢) وسارس أفراد هذه الطبقة شبه سيادة إدارية ومالية وقضائية على المناطق التي تولوا أمرها في الوقت الذي كانت في حاجة ملحة إلى مزيد من الأموال للإقطاع العسكري .

محاولات إنشاء نظام الإقطاع:

وذكرنا أن نظام الإقطاع قد اختفى من مصر كاية على يد محمد علي في سنة

(١) دكتور عبد العزيز سليم ، لولر ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٤

(٢) أي أعيان البلاد كما يترجمها الأستاذ برنارد لويس .

انظر ١

١٨١٤ . ولكن ظل هذا النظام قائماً في صائر أو معظم ولايات الدولة ، ثم صدر في ٣ من نوفمبر (تشرين ثلث) ١٨٣٩ « خطي جليانة » ، وقد تقرر فيه إنشاء نظام الإلتزام . وقد حل هذا التمران السلطاني حلة حليانة على نظام الإلتزام وأبرز بعض عيوبه ونقصه بأنه أجلة من أدوات الخراب لأنه حيلة عن تسليم المصالح السياسية والأمور المالية في منطقة ما لإدارة أحد القاس . وقد يسعى هذا الشخص استخدام سلطاته إذا كان رجلاً شريفاً ولا ينظر إلا لتحقيق مصالحه . وخص الرسوم إلى أنه من الضروري أن يعمل نظام الإلتزام نظام جديد يقرر بمقتضاها فرض ضريبة على كل مواطن في المجتمع الثنائي ، وأن يحدد مقدار هذه الضريبة في ضوء ثراء المواطن وإسكانياته ، وبذلك يكون في حكم الاستحالة تحصيل مبالغ من المواطنين أكثر مما هو مقرر عليهم (١) .

وفي شهر ديسمبر (كانون أول) ١٨٣٩ صدر قانون تقرر فيه أن يجمع أحكام الولايات اعتماداً من أول مارس (آذار) ١٨٤٠ الضرائب التأتونية فقط

(١) هذا من النص العربي للبر - القاس بنظام الإلتزام وضرورة إلتنه كما ورد من الرسوم السلطاني على شرف جليانة.

"A fatal custom still exists, although it can only have disastrous consequences; it is that of venal concessions, known under the name of *iltizam*.

"Under that name the civil and financial administration of a locality is delivered over to the passions of a single man; that is to say, sometimes to the iron grasp of the most violent and avaricious passions, for if that contractor is not a good man, he will only look to his own advantage.

"It is therefore necessary that henceforth each member of Ottoman Society should be taxed for a quota of a fixed tax according to his fortune and means, and that it should be impossible that anything more could be exacted from him...".

وأن يقول جميعاً جبهة مديونية، وأن كل موظف سوف يتقاضى مرتباً معيناً ثابتاً، وأن التزنية في الوظائف الحكومية تقوم على أساس الجدولة والكفاءة^(١). وقد انتهت الإصلاحات التي يصبها على جلفانه وبمجموعة القوانين التي أعدت مسدودة مماودة عنيفة من مختلف طوائف الشعب - مسلمين ومسيحيين - وكان أن صدر في مطلع سنة ١٨٤٩ قرار بيزل مسطفي رشيد باشا رائد الإصلاح العثماني. وتوقفت العمل بالنظام الجديدة وعادت الحكومة إلى نظام الإنفاق وإلى الحكماء المسلمين وسبغت جبهة الضرائب للدين، واعتماد هؤلاء المسكرين مهمة جمع الضرائب في فبراير (شباط) ١٨٤٢. ولا عاد رشيد باشا إلى الصلوة العظمى سنة ١٨٤٩ استعادت حركة الإصلاح نشاطها السابق^(٢).

وصدر في ١٨ من فبراير (شباط) ١٨٥٦ مرسوم سلطان برو باسم حلي حايوني. وقد أكد للرسوم الجديد الهادي التي وودت من قبل في غلي جلفانه ودمع منبأ بأننا ندخل للوظفين وأعضاء المجالس في أن يشركوا في أي التزام كمنطوة نحو القصاص على هذا العظام نهائياً.

وعلى الرغم من تلك المحاولات المذكورة هذه ظل نظاماً الإنطباع الحربي والإلتزام قائمين في عدد من الولايات العثمانية. ففي بلاد الشام بشرت الدولة بعد صدور حلي جلفانه بمحصيل الضرائب من الفلاحين واعتمدت على موظفين في جمعها حاولوا على أصحاب الإنطباع الحربي والظلمين. وكان هؤلاء الموظفون يتهمون بفسادية الولاية وفي الإدارة المالية فيها. ولكن لم يقدر لهذا النظام أن يؤتي ثماره المرجوة لفة عدد للموظفين ذوي الأمانة، صاد نظام الإلتزام مرة أخرى بعد الحد من مصلوكة. وأسعدت الدولة في سنة ١٨٥٨ قانون الأراضى

(١) Lewis Bernard, *The Emergence etc.*, op. cit., p. 285

(٢) حرل رشيد باشا من سحب الصلوة العظمى في سنة ١٨٥٢. وقد توفي سنة

١٨٥٨. انظر مجلة سرية عنه في ترجم السابق، ص ١٠٥ - ١٠٩.

القبائل وبمقتضاها قسمت الأراضي في الولايات الثمانية خمسة أقسام هي الأراضي للملوكة ، والأراضي الأميرية . وكانت تعتبر ملكاً لأصحاب الإقطاع الحربي (التيار - الزعامت) وقد أُنيت وأصبح التصرف فيها للدولة فتبيع منها ما تريد لمن تريد ، والأراضي الموقوفة ، والأراضي للتركة ، والأراضي للوات . وليست هذه النواصط عملاً لشرحها ، ولكن حسناً أن نذكر أن إصدار هذا القانون الذي جاءت سياسته في ١٣٢ مادة وخاصة كان محاولة جادة لسيطرة الدولة على أراضيها^(١) . وفي سنة ١٨٦٦ صدر قانون تسجيل الأراضي المرفوف باسم العناير .

أما في العراق فكانت الأراضي في مطلع القرن التاسع عشر تنقسم إلى عدة أنواع منها :

- ١ - أراض عشائرية .
- ٢ - أراضي التيار والزعامت وهي إقطاعات عسكرية .
- ٣ - أراضي أميرية ملك الدولة وكانت تشكل معظم مساحة العراق المزروعة .
- ٤ - أراضي ملك للأفراد .

وقد عشت نظام الإقطاع العسكري على نحو من الأنحاء في أراضي التيار والزعامت ، بينما بقي نظام الإلزام مطبقاً في الأراضي العشائرية والأميرية ، إذ كان الشيخ يسد إليه إلزام ديرة عشيرته في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية . أما في الأراضي الزراعية مثل منطقة المتفق فقد طرح إلزام ديرة المتفق والمرايعة منذ حوالي منتصف القرن التاسع عشر . وكان الشيخ الذي يقدم أكبر عرض إلى يحصل على إلزام الديرة واستمر هذا الأسلوب معباً حتى جاء مدحت باشا إلى العراق (١٨٦٩ - ١٨٧٢) ووسع نظاماً جديداً . فقد قام جوزيع الأراضي الأميرية على الأهالي بأسماء منخفضة تفصيلاً للملكية الفردية . ولكن لم تسفر

(١) دكتور عبد العزيز عبد الوهاب ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .

هذه المحاولات عن النجاح الذي كان يرميه لها ، فقد كانت الأموال وهيرة لدى
شيوخ العشائر وكبار الموظفين والعشائر والتجار فأبقوا جميعاً على شراء
الأراضي الخصصة ، وظل الفلاح المراق يميناً عن الملكية الزراعية . ومن
ناحية أخرى خصصت ديرة لكل عشيرة بدفع شيخها عنها مبلغاً من المال كان
يوسع في المرايعة كل سنة . وظل هذا النظام المالي العشائري مميلاً به حتى
توفي في أواخر القرن التاسع عشر . وفي خلال فترات التصول من نظام الإنجاز
إلى نظام الملكية الفردية استطاعت إدارة البلاط السلطاني — الإدارة العلية
— أن تستولي على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، ولكنها
أخضعت للتبعية المالية التي فرضت على أراضي السلطان بسبب توفقه عن دفع
الدون وبخاصة بعد مرسوم سنة ١٨٩١ ، ثم صدور سنة ١٨٩٠ فرمان يجعل
أراضي الدولة كلها ملكاً للسلطان . وقد ثبت أن هذا فرمان لم يطبق من
الناحية الفعلية ، وإن ظل فاعلاً من الناحية النظرية . وظل الأمر على هذا النحو
حتى قامت الحرب العالمية الأولى .

ونخلص من هذا العرض إلى أن الصلة الإقطاعية كانت خصيصة بارزة من
خصائص الدولة العثمانية وكانت لمسيقة بها في منظم مراحل حياتها دبر المصور
والأدهار .

الفصل السابع

السياسة العليا للدولة العثمانية

في ضوء خصائصها العامة (١)

من تلك الخصائص العامة التي تميزت بها الدولة العثمانية ، كما وصفت في مجالات التطبيق العملي في أرجاء الدولة ، وهي الخصائص العسكرية ، والدينية ، والمالية ، والحكم المطلق ، والقطاعية ، والإقطاعية ، يمكن أن نستخلص السياسة العليا للدولة في ضوء هذه الخصائص ومن معالم التاريخ العام للإمبراطورية العثمانية خلال المسور المتعاقبة التي عاشتها .

أولاً : أن تكون دولة الإسلام الكبرى :

جاءت القولة العثمانية من نفسها دولة الإسلام الكبرى بعد أن عقدت لها زعامة العالم الإسلامي بعد أن حاضرت ببسلاج في أوائل القرن السادس عشر الصراع الحربي ضد الدولة الصفوية في فارس ، ثم نجحها في القضاء على دولة المماليك الشراكسة في الشام أولاً ، وفي مصر ثانياً ، وبسط سيطرتها على إقليم الجزائر ، فدخلت في حوزتها أهم الأماكن للقدمة الإسلامية على الإطلاق ، وهي : الكعبة الشريفة ، و مكة المكرمة ، والمسجد النبوي ، في المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى ، في بيت المقدس ، ثم منبها في سياسة التوسع الإقليمي في البلاد الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط وفي شمال إفريقيا حتى إقليم الجزائر . وقد سبق هذا التوسع في البلاد الإسلامية ثم صحبه ، ولفقه ، توغل الدولة في قلب أوروبا ، وغنمها أنماط أوروبية شائعة ذات موارد طبيعية وبشرية هائلة إلى

دار الإسلام ونجاحها في اقتراح بعض الجزر في البحر المتوسط والتي كانت تعبر قواعد عسكرية صليبية أو جيوباً صليبية تهدد أمن الدولة في هذا البحر مثل جزيرة رودس ، وقد طردت منها فرسان القديس يوحنا ، ومواجهتها بشكائات دولية أوروبية صليبية كان بلا روميا برأس بعضها . وكان الجنود النيبانيون يحملون السلاح في أيديهم ويحملون الشبذة الدينية في قلوبهم . ونظر العالم في ذلك الوقت إلى الحروب التي كانت تخوضها الدولة ضد الدول المسيحية في أوروبا على أنها حروب مقدسة ^(١) ، وأمنى هذا النشاط على الدولة الطابع الديني .

ونمعدت صور هذا الطابع الديني في السياسة العليا للدولة من اتخاذ السلاطين لقب « حامي الحرمين الشريفين » تأكيداً لزعامة الدينية للدولة على الدائم الإسلامي . ثم اتخذهم لقب « خليفة » لنفس الترضي ، ونجاح الدولة في إدخال تعديل على اتفاقية الآستانة (٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٨٨) الخاصة بحرية المرور في قناة السويس كان من شأنه إعطاء السمن الحرية النيبانية من القيود المفروضة على سمن الدول المتصارعة إذا كانت الدولة في صدد التنازع عن ممتلكاتها الإسلامية في الجزائر واليمن . ^(٢) ومن بين هذه الصور أيضاً تغيير أدها فرصة الحج أمام الراغبين فيه ، وتنظيم أربع قوافل رئيسية كل سنة تبدأ مسيرتها من أمحاء الدولة وتصل الحبيب تحت حراسة عسكرية مشددة ، ثم الدعوة إلى حركة الجامعة الإسلامية ، وإنشاء سكة حديد الجزائر . وقد ظل الطابع الديني الإسلامي غالباً على السياسة العليا للدولة حتى إبان الحرب العالمية الأولى . وهكذا جعلت الدولة النيبانية الدين

(١) Lewis Bernard: The Emergence etc., op. cit., p. 36.

(٢) الدكتور عبد العزيز محمد الفتاوى :

العلوم السياسية الفرنسية تربط بين مسألي قناة السويس وإبريد الجديدة .

بحث مطبوع في جويليات كلية الآداب - جامعة القاهرة ، المجلد الثاني والعمرون .

المجلد الأول . سنة ١٩٦٠ ومطبوع سنة ١٩٦٤ ص ٩٢ - ٩٣ .

من دعائم الدولة ، وعبأت الشهور الديني الجارم في أفراد القوات للسلطة البرية والبحرية ، وعملت على إعلاء شأن الشريعة الإسلامية ، وأمنت على رجالها الكثير من الرعاية والنفوذ والامتيازات ، وأنشأت هيئة كانت من أقوى الهيئات في الدولة هي الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وشجعت التصوف وطوائف الدراويش .

وكان من مبادئ السياسة العليا للدولة في القططاع الديني أيضاً منع تسليح المذهب الشيعي إلى منطقة الشرق الأوسط وشمالي إفريقيا . وقد جعل المماليكون من أنفسهم حاة للمذهب السني و السلم الإسلامي .

ثانياً : جعل البحر الأحمر بحراً إسلامياً متعلقاً :

جاءت القوة البحر الأحمر بحراً إسلامياً متعلقاً في وجه السفن غير الإسلامية . فكان يحرم عليها تجاوز موقع ميناء عفا في اليمن . وكانت أمثال هذه السفن تخرج حمولتها في هذا الميناء ، ويصاد شحنتها في سفن إسلامية تنحدر بها إلى جدة أو ينبع أو السويس أو غيرها من موانئ البحر الأحمر . وذلك أحلقت هذا البحر في وجه الخرج الاستعماري الأوروبي الذي حاول أن يتصلل من باب المدب إلى الأقاليم الإسلامية التي تطل على هذا البحر من شاطئيه . وكان للسعر الأحمر لا يزال متعلقاً في جزئه الشمالي ، لأن قناة السويس لم تكن قد أُنشئت بعد . ولذلك انصرف اهتمام الدولة إلى مدحله الجفوني عند باب المدب . وقد تناولنا هذا الموضوع بالشرح في الفصل الأول من هذه الدراسة .

ثالثاً : نشاط حكومي محدود :

انصرف اهتمام الدولة إلى أربع مسائل : للحرب ، والدين ، والحكم على أسس النظام البيروقراطي ، والزراعة . ولم تباشر نشاطاً يذكر في مجالات

المتانة والتجارة ، وترك هذين القطاعين لعلما غير السليم^(١) . ولم تهتم
بتحصين المواصلات مثل إنشاء الطرق البرية أو حفر القنوات الملاحية أو إصلاح
الموانئ ، كما أنها لم تبد اهتماماً بالتهوض بالتعليم العام بصفة عامة بين رعايا
ولاياتها ، ولم تنضج لهم في رعايها رعاية للصحة العامة ، أو ما يسمى الطب الوقائي ،
فصلا عن الطب العلاجي ، وبسبارة أخرى أعدت الدولة أنظمة منشآت
ومرافق عامة تسهر على تحسين أوضاع الرعايا الصغار من النواحي الاقتصادية
والصحية والاجتماعية والثقافية وما إليها . وكانت الدولة الثمانية تسهر في هذا
الصد على النهج الذي كانت تسهر عليه الدول الأوروبية ودول الشرق بصفة
عامة في تلك العصور قبل أن يشرق عصر النهضة في مطلع العصور الحديثة على
دول أوروبا الغربية . ولكن يؤخذ على الدولة الثمانية أنها لم تواءم التطور
الذي طرأ على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنظم السياسية والإدارية
في الدول الأوروبية من حيث نوعية وحجم الخدمات التي تؤديها هذه الدول
المتجاورة . ولما حولت الدولة الثمانية الأخذ بهذه الاتجاهات جاءت معاوالاتها
متطرفة وفي وقت كان الازمحل قد دب في أوسالها ويات العلاج متعذراً .

مارست الدولة سلطانها في نطاق ضيق للغاية لم يتجاوز عدة قطاعات ، مثل
الحفاظة على الأمن الداخلي ، وجمع الضرائب بطريقة غير مباشرة مثل نظم
الإلزام في الرب ، ونظام الطوائف في المدن ، ثم تنظيم القضاء . وقد جعلت
إجراءاته وأحكامه متمشية مع مبادئ للذهب الحق الذي اتخذته الدولة مذهباً
رسمياً لها . وكانت ولاية القضاء تشمل جميع أنواع القضايا الجنائية والمدنية
والأحوال الشخصية ، كما كانت ولاية القضاء الجنائي والمدني تمتد إلى جميع
القيمين في الدولة لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، أو بين عتاني وأجنبي . واستمر

Lewis Bernard: The Emergence etc., op cit., p. 26. (١)

هذا النظام العضالي الشامل تطلّى مظهره جميع التمييز في أنحاء الدولة حتى أخذت الدولة بنظام الامتيازات الأجنبية Capitulations وسقط هذا النظام إلى مساعدات عتبتها الدولة مع الدول الأوروبية واستهدفت تنظيم حياة رعايا هذه الدول المقيمين في أملاك الدولة بحيث جعلت لهم هذه المزايدات كيافاً شبه مستقل عن السلطات الثمانية الحاكمة .

هذا النطاق الضيق الذي مارست فيه الحكومة الثمانية سلطانها على رعاياها جعل الحكم الثنائي سطوياً متحرراً من أن يتفلسف في حيلة الجماهير من ناحية ، كما جعل الجماهير من ناحية أخرى لا تشعّر بمحاجتها إلى الاتصال البيوي المباشر بالسلطات الثمانية لتعامل معها . فكان كل فرد يلود بشيخ الطائفة التي ينتمي إليها ، وهو رئيس للطبقة أو الحرفة التي يزاولها ، ويحرص عليه مشكلاته فيعمل على توسيعها ، هواد بنفسه أو بالاتصال بأولي الأمور . وقدك قيل إن الفرد في الأقاليم التي خاضت للحكم الثنائي كان يولد ويحس ويعت دون أن يشعر في يوم ما بالحاجة إلى مقابلة أحد من الحكام الثمانية

ونجم عن ذلك أن الدولة لم تحاول في البلاد التي فتحها أن تبني حدودها على أسس علمية من الاحتصار للفتح ، وهي الأسس التي أرساها الاحتصار الأوروبي بعد ذلك لصالحه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين ، بل أن ينشع من البلاد التي حصلت له سواء في العالم الإسلامي أو في غيره من البلاد الإمبريتية والآسيوية . وتأسيساً على هذه الحقيقة كان الحكم الثنائي يبدأ عن استغلال الثنوب أو احتصار مولدها الاقتصادية . كانت إسطنبول تستوق نصيبها من الحزبة السنوية المقررة على الولايات الثمانية ، وكانت كل ولاية تعفّ الباقي من الولود المالية الحكومية في داخل الولاية ذاتها وإذنا أحفنا مصر مثالا لولاية عثمانية نجد أنها لم تكن إلا الحكم الثنائي

مزودة لإستامبول، كما كانت في أنحاء الحكم الروماني مزودة لرومانها بالحبوب، أو كما كانت إلى الاحتلال البريطاني مزودة أنطلق تعد الصانع الإنجليزية في ما مقسم وإيفربول وغيرها بالطنن لصناعة المنسوجات القطنية .

وأياً : الاتحاد على العسكريين في الحكم كعملية :

استخدمت الدولة رجليا العسكريين كعملية تفتت تفتت إلى ولائهم في تلك معظم للناسب المدنية في حكومت الأقاليم التي صحها . وقد سبق أن ذكرنا أنه كان لا يجرى التفتت وظيفته : الحرب والحكم . وقيل في هذا الصدد إن الجيش التفتت كان بمثابة قوة مدنية تفتت على أحد وجهيها كلمة الحرب ، وتفتت على الوجه الآخر لفظة الحكم . وكان لمصلحة السياسة - وهي إقرار العسكريين بالمعاصير المدنية القيادية وللوسيلة آثار سوية . كان أولئك العسكريون على درجة كبيرة من الاحتشاد والثرور والحمل بالمائل المدنية . وكان من نتائج هذه السياسة أن حدثت عزلة بين الحكام والمحكومين ، واندمجت الفتحة بين الطرفين . وانصرف معظم المدنيين من الأركان التفتت عن الاشتغال بالسياسة والحكم ، فلم يكن لدى الدولة وميد من الكفاءات المدنية لاستخدامها في دفع قوة الإصلاح . ولم يفكر المصلحون إلا في وقت متأخر عواقب هذه السياسة غير الحكيمة .

خامساً : تجنب إدخال تعديلات جذرية تمس بالنظم القائمة :

لم ترمس الدولة على الأقاليم التي صحها تعديلات جمهورية تمس بالنظم الأساسية القائمة فيها إلا ما كان يتعارض منها مع سيادة الدولة ، فكانت في هذه الحالة تدخل تعديلات تسمى أو تسمى أو تسمى « الوجود التفتت » ، وفيها عما ذلك تركت رجليا محاسن حيلهم وفق الأسلوب الذي ألقوه من قبل محافلين على لائهم وتقافتهم ودياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، لا يمتنعهم إلا للظلم التي كانت

تفها، عليهم من الحكام المحليين في عصر انحلال الدولة وتدهور نظمها .
 وأكثر من هذا، زكت لبعض العناصر الأصلية تمييزاً في حكم البلاد مع وضع
 ضمانات تكفل لها الحفاظ على السيادة والسيطرة والحصول على الحرية للقررة .
 أما تحويل الشعوب المسيحية في الأقاليم الأوروبية التي نصتها المعانيون إلى
 الإسلام فقد أارجعت السياسة العليا للدولة تجاه هذه المسألة . كانت تارة تحصل
 الرعايا المسيحيين على اعتناق الدين الإسلامي ، وتارة أخرى تكفى بتشجيعهم على
 الدخول في الإسلام بمنحهم امتيازات مادية وأدبية ، وتارة ثالثة تخف موقفاً
 سليماً أو محايداً . وسنحاول هذه المسألة بشيء من التفصيل في الفصل التاسع
 لأنها أكثر المسائل بموضوع حتمية الشعوب التي نالت لحكم الثنائيين .

سادساً . بسط السيادة الثنائية على المضائق والبحر الأسود :

مارست الدولة سيادتها على المضائق ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . وتصد
 بالمضائق The Straits في تاريخ الدولة الثنائية البوسفور وحرمرمة
 والمردنيل ، فهذه كلها في الواقع تشكل مضيقاً طبيعياً واحداً يوصل بين البحر
 الأسود وبحر إيجه الذي هو جزء من البحر المتوسط . وليس للبحر الأسود
 مخرج آخر غير تلك المضائق الطبيعية ، فالبحر الأسود يحصل بالبحار العامة
 والمحيطات من طريق تلك المضائق .

ولامت السياسة العليا للدولة الثنائية على ممارسة سيادتها كاملة على المضائق .
 واستندت في هذه الممارسة على القاعدة القانونية التي تقول إنه إذا كان الضيق
 واقعاً في أرض دولة واحدة ، وكان اتساعه لا يزيد على ستة أميال فإن سيادته
 تعتبر مباحة إقليمية وتنفع هذه الدولة . وإذا زاد اتساعه على ستة أميال فإنه
 لا يدخل تحت سلطة الدولة منه أكثر من ثلاثة أميال من كل ناحية من
 ناحيته ، على أنه يجوز اعتبار للضيق كله في هذه الحالة ناساً للدولة صاحبة

شامطيه ، إذا كان المرف قد جرى بذلك^(١) . وملوست أيضاً سيادتها على البحر الأسود مستناداً إلى أن هذا البحر كان يعتبر جزءاً من أملاك الدولة .

وقد نجحت الدولة العثمانية في فرض سيادتها على البحر الأسود ما بقيت الدولة قوية شاذة ، فكان لها حرية التصرف كاملة بمحموض الملاحة في البحر الأسود والبرور منه وإليه . وكانت تشجع لسفن بعض الدول باتفاقات خاصة استثنائية^(٢) .

كانت مسألة المايق - بوجه خاص - مشكلة دقيقة ، ل كانت صورة خاصة لركز الدولة العثمانية من حيث القوة والنفوذ ، أو الاستقلال والضعف . ففي المصور التي كانت هذه الدولة خلالها قوية مهيبة الجانب استطاعت فرض سيادتها على المايق والبحر الأسود واحترمت الدول هذه السيادة إلى حد أنه إذا أراد الرعايا الروس ممارسة التجارة بين موانئ البحر الأسود كان عليهم أن يتناولوا بصاتهم على سفن عثمانية تحمل العلم العثماني . وفي المصور التي اضعفت لديها الدولة ووضعت تحتها تعرضت لاضطراب سياسية حيناً وعسكرية أحياناً من الدول الأوروبية التي تسابقت فيما بينها للظفر - في مفاوضات سنشور إليها - بحقوق لسفنها التجارية والحرية بالبرور في المايق وبالإلاحة في البحر الأسود في زمن السلم ووقت الحرب . وتعديع الموانئ بالدولة أنها اعترفت في إحدى الماهدات بأن القلاع الممكوى من المايق إنما هو مسئولية مشتركة بينها وبين روسيا مما يحد أسبها كآ لسيادة الدولة العثمانية وعملاً بسيادتها العليا . وكان هذا الامتنان هو الفكر الأسفل من الضعف الذي هوت إليه . وكان صيده إلى

(١) الدكتور محمود سامي جنيته بك . المفاوض الدولي العام . القاهرة ، ١٩٢٨ ص ٢٢٠ .

(٢) الدكتور محمد باقر دهوان . المركز الدولي لقناة السويس ونظائرها . القاهرة ، ١٩٣٦ ص ١٩٥٠ - ٢٨١ ص ٢٨١ .

المزايم العسكرية التي تناهت عليها والأخطار التي جشت عليها وضف شخصية
سلطين الفترة الثانية^(١) ، وهكذا أصبحت مسألة المنايق بمثابة الترمومتر أو
القياس الذي تقاس به قوة الدولة النمائية أو ضعفها .

واختلقت مسألة المنايق بالمهاسة الدولية ، وأصبحت هذه المسألة تشكل
ركناً أساسياً في علاقات الدولة النمائية بالدول الأوروبية منذ السبعينات من
القرن الثامن عشر ، بل عدت المنايق من أبرز مشكلات السياسة الدولية ،
واحلت مكان الصدارة في خطط الدول وتفكير رجال القانون الدولى العام وفي
مؤلفاتهم . وفي القرن التاسع عشر كان بضرب القتل بالمنايق على أنها أم
المشكلات الدولية ، وأنها سبب لانتطراب العلاقات الدولية وإزعاج الدول
الأوروبية . وما يذكر في هذا السعد أن لورد إلنبورج Ellenborough وهو يترض
على مشروع قناة السويس قال في مجلس اللوردات بمجلسة ٦ من مايو (إيار) سنة
١٨٦١ : « إن بوسفوراً واحداً - أى المنايق - كان محط متاعب كثيرة لنا ، وإن
اعتقد أن هذا المشروع - قناة السويس - الذي نحن بصدده ، إنما هو محاولة لإنشاء
بوسفور آخر ووضعه في أيدي الفرنسيين » .^(٢) وقد رددت الصعالة الإنجليزية
هذا الزاى ، وذهبت إلى أن قناة السويس ليست إلا بوسفوراً فرنسياً^(٣) .
وقد يقال إن مرور السفن الحربية والسفن التجارية ممنوع به في قناة السويس
وفقى بعود مملكة في اتفاقية الآستانة (٢٩ من أكتوبر - تشرين أول سنة ١٨٨٨)
ومع ذلك فليس في مرور هذه السفن مناس بيسادة مصر على قتلها وأرامها .
ولكن حين يصل الأمر إلى أن تتترف الدولة النمائية بأن الدفاع من المنايق هو

(١) ستركلم في الفصل العاشر من كتاب أو طاكين أو صوصين من سلطين الدولة ،
ها - سلطين الفترة الأولى وسلطين الفترة الثانية .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الفتاوى - قناة السويس والسياسة التي أحاطت
بإحاطتها من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة ، ١٩٧١ م ١١٤ -

(٣) المرجع السابق .

عبء يقع على عاتق هذه الدولة والروسيا معاً، فهذا هو الأساس الصحيح بسيادة الدولة على الضائق، وهو خروج على السياسة العليا للدولة. ومع ذلك فإن قلعة السويس سبق أن تعرضت لثل هذا الوضع للعين في مذاعة غير متكاثرة (٢٦ من أغسطس - آب - ١٩٣٦) تزد فيها أن تتولى القوات البريطانية بالاشتراك مع الجيش المصري الدفاع عن القناة وكفالة حرية الملاحة فيها وسلامتها التامة، وأن ترابط القوات البريطانية في منطقة القناة ومناطق أخرى، وأن يظل هذا الوضع دائماً وما يستتبعه من استمرار الاحتلال البريطاني حتى تتفق بريطانيا ومصر على أن الجيش المصري أصبح في حالة بمقتضى أن يكفل بمفرده الدفاع عن القناة وحماية أممها.

* * *

الفصل الثامن

السياسة العليا للدولة العثمانية

في ضوء خصائصها العامة (١)

سيادة الدولة على المضائق والبحر الأسود

بين المعاهدات الثنائية والجماعية والتطبيق العملي

تسكنا في الفصل السابق عن حرص الدولة العثمانية على حفظ سيادتها على منطقة المضائق والبحر الأسود ، واحتل هذه السيادة مصعراً جوهرياً من عناصر السياسة العليا للدولة . ونرى في هذا الفصل مصوراً سريعاً على أهم المعاهدات التي ورد فيها ذكر لهذا الموضوع ، والتي أبرمتها الدولة بحريتها واختيارها مع غيرها من الدول ، أو التي فرضت عليها فرضاً في أعقاب هزائم عسكرية فزت بها ^(١) . وبمجيء آخر ، سواء كانت هذه المعاهدات التزاماً بسيادتها العليا أو خروجاً عليها ، سواء كانت معاهدات ثنائية *traités bilatéraux* أو معاهدات جماعية *traités collectifs* ونسقي للمادة العلمية لهذه الدراسة الوالتيمية من واقع نصوص هذه المعاهدات . كما نشير إشارة عابرة إلى بعض الأحداث العسكرية العامة التي تعرضت لها منطقة للمضائق من جانب بعض الدول الأوروبية الكبرى ، ومعنى سيطرة الأتراك العثمانيين واستيصالهم في الحفاظ على سيادة دولتهم على هذه المضايق .

(١) تباينت آراء علماء القانون الدولي العام فيما يعود بعض المعاهدات من عصر الإكراه القوي هو أحد مبرراتها ، وهي الخوف ، والتفليس ، والغش ، والإكراه . ويذهب فريق منهم إلى أن الإكراه يمثل للمعاهدة بطلاناً نسبياً .

(١) معاهدة بلجراد ١٧٣٩ :

لما بدت في الأفق السياسي نذر انحلال الدولة العثمانية لحولت روسيا في الثلاثينات من القرن الثامن عشر بإقامة وجود عسكري بحري لها على الساحل الشمالي للبحر الأسود كقائمة خطوات تالية عبرت سيطرتها العسكرية على منطقة الضائق وتمكين منها الحرية والتجارة من عبور البوسفور والدرديل وقت السلم وضمن الحرب دون أية قيود أو شروط أو عوائق اضطرراً إلى التوسل إلى البساط المعلقة . وكانت الرغبة لتصفين أمورها البحرية والهيمنة على السيطرة على مصاب بعض الأنهار التي تصب في الساحل الشمالي للبحر الأسود مثل نهر دانوب *Danubius* ، *Bug* ، *Deioper* ، دن *Dni* ، كرويان *Kobus* ، ولتحتل في سنة ١٧٣٥ الحرب بين الدولتين . وأخضت روسيا في تحقيق أهدافها ، وعقدت معاهدة بلجراد في اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر - أيلول - ١٧٣٩ ، وتقرر فيها الاحتفاظ بالحدود القديمة للدولتين كما حددتها المعاهدات للقوة من قبل بينهما (المادة ٢) ، كما تقرر عدم قلعة آزوف *Asov* ، وأن تترك الأرض القائمة عليها هذه القلعة في داحل الحدود التي رسمتها معاهدة سنة ١٧٠٠ ، وأن تستعصم كاخيز بين الدولتين . وصححت للمعاهدة كسويض لروسيا بأن تبني قلعة جديدة على مقربة من الجزيرة الواقعة في نهر دون بالقرب من آزوف ، وأن يسمح للدولة العثمانية بإقامة قلعة بالقرب من آزوف ، كما تقرر عدم السماح لروسيا ببناء أو إبقاء أساطيل لها أو سفن أخرى في البحر الأسود (المادة ٣) ، كما تقرر للمعاهدة أن يحلوس دحايا روسيا نشاطهم التجاري في البحر الأسود على سفن تركية (المادة ٩)^(١) .

(١) ترجمته الرسمي والكتاب لهذه المعاهدة :

Barrow's J.C. : op. cit. vol. I. pp 47-51

وقد تم تبادل وثائق التوقيع على هذه المعاهدة في إسطنبول في ٢٥ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٧٣٩

ولقد استعمرت معاهدة باسبراد سارية المفعول منذ نزيه على دفع قرن . وكانت حلانها أساس العلاقات بين الدولة العثمانية والروسيا ، إلى أن عقدت بين الدولتين معاهدة خيبرية هي كاشفك كينارجي .

(ب) معاهدة كاشفك كينارجي ١٧٧٤ :

جاءت معاهدة كاشفك كينارجي ^(١) Koshuk Kenarca خيبرية باسمية للسياسة العليا للدولة العثمانية بما يخص سياساتها على البحر الأسود والمضائق . عقدت هذه المعاهدة في اليوم الحادي والعشرين من شهر يوليو - تموز - سنة ١٧٧٤م بعد حرب دامية استطاعت ست سنوات بين الدولة العثمانية والروسيا منيت فيها القوات المسلحة العثمانية بهزائم هائلة . وبمقتضى هذه المعاهدة تحول البحر الأسود من بحيرة عثمانية ممتدة إلى بحيرة عثمانية روسية بعد أن تقرر للروسيا الحق في إنشاء عدة قواعد عسكرية بحرية وبرية على سواحل هذا البحر ، وبذلك أصبحت للروسيا إحدى دول البحر الأسود للتعرف بها ، كما تقرر لها الحق في أن تستخدم سفنها التجارية للمضائق للخروج من هذا البحر إلى البسطر السائمة والدخول منها إليه .

ونحن في معاهدة كاشفك كينارجي النصوص التي وردت بها خاصة بما يتعلق ؛ أولاها ، الحقوق الملاحة التي تقرر للروسيا في البحر الأسود والمضائق . وثانيهما ، الوجود العسكري البحري والبري التي تقرر لها في البحر الأسود أما من الناحية الأولى فقد تقرر أن تكون الملاحة في هذا البحر حرة ومفتوحة وغير مقيدة بشروط السفن الروسية التجارية ، والتي يسمح لها الحق في حرية المرور في المضائق بين البحر الأسود والبحر المتوسط وحرية دخول الثغور والوان .

(١) كاشفك كينارجي اسم قرية صغيرة تقع على الضفة اليسى لنهر الدانوب بالقرب من سيليترا Silistria .

القائمة على سواحل البحر الأسود . كما قررت اللجنة أن تمنح الدولة اللبنانية الرعايا الروس بممارسة التجارة في جميع ولايات الدولة في البر والبحر وفي نهر الدانوب ، وأن يطبق السلطان الثاني على هؤلاء الرعايا نظام الامتيازات الأجنبية Capitulations التي سبق له أن منحه لرعايا الدول الأكثر رعاية مثل بريطانيا وفرنسا ، وأن يكون الرعايا الروس الحق في استيراد وتصدير جميع أنواع البضائع ومخرجات شعلات سفنهم في كل ثغور وموانئ البحر الأسود وفي سائر البحار الأخرى ، وأن تكون إستابول من بين الثغور التي يسمح لتسليمهم بدخولها والرباطة فيها لتتبرع شعلاتها وتضمن محلات جديدة منها ، وذلك بعد علم الرسوم المقررة (المادة ١١) .

أما السأله الثانية فقد قررت اللجنة أن تكون تحت سيطرة لروسيا بسورة كاملة وحاعة ولا تبطل محتاشاً عدة قواعد ومواقع ، نذكر منها :

(أ) قلعة كيرين Kibris التي تقع عند مصب نهر دنيبر Dniapoe ، وأن يلحق بها القسم الواقع على طول الناطق الأيسر لهذا النهر والأجزاء التي تشكل الإنظيم المصراوي المحصور بين نهر دنيبر ونهر بوج Bug (المادة ١٨) .

(ب) قلعة جنيكال Jankala وقلعة كيرنس Kertach الواقعة في شبه جزيرة القرم ، وأن تمتد هذه السيطرة إلى جميع موانئها والنفقات الواقعة فيها ، فضلاً عن جميع أجزائها وأقسامها التي تحيط بها قلعة ، ويحدها خط يبدأ من البحر الأسود ويضع الحدود القديمة لقلعة كيرنس إلى مكان يسمى بوجاك Bugak ، ومن بوجاك يذهب الخط مستقيماً نحو الشمال إلى بحر آزوف (المادة ١٩) .

(ج) مدينة آزوف Azow بميلتها وحدودها التي وضعت سنة ١٧٠٠ (المادة ٢٠) .

وقد فلتت اللجنة كذلك كيتويج جميع المصاعد السابقة التي وضعت بين

البولنديين ، كما شكلت هذه المعاهدة نموذج العلاقات الثنائية الروسية إلى قسطنطين
الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ . كما أن الشروط الميعة التي فرضت على الدولة
الثانية في تلك المعاهدة قد أثارت مزيداً من الاضطراب والتوتر ، كما أنها أوجعت
مشكلات استعمارية حلها في العلاقات بين البولنديين وفرضت عليها فرضاً في مجال
السياسة الدولية حتى منتصف القرن العشرين^(١) .

(ج) عهد عثاني النمسا : ١٧٨٤ :

وحصلت النمسا على حق الملاحة الحرة عبر النجدة غير النجدة بشروط استثنائية الصعوبة في
البحر الأسود و عبور هذه السفن النجدة . وقد حصلت عليها في وثيقة يطلق
عليها *Sevres* بمعنى « عهد » أصدرها جلد باشا الصدر الأعظم في اليوم الرابع
والعشرين من شهر نيرابر - شباط - سنة ١٧٨٤ م^(٢) .

(د) معاهدة تحالف دفاعي بين الدولة الثنائية والروسيا (١٧٩٨) :

ولما جاءت الحجة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ عقدت الدولة الثنائية مع
الروسيا معاهدة تحالف دفاعي في إسطنبول في اليوم الثالث والعشرين من شهر
ديسمبر - كانون أول - سنة ١٧٩٨ م^(٣) .

وكانت مدة هذا التحالف الدفاعي ثمان سنوات . وفي مواد مرفقة مضمونة

(١) عهد النمسا الرسمي لهذه المعاهدة في :

Horwitz J.C. : op. cit., vol. I, pp 64-61

وقد استبعد الأستاذ هورويتز منها المادة (١٦) والفترة الأولى من المادة (٢٤) بقوله
أنهما تحسان القطار .

وقد تم تبادل وثائق التصديق لهذه المعاهدة في إسطنبول في ٢٤ من يناير - كانون
أول - سنة ١٧٧٤

Noradounghian Gabriel; Recueil d'actes internationaux de (٢)

l'Empire Ottoman. 4 vols. Paris, 1897, Vol. I., pp. 579-580

(٣) تذكر في المراجع أن هذه المعاهدة قد وقعت في ٣ من يناير - كانون أول - ١٧٩٨

تمهت فيها الروسية بأن تعد الدولة الثمانية بالحق عشرة لفظة حرية، وإذا نطلب تطور الحوادث الحربية تميز القوات الثمانية فإنها تعدها ببوليت برة بترواح مدعما بين خمسة وسبعين ألفاً وبين عشرين ألف جند روسي . وفي مقابل هذه للمساعدات العسكرية الروسية تمهت الدولة الثمانية « هذه الورة فقط » بمنح الروسية الحق في أن ترم منها الحرية في المصايق مروراً حراً^(١).

وقد حدثت هذه للماعدة على عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) والقيصر بول الأول (١٧٩٦ - ١٨٠١) . ويقول أحد المؤرخين الأمريكيين تليقاً على سماح الدولة الثمانية للسفن الحربية الروسية بعبور المضائق إن بول الأول قيصر الروسية استطاع أن يثمد الطرف الرفيع للذهب لسيده في باب السلطان بتقد مساعدة التصالح الدفاعي مع السلطان سليم الثالث . وبعضه مثبكاً يقول إن الفضل في عقد هذه للماعدة يرجع إلى نابليون وحصله على مصر^(٢) . والحق أن تسرف السلطان سليم الثالث كان خروجاً على السياسة العليا التي سار عليها أسلافه . وكانت قصوره وبلطة الجاش ، إذ كان مترعياً إلى أهد حدود الانترماج بسبب احتلال فرنسا لمصر . وكان أول احتلال عسكري أودوني مسيحي لولاية عثمانية إسلامية في التاريخ الحديث .

(د) « تحرير » عثمان لبريطانيا (١٧٩٩) :

ولم نكد نمر بصة أشهر على عقد هذه للماعدة حتى أصدر السلطان سليم الثالث مذكرة رسمية يطلق عليها « تحرير » ومؤرخة في اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر - تشرين أول - ١٧٩٩ مع فيها بريطانيا حرية التجارة في البحر الأسود لمنفذها التجارية وكذلك حتى عبور هذه السفن للمضائق^(٣).

(١) لغزت المراد للغة في مساعدة القضاة الثاني الروسي و :

Noradounghian G. : op. cit., Vol 2, pp. 24-27

والمراد السرية و Hurewitz J.C. : op. cit. vol. 1, p. 65

Hurewitz J.C. : op. cit., vol. 1., p. 72 (٢)

ristet E., Turkey Treaties, p. 279 (٣)

ولاحظ أن هذا الإغفل كان مقصوداً حل السفن التجارية، ولم يشمل السفن البحرية على الرغم من أن بريطانيا كانت تعتبر الدولة البحرية الأولى في حرب أوروبا .

(و) معاهدة سلام بين الدولة النمائية وفرنسا (١٨٠٢) :

ولما عاد السلام إلى أوروبا مؤقتاً عقب عقد صلح Amiens بين فرنسا وبريطانيا واليوم السابع والعشرين من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٠٢ استطاعت فرنسا أن تعيد علاقاتها الدبلوماسية والتجارية مع الدولة النمائية ، فصدت معها معاهدة سلام Treaty of Peace في اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٨٠٢ ، ولكن لم يأتها ما جاء بها خاسراً عوضاً عما سبق أن الدولة النمائية صدقت فرنسا لأول مرة الحق في أن تمارس سفنها التجارية والتي تحمل العلم الفرنسي حق عبور المضائق والملاحة في البحر الأسود ودون أن تنام في وجهها هو التي ، وأن تعامل هذه السفن على قدم المساواة معاملة السفن التجارية التي تنبحر في البحر الأسود والتي تلعب الدول الأخرى (المادة ٣)^(١)

(ز) تجديد معاهدة التحالف الدلفيني بين الدولة النمائية وروسيا (١٨٠٥) :

استطاعت الروسية في سنة ١٨٠٥ أن تجدد معاهدة التحالف الدلفيني مع الدولة النمائية والتي كانت قد حطمت كالمربى في سنة ١٧٩٨ . وقد قرر تجديدها لمدة تسع سنوات بتأييد الحكومة البريطانية . وفي ظل هذا التجديد تحسنت الروسية في أن تنزع من الباب العالي امتيازات أشد خطراً من أية امتيازات سابقة منحها الباب العالي الروسي . فقد اعترفت الدولة النمائية في المعاهدة الجديدة

(١) نهد النص الرسمي لهذه المعاهدة في :

Herwitz J.C. : op. cit., vol. I, pp. 71-72

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستاتبول في باريس في ٩ من شهر - أيلول - سنة ١٨٠٢ .

إلى أيرمت في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٠٥، بأن
الدفاع عن المضايق إنما هو مستوية مشتركة تقع من حيث للمها على حائق
الدولة النمائية والروسية .

اشتعلت للماهدة على جرمين : جزء مطلق في أربع عشرة ساعة ، وجزء مرمي
يقع في سبع مواد . والجزء الأخير هو الذي يدخل في نطاق هذه الدراسة . نصت
المادة الأولى في فقرتها الأخيرة على أن يسمح للسلطان العثماني للسفن الحربية
الروسية وثقافات الجنود بسور للمضائق ومن الحرب . وجاء في المادة الرابعة
أن يحمى الروسيا قد قرر باسمه واسم خلفائه من بعده سلامة الممر الأيونية
والقود عنها من كل اعتداء حارسي . ولما كان الموقف السياسي في شبه
الجزيرة الإيطالية يحيل من الضروري استمرار الاحتلال الروسي للممر الأيونية ،
فإن هذا الاحتلال يستمر طالما كانت الأسباب التي دعت إليه لاتزال قائمة .
وتعهدت الحكومة النمائية باتخاذ التدابير لتسهيل مرور السفن الحربية الروسية
عبر المضائق من أجل خدمة وتأمين للقوات الروسية التي تحتل الممر الأيونية ،
ثم جاءت المادة السابعة والملحق السري لأخطار المواد على الإطلاق إذ نصت على أن
الحولتين النمائية والروسية ، بوقد قررتا بإتفاق البحر الأسود بحيث لا يسمح بأن
تحرى المضائق السفن الحربية التابعة للعدول الأخرى ، فإن كل محاولة من جانب
دولة أخرى مهما كانت لاتتواءم هذا القرار يستتبع حثاً عاجلاً موجهاً للعدول النمائية
والروسية . وعلى ذلك فهما يتعهدان باستغلال كل قوتيهما البحرية في وجه كل
سليقة حربية وكل سليقة تحمل مواداً حربية تحاول دخول البحر الأسود .

The Two Contracting Parties, having agreed on the closure
of the Black Sea, declare that any attempt by any Power
whatsoever to violate it shall be considered a hostile act
against them. Consequently, they pledge to oppose with all

their naval forces the entrance into that sea of every vessel of war and every ship carrying military stores^(١).

وبلاحظ أن النسخة الروسية لهذه الماهدة حامت غفلة من النسخة التركية. وقد نشر الأستاذ هورويز Horowitz باللغة الإنجليزية كلا النصين عن النسخة التركية والنسخة الروسية التي تنقها هنا مترجمة أولاً إلى اللغة العربية بجمهر « إن الطرفين المسلمين للصلادين يولفتان على أن يكون البحر الأسود بحراً مفتوحاً ، ولا يسمحان بأن تظهر في مياهه أية سفينة حربية أو أية سفينة مسلحة لأية دولة مهما كانت . وإذا حاولت أية سفينة أن تظهر مسلحة في داخل هذا البحر ، فالطرفان الساميان المتناهضان يعتبران مثل هذه المحاولة باعثاً عدائياً ، ويعين عليهما مقاومتها بكل قواتهما البحرية . ويعتبران هذه المحاولة هي التوسية الوحيدة التي تشكل أمنهما المتبادل والاشترك ، ومن المفهوم أن الزور الحربي الضايق سوف يستمر بالنسبة لفرن الحربية الروسية وللقطر الحربي الروسي . ويجب في كل الأحوال على الباب العالي أن يقدم إلى حضرة صاحب الجلالة إمبراطور جميع الروس كل المساعدات والتسهيلات التي قد يحتاج إليها » .

The Two High Contracting Parties agree to consider the Black Sea as closed and not to permit the appearance therein of any flag or, or armed vessel of any Power whatever, and if any should attempt to appear therein arms, the Two High Contracting Parties undertake to regard such an attempt as a *casus foederis* and to oppose it with their naval forces, as being the only means of assuring their mutual tranquillity ; it is understood that the free passage through the canal of Constantinople will continue in effect for the vessels of war and military transports of His Imperial Majesty of All the Russias, to which in each instance the Sublime Porte will furnish every assistance and grant every facility that may be required.^(٢)

(١) تجد النص الرسمي لهذه الماهدة في اللغة الروسية في :
Horowitz, J. C., op. cit., vol. I., pp 73-77

وقد تم تبادل بعض التصديقات على هذه الماهدة في استانبول في ٢٩ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٥٤ .

Loc. cit., p. 76, f. 1

(٢)

الظروف الدولية ساعدت الدولة على إنهاء المعاهدة الخائفة :

كان قرار هذا اللدا - الدفاع المشترك - من الضائق - في مقعدة الأخطاء
المساوغة التي سقط فيها السلطان سليم الثالث ودليلا على حقه السياسي ، لم يحدث
من قبل أن منع سلطان عثماني لروسيا هذا الحق الذي يشكل خروجاً تاماً على السيادة
العليا للدولة . وقد خفف من خطورة هذه المعاهدة غير المتكافئة أن التعديرات
البرية التي طرأت على الوقت العسكري والسياسي في أوروبا في سنة ١٨٠٦ قد
جعلت بإنهاء السبل بقاء المعاهدة وأطاحت بمرى الخصائف الثلاث بين الدولة
الثانية وبريطانيا والروسيا ، كما أدت إلى تعرض النمسا والبروسيا لاحتكام
من جانب الأسطول البريطاني .

اتتمتاورات نابليون العسكرية :

أحرز نابليون انتصارات عسكرية رائعة على النمسا في موقعة أولم ULM في
٢٠ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٥ ومثل فيها في ١٣ من نوفمبر -
تشرين ثان - ثم انتصر انتصاراً ساحقاً على القوات النمساوية والروسية في موقعة
أوسترليتز Austerlitz أو موقعة الأطلرة الثلاثة في ١٣ من ديسمبر - كانون أول .
وقد تقهقر فيصر روسيا إلى بلاده ، وأكوه إمبراطور النمسا على التوقيع عن معاهدة
برسبرج Pressburg في ٢٦ من ديسمبر - كانون أول - وتنازل فيها النمسا
عن اقاليم أوروبية هامة^(١) ، كما كان لهذه المعاهدة نتائج بالغة الأهمية ، وساء في

(١) تنازل من شروط هذه المعاهدة تنازل النمسا لفرنسا عن البندعية ، وغانيا ،
وأوستريا ، ونيشول .

أعقابها أحداث خطيرة^(١). وانحصر نابليون أيضاً على روسيا في موقعة بينا Jena في ١٤ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٦ ، ودخل برلين في ٢٧ من ذات الشهر . وأصدر مرسوم برلين في نوفمبر - تشرين ثالث - عام ١٨٠٦ وهي المراسيم التي اشتهرت باسم النظام القاري Blocus Continental ما فيها أعلن نابليون حصار الجزر البريطانية وحرم على جميع الدول الأوروبية المتحالفة أو اللوالية له فتح موانئها للتجارة معها . ويختص هذه المراسيم بمكون السفن البريطانية التي تدخل موانئ فرنسا أو موانئ حلفائها عرضة للمصادرة . وكان لهذه الاتصارات الحربية من حيث حبسها ومن حيث أهمية موانئها الأقاليم التي استولى عليها نابليون ما جعل نفوذه يتوسع كبراً عميقاً تبعاً للتوازن الدولي في القارة الأوروبية .

أسباب الانكسارات في إستاتبول :

وكان لانكسارات نابليون العسكرية والسياسية أسسها في إستاتبول د خدأ للفرد الفرنسي في دوائر الباب العالي المصادرة والظلية على نفوذ سائر الدول الكبرى . وتواصل نفوذ الروسي في العاصمة النمانية إلى حد بعيد حتى لم يمد لانكسارات إيتاليمكي talinsky الحفير الروسي وزن كبير في دوائر الباب العالي . وأخذت هذه الدوائر تناقض حتى الروسية في حدود قواتها في البروسلو والمودليل

(١) كان من بين كتابها وأحداثها الثلاثة اعتراف النمسا في ١٢ من يوليو - تموز - سنة ١٨٠٦ باتحاد الراب Confédération de Rhin الذي تكون من بافاريا ، وورتمبرج Wurttemberg ، وبادن Baden ، وغان ولايات أخرى . وكية سلطانى الإمبراطورية الألمانية (الأمير كارل دلتوخ) ، ووضع هذا الاتحاد تحت حاية فرنسا . ومن نتائج المعاهدة أيضا إجبار إمبراطور النمسا في ٦ من أغسطس - أكتا - سنة ١٨٠٦ على التخلي عن الب إمبراطور النموة الرومانية المقدسة . وبذلك زال لدى مع رجسة هج منه القوة الكبيرة .

انظر تفصيلات ودية من الوقت الدولى في أوروبا في سنتى ١٨٠٦ ، ١٨٠٧ من دكتور عبد مؤاد هكرى : المبراح بينالويجوتزية والإططاح (١٧٨٩ - ١٨٤٤) مطبوعات ، القاهرة دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، المجلد الثاني ، الفصل الثالث ، من ص ٦٨ - ٩٠

بعد أن بسطت فرنسا سيطرتها على إيطاليا وبعد أن أصبح نفوذ روسيا في الحزب
الأيويني سرياً . وقد ذهب الباب العالي في موقفه الثاني من روسيا إلى حد
أنه التفت في شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٠٦ جميع الامتيازات التي كانت
ممنوحة أو مقررة من قبل البحارة الروس . وقد حمل شارل أربوثوت
Charles Arbuthnot السفير البريطاني لتأييد زميله السفير الروسي ولكن
كان النفوذ البريطاني في إستانبول قد تضائل بل وصل إلى الحضيض ، وطلب
السفير البريطاني من حكومته إرسال قوات بحرية إلى منطقة المضائق لتسانده
في اتصالاته مع دوائر الباب العالي . وكان الحزب الجاسقاني Sebastiani السفير
الفرنسي قد وصل في ١٠ من أغسطس - آب - عام ١٨٠٦ إلى إستانبول حيث
ظهر باستعمال رسمي حفل جرميهوق بحال واستعان السفير البريطاني الكافة
الثانية التي جبرأها سرماً السفير الفرنسي في دوائر الباب العالي ، فكتب إلى
حكومته في ١٥ من سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٦ يقول إذا لم تتحرك بريطانيا
بأساطيلها فإن الفرنسيين سيتولون بجزر الاحتكارات العسكرية في المضائق ،
ويكون هذا العمل موجهاً ضد بريطانيا . وقد تمتعت تدبؤات السفير البريطاني في
الأيام القليلة التالية . فقد قدم السفير الفرنسي مذكرة في ١٦ من سبتمبر - أيلول -
إلى الباب العالي طلب فيها إنطلاق البوسفور والدردنيل في وجه السفن الحربية
الروسية ، وقررها أن عدم الاحتجاج لهذا الطلب يكون عملاً عذائياً موجهاً
ضد فرنسا . وفي هذه الحالة فإن القوات العروسية الزاحفة الجراءة ، والرابطة في
إيطاليا ، سوف تمتاز بالأقاليم الثانية لهاجة الروس . وقال إن كل تحالف جديد أو
استمرار القبل بجماعات قديم بين الدولة الثانية وبين أعداء فرنسا مثل بريطانيا
والروسيا لن يكون تنصاً سرماً لمبدأ الحياد ، ولكنه به إسهاً إيجابياً وانصاً
من جانب الدولة الثانية في الحرب التي تشنها بريطانيا والروسيا على فرنسا

وأكد السفير الفرنسي في مذكرته أن الحكومة الفرنسية ستجدها مضطرة إلى اتخاذ إجراءات تمتشى مع مصالحها ومع كرامتها ، وأن القوات الفرنسية السكينة للراجلة وحاشيا - وهي قوات مقصودتها أساساً الدفاع عن الإمبراطورية الثانية ضد أطماع بريطانيا والروسيا - ستوجه إلى أغراض تتعارض تماماً جنوياً مع الغرض الأول الذي من أجله أرسلت إلى طلائها .

الدولة تتخلى مساعدتها مع الروسيا وبريطانيا:

وصل التفوذ الفرنسي إلى إستانبول إلى الأوج حين أقدمت الحكومة الصبانية بإزادتها للثورة وفي يوم واحد هو ١٤ من شهر نوفمبر - تشرين ثلث - عام ١٨٠٦ على فتح معاهدة التحالف القملى المجددة بينها وبين الروسيا في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٥ ، فكان هذه المعاهدة الجائرة ظلت نافذة بعد تحديدها ثلاثة عشر شهراً وواحداً وعشرين يوماً . كما أقدمت الدولة الصبانية في ذات اليوم وإزادتها للثورة على فتح معاهدة التحالف القملى المجددة بينها وبين بريطانيا في الخامس من يناير - كانون ثلث - سنة ١٧٩٩ .

ومن المبادئ المجمع عليها في القانون الدولى العام أن فتح للمساعدة بالإرادة الانفرادية لإحدى الدول الأطراف فيها أمر غير جائز طالما أن المساعدة لا تتحول أطرافها هنا المقصود تأسيساً على أنه يؤدى إلى زوال الاستقرار في العلاقات الدولية ، ويجعل الدول في حل من تنفيذ التزاماتها الدولية متى شئت ، ويسلب للمساعدات قدرتها ، ويجعل بقاها أو انقضاءها متوقفاً على السلطة التصككية الانفرادية للدول الأطراف فيها . ومن ناحية أخرى فإن القوة التي تمنح المساعدة بإزادتها الانفرادية تستلزم عادة إما إلى حق الضرورة ، وإما إلى حرق الطرف الآخر لأحكام المعاهدة ، والنتيجة العملية لفتح المساعدة بمقتضى الإرادة الانفرادية هي أن ينهى الأمر إلى الخروج من دائرة القانون إلى دائرة السياسة والأمس الواقع *le fait accompli* ويجزى في

خالية الأحيان إلى طلب الدولة التي تتعرض لها أسباب القوة للادانة^(١) . ويبدو من العلاقات التي أحلت بهذا الإجراء أن الدولة الثانية قد أقضت كل نسخ مساعدتها مع روسيا وبريطانيا بتتبع من فرنسا وضموراً منها بأن أحكام هاتين الماعدتين تتعارض مع سياستها العليا في بسط سيادتها كاملة على الشانين والبحر الأسود .

وكان هذا الإجراء الدبلوماسي للزموذج من جانب الدولة الثانية مقفلة لقطع العلاقات بينها وبين كل من روسيا وبريطانيا وفيهم الحرب . وفصلاً نبحث دبلوماسية نابليون في أن تخرج الدولة الثانية إلى الحرب ضد روسيا في عام ١٨٠٦ وعند بريطانيا في عام ١٨٠٧ :

بريطانيا ترسل أسطولاً يتحسم للشانين:

على أن الحكومة البريطانية أقضت قبيل قطع العلاقات مع الدولة الثانية وليل مصادرة السفير البريطاني وإزالة البريطانيين إستاتبول على عدة إجراءات ودمت بها على الدولة الثانية وعلى نابليون . كانت الوزارة القائمة في الحكم هي وزارة جوهيل Greyville وقد جاءت إلى الحكم في شهر فبراير - شباط - عام ١٨٠٦ خلفاً لوزارة ولهم بت Pitt ، وواجهت للولف الدول المضطرب ولشائك . وأسدر ولدهام W. Wrentham ودير الحرية فيها مذكرة مؤرخة في ٢١ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٦ وأخبرها سرية لثانية إلى الحمرال بوكس Fox القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية ، وكان مما جاء فيها « إن بعض التصرفات التي صدرت عن الباب البالي أخيراً جعلت اتحاد إجراءات سرية وصحة تجاه الحكومة الثانية أمراً ضرورياً لا مهاد منه . ولذلك قدس كلفت بإبلاغكم أن أوامره قد صدرت إلى لورد نائب الأدميرال كولينجود Vice-Admiral lord Collingwood لإرسال قوة كافية من سفن حصرة صاحب الجلالة ، تحت قيادة ضباط ذوي مقدرة وتجارب ، وإعطائهم تعليمات بأن

(١) ديكور جند سلطان : القانون الدولي العام في وقت السلم . القاهرة ١٩٦٢

يقدّموا دون إضاعة لحظة واحدة من الوقت إلى مضائق إستائبول حيث يفتنون موسماً يتيح للأسطول ممارسة أعمال عدائية ضد إستائبول في حالة فشل السامى الذى كلف مستر أريشوت Mr. Arishot (السفير البريطانى) القيام بها لدى الحكومة المصرية^(١).

وقد وقع الاختيار على أحد كبار ضباط البحرية وهو نائب أمير البحر سير جون دكورث Vios - Admiral Sir John T. Duckworth لتبليغ الأسطول للتوجه إلى المردنيل واليوسنور . ويهد إليه أن يلقى الأسطول مرافقه في مياه اليوسنور بجمل الماصحة في مظاهرة عسكرية بحرية تأييداً لولف السفير البريطانى في إستائبول، وأن يقدم إلى الحكومة المصرية مذكرة يطلب الحكومة البريطانية ، ومن بينها أن يقطع الباب المالى لعلاقاته مع الحكومة الفرنسية . وما يترتب على هذا القطع من مطالبة السفير الفرنسى بمناخره إستائبول، وأن يفتح الباب المالى خطة سياسية جديدة تقوم على التعاون ودعم العلاقات بين الحكومتين البريطانية والمصرية ، أى أن الحكومة البريطانية أرادت إبراء ما يسمى «مساوئات مسلحة» armed negotiations مع الباب المالى لفرض مطالبها عليه . فلذا رفض الباب المالى الأخذ بما جاء في المذكرة البريطانية ، واعتبر هذا الرفض دليلاً على أن الحكومة المصرية ماضية وتعاونها مع باريس ومستمرة على موقفها العدائى من بريطانيا . وفى هذه الحالة يقوم دكورث قائد الأسطول بإبلاغ هذا الرفض إلى الخريفال فوكس Fox القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية ، فيسارع الأخير إلى إرسال جزء من قواته إلى الإسكندرية لاحتلالها كي تتخبر بريطانيا من الإسكندرية نقطة ارتكاز لتحركات القوات البريطانية في الحوض الشرق للبحر المتوسط ضد فرنسا ضد الدولة المصرية^(٢) . وكانت بريطانيا تعتقد أن نابليون يساود الكرة

Donia G et Mme Fawtier E. G.: L'Angleterre et L'Egypte. (١)
La Campagne de 1807. Le Caire, 1988: doc. No. 1, pp. 1-2

تصديق أحلامه في الشرق وتنفيذ أطماعه في تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة مرسية، كما كانت تعتقد أنها ارتكبت خطأ عسكرياً وسياسياً قاحلاً حين وافقت على الجلاء عن مصر تنقيلاً لسلح أسلحة (٢٧ من مارس - آذار - سنة ١٨٠٢) وقد تم الجلاء في مارس ١٨٠٣ تم استؤتمت الحروب بين بريطانيا وفرنسا بعد ذلك بشهرين. فكان ذلك الإجراء الحزنى البريطانى ذو الشقين - الانحياز السابق للقديم الطالب البريطانية كى يأخذ بها الباب العالي أو احتلال الإسكندرية ، يقوم على استخدام المنطق ووسائل التضييق مع الحكومة المصرية لحملها على قسم عرى « التحالف » مع فرنسا^(١). وقد عبرت ورواية الحربية البريطانية عن أهدافها من هذه الإجراءات العسكرية بأنها « أرادت إكراه الباب العالي على التخلص من نفوذ فرنسا ووجه على إعادة علاقته مع بريطانيا العظمى والروسيا ».

"... to compel the Porte to shake off the influence of France and to return to her connection with Great Britain and Russia".^(٢)

الأسطول البريطانى يتجهم للنايى :

تمكن دكوت من عبور المردنيل وبحر مومرة واليهوسنود دون علة، ورسا بأسطوله أمام إستانبول في ١٩ من يناير - شباط - سنة ١٨٠٧ كما سبق أن ذكرنا. ويلاحظ أن هذه هى المرة الوحيدة التى دخل فيها الأسطول البريطانى منطقة البنايى

(١) دكتور محمد مؤيد عكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ - ١٨١١ ثلاثة أجزاء ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٤ ، ج ٢ ، ص ٥٩٦ .

(٢) Douin G. et Mme Fawtier-Jouan E.-G. : op. cit. (٢) وثيقة رقم ٥٢ ، ص ٦٦ - ٦٨ ، مذكرة سرية مؤرخة فى ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ من لورد كاتلر به وزير الحربية البريطانية إلى جنرال موكس القائد العام للقوات البريطانية فى جزيرة صقلية .

(١٤ - المودة النهائية)

وهو حالة « غير سلم » ، وسرى بعد قليل أنه محز عن المتعام مصيق الدردنيل سنة ١٩١٥ في أعاء الحرب العالمية الأولى ، بعد هذا الحادث بأكثر من قرن من الزمان . ولما بلغ الأسطول مياد العاصمة كان شارل أربنتوت Charles Arbutnot السفير البريطاني قد غادرها ومعه جميع الرعايا البريطانيين ، كما رحل عنها من قبله إيتالينسكي Italinaky السفير الروسي . وقدم قائد الأسطول البريطاني إلى الباب العالي مذكرة حكومته . وكان موقف الباب العالي ضعفاً حرجياً . ولم يكن حرج مركز الحكومة النمائية راجعاً إلى أنها تعمل إحدى هاتين الدولتين المتلافتين على الأخرى . وهذا هو خطأ الراجح الفرنسية . وكانت تود لو تركها لتأنها الإنجليز والفرنسيون معاً . ولكن كان الطرفان يضئطان عليها ضغطاً لا هوادة فيه وكان عليها أن تمسك ملياً في تقدير الموقف السياسي والعسكري ، وهل خطر الإنجليز أكثر من خطر الفرنسيين أو العكس . وجمدت الحكومة النمائية إلى أساليبها الدبلوماسية للألوف وهو التوسيم . ولم يكن في مقدورها طرد الجنرال سياستيانى Sebastiani السفير الفرنسى ، لأن شخصيته كانت قوية ، ولأن نابليون في الغلة الأوروبية كان طاعياً ، وبخاصة بعد أن مد السيطرة الفرنسية إلى أقاليم في شرق أوروبا على مقربة من الممتلكات النمائية هناك . وانتهت الحكومة النمائية رايأ إلى أن فرنسا أشد خطراً عليها من خطر بريطانيا

ورأى قائد الأسطول أن الحكومة النمائية لا ترد على مطالبه ، وأدرك أن هذا الصمت هو رفض للمطالب البريطانية ، ثم كان ما هو أشد حرجاً . إذ لاحظ أن أعمال التجهيزات العسكرية على سفاف اليوسفور والمردنيل قائمة على قدم وساق ، وأن السفير الفرنسى يشرف عليها بشخصه ، فسكر دكورث في الخروج من منطقة الضائق والعودة من حيث أتى فعمل أن يصحرج مركزه ويقطع الطريق على الأسطول . وكان تقدير دكورث للموقف الحربى سليماً ، فأكاد يصحرك للخروج من منطقة المسابق في طريقه إلى البحر المتوسط حتى ألفت مدفعية

السواحل لغاتها على الأسطول وأسيت بعض وحداته بطب، ولكننا لم نتفق^(١). وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ بعد أن استقل مكته في محطة للضاحيق نحواً من اثني عشر يوماً. وبعد جاء في مدكرة سرية مؤرخة في ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ ومنها وزير الخارجية البريطانية أن دكوث وجد نفسه مضطراً إلى الانسحاب بأسطوله من سيد اليوسفود دون أن يحقق شيئاً ضد إستانبول. وعندئذ شرع دكوث بتفقد الشطر الثاني من حملة الحكومة البريطانية وهي إبلاغ الجنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة سقلية رفض الحكومة الثانية الاستجابة للطلاب البريطانية فيبادر فوراً بإرسال حملة إلى مصر تحتل الإسكندرية. ويضع في خطأ للوزير الفرنسي الكبير إدولرد دوبري Ed. Drouot مدير معهد الدراسات والتأليفونية في باريس حين يذكر أن بريطانيا لم تحتل الإسكندرية إلا بعد أن هجرت من احتلال إستانبول، وأنها أرادت أن تتوض فشلها الحربي في مياه اليوسفود بتجتاح عسكري على شاطئ النيل^(٢).

وقد جرد القائد العام للقوات البريطانية في سقلية حملة قولها رهاه خمسة آلاف جندي^(٣) بقيادة فريزر Major-General Mackenzie Fraser ولم يكن جميع جنود الحملة من الإنجليز، بل كان من بينهم عدد كبير من الحفود المرتزقة من الإيطاليين دخلوا خدمة الإنجليز^(٤). وكانت لدى قائد الحملة أوامر صريحة بأن هدف الحملة هو احتلال الإسكندرية دون غيرها من البلاد المصرية^(٥).

(١) Douin G. et Mme Fawtier-Jouan E.G. op. cit. doc. no. 24, 7th March, 1807. Duckworth to Fox.

(٢) Drouot Ed; La Politique Orientale de Napoléon. Paris

(٣) Douin G. et Mme Fawtier-Jouan E.G.; op. cit.

وذلك ولم يه٧ م٦٠

(٤) الوثائق رقم ٩٠٤٧٠٠ في المجلد السابق

(٥) الوثائق رقم ٩٠٤٧٠٠ في المجلد السابق

ولو كان الإنجليز يريدون احتلال مصر لما كان هذا السد الصغير يكفي لاحتلال البلاد، لأنهم كانوا قد مروا بتجربتين خلال سنوات قليلة سابقة^(١)، ولما بلغت الحملة الإسكندرية^(٢) في ٦ من مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ استولت على ثلاث قطع بحرية حامية كانت ودية في اللياق القريبة^(٣). وقد سلم المدينة إلى الإنجليز ساكنها أمين أغا ويسمى أيضاً أمين فبطان الكرد^(٤) بعد أن وقعت شروط التسليم^(٥). واحتل الإنجليز لليناء والمدينة وقلاعها وضواحيها^(٦) وحققوا الهدف الأساسي للحملة.

(١) كانت التجربة الأولى عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ وكانت تتكون من ٢٥ ألف جندي ولم يكن هذا السد كفاً لبط السيطرة الفرنسية التامة على مصر. وكانت التجربة الثانية عندما قرر الإنجليز الإسهام في إخراج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١ وكان - يوم ١٢ ألف جندي كما كان معهم جيش متأنق.

(٢) لم تكن الإسكندرية حتى سنة ١٨٠٧ مهم إدارياً لحكومة القاهرة، بل كان يحكمها أحد السركين وبجهد ماهرة فيودن باشا، أي قائد عام الأسطول الشاف إلى استانبول. وما يذكر أن أحمد - ورعيه باشا - وهو آسر وال عثمان على مصر قبل عهد علي كان في أول أمره ساكناً في الإسكندرية ثم رغب وألح على مصر. وكان من نتائج احتلال الإنجليز للإسكندرية سنة ١٨٠٧ أن أصبحت الإسكندرية تابعة لحكومة القاهرة إدارياً، وسكان عدد على هو للعتبة الوحيد من حكم مرزوق.

(٣) وثيقة رقم ٣٩ مؤرخة في ٢٣ مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ في المرجع المذكور في الملاحية رقم ١ ص ٢١١ -

(٤) لاحظ أن قائد المارة البحرية الشافية التي كانت راسية في الإسكندرية واستسلمت للإنجليز كان يسمى صالح أغا فومنتان البحرية.

(٥) نشر دوان بلانك الإيطالية شروط التسليم، الوثيقة رقم ٢٧، ص ٢٤ - ٢٤ من المرجع السابق، ونشرها مرة الأستاذ الدكتور عبد قزاق هكدي، ج ٢، ص ٦٠٥ - ٦٠٦، ونشر العماد مورو من شروط التسليم كما مرت لأهل القاهرة في ذلك الوقت (الجبرتي ج ٤، ص ٤٥ - ٤٦ حوادث محرم سنة ١٢٢٢).

(٦) تضاربت الأقوال حول تاريخ تسليم الإسكندرية للإنجليز فنذكر هذه التواريخ ١١٦، ١١٧، ٢٠، ٢١ من مارس - آذار - ١٨٠٧. لكن البلاغ الرسمي الذي أذاعته قيادة الحملة جاء فيه أن الاستيلاء قد تم في يوم ٢٦ مارس - آذار.

أظر وثيقة رقم ٢٦، ص ٢٢ - ٢٣ ص :

ولست عند الدراسة عمالاً يبحث الأبطال التي حلت قائد الحق على مد
السلطات الحربية إلى رشيد . وكان رجع منها بعد ذلك إلى دمياط أيضاً^(٢) .

(١) كما اتصل تمام لبريطانيا والإسكندرية . وهو الجور حيث Major Misset
رجلاً عسكرياً على درجة كبيرة من الخي وفكر وفهمه بالأسئلة العسكرية . وكان من
أخبارهم مصر إلى بريطانيا . وسعدت رسالته إلى الحكومة البريطانية في لندن من سنة
١٨٠٣ إلى أوائل سنة ١٨٠٧ بطلبها باحتلال مصر . وأما بقية الحق الإسكندرية اعطه
لحقه أن معه القوة البريطانية المباشرة لم يجد تكتي لا احتلال مصر كلها . ولم يكد يمر يومان
على احتلال الإسكندرية حتى أرسل القنصل تمام إلى مرمر يمد له خطوطه للوقت بالبحر
لحصة بغير تلك القوات المتبقية في الإسكندرية مما جرس حشد الجنود البقية . وذكر له أنه
استطاع بمصونه سيج كية من القوم الكمي تحوي جود الحق يوماً واحداً ، كما مر في تحت
الذكر أنه استولى على حرم من القوم لبعض لاحتلال سكان المدينة . وأوضح له أن
علاج النوب يتطلب سروره لاحتلال رشيد وأرجانية وجبل وبرا حامية بريطانية فيها .
ولما من التحمل تمام من جانب قائد الحق رعداً في تنبيهه فخرامه ، أتب القنصل وبدأ من
أحيان الإسكندرية لثابة مرمر وأوصوا له الخلق الذي يفلور من نفس المواد العدائية في
المدينة وذكروا له أنها تعمل على حاشتها من عائل البلاد من طريق القرطانية ورعيد .
والمرمر مرمر جده الأسايد ، وجرده لضرورة الحربية قوة برة من الحق وجبها إلى رشيد
وألفت الحرة والتي ممره الجور حزال وشوب Major General Wanehope قائد
القوة الإنجليزية ، كما جعل أربانية جندي بريطاني . (٢١ من مارس - آذار ١٨٠٧)
وصف مرمر حرمه الأساطير في رشيد بأنها عربة لامية جداً وفيه عوالة a very
heavy and unexpected stroke upon on وأرسل قوة ثانية استهدلت منه
أفراد : ١٠ - خمس الفوج ، المتألمة رشيد ، والحفاظ على نسبة بريطانيا العسكرية ،
ومعد نهاية إلى الجنرال ستيفرت Stewart وأبقت حزمة حشيرة في معركة الخلاء
(٢١ من أبريل - نيسان ١٨٠٧) وفراوح عند القتل والقبض من ١٧٠٠ و ١٤٠٠
ومرج مركز الإنجليز ، بالقوة المتبقية فيهم لا يجاوز عددها ثلاثة آلاف ، أو لم يمد لهم
في مصر سدين أو حليف وعقد على بريطانيا لإرسال مساعدات لهم . فاستمر رأى قائد الحق
على ترك كل قواته في الإسكندرية . ولم يكد رعد على في نهاية الإنجليز . وقد ألقى
كل من قائد الحق والقنصل تمام مسئولية الفروقة في رشيد والحاد على الأمر ، وبإعلا
الانهايات . وفي سياق التخاص من صه القنصل تمام إلى القائد سفيره لخدمة حين
يسمح أي مدينة مثل رشيد قد أصبحت على جيش أوووي .

.. the world will be astonished to hear that such a
town as Rosetta could not be taken by an European army.
وله تم حلاء القوات البريطانية من الإسكندرية في ١٩ من سبتمبر - أيلول ١٨٠٧
وعادت إلى لوانصما في جزيرة صقلية .

بريطانيا تصرف النظر عن إعادة تقسيم المصايق :

توفي وزلوة الحرية البريطانية لورد كاسلره Caslereagh في ٢٥ من مارس - آذار - سنة ١٨٥٧ خلفاً لوند هام Windham . وقد اعتقد الوزير الجديد الأسلوب الذي اتبعه سلفه في تنفيذ عملية اقتسام الحدود بين واليسفور وإرسال جيش لاحتلال الإسكندرية . وقد وضع مذكرة سرية مؤرخة في ٨ من مايو - أيار - سنة ١٨٥٧ بت فيها إلى جنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة سفلية استهلها بمرض الملاهيست التي أحاطت بحمة دكوث إلى منطقة المصايق . وقال إنه من الواضح أن الأتراك النمانيين قد قاموا بتعزيز الاستحكامات الدفاعية على سواحل منطقة المصايق بمدد طويلاً سيقت إرسال حمة دكوث ، وقد قاموا بهذه التعزيزات العسكرية تحت إشراف الخبراء الفرنسيين ، كما أن النمانيين استطاعوا حشد قوات كبيرة للدفاع عن إسطنبول مما يجعل أية عملية حرية أخرى حديثة الحموى إلا إذا استطاعت بريطانيا حشد قوات تحولها عدداً وعدة وبشرط ألا يؤثر حشدنا على سلامة جزيرة سفلية . وذهب وزير الحرية إلى أن مثل هذه القوات المطلوبة من حيث حجمها تفوق الإسكانيات المتاحة لبريطانيا في البحر المتوسط حتى لو انضمت القوات الروسية الراجلة في جزيرة كورفو إلى القوات البريطانية . وتأسساً على هذه الحقائق استمر رأى الحكومة البريطانية في صرف النظر عن إرسال حمة أخرى إلى المصايق ، وقررت تشديد الحصار على موانئ الإمبراطورية النمانية وتضييق الخناق على تجارتها حتى تعود الحكومة النمانية إلى سواها وتستأنف علاقاتها الطبيعية مع بريطانيا^(١) .

رأى الخبراء الممكروين في حملة دكورث :

وفي تقرير نشر لأول مرة في سنتي ١٨٣٧ ، ١٨٣٨ ^(١) جاء فيه أن وجه القربة في حملة دكورث إلى منطقة المصايف أنها لم تكن مصحوبة بقوات برية . وأن الجيش البريطاني الذي أرسل إلى الإسكندرية لاحتلالها كان يجب توجيهه أصلاً وأساساً مع الأسطول البريطاني إلى منطقة المصايف وإستائول بدلاً من الإسكندرية ، وأن هذا هو وجه انشغال الذي وقع فيه المخطئون لحملة دكورث . فإن وجود جيش مع الأسطول كان يسدى أجل الخدمات للحملة البريطانية ، لأن الجيش كان في استطاعته احتلال بعض النقاط أو المراكز الإستراتيجية في منطقة المصايف بحيث تؤمن هذه المراكز استعاب الأسطول ، كما أن وجود جيش بريطاني كان يضمن مزيداً من الأهمية والتأثير حين ظهر الأسطول في مياه البوسفور تجاه إستائول وبحسبة أن المفاوضات التي كان مرمماً إجرائها كانت مفاوضات مسلحة . وجدير بالذكر أن هذا الرأي الذي ورد في ذلك التقرير قد سبق أن أفصح عنه لورد كاسلوه وزير الخارجية البريطانية في مذكرة سرية مؤرخة في ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ والتي سبق أن أشرنا إليها .

تقسيم منطقة المصايف بمخطط مشروع اقتسام البوالة :

من المشروعات التي فكر فيها نابليون عقب انتصاره على قوات روسيا وبروسيا في معركة فريدلاند (١٤ من شهر يونيو - حزيران -

(١) عنوان هذا التقرير :

Notes on an Expedition to Alexandria in the Year 1807.

وقد نشر في United Service Journal وتيسر من قراة هذا التقرير أنواضه، الذي لم يكشف من شخصيته ولا كثير باسم عام هو مايثر Miles ، كان يناصر لأحداث حملة دكورث وأنه كبح في موضوعه وحيث وظف -

وقد أعاد نشر هذا التقرير الثاني المؤرخ في فرنسا في روميه منام فواير جومير في كتابها

L'Angleterre et l'Egypte, op. cit., pp. 123-236.

١٨٠٧) إعداد حملة برية فرنسية روحية مشتركة لغزو الهند . وسواء كان هذا للمشروع يستهدف حقيقة غزو الهند أو كان مشروعاً خيالياً أراد به نابليون إيهاب بريطانيا لإجبارها على قبول السلم في أوروبا وفق الأوضاع التي أراد فرضها ، فقد اقترن هذا للمشروع بمشروع آخر يرمي إلى تكسيب أملاك الدولة الثمانية بين الدول الأوروبية الكبرى . وقد عرض فكرة هذا المشروع هاردنبرج Hardenburg وزير خارجية بروسيا على كل من نابليون وقبصر الروسي إسكندر الأول . وكان الباعث له على تقديم هذا للمشروع أن تحال بلاده - بروسيا - حتماً منافعاً من الكاس والمزايا : فهي تستولى على نصيب من ممتلكات الدولة الثمانية^(١) وفي ذات الوقت يشغل نابليون وقته وجهده في هذا المشروع فيبعد عن مسرح الأحداث السياسية والعسكرية في غرب أوروبا خاصة وبروسيا بخاصة .

ولم يرض نابليون مشروع اقتسام ولايات الدولة الثمانية لأول وهلة ، ولم يقبله لأول وهلة ، وهذا ماغماً شأن الرجل السياسي الحميم وشأن الرجل العسكري للثزن . وقد عهد إلى سفيره لدى قبصر روسيا بمناقشة موضوع اقتسام أملاك الدولة الثمانية في حالة مولفة القيص على مشاركة فرنسا في تسخير حملة برية مشتركة ضد بريطانيا إلى الهند . وقد ولفق القيص على اقتراح نابليون بمحوص الحملة المشتركة ، وكان قد تلقى خطاباً في فبراير - شباط - ١٨٠٨ أوسع فيه نابليون أهداف الحملة ومساوئها وفوائدها ، ثم احتل القيص والسفير الفرنسي لمناقشة الموضوع الثاني . ولكن لم تمكث نبداً بمناقشة التفاصيل حتى صدر الاتفاق

(١) جاء مشروع تكسيب أملاك الدولة الثمانية عام ١٨٠٨ على النحو التالي :

الروسيا : بولناريا - ولاشيا - مولفانيا - لستانبول مع البوسفور والمردفيل
فرنسا : بلاد البوفاين وجير الأرشيفيل
النمسا : البوسنة والفرسانك وسائر أنحاء الصرب
بروسيا : سكسونيا
ملك سكسونيا : يستولى على بولنسا بعد إعادة تكويرها .

حول مسألة الضائق . فقد عاكف القيصريان نزول إلى بلاده منطقة الضائق ،
 بينما أمر السفير الفرنسي على أن تكون منطقة الضائق من بسبب بلاده .
 ولما وصلت المناقشة إلى طريق مسدود اقترح السفير الفرنسي حلاً وسطاً من
 وجهة نظره ، وهو أن تستولى روسيا على مدينة إستانبول والبوسفور الذي تطل
 مياهه على الباسمة ويؤدي ذات الوقت للخروج من البحر الأسود وأن تستولى
 فرنسا على الدردنيل الذي يؤدي إلى البحر المتوسط . ومن المروف أنه يقع على
 مفترق من الدردنيل في هذا البحر مجموعة من الجزر ذات أهمية إستراتيجية بالغة
 تجعل منها قواعد عسكرية من الطراز الأول . وقد وضع هذا الاقتراح وومعه بأنه
 غير عملي . وكان مما فاقه إن أيا من البوسفور والدردنيل لا قيمة له بدون الآخر .
 وكانت مسألة ملكية الضائق هي الصخرة التي تحطم عليها مشروع انقسام أملاك
 الدولة العثمانية في عام ١٨٠٨^(١) .

(ج) معاهدة الدردنيل بين الدولة العثمانية وبريطانيا (١٨٠٩) :

كان منحه تلتس Tilsit الذي أمضيت شروطه في السابع من يوليو - تموز -
 سنة ١٨٠٧ بين نابليون وإسكندر الأول فيصر روسيا قد أطاح بالثغراب
 البريطاني الروس ، ومهد الطريق لقيام تناكب بين الدولة العثمانية وبريطانيا .
 ومن ثم حدثت بين هاتين الدولتين في الخامس من شهر يناير - كانون ثان -
 سنة ١٨٠٩ معاهدة الدردنيل ، أطلق عليها أيضاً معاهدة السلام والتجارة
 والتحالف السري Treaty of Peace, Commerce and Secret Alliance
 ولقد قررت هذه المعاهدة إعادة سريان المعاهدات والاتفاقيات التي سبق عقدها بين
 الدولتين فيما يخص نظام الامتيازات الأجنبية والتجارة في البحر الأسود ،
 واعتبار هذه المعاهدات والاتفاقيات سارية منذ إبرائها ، وكأنها لم تعرض لفترة

توقف أو تعطيل أو إلغاء (المادة ٤) ، كما نصت هذه المادة على منع السفن الحربية في وقت السلم وزمن الحرب من عبور المضائق والدخول في البحر الأسود . وبذلك أصبحت بريطانيا أول دولة أوروبية تستقر بحق الباب العالي في حق المضائق في وجه السفن الحربية الأجنبية في جميع الأوقات « بشرط أن تراعى كل دولة في المستقبل هذا النظام القديم في الإمبراطورية النمساوية »^(١) . وبذلك أكدت معاهدة اللودنيل ركناً رئيسياً من أركان السياسة العليا للدولة النمساوية كانت تفتسك به في عصور قوتها .

(ط) معاهدة أدنة بين الدولة النمساوية والروسيا ١٨٢٩ :

وتطورت الثورة التي قام بها الشعب اليوناني طلباً للاستقلال تطوراً أدى إلى نشوب الحرب بين الدولة النمساوية والروسيا في السادس والعشرين من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٨٢٨ وانتهت بإبرام معاهدة أدنة في الرابع عشر من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٢٩ ، ونصت على أن يكون للسفن الروسية التصارية من أي حجم الحق في المرور عبر المضائق وفي الملاحة في البحر الأسود وفي التمتع بحرية التجارة فيه ، كما تقرر هذا الحق بالنسبة للدول الأخرى التي تكون في حالة سلم مع الدولة النمساوية . ونصت للمعاهدة أيضاً على أن تصبح ولاية الأناطolia والبندل - رومانيا حالياً - مستعطين في إدارتهما الداخلية تحت حماية روسيا^(٢) . وكان هذا النص تدعياً لمركز الروسيا في البحر الأسود

(١) محمد النسي الرسمى والكتاب لهذه المادة في :

Hurewicz, J.C.; op. cit., t. I, pp. 81 - 84.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إسطنبول في ٢٧ من يوليو .. تموز - سنة ١٨٠٩ .

(٢) أصبحت الرابطة الوحيدة التي تربط ما كان الولايتان بالدولة النمساوية تنحصر في - السلطان في تعيين أسرى الموحدين Hospodars الملاكين ، وفي دفع الجزية السنوية لهاب المال

كلهذى دول هذا البحر ، ونجم من هذا النص أن تعلقت السيادة المباشرة
من جميع ماصب نهر الدانوب فى البحر الأسود ^(١) بما يند حروفاً على
السياسة العليا للدولة .

(ى) معاهدة تجارة وملاحة بين الدولة الشمانية والولايات المتحدة

الأمريكية (١٨٣٠) :

وفى قمار ألتامح بعض الدول وتطلعات البعض الآخر عقدت الدولة الشمانية
مع الولايات المتحدة الأمريكية معاهدة تجارة وملاحة Treaty of
Commerce and Navigation فى السابع من شهر مايو - آيل - سنة
١٨٣٠ تقرر فيها معاملة سفن الولايات المتحدة معاملة سفن الدول الأكثر رعاية
وذلك بمنحها الحق فى عبور المضائق والدخول إلى البحر الأسود والخروج منه
سواء كانت هذه السفن محملة أو غير محملة ^(٢) .

(ك) معاهدة هنكار إسكلى بين الدولة الشمانية والروسا (١٨٣٢)

وعلى أثر الاتصارات التى حققها الجيش الأمري على الجيش الشمانى فى
حرب الشام الأولى عقدت الدولة الشمانية فى الثامن من شهر يوليو - تموز - سنة
١٨٣٢ مع الروسا معاهدة تحالف دفاعى على متعددة هنكار إسكلى
Henkar Iskolnei وكان النص الرسمى لهذه المعاهدة قد وضع باللغة الفرنسية
وحاول كل فريق بعد ذلك فى ترجمته لواء المعاهدة أن يفسرها طبقاً لمصلحته ،

(١) Miller. W., op. cit., pp. 180 181.

(٢) عهد النص الرسمى والكمال لهذه المعاهدة فى :

Harowitz, J.C. : op. cit., t. I., pp. 109-106.

ولقد تم تبادل التصديق على هذه المعاهدة فى إسطنبول فى ٥ من أكتوبر -
تشرين الأول - ١٨٣٢ .

ونشأت عن ذلك ثلاثة بحريّات غنطلة يطلق عليها ثلاث مدروس. ولن نخوض فيها في هذه الدراسة. وقد تقرر أن تكون مدة التحالف الدقاعي ثمان سنوات . وقد أُلحقت بالماهدة مادة سرية تمت على أن ينلق السلطان للمنايق في وجه أية سلطنة عربية أجنبية ما عدا السفن الروسية الحربية التي يكون لها وحدها دون سواها من السفن الأجنبية حتى عبور للمنايق ^(١) . وقد أنشأت هذه للماهدة للروسيا مركزاً مشتركاً في الدولة العثمانية وعصفت بالسياسة العليا للدولة وحدثت من الأسطول الروسي إلى البوسفور في شهر فبراير - شباط - عام ١٨٤٣ ثم قدمت حة روسية بحرية وبرية إلى البوسفور وأذت حكومة السلطان للقوات البرية وأن تمسك على الساحل الآسيوي بحجة حماية السلطان من واليه التأثير محمد علي باشا . وكان عام ١٨٤٣ سنة مهمة لأن الروسيا سيطرت فيها للمرة الأولى والأخيرة على إستانبول وعلى للمنايق العثمانية . وإذا كان خطر محمد علي قد ذهب إلى حين ، فقد ظل خطر الروس قابلاً في منطقة للمنايق عاصماً بالسياسة العليا للدولة .

وقد نظرت كل من بريطانيا وفرنسا إلى الماهدة على أنها أداة تجعل من للدولة العثمانية دولة تسير في ركب الروسيا ، ولتلك بادروا في السادس والعشرين من شهر أغسطس - آب - سنة ١٨٤٣ إلى الاحتجاج رسمياً لدى للباب العالي على عقد هذه للماهدة ^(٢) .

(١) تجد النص الرسمي لهذه الماهدة في

Huronwita J.C., op. cit., vol pp. 105-106

وقد تم تبادل وثائقي التفصيل عليها في إستانبول في ٢٠ من أغسطس - آب - ١٨٤٣

Op. cit., p. 106.

(٢)

Miller W.J. op. cit., pp. 142-143 .

(ل) معاهدة لندن بين الدولة العثمانية وأربع دول أوروبية (١٨٤٠) :

وإن معاهدة لندن التي أبرمت في الخامس عشر من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٤٠ بين الدولة العثمانية وبريطانيا والروسيا وبروسيا والنمسا لتسوية المسألة المصرية وإنهاء النزاع بين السلاطين وعهد علي - وقد انضمت فرنسا إلى هذه المعاهدة في الخامس عشر من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٤١ فأصبحت معاهدة جنائية مداسية - وودت في أكثر من موضع نصومر صريحة على أن الباب العالي يلتزم التزاماً دقيقاً بتتبع المصالح الحربية الأجنبية من اللورد في اللضايق - وجاء في هذه المعاهدة أنه إذا أقدم محمد علي والي مصر على توجيه قواته الحربية والبحرية لتزحف على إستانبول ، فإن الدول الأطراف في المعاهدة توافق - بناء على الطلب الصريح الذي يصدر عن السلطان - على الاستجابة لطلبه وتتخذ الإجراءات لحماية عرشه من طريق التعاون الذي يتم بموافقة مشتركة من الدول الموقعة على المعاهدة ، وبذلك تسمح للضايق وكذلك باقي الأراضي العثمانية في تأمين من كل اعتداء . كما تفرد أن تظل قوات الدول المتحالفة مرابطة في موطنها طالما كان وجودها أمراً يطلبه السلطان العثماني . ونحن نرى الأخير أن وجود تلك القوات أصبح أمراً غير ضروري ، لأنها تتسحب في وقت واحد وتعود إلى موطنها الأصلي سواء في البحر الأسود أو البحر المتوسط (مادة ٣)

وورد في المعاهدة أيضاً أن التعاون للشترك بين الدول الموقعة عليها والمهادن إلى وضع اللضايق وإستانبول في تأمين من العدوان المصري بعد إجراء عسكرياً استثنائياً اتخذ في هذه الحالة الوحيدة بناء على طلب صريح من السلطان لصدقه . ومن المتفق عليه أن مثل هذا الإجراء لا يقتصر بأية درجة وعلى أي محور من النظام الذي حوج عليه المحكم في جميع الأوقات في الإمبراطورية العثمانية ، وبمقتضاه كانت تمنع السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية من عبور اللضايق . ونصت للمعاهدة على أنه فيما يتعلق بالحالة المشار إليها وهي مرابطة قوات الدول الموقعة عليها ، في اللضايق ،

لأن السلطان يعلن قبوله الثابت بأن يلتزم في المستقبل بهذا البدء الذي أوسيت
قواعده إرساء لاجتياز كنظام قديم ملوح عليه الحكم في الإمبراطورية العثمانية .
ومما لا شك الياب العالي في حالة سلم ، فإنه لا يسمح لأية ضحية حرية أجنبية
بدخول المضائق وعبورها . ومن ناحية أخرى فإن أباطرة وملاك الدول للوعدة
على المساعدة يتعهدون باحترام قرار السلطان والالتزام بهذا النداء (المادة الرابعة)

والحق بالمساعدة يرون كقول جاء به أن السلطان مع التزامه بمنع جميع السفن
الحربية الأجنبية من عبور المضائق في جميع الأوقات فإنه يحفظ لنفسه الحق في
إصدار تصاريح بالمرور عبر القردنيل واليوسفور للسفن الحربية الخفيفة للوضوعة
في خدمة السفارات والقنصليات التابعة للدول الصديقة ^(١) .

ووقعت بريطانيا والنمسا والروسيا في السابع عشر من سبتمبر بالمرح-
سنة ١٨٤٠ بروتوكول أطلق عليه بروتوكول انقضاء النرض Self- Denying
Protocol الحق بمساعدة لندن وقررت فيه هذه الدول الأربع - إذ لم تكن
فرنسا قد انضمت بعد إلى المساعدة - ألا يسمى أى منها للحصول على أراضي
أو الاستيلاء بقوذا أو النظر باعتبارات تجارية لها بما لها لم تحصل عليها كل دولة
أخرى على قدم المساواة ^(٢) .

(م) اتفاقية المضائق (١٨٤١) :

كأن اتفهم لرسا في الخامس عشر من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٤١ إلى
معامدة لندن البرمة في الخامس عشر من شهر يوليو - تموز - من السنة السابقة كتيلا

(١) عهد الحس الرسمي هذه المساعدة ن .

Harowitz, J.C: op. cit., vol. ٤, I, pp. 116-119.

وقد تم تبادل وثائق الصديق على هذه المساعدة في اثنى و١٧ من شهر - أيلول - ١٨٤٠ .

(٢) Thomas Erskine Holland, The European Concert
in the Eastern Question, Oxford, 1886, p. 97

عودة وحدة الصعب إلى الدول الأوروبية الكبرى فيما يختص بتسوية المسألة الشرقية. فلما انتهت الأزمة الشنتانية المصية توسلت الدول الكبرى الست - وهي الدولة الثانية وبريطانيا وفرنسا والبروسيا والنمسا وروسيا إلى عقد اتفاقية جماعية في الثالث عشر من شهر يوليو - عور - سنة ١٨٤١ ومن ثم أطلق عليها إتفاقية لندن بخصوص المضايق *Convention of London regarding the Straits* وقد أوسدت هذه الاتفاقية نظاماً للمضايق ظل مسولاً به بدون إدخال تعديلات جوهرية عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤. وتتم الاتفاقية في ثلاث مواد - نصت الأولى على أن السلطان، من ناحية، يعلن تصميمه الثابت على أن يلتزم في المستقبل بإبقاء المضايق مفتوحة من قبل ولم يقصر كنظام قديم في حكم الإمبراطورية، ويقتصد حرم في جميع الأوقات على كل السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية دخول المضايق، وأنه طالما كان الباب المالي في حالة سلم، فإن السلطان لن يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضايق - ومن ناحية أخرى يعلن بإطراء وسلوك الدول الموقعة على الاتفاقية أنهم يتعهدون باحترام تصميم السلطان وإلتزام هذا العهد - واحتفظ السلطان لنفسه في المادة الثانية بحق منع ترخيص بمرور السفن الحربية التابعة التي سوف تستخدم، وفقاً للعادة المتبعة، في خدمة السفارات والمصالحات التابعة للدول الأجنبية. والتزم السلطان في المادة الثالثة بتجليخ هذه الاتفاقية إلى جميع الدول التي تربطه بها علاقات صداقة يدعوهم إلى الموافقة عليها^(١). وكانت هذه الاتفاقية الدولية الجماعية تسمى نصاً

(١) نوردنيس ترسي لهذه الاتفاقية و

Harewitz. J.C.; op. cit., p. 11, p. 128

انظر أيضاً كلاسي :

Goriskow, S.; Le Bosphore, chap. 10.

Philipson, C. and Buxton N.; The Bosphorus, part 2, chap 4.

Webster, C.; The Foreign Policy of Palmerston (1830-1841), vol 2, pp. 768-787.

Mischief, P.H.; La Mer Noire, chap. 5

Shotwell, J.T. and Deak F; Turkey at the Straits, chap 4

وروداً مع السياسة العليا للدولة الثنائية فيما يخص سيادتها على المضائق .
واكتسبت الدولة الثنائية قوة دولية يستشارك حتى دول أوروبا كبرى معها في
تكرير حق الباب المثل في خلق للمضائق في وجه السفن الحربية الأجنبية . وتستعير
هذه الاتفاقية نمراً الدبلوماسية البريطانية ، لأنها — أي الاتفاقية — قد ألنت
سدياً معاهدة هنكغار أسكسلي التي كانت تغطي روسيا امجيازاً عسكرياً خطيراً
انحدت به دون سائر الدول ، فوكلت هذه الاتفاقية الجماعية سداً مقيماً في وجه
الأطباع الروسية التي كانت توى إلى تحقيق نوع من السيطرة العسكرية على
المضائق والاستيلاء على إستانبول في نهاية المطاف ، سواء بالاشتراك مع الدولة
الثنائية في الدخول عن المضائق أو ببيور أسطولها الحربي اليوسفور والدرديل .

(ن) معاهدة بين الدولة الثنائية وبريطانيا وفرنسا لتقديم مساعدات

حربية دفاعاً عن المضائق (١٨٥٤) :

ولما اندلعت حرب القرم بين الدولة الثنائية وروسيا في سنة ١٨٥٣
استطاع الأسطول الروسي في ٣٠ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٨٥٣
تدمير قوة بحرية عثمانية كلفت داسية تحاه سهوب Siope — وهي ميناء عثاني
على الساحل الجنوبي للبحر الأسود — وألحقت هذه الكارثة فاسلة من السخط
في أوساط الرأي العام في إنجلترا ضد روسيا ، وأطلق الشعب الإنجليزي على
هذه الواقعة : مذبحه سيجوب Massacre of Siope ، وقامت مظاهرات
في إستانبول تطالب بالتأثر من روسيا . وكانت الحكومتان البريطانية والفرنسية

قد أمرنا في ٤ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عندما تدهور الموقف بين الدولة العثمانية والروسيا - الأسطولين البريطاني والفرنسي بالتحرك نحو خليج بيريكيا Bdrick خضارج القردنيسل ليكونا على مقربة من مسرح الأحداث . وأدنت الحكومة العثمانية للأسطولين في اجتياز منطقة المضائق بصفتهما قوات طليعة تحف إلى جانب الدولة ضد الروسيا والتي كانت قد قامت بمحاولات على بعض ممتلكاتها واحتلت ولايتي الدانوب والألاق والبغداد - وأظهر الشعب التركي العثماني مظاهر الابتهاج بوصول وحدات من الأسطولين البريطاني والفرنسي واستقبلهما على صفاف اليوسفور استقبالا حاريا . وترتب على معركة سيوبوب أن تدخل الأسطولاا البريطاني والفرنسي البحر الأسود في ٤ من شهر يناير كانون ثان - عام ١٨٥٤^(١) واشتعلت الحرب في شهر مارس - آذار - عام ١٨٥٤ بين الروسيا من ناحية والدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا ثم مملكة صربيا أو يديمنت فيما بعد من ناحية أخرى (٢) .

وفي الثاني عشر من شهر مارس عام ١٨٥٤ عقدت معاهدة ثلاثية قامت على تحالف بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا أطلق عليها معاهدة من أجل المساعدة البحرية لتياب العالي Treaty of Military Aid to the Sublime Porte جاء فيها أن ملكة بريطانيا وإمبراطور روسيا قد استجابا لطلب الدولتين

(١) تذكر بعض المراجع أن الأسطولين البريطانيين والفرنسيين دخلوا البحر الأسود في نهاية أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٥٣ .

(٢) انظر تفاصيل الاتصالات الدبلوماسية للتكهن بين الدول الكبرى ، ثم مذكرات المفجورة التي حوت باسم القطر الأربع ، وهي المذكرة التي وجهت دبلوماسية حرب القرم وكان من بين هذه القطر وأهمها القضية القلبيية وهي إعلنة النظر في اتفاقية المضائق لعام ١٨٤١ من أجل حفظ وتعقب تولد القوي وأوروبا بصفة من تفوق الروسيا البحرية في البحر الأسود . ثم اجتياح مؤتمر فيينا في ١٥ من مارس - آذار - عام ١٨٥٥ في أثناء الحرب .

انظر هذه التفصيلات وغيرها في كل من :

Miller W ; op. cit., pp. 199-242.

ذكره محمد حنفي صفوت : السالة الشرقية ومؤتمر باريس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١ - ٢٩ .

(٣ - ١٥ - الدولة العثمانية) .

مساعدته لصعد المدوان الرومي الذي هدد سلامة الإمبراطورية العثمانية ، وأنهما قد أمرا قواتهما البحرية بالتقدم نحو إستانبول ، وقواتهما البرية للضغط عن الأراضي العثمانية في أوروبا وفي آسيا ضد هذا المدوان (المادة الأولى) . وقررت المعاهدة أنه حالما يتحقق حذف المعاهدة يلزمزال الأرمية بالقوات الروسية وعقد الصلح ، فإن ملكة بريطانيا وإمبراطور روسيا يتخلدن التدابير للانسحاب القوي ، لقواتها البحرية والبرية التي اشتركت في الحرب . وحدثت المعاهدة لجلاء القوات البريطانية والفرنسية فترة أربعين يوماً أو أقل من ذلك إذا كان ممكناً من تاريخ التصديق على معاهدة الصلح مع الروسيا (١).

(ص) معاهدة باريس ١٨٥٦ ومشكلة المضايق والبحر الأسود :

أمرت حرب القرم حد سقوط سيستبول في ٨ من سبتمبر أيلول ١٨٥٥ في يد الحلفاء ، وكانت إمكة مرديبا قد انصمت إليهم ، عن معاهدة باريس في الثلاثين من شهر مارس - آذار - عام ١٨٥٦ . وبهذا في هذه الدراسة المواد المتعلقة بالمضايق والبحر الأسود .

أكدت معاهدة باريس المبدأ التقيدي ، وهو منع السفن الحربية الأجنبية من المرور في المضايق . وقالت إن الدولة العثمانية لا تعيد عن هذا المبدأ ، وإن اتفاقية المضايق التي عقدت في ١٣ من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٤٦ والتي تؤكد هذا المبدأ تقرها الدول الموقفة على معاهدة باريس وتعتبرها من ملاحق هذه المعاهدة ، ولها نفس القوة والمتروعية ، ولها تشكل جزءاً لا يتصلص عن المعاهدة (المادة العاشرة) . وهكذا أكدت معاهدة باريس السياسة العليا للدولة العثمانية فيما يخص بالمضايق . وكانت المادة العاشرة من تلك المعاهدة نصراً للدولة .

(١) محمد الفس قريشي لمد المصلحة :

Hurewitz J.C. ; op cit, vol I , pp 144-145

وهذا تم تبادل وتلقى التصديق على المعاهدة في إستنبول في الخامس من شهر مايو - آيار عام ١٨٥٤ .

وقررت المعاهدة أيضاً أن يكون البحر الأسود بحراً محايداً في مياهه وموانئه وممراتها للبحر التجارية التابعة لجميع دول العالم ، ولكن تظل مياهه وموانئه رسمياً وإلى الأبد منطقة محرمة على السفن الحربية سواء من الدول التي لها سواحل تطل عليه أو لا تطل عليه فيما عدا استثناءين وردا في المادتين رقم ١٤ ورقم ١٩ من معاهدة باريس (المادة الحادية عشرة) . ونصت المعاهدة على الاتفاقات عوائق أمام التجارة في موانئ ومياه البحر الأسود وعلى ألا تخضع هذه الموانئ والمياه إلا للقوانين الصحية والعادات ونظم الشرطة التي توضع بروح تهدف نحو المعاملات التجارية ، ولكن بتوفر الأمان المطلوب أمام المصالح التجارية والبحرية لكل الدول ، تسمح الدولة العثمانية والروسيا بتعريف قناصل للدول الأجنبية في الموانئ الواقعة على سواحل البحر الأسود في النطاق الذي يميزه قواعدها القانون الدولي العام (المادة الثانية عشرة) . وقالت معاهدة باريس أيضاً إن إنشاء ترسانات بحرية حربية على سواحل البحر الأسود أو الإبقاء على الموجود منها يصبح أمراً لا مبرر له تأسيساً على حيلة البحر الأسود . وبناء على ذلك تعهدت الدولة العثمانية والروسيا بعدم إنشاء أو إبقاء أية ترسانات بحرية عسكرية على سواحل هذا البحر (المادة الثالثة عشرة) (١) وهكذا حافظت معاهدة باريس إلى حد كبير على السياسة العليا للدولة العثمانية حين جمعت البحر الأسود منطقة محرمة على السفن الحربية التابعة لجميع الدول بما فيها الروسية.

(ج) اتفاقية جماعية خاصة بالمضايق عام ١٨٥٦ :

وفي ذات اليوم التي أبرمت فيه معاهدة باريس (٣٠ مارس - آذار - عام ١٨٥٦) عجلت اتفاقية خاصة بالمضايق وقعتها جميع الدول الأحراف في معاهدة باريس ، وجاء فيها أن السلطان يعلن عن حرمة الثابت على التمسك في قابل الأيام بالمبدأ الذي أرسيت قواعده وهو مبدأ غير قابل للتغيير ، وهو مبدأ خاص بالنظام الذي جرى عليه العمل في حكم الإمبراطورية

(١) مجلة المراسم الخاصة بالمطبعة :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. I, pp. 153-156

وقد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة في باريس في ٢٧ من أبريل - نيسان - ١٨٥٦

الثانية ، ومقتضاه منعت في جميع الأوقات السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية من عبور المضائق ، وأنه طالما كان الباب العالي في حالة سلم فإنه لن يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضائق . ومن ناحية أخرى فإن جميع الدول الموقعة على معاهدة باريس تتعهد باحترام هذا القرار من جانب السultan وبالاتزام هذا المبدأ (المادة الأولى) . وقد استبقى السلطان في هذه الاتفاقية حق الاستثنائي القديم في السماح بمرور المراكب الحربية الحربية الموصوفة في حلة السمات والتفصيلات (المادة الثانية) واستحدثت الاتفاقية استثناء آخر خاصاً بالسفن الحربية الأجنبية التابعة للدول الموقعة عن معاهدة باريس والمسوح لكل منها بالمراطة في مصاب نهر الدانوب في البحر الأسود ضماناً لتنفيذ الواجبات الموصوفة لكفالة حرية الملاحة في هذه النهر بحيث لا يريد عدد هذه السفن من اثنين لكل دولة (المادة الثالثة)^(١) وقد ألحقت هذه الاتفاقية بمعاهدة باريس .

(ب) اتفاقية ثالثة بين الدولة العثمانية والروسيا تحدد القوات البحرية لكل منها في البحر الأسود (١٨٥٦) .

وعقدت في ذات اليوم أيضاً اتفاقية ثنائية بين الدول العثمانية والروسيا تحدد القوات البحرية التي تحتفظ بها كل منهما في البحر الأسود لمدة سواطها المطل عليه بحيث لا تتجاوز أية دولة منها العدد المقرر للمخيفة وقوتها وحجمها وحولتها وعدد أفرادها وهي تفاصيل حددتها المادة الثانية من الاتفاقية^(٢) . وقد تقرر إلحاق هذه الاتفاقية بمعاهدة باريس على أن تكون هذه الاتفاقية نفس القوة ونفس المشرعية وتعتبر جزءاً لا يتجزأ من المعاهدة . وتأسيساً على هذا الوضع القانوني لهذه الاتفاقية الثنائية العثمانية الروسية ، تقرر عدم إلغائها أو تعديلها بدون موافقة الدول الأطراف في معاهدة باريس (المادة الرابعة عشرة) .

(١) تجد من هذه الاتفاقية في

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. I, p. 156

Loc. cit.

(٢)

(ص) معاهدة جنافة لضمان تنفيذ أحكام معاهدة باريس ١٨٥٦

ورغبة في إضفاء مزيد من الضمانات لتنفيذ أحكام معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ، ورغبة في تمهيد كل أمل قد راود روسيا في تعليل أو إلغاء أو تجاهل المواد الخاصة بالمضائق وتمهيد البحر الأسود ، وقعت الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا وألمانيا معاهدة في الخامس عشر من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٨٥٦ جاء فيها أن الدول الثلاث تضمن استقلال وسلامة الإمبراطورية العثمانية ، وأن كل إخلال بأية مادة من مواد معاهدة باريس يكون سبباً للحرب *Casus Belli* . وفي هذه الحال تمتع الدول الثلاث مع الدولة العثمانية على الإجراءات التي ترى هذه الدول الأربع أنها ضرورية لاستغلال قواتها البرية والبحرية (١) .

(ق) معاهدة لندن (١٨٧١) لتعديل أحكام معاهدة باريس بخصوص المضائق والبحر الأسود .

وقد تحققت مخاوف الدول الكبرى من نبات روسيا بحر مسألة المضائق والبحر الأسود . فقد انتبه إسكندر الثاني قيصر روسيا (١٨٥٥ - ١٨٨١) فرصة اندلاع الحرب السجوية بين فرنسا وبروسيا ، وتحرك دبلوماسياً ، وطالب الدول الكبرى بتعديل التصور التي وردت في معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ والخاصة بمسألة المضائق والبحر الأسود . وكان هذا القيصر يعتبر ماورد بشأن هذه المسألة في تلك المعاهدة وصمة عار في تاريخ بلاده . واختار لتحركة الدبلوماسية وقتاً عصياً ، إذ كانت الأعصاب مشدودة لتطور الموقف العسكري والسياسي في أوروبا وعجز فرنسا المخرجة وتلك من الانضمام إلى بريطانيا أو غيرها من الدول في وجه روسيا . فقدم إلى الدول الكبرى المقترحة على معاهدة باريس بمذكرة مؤرخة في ٣١ من أكتوبر

(١) تجد نص هذه المعاهدة في :

Hurewitz J.C. ; op. cit. t. I, p. 156

وقد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة في باريس في ٢٩ أبريل - نيسان - ١٨٥٦ .

تشرين أول - ١٨٧٠ وأردفها بأخرى مؤرخة في أول نوفمبر - تشرين ثلث - ١٨٧٠ (١) قرر فيها أن معاهدة باريس قد وضعت الروسية في مركز مهيمن بالنسبة لبقية الدول الأطراف في هذه المعاهدة ، وهو الثالث يرى بمسح مصطراً لأن يجبر لفضه أن يعلن أن الاتفاقية التي تمخضت عنها وحجم ودعوة الدول الحربية التي يكون للدولة العثمانية وروسيا الحق في الإحسان بها في البحر الأسود وهي الاتفاقية الموقعة بمعاهدة باريس والتي أشرنا إليها من قبل تحت بند ف - أصبحت غير ذات موضوع . وكان هذا التصرف الروسي وقع مهيمن الغاية في الآثار البريطانية التي اجتهدت لتعرف القيصير إهداراً لمبدأ احترام المعاهدات الدولية وعلا أفراداً من جانبها . وتدخل بيمارك المستشار الألمان ، واقترح عقد مؤتمر دولي لإعادة النظر في النصوص الخاصة بمسألة المضائق والبحر الأسود . وكان بيمارك يريد مكافأة روسيا لأنها ألزمت الحليمة في أثناء الحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا . وانصاعت بريطانيا لرأي المستشار الألماني (٢) . وعقد مؤتمر في لندن في المدة من ١٧ يناير - كانون ثلث - إلى ١٣ مارس - آذار - سنة ١٨٧١ أسفر عن عقد معاهدة جامعة من الدول الكبرى في الثالث عشر من شهر مارس - آذار ١٨٧١ عرفت باسم معاهدة لندن وتقرر فيها إلغاء النصوص الخاصة بحرية البحر الأسود والمواد ١١ ، ١٣ ، ١٤ والتي سبق أن سطنا مضمونها عند تعرضنا لمعاهدة باريس ، كما ألغيت الاتفاقية الخاصة بتحديد القنات البحرية للدولتين في البحر الأسود . وحلت النصوص الآتية محل المواد المألغة والاتفاقية الثنائية الممناء

تقرر في معاهدة لندن لسنة ١٨٧١ أن يظل نافلاً مبدأ غلق المضائق محل التصحر الذي كان مقرراً في الاتفاقية الممنوعة والمعقدة و ٣٠ مارس آذار - ١٨٥٦ ، وتحويل السلطان العثماني الحق في فتح المضائق في أوقات السلم أمام السفن الحربية التابعة للدول الصديقة والمحايدة في حالة إد رآى الباب

Sir Edward Hertslet , Map of Europe, vol. 3 pp. 1893-1897 (١)

Shotwell J.T and Deak . , Turkey at the Straits, chap. 6 (٢)

المثل أن مرور مثل هذه السفن في المضائق أمر يضمن تنفيذ أحكام معاهدة باريس (المادة ٢) ، كما نصت المعاهدة على أن يظل البحر الأسود بحراً مفتوحاً أمام التجارة البحرية لجميع الشعوب (المادة ٣) ، وقررت المعاهدة أن للنول الأطراف فيها تجدد وتؤكد كل الشروط الواردة في معاهدة باريس الموقعة في ٣٠ من مارس - آذار ١٨٥٦ وكذلك ملاحظتها التي لم يسمح بها لإنهاء أو تعديل في المعاهدة الجديدة ١ (المادة) .

(ر) معاهدة برلين (١٨٧٨) .

أيدت معاهدة برلين التي عقدت في الثالث عشر من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٧٨ النصوص التي لم تعرض للإلغاء أو التعديل في معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ وفي معاهدة لندن لسنة ١٨٧١ (٢) وعلى ذلك لم تأت معاهدة برلين بجديد على نظام عبور البحر المتوسط والبحرية والملاحة في البحر الأسود . وظلت أحكام معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ومعاهدة لندن لسنة ١٨٧١ تحكم نظام العبور والملاحة . وسارت الأمور سيراً عادياً حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، فلم تقع سوى محادثات قليلة للنظم المقررة حين مرت في المضائق سفن روسية في أثناء للحرب الروسية اليابانية في سنة ١٩٠٤ ، وكانت في طريقها من البحر الأسود إلى البحر المتوسط لتجتاز قناة السويس . وكانت هذه السفن الروسية تحمل العلم التجاري الروسي على الرغم من أنها كانت تحمل قوات وذخائر وأسلحة (٣) . وحدث أيضاً أن قامت السلطات الألمانية ببث الألغام في مياه المضائق في أثناء الفتور الإبائلي لولايتي بركة وطرابلس في سنة ١٩١١ فتعطل المرور في المضائق . وكان سببها في عارضة

(١) تجد نص للمعاهدة في :

Hurewitz J.C., op. cit. L.I. pp. 173-174

وقد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة في لندن في ١٥ مايو - أيار سنة

١٨٧١ .

(٢) دكتور محمود سامي جنيح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣) دكتور جيه الله وشرفان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٢ .

هنا الإجراء الحربي حق الدفاع عن النفس ورغبتها في الحيولة دون مرور
لديهن الحرية الإيطالية في منطقة المضائق (١) .

الروسيا تسمى إلى احتلال المضائق :

حاولت الروسية قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ببضعة أشهر خلق
حالة دولية خطيرة تنجح لها احتلال اليوسفور والدرديل . وفي ٢١ من فبراير
سبباط - سنة ١٩١٤ عقد لاجتماع هام للغاية في سان بطرسبرج برئاسة قيصر
الروسيا حضره قادة الجيش والأسطول وكبار رجال السياسة لبحث مشكلة
المضائق (٢) . وانتهوا في هذا الاجتماع إلى أنه يجدر بالحكومة الروسية أن تتخذ
الإجراءات لضمان سيطرتها العسكرية على اليوسفور والدرديل ، وألا يكون
أسلوبها في العمل ليلوغ هذه الغاية هو طريق الصراع الحربي للملح المحصور
بينها وبين الدولة العثمانية ، وإنما يتعين عليها إثارة أزمة سياسية مع الأتراك
واللهي لتصعيد هذه الأزمة حتى تنتقل إلى حرب أوروبية تتخذها الروسية
دعوى لإرسال قواتها المسلحة لاحتلال اليوسفور والدرديل وفي وقت مبكر
بحيث يكون في يدها زمام المبادرة ووضع الأتراك والدول الأوروبية أمام
الأمر الواقع . وكان هناك رأي يقول إنه يجب بصفة مؤقتة خلق جو سياسي
موات للقيام بأي عمل يؤدي إلى احتلال المضائق .

وكذلك كتب السفير الفرنسي في إستانبول إلى حكومته يقول إن
قيصر روسيا يرى أنه يجب إعادة فتح المضائق حتى لو أدى الأمر إلى
استخدام القوة (٣) . وكان قيصر روسيا يملأ أغلب الآمال على فرنسا
في مصلحته على الوصول إلى اتفاق وثيق مع بريطانيا . ومن المعروف
أن هذه الدول الثلاث : بريطانيا وفرنسا والروسيا كانت تتآلف فيما بينها

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

Montgulas M., The Case for the Central Powers. 1925, (٢)
pp. 94-95

Documents Diplomatiques Français. (1871-1914). (٣)
3ème Serie ; vol. X, p. 200 .

الموقف الثلاثي في مواجهة التحالف الثلاثي الذي كان قوامه ألمانيا والنمسا وإيطاليا .

وقد حال دون تنفيذ الخطط الروسية لاحتلال البوسفور والدردنيل سير إدوارد جراي Sir Edward Grey وزير الخارجية البريطانية الذي لم يكن يفكر في ذلك الوقت في استخدام القوة في أي مكان لو في عقد اتفاق جديد مع روسيا يزيد الموقف الدولي حساسية . وكان شديد الإيمان بفكرته في عقد مؤتمر أوروبي لتسوية المشكلات الدولية . فهذه الطريقة هي المثلى في حل الأزمات ، واعتقد أنها هي التي أبعدت شبح الحرب من أوروبا في سنة ١٩١٣ (١) .

بريطانيا توافق على استيلاء روسيا على إستانبول والمضائق :

في أثناء حملة الدردنيل في سنة ١٩١٥ ، وستحكم فيها في الفقرة التالية ، رأت بريطانيا أن تقدم وعداً لروسيا ، بصفتها حليفة لها في الحرب العالمية الأولى ، بالموافقة على استيلائها على مدينة إستانبول والساحل الأوروبي لمنطقة المضائق ومجموعات من الجزائر المتأثرة في هذه المنطقة . وجاء ذلك الوعد وهذه الموافقة في اتفاق عرف باسم اتفاق إستانبول بين روسيا وبريطانيا وفرنسا (٤ من مارس - آذار - أبريل - نيسان - ١٩١٥) ولم يأخذ هذا الاتفاق من الناحية الشكلية الصيغة المتعارف عليها للمعاهدة ، بل هو يتلخص تحت الترخيص الذي يعرف في القانون الدولي بالصام باسم الاتفاقات الدولية في الشكل المبسط (٢) *Traité en forme simplifiée* . وقد جاء هذا الاتفاق في صورة مذكرات متبادلة بين سان بطرسبرج ولندن

(١) Grant A.J. and Harold Temperley ; op. cit., p. 382.

(٢) يقتضيه بها الاتفاقات الدولية التي تمتد بين دولتين أو أكثر في صورة تبادل مذكرات لمبجل فيها ما تم الاتفاق عليه من غير حاجة إلى إبراء التصديق عليها أو لاستثناء من العمل وليس الفقرة في زواياها . وهذه الوسيلة فيها السرعة والبساطة وتلجأ إليها بعض الدول لإبرام الاتفاقات

وباريس خلال فترة امتدت خمسة أسابيع . وقام ديمترييفتش سazonov
Dmitriyevich Sazonov وزير الخارجية الروسية بوضع الصياغة النهائية
للمذكرات المتبادلة ، واشترك معه السفيران البريطاني والفرنسي في
سان بطرسبرج في المدة من ١٩ من فبراير - شباط - إلى ٤ من مارس -
آذار - سنة ١٩١٥ وبجل فيها رغبات الحكومة القيصريّة . وكانت تنحصر
في ضم إستانبول والمصابق عند انتهاء الحرب العالميّة بانتصار بريطانيا وحليمتها
وإبرام ما سمي اتفاق الانتصار Entente Victory وقد جاء في المذكره
الروسية ما يلي :

« إن جرى الحوادث الأخيرة جعلت حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور
تقولاً يعتقد أن مسألتى إستانبول والمصابق يجب أن تحلأ بصفة نهائية طبقاً
للأمانى الروسية .

١ وإن أية تسوية تكون ناقصة وقاصرة وغير مستقرة إذا لم تندمج في
الإمبراطورية الروسية كل من مدينة إستانبول والمصالح الغربيّة لبوسفور وبحر
مرمرة والتوريديل وكذلك ترابها الجبلية .

« وإن المصالح الخاصة بفرنسا وبريطانيا العظمى في الإقليم المذكور أعلاه
ستحترم بشدة زائلة

« وإن الحكومة الإمبراطورية يحملها الأمل في أن الحكومتين الحبيبتين
سوف تتفان بعطف الاعتبارات السابقة » . ومضت المذكره الروسية تؤكد
لحكومتى فرنسا وبريطانيا قيام تفاهم مماثل من جانبها من أجل تحقيق خطط
قد تضعها الحكومات الثلاث بالنسبة لأقاليم أخرى من أقاليم الإمبراطورية
العثمانية أو أقاليم أخرى في جهات أخرى في العالم . وجاء الرد بموافقة الحكومتين
الفرنسية والبريطانية على المذكره الروسية (١) .

(١) بلغ عدد المذكرات التي تبودلت بين سان بطرسبرج وباريس وثلاث نسخ مذكورات
وتجهت حسب في

وبلاحظ أن بريطانيا عواقبتها على أن تأخذ روسيا كلا من إستانبول
والصليق عند نصيبه الإمبراطورية العثمانية قد أقلمت على تغيير جلوس في
سياستها الخارجية . فقد وقعت بريطانيا في وجه روسيا أكثر من قريب
تحول دون استيلائها على إستانبول ومنطقة المضائق . وكان الدفع لبريطانيا
على هذا التغير الجوهرى هو رعبها في شد أزر الروسيا ورمع روحها
المعوية بعد الهزائم المذكورة التي أنزلتها بها القوات الألمانية في تاننبرج
Tannenberg (٢٥-٣١ من أغسطس-سبتمبر ١٩١٤) ثم عند البحيرات
الماسورية Masurian Lakes (٨-١٥ سبتمبر-أيلول-سنة ١٩١٤) . وكانت
هاتان الموقعتان من أعظم المعارك التي انتصرت فيها ألمانيا في الحرب
العالمية الأولى ونجحت فيها البحرية العسكرية الألمانية بفضل القائد الألماني الفذ
البحر هيندبرج Hindenberg ورئيس أركانها لودفلوف Lodiendorf .
وهكذا كانت رغبة بريطانيا في تشجيع الروسيا على مواصلة الحرب وعدم
إنهاء السلاح هي السبب الأول في عقد اتفاق إستانبول . كما كانت هذه الرغبة
ذاتها في مقعدة أسباب حلة للردنيل .

حلة الردنيل سنة ١٩١٥ :

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى في مطلع شهر أغسطس - آب -
سنة ١٩١٤ ودخلتها الدولة التركية (العثمانية) في الخامس من شهر نوفمبر -
تشرين ثان - في ذات السنة إلى جانب دولي الوسط - ألمانيا وإيطاليا والمجر -
قامت السلطات التركية بفتح حقول خفية من الألغام البحرية في مياه المضائق .

= وهذا الاتفاق غير الاعتراف المعروف باسم سايكس بيكو وللعدد بين بريطانيا وفرنسا
والروسيا ولقد في ٢٦ أبريل - نيسان - إلى ٢٣ أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩١٦ وأعطى
أيضا صورة مذكرات - ذلك بلغ حددا إجماعا حذره مذكور ونجدد لطلب الروسيا في
الأنامية العثمانية الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية من الأناضول . وكان من بين الجهات التي نصت
عليها أوسلوم ، وطرابزون ، وفان ، وبطليس إلى نقطة محددة بها على ساحل البحر الأسود
عرب طرابزون ، ثم منظم إقليم كردستان . وعضد الحكومتين الروسيتين بطوني وبنا يمتص
بالسلاح البحري الكبير في البحر الأسود وأبدت رغبتهما في بحث هذا الموضوع بطريقة ودية
فيها بعد ممرات حكومات الأطراف المختصة .

وكانت الشائعات قد استغاثت بحرب هجوم بريطانيا وحليفاتها على النرويج
والهولنديين واحتلال إستونيا . ولم تلبث أن تحققت هذه الشائعات في ذات
الشهر الذي دخلت فيه تركيا الحرب .

بواحد حملة النرويج : .

في الحرب العالمية الأولى وفي مستهل دورها الثاني (سبتمبر - أيلول -
سنة ١٩١٤ - مارس - آذار - سنة ١٩١٨) (١)، وبينما كان موقف روسيا
الحربي يراد حلاً حاسماً ، وأتت بريطانيا لإرسال حملة تحتل النرويج والهولنديين
لتفتح الطريق أمام الأساطيل البريطانية والفردية إلى البحر الأسود ، لأن
منطقة المضائق كانت تفصل بريطانيا وفرنسا عن روسيا وتحول دون إمدادها
بالذخائر والأسلحة التي كانت في أمس الحاجة إليها ، لأن روسيا كانت
قد استنفدت احتياطيها من الذخائر ، ولم يكن في مقدورها أن تلبى سوى
ثلث حاجياتها اليومية من الذخائر التي تفتجها مصافها من الذخائر ، على
الرغم من أنها كانت تملك قوات لا حصر لها من الرجال . وكانت بريطانيا
تخشى أن تضطر روسيا إلى الخروج من الحرب لتقص الذخائر لديها . فإذا
نجحت بريطانيا وحليفاتها في بسط سيطرتها العسكرية على النرويج والهولنديين
كأن في استطاعتها إرسال الذخائر والأسلحة والذخائر البحرية في جميع فصول
الشتاء إلى روسيا لشدة أضرار القوات الروسية وهي تعاني أشد الأذى من الحصار
الألماني ، كما ترفع الروح المعنوية لدى الشعب الروسي ، وكانت بريطانيا
قد وعدت روسيا بإستونيا وروس اليوسفور هدية لها . ولذلك خلقت

(١) يمتد السكروين رأياً على تقسيم هذه الحرب إلى ثلاثة أعمار

الدور الأول : من أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ إلى ديسمبر - أيلول - من ذات السنة ،
وقد فيه الهجوم الألماني الذي أوقف عند جسر الممر ، وأصل بريطانيا للفرصة لتنظيم المقاومة .
الدور الثاني : من ديسمبر - أيلول - ١٩١٤ إلى مارس - آذار - ١٩١٨ ويضم حرب
الشتاء ، ولم يفر من نتيجة سامة

الدور الثالث . وهو أحدث سنة ١٩١٨ وقد بدأ هجوم ألمانيا والتي بارتمها هي
وحليفاتها في كل الميادين .

الروسيا اعلمت الآمال على حملة اللوردنيل ، لأن أي كسب عسكري يمرره قواتها بتضائل أمام استيلائها على هذه العاصمة الثمينة . وكان استيلائها عليها يعد تعويضاً عن خسارتها الفادحة في البحيرات الماسورية وفي بولندا وفي غاليسيا . يضاف إلى هذه الاعتبارات أن نجاح حملة اللوردنيل يجعل في متناول بريطانيا وحليفتها الحاصلات الوفيرة من القمح وغيره من مواد التموين التي تنتجها الأقاليم الجنوبية في الروسية . وكان رسو أسطول بريطانيا في مياه اللوردنيل واليوسفور كميلاً بشطر الجيش التركي شطرين وفتح الطريق إلى نهر اللاتوب . وكانت بريطانيا وحليفتها ترسى أيضاً أن تكون حملة اللوردنيل حافزاً لليونان ورومانيا على الانضمام إلى المعسكر البريطاني وإلحاق المريعة سفاري وتشجيع الحرب على القيام بثورة ضد الأتراك بما يؤدي في النهاية إلى تطعيم الدولة الثمانية تحليماً تاماً .

هذه بإيجاز شديد بواعث الحملة العسكرية التي أطلق عليها حملة اللوردنيل وقد اختلعت فيها البواعث العسكرية والديبلوماسية .

فشل التحام مضيق اللوردنيل بحرقاً :

في أوائل شهر نوفمبر تشرين ثالث سنة ١٩١٤ اقترحت بضع ملحات بريطانية من مياه اللوردنيل وألقت فتابلها على بعض الاستحكامات العسكرية الألمانية القائمة في هذه المنطقة . وقيل إن هذا الإجراء الحربي كان بمثابة جرس النبض لمعرفة مدى استعداد الأتراك للدفاع عن منطقة المضائق . ومن المعروف أن مضيق اللوردنيل هو أول مضيق تقابله السفن القادمة من البحر المتوسط والمتجهة إلى البحر الأسود ، فكان عليها أن تمر اللوردنيل ، ثم بحر مرمره ، ثم اليوسفور ، ثم تدلف إلى البحر الأسود . ومما يكن من أمر ، فقد وقف الأتراك موقفًا سيئاً من هذه الحركة الاستطلاعية التي قام بها الأسطول البريطاني . وقد تكون هذه الدلية أمراً مقصوداً أريد به استتراج الأسطول إلى داخل مضيق اللوردنيل حتى يدخل ضربه وتطعيمه من الضعفين . وقد عادت هذه الحركة الاستطلاعية بالضرورة على بريطانيا بقليل ما عادت به من النفع على الدولة الثمانية . كانت مثل هذه الحملة تتطلب السرية التامة حتى

يتوفر لها عنصر المفاجأة . وهو عنصر هام في إحراز النصر . ولكن الأراك
عصروا بما لا يدع مجالاً للشك أن بريطانيا وحليقاتها تمتاز اقتحام الدردنيل
كقاعدة لاحتلال بقية منطقة المضائق ، ومن ثم استعملوا استعداداً واسعاً لصد
هذا الغزو .

كانت نتيجة الحركة الاستطلاعية مشجعة لبريطانيا على المضي في إعداد
الحملة البحرية . فوجهت قوات عظيمة من الأسطول إلى الدردنيل في يناير -
كانون ثان - سنة ١٩١٥ منذ انقضاء شهرين أو أكثر من شهرين من الحركة
الاستطلاعية . وكانت الحملة تتطلب أيضاً سرعة التنفيذ بحساب السرعة التامة .
والصحيح أن هذين العنصرين لم يكونا متوفرين . واستتوفى الضرب مرة ثانية
في أواخر فبراير - شباط - وفي ١٨ من مارس - آذار قام الأسطول البريطاني
بإقتحام مصيبي الدردنيل ، ولكن أخفق الأسطول إخماتاً دريماً ، إذ أصيب
بأضرار جسيمة بسبب انفجار حقل حبي من الألغام في مياه الدردنيل . وكان
هذا الإخفاق أصعب وأسوأ وبمعدة في أرجاء العالم سواء في دوائر بريطانيا
وحليقاتها أو في دوائر دول الوسط . ولم تحاول بريطانيا اقتحام
الدردنيل بحرية مرة ثانية ، وهو أمر انتقده البحريون بعد ذلك .

إخفاق اقتحام منطقة الدردنيل برية :

وأمام هذا الفشل البحري المتلاحق الذي مني به الأسطول البريطاني في
إقتحام مصيبي الدردنيل ، رأت بريطانيا وحليقاتها تعزيز الهجوم البحري على
الدردنيل بهجوم بري . على أن يكون دور القوات البرية هو الدور الأساسي ،
وأن يكون دور الأسطول مقصوراً على إمداد القوات البرية بما تحتاج إليه من
مواد تموينية وأسلحة ودخائر ومساعدتها في التزول إلى البر وحماية المنقط أو
المواقع البرية التي تترك فيها . وكانت القوات البريطانية البرية يتألف معظمها
من جنود إسرائيليين ونيوزيلنديين ، وكان معروفاً عنهم أنهم محاربون ذوو
بأس شديد . وكانت هذه القوات بقيادة سير إيان هاميلتون Sir Ian Hamilton ،

كما عززت بقوة برية فرنسية يقودها الجنرال جورو G. Gouraud

وصلت القوات البرية في شهر أبريل - نيسان - ١٩١٥ ، ووقع اختيارها

عن بعض نقاط قليلة في شبه جزيرة غاليلوى للزول فيها . ولما تكامل عددها بدأ زولها تحت مارك حاصده في ٢٥ من ذات الشهر بعد أن أضاعت وقتاً طويلاً وثمناً كان زولها في شبه جزيرة غاليلوى سبياً في إطلاق بعض المراجع عن هذه الحملة اسم حملة شبه جزيرة غاليلوى ولكن الاسم السالب عليها هو حملة الدردنيل ، لأن الاسم الأخير يشمل هجوم القوات البرية والبحرية على منطقة المصايق . ويقرر الحبراء العسكريون أن القيادة البريطانية القومية قد أحطت في اختيار المناطق التي نزلت فيها ، لأن أرض هذه المناطق تنحدر تدريجياً نحو ساحل البحر مما كفل للأتراك المهاجمين عنها مواقع صالحة لأصطياد المهاجمين البريطانيين والقوميين بمجرد محاولتهم التقدم من الساحل نحو الداخل . وكان الأتراك والألمان قد أكلوا استمدادهم لمواجهة زول البريطانيين والقوميين . وقد لقيت القوات البرية المهاجمة صلالة وشدة وبسالة من الأتراك .

وبينما كان القتال يدور في ضلوة بالغة أحرر الحدود المهاجمون نصراً محلياً في السادس من شهر أغسطس سنة ١٩١٥ بعد أن وصلتهم إمدادات كبيرة ، ونجحوا في الزول في خليج سولفا Sulva حيث أخذوا الأتراك على غرة . وكان في مقدور ستوب فور د Stopford قائد الفرقة المهاجمة أن يتقدم من هذا الموقع نقطة انطلاق وينتشر في شبه جزيرة غاليلوى ويتزعزل أنافرتا Anafarta الذي كان مفتاح الموقف . ولكنه فاشلاً في التحرك بقواته نحو ثمان وأربعين ساعة استطاع خلالها إقحام الموقف صابط تركي شاب هو مصطفى كمال بك — كمال أتاتورك رئيس جمهورية تركيا عما بعد (١٨٨١ — ١٩٣٨) فقد عين قائداً للكتيبة رقم ١٩ وكانت لا تزال في دور التكوين في تكيرداغ Takirdag على الساحل الأوروبي لبحر مرمرة . وحف على رأس هذه الكتيبة إلى شبه جزيرة غاليلوى . واستطاع إجلاء المهاجمين من هذا الموقع . وكان جناح الجنود الأتراك البواسل في صد المهاجمين وإجلائهم عن موقعهم يعد أحد الانتصارات القليلة والرائحة التي أحرزها الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى (١) . وقد أنقذ هذا النجاح إستابول من خطر الغزو

الأجنبي وفي ذات الوقت كان فشل القوات البريطانية والفرنسية في الاحتفاظ بالموقع له الأهمية بالنسبة لهم وكان تصرفهم موفقاً .

ومما هو جدير بالذكر أن القيادة الألمانية العليا قررت القيام بغزو العرب والجيل الأسود وفتح الطريق إلى تركيا لإمدادها مباشرة بالأسلحة والمخاطر والرجال والأموال . ونجحت ألمانيا في تنفيذ هذا المخطط في شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٥ .

ورأت بريطانيا وفرنسا سحب قواتها من شبه الجزيرة بعد أن فقدتا الأمل في الاستيلاء على منطقة المصايق . وبدأت عمليات الانسحاب في ١٨ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٥ حتى ٨ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩١٦ بعد أن كلفت الحملة بريطانيا وحليفتها مائة وعشرين ألفاً من القتلى والجرحى ، وأخفقت حملة الدردنيل في تحقيق هدفها الرئيسي وهو الاستيلاء على المصايق وكان الفشل مزدوجاً : في الهجوم البحري على الدردنيل وفي الهجوم البري على شبه جزيرة غاليبولي لتتقدم منها قوات بريطانيا وحليفتها لاحتلال المصايق والاستيلاء على إسطنبول .

وهكذا حققت الدولة العثمانية نصراً باهراً في الدفاع عن منطقة المصايق والحفاظ على سيادة الدولة على هذه المنطقة الحساسة . وكان في مقدمة أسباب هذا الانتصار الرائع الأسلوب الذي اتبعه الأتراك في استنراج وحدات الأسطول البريطاني إلى مياه مضيق الدردنيل واصطيادها بسهولة وسط حقل خفي من الألغام البحرية ، ثم العبادة التي أبدتها الجيود الأتراك في دفاعهم عن اللامار . وهي بسالة أدمت الأعداء كما أدخلت الأصدقاء ، واستعادت الدولة العثمانية مصحتها البحرية المقدمة ككلولة حربية من الطراز الأول ، ووقفت شامخة في وجه أكبر وأقوى دول العالم في ذلك الوقت .

لقد أرادت بريطانيا وفرنسا والروسيا أن تكون حملة الدردنيل الضربة الكبرى التي توجهها هذه الدول الثلاث إلى الإمبراطورية العثمانية لفهم ظهرها عقاباً لما على انضمامها إلى ألمانيا . فلم تكن تمر أياماً دون عدد من دعوها الحرب

في الخامس من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٤ حتى أرسلت بريطانيا بعض
المسمرات إلى مياه الدردنيل في حركة إستطلاعية لكشف قدرة الاستحكامات
التركية على المقاومة وكقائمة لإرسال الحملة البحرية الكبرى والتي بدأت
بالقفل واقررت بخسائر ماحقة في القتل والجرحى . وبما زاد في ملاحمة
المؤتمة وعلنة وقعها في الدوائر البريطانية بوجه خاص أن انسحاب الحملة تم
في وقت كان شديد الإحلام بالنسبة لبريطانيا وحليفاتها . كانت سنة ١٩١٥
تلغظ أنعامها الأخيرة وكانت المرائم والكوارث تحيط بهذه القلوب : أبلدت
الصرب والجبل الأسود ، وإنصمت بلغاريا إلى النكاح ، وحقت بالروسيا
هزائم تبتد كل أمل لها بعدها في الانتصار ، وحجزت إيطاليا من إحراز أى
نتائج حقيقى ، وهوت إلى الحصيص صمة الأسطول البريطانى بعد فشله في حملة
الدردنيل وإسحاقه في الوصول إلى إستانبول . وإنتهت الحرب العالمية الأولى
دون أن تنجح في اقتحام المضائق قوات عدائية سوله كانت بريطانية أو فرنسية
أو روسية . أو أية جنسية أخرى .



الفصل التاسع

السياسة العليا للدولة العثمانية في ضوء خصائصها العامة (٣)

هزيمتها في الحرب العالمية الأولى

أطاحت بسيادتها على المضائق والبحر الأسود

هدلة مدروس واحتلال المضائق وإستانبول :

عرش وتحليل وتلق :

جاز إلى ربه السلطان محمد الخامس في الثالث من شهر يوليو - تموز - سنة ١٩١٨ على أثر إصابته بإنفلونزا لم تمحله سوى أيام ذات حدد ، فكانت وفاته شبه فجائية . وتولى العرش بعده أخوه وحيد الدين أفندي باسم السلطان محمد السادس ، وهو في الثامنة والخمسين من عمره . وكان الموقف الحرجي عصياً للغاية بالنسبة لألمانيا والنمسا والمجر وتركيا وبلغاريا . كان الأتراك قد فقدوا الولايات العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية في الشرق العربي الآسيوي : الحجاز ، العراق ، شرق الأردن ، فلسطين ، الشام ، فضلا عن الجزائر والجزائر التي زلت بهم في الميادين الأخرى . وفي شهر أكتوبر - تشرين أول - استقال جميع وزراء جماعة الاتحاد والرفق نتيجة فشل سياستهم للدخعية والخارجية والعربية ، ثم فر كبارهم إلى خارج البلاد حيث لقوا حلفهم نكاحاً . وكان الرأي السائد في الدوائر العالمية وقتئذ أن ألمانيا وحلفائها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من طلب الصلح . ورأى السلطان الجديد إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ووقع اختياره على رجل عسكري هو الجنرال أحمد عزت باشا وعينه صديقاً أعظم وعهد إليه الاتصال ببريطانيا لإنهاء عقد هدنة . وسرعان ما شكلت الحكومة وقتاً بريامة دحوف بك وزير البحرية لعقد

الهدنة . وهكذا كانت تركيا أسبق من ألمانيا في عقد هدنة مع أعدائها بأحد عشر يوماً (١) . فقد أبرمت هدنة منفصلة مع تركيا في اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر . تشرى أول عام ١٩١٨ سميت هدنة ملروس Mudros نسبة إلى ميناء يحمل هذا الاسم في جزيرة لنوس (٢) Lemnos حيث كانت ترسو في هذا الميناء باخرة إنجليزية اسمها أجاممنون Agamemnon ، وقد دبرت على ظهرها مفاوضات الهدنة . ولم يدمرق إجراؤها أكثر من أسبوع . وقد وقعت عليها بريطانيا عن نفسها وثباتاً عن حليفاتها . وقد نصت هدنة ملروس على المبادئ العامة الآتية فيما يختص بمسألة المضائق :

أولاً : فتح الدردنيل والبوسفور وتأمين الدخول إلى البحر الأسود والخروج منه .

ثانياً : قيام بريطانيا وحليفاتها باحتلال القلاع والامتحكومات القائمة في منطقتي الدردنيل والبوسفور .

ثالثاً : تعهد السلطات التركية بالكشف عن مواقع الألغام وغيرها من المتعجلات في المياه التركية بما فيها مياه الدردنيل والبوسفور والبحر الأسود - للسلطات البريطانية وسلطات الدول الحليفة لها (٣) .

وبعد أن تم التوقيع على الهدنة قدم أحمد عزت باشا الصدر الأعظم استقالته من منصبه على أساس أنه أثير المهمة التي عهد بها إليه السلطان . وخطفه أحمد توفيق باشا . وكان هناك إعتباران ملحوظان في إختياره لمنصب الصدارة العظمى . أولها أنه كان سفيراً لبلاده في لندن ، واكتسب تقدير

(١) طلب لورد دنفور القتال الثلاثي بين الهدنة رسمياً في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من شهر الحادي عشر من عام ١٩١٨ على أساس الأربعة عشر شرطاً التي طلبها وليس دوليات الهدنة الأمريكية كمشور للقوة .

(٢) جزيرة لنوس إحدى جزر الأرخبيل

(٣) نجد النص الرسمي الكامل لهدنة ملروس في :

الدوائر العليا في بلاط سان جيمس في هذه العاصمة . وكان العمل مقدوراً عليه أن يكون موضع ثقة بريطانيا في هذه المرحلة الدقيقة التي كانت تتطلع فيها تركيا إلى إعادة علاقاتها مع بريطانيا إلى سيرتها الأولى . وثانيها أن أحد توفيق باشا سبق له أن تولى منصب المندوب العظمى .

وأهم ما يلاحظ على هذه مذكورة أن بريطانيا حققت فيها ما عجزت عن تحقيقه في ساحات القتال في أثناء الحرب العالمية الأولى . فقد آمنت شروطها على تركيا . وكان من بينها فتح البرديل والبوسفور وتأمين دخول البحر الأسود والخروج منه ، كما قررت نفسها حتى احتلال المواقع ذات الأهمية الإستراتيجية في منطقة المضائق إلى غير ذلك . وكانت هذه الشروط الخاصة بالبرديل والبوسفور والبحر الأسود بديلاً بمبادئ وقواعد جائزة تسكند إلى مبدأ القوة وتتضمنها معاهدة الصلح التي سوف تضعها بريطانيا وحليفتها وتعرضها على تركيا . وقد جاء في أعقاب هذه مذكورة تنفيذ على ما نصته من مبادئ وانجازات . فقبل أن ينقضي أسبوعان على إبرام المعاهدة حتى كانت الأساطيل الحربية لبريطانيا وحليفتها تتجه طريقها إلى منطقة المضائق من البحر المتوسط . واجتازت ستون قنطرة حرية مضيق البرديل ثم بحر مرمرة ثم البوسفور . والتزمت مدفعية السواحل التركية الصمت العميق لإزاء هذه المظاهرة البحرية العنيفة . وفي ١٣ من نوفمبر - تشرين ثان - ألقت بعض هذه القطع الحربية مراسيها في ميناء إسطنبول . وفي ٨ من ديسمبر - كانون أول - كان قد استكمل في إسطنبول إنشاء إدارة عسكرية دولية من بريطانيا وحليفتها ، واحتلت القوات الأجنبية المتحالفة شتى أحياء العاصمة ، وفرضت رقابة عسكرية صارمة على الميناء ، وأخضعت لهذه الرقابة أيضاً قوات الشرطة وقوات الأمن الداخلي - للخدمة - وكذلك المرافق العامة حتى على خطوط القرام وهراتها .

إسطنبول تشهد مسرحية هزلية :

وتعرضت إسطنبول لمسرحية هزلية كشفت عن شماعة السكان اليونانيين في العاصمة بجزمة الأراك من ناحية ، وقطاعة بعض العسكريين من ناحية

أخرى . في الثامن من فبراير - شباط - سنة ١٩١٩ دخل إستانبول القائد الفرنسي الجرال فرانشيه ديسري General Franchet d'Espèrey محتلياً صهوة جواد أيضاً أهداه إليه السكان اليونانيون في إستانبول . وكانت حاجتهم في تقديم هذا النوع من الهدية أن السلطان محمد الثامن حين فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وأطلق سبيل إستانبول أي دلو الإسلام دخلها لأول مرة راكباً حصاناً أبيض اللون (١) ، فأراد هؤلاء اليونانيون أن يكون احتفالهم بفتح بلبنول قوات بريطانيا وبلنانيا وعطيفانيا عاصمة الأتراك وإعلان انتباههم بهذه المناسبة التاريخية على شرار ما حدث من أرملة وست وستين سنة حلت . ولم يلبث أن أعلن اليطيررك اليوناني في إستانبول استقلاله الرعايا ، اليونانيين عن الحكومة التركية ، وقطع في ٩ من مايو - أيار - ١٩١٩ علاقاته مع الباب العالي . وتأسس اليطيررك والرعايا اليونانيون ما كانوا يظفرون به من معاملة كريمة ويمتازة في ظل الحكم العثماني .

وفي ذات الوقت تقريباً كانت القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية قد احتلت عدة مواقع في منطقة المضائق . وكان الأسطول البريطاني رابطاً في بحر مرمره وفي مياه البوسفور تجاه العاصمة . فكان احتلال بريطانيا وحليمتها لمنطقة المضائق احتلالاً بحرياً وبرياً .

والحق أن هذه ملروس وما ترتب عليها من أحداث مباشرة وسريعة كانت عصباً بالسياسة العليا للدولة العثمانية ، وإنتهاكاً لسيادتها على منطقة المضائق ، وإنتقاماً من استقلالها ، وتذيراً بشروط قاسية تمليها بريطانيا وحليمتها في معاهدة الصلح التي سوف تفرضها على الدولة ، وهي معاهدة سيفر .

معاهدة سيفر :

عرض وتحليل ونقد :

كانت بريطانيا وفرنسا قد قرعنا في ٢٦ (٢) من شهر أبريل نيسان -

(١) Lewis Bernard, The Emergence etc, op. cit., p. 240.

(٢) كانت هناك الترددات قد قرعنا في اليوم السابق - ٢٥ من أبريل نيسان - من نسخة سلكة لاتصايات حل الاتاني العربية التي كانت عاصمة الدولة العثمانية في قسرك الري الاسوي .

١٩٢٠ من إقرار معاهدة الصلح مع تركيا في إجتماع المجلس الأعلى في سان ريمو San Remo ، وهي بلدة إيطالية على ساحل الريفييرا . واتضح أن الهدف من هذه المعاهدة هو تصفية الإمبراطورية العثمانية أو كما يقول ذكور الراحاة في النكتة دفن رجل أوروبا المريص الذي طال مرضه وطال احتضاره أكثر من اللازم . وقد سلمت هذه المعاهدة للورد التركي في باريس في ١١ من مايو - آيار - وكان هذا الوفد يمثل السلطان الصفيي محمد السادس وورثاه ، ولكنه لم يوقع عليها إلا مكرهاً في ١٠ من أغسطس - آب - ١٩٢٠ أي بعد إقصاء ثلاثة أشهر . وقد تم التوقيع في مدينة سيفر Sèvres وهي مدينة فرنسية على نهر السين تشتهر بوجود مصنع فرنسي للأواني الخزفية المتناهية في جمها وحققها . وقد رفضت الولايات المتحدة وروسيا والمملكة الحبيبة بن علي في الحجاز التوقيع عليها . وبما هو جدير بالذكر أنه بعد أن تم توقيع معاهدة سيفر دأب إلى مصنع الخزف للضابط مصطفى كمال ونسفه .

ويلاحظ بأن معاهدة سيفر قد عقدت مع الدولة التركية The Turkish State ، وبمهم من بين ثانياً المطور على أنها امتداد للدولة العثمانية مصفرة . ولذا جاء في بعض موادها ذكر السلطان على أنه رأس الدولة ، وجاء ذكر إستانبول (القسطنطينية) على أنها العاصمة ، ونص فيها على أن حقوق الحكومة التركية على إستانبول لا تمس ، وأن مقر السلطان والحكومة التركية هو إستانبول بصفتها عاصمة الدولة التركية .

وقد تعرضت معاهدة سيفر لآلة المضايق في المواد من ٣٧ إلى ٤٠ فنصت المادة (٣٧) على أن الملاحة في المضائق ، وتشمل على سبيل التحديد الدردنيل ، وبحر مرمرة ، والبروسفور ، تكون في المستقبل مقترحة في وقت السلم ورمز الحرب لكل سفينة تجارية أو حرية ، والملاحة الجوية العسكرية والتجارية دون أي تمييز بين الدول . ولا تكون مياه هذه المضائق عرضة للحصار ولا يباشر فيها أي حق حربي أو أي عمل عدائي إلا تنفيذاً لقرار يصدر عن مجلس عصبة الأمم .

ونصت المادة (٣٨) على أن الحكومة التركية تقرر أنه بات من الضروري

التخاذ مزيد من الاجراءات لضمان حرية الملاحة المنصوص عليها في المادة ١١ باقية . وبناء على ذلك ، فيجب تمهيد إلى لجنة تسمى لجنة المصايق بحملية حركة الملاحة في مياه المصايق . وتمهيد الحكومة اليونانية أيضاً إلى هذه اللجنة بلبات التصديق وتمهيد بأن تقدم لها في جميع الأحوال نفس التسهيلات . على أن تمارس هذه المراقبة باسم الحكومتين التركية واليونانية ووفقاً للمطربة المنصوص عليها في المادتين التاليتين .

وقررت المادة (٣٩) أن سلطة لجنة المصايق تمتد على كافة المياه المصورة بين مصب البحر المتوسط في اللوردنيل وبين مصب البحر الأسود في اليومنور ، كما تمتد إلى مسافة ثلاثة أميال صيا وواحد كل من هذين المصين ، ويجوز أن تمارس هذه السلطة على ما يحل إلى الحد الذي يكون ضرورياً لتنفيذ الشروط الواردة في هذا القسم من المعاهدة الخاصة بمسألة المصايق .

وتمررحت المادة (٤٠) لطريقة تشكيل لجنة المصايق وطريقة التصويت . فقررت أنها تتظم عشرة أعضاء يمثل كل عضو دولة واحدة . وهذه الدول هي الولايات المتحدة الأمريكية ، بريطانيا ، فرنسا ، إيطاليا ، اليابان ، روسيا ، اليونان ، رومانيا ، بلغاريا ، تركيا . وشملت المادة تحفظات على عضوية بعض هذه الدول ، فقالت إن روسيا ، وبلغاريا ، وتركيا لا يسمح لها بالانضمام إلى لجنة المصايق إلا إذا دخلت في حصبة الأمم . أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد ترك أمر عضويتها إلى رغبة حكومة واشنطن . فقالت : إذا أرادت ومنى أرادت هذه الحكومة أن تسهم في أعمال لجنة المصايق ، ونصت نفس المادة على أن يكون لممثل كل من أمريكا ، وبريطانيا ، وفرنسا وإيطاليا ، واليابان ، والروسيا صوتان . أما ممثل اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وتركيا فيكون لكل منهم صوت واحد . وأخيراً نصت المادة على أن يمثل كل دولة غير قابل للحرل إلا بحرفة حكومتها (١) .

(١) تجد النص الرسمي الكامل لمعاهدة ميتر في .

وقد جاءت معاهدة سيفر بمجموعة من المبادئ والقواعد العامة يمكن دراجتها تحت ثلاثة أنواع ، النوع الأول كان معروفاً ومعمولاً به من قبل ومعترفاً به في الأسرة الدولية بحيث غدا من المبادئ العامة في القانون الدولي العام ، النوع الثاني فيتطوى على شلوك وخروج على قواعد القانون الدولي العام ، النوع الثالث فيتمثل في مبادئ العمل على إشعاع الأحقاد بدلاً من العمل على إلزائها ، وإلثار مبادئ الاستعمار على مبادئ العدالة والحرية

أما النوع الأول فيتمثل في تقرير حرية المرور في الدردنيل والبوسفور لجميع السفن التجارية والحرية في جميع الأوقات دون تمييز بحسب جنسية السفن مع تحريم فرض الحصار على المضائق أو ممارسة أى حق حربي أو عمل عدائي إلا إذا كان الإتيان بمثل هذا العمل تنظيماً لقرار صادر عن مجلس عصبة الأمم . وهذا المبدأ العام مقرر في إتفاقية الأستانة المحقودة في ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٨٨ والخاصة بتنظيم حرية مرور السفن في قناة السويس . كما أنه مقرر في كل من معاهدة هاي - يونسيوت (١) Hay Paunsofoto في المادة الثالثة البند الأول والمبرمة في ١٨ من نوفمبر - تشرين ثلث - ١٩٠١ والخاصة بقناة بناما التي كان رمزاً حفرها - وقد افتتحت هذه القناة للملاحة في ١٥ من أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ . وفي معاهدة هاي - يونيو (٢) Hay Bunan Varilla في المادة الثامنة عشرة والمبرمة في ١٨ من نوفمبر - تشرين ثلث - ١٩٠٣ والخاصة بقناة بناما أيضاً . فهذا المبدأ العام كان معمولاً به في قناة السويس ومقرر للتطبيق عند افتتاح قناة بناما . غير أن معاهدة سيفر أجازت ممارسة الأعمال المملكية في منطقة المضائق إذا كانت هذه الأعمال تنظيماً لقرار صادر عن مجلس عصبة الأمم . ومثل هذه الإباحة غير موجودة في اتفاقيات قناة السويس وبناما . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن عصبة الأمم لم تكن قد رأت النور في سنة ١٨٨٨ أو سنة ١٩٠١ أو

(١) كان هاي ، وزير الخارجية الأمريكية ، وبونسوت جوليان هو السفير البريطاني في واشنطن

(٢) بونو غريلا هو مثل بناما في واشنطن .

سنة ١٩٠٣ ، كما يلاحظ أيضاً أن معاهدة سيفر قد أجازت الملاحة الجوية التجارية والعسكرية لجميع الدول فوق منطقة المصايق بينا جاءت اتفاقيات ثنائي السويس وبناما خالية من مثل هذه الإباحة . وقد تداركت بريطانيا هذا الأمر بعد ذلك ، فقصت عليه في معاهدة ٢٦ من أغسطس ١٩٣٦ بالنسبة للطيران البريطاني . أما قناة بناما فإن الولايات المتحدة الأمريكية تستأجر بالنفوذ عليها استناداً إلى اتفاقيات عقبتها مع الدولة صاحبة الإقليم وهي بناما التي سمحت لها بهذا المركز الانفرادي المتميز وتمتعت بالاحتفاظ بسيادة بحرية وأعطت الولايات المتحدة حق ممارسة جميع المظاهر العملية هذه السيادة الفعلية .

أما النوع الثاني الذي جاءت به معاهدة سيفر فينتوي على مبدأ جائر وشاذ ، إذ جعلت في الدولة الثمانية سيادة مزدوجة لإحداها للحكومة التركية والأخرى للحكومة اليونانية . وجعلت المعاهدة هاتين الحكومتين هما مصدر التفويض للرقابة الدولية على تنظيم حرية مرور السفن في الدردنيل واليوسفور . وكانت هذه الرقابة الدولية ممثلة في لجنة المصايق . فأصبحت هذه اللجنة تستمد وجودها وكيانها وسلطانها واختصاصاتها من الحكومتين معاً وجعلت المعاهدة الحكومة اليونانية شريكة لصاحب الإقليم الأصلي في إصدار تفويض لهذه اللجنة في قيامها ومباشرة عملها . وهذا هو وجه الشلوذ في معاهدة سيفر ، ولا يجد الباحث تفسيراً أو تبريراً لهذا الشلوذ سوى رغبة بريطانيا في إذلال الشعب التركي عقب هزيمته حقاً له حل انضمامه إلى ألمانيا . وقد تجلت روح الانتقام في كافة المعاهدات التي فرضتها بريطانيا وحليفتها على الدول المهزومة مثل معاهدة فرساي Versailles مع ألمانيا في ٢٨ من يونيو - حزيران - سنة ١٩١٩ ، ومعاهدة سان جرمان (١)

(١) توجد في فرنسا عدة أماكن تحمل اسم سان جرمان ، ولكنك يذكر بهذا اسم آخر يحدد المكان المقصود . ويقصد بسان جرمان في هذه القرامة Saint-Germain-en-Laye وهي مدينة وعاصمة مقاطعة سين ولواز Seine-et-Oise وعلى خربة من فرنسا شمالية باريس .

St. Germain مع الصفا في ١٠ من صفر - أيلول - سنة ١٩١٩ ،
ومعاهدة بويل^(١) في ٢٧ من نوفمبر - تشرين ثا - سنة ١٩١٩
مع بلغاريا ، ومعاهدة تريانون^(٢) في ٤ من يونيو - حزيران - سنة
١٩٢٠ مع المجر .

وهناك تقرير آخر هو أن اليونان كانت قد أخذت أزمير في ١٥ من
مايو - آيار - سنة ١٩١٩ وسعت منذ ذلك الوقت نحو توسيع منطقة احتلالها .
واعتقدت بريطانيا أن الاحتلال اليوناني لأزمير سيطول أمده وسيتمتع
مداه . وتناست بريطانيا أن الأتراك وهم من أشد الممارين صلابة وبسالة
واسترخاءاً للموت لن يقبلوا هذه الأوضاع ، ومن ثم أثقلت بريطانيا على
معاملة اليونانيين . ولا ننسى أنهم كانوا حطفاً في الحرب العالمية الأولى .
ومن ثم جاء هذا التلذذ في الميادى التي انطوت عليها معاهدة سيفر .

والجانب الثالث الذى جاءت به معاهدة سيفر فيما يخص مسألة الدردنيل
والبوسفور هو فرض رقابة دولية لضمان حرية مرور السفن في منطقة
المضائق . وقد أخذت هذه الرقابة الدولية شكل لجنة أطلق عليها لجنة
المضائق The Straits Commission وقوامها عشرة أعضاء يمثلون عشر دول
أوروبية وآسيوية وأمريكية ، ولم تكن إفريقية ممثلة بآية دولة في اللجنة .
ويلاحظ أن تمثيل الدول لم يكن على قدم المساواة ، فبحسب الدول كان
لممثلها صوتان ، والجمع الآخر صوت واحد ، كما أن عضوية بعض الدول
في لجنة المضائق كانت مقيدة بشرط حتى هو قبول هذا الفريق من الدول
في عصبة الأمم .

(١) توجد في فرنسا عدة أماكن تحمل اسم بويل ، ولذلك يذكر بعض اسم آخر محدد
للكائن المقصود . ويقع بكنيه بويل في هذه القرية Neuilly sur Seine وهو اسم مدينة
هي حاضرة مقاطعة السين وتقع على بحر السين ، وعلى يفره من شاطئ بولوا Bois de Boulogne
وعلى سفان دي Saint Denis

(٢) تريانو اسم يطلق على قصرين صغيرين في متروحة فرنسا ، يطلق على القصر الأول
تريانو الكبير Le Grand Trianon وقد شيد ذلك لويس الرابع عشر ، ويطلق على القصر
الثاني تريانو الصغير Le Petit Trianon وقد بناه الملك لويس الثامن عشر .

وكانت لجنة المصايق تشبه إلى حد ما لجنة القنصل التي نصت عليها المادة الثامنة من اتفاقية ٢٦ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٨٨ احصاة بقية السويس مع فروق عامة هي أن اتفاقية القناة قد حدثت كبدية دقيقة اختصاصات لجنة القنصل وميزت بين الاجتماعات الطارئة والاجتماعات النورية التي تعقد مرة كل سنة ، وطريقة مواجهة الأحداث التي تهدد سلامة القناة أو حرية المرور بها ، ورياسة اللجنة في كل نوع من نوعي اجتماعاتها أما لجنة المصايق فإن معادلة سير لم تعرض لمثل هذه التخصيصات الهامة والضرورية . ولذلك كان الغموض يحيط باللجنة من يمين وشمال.

وبما هو جدير بالذكر أن بريطانيا سبق لها أن عارضت معارضة عنيفة للغاية فرض رقابة دولية على حرية مرور السفن في قناة السويس ، وذلك في أثناء الحملات التي حققتها لجنة باريس الدولية في الفترة من ٣٠ من مارس - آذار - إلى ١٢ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٨٥ لوضع مشروع اتفاقية قناة السويس . ووقفت بريطانيا في وجه الدول الأوروبية الكبرى وهي فرنسا ، روسيا ، ألمانيا ، وإيطاليا والمجر ، الدولة العثمانية . وقد شكلت هذه الدول كتلا دولياً في اللجنة ضد بريطانيا نكابة فيها لاحتلالها مصر وتأرجيح موقف إيطاليا بين الطرفين المتصارعين . ولما وجدت بريطانيا إصراراً من الدول الكبرى على قيام الرقابة الدولية على قناة السويس علمت بكل ثقلها على التحريض من قيود هذه الرقابة . ومع ذلك فلما تقررت الرقابة الدولية في شكل لجنة تتكون من وكلاء الدول الموقعة على الاتفاقية والمتمندين في مصر استعانت بريطانيا نفوذها المطلق الانفرادي في مصر بسبب احتلالها مصر وعملت على منع اجتماعات لجنة القنصل سواء الاجتماعات الطارئة أو الاجتماعات النورية منعاً باتاً سواء على عهد الاحتلال أو الحماية أو الاستقلال الشكلي فصلاً عن الجهود اللاحقة^(١) وهكذا إن بريطانيا ، لمصلحتها الخاصة ، عارضت

(١) أنظر بخصوص هذا الموضوع :

في سنة ١٨٨٥ قيام رقابة دولية على قناة السويس : وفرضت في سنة ١٩٢٠ رقابة دولية على منطقة المضائق نكايه في تركيا ، ورغبة في دعم موقفها الاستعماري في منطقة الشرق الأدنى .

لم تكن الحكومة التركية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وعقد هدنة مديروس في وضع عسكري أو سياسي يسمح لها بالاعتراف على ما جاء في معاهدة سيفر سواء فيما يخص مسألة الأرمن والبولنديين أو بالمسائل الأخرى التي تعرضت لها المعاهدة ، فالمتصرون في قمة الانتصار ونشوة الانبعاث بشغل وعلى شروطه ويفرض إرادته على الدولة المهزومة . وقد قيل في هذا الصدد : ويل لمتغلوب ، وهي عبارة تصلق على الحاضر كما صدقت على الماضي . ويعلق أحد كبار المؤرخين الإنجليز على معاهدة سيفر بقوله إنها كانت في موادها وأحكامها وشروطها أكثر قسوة على تركيا من شروط معاهدة فرساي التي فرضت على ألمانيا^(١) ، مع أن الدولتين - ألمانيا وتركيا - كانتا حليفين وهزمتا في حرب واحدة على يد دول واحدة . وقد قصت معاهدة سيفر على تركيا كلولة أوروبية من الناحية العملية^(٢)

تجديد معاهدة سيفر :

كان السلطان محمد السادس ووزراؤه يعيشون في إستانبول تحت تهديد الأسطول البريطاني ، وقد ألقى مراسيه في مياه البوسفور ، بينما كانت قوات

= دكتور محمد عزيز عبد الشلبي : نكول الدول لتحويل قناة السويس ، نكايه في بريطانيا .

بحث منشور في جرن في حريات كلية الآداب : جلسة القاعة .

الجزء الأول : العهد الثالث والستون الجزء الأول - مايو ١٩٦١ ، طبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١١ - ١٥٤ .

الجزء الثاني ، العهد الثالث والستون الجزء الثاني - ديسمبر ١٩٦١ ، طبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١ - ٤٧ .

(١) Lewis Bernard ; The Emergence etc., op. cit., p. 267

Miller W. ; op. cit., p. 451.

(٢)

بريطانيا وحليفاتها تحتل إستانبول وكانت قد أقيمت فيها - كما سبق أن ذكرنا - إدارة عسكرية تحتل دول المحسكر الغربي التي أقامت وقاية صارمة على شتى مرافق العاصمة . وفى جو الهزيمة الكتيب أرغم السلطان ووزرائه على التوقيع على معاهدة سيفر ، ووقعت للغاية المباشرة من الشعب التركى ضد المعاهدة الجائرة ، واعتبرت يوم التوقيع عليها يوم حداد عام فى أرجاء تركيا .

وقد اعتقد البعض أن موافقة السلطان على المعاهدة هى بادرة طيبة لتنفيذها . ولكن سرعان ماكتشفت عدة عوامل جعلت تنفيذ شروطها أمراً متعلاً إلى لم يكن مستحيلاً . لقد رفضت الولايات المتحدة ويوغوسلافيا وحسين بن على ملك الحجاز هذه المعاهدة كما ذكرنا . وكانت اليونان قد خرجت بمكاسب إقليمية وسياسية هائلة ، ولكنها لم تقنع بها ، وأرادت مزيداً من مكاسب أخرى على حساب تركيا لتكون دولة قضم - مما تشمل عليه - النصف الغربى من الأناضول ، ثم تصاعدت مطالباتها فرفضت على بريطانيا وحليفاتها أن تسمح لها باحتلال إستانبول مما زاد الموقف فى تركيا اشتعالاً . غير أن العامل الحاسم فى تلحور الموقف بالنسبة لبريطانيا وحليفاتها كان الشعب التركى . فقد أبى الاستسلام وهاله أن تتمرق بلاده على هذا النحو المذرى تحتلها القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية والفرنسية والإيطالية واليونانية ، وهو الذى خاض أشد الحروب هولاء وتكون إمبراطورية امتدت فى ثلاث قارات . فثار على الأوضاع التى جاءت بها معاهدة سيفر . وقاد مصطفى كمال حركة ثورية واتخذ من الأناضول ، وهى منطقة منيرة محصنة بالمخاض البرداء ، مركزاً لحركته الثورية وألب الجيش للسرور والمقاومة ، ونحى الدول التى خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى وفرصت معاهدة سيفر على بلاده هزماً .

رأى مصطفى كمال فى الموقف بعد هزيمة بلاده :

نرى مصطفى كمال على رجال الاعتماد والفرق سياستهم التى جعلت تركيا نواكب ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وتعرض للأنوار السريع . وقد أرجع

التدهور الذى أصاب الدولة قبل الحرب إلى عوامل عديدة ومتشعبة ، ورجت بنفسها فى حياثل الدول الأوروبية الكبرى ، وخضعت لتهدداتها ، وظلت متخلفة ولم تسير ركب الحضارة ، وعدت جهودها فى حكم شعوب غير تركية . وإذا كانت بريطانيا وحليفتها قد استلقت فى تلك الحرب للعراق وفلسطين وسوريا ، ومن قبل الحرب تونس ومصر وليبيا وغيرها فإنه يقبل سلاح هذه الولايات وغيرها من الإقليم غير التركية التى كانت خاضعة للدولة . ولكن لابد فى مقابل هذه التضحيات من الاحتفاظ بالاحتياض بصفته الموطن الأصلى للأتراك وإقليم تراقيا الشرقية وإستانبول ، والاحتفاظ عني الاستقلال التام للشعب التركى وسلامة أراضيها ، وسيادة الدولة على جميع بلاد الوطن التركى بما فيه منطقة المضيق . وكان شعاره تركيا للأتراك^(١) Turkey for the Turks وتطلب تمييز هذه المبادئ التحرر من الحكم الأجنبي فى جميع صوره وأشكاله ومظاهره .

ولئن تعرض لتاريخ تركيا فى الفترة من توقيع هدنة مفروس (سنة ١٩١٨) إلى إبرام معاهدة لوران (سنة ١٩٢٣) إلا بالقدر الذى يتصل بموضوع المصايق والبحر الأسود وبالقدر الذى جعل بريطانيا وحليفتها تغير سياستها تغييراً جذرياً تجاه تركيا المهرمة ، تقرر إلغاء معاهدة سيفر ووضع معاهدة جديدة هى معاهدة لوران تسبغ منها معظم الشروط الجائرة التى جاءت بها المعاهدة الأولى وعلى سبيل المثال تقرر إبعاد اليونان من الأشراف مع تركيا فى عمل من صميم سيادة الدولة على متعلقة المصايق ، كما تقرر إعادة إقليم تراقيا الشرقية إلى تركيا . وكانت اليونان قد ظفرت بهذا الإقليم فى معاهدة سيفر . مما يدل على أن لبريطانيا مصالح دائمة ولكن ليس لها أصدقاء دائمون .

تولم ثلاث مشكلات :

واجه مصطفى كمال موقفاً مظلماً كثيف الإنطلام كان جيش يونانى قد نزل فى أنزير فى ١٥ من مايو - آيار - سنة ١٩١٩ تحت حماية ثلاثة

Miller W. : op. cit., p. 556.

(١)

أساطيل هي الأساطيل البريطانية والفرنسية والأمريكية . واحتل اليونانيون الميناء والمدينة والمنطقة المحيطة بها وأغلقوها موقفاً إستراتيجياً للتوسع في داخل الأناضول في اتجاه الشرق . وقيل في تفسير أو تبرير اشتراك أساطيل ثلاث دول كبرى في إزال القوات اليونانية إن بريطانيا وحليفتها أردت قطع خط الرجعة على إيطاليا التي طالبت بتغيز ادعائها في منطقة الأناضول بما فيها أرمنير وجزر البوديكانيز وجهات أخرى في الحوض للشرق للبحر المتوسط . وكانت هذه الادعاءات موضوع اتصالات عقدت في أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ منها اتفاق لندن السري الموقود بين دول الوفاق الثلاثي وإيطاليا في ٢٦ من أبريل - نيسان - ١٩١٥^(١). وكان إبرام هذا الاتفاق هو ثم خروج إيطاليا على حليفتها دولي الوسط وإعلانها الحرب على النمسا في ٢٣ من مايو - آيار - سنة ١٩١٥^(٢) ، ثم الاتفاقية الثلاثية المعروفة باسم سان جان دي مورين Saint-Jean de Maurienne المبرمة بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا من أجل تقسيم الإمبراطورية العثمانية (١٩ من أبريل - نيسان - ٢٦ من سبتمبر - أيلول - ١٩١٧) وقد اجتمع رؤساء الوزارات البريطانية والفرنسية والإيطالية في عربة قطار وقف بهم في محطة سان جان دي مورين ، وهي قرية جبلية صغيرة على الحدود الفرنسية الإيطالية^(٣) . وقد اقرف اليونانيون في نزولهم أرمنير الكبير من ضروب

(١) تجد نص هذه الاتفاقية في :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1920, Misc. No. 7. Cmd, 671.

لمت عنوان :

Secret (London) Agreement : The Entente
Powers and Italy. 26 April, 1915.

(٢) تجد نص هذه الاتفاقية في :

Flarewitz J.C. , op. cit., vol. II, pp 23-25

لمت عنوان :

Tripartite Saint-Jean de Maurienne
Agreement for the Partition of the
Ottoman Empire : Britain, France, and
Italy. (19 April-26 September 1917).

الوحشية وجرائم الحرب . وقد ألهم الاحتلال اليوناني لأزمير مشاعر الأتراك ، واعتبروه إغلالاً لهم ، ولزكى في قلوبهم تصميماً على طردهم ، إذ كانوا يحضرون اليونانيين على أساس أنهم شعب خضع للأتراك أعصر وأدهاراً وأحقاباً . ويقول أحد المؤرخين الإنجليز لو أن الإيطاليين قد احتلوا أزمير ما أثار احتلالهم هذه الموجة العارمة التي أثارها الاحتلال اليوناني في نفوس الأتراك^(١) . ويضيف إلى ذلك قوله إن منظر الرواية اليونانية المزودة وهي تحف فوق أحقاد من الأناضول كان يعد من جانب كل تركي وطى إهانة لا تغفر . وكان مما أثار حسّ الأتراك للتصريحات المذكورة التي كان يعلنها اليونانيون من وقت لآخر ، وهي أن احتلالهم أزمير ومنعقلتها ليس احتلالاً مؤقتاً يحسر بعد فترة ، إنما هو عملية ضم نهائى ، وسيتمتع مناهة يشمل الأناضول لتكون إمبراطورية هيلينية كبرى ، بركة وبحجرة ، وتمتد في آسيا وفي أوروبا ، وتشمل السواحل الشرقية والقرية لبحر إيجه فضلاً عن منطقة المضائق . وكان اليونانيون يتعمدون في تحقيق هذه المشروعات على تأييد بريطانيا . وكان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ضالماً معهم ، ويشعر بكرامية شديدة نحو الأتراك ، ويتمنى لو استطاع اليونانيون سحقهم نهائياً وأن يتنوا العمل الذى قام به الجنرال مود *Mud* في العراق والجنرال آلبى *Allenby* في فلسطين عند مناجمها في طرد الأتراك وإنهاء الحكم التركى في هذين الإقليمين . ولذلك كانت اليونان الدولة اللباقية المدللة لدى بريطانيا وقصت إلى جانبها تويد الوجود السبرى اليونانى في منطقة أزمير . كانت اليونان قد ظفرت من بلغاريا - بمقتضى معاهدة بويسى *Nally* (٢٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٩) - بتقسيم ترافيا الغربية ، وظفرت من تركيا - بمقتضى معاهدة سيفر (١٠ من أغسطس آب - سنة ١٩٢٠) بإقليم ترافيا الشرقية ، فأصبحت اليونان على مسافة بضعة أميال من إسطنبول ، وروادتها أعطب الآمال في الاستيلاء على العاصمة التركية الثميلة . وكانت تركيا قد غلّت اليونان بمقتضى معاهدة

سيفر أيضاً عن كل حقوقها على إمبروس Imbros وهي جزيرة في بحر إيجة على مقربة من الدردنيل ، وعلى تينلوس Tenedos وهي جزيرة في نفس المنطقة على ساحل الأناضول . وكان الوجود العسكري اليوناني في هاتين الجزيرتين يمثل خطراً مردوحاً ، فهو ، من ناحية ، يدعم مركز اليونان في لجنة المضايق وفي مباشرة سلطاتها على تنظيم حرية مرور السفن في الدردنيل والبوسفور ، وبالتالي التحكم في الإشراف على حركة الملاحة في البحر الأسود باعتبار اليونان إحدى الدولتين اللتين تستمد منها لجنة المضايق شرعيتها ووجودها واختصاصاتها ، ومن ناحية أخرى فإن وجود اليونان في تلك الجزيرتين وعلى مقربة من أزمير مما يدعم السيطرة العسكرية ليسوان على الساحل الغربي للأناضول . ويلاحظ أنه كان لليونانيين نشاط واسع في الأناضول حيث انتشروا في حضابها ومدن ساحلها الغربي المطل على بحر إيجة وكانوا يبلغون في تقدير البعض مليوناً ، وفي تقدير البعض الآخر نصف مليون . وكان من بينهم التجار وزراع التبغ والكروم وصناع الطنافس إلى جانب رجال المال وأصحاب المصارف المالية .

وكان فريولوس Venizelos رئيس الوزارة اليونانية ، والزعيم السياسي الكبير ، والكريتي المولد ، قد وضع مشروع إنشاء إمبراطورية شاسعة الأرجاء من أنقاض الدولة العثمانية التي تداعت ، ونحل الإمبراطورية المهيبة المرتجفة على هذه الدولة في الإشراف على مرور السفن في منطقة المضايق وتكون لها الكلمة المدسوقة في تنظيم حركة وحرية الملاحة في البحر الأسود . وأخذ فريولوس على عاتقه تنفيذ معاملة سيفر بمعاملة قرض من بريطانيا .

فلاحتلال اليوناني كان يمثل إحدى المشكلات التي واجهها مصطلقي كمال . وكانت هناك مشكلة الاحتلال الدولي لإستانبول ومنطقة المضايق . وتمثل هذا الاحتلال ، كما سبق أن ذكرنا ، في قوات بريطانية وفرنسية وإيطالية . وتتبع من هذه المشكلة مشكلة إشراك اليونان مع تركيا كدولتين تستمد لجنة المضايق منها أساس وجودها ، ثم الإشراف الدولي على تنظيم حرية (٢ ١٧ - الدولة العثمانية)

لمرور في المضائق على النحو الذي جاءت به معاملة سيرر . وكانت هناك مشكلة ثالثة تطل برأسها وتعرض نفسها فرضاً على قيادة الثورة الككالية ، وهي مشكلة السلطان محمد السادس وأعضاء حكومته في إستابول . وكانوا يشكلون في مجموعهم أداة طيعة لينة في يد بريطانيا بأنثرون بؤامرها وتمسحهم أداة لصرب الثورة . وقد تطلبت المشكلة الثالثة بقطعة دائمة ودبلوماسية مرنة وقدرة على التحرك السريع لمواجهة أي إجراء يتخذه السلطان وحكومته لوأد الثورة الككالية وهي في مهادها الأولى أو العصف بها حين يكمل نموها ويشدد ساعدتها .

مؤتمر أرضروم :

كانت المجموعات الأولى للمقاومة الشعبية قد تكوئت في ديسمبر - كانون أول - ١٩١٨ عقب التوقيع على هدنة مديروس . وأطلق عليها جمعيات الدفاع عن الحقوق - مناهضى حقوق - وقد ظهرت طلائع هذه الجمعيات في تراقيا وأرمير وبعض جهات في الأناضول . ووجهت نشاطها ضد اليونانيين بوجه خاص . ثم تكوئت في مدينة أرضروم (١) في ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩١٩ جمعية الدفاع عن حقوق شرق الأناضول . ودعت إلى عقد مؤتمر اجتماع في ذات المدينة في ٢٣ من يوليو - تموز - سنة ١٩١٩ وحضره مندوبون عن الأقاليم في شرق الأناضول ، وانتخب مصطفى كمال رئيساً للمؤتمر في اليوم الأول الذي اجتمع فيه ، وقد استمرت اجتماعاته حتى ١٧ من أغسطس آب - سنة ١٩١٩ ، وكان أهم إنجاز قام به المؤتمر هو وضع مشروع التصريح الذي عرف فيما بعد باسم الميثاق الوطني أو على ميثاق .

(١) يطلق على هذه المدينة أيضاً اسم آردن فروم - يمتدح الألف وسكون الراء وجع الزلى - وهي قسبة ولاية أرمينية التركية . وكانت هذه المدينة من أهم الحصون القوية على الحدود الشرقية لبلد . وكان القميس ينزحون هذه المدينة من الأتراك ، ولكن كان الأميرون ينهبون دائماً في لصلتها . ولقتل المدينة سيراً كبيراً في تخرج الدولة العثمانية

مؤتمر صيواص :

وفي ٤ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٩ عقد المؤتمر الثاني في مدينة صيواص^(١) وكان يفوق مؤتمر أرضروم من حيث الأهمية ، وحضره مندوبون من جميع أنحاء البلاد . وانتخب مرة أخرى مصطفى كمال رئيساً له ، وأبد المؤتمر قرارات مؤتم أرضروم ، وكان من بينها المحافظة على سلامة أراضي الدولة ، والاستمسك باستقلال الشعب ، ومباشرة العمل المسلح ضد الضرورة ضد الدول التي تحتل البلاد . وكان اهتمام المؤتمر موجهاً بوجه خاص إلى إنجاح جو إعلامي مناسب لإذاعة قرارات مؤتمر أرضروم وكسب التأييد الشعبي لما في جميع أنحاء تركيا . وفي هذا المؤتمر تغير اسم جمعية الدفاع عن حقوق شرق الأناضول إلى اسم أكثر شهرة هو « جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والرومل » ، « أناضولو وروملي ملافقي حقوق جمعق » ، مع تشكيل لجنة دائمة من بعض أعضاء المؤتمر يرأسها مصطفى كمال . وأصبحت هذه اللجنة هي رائدة الكفاح الوطني وأداة

إثارة الأكراد على الكاكايين :

وقد ردت حكومة إستانبول بتشجيع من بريطانيا على نشاط الكاكايين ، فأثارت قبائل الأكراد الضاربة في شرق الأناضول ضد حركة مصطفى كمال . ولم تسمر هذه المحاولة عن نتائج ذات بال ، بل جاءت بنتيجة عكسية ، إذ كانت من العوامل التي أدت إلى سرعة قطع العلاقات بين حكومة إستنبول والكاكايين . ويلاحظ أن مصطفى كمال ظل حريصاً معطماً الوقت على ألا يبدو مظهر التأثير على الحكومة الشرعية في إستانبول . ولما أصدر السلطان « زيادة » بزملة من منعيه كفتش عام للجيش الثالث - وكان مقر قيادته في ماسون على ساحل البحر الأسود شمالي الأناضول - امتثل لهذه « الإرادة » وكف عن ليس الرى المكبرى ولرتدى الملابس المدنية .

(٢) سيواس مدينة تقع في شمال الأناضول .

برلمان إستانبول يتعاطف مع الكاليين :

اكتسبت حركة مصطفى كمال أنصاراً لها في طول البلاد وعرضها .
وتحمس لها الكيبيرون من سكان إستانبول مقر حكومة السلطان .
ولما أجريت انتخابات جلييلة في ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٩
لبرلمان العثماني الذي اجتمع في إستانبول في ١٢ من يناير - كانون ثان -
سنة ١٩٢٠ فاز بالأغلبية فيه أنصار مصطفى كمال والمتعاطفون مع حركته .
ولم يلبث أن أقر البرلمان الجديد - بعد مضي أسبوعين - صياغة الميثاق
الوطني في ضوء قرارات مؤتمري أرضروم وسبواس^(١) . وقد جاء في صياغة
هذا الميثاق موافقة البرلمان على أن تعد لجنة من جسم الدولة العثمانية الولايات عبر
التركية التي كانت تخاضعة لها . ولكن تمسك المجلس في مقابل هذه «التضحيات»
بعدة مطالب منها : الحفاظ على الأناضول متحرراً من كل غزو أجنبي
بصفة هامة الإقليم هو الموطن الأصلي للأتراك العثمانيين ، وعلى إقليم تراقيا
الشرقية ، وعلى بقاء إستانبول في نطاق الدولة التركية تأسيساً على أن هذه
المدينة هي « مركز خلافة الإسلام وعاصمة السلطنة » ومقر الحكومة ؛
وأن يكون بحر مرمرة ممتلي عن كل خطر أجنبي . ومعنى هذه الفقرة
تحرير منطقة المضائق من الوجود العسكري لدول المعسكر الغربي . وجاء
في الميثاق أيضاً أن تركيا تقبل فتح البوسفور والدردنيل لمرور التجارة
العالمية مع ضرورة إسهامها في النظام الذي يوضع لمرور التجارة العالمية^(٢) .
ويلاحظ أنه لم يرد نص في الميثاق لمرور السفن الحربية سواء للدول

(١) لم تفلح الحياة جدا البرلمان ، فقد عقد أمر جلسة له في ١٨ من مارس - آذار - سنة
١٩٢٠ حيث أصدر قراراً بالإجماع بالاستعانة على اقتضائهم على بعض أعضاءه ، ثم قرر تأسيس
اجتماعه إلى أجل غير مسمى .

ويذكر أن السلطان ساهم بقرار البرلمان صياغة الميثاق الوطني ، فأصدر في ١١ من أبريل
- نيسان - ١٩٢٠ قراراً على البرلمان بالموافقة على القرار نهاية العملية النهائية في إستانبول .

(٢) Toynbee Arnold J. ; The Western Question in Greece and Turkey London., 1922, pp. 209—210.

المصلحة أو الدول العداوة أو في وقت السلم أو زمن الحرب . وقال الميثاق إن هذه المبادئ هي التي تشكل قيام سلام عادل ودائم .

تعزير الاحتلال الأجنبي لإستانبول سنة ١٩٢٠ :

نشط أنصار مصطفى كمال في إستانبول وساعدوا الحركة الثورية قولا وعملا ، فأغلقوا ياجيون مستودعات الأسلحة والذخائر التابعة لقوات بريطانية وحليفاتها ، وبرزلوا مايسزلون عليه إلى الأناضول كقتالهم حرب . واتخذت بريطانيا وحليفاتها إجراءات مضادة وسريعة . حامت شكوكها حول على رضا باشا الصدر الأعظم وأتهمه بأنه ضالع مع الكمالين ، وطلبت سلطات الاحتلال من السلطان إقالته من منصبه . وألحق أن على رضا باشا لم يكن مؤيدا للكمالين قلباً وقالباً ، ولكنه كان متعاطفاً معهم . واستجاب السلطان لطلب سلطات الاحتلال بصورة أو أخرى . فاستقال الصدر الأعظم في ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ وكان عمره من رئاسة الوزراء أقرب إلى الإقالة منها إلى الاستقالة ، وعين مكانه صالح باشا وزير البحرية في ٨ من ذات الشهر . وقرر المجلس الأعلى للقوات المتحالفة في ذات اليوم تعزيز قوات الاحتلال في إستانبول . ودخلت في ١٦ من مارس - آذار - قوات بريطانية رابطة في شتى أحياء العاصمة إلى جانب القوات السابقة . وأمر الجنرال ولسن Wilson القائد العام للقوات المتحالفة بالقبض على المشتبه في أنهم من أنصار الكمالين ، ثم أمر بنفيهم إلى مالطة . وبلغ عددهم ١٥٠ كان من بينهم عدد من النواب . ولم يطلق سراحهم إلا في سنة ١٩٢١ في مقابل الإفراج عن ضباط بريطانيين اغتطلهم الكماليون في الأناضول واحتفظوا بهم كرهائن حتى تفرج الحكومة البريطانية عن الوطنيين المضطرين في مالطة .

المجلس الوطني الكبير :

دعا مصطفى كمال في ١٩ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ ، وهو اليوم التالي لتأجيل اجتماعات برلمان إستانبول ، إلى إجراء انتخابات تجرى في مدة وجيزة لمقعد مؤتمر طوارئ يجتمع في أنقرة حيث كانت اللجنة الدائمة قد

اجتمعت مقرأ لما منذ ٢٧ ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٩ . وقد قدر لهذه المدينة الحبيبة الصغيرة في الأناضول أن تصبح مقرأ لحركة المقاومة الوطنية ثم تدار عاصمة لجمهورية تركيا . ولتجتمع في ٢٣ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٢٠ في أنقرة ماهر ف باسم المجلس الوطني الكبير . وكان مؤلفاً من ٢٧٠ عضواً أصيب إليهم ثمانون كانوا قد غادروا ، إستانبول في يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٠ وحاول أعضاء المجلس إلى ذلك الوقت الوقت الإبقاء على علاقات ودية مع السلطان وألا يتدخلوا مظهر الثوار . وفي صوء هذه المحاولة أعلن الأعضاء ولاهم محمد وحيد الدين بصفته سلطاناً للإمبراطورية وخطبة للإسلام وأمرىوا عن رغبتهم في إلقاذه من أيدي الأعداء .

الصراع السافر بين السلطان واللكالين :

جاءت هذه المحاولة بتييجة حكيمة ، إذ ظن السلطان أنها دليل الضعف ، فحاصر صراعاً حقيقياً سافراً ضد اللكالين ، كان من مظاهر هذا الصراع :

(١) عين السلطان في ٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٢٠ داماداً (١) فريد باشا صندراً أعظم . وكان معروف بصلاته الشديد لللكالين .

(ب) استصدر السلطان من شيخ الإسلام - مفتي إستانبول سابقاً - واسمه دري زاده عبد الله أفندي فتوى تبرع قتل العصاة بناء على أوامر الخليفة . ويعتبر دري زاده عبد الله أفندي قتلهم فرض دين على كل مسلم بالغ قادر .

(ج) أصدر الصلر الأعظم إعلاناً دمج فيه بالبطلان الانتصارات التي دعا إليها مصطفى كمال ، واتهم الأعضاء بأنهم منافقون محادون ، وأنهم لا يمثلون الشعب التركي .

(د) أنشأت الحكومة في ١٧ من أبريل نيسان - قوات عسكرية أطلقت عليها قوات نظامية - قوة انضباطية - لمحاربة اللكالين .

(١) كلمة تركية ، مادة صهر

(٨) صلت في ١١ من مايو - آيار - أُنْصَحَ غيايية من محاكم
عسكرية في إستانبول بإعلاء مصطفى كمال ورفاقه .
وهكذا استخضع السلطان وأعضاء حكومته جميع ما في جيوشهم من أسلحة
دينية وعسكرية وقضائية وسياسية للقضاء على القوة الجديدة التي ظهرت
ونمت سريعاً في الأناضول .

وقد رد الكاكليون على السلطان وحكومته ردّاً عملياً بنفس الأسلحة
وكان من بينها :

(١) في ليلة ٣ - ٤ مايو - آيار - سنة ١٩٢٠ عين المجلس الوطني
الكبير مجلس وزراء في أنقرة .

(ب) في ٥ من مايو - آيار - أصدر معني أنقرة واسمه يوركش زاده
محمد رفعت أفندي فوى وقع عليها ١٥٢ مفتياً في الأناضول جاء فيها أن
الفتوى الصادرة من شيخ الإسلام فتوى باطلّة تأسيساً على أنها صدرت تحت
الضبط الأجنبي . ودعت الفتوى المسلمين إلى تحرير خليفهم من الأسر .

(ج) أعلن المجلس الوطني الكبير أن دُعا مد فريد باشا تشار(١).

ويلاحظ أن قرارات الكاكليين جاءت عامة بثلاث شخصيات كانت
أكبر الشخصيات على الإطلاق التي عرفتها الإمپراطورية العثمانية صرّاتاريخها
الطويل ، وكانت محل التبريل المعيق من الجواهر التركية ورعايا الدولة
المسلمين ، ومعني بهذه الشخصيات : السلطان ، وشيخ الإسلام ، والصبر
الأعظم . ولذلك لم يكن استقبال الشعب لهذه القرارات فائراً فحسب ، بل قامت
مظاهرات احتجاجاً عليها . وكانت حكومة إستانبول تشجع هذه المظاهرات .

معاهدة سيفر تحسم الكاكليين في وقت عصيب :

اكتسب الحو الدياسي أمام الكاكليين ، ولكنها كانت أزمة حادة ، وبدأ
الموقف يصحول لصالحهم . كان الوفد التركي الذي يمثل حكومة السلطان لدى

مؤتمر الصبح قد وقع في ١٠ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٠ على معاهدة سيفر. وقد أثار هذا الحادث موجة عارمة من السخط على المعاهدة وعلى الموقعين عليها. ونظرت الجماهير إلى الدعاوى وحكومته على أنهم دمر للهزيمة والتضيق في حقوق البلاد. وصمت مكانة الكالبيين. وكان نجاحهم في محاربة اليونانيين قد ربط بين الكالبيين والقضية الوطنية، وجعل معارضة الحركة الكالبية - بدلا من تأييدها - بمثابة خيانة للوطن.

حكومتان في تركيا :

ونجم عن ثورة مصطفى كمال أن وجدت في تركيا حكومتان في وقت واحد ' حكومة في إستانبول لا حول لها ولا قوة ، رأسها السلطان محمد السادس وهو حاكم شرعي (١) *de jure* يستمد وجوده من حق توارث العرش العثماني ، وحكومة في أنقرة ذات سلطات واسعة مصادرة لرأسها مصطفى كمال وهو حاكم فعلي (٢) *de facto* أي حاكم يستند في ممارسة سلطاته إلى الأمر

(١) مصطلح قانوني يستند إلى القانون والحق *Le droit*

(٢) مصطلح قانوني يستند إلى الأمر الواقع *Le fait*

و من الملاحظات المهمة يستعمل طابان المصطلحان عند التفرقة بين نوعين من احترام الدول بدولة جديدة ثلاثة أو بحكومة جديدة تلت بقلب في دولة قديمة قائمة وأدى إلى قيام نظام جديد *nouveau régime* الحكم بها ، فيقال الاحترام القانوني *de jure* أو *Reconnaissance de droit* وهو الاحترام المصرح للبائدر ، والاعتراف بالواقع *de facto* أو *Reconnaissance de fait* ويكون هذا الاحترام من طريق إنشاء علاقات مع الدولة الجديدة دون التمس بصفته رسميه صريحة لموضوع وجودها القانوني. وهذا ما حدث مثلا لحكومة أنقرة لقد احترف بها بعض الدول مثل الاتحاد السوفيتي وفرنسا وبلجيكا وألمانيا في الوقت الذي كانت لا تزال الحكومة في أنقرة قائمة برؤسها السلطان محمد السادس ومما يميز الحكم مثل الصغر الأعظم وحتى إستانبول والوزراء. ومرد التفرقة في الاحتراف إلى حقيقة التمييز بين حق لا يرضخ عليهم التسرع في الاحتراف بها إلى بدولة ناشئة إذا كانت ظروف قيامها تتطلب القرب في الاحتراف بها من ناحية ، وحتى لا تتأخر عاقبتها لفشائها الخلل بين حين استقرار وضعها فعليا من ناحية أخرى ، فاحسن الدول إلى الاحتراف بربيع وجودها أولا حتى يستقر لها الأمر

الواقع . وكانت توجد إلى سنوات ذات عدد في التطريح المعاصر حالة مماثلة للحكومة المزدوجة في دولة واحدة هي الصين (١).

- تصدر عما اشترتها القاتلون . والفرقة بين الاعتراف بالواقع والاعتراف بالتفويض، وذن، بهال الدبلوماسي ، ولكن لا أثر لهذه الطريقة في المحيط القانوني ، للاعتراف ، سواء كان اعترافاً قانونياً أو اعترافاً بالواقع ، ترتب عليه ذات الأثر بالنسبة للقوة الصادر منها والقوة الصادر منها . وجدير بالذكر أن قهقهة القانون للمولود العام يعرفون بين الاعتراف بالقوة ، وعن صوره ظهور دولة جديدة ، والاعتراف بحكومة جديدة قامت نظام حكم جديد في دولة قديمة قائمة ، مع مراعاة هذا المبدأ الأساسي الذي لا يميل تقنياً ، وهو أن لكل دولة حلق الحرية في أن تكتب نظام الحكم الذي يراها ، بما ، دون أن يكون الدول الأخرى سلطان عليها في هذا الأمر ، وإلا كان ذلك تدخل في شئونها الخاصة . ويمكن من أجل الاعتراف بالحكومة الجديدة أن يثبت أنها تدير شؤون الحكم فلا تدخل الدولة ، وأن في استطاعتها أن تهبها القوة بالترامبات الدولية .

دكتور علي صادق أبو حبيب : القانون الدولي العام النشر منشأة للمطبوعات بالإسكندرية ، الطبعة الرابعة ، ١٩٥٩ ، ص ١٥٩ - ١٧٧ .

(١) بدأت المشكلة في سنة ١٩٤٩ على أثر اتصال قوات ملوتس تونج للتبوية على قوات حكومة تشانج كاي شيك الوطنية ، واستيلاء الأول على مقاليد الحكم في الصين وتطبيق النظام الاشتراكي في أرجاء البلاد ، واتجهت اللجنة إلى جزيرة فرموزا وإقامة الحكم لها باسم الصين الوطنية . وبذلك أصبح في الصين حكومتان في وقت واحد حكومة جديدة برأسها ملوتس تونج هي حكومة الصين الشعبية وسيطر على كل أقاليم الصين في آسيا سياساتها الثلاثة وما يزيد على ٧٥٠ مليون نسمة والحكومة القديمة برئاسة تشانج كاي شيك ، والقصر سلطانها على جزيرة فرموزا والجزر الصغرى المجاورة لها ، وتحتفظ لا يريد كثيراً على ستة ملايين نسمة واحتوت بعض الدول بحكومة بكين ، بينها رفضت الدول الأخرى الاعتراف بها . وتبعد الوضع على هذا النحو زاد ٢٢ سنة وواجهت مشكلة عضوية الصين في الأمم المتحدة ، لأن الصين إحدى الدول الخمس التي تتصاع بالعضوية القائمة في مجلس الأمن ، وكان مقضى للعقل القانون هذا المحذور أن تحمل الصين الشعبية محل الصين الوطنية في عضوية الأمم المتحدة ، وما يرتب على ذلك من حق العضوية القائمة في مجلس الأمن ، لأن الفترة الأولى من المادة ٢٢ من الميثاق عند ما أُنشئت إلى الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن ذكرت الصين مجردة من كل وصف . وبلاحت أن منظمة الأمم المتحدة قد نشأت قبل قيام الثورة الاشتراكية في الصين . وقد وقعت دول الغرب وتكتفح لمنع الصين الشعبية من عضوية الأمم المتحدة . وانتهى هذا الصراع في الثورة السادسة والعشرين للجمعية العامة للأمم المتحدة، إذ وافقت بجملة ٢٥ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٧١ على إحلال الصين الشعبية محل الصين الوطنية .

من أسباب نجاح الثورة الكالاية :

كانت عاربة اليونانيين هي المشكلة الأولى التي فرضت نفسها على الكالايين ، واحتلت مكان الصدارة في عخطهم اعتقاداً منهم أن لإحلام اليونانيين عن أزمير وطرحهم من الأناضول هما مفتاح جميع المشكلات التي سوف تتوارى أو تخف حدتها تلقائياً ، الأمر الذي يؤدي في نهاية الكفاح إلى إلغاء معاهدة سيفر .

كان اليونانيون ضد نزولهم أزمير سنة ١٩١٩ أكثر عنفاً وعدة ، وأزّلوا بالأتراك هزائم متتالية واستولوا على بروسه وثوغاوا في الأناضول . ولكن بدأ الموقف مع بداية سنة ١٩٢١ يتطور تطوراً مريعاً لصالح الكالايين . وكان هناك حملتان حاسمتان في هذا التطور : أولها شجاعة الأتراك كشعب عارب من الطراز الأول فقد ألزم على إزال الراية اليونانية المودولة في حينه والتي كانت تخفق عالية فوق أزمير وبقاع أخرى في الأناضول وثرافية وغيرها . وثانيها تصدح الحبهة الداخلية في اليونان ، فقد انتزع الموت فجأة إسكندر ملك اليونان الشاب على أثر عضة قود أليف . وفي أعقاب هذا الحادث جرت انتخابات عامة أسفرت عن تنحية فثريايوس عن رئاسة الوزارة في ١٤ من نوفمبر - تشرين ثا - سنة ١٩٢٠ ومصادرة البلاد (١) وتعرض

= انظر تعليقات عن هذا الموضوع في :

دكتور عبد العزيز محمد سرحان : التنظيم الثوري . للنشر مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٢ ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .

وما هو جدير بالتفكير أنه الزعيم ملوتس تونج وافته الأجل في الساعة الواحدة والثلاثة الباعرة من صباح الخميس ٩ من شهر سجب - أيلول - عام ١٩٧٦ بتوقيت بكير (في الساعة الثلك والثلاثة الباعرة من مساء الأربعاء ٨ من شهر سجب - أيلول - بتوقيت القاهرة) عن ٨٢ عاماً ، وكان آخر عرافة القصر التي قاد مسيرة الصين الطويلة من عالم التنقل والفكر لتصبح واحدة من قوى العالم الأسلمية في التاريخ المعاصر .

(١) انظر أسباب سقوط القسب اليوتاني عن فثريايوس في

العرش اليوناني طرأت حقيقة في تلك الفترة. من أحد كبار ضباط البحرية اليونانية وصياً على العرش^(١) ثم حلت مكانه بعد شهر وبعض شهر الملكة الوالدة أوجيا^(٢) Olga ، ثم أجرى استفتاء عام جادت نتيجته لمصلحة قسطنطين الملك الأسبق، وكان قد أقصى عن العرش سنة ١٩١٧ لمؤله الصارخة تجاه ألمانيا ، معاد على العرش في ٥ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٠ ومعه حاشيته الألمانية، واحتلت دول المحسكر الغربي فترة طويلة من الاعتراض به. ولاحق أن إقصاء فريولوس عن الحكم قد حرم اليونان من حلف بريطانيا وبعض قطاعات الرأي العام بها ، كما ضيع عليها فرصة الاستيلاء على الأناضول أو نصحه الغربي على الأقل نظراً لما كان يتمتع به هذا الزعيم السياسي من تقدير صيق من رجال السياسة في أوروبا القبلية التي أسماها للمعسكر الغربي، وما كان يتحلى به من عقلية وحية الآفاني ودعاه وقد نظر وقيادة حكيمة .

كان الملك قسطنطين مفزماً مهتوراً ، بينما كان فريولوس حليماً يتجنب التورغل داخل الأناضول جيداً من الساحل لمهاجمة الكاكايين . وقد صمم الملك على أن تحف على أنقرة ويتطابق في المصائب الصهرية الجرفاء المبيعة بهذه المدينة أملاً في فرض شروطه على الكاكايين من مرصعات الأناضول . وكان الدافع له على هذه الخطوة الحربية حرصه على عرشه وتحقيق مصلحة أسرته . وكان يُعمل في أن يجد من لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية عوناً مادياً وتأليفاً أدبياً يكفلان له النجاح . وتوقع الجبرلاء العسكريون في أوروبا

(١) كان هذا القائد البحري هو الأدميرال كونتوريوتس Admiral Kountouriotis وقد ظل وصياً على العرش في الفترة من ٢ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٠ حتى ١٦ من نوفمبر - تشرين ثالث - سنة ١٩٢٠ ، ثم حلت وصياً على العرش مرة أخرى في الفترة من ٢١ ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٢ حتى ٢٥ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٤ تفرغ لإعلان قيام الجمهورية الهلينية ، وانتخب رئيساً للجمهورية في ١٤ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٢٤ وتلقب انتدابه في ٢٤ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٦ .

(٢) ظلت الملكة الوالدة وصية على العرش في الفترة من ١٧ من نوفمبر - تشرين ثالث - سنة ١٩٢٠ حتى ٤ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٠ .

وقد نال فشله في الوصول إلى مشارف أنقرة . وكان من تصرفاته التي اتسمت بالهفوة وصحت عليه أنه طرد من الخدمة عدداً لا يستهان به من ضباط الجيش بحجة أنهم من أتباع قنبريلوس مما أدى إلى حرمان الجيش من كفاءات عالية في وقت عسير كان يتطلب حشد جميع الجهود والارتقاء بالمستوى القتلى .
ليستطيع الجيش الصمود أمام الكاليين .^١

الانتصارات الأولى لثورة على اليونانيين :

أتاح هذا التصنيع في الجبهة الداخلية اليونانية فرصة مواتية أمام الكاليين لإزالة ضربات موجعة باليونانيين . ففي ١٠ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢١ تصدت قوة تركية بقيادة عصمت الليونانيين في واد قريب من إسنوف . ودارت معركة استمرت يومى ٢١ مارس - آذار - وأول أبريل - نيسان - ورحلت اليونانيين على أضعافهم خامسين . ولقى عصمت تقديراً هيقاً . أطلق عليه عصمت إيسوب تمجيذاً لبطولته في إلقاء المرمية باليونانيين ، كما رقى إلى رتبة عميد . ولم يلبث أن قام اليونانيون بزحف جديد بدأ في يوليو - تموز - سنة ١٩٢١ والتقوا بالكاليين عند نهر سفارية حيث شنت معركة كبرى . وكان مصطفى كمال يقود القوات التركية ، ولحزرت إنتصاراً رائعاً وانسحب اليونانيون مرة أخرى في اتجاه الغرب . وفي غمرة الاحتجاج بهذا الانتصار أصدر المجلس الوطني الكبير قراراً بمنح مصطفى كمال لقب « غازى » ومعناه في اللغة التركية « الظافر في حرب مقلعة » . وكان لانتصار الكاليين في سفارية أصداء بعيدة : اعترف بهم دولياً كقوة عسكرية وسياسية لها ورنها في تركيا ، بينما اعترف البعض بهم كحكومة قائمة على أساس من الأمر الواقع *de facto* في تركيا .

اليونانيون يسعون لانتصار رخيص :

وغد سعى اليونانيون وسط هذه المهرام التي نزلت بهم إلى إحراز نصر رخيص . فضدت الوزارة اليونانية الانتلالية بمكثرة في يونيو - حزيران - سنة ١٩٢٢ إلى بريطانيا وحليفاتها طالبت فيها بأن تسمح هذه الدول الحليفة

القوات اليونانية باحتلال إستانبول . وجاء في المذكرة أن احتلالها والاستيلاء عليها هو الذي يؤدي - في نظر الزلزلة اليونانية - إلى استتباب السلام في المنطقة . ومن المعروف . كما ذكرنا - أن القوات التابعة لبريطانيا وبلجيكا كانت تحتل إستانبول . ومعنى المذكرة اليونانية أن تتولى القوات المحايدة من مواضعها وتغادر العاصمة التركية لتحتلها القوات اليونانية دون أن تطلق طلقة رصاص واحدة . وقد رفضت المذكرة جميع اللول عند بريطانيا التي تأرجحت في موقعها . وحددت تلك اللول بأنها سوف تخدم القوة إذا حاولت اليونان تنفيذ مشروعها . وكان مرد هذا الرفض إلى أن دول المحسكر الغربي كانت تعلم حتماً يقيناً أن الاحتلال اليوناني لإستانبول سيؤدي إلى تصعيد الموقف في المنطقة تصعيداً خطيراً . وإذا كان الكاليون قد نظروا إلى احتلال اليونانيين لأرمير على أنه إهانة لاتفاق . فإنهم سينظرون إلى احتلال اللوثانيين لإستانبول عاصمة الإمبراطورية على أنه كلثة وطنية تصال مع أمامها جميع الكوارث . وصيحاتون السلاح في وجه اليونانيين في إستانبول الأمر الذي يؤدي إلى إذهال حرب في العاصمة ومخافتها بما يعرض المدن في عبورها اليوسفور نشئ الأخطار .

الكاليون يطفون مع الروس على مستقبل البحر الأسود والخليج :

وكما كانت سنة ١٩٢١ هي سنة الانتصارات العسكرية التي حققها الكاليون ، فقد كانت أيضا سنة انتصارات دبلوماسية حققوها في المحلات الدولية . فقد رأوا دعماً الحركة الكالية إنشاء علاقات صداقة مع عدد من اللول ومزعان ما حدث لقاء سياسي ودبلوماسي مع حكومة موسكو . استغلت الحكومة الأخيرة الصحوات التي كانت تواجهها الحركة الكالية ، إذ كانت بريطانيا تؤيد علناً وغالباً اليونانيين واحتلالهم أرمير ، وفساند استمرار الاحتلال للفرنسي والإيطالي لمناطق هامة في الأناضول ، ومن ثم سعى النظام السياسي الجديد في روسيا ليكتب تأييداً شعبياً واسعاً ضد بريطانيا وحقباتها التي خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى ، لعل في احتضان الشعوب القويرة ، والمظاهر بمساعدتها ضد قاهرها من اللول

الأوروبية . علمت الحكومة الاشتراكية في موسكو على إنشاء علاقات دبلوماسية مع أفرة منذ ٢٤ من أغسطس - آب سنة ١٩٢٠ . وقد وصل إلى موسكو في ٨ من نوفمبر - تشرين ثان - أول معوث دبلوماسي تركي يمثل الحركة الثكالية ليشغل منصبه . وتوصلت الحكومتان إلى عقد معاهدة في موسكو في ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢١ أطلق عليها معاهدة الصداقة بين تركيا والروسيا . وأطلق على تركيا في هذه المعاهدة اسم حكومة الخمس الوطني الكبير في تركيا ، كما أطلق على الروسيا اسم الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية (١) R. S. F. S. R.

وقد جاء في مقدمة المعاهدة أو الدباجة Le Préambule - وقصلاً لمصطلح القانوني - أن هاتين الحكومتين تشتركان في دعم مبادئ حرية الشعوب وفي تأييد حق كل أمة في تقرير مصيرها ، وتضمنان في اعتبارهما الكفاح المشترك للنزى نحو حرة كل منهما ضد الاستعمار ، وتلتركان أن الصالح التي تواجهاها إحدى الحكومتين تنعكس على الحكومة الأخرى مما يجعل مركزها أكثر موصلاً . وجاء أيضا في مقدمة المعاهدة أن تلكا الحكومتين تجددوا رغبة في إنشاء علاقات صداقة دائمة تقوم على المصالح المشتركة ، وأنهما قررا عقد اتفاق يؤكد علاقات الودة والصداقة بين البلدين .

اشتملت أحكام المعاهدة Le Dispositif على ست عشرة مادة . وقد جاءت المادة الأولى من المعاهدة بعدة مبادئ هامة استهدفت لرم مركز الثورة الثكالية في مواجهة بريطانيا وحليفاتها وفي مواجهة حكومة السلطان في إسطنبول . ومن بين هذه المبادئ رخص حكومة موسكو الاعتراف بمعاهدة سيفر التي فرضت على تركيا في السنة السابقة (١٠) من أغسطس - آب - عام ١٩٢٠ ، وفي ذات الوقت وفي نفس المادة اعترفت

(١) تظل هذه الحروب ، الاسم الرسمي الروسيا في ذلك الوقت (سنة ١٩٢١)

Russian Socialist Federal Soviet Republic

ويرمز إلى اسمها حاليا (سنة ١٩٧٧) بالحروف التالية U.S.S.R. أي اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وتختصر هذه الحروف عادة إلى حرفيها : Soviet Union S.U. أي الاتحاد السوفيتي .

موسكو بالميثاق الوطني التركي ، وأعادت تخطيط الحدود الثنائية الشرقية لتركيا . نصت هذه المادة على أن للطرفين المتعاقدين عهد اتفاقا على رفض الاعتراف بأية معاهدة سلام أو أي اتفاق دولي آخر يفرض على الطرف الآخر ضد رغبته . وخلصت من هذا المبدأ العام إلى القول بأن الحكومة الجمهورية الروسية الاشتراكية توافق على عدم الاعتراف بأي اتفاق دولي يخص تركيا ولم توافق عليه الحكومة الوطنية في تركيا والتي تمثل في ذلك الوقت في المجلس الوطني الكبير . ومضت المادة الأولى من المعاهدة تقرر أن تعبر تركيا في هذه المعاهدة يعني الأقاليم التي حددها الميثاق الوطني المؤرخ في ٢٨ من يناير - كانون ثالث - سنة ١٩٢٠ والذي صدر عن مجلس النواب العثماني في إسطنبول وأبلغ في ذلك الوقت إلى الصحافة وإلى جميع الحكومات الأجنبية . وأخيرا تناولت المادة الأولى تخطيط الحدود الثنائية الشرقية لتركيا .

ونصت المادة الثانية على أن تتنازل تركيا لبحروريا عن حق السيادة على مدينة ونهر باطوم على البحر الأسود وأن يمارس سكانها قسما وافرا من الحكم الذاتي ضمن لكل طائفة حقوقها الثقافية والدينية، ويسمح لهم بوضع القوانين الزراعية طبقا لرغبات هؤلاء السكان . ولكن تقرر منح تركيا حق المرور الحائقي لجميع الصادرات والواردات التركية في نهر باطوم بدون دفع ضرائب أو رسوم بحرية وبدون معوقات أو تأخير ، كما تقرر حق تركيا في استخدام نهر باطوم بدون مصاريق خصوصية .

وتعرضت المادة الخامسة لموضوع مرور السفن عبر المضائق والوضع السياسي لبحر الأسود ، فجاءت صياغتها على النحو التالي :

« من أجل ضمان فتح المضائق لتجارة جميع الشعوب، يوافق الطرفان المتعاقدان على أن يعمدا بوضع الصياغة النهائية لاتفاق دولي خاص بالبحر الأسود إلى مؤتمر يتكون من ممثلين يمثلون الدول الساحلية (لهذا البحر) بشرط ألا يكون من طبيعة قرارات هذا المؤتمر المساس بالسيادة الكاملة لتركيا وبسلامة إستراتيجيا عاصمتها » .

In order to assure the opening of the Straits to the commerce of all nations, the Contracting Parties agree to entrust the final elaboration of an international agreement concerning the Black Sea to a conference composed of delegates of the littoral States, on condition that the decisions of the abovementioned conference shall not be of such a nature as to diminish the full sovereignty of Turkey or the security of Constantinople, her capital.

• ويلاحظ على هذه المادة أنها جاءت متفضية وانطوت على مبادئ عامة ، دون أن تتعرض لأية تفصيلات ، فهي تقرر حرية المرور لجميع السفن التجارية في الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور ، وأعلنت ذكر السفن الحربية سواء السفن التابعة لتركيا أو روسيا ، وسواء السفن التابعة للدول الأخرى وكان هذا الإغفال متعمداً . كما نصت تلك المادة حزم الحكومتين على عقد مؤتمر يمثل تركيا والروسيا وبلغاريا ورومانيا بصفتها دولاً تطل على الأسود لتقرير الوضع السياسي لهذا البحر فيها حداً ثمر باطوم على النحو الذي أشرت إليه المادة الثانية كما سبق أن ذكرنا . واحتاطت المادة الخامسة بالنص على عدم المساس بالسيادة الكاملة لتركيا ، وعلى بقاء إستنبول عاصمة لتركيا وعلى المحافظة على ملامتها أى تحريرها وتحرير مياهها الإقليمية من القوات الأجنبية .

وجاء في المادة السادسة أن الطرفين المتعاقدين يوافقان على أن المعاهدات التي أبرمت إلى ذلك الوقت بين الحكومتين لا تنطبق مع مصالحهما المشتركة . وعلى ذلك فقد اتفقا على اعتبار هذه المعاهدات ملغاة . كما نصت ذات المادة على موافقة حكومة موسكو على إعفاء دمه الحكومة التركية من جميع ديونها والزاعات المالية التي تفررت في معاهدات سبق أن عقدت بين تركيا والحكومة القيصرية السابقة .

وجاء في المادة السابعة أن الحكومة الاشتراكية في موسكو توافق على إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية في تركيا^(١) تأسيساً على أن هذا النظام لا يتماشى

(١) كانت سلطنة سيفر تدعو إلى إلغاء هذا النظام في تركيا ، على الرغم من أن الحكومة القبلية كانت قد أرسلت مندوباً إلى الدول الأجنبية مؤرخاً في ٩ من شهر سبتمبر ١٩١٨ - تقترحها بإلغاء هذا النظام ابتداءً من أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٨ .

مع الممارسة الكاملة لحقوق السيادة ومع التقدم الوطني في أى بلد . وقد تناولت المواد من ٨ إلى ١٦ في تلك المعاهدة مائل لا تتصل في نطاق هذه الدراسة^(١) .

مزيد من الانتصارات العسكرية والدبلوماسية :

حققت الحركة الكيالية مزيداً من الانتصارات العسكرية والدبلوماسية. كانت القوات الإيطالية والفرنسية تحتل مناطق هامة في جنوبي الأناضول مما يجعل نفوذ تركيا في شمالي الخوض الشرقي للبحر المتوسط مراباً . مضت قوات الاحتلال الإيطالية والفرنسية توطد مواقعها ولا تبقى الجلاء عنها . وخاض الكياليون حرب استنزاف ضارية. ودرأت إيطاليا بحسب قواتها من الأناضول، وتم جلاؤها في ٥ من شهر يوليو - تموز - سنة ١٩٢١ فكانت إيطاليا أول دولة تجلو عن الأناضول . ولكنها احتفظت بجزر الدوديكانيز . أما فرنسا فقد استمرت تحتل مناطق هامة في جنوبي الأناضول ، وشدد الكياليون ضغطهم على القوات الفرنسية وغلبوا إلى حرب العصابات وأتزلوا خصائر فادحة متعاقبة بالقوات الفرنسية وخاصة في كيليكا Cilicia - وهي منطقة جبلية تقع في إقليم طوروس ، في جنوب شرقي الأناضول وشمالي سوريا - وعلى الرغم من الهدنة المؤقتة التي عقدت في ٣٠ من شهر

(١) تجد النص الرسمي واكمل هذه الملحة في كل من :

British and Foreign State Papers, Vol. 111, pp. 590-596.

Survey of International Affairs, 1920-1921, pp. 361-376.

وانظر أيضاً كلا من :

Dennis A.L.F. , Foreign Policies of Soviet Russia, chaps. 9,10.

Fischer L., Soviets in World Affairs, Vol I, Chap. 12.

وانظر كذلك ملأاً هتوان :

Les Relations Russo-Turques depuis l'avènement du Bolchevisme

في مجلة

Revue du Monde Musulman, No. 25 (Decembre, 1927) pp. 181-206.

و قد تم تبادل وثائق الصديق على هذه الملحة في مدينة قارس في ١٣ من شهر محرم -

أيلول - سنة ١٩٢١ .

(ج ١٨ - في الدولة المشتملية)

مايو - آيار - سنة ١٩٢٠ فقد استمرت العمليات الحربية بين الكالكين والفرنسيين تطور في عنف بالغ . ورجحت كفة الكالكين ، واضطرت فرنسا إلى إعادة تقدير الموقف الحربي والسياسي في منطقة الشرق الأدنى كلها ، ومن ثم قررت في مارس - آذار - سنة ١٩٢١ الاعتراف بالحكومة الكالمية *de facto* ، ولم تمض ستة أشهر حتى قررت الجلاء عن منطقة كيليكيا حتى يتفرغ لتركيز جهودها على سوريا ولبنان . وقد عقد اتفاق *accord* في مدينة أنقرة في ٢٠ من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢١ عرف باسم اتفاق فرانكلين بويو *Henri Franklin Bouillon* وهو المندوب الفرنسي الذي وقع على الاتفاق^(١). وعلى الرغم من أن هذا الاتفاق لم يتعرض لمشكلة مرور السفن التجارية والحربية في المضائق ولا لتقرير السيادة التركية على منطقة المضائق إلا أنه تناول مسائل بالغة الأهمية . فقد قرر إنهاء حالة الحرب بين الكالكين والفرنسيين ، وجلاء للقوات الفرنسية كلية عن منطقة كيليكيا ، وأعاد تعطيط الحدود بين تركيا وسوريا على نحو أفضل من الحدود التي قررتها معاهدة ميتر من وجهة المصالح التركية ، واستولى الكالكيون على كميات وفيرة من الذخائر والأسلحة كانت في مستودعات الجيش الفرنسي في كيليكيا ، واستعادوا الأسرى الذين كانوا في أيدي الفرنسيين^(٢) . واستطاع الكالكيون تعزيز قواتهم التي كانت تحارب فرنسا وتوجيهها إلى تصفية الاحتلال اليوناني وطرد اليونانيين كلية من

(١) كان المندوب التركي هو يوسف كمال بك وزير خارجية الحكومة الوطنية في أنقرة .

(٢) نجد للمصطفى كمال أتاتورك هذا الاتفاق في :

League of Nations, Treaty Series, No 1284, Vol. 54 (1926-27), pp. 178-193.

وانظر أيضاً كلاً من :

Temporary ILW.V., History of the Paris Peace Conference, Vol. VI pp. 33-35.

Cunningham H.H., Franco British Rivalry in the Post-War Near East, chapter XII.

Vore-Hodge E.R., Turkish Foreign Policy, 1918-1968, pp. 33-37.

وهذه أقرت الحكومة الفرنسية هذا الاتفاق ودخل في دور التنفيذ ابتداء من ٢٨ من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢١ .

الأناضول . وبعد هذا الاتفاق أول اتفاق يعقد بين الحكومة الكالية في أترية وبين دولة أوروبية حرة . وقد كشف هذا الاتفاق عن حق الاختلاف بين السياسة الفرنسية والسياسة البريطانية تجاه المشكلات الخاصة بتصنيف ممتلكات الدولة العثمانية في منطقة الشرق الأدنى .

كان من نتائج المعاهدة التركية الروسية والاتفاق التركي الفرنسي (١) وانسحاب القوات الإيطالية والفرنسية من الأناضول أن تدمج مركز الكاليين سواء في التدخل تجاه حكومة السلطان ، أو في الخارج تجاه اليونان وبريطانيا . وحصل الكاليون على كميات وفيرة إصامية من الأسلحة . وكان على اليونانيين أن يواجهوا بمحرمهم الموقف الحربي أمام الكاليين دون الاعتماد على مساعدات أجنبية .

الكاليون يحرضون النصر على اليونانيين بطردهم من الأناضول :

في ٢٦ من شهر أغسطس - آب - سنة ١٩٢٢ كان اللقاء الحاسم في حرب التحرير التي خاضها الكاليون ضد اليونانيين في الأناضول ، فقد أحرروا انتصاراً ساحقاً على اليونانيين في حملينار Demisinar وساقوا اليونانيين أمامهم حتى دخلوا أزمير في ٩ من شهر صفر - أيلول - سنة ١٩٢٢ وأشعلوا النيران في جميع الأحياء اليونانية في المدينة وذهبوا جميع من صدهم من الجيش اليوناني . وأنقلت سفن بريطانية وحليفاتها جوعاً كثيفة العدد من المسيحيين هلموا على وجوههم فراراً من الكاليين . ولم يضع هذا الانتصار الساسق نهاية للحكم اليوناني في الأناضول فحسب ، بل كان من نتائجه أنه وضع نهاية لحكم اليونانيين في هذا الإقليم ، لأن مصطفى كمال لم يقبل بطرد أو ذبح جميع الجنود اليونانيين فقط ، بل طرد كل يوناني كان يقطن الأناضول ، خشية أن يقوم بقايا اليونانيين في الأناضول بتشكوين طابور خامس أو تشكيل جيوب يونانية قد تنقلب على الكاليين في قبال الأيام . وطاردت أحلام اليونانيين في إنشاء دولة لهم في الأناضول . واشتد ضغط

(١) جمعت حكومة أترية أيضاً في هذه المعاهدات صداقة مع جمهورية فنزويلا والبرازيل وأستراليا . وكان إبرام هذه المعاهدات دعماً سياسياً وأيدياً كبيراً للحركة الكالية .

اليونانيين على ملكهم قسطنطين ، واعتصروا المشول الأول من هذه الكارثة التي أرجعوها إلى سوء تدبيره وانتفاخه في توغله في مضاب الأناضول بعيداً عن الداخل ، واستقروا رأياً على أن « وجوده على العرش قد حرم أصلقاء اليونان الأتقياء من مساعدتها » (١). وفي ذات الشهر أكره على التنازل عن العرش ، وكتب وثيقة للتنازل عن العرش بالقلم الرصاص في ٢٧ من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢٢ وغادر البلاد إلى بالرمو *Palermo* في جزيرة صقلية. ولم تطل به الحياة فقد وافاه الأجل في ١١ من شهر يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٣ .

أثر تغير وزرى في بريطانيا على الكالين :

استعد مصطلح كمال لمواصلة الصراع الحربى في تركيا الأوروبية لطرد اليونانيين من تراقيا الشرقية . وكان عليه في هذه المرحلة أن يعبر البالدن ، وكانت تحطه قوات تابعة لبريطانيا وظل البريطانيون في مواقعهم لا يفتون عنها حولا. ولما أن صدماً ملحاً وشيك الوقوع بين الكالين والبريطانيين أمر لامفر منه . فترئس الوزارة البريطانية لويد جورج ، متعاطف مع اليونانيين كما ذكرنا ، وقد صرح بأنه سيبلغ عن « حرية المضائق » وأنه سيفى في وجه هجوم الكالين ويمنعهم من العبور إلى أوروبا . وهو تهديد صافر أزعج أقطاب حزب المحافظين وخشوا اندلاع حرب جديدة في منطقة الشرق الأدنى *The Near East* كما كانت تسمى في ذلك الوقت . وعلموا أن تمتد غيب هذه الحرب إلى أوروبا ، فقبلوا إجتاحتاً في مقر حزبهم في أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٢ وقرروا الانسحاب من الوزارة الائتلافية ، واضطر لويد جورج إلى تقديم استقالة الوزارة . وجاءت إلى الحكم وزارة المحافظين برئاسة ستانلى بلفورين *Stanley Baldwin* عقب انتخابات عامة ومخلص الكالين من شخص قوى جديد كان يضمر الكراهية للأتراك بمسغة عامة .

الفصل العاشر

السياسة العليا للدولة العثمانية

في ضوء خصائصها العامة (١)

الكاليون بمحسون عار سفير

تراجع بريطانيا وحلفائها :

لم نجد معاهدة سيفر من يغفلها ، لو كما يقول أحد قدامى المؤرخين الإنجليز المتخصصين في تاريخ الدولة العثمانية إن إكراه تركيا على توقيع معاهدة سيفر لم يكن أمراً سهلاً^(١). وقد أدركت الدوائر السياسية في دول المعسكر الغربي أن الموقف في تركيا يزداد تعاقفاً يوماً بعد يوم بسبب إصرار الكاليين على التخلص من الوجود العسكري اليوناني في الأراضي التركية ، وعن تحريد اليونان من حقوقها في السيادة على المضائق ، وهي الحقوق التي جاءت بها معاهدة سيفر ، وعلى إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية التي أعادته هذه المعاهدة وغير ذلك من مآخذ . واثبتت تلك الدوائر رأياً إلى أن إلغاء معاهدة سيفر أمر لا مفر منه لاستقرار الأمور في المنطقة ، وأنه يتعين في ضوء هذا الرأي وضع معاهدة سلم جديدة . ثم جاء انتصار الكاليين على اليونانيين ودخولهم أزمير في ٩ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢٢ معزراً لهذا الرأي لدى بريطانيا وحلفائها . وتتابعت الأحداث مراراً ، ففي ١١ من أكتوبر - تشرين أول - عقدت جلسة في مودانيا Mudanya تقرر فيها موافقة بريطانيا وحلفائها على أن تشرط تركيا سياستها على إستانبول والمضائق وثرانيا الشرقية (٢) . وقد احتلت الإقليم الأخير فوراً قوة من الجنترمة

M.Sir 97 op. cit., p. 242.

(١)

Levin Barand, op. cit., p. 234.

(٢)

التركية قوامها ثمانية آلاف جندي . وعلق تسليم تركيا بقية الأقاليم حتى يتم التوقيع على معاهدة سلام جديدة. وإذا كانت دول المحسكر الغربي قد ارتفعت عقد الهدنة، فقد اتفق اليونانيون سياسة أسياهم، فأقيموا هدنة مع الكالبيين في ١٤ من أكتوبر - تشرين أول - أي بعد مضي يومين من الهدنة الأولى . ثم اجتازت وفدت باشا البوسفور ودخلت إستانبول في رفقة لجنة تمثل المجلس الوطني الكبير ، وكان ذلك في ١٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٢ .

وكورقة أخيرة في يد الاستعمار حلوت بريطانيا وحليفاتها أن تشمل وجود حكومتين في تركيا لتسرب وقت الحليمة لإحداها بالأخرى، لو تمخذا من إحداها أداة للضغط على الأخرى . فوجهت دول المحسكر الغربي في ٢٧ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٢ الدعوة إلى كل من الحكومة السلطانية في إستانبول والحكومة للكالية في أنقرة لحضور مؤتمر يعقد في لوزان ، وهي مدينة في سويسرا تقع شمال بحيرة جنيف ، لوضع معاهدة جديدة لإقرار السلام بدلا من معاهدة سيفر التي انضج استحالة تنفيذها . وقد أجابت الحكومة للكالية بأها وحدها ودون سواها الحكومة الشرعية التي تمثل تركيا . وكان توجيه دعوة مردوجة إلى الحكومتين في تركيا دالها لمصطفى كمال على اتخاذ إجراء سريع لحسم هذا الموضوع الخطير ، وهو ادخول الحكومة في تركيا . ولكن يفضح مصطفى كمال العالم كله أمام الأمر الواقع، استصدر في أول نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ من المجلس الوطني الكبير في أنقرة قراراً بإلغاء نظام السلطنة ، ونص في القرار على أن يكون هذا الإلغاء بأثر رجعي يرجع إلى ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ أي قبل تاريخ صدور القرار بستين ونصف سنة . وكان الهدف من إدراج إلغاء السلطنة إلى هذا التاريخ (١) هو بطلان جميع المعاهدات والاتفاقات والصهوبات التي ارتبط بها السلطان وحكومته واعتبر معاهدة سيفر باطلة ، ويلعب الوفد الكاللي إلى لوزان وهو مطلق اليد غير مقيد

(١) يرجع اعتبار هذا التاريخ وهو ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ إلى أنه في هذا اليوم دخلت توليت برصقية جديدة الأسماء التركية في إستانبول بمنزلة قوات الاحتلال فيها .

بأية قيود جعلت بها معاملة سيئر . واستصدر مصطفى كمال من المجلس الوطني الكبير في ذات اليوم قراراً بالإبقاء على نظام الخلافة وأن تظل قائمة في البيت العثماني بشرط أن تستند كتنظام إلى الدولة التركية ، وأن يختار المجلس الوطني من بين أعضاء البيت العثماني خليفة يكون في عمله وفي عقله أكثرهم جدارة بهذا المنصب وأكثرهم ملائمة له . وبعد ثلاثة أيام أعلن المؤتمر أن حكومة السلطان في إستانبول قد فقدت أسباب وجودها *raison d'être* وأصبح لا وجود لها . وهرب السلطان محمد السادس في ١٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ على ظهر طراد إنجليزى أبحر به إلى مالطة . وعلى هذا النحو انزوى كانت نهاية آخر ملأطين الدولة العثمانية الذين حكموا إمبراطورية كانت من أعظم الإمبراطوريات العالمية . وباختصاص محمد السادس من الحياة السياسية كان الطريق ممهداً أمام المجلس الوطني الكبير ، فانتخب في ١٩ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ أميراً عثمانياً هو عبد الحميد خليفة للمسلمين لا سلطان . ولم يفتقر له أن يظل في منصب الخلافة أكثر من عام وبعض عام ، ثم أخرج إخراجاً غير كريم مع جميع أفراد أسرته من الأراضي التركية في فجر اليوم الرابع من شهر مارس - آذار - سنة ١٩٢٤ ، فبدأت نهاية آخر خليفة عثمان على ضرار نهاية آخر سلطان عثمان (١) .

مؤتمر لوزان (١٩٢٢ - ١٩٢٣) :

ذهب الوفد التركى إلى لوزان يمثل حكومة واحدة . وكانت الشروط أو ورقة العمل التى حلها معه هى التى كانت قد تمخضت فى الميثاق الوطنى قبل

(١) أصدر المجلس الوطنى الكبير فى ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٤ قراراً بزل خليفة عبد الحميد ، وإلغاء نظام الخلافة ، ونفى جميع أعضاء البيت العثمانى من الأراضى التركية . واتخذت الحكومة إجراءات أمن متددة خشية أن تقوم مظاهرات احتجاجاً على طرد الخليفة . وتم نقله - فى غير اليوم تظلم لصدور القرار - فى عربه أخته إلى محلة مكة لحيد متبردة تقوم خارج إستانبول ، وتم وضعه فى قطار للفرق السريع . ويلاحظ أنه لم يستقل القطار من المحلة الجديدة الرسمية وحى محلة شركس . ولما استيقظ الشعب فى الصباح وجد أن جميع إجراءات ترحيل الخليفة وأسره قد تمت دون أن تتاح له الفرصة لإلقاء نظرة أخيرة على غنمة المسلمين (السابق) .

ذلك بحسب ثلاث سموات . وتمسك الوفد التركي بالمحافظة على إستنبول
وضرورة إسهام تركيا في النظام الذي يوضع لتنظيم مرور السفن في المضائق
وقلملاحة في البحر الأسود وإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية إلى غير ذلك

مقترحات أمريكية تتطوّر مع السياسة العليا للدولة العثمانية :

حين استضافت الألباء بعزم بريطانيا وحلفائها على إجراء مقاضات
في لوزان لوضع تسوية جديدة مع تركيا في صورة معاهدة محل محل معاهدة
سيفر أدلت بدلوها اللوائح المعنية في حكومة الولايات المتحدة الأمريكية
وقد وضعت هذه الوثائق ثلاث مذكرات تناولت فيها عدداً من المسائل
السياسية والاقتصادية في منطقة الشرق الأدنى ، وطالبت بريطانيا وفرنسا
ولإيطاليا بمراعاة المصالح الأمريكية عند بحث هذه المسائل وعند وضع
الصيغة النهائية لأحكام المعاهدة الجديدة مع تركيا ، وأوضحت أن الولايات
المتحدة حريصة على حماية المصالح الأمريكية في هذه المنطقة .

وكان من بين هذه الموضوعات موضوع مرور السفن في المضائق
التركية وتحديد المركز القانوني لبحر الأسود . ولوصفت رغبة في تقرير
مبدأ حرية مرور السفن التجارية والحربية في الدردنيل وبمر مرمره واليوسفور .
وقت السلم وزمن الحرب بدون أدنى تمييز بين جنسية السفن ، وشرحت
الوسائل التي تراها كخيلة بتقرير هذا المبدأ من ناحية ، وصمان تنفيذه تنفيذاً
سليماً من ناحية ثانية . وفيما يتصل بموضوع البحر الأسود أرادت أن تجرده
من صفته القديمة التي لازمتها حين كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها وهي
أنه كان بحيرة عثمانية تحصر الدولة العثمانية بمفردها أو تحصر الدولة العثمانية
والروسية معاً . وأضحت على هذا البحر طابع البحر العام ووصفته بأنه جزء
من طريق تجاري هام من الطرق البحرية العالمية ، وتعتمد عليه في حياتها
الاقتصادية الدول المطلة عليه ودول وسط أوروبا والتي يجري في أراضيها نهر
الدانوب الذي يصب في البحر الأسود . وخطعت الحكومة الأمريكية من
هذا الرأي إلى أن البحر الأسود والمضائق قسراً المتغل البحرى أو حتى

الزجاجة التي تمر منه تجارة روسيا ، والنمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمجر ،
ويوغوسلافيا ، ورومانيا ، وبلغاريا ..
ونفرض موجزاً هذه المذكرات الثلاث .

أولاً : مذكرة الحكومة الأمريكية :

أرسلت الحكومة الأمريكية مذكرة مؤرخة في ٣٠ من شهر أكتوبر -
تشرين أول - عام ١٩٢٢ إلى كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تبلى فيها
رغبةً في أن تشارك كمراتب في أعمال المؤتمر المقترح قنده . وجاء في هذه
المذكرة أن الولايات المتحدة لم تكن في حالة حرب ضد تركيا ، ولم تكن
أحد الأطراف في لجنة مندروس Medros التي وقعت في ٣٠ من شهر
أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٨ مع تركيا ، وهي لا ترغب في أن
تسهم في مفاوضات السلام النهائية ، ولا أن تأخذ على عاتقها مسؤولية
التعديلات السياسية والإقليمية التي سوف تتقرر . ومضت الحكومة الأمريكية
تقول إنها بينما هي تصر على هذا المصالح في صدد مراحل معينة في توية
مشكلات الشرق الأدنى ، فإنها لا ترغب في أن يستقر في الأذهان أنها تنظر
إلى مصالحها نظرة أهل من نظرة للدول الأخرى إلى مصالحها ، أو أنها
لا تملك بالحقوقي المشتركة التي تتمتع بها دول أخرى ، أو أنها لا تكثرت
بالفرص التجارية الخاصة ، أو أن المشروعات الإنسانية القائمة في منطقة
الشرق الأدنى أمر لا يعنها .

واستعرضت الحكومة الأمريكية في مذكرتها ما أسمته شروط المساهمة
الأمريكية في مؤتمر لوزان Conditions of American Participation
in the Lausanne Conference وأوضحت طبيعة المصالح الأمريكية التي
ترغب في حمايتها وبالتالي في أن تكون موضع اعتبار المؤتمر . وكان حدد هذه
المصالح سبعاً (١) ، كان من بينها وضع ضمانات لممارسة حرية مرور السفن

(١) كانت هذه المصالح سب ترتيب ورودها في مذكرة الحكومة الأمريكية :

١ - الإبقاء على نظام الاتفاقيات الأجنبية في تركيا على أساس ضرورته لحماية المصالح غير
الإسلامية .

في المضايق . واستطردت المذكورة قررت أن هذا الموجز يصلح لتوضيح المصالح الأمريكية . ومن أجل حماية هذه المصالح ، ومن أجل تبادل وجهات النظر بسهولة ، ومنعاً لأي سوء فهم ، فإن حكومة الولايات المتحدة على استعداد لإيقاد مراقبين إلى المؤتمر المقترح هذه إذا رأت الدول المعنية أن هذا الإجراء مناسب لها . وأضافت المذكورة إلى ذلك أن المراقبين الأمريكيين لن يشتركوا في مفاوضات معاهدة السلام ، بل ستكون مهمتهم مقصورة على شرح وجهات نظر الحكومة الأمريكية بطريقة أكثر فاعلية من وضع مذكرات ، ويكون في استطاعتهم تزويد الحكومة بموقف الدول الأخرى من المسائل ذات المصالح المشتركة والتي سوف تعرض على بساط البحث .

وحلت الحكومة الأمريكية في مذكرتها على المعاهدات والامتيازات السرية ، وقالت إنها لا تفر هذا الأسلوب في العلاقات الدولية . وإن الامتيازات التي سبق أن عقدت لتقسيم الأقاليم النائية إلى مناطق نفوذ تجاري واقتصادي تتعارض مع مبدأ تكافؤ الفرص . وأحرقت من رغبة في أن تكف الدول المتحالفة من تنفيذ مثل هذه الامتيازات السابقة . وحثت مذكرتها بقوة إن الولايات المتحدة الأمريكية لا ترغب في أن تتصرف تصرفاً يعرقل الجهود التي تبذلها الدول المتحالفة للوصول إلى السلام ، وليست لها مطالب تؤدي إلى صلح مع مصالح الدول الأخرى ، وهي لا تريد أن تميز نفسها أوعاياها بامتيازات لا تتمتع بها الدول الأخرى . ولكنها تريد توفير الحماية لمواطنيها الذين يرغبون في المضي في عملهم الإنساني الذي حلوه على عاتقهم جيلاً بعد

(ب) حماية للتواصلات الجوية والبحرية والفضائية وذلك بظرف ضمانات مناسبة .

(ج) تكافؤ الفرص أمام الجميع فيما يخص والشروعات البحرية بدم منح امتيازات خاصة أو تمييز البعض على البعض .

(د) توفير الحصار التي وقعت على الأمريكيين في تركيا نتيجة أعمال تسلية وغير قانونية .

(هـ) وضع شروط مناسبة لحماية الأقليات .

(و) وضع ضمانات لكافة حرية المرور في المضايق .

(ز) إقامة فرس مقبولة للبحث عن الآثار وإجراء الدراسات .

جيل في الشرق الأدنى وأصبح في ذلك الوقت أكثر ضرورة من ذي قبل .
وكان هذا العمل الإنساني يشمل البحث عن الآثار ، وإجراء الدراسات ،
واستئناف المؤسسات التعليمية والتنميرية والبحرية نشاطها السابق (١) .

ثانيا : مذكرة وزير الخارجية الأمريكية :

وفي مذكرة سرية ومنصلة عن المذكرة السابقة ومؤرخة في ذات اليوم
(٣٠ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٢) بحث بها شارل
إيفانز هيوز Charles Evans Hughes وزير الخارجية الأمريكية إلى سفراء
الولايات المتحدة في لندن وباريس وروما ، قال إن الحكومة الأمريكية لن
توقع على معاهدة السلام المزعمة عقدها مع تركيا ، ولن تشترك في المؤتمر
المقترح لبحثه لإجراء مفاوضات لإبرام هذه المعاهدة ، وإن هذا الامتناع
المزدوج مرده إلى أن الولايات المتحدة لم تكن في حالة حرب ضد تركيا ،
ومع ذلك فإنه في حكم الاستحالة من الناحية العملية أن يمتنع الحلفاء ، في
إجراء مفاوضات بدون أن يتناولوا مسائل تهم الحكومة الأمريكية . وإذا
تركت الحكومة الحلفاء يقومون بإجراء المفاوضات وإبرام المعاهدة مع
الأتراك بدون أية محاولة منها لحرص وجهات نظرها أو الحصول على ضمانات
لحماية المصالح الأمريكية ، فإن مثل هذا الموقف السلبي يضع الحكومة الأمريكية
أمام الأمر الواقع في موضوع العلاقات بين الحلفاء والأتراك . وخلاص وزير
الخارجية إلى القول بأن رأى وزارة الخارجية قد استقر على وصع مذكرة
توضح طبيعة وجمال ومدى المصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأدنى كى
يسرشد بها المتفاوضون عند تناول الموضوعات التي لها علاقة بهذه المصالح ،
ثم استعرض المصالح التي ترضى الحكومة في حمايتها ، وهي : (١) نظام
الامتيازات الأجنبية في تركيا وانتهى رأياً إلى ضرورة الإنهاء عليه . وسرد
الأسباب التي تحمل الحكومة الأمريكية على المطالبة باستمرار هذا النظام .

(١) انظر نص المذكرة بمثل :

U.S. *Aide Mémoire* to Britain, France and Italy, 30 October, 1922.
in

Hurewitz J.C.; op. cit., Vol'2, pp. 114-115.

(٢) حماية المؤسسات الأمريكية في تركيا سواء المؤسسات التعليمية أو التجارية أو الدينية ، وإعادة فتح المؤسسات الأمريكية التي أغلقتها حكومة تركيا منذ عام ١٩١٤ ، وإنشاء مدارس جديدة ، واستخدام اللغة الإنجليزية فيها ، ومنح المؤسسات الأمريكية الاعفاءات الضريبية والجمركية وغيرها من الامتيازات الممنوحة لثلاثتها المؤسسات التركية (٣) حماية المصالح الأمريكية التجارية وإلغاء نظام مناطق النفوذ ، وانتهاج سياسة الباب المفتوح ، ومبدأ تكافؤ القصر ، واتباع نظام ضريبي موحد (٤) التمييز عن المساكن التي نزلت بالأمريكيين منذ عام ١٩١٤ (٥) حماية الأقليات . واحتست المذكورة بالأقليات المسيحية دون غيرها وبخاصة بالمسيحيين في إستانبول وبالمسيحيين البعثريين في آسيا الصغرى وبالأرمن (٦) حرية المرور في المسابح ، وقالت وزارة الخارجية إن هذه المسألة لها شطران ، يتمثل الشطر الأول في حرية المرور وقت السلم ، والشطر الثاني في حرية المرور زمن الحرب . ولا تميل الحكومة الأمريكية إلى أن ترجع بتقهما في الشطر الثاني حتى لا تلتزم بالتخاذ سياسة معينة تجاه مرور السفن زمن الحرب ، وبخاصة إذا كانت تركيا أو الدول الكبرى في أوروبا دولاً متحاربة . أما بخصوص تنظيم مرور السفن وقت السلم ، فإن المصلحة الجلية للولايات المتحدة أن تحصل على تأكيدات فعالة وقوية بأن تظن المضايق معتوحة في وقت السلم للسفن التجارية والحرية لتعبير المضايق وتمضي إلى إستانبول والبحر الأسود ، فهذا البحر هو طريق للتجارة ويجب ألا يكون تحت الرقابة الانفرادية لتركيا والروسيا . .

وانتقلت مذكورة وزير الخارجية الأمريكية في فقرتها السابقة إلى موضوع لجنة الرقابة الدولية على الدين المثاني العام ، ومطالبات بمزيد من الاهتمام بالمسائل المالية والتجارية . وفي الفقرة الثامنة والأخيرة أشارت إلى موضوع المؤسسات الأمريكية التي تفرغ بالتنقيب عن الآثار في الأراضي التركية وضرورة توفير الجبر المناسب لحاكمي قضى في أعمالها الكشفية وفي إحراء الدراسات .

وفي نهاية المذكرة قال وزير الخارجية إنه ليس من الطبيعي ولا من المرغوب فيه أن تسهم حكومة الولايات المتحدة في مؤتمر السلام أو تدعم

نفسها في مقنوعات تناول مسائل سياسية لم تشارك في وضعها أو التخطيط لها ، إلا أنه من الضروري أن تكون وزارة الخارجية على علم تام بالمقنوعات التي تناولها المفاوضات وكيفية معالجتها ، والوزارة حريصة على حماية المصالح الأمريكية ، وهي على استعداد لأن تلتقي بكل ثقلها وتفوضها للحصول على ضمانات خاصة بحرية الملاحة في المضائق وحماية الأقليات . وإن الولايات المتحدة كنزلة مستقلة تحافظ على سلامة موقعها ، وهي لم تزج بنفسها في محارم المنافسات الدولية التي جعلت من الشرق الأدنى في معظم الأحيان مسرحاً للحروب^(١).

الخلاصة : مذكرة البحرية الأمريكية :

ولم يقف الأمر بالسياسة الأمريكية تجاه موضوع المضائق عند هاتين المذكرتين ، بل تلخض أيضاً لمجلس البحرية الأمريكية العالم ، ووضع مذكرة . في ١٠ من شهر نوفمبر - تشرين ثا - عام ١٩٢٢ تناول فيها توصيات سياسية بخصوص البحر الأسود والمضائق التركية . وجاء في هذه المذكرة أن التردد في طريق عام ذو أهمية عظيمة لأوجته الطبيعية ، وهو يؤدي من ناحية الشمالية إلى البحر الأسود الذي تطل عليه تركيا والروميا ، ورومانيا وبلغاريا ، وبعض دول صغرى أخرى ، وتصب فيه مياه حوض أهل كبرى . وتأسيساً على هذه الحقائق فإن هذا البحر لا يمكن دولة واحدة كما كان الأمر من قبل . وكان واضحاً المذكرة يفصلون تركيا بهذه الدولة الواحدة ثم مضت المذكرة تقول إن البحر الأسود يحس العالم كله كجزء من طريق تجارى . فأية محاولة لخلق هذا البحر أو إحاقته وصول التجارة المقنولة بحرماً إلى البحر الأسود هي عمل تخريبى يتعارض مع المصالح العالمية ويهدد أمنها في العلاقات الدولية يؤدي إلى تجلده الحرب .

(١) انظر نفس المذكرة بعنوان :

Secretary Hughes' Instructions to U.S. Ambassadors at
London, Paris and Rome, 30 October, 1922.
in
Hurewitz I.C., op. cit., Vol. 2, pp. 115-117 .

وقالت المذكورة إن روسيا - وهي من أكبر دول العالم - تصدر في الأوقات العادية نصف محاصيلها عن طريق البحر الأسود . وليس أمام روسيا مخرج بحري آخر يمكن أن يقارن في أهميته بطريق الدردنيل ، وسوف تزداد أهمية هذا المخرج البحري ريادة كبيرة بالنسبة لروسيا تبعاً لزيادة الكثافة السكانية فيها ، وتبعاً لتحسين وسائل النقل الداخلى في المناطق الروسية . فإذا حيل بين دولة كبرى مثل روسيا وبين استهلاك البحر الأسود منع سفنها من عبور الدردنيل ومنعها من الانطلاق إلى المضايق والبحار ، فإن هذا العمل ، وهو حجز الأسطول التجارى في مياه البحر الأسود ، لا يعمل في طياته عناصر الاستقرار والدوام لأية دولة تتناول مشكلة المضائق التركية .

ومصت مذكورة البحرية الأمريكية تقول إن شطراً كبيراً من تجارة النساء ونشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا ينقل عن طريق نهر الدانوب إلى البحر الأسود حيث يعاد شحنها في سفن كبرى تعبر الدردنيل إلى البحار العامة . فهذه التجارة تحتاج بدورها إلى حرية المرور عبر المضائق ، وعلى ذلك فإن تقرير مبدأ حرية مرور السفن في كلا الانحيازين عبر الدردنيل صرورة لا جدال فيها . وقد وافقت الدول ومن بينها تركيا على مبدأ حرية المرور عبر الدردنيل للسفن التجارية الخاصة لجميع الشعوب .

واستلزمت المذكورة فقالت إن التجارب في بقاع كثيرة في العالم قد دلت على أن قبول مبدأ ما لا يكون دائماً كافياً لضمان تطبيقه تطبيقاً عادلاً ، ولا يمكن أن تلمن الدول مواضعها على قبول مبدأ عام ، بل يجب أن تكون هذه الموافقة مقرونة بتنفيذ أو تطبيق هذا المبدأ . فالموافقة على مبدأ معين وتنفيذ هذا المبدأ عميتان مرتبطتان ببعضهما البعض يعزوه وثق لا انضمامها وكل عملية منهما لا تقل أهمية عن الأخرى . وإلى أن تستقر الأمور في منطقة الشرق الأدنى ، فإن خير وسيلة لضمان تكافؤ الفرص هي إسهام الدول المعنية إسهاماً يقوم على قدم المساواة في الرقابة على حرية المرور في المضائق .

وانتقلت مذكره مجلس البحرية العام إلى موضوع المصالح الأمريكية

في المصايق فقالت إن تحرير حرية مرور السفن في الدونفيل لا يعد في حد ذاته عملاً كافياً لكي يضمن السفن الأمريكية نفس الفرص التي تتمتع بها السفن التجارية التابعة لدول أخرى. فلابد أن تضمن الحكومة الأمريكية ، من طريق اتفاقات ، المساواة في الحقوق وفي الامتيازات التي تتمتع بها الدول الأجنبية في كل ما يتصل بالعمليات التجارية والبحرية . وذكرت المذكورة على سبيل المثال لا الحصر بعض هذه الحقوق والامتيازات ، فقالت إن السفن التجارية في حاجة إلى استخدام أجهزة ترديد الصوت ، والأسلاك البحرية الدقيقة ، الكابلات ، ، والاتصاع بالأرصفة في موانئ المصايق ، والصنادل ، ومعدات الإرشاد ، والرسو ، والسحب ، والقطر ، وتسهيلات التفتيش على السفن . ولما لم تكن هناك معاملة واحدة لجميع السفن في مثل هذه المسائل وغيرها ، فإن السفن الأمريكية تجد في أثناء عبورها وتواجدها في منطقة المصايق إحاطة تجعلها في مركز أقل من مركز السفن التابعة لدول أخرى .

ووجهت المذكورة للنظر إلى حقيقة كانت تعلق عليها حكومة الولايات المتحدة آمالاً كباراً ، وهي حالة ازدهار التجارة بترديد حجمها تزايداً جديداً وكبيراً في جميع الأقاليم المحيطة على البحر الأسود والأقاليم التي تجرى في أراضيها أنهار تصب في هذا البحر . وقد جاء هذا الازدهار التجاري نتيجة للأحوال السياسية والاقتصادية التي سادت في تلك الأقاليم في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وقد تولدت عن هذا النشاط الاقتصادي الضخم الكثير من مجالات واسعة للمشروعات التجارية الدارة . وقالت المذكورة إن الخطوات التي تتخذ والرتيبات التي توضع في ذلك الوقت قد تؤثر تأثيراً عميقاً على الحياة التجارية للولايات المتحدة في قاييل الأيام . وحصلت البحرية الأمريكية إلى القول بأنها لا تطالب بحقوق خاصة بها ، ولكنها تطالب ، بل تصر على ألا تخون لها حقوق مساوية لحقوق الدول الأخرى وهو مطلب يثبت عن رغبة الولايات المتحدة في تحقيق عجلة مطلقة وكاملة في محيط العلاقات الدولية .

وحاولت مذكرة البحرية الأمريكية أن تعالج مشكلة حرية مرور السفن الحربية في المضائق ، فقالت إن هذه المشكلة أكثر تعقيداً من مسألة عبور السفن التجارية ، وهي لا تتيح فرصاً لوضع تسوية دائمة لها مثل القوس التي تتيحها مسألة السفن التجارية . وقالت إن هناك مبدأ عاماً يجب أن يوضع في الاعتبار ، وهو أن أية حقوق للملاحة في المضائق تمنح لدول بيئية من البحر الأسود يجب أن يمنح مثلها للدول المطلة على هذا البحر .

وخلصت البحرية الأمريكية إلى أن الحل الطبيعي هو تقرير الحرية التامة للملاحة عبر المضائق للسفن الحربية أيضاً ، وسأقت عديد الأمثلة الافتراضية التي تدعم هذا الرأي ، كما أنها انتهت رأياً إلى أن هذا الحل يعد الحل الأمثل لمصالح الأمريكية وللعدوى الأمريكية في شؤون العالم .

واستطردت مذكرة البحرية الأمريكية فقالت إنه ليس هناك مجال للمقارنة بين مركز كل من المضائق التركية ، وقناة بناما ، ولذلك يجب الفصل بينهما . فالأمرتان مختلفان بعضهما عن بعض اختلافاً جلياً ومن جهة وجوده . فتاريخ المضائق التركية مليء بعدم الاستقرار والمصالح المتضاربة ومعاملة السفن معاملة تقوم على التمييز بينها ، وجعل حق مرور السفن في الدردنيل مقصوراً على سفن دولة واحدة ، بالإضافة إلى أن المضائق التركية طريق مائي طبيعي بينا قناة بناما ممر مائي صناعي . وتقتضي العدالة ألا تكون هذه المضائق تحت سيطرة دولة واحدة تتصرف فيها كما تشاء ، بل يجب أن تكون طريقاً عالمياً . وفضلاً عن ذلك فإن كل حل تم الوصول إليه واستهدف فرض رقابة على هذه المضائق لمصلحة دولة واحدة ضد دول أخرى كان بمثابة تسوية تقوم على الاستغفار والتحرش وإثارة الحقد، وأدى إلى الاضطراب في العلاقات الدولية. ولذلك لم تم إطلافاً تسوية مسألة المضائق ، لأن جميع التسويات التي تمت كانت تلمس بطابع التمييز للدولة التي كانت تتمتع بالقسط الأدنى من السيطرة والقوة في ذلك الوقت .

وخلصت مذكرة البحرية الأمريكية في مجموعة من التبريرات والاقتراحات تم في مجموعها عن اتجاه السياسة الأمريكية تجاه مشكلة المضائق ، فقالت إذا

فرضت رقابة على حرية مرور السفن في المضائق وأزيلت الاستحكامات القائمة في منطقتها فإن تلك الرقابة سوف تقع على عاتق الأسطول البريطاني بسبب شدة بأسه ويطشه . وإذا جردت من السلاح والتحصينات كل من ميتين Mitylene و لمتوس Leros ، وإمبروس Imbros وساموثراكي Samothraki فإن هذا التجريد يتمشى مع الرقابة المستقبلية على المضائق ، وتمازجها القوات البحرية بدلاً من الاستحكامات الثابتة . وراحت المذكرة تؤكد مرة أخرى قيام رقابة بريطانية على المضائق تأسيساً على أن الأسطول البريطاني في ذلك الوقت - سنة ١٩٢٢ - بقواعده المنتشرة هو أقوى الأساطيل وذهبت المذكرة إلى القول بأنه ليس هناك على الأرجح معاهدة أو قانون يمنع الحصر البحري في زمن الحرب إذا كانت الدولة التي تمارس هذا الحصر ذات بأس شديد في البحر .

وناقشت المذكرة كيفية قيام الرقابة على المضائق ، وناقشت ثلاثة آراء رقابة انفرادية من جانب تركيا ، ورقابة انفرادية تختص بها دولة أجنبية واحدة ، ورقابة دولية جماعية . فقالت عن الرأي الأول إن التجارب قد دلت على أن قيام تركيا بممارسة الرقابة على المضائق لم يتسم بسياسة محايدة ولا ثابتة ، وإن تركيا كانت لا محالة تتأثر بالضغوط الخارجية . وإذا وضعت الرقابة في يد دولة أجنبية واحدة فمن المتوقع ألا تفعل هذه الدولة أكثر من عبادة سميتها وتجارتها بغير وجه حق على حساب سفن وتجارة الدول الأخرى . يبنى الرأي الثالث فقالت إن فرض رقابة دولية جماعية على المضائق في الظروف القائمة وتفضلك لن يكون محل اعتراض من جانب الأسرة الدولية على عكس إذا ما تقرر قيام رقابة انفرادية من جانب تركيا .

وأخيراً ألخص المجلس العام للبحرية الأمريكية هذه المذكرة الضالعية بقوله إن المصالح الأمريكية في منطقة المضائق تتطلب إدراج المبادئ التالية في المعاملة المقترح عقدها مع تركيا .

أولاً : إذا أنشئت لجنة دولية لرقابة على المضائق فيجب أن تكون

الولايات المتحدة مثلة في هذه النجدة وفي جميع المواقع والمراكز التابعة لهذه اللجنة ، وتكون على قدم المساواة مع أية دولة أجنبية أخرى .

ثانياً : إن المضائق - وهي تشمل الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور - يجب أن تكون مفتوحة للملاحة الحرة أمام السفن التجارية التابعة لجميع الدول بدون تمييز أو تفضيل .

ثالثاً : يكون للولايات المتحدة ومواطنيها ذات الحقوق والامتيازات في مياه المضائق والمياه المتاخمة كما هي ممنوحة في الماضي والحاضر أو تمنح مستقبلاً لأية دولة أجنبية أخرى أو لمواطنيها . وجاء ذكر تلك الحقوق وهذه الامتيازات على النحو الذي ورد في سياق المذكرة وأشرنا إليه .

رابعاً : إن المضائق بأجزائها الثلاثة المبرورة - يجب أن تكون مفتوحة للملاحة الحرة أمام السفن الحربية التابعة لجميع الدول .

خامساً : عدم مباشرة أي حق حربي وأي عمل عدائي في داخل المضائق التي تشمل الدردنيل ، وبحر مرمرة ، والبوسفور .

سادساً : إزالة جميع التحصينات التي تسيطر على مياه المضائق ، ولا يسمح بإقامة تحصينات جديدة^(١) .

تحليل الموقف الأمريكي من مشكلة المضائق والبحر الأسود :

من هذه المذكرات الأمريكية الثلاث يتضح موقف الولايات المتحدة بوجه عام من مشكلة المضائق والبحر الأسود . ويمكن إيجاز هذا الموقف في عدة نقاط ، منها : أن المضائق طريق عالمي للتجارة فلا تخضع للسيطرة

(١) انظر نص المذكرة بعنوان ،

Policy Recommendations on the Turkish Straits by the General Board of the U.S. Navy, 10 November 1922.



Harewitz J-C; op. cit, volx, pp. 117-119.

الانفرادية لتركيا ، تقرير حرية الملاحة عبر المضائق في وقت السلم وزمن الحروب السفن التجارية والحرية التابعة لجميع الدول دون تمييز لجنسيتها ، تجريد منطقة المضائق وعدد من الجزر في بحر إيجه من الاستحكامات العسكرية وعدم السماح بإقامة منشآت عسكرية جلييلة بها تمشياً مع حرية المرور عبر المضائق ، إنشاء رقابة جماعية في شكل لجنة دولية لضمان تنفيذ مبدأ حرية مرور السفن بكافة أنواعها في جميع الأوقات . أما البحر الأسود فهو - في نظر الولايات المتحدة - لا يخص تركيا وحدها أو روسيا بمفردها ، بل هو بحر عالمي مفتوح لجميع الدول والشعوب ، يمر منه شطر لا يستهان به من تجارة روسيا ودول وسط أوروبا - وتتحسن تجارده من التواعد البحرية العسكرية وتعد محاولة إغلاقه عملاً تخريبياً

هذه المبادئ تعصف بالسياسة العليا للدولة للعثمانية وتسلب حقها في ضمان تنفيذ مبدأ حرية المرور عبر المضائق التي هي جزء من الإقليم التركي ، وتحويل هذا الحق للجنة دولية . فالولايات المتحدة تضع مصالحها التجارية في منطقة الشرق الأدنى فوق كل اعتبار ، وهي لا تولى مثل هذا الاهتمام بمصالحها الإستراتيجية في تلك المنطقة ، إذ لم تكن قد تكونت لها في ذلك الوقت مصالح من هذا النوع ، ولم تكن قد احتضنت الحركة الصهيونية الاحتضان السافر الذي ظهرت به فيما بعد . ولم تكن قد وقفت موقفاً غير ودي من حكومة موسكو السوفيتية R.S.F.S.R. بل على العكس أظهرت مذكرة المجلس العام البحرية الأمريكية تحمساً لرعاية المصالح الروسية الاقتصادية بتوفير السبل لئلا يحاصليها عبر البحر الأسود والمضائق. وإن كان وزير الخارجية الأمريكية قد أشار في ملكوته إشارة لما منلوا في هذا الوقت المبكر من تاريخ العلاقات الأمريكية السوفيتية إذ قال ، وهو يتناول موضوع الأقليات المسيحية في تركيا ، إنه من الممكن عند حودة الأوضاع الأكثر استقراراً في روسيا أن توافق الحكومة الروسية على منح أكثراد تركيا ملجأ في القوقاز يقيمون فيه .

تلك هي المقترحات الأمريكية وضعت قبل أن يعقد مؤتمر لوران جلساته بأهم قلائل . وهي مقترحات لها أهميتها من النواحي الأكاديمية والعلمية والتاريخية.

جلسات عمل مؤتمر لوزان :

عقد مؤتمر لوزان جلساته على قريش . بدأت الفترة الأولى في ٢٠ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٢٢ ، وقسمت أعماله بين ثلاث لجان .
اختصت اللجنة الأولى بمشكلة نظام المرور في المضائق والملاحة في البحر الأسود والقضايا العسكرية ومشكلة الأقليات والمشكلات الإقليمية. واختصت اللجنة الثانية بقضايا الأجانب في تركيا. واختصت الثالثة بالقضايا الاقتصادية والمالية . وقد استمرت اجتماعات المؤتمر حتى ٤ من فبراير - شباط - ١٩٢٣ حين انفض بسبب رفض الحكومة التركية قبول مشروع معاهدة الصلح . ورفض المجلس الوطني الكبير في ٦ مارس - آذار - ١٩٢٣ مشروع معاهدة الصلح لخالفته الميثاق الوطني ، ولكنه حول الحكومة التركية إعادة فتح باب المفاوضات مع بريطانيا وحياتها . وفي ٨ مارس - آذار - ١٩٢٣ أرسل عصمت باشا وزير الخارجية التركية ورئيس الوفد التركي إلى المؤتمر رسالة ومعهما اقتراحات تركية إلى الدول الأعضاء في المؤتمر . وقد وافقت هذه الدول على بحث المقترحات التركية . وفي ٢٣ أبريل - نيسان - ١٩٢٣ استأنف مؤتمر لوزان عقد جلساته ، وبذلك بدأت الفترة الثانية واستمرت حتى ٢٤ من يوليو - تموز - سنة ١٩٢٣ حيث تم في هذا اليوم التوقيع على المعاهدة التي حملت اسم معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣ . وتتميز من بين جميع معاهدات الصلح التي أبرمت لتسوية مشكلات ما بعد الحرب العالمية الأولى بأنها المعاهدة الوحيدة التي حققت نتيجة مفاوضات مضنية للغاية لشارك فيها الأطراف المعنية لتحل عمل معاهدة جائرة وصحها المتصرون ، واستطاع المنهزم بالانكلامونية المنة حيناً ، والدبلوماسية ذات العصا الخفيفة حيناً آخر أن يحسم المتصربين على إلغائها . وقد وقع على معاهدة لوزان ثمان دول ، هي : بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، واليابان ، واليونان ، وبلغاريا ، ورومانيا ، وتركيا .

معاهدة لوزان مجرد اتفاقية خاصة بالمضائق :

لم تعرض معاهدة لوزان لمسألة مرور السفن في المضائق ، ولكن

سجلت تنازل تركيا عن حقوقها في مصر والسودان وجزيرة قبرص لبريطانيا ، وتنازلها لإيطاليا عن حقوقها في ليبيا وفي ثلاث عشرة جزيرة كانت تحتلها إيطاليا وقتذاك ، كما سجلت للمعاهدة إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية وتفقد إخلاء إستانبول من القوات الأجنبية وإعانة تركيا الشرقية بما فيها أدرنة إلى تركيا ، وكذلك منطقة كراجاوش Karagatch في تراقيا الغربية . واستردت تركيا جزءاً لا يستهان به من أملاكها في أوروبا ، كما تقرر إعادة الجزء العربي من الأنصول وسائر المراكز التي كانت تحتها اليونان في هذا الإقليم إلى تركيا . وقد تناولت المعاهدة العديد من المسائل التي لا تدخل في نطاق دراستنا .

وتقدراً من الدول الأطراف في معاهدة لوزان لموضوع المضائق أقرت اتفاقية خاصة بهذه المسألة وأرفقتها بالمعاهدة ، وأصبحت جزءاً منها وأطلقت عليها اتفاقية نظام المضائق Convention on the regime of the Straits وقع في ثمانى عشرة مادة وجاءت بمادة مبادئ ، نذكر منها :

أولاً : مرور السفن في المضائق :

نصت المعاهدة في مادتها الأولى على تقرير مبدأ حرية المرور وحرية الملاحة بحراً وجواً في منطقة المضائق . وقالت إن المضائق اسم عام يشمل على وجه التحديد مضيق الدردنيل ، وبحر مرمرة ، ومضيق البوسفور ، ونصت المادة الثانية على أن حرية المرور وحرية الملاحة تشمل السفن التجارية والحرية والطائرات التجارية والحرية في زمن السلم ووقت الحرب . ثم وضعت تفاصيل حرية المرور أدمجتها في ملحق يتبع المادة الثانية وأطلقت عليه قواعد مرور السفن التجارية والطائرات التجارية والسفن الحربية والطائرات الحربية . وتناولت في القسم الأول من هذا الملحق السفن التجارية وقالت إنها تشمل أيضاً سفن المستشفيات واليخوت^(١) ومراكب الصيد والقطران غير الحربي . وقالت إن هناك ثلاث حالات يتم فيها مرور هذا النوع من السفن والطائرات .

(١) يخوت جمع يخت yacht ، وهي سفينة السباحة الكلاسيكية .

الحالة الأولى: وتمت فلم تستقر حرية تامة للملاحة والمرور نهائياً ولولا لجميع السفن بدون تمييز بين جنسياتها . ويصرف النظر عن نوعية الشحنات التي تحملها وبدون دفع رسوم سوى الرسوم المقررة للإرشاد والإضاءة والجمر والقطر وما إليها ، وذلك بدون الإضرار بالحقوق التي تمارسها في هذا الصدد للشركات التي تعمل في وقت إبرام المعاهدة بموجب امتيازات منحتها لها الحكومة التركية .

الحالة الثانية : زمن الحرب إذا كانت تركيا دولة محايدة : فتستمر الحرية التامة للملاحة والمرور على النحو الذي جاء في الحالة الأولى ، مع مراعاة أن حقوق وواجبات تركيا كدولة محايدة لا تجبرها أن تتخذ أية إجراءات من شأنها تعتبر تدخلًا في الملاحة عبر المضائق التي تكون مياهها وأجوائها حرة تماماً وقت الحرب التي تتخذ فيها تركيا موقف الحياد .

الحالة الثالثة : زمن الحرب إذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة هما : فتستمر حرية الملاحة للسفن المحايدة وقطران غير الحربي التابع للدول المحايدة بشرط ألا تقدم أمثال هذه السفن والطائرات «ساعات للعدو» ، ويوجه خاص لا تنقل قوات أو بضائع ممنوعة أو وحايا الدول المتحاربة . ويكون لتركيا الحق في زيارة وتفتيش أمثال هذه السفن والطائرات . ولهذا الغرض يجب على الطائرات أن تخطط على الأرض أو على البحر في مساحات تحددها وتعددها تركيا لهذا الغرض . ومن الملتزم عليه أيضاً ألا تمنح حقوق تركيا في تطبيق الإجراءات المقررة في القانون الدولي العام على سفن الأعداء . وتركيا السلطة التامة في اتخاذ أمثال هذه الإجراءات حين ترى أنه من الضروري مع سفن الأعداء من استخدام المضائق ، على ألا يكون من طبيعة هذه الإجراءات مع سفن الدول المحايدة من المرور في المضائق ، وتوافق تركيا على أن تمد أمثال هذه السفن بالتعليقات الضرورية أو تزودها بالمرشدين لعبور المضائق .

وتناولت اتفاقية المرور في القسم الثاني من الملحق موضوع السفن الحربية . وقالت إنها تشمل أيضاً السفن المعاونة للأساطيل والسفن الناقلة للجنود والطائرات الحربية والطائرات الحاملة ذخائر أو أسلحة أو قوات . وعلى

قرار القسم الأول قالت إن هناك ثلاث حالات يتم فيها مرور هذا النوع من السفن والطائرات .

الحالة الأولى : وقت السلم، فتقرر حرية كاملة لمرورها جازاً وليلاً بدون تمييز بين جنسياتها ، ولكنها تخضع للقيود التالية بالنسبة لقوتها الكلية . فيكون الحد الأعلى للقوة التي تستطيع أية دولة أن تمررها عبر المضائق لدخول البحر الأسود لا يتجاوز أقوى أسطول للدول الساحلية الواقعة على البحر الأسود والتي تكون موجودة في هذا البحر في وقت مرور هذه القوة . وتقرر أيضاً أن تحفظ الدول لنفسها دائماً بالحق في أن ترسل إلى البحر الأسود في جميع الأوقات وفي كل الظروف قوة لا تتجاوز ثلاث سفن لا تزيد حمولة الواحدة منها عن عشرة آلاف طن . وجاءت فترة تعبئة تقرر عدم مسئولية تركيا فيما يخص بمدد السفن الحربية التي تمر بالمضائق .

الحالة الثانية : زمن الحرب إذا كانت تركيا دولة محايدة . فتقرر الحرية الكاملة للمرور نهاراً وليلاً بدون تمييز بين جنسياتها مع مراعاة القيود المذكورة في الحالة السابقة، ومع ذلك فإن هذه القيود لا تطبق على أية دولة متحاربة تطبيقاً يضر بحقوقها الحربية في البحر الأسود ، كما أن حقوق تركيا وواجباتها كدولة محايدة لا تميز لها اتخاذ أية إجراءات من شأنها تعتبر تمسكاً في الملاحه عبر المضائق التي تظل جميع مياهها وأجوائها حرة تماماً في زمن الحرب طالما كانت تركيا دولة محايدة كما يحدث تماماً وقت السلم . وتقرر أيضاً مع السفن الحربية والطيران الحربي التابع للدول المتحاربة من مباشرة أية عملية من عمليات الأمر أو مباشرة حتى الزيادة والتفتيش أو القيام بأي عمل علني آخر في المضائق .

الحالة الثالثة : زمن الحرب إذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فيها فتقرر الحرية الكاملة للمرور السفن الحربية المحايدة مع مراعاة تطبيق القيود المنصوص عليها في الحالة الأولى في هذا القسم (القسم الثاني) . ومن على أن الإجراءات التي تتخذها تركيا لمنع سفن وطائرات الأعداء من استخدام

المضايق لا يكون من شأنها منع المرور الحر للسفن الهابطة والطيران الهابطة . وعلى تركيا أن تزود أمثال هذه السفن والطائرات بالتصاريح الضرورية أو بالمرشدين القرض المذكور . ويقوم الطيران الحربى التابع للدول الهابطة بالمرور الجوى فوق المضايق على بمثلته ويخضع للتمشيش عن طابعه . ولهذا القرض فلك على أمثال هذه الطائرات أن تحيط على الأرض أو فى البحر فى المساحات التى تحدها وتعدها تركيا لهذا القرض .

وقد تعرضت الاتفاقية فى ذات الملحق التابع لإادة الثانية لغواصات الدول التى فى حالة سلم مع تركيا ، فنصت على أن يكون عبورها المضايق وهى فوق مطع الماء . كما تناولت مسائل تنظيمية خاصة بمرور السفن الحربية وضرورة إخطار الحكومة التركية بوصولها وحدها ، وضرورة مرورها فى أقصر وقت ، وتحريم مراقبتها داخل المضايق إلا فى حالتين : هما إصابة السفينة بطلب أو اضطراب البحر واشتداد عواصفه .

والمحفوظة التى نخرج بها من الدراسة التحليلية لهذا الجزء من الاتفاقية هى أنه لم يشمل التفاصيل الدقيقة عن تنظيم مرور السفن بنوعها التجارية والحربية فى المضايق على عكس ما جاء فى اتفاقية الآستانة (٢٩ من أكتوبر تشرين أول - سنة ١٨٨٨) الخاصة بتنظيم مرور السفن فى قناة السويس . فقد قصصت هذه الاتفاقية أدق التفاصيل عن هذا الموضوع . ونذكر على سبيل المثال تجييد تمرير السفن الحربية التابعة للدول المتحاربة (المادة الرابعة فقرة ٢ من اتفاقية الآستانة) ، منع السفن الحربية المتحاربة من إزال وشمخ القوات والمعدات الحربية (المادة الخامسة) ، مرور الغنائم (١) (المادة السادسة) .

ثانيا : لجنة المضايق :

نصت اتفاقية المضايق على إنشاء لجنة دولية يطلق عليها لجنة المضايق

(١) يقصد بالغنائم السفن الحربية أو التجارية المتقدمة على تمرير المضايق وهى جنة مخصصة ، أى تكون فى حوزة السلطة التنفيذية عليها ، على أن يكون اهتمامها قد تم خروج منطقة المضايق ، إذ لا يجوز داخل هذه المنطقة التمسك على السفن المدنية واختصاصها ، لأن حق الاعتصام من الحفرة الحربية التى حوت الاتفاقية ياترتهى على هذه المنطقة .

تختص بالإشراف على حرية المرور في المضائق ، ويكون مقرها إستانبول ، وتكون لتركيا دون سواها من الدول رياضة هذه اللجنة ، بمعنى أن تكون رياستها ذات صفة دائمة . وأن تشمل عضوية اللجنة : فرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، واليابان ، بلغاريا ، واليونان ، ورومانيا ، والاتحاد السوفيتي ، ويوغوسلافيا^(١) وقد روعي في اختيار هذه الدول لعضوية اللجنة أنها الدول الأطراف في معاهدة لوزان . ونص على ألا تبدأ أي منها في مباشرة عملها في لجنة المضائق إلا من تاريخ تصديقها على المعاهدة . وورد في ذات المادة أنه إذا انضمت الولايات المتحدة الأمريكية إلى المعاهدة فيكون لها الحق في عضوية اللجنة . ويتنص هذه الشروط بقرار أن أية دولة مستقلة تطل على البحر الأسود ولم يرد ذكرها في الاتفاقية وتنضم إليها يكون لها نفس الحق (المادة ١٢) .

وتباشر لجنة المضائق عملها تحت رعاية عصبة الأمم ، وتكون مسئولة أمامها ، وعليها أن ترفع إلى العصبة تقريراً سنوياً يعرض فيه نشاطها وتذكر كل المعلومات التي تكون ذات قيمة وتقع لصالح التجارة والملاحة . وعلى اللجنة - تمكيناً لها من تحقيق هذا الهدف - أن تكون على اتصال بمصالح الحكومة التركية المختصة بالملاحة عبر المضائق (المادة ١٥) .

لجنة المضائق ولجنة النافوب :

وبما هو جدير بالذكر أن لجنة المضائق الدولية لم تكن شيئاً جديداً عن المجتمع الدولي في ذلك الوقت . فقد سبق لها ان اجتمع أن عرف هيئات ذات

(١) جاءت الصيغة القديمة في الصيغة لاسم يوغوسلافيا على هذا النحو :

The Serb - Croat - Slovene State

أي الدولة الصربية الكرواتية السلوفية .

ويطلق عليها حالياً (سنة ١٩٧٧) اسم اتحاد الجمهوريات اليوغوسلافية . وتتكون من ست جمهوريات ومن خمس قوميات هي الصرب - كرواتيا - سلوفينيا - الجبل الأسود - مقدونيا . ولها ثلاث لغات : الصربية ، والكرواتية ، والسلوفينية . ولها أربع ديانات : الإسلام ، والمسيحية الأرثوذكسية ، والمسيحية الكاثوليكية ، واليهودية . وهي بارة تسع دول .

طابع دول واختصاصات واسعة مثل لجنة الدانوب الأوروبية التي تكونت لتنظيم حرية الملاحة في نهر الدانوب والإشراف عليها والقيام بأعمال لصيانة والتحصين وتطهير قاع النهر من العوائق لمواجهة الاحتياجات الدولية للملاحة الحرة^(١)، وقرر أن يكون لهذه اللجنة شخصية متميزة ذات طبيعة دولية . وأن تتمتع بالحصانة ، ولا تستطيع دولة مجاورة أن تحدد من نفوذ هذه اللجنة ، وأن يكون جميع موظفيها ومكاتبها والأشغال التي تقوم بها على طول النهر بمنأى عن العمليات الحربية ، وأن يكون للجنة علمها ، وكأيتها دولة ، ولها الحق في رمعه على سفنها ومكاتبها ومبانيها الرسمية ، ويكون لها مبرانية تتألف من حصيلة رسوم المرور ، وتتفق معها على شئ أوجه نشاطها . وقد أضيفت الملاحة للبينة في نهر الدانوب لسفن المتحاربين . ونص على حياد هذه النهر مع تحريم إقامة تحصينات أو منشآت عسكرية على ضفتيه . ومع ذلك فإن المضائق التركية لا يمكن أن يقاس بينها وبين نهر الدانوب الذي يجري في أراضي حلة دول . ولا يعد إنشاء لجنة الدانوب مبرراً لإنشاء لجنة المضائق

(١) أنشئت هذه اللجنة بمقتضى معاهدة أبرمت في عام ١٨١٦ في ضوء التواضع التي كان قد قررها مؤتمر فيينا في سنة ١٨١٥ بشأن الملاحة في الأنهار الدولية . ثم تعرضت هذه اللجنة للهدم من حيث تشكيلها واختصاصاتها في معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ، ثم في معاهدة جالاتز Galatz في ٢ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٦٥ ، وفي مؤتمر برلين لسنة ١٨٧٨ أدخلت تعديلات جديدة على اختصاصات اللجنة ، ثم أبرم اتفاق لندن في ١٠ من مارس - آذار - عام ١٨٨٣ منحت اللجنة مقصده اختصاصات قضائية ، وجعل مقعدها لغرضها هناك من « جالاتز » إلى « برايل » Braila . وفي معاهدات الصلح عقب الحرب العالمية الأولى وقست بصورة استهدفت توسيع اختصاصات لجنة الدانوب وزادت من سلطاتها

أنظر :

دكتور حيد البرز محمد الشاوي : تشكل الدول لتعويض قتلة السويس لكافة في بريطانيا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ص ٦٨ - ٦٩ ويص في هذه المعاهدات من المناقشات الضيقة التي خاضها أعضاء لجنة باريس لدولية عام ١٨٨٥ أوضاع لجنة الدانوب .

والمر أيضا :

دكتور سميل المظفر : قتلة السويس ومشكلاتها للماصرة . ج ٢ ، القاهرة ، ٤٠

الدولية . وإذا كان القانون الدولي العام يصرّف بحرية الملاحقة في المضائق ، إلا أنه لا يحجبها لإشراف لجنة دولية تقيم في أعظم الدولة التي تخترق المضائق أراضيها .

مقارنة بين لجنة المضائق ولجنة القناصل في مصر :

ومع المجتمع الدولي بعد ذلك عن تكوين لجنة دولية في مصر هي لجنة قناصل الدول لمراقبة تنفيذ اتفاقية الأمثلة المبرمة في ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٨ الخاصة بتنظيم حرية المرور في قناة السويس . والرقابة نوع من الضمان لتنفيذ المعاهدات . وفي اتفاقية المضائق وفي اتفاقية قناة السويس استقر رأي الدول على أن تكون الرقابة على تنفيذها ذات طابع دولي . ومن ثم جاءت اتفاقية قناة السويس بلجنة القناصل وجاءت اتفاقية المضائق بلجنة المضائق . ولما كانت لجنة القناصل تتعلق بقناة السويس التي هي ممر مائي يمر في مصر التي كانت تحت السيادة العثمانية في ذلك الوقت طبقاً لقواعد القانون الدولي العام ، فنعرض مقارنة سريعة جداً بين هاتين اللجنتين حتى نتضح في الأذهان صورة عن هذه الهيئات التي صُنعت للاستمرار ثم فرصها على الدولة العثمانية وعلى بعض أقاليمها في عصر الانحلال ضارباً عرض الحائط بالسيدة الدياسة العليا للدولة العثمانية واحترام سيادتها على أراضيها .

كانت لجنة القناصل تتكون من دعة أعضاء يمثلون فرنسا ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، وإسبانيا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، وهولندا ، والروسيا ، وتركيا . وكان هؤلاء الأعضاء جميعاً ، باستثناء تركيا ، هم قناصل الدول الأطراف في اتفاقية الأمثلة أو طبقاً لنص الوارد فيها « وكلاء الدول الموقعة على الاتفاقية والمختصون بمصر » . ولذلك لم يكونوا متفرجين لمصلحتهم في اللجنة .

أما لجنة المضائق فكانت - وفقاً للصنجل الذي جاءت به معاهدة لوزان - تتكون من عشرة أعضاء يمثلون تركيا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، واليابان ، وبلناريا ، واليونان ، ورومانيا ، والروسيا ، ويوغوسلافيا .

وتركت الاتفاقية الباب مفتوحاً لانضمام الولايات المتحدة الأمريكية إليها ، وكذلك أية دول مستقلة تطل على البحر الأسود لم يرد ذكرها من بين أسماء الدول الأعضاء .

وقد نصت في اتفاقية القناة على أن تعقد لجنة القناصل نوعين من الاجتماعات : اجتماعات طارئة في كل حالة تهدد فيها سلامة القناة أو حرية المرور بها . وتعقد هذه الاجتماعات بناء على دعوة ثلاثة من أولئك القناصل ، وتكون تحت رئاسة عييدهم على أن يكون بطبيعة الحال من يمثل الدول الأطراف في الاتفاقية ، وإلا كانت الرئاسة لأعلام درجة أو أقلهم في المنصب أو أكبرهم سناً طبقاً للعرف السائد في تعيين عميد السلك الديبلوماسي أو القنصلي في حاضرة كل دولة . ويكون الهدف من الاجتماعات الطارئة هو إجراء التحقيقات اللازمة ، ثم قيامهم بإبلاغ الحكومة المصرية بالخطر الذي يتيقنونه حتى تتخذ هذه الحكومة الإجراءات التي تكفل حماية القناة وحرية استخدامها .

أما النوع الثاني من الاجتماعات فهو الاجتماعات التي تعقد مرة كل سنة للتحقق من سلامة تنفيذ الاتفاقية . وأضاف النص أنه يجوز أن يشارك في الاجتماعات السنوية مندوب يمثل الحكومة المصرية . وتعقد الاجتماعات السنوية برئاسة مندوب خاص يعينه الحكومة المصرية لهذا الغرض . وفي حالة غيابيه يحل محله في الرئاسة مندوب الحكومة المصرية . أما لجنة المضائق فصبغت رئاسة اجتماعاتها لمندوب تركيا بصفة دائمة . ويكون الهدف من الاجتماعات السنوية للجنة القناصل هو التحقق من سلامة تنفيذ الاتفاقية في السنة السابقة على الاجتماع . وعلى اللجنة أن تطلب إلطاء كل عمل أو تفريق كل حشد ، على أحد جانبي القناة ، يمكن أن يكون الغرض منه أو يؤدي إلى المساس بحرية الملاحة وسلامتها التامة . ويرى أحد أساتذة القانون أن الهدف من الاجتماعات السنوية هو المحافظة على ديمومة مهمة لجنة القناصل والتنبيه إلى قيامها حتى لا يأتي عليها مرور الزمان وطولها في زوايا النسيان . فقد تسير الأمور بشكل طبيعي لسنوات كثيرة مما لا يتطلب عقد اجتماعات

طاردة ، فيكون في الاجتياحات السنوية حايثه إلى وجود رقابة ، ولو
شككية ، على تنفيذ الاتفاقية يتولاهما ممثلو الدول الموقعة عليها^(١) . وعلى مبلغ
علمنا لم تقصد لجنة القناصل أى اجتماع طارىء أو دورى ، لأن بريطانيا
كانت تعارض إنشاء هذه اللجنة من حيث المبدأ خشية أن تعصف اللجنة
بالتفوذ البريطانى الافرادى المتفوق فى منطقة القنارة المستند إلى الاحتلال
المسكرى ، فبقيت لجنة القناصل مجرد نص قانونى ميت لم يقدر له أن
يوضع موضع التنفيذ الفعلى . أما لجنة المضايق فقد ظلت تملس اختصاصها
إلى أن استطاعت الحكومة التركية التخلص من أحكام اتفاقية المضايق ،
وعقدت اتفاقية مونريه فى ٢٠ من يوليو - تموز - عام ١٩٣٦
وتسلمت اختصاصات اللجنة وأعادت تخصيص المضايق وتولت بنفسها
مهام اللطاع عنها .

ثالثاً : تجريد منطقة المضايق من السلاح ؛

ونصت الاتفاقية على تجريد الساحل الأوروبى والساحل الآسيوى لمنطقة
المضايق من السلاح ، وأن يمتد هذا التجريد ليشمل جميع الجزر الموجودة فى
بحر مرمرة وحلة جزر فى بحر إيجة . واستكثت من نزع السلاح بعض جزر
صغيرة تركية ويونانية . وقد حلت المادة الرابعة من الاتفاقية محلها حقيقة
المناطق التى يزرع سلاحها^(٢) . كما جاء فى الاتفاقية أن هذه المناطق تجرد من
السلاح والتحصينات العسكرية مجريداً تماماً ، فيقتل من جميع أرجائها سلاح
المنضية والسلاح الجوى الحربى والقواعد البحرية وآلا ترابط فيها قوات
مسلحة ، ويسمح فقط بوجود قوات الشرطة والجنود للتحفظ على
الأمن العام . ونصت الاتفاقية إلى أبعد من ذلك لتحديد الأسلحة التى

(١) ذكره عبد الله رزوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٦ .

(٢) بالإضافة إلى الساحل الأوروبى والساحل الآسيوى لمنطقة المضايق وكذلك الجزر ،
جردت من السلاح منطقة بيرة خاصة تشمل الجزء الشرقى من إقليم ترقيما الشرقى وقد استمرت
تركى على الإنكسار معظمى ساحل لوردان . وشمل التجريد من السلاح أيضاً جزءاً من الأرمن
قبرناية .

تزود بها هذه القوات ، فقالت إنها الميخاضات والسيف والبنادق وأربعة مدافع من طراز لويس . ولا تحفظ هذه القوات بأى سلاح أو حذاء أو أدوات حرية من سلاح المنفعة في الجيش التركي . أما المياه الإقليمية للمناطق والجزر المروعة للسلاح فيسمح بوجود غواصات فيها بعد أن تنزع منها الآلات وأدوات الحرب بحيث تغلق هذه الغواصات وتوضعها الجند مجرد سفن حادية (المادة ٨) .

نتائج نزع السلاح من منطقة المضائق :

كان تجريد المضائق والجزر من السلاح وما ترتب عليه من آثار جعلت في صلب المعاهدة هو أسوأ ما جاءت به معاهدة لوزان بخصوص موضوع المضائق ، فقد كانت مصمماً بالسياسة العليا للدولة ، وانتهاكاً لسيادتها وانترعاً لحق مقدس لها هو الدفاع عن أراضيها . ولم يكن في مقدور الوفد التركي وهو يمثل دولة هزمت في الحرب العالمية الأولى ويتفاوض مع دول أوربية كبرى خرجت منها منتصرة أن يستخلص لبلاده أكثر مما حصل عليه . وقد اتبع الوفد التركي في معاضات لوزان ما يسمى بالدبلوماسية المريبة . فقد حصل على مكاسب كثيرة وضخمة لا شك فيها وحسب أن معاهدة لوزان قد بحثت عار معاهدة سيفر . وكان إصرار الدول الأطراف في معاهدة لوزان على ضمان حرية المرور في المضائق هو الذى اتخذ ذريعة لنزع سلاح هذه المنطقة . ومع ذلك فقد حاولت هذه الدول استرضاء تركيا أو تعويضها عن تجريد هذه المنطقة من السلاح ، فتمهنت الدول الكبرى منها بضمان سلامة المضائق والمناطق المجاورة لها من كل اعتداء ، وما قد يطله هذا الضمان من التدخل الحربى لأربع دول كبرى دفاعاً عن الأراضي التركية ، مما يجعل المضائق منطقة مشحولة بحماية دولية . وقد جاءت المادة (١٨) من اتفاقية المضائق على النحو التالى :

« إن الدول السامية المتعاقبة ، وهى ترغب في أن تؤكد أن نزع سلاح المضائق والمناطق المجاورة لها لى يشكل خطراً

خاضعاً (١) على الأمن الحربي لتركيا ، وأن أي عمل حربي لن يعرض للخطر حرية المضائق أو سلامة المناطق المبردة من السلاح ، فقد اتفقت على الآتي :

« إذا تعرضت للخطر حرية الملاحة في المضائق أو سلامة المناطق المبردة السلاح نتيجة الإخلال بتنفيذ المواد الخاصة بحرية المرور ، أو نتيجة هجوم معاشيء ، أو يمس أعمال حرية ، أو تهديد بالحرب ، فإن للدول السامية المتحالفة ، وبخاصة فرنسا وبريطانيا وإيطاليا واليابان ، فصل معاً ، لمواجهة مثل هذا الإخلال ، أو الهجوم ، أو أي عمل حربي آخر ، أو التهديد بالحرب بجميع الوسائل التي يقررها مجلس عصبة الأمم لهذا الغرض . »

« وحالاً ينهي الظروف التي تتطلب اتخاذ الإجراء المنصوص عليه في الفقرة السابقة ، ينفذ تنقيلاً دقيقاً النظام الموضوع للمضائق وفقاً لنصوص هذه الاتفاقية » (٢) .

تقييم معاهدة لوزان وملحقها اتفاقية المضائق :

كان إلغاء معاهدة سيفر وإبرام معاهدة بنجلة لها هي معاهدة لوزان انتصاراً للقومية التركية . فقد استغاض مصطفى كمال أن يتحدى بريطانيا

on danger injustifiable

(١) غير كابل للبريد أو البريد

(٢) تجد النص الرسمي الكامل لمعاهدة لوزان في :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1923, Treaty Series No.16, Cmd. 1929.

Great Britain, Parliamentary Papers, 1923, Turkey No. 1 Cmd, 1914, " Lusarne Conference on Near Eastern Affairs, 1922-1923 " (Proceedings) .

وقد دخلت المعاهدة حيز التنفيذ ابتداءً من اليوم السادس من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٤ بدآن أودج في باريس لهذه المظروب من تصديقات الدول الأطراف في المعاهدة
وبما هو جدير بالذكر أن حكومة موسكو وقعت على اتفاقية لشان في الرابع عشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ ، ثم اجتمعت من الصديق عليها .

وحليقاتها ، وأن يجعلها على إلغاء معاهدة فرضتها على بلاده وهي في حالة
الجزية والانتكاس . والملحق للمام الذى انطوى عليه عقد معاهدة لوزان
هو إعادة إنشاء سيادة تركية كاملة على معظم الأقاليم التى تتكون منها في الوقت
الحاضر جمهورية تركيا^(١) ، كما قررت المعاهدة إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية
الذى كان يعد انتقاصاً لسيادة الدولة في المجالات التشريعية والقضائية والتضليلية
والاقتصادية . ولذلك كان إلغاء الامتيازات الأجنبية امتكاداً لسيادة الدولة .

ومن بين جميع الدول التى لقيت الجزية في الحرب العالمية الأولى كانت
تركيا هي الدولة الوحيدة التى نجحت ، بصلاية أبنائها واسنياسلم في الكفاح
ومعسكهم باستقلال بلادهم ، في أن تستبدل معاهدة جديدة بمعاهدة ظالمة
غير متكافئة . وتعد معاهدة لوزان في مجموعها اعترافاً دولياً بالمطالب
التركية القومية كما وردت في الميثاق الوطني . ويرى بعض المؤرخين العرب
أن معاهدة لوزان تعد من وجوه عديدة خاتمة فصول المألة الشرقية ،
لأنه كان واضحاً أن بريطانيا وحليقاتها المنتصرة الاستعمارية حاولت في
معاهدة ميلر تصفية الإمبراطورية العثمانية تصفية نهائية وتصفية المسألة
الشرقية معها ، لولا نهضة تركيا الحديثة الكفالية وقيامها من أنقاص الموت
والدمار . فاصطرت للدول الحليفة -- وقد انشقت فيما بينها في سياساتها نحو
تركيا -- إلى عقد مؤتمر لوزان ، وفيه نالت تركيا الحديثة امتيازات كثيرة
واعترف بكيانها دولة مستقلة واستطاعت بما بعد التخلص من قيود معاهدة
لوزان^(٢) .

وإذا كانت اتفاقية المصايق قد قررت تجريد منطقة المصايق من السلاح ،
إلا أنها حافظت على إبقاء هذه المنطقة جزءاً لا يتجزأ من الوطن التركي ،
وعلى إبقاء إستانبول داخل نطاق الوطن التركي . وكانت اليونان حريصة

Lewis Bernard; op. cit. p. 234.

(١)

(٢) دكتور فاضل سع ، مؤتمر لوزان وأثره في البلاد العربية . من مطبوعات معهد
الدراسات العربية العالية التابع لمجلس الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٦٦

المحرص كله على ضم هذه العاصمة إليها . وكانت اتفاقية المضائق خطوة نحو استكمال سيادة الدولة عليها بإقامة التحصينات العسكرية فيها وبقيام القوات المسلحة التركية باللفاع عنها ، وهو ما تقرر في اتفاقية مونترية Martreux المبرمة في ٢٠ من شهر يوليو - تموز - عام ١٩٣٦ ، واشتركت في التوقيع عليها عشر دول كما منشر إليها إشارة سرية في موطن قريب في نهاية هذا الفصل . ويمكن تشبيه معاهدة لوزان وعلقتها اتفاقية المضائق بالمعاهدة البريطانية المصرية التي عقبت في ٢٦ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٣٦ فقد كانت هذه المعاهدة خطوة نحو الاستقلال التام الذي تحقق بمقد اتفاقية الجلاء في ١٩ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٥٤ واستبعدت مصر سيادتها التامة على منطقة القناة وحققها الكامل في إقامة الاستحكامات العسكرية على ضفتي قناة السويس وانضامها باللفاع عنها وحماية أسما .

وإذا كانت اتفاقية المضائق قد قررت حرية المرور في المضائق للسفن الحربية والتجارية في وقت السلم وضمن الحرب ، إلا أنها جادت بأحكام كانت تفهمها المصلحة العليا لتركيا ، وهي تحريم مرور السفن الحربية والتجارية التابعة للدولة أو دول في حالة حرب مع تركيا .

لقد جادت معاهدة لوزان بما سبق أن جاءت به معاهدة سيفر فيما يتصل بالرقابة على المضائق . ولكنها جاءت بهذه الرقابة خفيفة بأن جعلت لتركيا الرئاسة الدائمة للجنة المضائق ، وجعلت باليونان عضواً حادياً في لجنة المضائق فأفهمها عن مركزها المميز كمصدر - مع تركيا - لسلطات واحتصاصات لجنة المضائق ، كما سبق أن ذكرنا ، وقضت على التباين بين أعضاء اللجنة فجعلت لكل عضو صوتاً واحداً بصرف النظر عما إذا كان العضو يمثل دولة كبرى أو وصلى أو صغيرة . وقد حلوا باحضان الشتر كما في مؤلف واحد إعطاء صورة عامة من معاهدة لوزان ومحاسنها به من مبادئ ، فقالت إن هذه المعاهدة قد أنشأت نظاماً لمرور السفن في المضائق والرقابة الدولية على هذا المرور . وهذا النظام عبارة عن مواسمة بين مصالح الدول الماطلة على البحر الأمود وبخاصة مصالح الروس التي (م ٢٠ - الدولة الشمالية)

كانت تتطلع إلى معاملة تميزها عن غيرها من الدول وبين دول المسكر الغربي وبخاصة بريطانيا التي كانت تطمع في تقرير حرية تامة لأسفن في عبورها المضائق (١).

ونخلص من هذا التقييم لمعاملة لوزان أنها كانت حصفاً بالسياسة العليا للدولة وانحصاراً لمبادئها على جزء من أراضيها على الرغم من أنها كانت تفصل من عدة وجوه معاملة سيقر .

وقد أصدر مجلس النواب التركي (٢) قراراً في ٢٣ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ بالموافقة على معاملة لوزان . وكان هذا المجلس قد أصدر قبل ذلك بفترة أيام قراراً بانتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية (٣) وفي ٢ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٣ تم جلاء آخر قوات الاحتلال من إسطنبول ، وقد دخلتها في اليوم السادس من ذات الشهر القوات التركية تحت قيادة شكرى نايل . ومن المصادفات العجيبة أنه في هذا اليوم كان الداماد فريد باشا الصدر الأعظم السابق والحكم اللود لمصطفى كمال ورفاقه وأحد أقطاب حكومة السلطان محمد السادس يلتق أفضاه الأخيرة في مدينة نيس بجنوبي فرنسا .

(١) Shotwell J. T. and Deak F. ; Turkey at the Straits. p. 117

(٢) كان المجلس القومي الكبير قد حل نفسه في ١٦ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٢٣ مستنداً لإجراء انتخابات جديدة بملت مجلس نواب يتكون من ٢٨٦ عضواً . وهذا المجلس جلس في ١١ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ .

(٣) لا كانت جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والرومل قد نجحت في تحقيق أهدافها في أثناء الكلدع من أجل تحرير الوطن التركي ، رأى مصطفى كمال تحويل هذه الجمعية إلى حزب سياسي حقيق يمتنع للتقلبات الحزبية . وقد أصدر مصطفى كمال في ٩ من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٢ أول بيان للصداقة من تأسيس حزب جديد يسمى حزب الشعب . وطلب من الملتحقين في تركيا موافقة بأراهم بالكتابة إليه شخصياً . وقد اجتمع حزب الشعب في ٩ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ - أي قبل اجتماع مجلس النواب يومئذ - واتخذ قراراً بانتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية وقد اتخذ هذا الحزب في نوفمبر - تشرين ثلث - عام ١٩٢٤ اسماً آخر هو حزب الشعب الجمهوري تأكيداً في أهداف الشعب للنظام الجمهوري . وتشير الرابع الأجنبية إلى اسم الحزب مختصراً على هذا النحو The R.F.P. أو The Republican People's Party.

إستانبول تلقد مركزها كعاصمة :

خلدت إستانبول ، بعد تحريرها من السلاح طبقاً لاتفاقية المضايق ، مدينة مكشوفة عرضة للهجوم عليها براً وبحراً . ورأى مصطفى كمال نقل العاصمة إلى أنقرة وهي المدينة التي تقع في قلب الأناضول ، الوطن التركي الأصيل ، وتمتع بمصانة طبيعية تجعلها بمنأى عن هجوم الأعداء ، ومقبرة لهم إذا حاولوا اجتياز الجبال والمضارب المحيطة بها للوصول إليها أو الاقتراب منها . وقد أمد مجلس النواب التركي في ١٣ من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٣ قراره بنقل العاصمة من إستانبول إلى أنقرة (١) . وكان نقل العاصمة ضربة حنيفة لإستانبول ، فقد حرمت من مركز ظلت تشغله أربعائة وسعين سنة كعاصمة لإمبراطورية إسلامية وعاصمة من أكرم عواصم العالم وكبرى عواصم الشرق على الإطلاق .

ويرى أحد كبار المؤرخين الإنجليز أن هذا الإجراء كان بمثابة عملية قطع أو فصل لماسى الدولة العثمانية عن حاضر تركيا . ويرى نقل العاصمة بأنه كان نتيجة منطقية لإلغاء نظام السلطنة ، فقد ذهب السلطان ، ولم تعد إستانبول في ظل الأوضاع الجديدة مكاناً مهماً لتكون مقراً لحكومة الثور الذين أطاحوا بالسلطان العثماني . ويمضي هذا المؤرخ فيقول إن الماضي المحافل بالآجاد عائق بالأنهتان : القصور الرائعة والمساجد الفخمة والمباني العظيمة التي تزخر بها إستانبول ، وضاحتها ببراً Pera موطن المقارنات اللطيفة وموائل الجاليات الأجنبية والتجارة من مختلف الجنسيات ، كل أولئك كان مرتبطاً أشد الارتباط بالماضي في الواقع الملموس ومستقراً في أذهان الشعب التركي . لم تكن إستانبول صالحة لتكون مركزاً لتركيا الجديدة التي أراد مصطفى كمال أن يقيمها ، ومن ثم انتحرت مدينة أخرى لتكون عاصمة جديدة كى تكون رمزاً يجسد التغيرات التي أراد إدخالها . فالدولة الجديدة

(١) كان سرب الشعب قد واثق في ٩ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٣ ، بأنه على اقتراح صحت يائسا ، يتخذ أنقرة عاصمة للدولة الجديدة بدلاً من إستانبول . وبعد أربعة أيام واثق مجلس النواب على هذا التصديق .

لم تستند إلى أسرة حاكمة ، ولم تقم على إمبراطورية ، ولا على عقيدة Faith ، وإنما قامت على الشعب التركي ، ومن ثم كانت حاصصة هذه الدولة في قلب الوطن التركي (١) . وهذا الرأي يجعل في معظم عناصره طابع التبرير أكثر مما يجعل من طابع التفسير ، لأن التصرفات الأولى لمصطفى كمال كانت تنم عن اتجاهه إلى الانخراط بصفاتها الوطن التركي الأسبيل يتخذ منها مهاداً لحركته الثورية . ففي الانخراط تكونت في شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٩١٨ المجموعات الأولى للمقاومة . وفي الانخراط اجتمع مؤتمر أوزسروم ثم مؤتمر سيواس في ٢٣ من شهر يوليو - تموز - وفي ٤ من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩١٩ على التوالي ، ووقع اختيار مصطفى كمال في وقت مبكر على أنقرة ، وكانت وقتذاك قرية جبلية صغيرة ، واتخذ منها منذ اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٩١٩ مقراً للجنة الدائمة المنتهية عن جمعية الدفاع عن حقوق الانخراط والروميلي ، وهي اللجنة التي كانت بمثابة مركز قيادة الثورة ، وكان مصطفى كمال رئيساً للجمعية واللجنة معاً . وفي أنقرة اجتمع المجلس الوطني الكبير في ٢٣ من شهر أبريل - يمان - عام ١٩٢٠ واتخذها مقراً رسمياً دائماً للمجلس . وفي أنقرة تكون أول مجلس وزراء شكلته قيادة الثورة في ليلة ٣ - ٤ من شهر مايو - آيار - عام ١٩٢٠ . وكانت حكومة أنقرة هي التي عقدت اتفاقيات دولية مع كل من الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية R. S. F. S. R. وجمهورية فرنسا ومعهات صلاته مع كل من جورجيا وفرنسا وأذربايجان . وأصبحت أنقرة مقرونة في أذهان الرأي العام التركي والرأي العام العالمي باسم الثورة الكيالية التي نجحت في تحرير الوطن من دنس الاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي واليوناني . كما أن رجال حكومة أنقرة هم الذين قاموا بإجراء مفاوضات لوزان التي انتهت بعقد المعاهدة . فكل هذه شواهد أو دلائل تنم عن اتجاه مصطفى كمال لنقل العاصمة من إستانبول إلى أنقرة . أما الرأي

الذى يذهب إليه الأستاذ لويس برنارد بأن جمهورية تركيا لم تقم على أساس أسرة حاكمة ، فإن إستانبول لم تكن تسقط رموس السلاطين الأوائل ولم تكن مرتعاً لنهبهم . وإذا كانت إستانبول تزخر بالقصور والمساجد وغيرها من المنشآت التى تعد من روائع الفن المعمارى ومظهراً جليلاً للحضارة العثمانية ، فإن جمهورية تركيا هى امتداد للدولة العثمانية ، وهى دولة ذات ماضى حافل بالأعجاد . والاثنان - السلطنة والجمهورية - قطاوان الأثران وجوفاً .

والواقع أنه كانت هناك ثلاثة بواعث أملت على مصبقى كمال نقل العاصمة من إستانبول .

أولاً : كانت إستانبول فى متناول قذائف الأساطيل البحرية للأعداء ، كما كان يسهل حصارها برياً ومهاجمتها على عكس أنقرة .

ثانياً : كانت إستانبول تسج بالجالاليات الأجنبية وبخاصة الجالية اليونانية ، وكانت كثيفة العدد يقيم أفرادها فى حى القنار . وكان هذا الحى لا يزال مقراً للبطريك اليونانى ومقراً للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية . وبما هو جدير بالذكر أن أعضاء الوفد التركى فى مفاوضات لوزان طلبوا نقل مقر البطريك والكنيسة خارج إستانبول . ولم ينجحوا استجابة لطلبهم (١) .

ثالثاً : كانت إستانبول فى نظر مصبقى كمال مقراً لعلماء الدين وأنصار السلطنة وكان يخشى أن يقوموا بحركات مصادمة تهدد النظام الجمهورى الوليد . أما أنقرة فكانت مدينة ثورية لحماً ودماً .

ومع ذلك فعلى الرغم من انقضاء أكثر من نصف قرن على حرمان إستانبول من مركزها كعاصمة للدولة ، فلها لا تزال أكبر مدن تركيا من حيث الكثافة السكانية ، طبقاً لتعداد سنة ١٩٧٥ يبلغ عدد سكان جمهورية تركيا زهاء ٤١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة موزعة على ٦٧ مقاطعة . ويبلغ عدد سكان

إستانبول أربعة ملايين نسمة ، بينما بلغ تعداد العاصمة الجديدة ، أنقرة ،
زهاء مليون ونصف مليون نسمة ، تليها مدن أزمير ، وأضنا ، ويسكي
شهر ، ويورصة (بروسه) ، وصمون ، وقيسرى ، وغازي عتات ،
وسواس ، وديار بكر . فضلا عن كتوزها وثلوثها الفنية التي تتمثل في
تصورها التاريخية وساحلها ومبانيها ومتاحفها .

مقارنة بين معاهلي سيفر ولوزان فيما يخص المصايق :

يلاحظ أن هاتين المعاهلتين قد قررتا إنشاء لجنة المصايق . وقد قامت
هذه اللجنة في المعاهلتين على تأكيد مبدأ الإشراف الدولي على تنظيم مرور
السمن والطائرات في منطقة المصايق . ولكن جاءت معاهدة لوزان بعدة
مبادئ كانت في مصلحة تركيا . كان أول هذه المبادئ أنها استبعدت
اليونان كدولة تشارك تركيا في السيادة على منطقة المصايق إلى هي جزء من
الوطن التركي ، وهو مبدأ خطير كانت قد استعملته معاهدة سيفر حين نصت
على أن لجنة المصايق تستمد من تركيا ومن اليونان مصدر وجودها وسلطانها
واحتصاصاتها ، وبعبارة أخرى كانت تركيا واليونان شريكتين في مصدر
السيادة . ثم جاءت معاهدة لوزان فجعلت تركيا للدولة الوحيدة التي تستند
إليها لجنة المصايق في وجودها ، وأصبحت اليونان عضواً عادياً في لجنة
المصايق . كما قررت معاهدة لوزان انفراد تركيا بالرياسة الدائمة للجنة
المصايق ، وشجبت لوزان التمايز بين أعضاء اللجنة الذي جاءت به معاهدة
سيفر التي جعلت لبعض أعضاء اللجنة صوتين لكل منهم وجعلت لبعض
الأخر صوتاً واحداً . وكانت تركيا من الفريق الثاني ذي الصوت الواحد .
فساوت معاهدة لوزان بين مندوبي جميع الدول الكبرى والصغرى بأن جعلت
لكل مندوب دولة صوتاً واحداً . ولم يرد في معاهدة لوزان الشرط المضمن
الذي جاءت به معاهدة سيفر وهو أن تكون الدول الممثلة في لجنة المصايق
أعضاء في عصبة الأمم بحيث لا تباشر عملها في اللجنة إلا بعد قبولها في عصبة
الأمم . وكان المقصود بهذه الدول وقتئذ تلك الروسية وتركيا وبلغاريا .
أما معاهدة لوزان فقد قررت أن يكون تصديق كل دولة على المعاهدة هو

شرط ممارستها لعضويتها في نشاط اللجنة ، وهو شرط أدنى إلى العادة والاعتدال . لأنه قد تقوم عقبات تحول دون انضمام الدولة إلى عصبة الأمم ، بينما التصديق على المعاهدة هو عمل تمارسه الدولة بمحض رغبته وإرادتها ولا يتطلب إصداره موافقة دول أو هيئات أجنبية (١) .

(١) التصديق La Ratification هو قبول المعاهدة رسمياً من السلطة التي تمك من المصادقة نيابة عن الدولة . وحده السلطة هي إما رئيس الدولة منفرداً ، وإما وليس الدولة مشتركاً مع السلطة التشريعية ، وذلك تبعاً للنظام الدستوري المعمول به في كل دولة من الدول الأطراف في المعاهدة من حيث السلطات التي تمنحها المصاير لرؤساء الدول في شأن إبرام المعاهدات والتصديق إجراء واجب لنفاذ المعاهدة في الدائرة الدولية يؤدي ضرورته القانون الدولي الرضى وكذلك الفرق المتواتر بين الدول .

وقد وجد أنه للقانون الدولي التام في ضرورة التصديق على المعاهدات حل حدة أساليب ، منها عبثية الالتزامات الدولية المنصوص عليها في المعاهدات ، وإثابة الفرصة للحكومة كل دولة من الدول الأطراف فيه ، والهيئات النهائية فيها لإحاطة النظر في المعاهدة قبل أن تصبح ملزمة لها بصفة نهائية ، فقد تولى فيما اتفق عليه مطويها تارصاً مع مصالحها أو انتخفاً من حقوقها أو قد تلمأ ظروف تعوقها إلى الملون مما كانت تراه من قبل تصديق من التصديق . وبهذا الاستماع تسقط المعاهدة تلقائياً بالنسبة لها . وأما أن من بين أساليب التصديق طريقة في تفويض لمخصص فعمل به من أخطر هذه الترفيع بقوله يجوز لتفويض لسلطاتهم .

ويلاحظ أنه لا يترتب على رفض الدولة التصديق حل المعاهدة أية مسئولية دولية ، ولكن لا يملك لمصادرة في هذه الحال وصف النفاذ . فالصديق لا يغير مجرد إجازة للمعاهدة ، بل هو الإعلان الحقيقي لإرادة الدولة في الالتزام بأكمل المعاهدة ، وهو الذي يحدد السلطة التي تصح لها المعاهدة ملزمة .

وحثك إجراء شكل يتشكل به إجراء التصديق ، ونفس تبادل وثائق التصديق أو إيداعها . فذلك يتيح التصديق آثاره القانونية في الدائرة الدولية يجب أن تنم به الدول الأخرى الأطراف في المعاهدة . ويحقق هذا العلم ، في حالة المعاهدات الثنائية ، من طريق تبادل الوثائق التي تصد التصديق . أما في حالة المعاهدات المتعددة فتم من طريق إيداعها لدى حكومة دولة معينة ، من في العبادة مامية للدولة التي تم الترفيع في إيداعها . وتبادل وثائق التصديق أو إيداعها هو الإجراء الذي يدخل به للمعاهدة في دور تنفيذ المعول .

أنظر كلام من :

ذكور حبله سلطان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٤ - ٢٢٠

ذكور محمد حافظ خاتم : مبادئ القانون الدولي قدام . دراسة لفرانك الأصولية ولا مكانه الملة . القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٩٠ .

فصل الثورة الكيالية في تحسين وضع المضايق :

كان لإلغاء معاهدة سيفر وإبرام معاهدة لوزان وما نجم عنها من تحسين الوضع الدينامي سبباً لمنطقة المضايق ثمرة من ثمار الثورة الكيالية. ولا جدال في أن محاح هذه الثورة كان مرده إلى القيادة الحكيمة التي اهتم بها مصطفى كمال ، فلم يلجأ إلى إجراءات تعسفية من اعتقال المواطنين بالآلاف وقلمبهم وإعدام كرامتهم بل وأدبهم ومصادرة أموالهم وتقدمهم إلى محاكمات صورية لتصدر فيها أحكام بالإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة بناء على أوامر مسبقة . وكان حريصاً منذ هذه الثورة على إنشاء مجلس نيابي وفر له الاستقرار الزمني والحماية الدستورية ، فاستطاع أن يقدم للجمعية التريكي الكثير من الخدمات . وكان دقات مصطفى كمال مثلاً حياً في المراقبة والأحلاق والهدم عن استغلال التفوذ والإثراء غير المشروع وهتك الأعراض وما إلى ذلك . ولم يشكل هؤلاء الرفاق والأخوان ، كما فعل غيرهم في دول أخرى ، مراكز قوى حتى أصبح كل منهم يقضى الأيام بحكومة داخل الحكومة *imperium in imperio* . وتخصرت في هذه المناسبة جملة مبرة حكيمة ذكرها نيقولا مكيايل وهو يتكلم عن الأمير . وكان يقصد بالأمير في هذه الجملة الحاكم أياً كان لقبه : إمبراطوراً أو ملكاً ، أو أميراً . وقد جاء فيها أن رجحان عقل الأمير وكفايته يقاسان بصعاب الأفراد الذين يحيطون به والذين ينتظرون لمعاونه في شئون الحكم . فإذا كانوا على حط موفور من الأمانة والكفاية والخلق كان ذلك دليلاً ساطعاً على سكة الأمير ، وإلا كان الرأي في الأمير على عكس ما تقدم (١) .

موقف موحد لبريطانيا وحليفاتها من تركيا وألمانيا فيما يخص بالمرات
الماتية :

من المواقف السياسية والعسكرية الجديرة بالملاحظة أن بريطانيا

(١) النظر مرعاً على مكيايل وآرائه السياسية في كتابه :

أوروبا في مطلع تصور الهدنة . الطبعة الثالثة ١٩٧٧ ، الفصل الثالث وعشرون

ثلاثة من أحلام الفكر الأوروبي الحديث في مطلع عصر النهضة . الجزء الخامس بمكيايل ،

وحليفاتها وقت موقفاً موحداً من تركيا وألمانيا فيما يختص بالممرات المائية التي في أراضي كل منها . ولذلك كان موقف هذه الدول من المضايق التركية مشابهاً إلى حد كبير لموقفها من قناة كييل *La Canal de Kiel* وهذه القناة تصل بحر الشمال ببحر البلطيق عبر الأراضي الألمانية^(١) . وقامت ألمانيا بحجزها دون أي تدخل أجنبي وانضمت للملاحة سنة ١٨٩٦ ، وكانت تسمى أيضاً قناة غليوم نسبة إلى غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا وقتذاك (١٨٨٨ - ١٩١٩) . وكان الهدف من إنشائها حرياً أكثر منه تجارياً ، واعتبرت طريقاً ألمانياً بحثاً في صميم الأراضي الألمانية . وكانت ألمانيا تمارس على هذه القناة جميع حقوق الملكية والزيادة والإدارة والاستغلال . ولم توضع اتفاقية دولية تفيد سلطة ألمانيا عليها ، فكان لما مطلق الحرية في تكييف مركز هذه القناة ، وفي أن تمنع مرور أية سفينة إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى ولقيت فيها ألمانيا الخزيمة . وكان من الطبيعي أن يكون لقناة كييل نصيب ملحوظ في أحكام معاهدة فرساي التي فرضت على ألمانيا . فقد نصت على تجريد هسله القناة ومناخلها من الملاح ومحطم تحصينات العسكرية التي كانت موجودة فيها وتحريم إقامة تحصينات جديدة (المادة ١٩٥) ، وهذه المادة تشبه ما تقرر في اتفاقية المضايق من نزع سلاح منطقة المضايق ، كما أدرجت في ذات المعاهدة أحكاماً تنص على قناة كييل صيغة دولية نسبية . وجاءت هذه الأحكام في سبع مواد (من ٢٨٠ إلى ٢٨٦) . وتبعا في هذه الدراسة بوجه خاص المادة ٢٨٠ فقد نصت على أن تكون قناة كييل ومناقلها حرة ومفتوحة دائماً على قلم المداورة الثابتة للسفن الحربية والتجارية لجميع الشعوب التي في حالة سلم مع ألمانيا . ويقف هذا النص مع ماورد في اتفاقية المضايق حين نصت على أنه في زمن الحرب وإذا كانت تركيا تحللي الدول المتحاربة فيكون المرور عبر المضايق مقصوراً على سفن الدول المتحالفة ، بمعنى تحريم مرور السفن الحربية والتجارية التابعة لدولة أو دول في حالة حرب مع تركيا .

(١) تبدأ القناة من ميناء كييل المرفق على بحر البلطيق إلى مصب نهر الإلب *Elbe* على بحر الشمال .

وقررت معاهدة فرساي في المادة ٣٨١ تطبيق مبدأ المساواة على السفن التي تستخدم قناة كييل تطبيقاً دقيقاً بالنسبة على أن حق المرور بالشكل الذي تقرر لجميع الدول التي في حالة سلم مع ألمانيا يجب أن تتمتع به هذه الدول وكل ما يقعها من أشخاص وأموال وسفن ومراكب على قدم المساواة التامة دون تمييز بينها وبين رعايا وأموال وسفن ومراكب ألمانيا أو الدولة الأولى بالرعاية . « وألا تنوق مرور الأشخاص والسفن والمراكب عوائق أخرى إلا ما كان نتيجة النصوص الخاصة بالشرطة أو الرسوم أو التدابير الصحية أو الهجرة أو المهاجرة ، وكذلك النصوص الخاصة باستيراد أو تصدير البضائع الممنوعة ، ويجب أن تكون هذه القيود متناسبة وتطبق على وجه التساوي وألا تنوق الحركة دون مبرر » . وفي اتفاقية المضائق نصوص مشابهة إلى حد كبير وتستهدف علم التمييز بين جنسيات السفن على النحو الذي مررنا . وعند السماح لتركيا - كمنولة محايدة أو عابرة - بأنخاذ أية إجراءات تعتبر تداخل في الملاحة عبر المضائق أمام سفن الدول المحايدة .

وجاءت المادة ٣٨٢ خاصة بتنظيم الرسوم وتحديد أنواعها ، فقررت ألا يفرض على السفن سوى الرسوم التي تغطي على وجه عادل نفقات صيانة وتنظيم الملاحة أو تحسين القناة أو ملاحطها ، وأن يكون تقدير الرسوم على نحو لا يحتم فحص حولة السفينة بالتفصيل حتى لا يعطل مرور السفن . ونظام المادة ٣٨٣ مسألة البضائع المارة *Transit* وجعلت إزال و شحن البضائع وركوب المسافرين ونزولهم بالقناة مقصوراً على الموانئ التي تحددها ألمانيا . وعادت المادة ٣٨٤ إلى موضوع الرسوم فقررت علم جواز عبادة أي رسم في القناة وفي ملاحطها غير ماورد ذكره في هذه النصوص .

وقررت المادة ٣٨٥ أنه « يصح على ألمانيا أن تتخذ الاجراءات المناسبة لإزالة العوائق والأخطار التي تهدد الملاحة ، وأن تكفل توافر شروط صلاحية الملاحة . ولا يجوز لها إقامة أشغال من طبيعتها عرقلة الملاحة بالقناة أو ملاحطها » . وينسب أحد اساتذة القانون المصريين الفقرة الأولى من هذه

المادة بأنها تعطى ألمانيا مهمة الدفاع عن قناتها واتخاذ سائر التدابير اللازمة لسلامة الملاحة بها وطمانيتها على النوام^(١)، ولواقع أن نص هذه الفقرة يمكنه التفسير فهو لا يشير صراحة إلى تحويل ألمانيا حق الدفاع عن القناة لأن عبارة « إزالة العوائق والأخطار التي تهدد الملاحة » عبارة عامة .

وحللت المادة ٣٨٦ جهات الاختصاص للفصل في المنازعات التي تنشأ نتيجة مخالفة أحكام المواد التي قررتها معاهدة فرساي فيما يخص بقناة كييل أو نتيجة الخلاف على تفسير هذه المواد ، فأجبرت الدولة صاحبة الشأن أن تلجأ إلى « جهة القضاء التي تقيمها هذا الغرض حصبة الأمم » وجهة القضاء هذه ليست إلا محكمة العدل الدولية الدائمة . كما نصت ذات المادة على أنه « لتعادى عرض المسائل القليلة الأهمية على حصبة الأمم تقيم ألمانيا في كييل سلطة محلية تحاط بالمنازعات في مرحلتها الأولى ، ولها حق إعطاء الرضبة الممكنة للشكاوى التي يقدمها المتوابعون القنصليون للدول المخصصة » أي تقيم ألمانيا في ميناء كييل محكمة محلية أو لجنة قضائية أو ماألبيه كدرجة أولى من درجات التقاضي تنظر في المخالفات البسيطة وتقدم عنها الرضبة الممكنة لتفصل الدول التي تقع المخالفات في مواجهة ما يبعدها من سفن أو وحايا أو ممتلكات^(٢) .

ومن مجموعة هذه المواد التي جعلت بها معاهدة فرساي يتضح أن قناة كييل خرجت من النطاق الوطني البحث بعد أن كانت تعتبر في ظل قناة داخلية تحت السلطان الكامل لألمانيا ، فأصبحت لها صفة دولية وتقررت حرية مرور جميع السفن التجارية والحرية على قدم المساواة لجميع الشعوب التي في حالة سلم مع ألمانيا . وهذا الوضع السابق والوضع اللاحق لقناة كييل عقب معاهدة فرساي يشهدان للوضع الذي آلت إليه المضائق التركية عقب معاهدة لوزان .

(١) دكتور عبد الله وغوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٠ .

استمرت نصوص معاهدة فرساي نافذة إلى أن أعلنت ألمانيا في ١٤ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٣٦ إلغاء هذه المعاهدة وتحللها من أحكامها ومنها ما يتعلق بقناة كييل . ولم يحتج على هذا الإلغاء من الدول الأطراف في المعاهدة سوى فرنسا وتشيكوسلوفاكيا (١) . واستردت ألمانيا سلطاتها المطلقة على القناة وأخضعتها إخضاعاً تاماً لمصالحها .

ومرة أخرى نجح التوقيت واحداً بالنسبة للمصالح التركية وقناة كييل . فقد استطاعت الحكومة التركية بالطرق القانونية الشرعية التي تتمثل في الدبلوماسية الحرة والمصارعة واستغلال تطور الظروف الدولية - إلغاء النصوص الجائرة التي جاءت في اتفاقية المضائق وعقدت معاهدة جديدة هي معاهدة مونتره في ٢٠ من يوليو - تموز - عام ١٩٣٦ وصدرت لها بعد قليل .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ صعدت ألمانيا أعداءها من المرور في قناة كييل . ولما خرجت من هذه الحرب منهزمة واحتلت الدول المتحالفة الأربع الكبرى الأراضي الألمانية كان نصيب بريطانيا احتلال المنطقة التي تقع فيها قناة كييل فمادت الملاحة في القناة حرة للجميع دون أن تنتظر بريطانيا إبرام معاهدة دولية لتوضيح المركز القانوني لقناة كييل ، وبذلك كانت حرية المرور في قناة كييل تدبند إلى الأمر الواقع ، بعد أن طويت معاهدة فرساي . ومرة أخرى طلبت حكومة موسكو في عام ١٩٤٥ - بعد الحرب العالمية الثانية - وضع نظام جديد للمضائق التركية .

اتفاقية مونتره سنة ١٩٣٦ :

اشتد مساعد الجمهورية التركية في المجال الدولي . وكانت قد ضاقت درعاً بالأحكام الجائرة المتصلة بموضوع المضائق والتي جاءت بها معاهدة لوزان ، وبخاصة تجريد منطقة المضائق وجزرها من السلاح وقيام اللجنة الدولية -

لجنة المضايق - بالإشراف على حرية المرور في المضايق وأرادت أن تتخلص من هذه القيود لتولى الدفاع بنفسها عن المضايق وإلغاء لجنة المضايق تأكيداً لسيادة الدولة على هذه المناطق التي هي جزء من الوطن التركي . ومنذ سنة ١٩٢٣ قامت الحكومة التركية بالصلوات دبلوماسية مع الدول ابتداءً بتعديل أحكام معاهدة لوران فيما يخص بموضوع المضايق . وجاء اضطراب العلاقات الدولية في سنة ١٩٣٥ و ١٩٣٦ حاملاً ساعدها على تحقيق مطالبها . فقد جاء الغزو الإيطالي الحبشة في هاتين السنتين نذيراً بتزايد الخطر الناشئ في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وأحدث بدوره تقارباً بين تركيا وبريطانيا . وعقد مؤتمر في مونتريه Montreux بسويسرا في الفترة من ٢٢ يونيو - حزيران - إلى ٢٠ يوليو - تموز - سنة ١٩٣٦ اشتركت فيه عشر دول ، هي : أستراليا وبلجارية وفرنسا واليونان واليابان ورومانيا والاتحاد السوفيتي وبوغوسلافيا فصلاً عن بريطانيا وتركيا . وقد أسفر هذا المؤتمر عن عقد اتفاقية مونتريه في ٢٠ من يوليو - تموز - سنة ١٩٣٦ .

وقد استردت تركيا بمقتضى الاتفاقية الجديدة حقها في تخصيص منطقة المضايق . ولم تنال في مباشرة هذا الحق استكمالاً لسيادتها على هذه المنطقة والتي كانت قد سلبت جزءاً منها بمعاهدة لوران . كما استردت حقها في الدفاع عن هذه المنطقة التي غدا شأنها شأن سائر أجزاء الوطن التركي . كما غورتها اتفاقية مونتريه اختصاصات اللجنة الدولية ، وعملت لصالح الحكومة التركية شروط مرور السفن التجارية والحربية سواء في وقت السلم أو زمن الحرب . ولن تنعزض لتفاصيل هذه الاتفاقية لأنها تتصل بتاريخ جمهورية تركيا ، ولا تزيد التوسع في تاريخ هذه الفترة .

(١) نجد نص هذه الاتفاقية في كل من :

Actes de la Conférence de Montreux concernant le régime des détroits. Lausanne, 1936.

Survey of International Affairs, 1936, pp. 584-651

المذكرة السوفيتية سنة ١٩٤٦ :

ولنفس السبب لن تعرض لتفاصيل المذكرة السوفيتية التي قدمتها حكومة الاتحاد السوفيتي في ٧ من أغسطس - آب - سنة ١٩٤٦ إلى حكومات تركيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وطلبت فيها تعديل أحكام اتفاقية مونترية تأسيساً على أن اتفاقية مونترية لم تحقق سلامة دول البحر الأسود ، ولم تضمن عدم استخدام المضايق لأغراض معادية لهذه الدول ، إذ دخلت ، في خلال الحرب العالمية الثانية ، بعض السفن المعادية التابعة لدول المحور ، البحر الأسود ، عبر المضايق وباشرت نشاطاً معادياً للاتحاد السوفيتي ، وتأسيساً على أن الدول الكبرى كانت قد وافقت في مؤتمر بوتسدام - ضاحية برلين - والذي عقد في الفترة من ١٧ من يوليو - تموز إلى ٢ من أغسطس - آب - سنة ١٩٤٥ عقب تسليم ألمانيا على ما رآته الحكومة السوفيتية من ضرورة وضع نظام جديد للمضايق يتناسب مع مركزها الجديد بعد أن خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية . وكانت المذكرة السوفيتية قد طالبت بخمسة مبادئ تكون أساساً لتعديل اتفاقية مونترية (١) . وكانت هذه المبادئ هي :

١ - تظل المضايق مفتوحة دائماً لمرور السفن التجارية التابعة لجميع الدول .

٢ - تظل المضايق مفتوحة دائماً لمرور السفن الحربية التابعة لدول البحر الأسود .

٣ - عدم السماح بمرور السفن الحربية التابعة لدول من غير دول البحر الأسود إلا في أحوال خاصة محددة .

٤ - تقع مسئولية تحديد نظام للمضايق - وهي الطريق الوحيد لبحر الأسود - على عاتق تركيا وبقية دول البحر الأسود .

(١) ذكره عبد الله رتوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧

• - تتعاون تركيا والاتحاد السوفيتي - باعتبارهما أكثر الدول مصلحة وأقلها على ضمان حرية الملاحة وسلامة المضايق في تنظيم الدفاع عن المضايق ومع الدول الأخرى من استغلالها في أغراض معادية لدول البحر الأسود (١).

وقد أظهرت تركيا والولايات المتحدة وبريطانيا ميلا إلى قبول المطالب أو المبادئ الثلاثة الأولى . ولكنها علقت المبدأين الرابع والخامس . ورأت تركيا في المبدأ الخامس مساساً بسيادتها لأنه يؤدي إلى إشراك الاتحاد السوفيتي معها في الدفاع عن منطقة المضايق ، وهي جزء من الوطن التركي ، وتعتبر هذه المشاركة مساساً بالسياسة العليا للدولة . واقرحت الولايات المتحدة أن تتولى هيئة الأمم المتحدة الإشراف على الملاحة عبر المضايق (٢) .



من هذا المرض لتاريخ البحر الأسود ومنطقة المضايق والسلسلة الاتفاقات والمعاهدات التي أبرمتها الدولة العثمانية أو فرضت عليها نجد أن الدولة كانت تمارس سيادتها على القردنبيل وبحر مرمرة واليوسفور والبحر الأسود في معظم عصور تاريخها ما بقيت الدولة قوية مهيمية الجانب . وكانت هذه الممارسة الفعلية إحدى الدعائم الأساسية التي قامت عليها سياستها العليا . كان البحر الأسود بحيرة عثمانية داخلية . وكانت منطقة المضايق يوجهها خاص ذات صبغة عثمانية بحتة ، فلم تكن الدولة بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ تسمح لأية سفينة حرية أجنبية بعبور المضايق في أوقات السلم فضلا من زمن الحرب . أما السفن التجارية فكان اجتيازها المضايق متوقفاً على إرادة السلطان العثماني وحده . ثم أخذت تفقد تدريجياً هذه الصبغة العثمانية البحتة وباتجه نحو الدولية نتيجة حملة عوالم ، منها نجاح روسيا في غزو شبه جزيرة القرم في القرن الثامن عشر ، دخول الدولة في دور الانحلال ، وأطماع الدول

(١) دكتور مصطفى الهادي ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ص ٦٢٨ - ٦٣٩ .

(٢) المرجع السابق . وانظر قصص الذكريات المتبادلة بين حكومات موسكو وأتقرة

روانيشيف في كتاب الدكتور المختار ص ص ٦٢٨-٦٤٥ .

الأوروبية الكبرى فيها ، وكانت روسيا ثم فرنسا في مقدمة هذه الدول ثم تبعهما كل من بريطانيا وفرنسا ، وازدياد حدة التنافس الاستعماري الأوروبي ورغبة الدول في الاستئثار بالمناطق الحساسة في القنولة ، وكان من بينها منطقة المضائق ، وازدياد أهمية الملاحة البحرية العالمية ، واتهمو المطرد في حجم وعدد الأساطيل التجارية والحربية لدول العالم ، والتحصن المستمر في بناء واستخدام هذين النوعين من الأساطيل ، وتشعب مصالح الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية . وكانت الدولة العثمانية في أدوار اضمحلالها تواجه حينا مضطرا من دولة واحدة مثل روسيا ، وأحيانا تواجه تكتلا من الدول الأوروبية الكبرى لفرض أنظمة معينة على منطقة المضائق كان فيها ماسا بسيادة الدولة وتجريد لها من سلطاتها على المضائق .



الفصل الحادي عشر

السياسة العليا للدولة العثمانية في ضوء خصائصها العامة (٥)

علم صيغ الشعوب بالصيغة العثمانية :

لم تحاول الدولة عثمانة الشعوب التي كانت لحكمها سواء الشعوب الأوروبية أو الشعوب الإسلامية. ونقصد بالعثمانية L'Ottomanization صيغ هذه الشعوب بالصيغة العثمانية أو ربطها برباط الحضارة العثمانية ، وهي حضارة ، مهما فهم عليها بعض الباحثين ، فكانت حضارة قائمة فعلا واستقرت مقوماتها وعناصرها من منابع متعددة كما سنوضح ذلك في كتاب قادم يمرده لتنظيم العثمانية . ولحق أن السياسة العليا للدولة العثمانية التسمت بالسلبية حيال عثمانة شعوبها . وكان مرد هذه السلبية إلى عاملين . كان العامل الأول هو سطحية الحكم العثماني بحيث مارست الدولة نفوذها في نطاق صيق للغاية . وقد سبق أن شرحنا هذا العامل في فصل سابق . أما العامل الثاني فكان الاستعلاء الذي كان من السمات البارزة في الحلق العثماني . وقد اشترك في هذا الاستعلاء السلاطين والأثراك العثمانيون على السواء .

وقد بلغ الاستعلاء بالسلاطين حدا جعلهم يترفعون عن مخاطبة أباطرة أوروبا وملوكها بألقابهم المتعارفة في محيط العلاقات الدولية . كانوا يعتبرون الدول الأوروبية في حداد الإمارات أو الولايات ، ويعتبرون الأباطرة والملوك غير نظراء لهم . كانت صياغة الاتفاقات التي يفتعلها السلاطين مع ملوك الدول الأوروبية تتم عن استعلاء بالغ على هؤلاء الملوك . وفي اتفاقيات الهدنة بين الدولة العثمانية وفرنسا ترد هذه للديباجة ومنحت هذه الهدنة من تفضل من السلطان أبلى الانتصار إلى ملك فرنسا المطلوب دوماً . كان

السلطان العثماني إذا ما وعد أحد ملوك أوروبا بالمساعدة بأي تسجيل هذا الوعد ككتابة ، بل يكفي به مجردا . وقد ظل سلاطين الدولة العثمانية أمدا طويلا يرفضون تعيين سفراء للدولة لدى الدول الأوروبية اعتقاداً منهم أنهم في غنى عن سائر العالم ، وأن على رجال الدول التي تحتاج إليهم أن يحضروا إلى إستانبول باعتبارها عاصمة العالم كله . كان على سمرء الدول أن يقدموا كل سنة هدايا غنية على سبيل الجزية . أما البعثات السياسية التي يوفدها ملوك أوروبا إلى السلاطين من وقت إلى آخر فكان على أعضاء البعثات أن يرفعوا إلى القصر هدايا غنية ومرراً لطلو مركز السلطان بالنسبة لأولئك الملوك^(١). واستمر هذا التقليد المسمى « التقدمة » معمولاً به حتى العام للسلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) . كانت مقابلة السفراء والمبعوثين السياسيين للسلاطين ثم وسط مراسم وتقاليدها مزرية بكرامة أولئك السفراء وقد قصت على معظم هذه التقاليد معاملة سيقاقوروك، ويطلق عليها البعض من قبيل الاختصار معاملة توروك Turuk (١١ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٦٠٦) التي عقدت بين الدولة العثمانية والنمسا ووضعت نهاية رسمية وشكلية لحرب استطلت ثلاث عشرة سنة تحت حكم ثلاثة سلاطين تعاقبوا على عرش الدولة^(٢).

واستثناء السلاطين كان زخوة أصيلة في نفوسهم اشترك معهم فيها الأتراك العثمانيون كشمع نظر إلى الحرب على أنها مهنة الأولى ، ونظر إلى أصوله الجنسية الأولى على أنها أنقى وأرقى من الأصول الجنسية للشعوب الأخرى ، فكان حفيظاً على هذه الأصول ، ضيقاً بالزواج من غير التركيبات العثمانية. ونظر إلى الشعوب الأوروبية المسيحية نظرة ازدراء ، ونظر إلى الشعوب الإسلامية نظرة استعلاء .

(١) محمد جميل بيم . لفظة التاريخ العثماني . كيف نشأت ولدت السلطنة العثمانية وإلا أي حد بلغت عظمتها بيروت ، ١٩٢٥ ، انظر فيه . مظاهر السلطة في التقاليد والسلالات ص ص ٢٩١ - ٢٩٥ .

(٢) كان من بين أحكام هذه للسلطة إلغاء البليدة العثمانية على إقليم ترانسلفانيا ، وتحويل العلاقات بين الدولة العثمانية والنمسا على قدم المساواة .

مياسة الدولة تجاه الولايات الأوروبية المسيحية :

وقد أدى هذا الاستلاء في خلق النمانيين إلى نتيجة طيعة هي عزلة
اجتماعية عاش فيها النمانيون بعيدين عن الشعوب الأوروبية التي خضعت لهم
وكان النمانيون أقلية عرقية بالنسبة لسكان أصنام البلاد الأصليين . وقد
أدت هذه العزلة الاجتماعية بدورها إلى نتيجة أخرى هي عدم الزواج بين
الأتراك النمانيين وبين سكان البلاد الأوروبية المفتوحة . ويلاحظ أن الإسلام
يبيح زواج المسلمين من الكنائيات ، ولكن الأتراك أو النمانيون الساقط جداً
منهم لم يقبلوا حل الزواج منهم . وكان موقفهم من المسيحيات شبيهاً
بموقفهم من المسلمين في الولايات الإسلامية . وقد أصبحت هذه الظاهرة
وهي عدم الاتصال الجنسي الشرعي بين الفريقين تقليداً حرم عليه النمانيون
وارتأوا إليه لرضاء للزعمة الاستعمارية التي كانت تغمر قلوبهم ، وبالتالي
لم يحدث ما يمكن أن نطلق عليه « تبرك جنسي » للشعوب الأوروبية التي
دانت لهم . وكان عدم نشر اللغة التركية بين هذه الشعوب هو النتيجة
النهائية للاستعلاء والازدراء والعزلة الاجتماعية وعدم الزواج وعدم الانصهار
وعدم الامتزاج بين الفريقين ، لأن الدولة لم تعمل على توفير الجو المهيمن
لانتشار اللغة التركية ، فظلت الشعوب الأوروبية التي خضعت للنمانيين عازلة
عن لغاتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها وديانها في الأم الأغلب وغير ذلك
من عقومات حضارتها . ومن هنا كان الأثر الحضاري النماني في تلك
الشعوب الأوروبية قليلاً للغاية ، ومن هنا أيضاً كانت الشعوب الأوروبية
لا تدبر لهم ثقافياً أو حضارياً . يقول المؤرخ الإنجليزي فيشر Fisker H. A.
« إن النمانيين لم يقيموا للحضارة الأوروبية وزناً ، ولم يتركوا قيمتها يوماً
من الأيام ، ولذا عاش النمانيون غريباً أجيباً في أوروبا ، لا تصيب له في
تقاليدها ، ولا يمدى تمكيره في نزومات الحكم الإمبراطوري مبادئه
الأوليغاركية - أي حكومة الأقلية - الاستثنائية ، وهي المبادئ التي

تعتمد على الرقيق ، وتنتظر إلى البشرية المحبطة بها كأنها لا تصلح إلا للاسترقاق والعبودية والتبعية » (١) .

وإلى جانب اعتماد وحدة اللغة ووحدة الفكر ووحدة الثقافة بين الحاكمين والمحكومين لم تكن هناك وحدة في اللقوس أو الأعياد أو التقاليد أو المثل أو غير ذلك من مظاهر الوحدة الاجتماعية ، وبعبارة أخرى لم تكن هناك عناصر حضارية واحدة تربط بين العثمانيين وبين تلك الشعوب الأوروبية . وكانت نتيجة ذلك أن الشعوب الأوروبية التي خضعت للعثمانيين لم تتجاوب بشعور واحد مشترك بالولاء للسلطان العثماني .

والحق أن « الوجود » العثماني في أوروبا قد عجز عن أن ينبت جلوراً تمده بالعناصر التي تحفظ عليه حياته حين بدأ الضعف يتسلل إلى الدولة . فلما زال هذا « الوجود » العثماني من أوروبا لم يخلف من بعده أثراً ذا بال سوى بصمات باهتة في بعض الأقاليم البلقانية . ومضت الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في البلاد الأوروبية التي دانت لحكم العثمانيين في مسارها العادي دون أن تشر البلباهر أن زوال هذا السيد التركي المسلم الرافد عليها ، قد أعاق استئناف مسيرتها ، أو أن اختفائه قد أدى إلى تغييرات جذرية في حياتها ، سوى تخلصها من حكم إسلامي كانت تنظر إليه شراً ويعيق صيرها به .

سياسة الدولة تجاه الولايات الإسلامية :

كانت سياسة العثمانيين في البلاد الإسلامية التي استولوا عليها تضارع سلبتهم في الأقاليم الأوروبية التي دانت لهم . فلم يحاولوا صيغ الولايات الإسلامية بالصيغة العثمانية . أو كانت تلك السلبية ترجع إلى ذات السنين أو العامين الذين تكلمنا عنها ونحن نسميها السياسة العليا للدولة تجاه ممتلكاتها الأوروبية ، وهما سطحية الحكم العثماني والاستعلاء . وقد حال هذا

(١) قاهر حريت : تترخ أوروبا في الصور الوسطى . ترجمة الأستاذ الدكتور محمد صبحي زيلة وزميله - صفيان - دار المعارف - القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ، القسم الثاني .

الاستعلاء الذى تطلعت مظاهره دون قيام تقارب بين الحكام والمحكومين وجعل العثمانيين يعيشون بمنأى عن الشعوب الإسلامية ، ولولا الوشيجة الدينية التى كانت تربط بين الفريقين بحروة وثقى ، ولولا المذهب السنى الذى كان يوحد بينهما لكان التباعد بينهما تاماً . ولكن المجتمعات فى ذلك الوقت كانت مجتمعات دينية إسلامية . وكان الدين عاملاً هاماً فى تكوين مواطنيها ، وبالتالي فى التخفيف من حدة هذا التباعد بين العرب والأتراك العثمانيين .

ومما هو جدير بالذكر أن السلطان سليم الأول فى أثناء إقامته فى القاهرة والى امتلحت زهاء ثمانية أشهر بعد دخوله العاصمة فى اليوم الثالث من شهر محرم سنة ٩٢٣ حتى مغادرته لها فى اليوم الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ٩٢٣ (٢٦ يناير - كانون ثان) إلى ١٠ سبتمبر - أيلول ١٥١٧ - فى طريقه براً إلى إستانبول - فقد تراءت إلى مسامعه أن الأتراك العثمانيين قد أقبلوا على الزواج من أرامل المماليك الذين لقوا حتفهم فى المعارك الزهية التى دارت بين الأتراك العثمانيين والقوات المملوكية . فأصدر أمراً إلى العثمانيين بالكف عن الزواج منهن ، كما أصدر أمراً عاماً إلى جميع قضاة مصر - ولم يكن النظام العثمانى قد نزل بعد فى مرقى القضاء - بأن يمتنعوا عن عقد مثل هذه التزويجات (١) فانصرف الأتراك العثمانيون إلى الزواج من المصريات . واثارت ثائرة السلطان سليم الأول ، وأصدر أمراً توعده فيه بالشق كل عثمانى تسول له فسه الزواج من مصرية . يقول ابن إياس - وكان لا يزال معاصراً لهذه الأحداث . « وفى يوم الأربعاء الرابع من هذا الشهر (جمادى الآخرة سنة ٩٢٣) (٢٤ يونيو - حزيران - ١٥١٧) ونادى السلطان فى حاكمه أن كل من سكان منزوجاً بأمرأة من نساء أهل مصر يطلقها ، وإلا يشق من غير معاودة ، فمنهم من طلق زوجته ، ومنهم من أبقاها فى عصمتها (٢) . ومنذ ذلك الوقت غدا عنم زواج الأتراك العثمانيين بالمصريات وغيرهن من ميولات الشعوب الإسلامية التى خضعت لهم تقليداً حرص عليه

(١) ابن إياس ، معاصري ذكره ، تحقيق ونشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى ، ص ١٥٨ ، ١٨٤

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

العثمانيون وارتحلوا له بمضى الزمن لرضاء الفزعة الاستعمارية التي كانت تقمر نفوسهم .

وعلى عرار ما حدث في الولايات العثمانية في أوروبا انتهت الدولة العثمانية نفس السباسة في الولايات الإسلامية من حيث علم الانتماء وعدم الانتصار بين الأتراك العثمانيين وأهالي الولايات الإسلامية. ولم يحدث تركك جتسي لهذه الشعوب الإسلامية وتكشفت اللغة التركية على نفسها في مصر وفي غيرها من الولايات الإسلامية. فلم تكن تستعمل إلا في دولتين الحكومة - وكانت قليلة العدد - ولا يتحدث بها إلا الأتراك العثمانيون فيما بينهم ، وكانوا قلة بالنسبة لتعداد السكان . وكانت السلطات العثمانية تعتمد على ترجمة القومانات الهامة والأوامر الحكومية إلى اللغة العربية ، وتقل في المساجد الكبرى وفي الأسواق والمقاييس وغيرها من أماكن التجمعات الجماهيرية ، أو يطوف بها المشاعية كرجال إعلام^(١) . وهكذا تعددت مظاهر التزلة الاجتماعية بين الفريضة . وقعت الدولة بالجزيرة السورية ترسل إليها من كل ولاية ماعدا إقليم الحجاز^(٢) كرم ذكر اسم السلطان مقروناً بالدعاء له على منابر المساجد في

(١) المشاعية مصطلح تاريخي له جذة مدلولات في العصر العثماني .

أولاً فرجال الدين يطوفون الشوارع والحدائق يلهون الأوامر والأخبار الحكومية الهامة . وكان يطوف في معظم الأحيان أربعة من المشاعية تسماً ينحى اثنان منهم باللغة التركية والآخرين باللغة العربية ، وي بعض الأحيان كان يطوف اثنان فقط من المشاعية سماً أحدهم ينحى باللغة التركية ، والآخر باللغة العربية . وكان المشاعية يسودون في المدينة لئلا يصلون للمشاعل . ومن هنا جاءت تسميتهم المشاعية . وكثيراً ما يسمون أيضاً القسوة نسبة إلى القسوة .

ثانياً ، السباسة والجلالون وهم الذين يتخذون أساليب الشق والجلبد ويرت المادة على أن يكون المشاعل الذي يقوم هذه المهمة يهودياً مسيحياً أو مسيحياً مسيحياً .

ثالثاً ، المشاعلون بالعرف القبيحة مثل زرع الآبار والحملات والمجاهري

ابن أبيس ، صفر سنة ١٢٠٠ ، ج ١ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤١ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٨ ، ١٤٤٩ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥١ ، ١٤٥٢

خطب أيام الجمعة والأعياد ، وبالعملة تضرب باسمه ، ويوال عثاني نائباً عن السلطان في كل ولاية وهو يحمل رتبة الباشوية أو البكوية ، ويحمل ثلاثة أطواخ أو طويعين^(١)، وقوة عسكرية عثانية ترابط في البلاد ويطلق عليها أهل الولاية اسم « الحامية العثمانية » . وكان حصاد هذه السياسة أن احتضنت الشعوب الإسلامية وهي في ظل الحكم العثاني بلمعها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها وعبرها من عناصر حضارتها وكانت من أهم المقومات التي استندت إليها حركة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر .

ومن الملاحظات ذات الميزى العميق والتي ذكرها نابليون الأول في مذكراته التي أملاها وهو في منفاه بجزيرة سانت هيلانة على الجبال بـ Bertrand قوله إنه لما جاء إلى مصر قائلاً حاملاً الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ وجد أن المصريين لا يتكلمون اللغة التركية ، وأنهم يجهلون ، وأن هذه اللغة كانت غريبة عليهم كما كانت اللغة الفرنسية غريبة عليهم سواء بسواء^(٢) .

دراسة مقارنة بين القترح العثمانية والقترح الإسلامية العربية :

يجرنا هذا الموضوع إلى عقد دراسة مقارنة بين حركة القترح العثمانية وحركة القترح الإسلامية العربية التي قامت بها حكومة الخلفاء الراشدين في المدينة المنورة ، ثم حكومة الأمويين في دمشق ، ثم حكومة العباسيين في بغداد . فلإى جانب السلبية المطلقة التي اتسمت بها سياسة الدولة العثمانية من حيث عدم محاولة تنمية الشعوب الأوروبية والإسلامية التي دانت لها ، نجد السياسة الإيجابية التشيعية في السياسة العليا للدولة الإسلامية - تحطيماً وتنقيلاً ومتابعة - لتضرب الشعوب التي تفتحت بلادها في العراق والشام

(١) سفرى لشرطه الكفوف من ٣٦٦-٣٦٦ في الفصل التاسع عشر من كتابه «الزبد» .

(٢) Napoléon Ier, Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie (1798-1799.) Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon

dictées par lui-même à Sainte Hélène et publiées par Général Bertrand. Paris, 1847 2 vols. t II. 151.

ومصر وشمال إفريقيا وإسبانيا وغيرها^(١)، ثم اتخذ الوسائل السلمية لنشر الإسلام نشرًا هادئًا بعيدًا في معظم الحالات عن العنف أو الإكراه .

المروق بن النضج العنابية والنضج الإسلامية العربية :

أولاً : إن الفتوح الإسلامية العربية والفتوح العنابية قامت بها دولتان إسلاميتان ابتغت كل منهما على نحو من الأنحاء نشر الإسلام في الاتجاهات التي ومعها ظروف كل منهما . وقد كان واضحاً وملحوظاً وبارزاً أن نشر الإسلام كان هدفاً رئيسياً من فتوحاتها . وفي حالة الدولة العنابية نجد أن فتوحاتها في الأقاليم المسيحية قد تمت باسم الإسلام . وكانت الدولة العنابية تحق نجاحها في فتح إقليم مسيحي عام أو مدينة مسيحية ذات أهمية كبرى تبعث الرسل إلى حكام العالم الإسلامي وإلى الشعوب الإسلامية تترف إليهم وإلها آباء الانتصارات الحربية في تلك الأقاليم . ولذكر على سبيل المثال ما فعله في هذا الصدد السلطان محمد الثاني حين فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عام ١٤٥٣ وحوّل اسم العاصمة إلى إستانبول ومعناها دار الإسلام وجاء إلى القاهرة مبعوث من لدن السلطان العنابي^(٢) في تلك السنة^(٣) لإبلاغ إرنال سلطان دولة المماليك الشراكمة الحاكم وقتذاك (١٤٥٣ - ١٤٦٠) أنباء هذا الانتصار الإسلامي الحربي الحظير . فأمّر السلطان إرنال

(١) يستقى من هذه القناعة من تولد الحكم الإسلامي خارج الجزيرة العربية : بلاد فارس التي تبعت الإسلام ديناً ، ولكنها استقبلت بمسحتها للفرسية الأسياد ليست هذه الدراسة مجالا لنشرها .

(٢) يطلق ابن أبياس عليه المصطلح التتوخي ، فيقول : « وصل قلعة ملك الروم محمد بن عثمان » ويطلق حل القسطنطينية اسم القسطنطينية القبطي .

ابن أبياس : نشر الأسماء المذكورة محمد بن عثمان من قبله ثم نشر من يدافع الزهور في قتال الممطور من سنة ٨٠٧ إلى ٨٧٢ (١٤٥٣ - ١٤٦٨) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٥ .

(٣) يبلغ القاهرة في يوم السبت ٢٢ من شوال ٨٥٧ (٢٧ من أكتوبر - تشرين أول - ١٤٥٣) ، وأنهم في القاهرة شهراً وعندها يوم السبت ٢٢ من ذي القعدة ٨٥٧ (٢٤ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - ١٤٥٣) .

بإقامة التريونات في الأسواق والطرق ولإيقاد الشعوب في الشوارع وعلى المآخذ،
ودق البشائر السلطانية في القلعة عدة أيام (١) .

ثانياً : إن القوات الإسلامية العربية فتحت أقاليم لم يكن سكانها يتكلمون
اللغة العربية . وفتحت القوات العثمانية بلاداً لم يكن أهلها يتحدثون اللغة
التركية . فوقف كل من الدولة الإسلامية العربية والدولة العثمانية كأنهما شيئاً
من هذه الناحية .

ثالثاً : إن القوات الإسلامية العربية كانت تمارس عملياتها الحربية
في بلاد لم يكن أهلها يديون بالإسلام . أما القوات العثمانية فارتدت نشاطها
الحربي في ميدانين متباينين أشد التباين : الأقاليم المسيحية في الأناضول
والأقاليم الأوروبية في البلقان وشرقي أوروبا ووسطها . وكان سكانها لا يعتقدون
بطبيعة الحال الدين الإسلامي . وفي ذات الوقت غزت بلاداً إسلامية كان أهلها
يديون بالإسلام وكانوا يعتقدون المذهب السني فيما عدا بلاد الدولة
الصغوية في فارس . وكان العثمانيون قد أخذوا من أنفسهم حدة المذهب
السني في العالم الإسلامي . وفي الميدان الأخير كانت الدولة العثمانية تمارس
في جو صهي ، وفي يداه ورقة رابحة . ومع ذلك فلم تقم - أو لم تحاول -
التدخل في حياة الشعوب الإسلامية ابتغاء صيغتها بالصيغة العثمانية . أما
الفاطميون المسلمون للعرب فقد واجهوا في صدر الإسلام الموقف الثالث
النصيب بسياسة مرسومة لتعريب الشعوب التي هانت لهم وتشجيعها على
اعتناق الإسلام طوعاً عملاً بالآية القرآنية الكريمة « لإكراه في الدين »
وتأبها في إصرار تنفيذ هذه السياسة العليا المزدوجة .

اندفع المسلمون العرب في موجات بشرية متلاحقة من قلب الجزيرة

(١) أبو الهيثم : جهال الدين بن يوسف بن قنبري برعي : فتوح الزاهرة في ملوك
مصر وفتوح مصر من ٤٣٩ - ٤٣٨ .
الاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر . مرجع سيذكره ،
مجلة الجمعية التاريخية المصرية . المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو - آيار - ١٩٥١ ، ص
١٩٧ - ٢٢٨ .

العربية إلى خارجها في أعقاب الفتوح الإسلامية لينتسروا فوق الرقعة النسيبة الممتدة من الخليج العربي إلى المحيط الأطلقي ثم استداروا مهاجرين حتى مصب نهر السعال في الوقت الذي حيرت فيه بعض البطون العربية إلى إسبانيا واستقرت فيها وصيبتها بالصيغة الإسلامية العربية التي ظلت تلازمها أحقاباً وأدهاراً وأعصراً .

وعطفاً للمخطط الإسلامي العربي وضعت الدولة الإسلامية العربية أول الأمر قيوداً على اختلاط الجنود بأهالي البلاد الأصليين ، فأقامت لهم مهاجر ، كانت عبارة عن مدن جديدة أو معسكرات في البصرة والكوفة في العراق ، وفي بعض الأجناد في بلاد الشام ، وفي القسطنطينية في مصر ، وفي القيروان في تونس ، وفي بعض المراكز العسكرية في بلاد المغرب الأقصى . وكانت السياسة العليا للدولة الإسلامية في أول عهدنا هي الاعتماد على المنتصر العربي وحده في الفتوح الإسلامية ، فالعرب هم علة الحرب ، وهم وحمود الجهاد . ولذلك كان من الأهمية بمكان أن يظل المنتصر العربي محتفظاً بامتيازاته العسكرية كاملة ، وأن تظل شعلة الحامية فيه متقدة لا تنحور . ولذلك حيل بين الأجناد العرب وبين الاشتغال بالزراعة . وكانت للدولة لا تجد في الجيش إلا العرب وقصير لهم الأرزاق والأعطيات للإنفاق على عائلاتهم . ولكن بعض الوقت لم تستطع الدولة المضي في هذه السياسة بسبب زيادة الأعباء المالية على بيت المال ، ولأن الأوضاع الإسلامية العربية في البلاد المفتوحة كانت قد استقرت إلى حد بعيد . فبدأت الدولة الإسلامية في العصر الأموي ترفع تدريجياً هذه القيود عن الجنود العرب المدونين ، فانطلقوا إلى حيازة الأرض والاشتغال بالزراعة إلى جانب حصولهم على العطاء من بيت المال . وعلى ذلك غادر هنا الفريق من الجنود العرب مراكز تجمعاتهم في المعسكرات والمدن الكبرى وأقاموا في المناطق الزراعية ويثو إلى دورهم في الجزيرة العربية يطلبون منهم القتلوم إلى موطنهم الجديد (١) .

(١) دكتور محمد عبد الحليم المصري . الفتوح الإسلامية ، ١٩٦٠ ، الباب الثاني

تكملة الفتوح العربية . ص ١٥ - ٤٣ .

فحدث نوع من الاقتراب بين العرب والمهاجرين وبين أهالي البلاد المقيمين في تلك المنطقة واشتد هذا الاقتراب في القرن الثاني الهجري ومطلع القرن الثالث (الثامن الميلادي وبعض التاسع) حين آلفت الدولة الامتيازات التي كانت تعطى للمسكوبين وفُرِصت عليهم الفرض البأسوة بغيرهم . وقد أدت هذه الإجراءات في النهاية إلى انسياح العرب في المناطق الزراعية واشتغلهم بالزراعة واحتلالهم بالسكان الأصليين والتزاوج معهم مما أدى إلى نتائج خطيرة من حيث التكوين الإثنوجرافي للراى هؤلاء السكان ونتائج أخرى خطيرة دينية ولعربية ، كان لها آثارها البعيدة في الأقاليم التي ضمتها العرب .

الارتياح :

غير أن المسلمين العرب لم يتقبلوا تماماً أول الأمر بهذا المخطط الذي كان أحد أركان السياسة العليا للدولة الإسلامية ، فقد بدأت طلائع الاقتراب بينهم وبين أهالي البلاد في زمن ميكر سجلاً يرجع إلى أول عهد اقتراح الإسلامية الكبرى . وكان الارتياح هو أحد المسارب الأولى التي لجأ إليها الجنود العرب في البلاد التي فتحوها . ففي مصر على سبيل المثال كان الرالى يأذن لم عند حلول فصل الربيع بمخادوة نجساتهم في مدينة القسماط والتحرك لحمل البلاد للإصابة من حراتها ، فيطلقون بصطافون ، ويشربون اللبن الذي يقدمه المصريون إليهم ، ويأكلون الخراف التي يحصلون عليها منهم ، ويطلقون عيولهم ترحى في حقول البرسيم لتسمن وتقوى ، وليس يخاف أن سلاح القوسان كان يشكل القوة الرئيسية في الجيش الإسلامي العربي . وأطلق على هذه العملية نظام الارتياح ، لأنها ثم إذا أقبل فصل الربيع وتستمر طيلة شهور الربيع الثلاثة ، حتى إذا جاء الصيف عادت القبائل العربية إلى القسماط . وكان الارتياح نوعاً من العطلة والاستجمام من مشاق القتال . ولكنه لم يكن يتم كيفما اتفق ، بل وضع له منذ المظلة الأولى نظام مرسوم ، فكان يراعى أن ترتفع كل قبيلة في مكان مخصوص لها يسمى المرتفع لا يتغير كل سنة . ويلاحظ أن الجيش الإسلامي العربي كان منظماً على أساس قبلي ، بمعنى أنه كان يراعى في تكوين الكتيبة أن تكون من أفراد

قيلة واحدة ؛ فإذا لم يتوافر العدد المطلوب كان يستكمل عددها من أفراد قيلة أخرى متقاربة . وعلى الرغم من أنه كان يترك للكثبية اختيار المنطقة التي تفضل الارتباع فيها ، سواء في اللثا أو في الصعيد ، فإن الوالى كان يصدر أمراً كتابياً يحدد فيه القرية التي تذهب إليها الكثبية وكميات اللبن التي يسمح لها بالحصول عليها من المصريين . وكان عمرو بن العاص والى مصر يوصى جنوده عند حلول موسم الارتباع بأن يحسنوا معاملة الأكباط عند ما يتصلون بهم في فترة الارتباع . وكان يصدر أوامر صريحة ومشددة بأن يكفوا أنفسهم عن أموال الأكباط . وكانت من أهم مناطق الارتباع - أو المرتبعات كما نسمي - منوف ، الحوف للشرق ، منف ، الفيوم ، الهنسا ، أمانيا ، وهي مناطق تتمتع بحصوية أرضها إلى جانب متاحها للصحراء حيث كان يتنبا لجند العرب عديد القصر للصيد وتدريب الخيول مع الإقامة في جو قريب من جو قيادية . ويلاحظ أيضاً أن المرتبعات كانت تتركز حول القسطنطين أو على مقربة منها (١).

وكان نظام الارتباع بمثابة هجرة داخلية تتجدد كل سنة وتتحرك من التجمعات العسكرية الإسلامية العربية وتتغلغل في أعماق الريف المصري ونهبي عديد القصر للاتصال المباشر بين العرب الفاتحين وأهالي البلاد وكان الارتباع هو أقدم أشكال الاتصال بين العرب وسكان البلاد، وبعد اللينة الأولى في تعريب المصريين . وليس أدل على ذلك من أن قبائل بنيها انتهى بها الأمر إلى اغتاد مرتبعتها أماكن للإقامة الدائمة بعد أن تركت القسطنطين نهائياً .

الرباط :

لم يكن الارتباع هو الوسيلة الوحيدة التي اقرب بها الجند المسلمون العرب من سكان البلاد واعططوا بهم . فقد كانت هناك وسيلة ثانية هي

(١) الدكتور عبد الله خورشيد غبرى : القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة . الناشر : دار الكتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ، ص ٤٠-٤٩ .

الرباط^(١) . ونعني بهذا المصطلح العسكري العربي مرايطة جزء من القوات الإسلامية العربية في الثغور والسواحل بصفة دائمة . فقد تطلبت المحافظة على وضع مصر كجزء من دولة الإسلام توزيع قوات الجيش الإسلامي العربي بين القسطنطين والإسكندرية وسائر الثغور والسواحل المصرية مثل رشيد والبرلس ودمياط وأشتوم والقريش وغيرها . وكان يطلق على هذه المناطق العسكرية اسم المواجيز^(٢) . ولم تكن هذه القوات تقيم في معسكرات خاصة بها أو في مدن مقفولة ومخصصة لها مثل القسطنطين ، ولكنها كانت تقيم في مساكن الأهالي العادية .

وكان عمرو بن العاص هو الذي وضع التنظيم الأساسي لرباط بعد أن فرغ من العمليات التي انتهت بفتح مصر ، فخصص ربع قواته للمرايطة في الإسكندرية وحدها ، والربع الآخر للمرايطة في سائر السواحل المصرية ، أما النصف الباقى فقد استبقاه في القسطنطين . وبعضى السنين تزايد عدد القوات الإسلامية في مصر نيلت القوة المرايطة في الإسكندرية وحدها سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) على عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان التي عشر ألفاً ، أى ما يساوى عدد الجيش الذي فتح مصر كلها سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) . وكانت القوات المرايطة يستبدل بها غيرها مرة كل ستة شهور صيفاً وشتاءً^(٣) . ولا ريب أن إقامة أفراد هذه القوات بين أهالي البلاد أدت إلى اقترابهم منهم ثم احتلاطهم معهم . وإذا كانت حركة الارتجاع لم تمتد إلى ثغور مصر لبعدها من جهة ، ولعدم صلاحيتها لأنها ليست ريفاً من جهة أخرى ، إلا أن

(١) لرباط تجمع دبل باسم كل من القراء والقبائل .

(٢) المواجيز جمع ماجر ، وهو الموقع الذي يكون بين القوم وبين هجومهم ، وهو مصطلح يستعمله أهل الشام وسائر البلدان .
انظر :

ذكرورة سيده إسماعيل كاشف : مصر في عصر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الفاطمية ، طبعة ثالثة ، الناشر دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٧١ ، حاشية رقم ٣ .

(٣) ذكرورة عبد الله خورشيد البري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩ - ٥٠ .

مرابطة هذه الأعداد الهائلة من القوات العربية في الثغور منذ الأيام الأولى للفتح وأسلوب استيطانها كانا لما أثرهما في تعريب هذه الثغور ، فالرباط قام تقريباً بثلاث الدور التي أداها الارتباع .

الليوانات :

كانت اتفاقيات الصلح تنص على تحويل العرب القاطنين حق الضيافة على سكان البلاد الأصليين إذا نزلوا قراهم وأحياءهم . وتستمر هذه الضيافة ثلاثة أيام كان على المصريين خلالها القيام بجميع واجبات الضيافة نحو العرب^(١) . وقد نظمت مسألة للضيافة ، فكان أهالي كل قرية يخرجون من رحابها الذي سيقتدر الخروج على أساسه حداً من الأقفلة يتفق ريعها على المرافق العامة مثل الكتائم والحمامات والمعدنيات والضيافة المسلمين^(٢) . والعبارة الأخيرة تشمل موظفي الولاية وأفراد الجيش العربي . وكان المسلمون ينزلون في القيوان أو الإيوان ، وهو المضيقة أو قاعة الاجتماعات التي لا تزال تحيط بالكثينة في كبر من قرى الصعيد والدلتا^(٣) . ويلاحظ أن رصد اعتيادات مالية للإفناق على الضيوف المسلمين دليل على أن هذه الضيافة كانت ظاهرة عامة مألوفة في المجتمع المصري في ذلك الوقت . وسواء كان العربي ينزل ضيفاً على المصري في بيته الخاص أو في المضيقة العامة فقد كانت هذه الضيافة نوعاً من أنواع الاتصال كان لها أثرها في حلول التقارب ثم الاختلاط بين العرب والمصريين^(٤) .

وعلى ذلك لم يكن اختلاط العرب بالمصريين مقصوراً على المدن وحدها وإنما امتد إلى جوف الريف . ويقول أحد الباحثين القرنين إن العرب هم

(١) ابن عبد الحكم : مذكرات بن مبرك : شرح مصر وأندلس ، ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

(٣) دكتور عبد الله محمد عبد البري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٠ - ٥١ .

(٤) نفس المرجع السابق ونفس السفسين .

لأن احتطوا بالمصريين أكثر من احتطاط المصريين بالعرب^(١)، والحق أن عمليات الاختلاط قلعت من الجانبين : العرب الواعدين والمصريين الخيبيين في بلادهم . فكانت هذه العمليات في واقع الأمر قوة استقطاب ضخمة ذات محورين : فالعرب استقطبوا المصريين جنسياً ولغوياً ودينياً وثقافياً . والمصريون استقطبوا العرب اجتماعياً ثم حضارياً أول الأمر . وكانت المحصلة النهائية تعريب مصر وتجديد دعاء المصريين دون أن يتعرضوا للقضاء أو التلاشي^(٢) . وظاهرة تعريب مصر ظاهرة نادرة خارقة ، فصر القرونية التي سيطرت على مناطق كثيرة في الشرق الأوسط ونجحت في تصدير حضارتها المادية لم تستطع أن تمتد لفتها خارج حدودها ، في حين أن العرب الذين جاءت سيطرتهم الحربية فجأة ولم يكن لهم في ذلك الوقت رصيد من الحضارة المادية خارج نطاق الدين واللغة استطاعوا أن يفرضوا لغتهم حينئذ ذهبوا . أما الأتراك العثمانيون فقد أسفحوا في دشر اللغة التركية حتى على الشعوب التي خضعت لهم عسكرياً وسياسياً^(٣) . وما ينطبق على مصر ينطبق على سائر الأقاليم التي فتحها المسلمون العرب باستثناء فارس ، كما سبق أن ذكرنا ، فقد نجح العرب في فارس دينياً وأضحوا لغوياً .

ومع ذلك فهناك اتجاه بن فريق من المؤرخين المحدثين لا يخلو من رأي سليم، يقول إنه بجانب الأجناد العرب الذين وقع عليهم عبء الفتح الإسلامية والاشتغال بالسياسة والإدارة ، وجدت قبائل عربية في خلال الخمسين سنة الأولى من تاريخ الإسلام إلى العراق وفارس والشام ومصر والمغرب والأندلس وغيرها من أجزاء الدولة الإسلامية حيث انتشر عشرات الألوف

(١) Chantre E., Recherches Anthropologiques dans l'Afrique Orientale, Egypte, 1904, pp. 302 - 303

(٢) محمد الحزب حوسى : وحدة التاريخ مصر المشرق للؤسة العربية الدراسات والنشر ، بيروت - لبنان (مارس) ١٩٧٢ ، ص ١٨٨ .

(٣) دكتور جمال حناني : شخصية سر . دراسة في «بقية الكفان» الناشر دار الهلال ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٢ .

من أفراد هذه القبائل . وكانت الأرض واسعة وفي رحابها منيع لأولئك العرب المهاجرين . وإذا كان عمر بن الخطاب ثاقب الأنظار الراشد قد حرم على جنده العرب المدون الاشتغال بالزراعة أو الانصراف إلى مطلب آخر من مطالب الحياة ، إلا أن هذا المنع لم يمتد إلى العرب عامة ، لأنه من غير الطبيعي ومن غير المقول أن يحرم عمر العمل على حادى حاجر بنفسه وأهله إلى بلد كحصر بُرترق ويصيش . والعرب الذين انتشروا في أجزاء دولة الإسلام لم يكونوا جميعاً جنساً ملونين . وكانت النتيجة أن وجدت في مصر والعراق والشام وغيرها من بقاع دولة الإسلام جماعات عربية مدنية هي التي اشتغلت بالزراعة والصراع وشئون المعاش دون أن يكون في ذلك عائقاً لأمر عمر . وهذه الجماعات هي التي أثبتت من أول الأمر بين الأهالي في كل ناحية واختلطت بهم ، وهي صاحبة الفضل الأكبر في عمليتي الترحيب ونشر الإسلام . وجدير بالذكر أن هؤلاء العرب سواء الذين اشتغلوا بالعلم أو بطلب المعاش والزراعة لم يتخلوا عن عروبتهم أو اعتزازهم بها ، بل خلطوا الناس محظطين بشعورهم العربي ، وتزوجوا معهم ، وأورثوا أولادهم أرونتهم العربية . فأولاد العرب خرجوا إلى الحياة عرباً مسلمين تكلموا العربية ، وكل منهم كان لا يزال في المهد صبيّاً ، ومن ثم زاد تعدادهم . وكانت لهم امتيازات مادية ومعنوية يحكم الدين والأصل واللغة ، وكانت هذه الامتيازات مما حبيب إلى الناس الالتئام إليهم ودخول الإسلام واتخاذ اسماء عربية ، بل اصطناع أنساب عربية (١) .

وكانت أمام العرب المذنبين الذين قتلوا من الجزيرة العربية إلى أجزاء دولة الإسلام حديد القصر للاتصال بأهالي البلاد اتصالاً مباشراً ، إذ كان هؤلاء العرب ، ومعظمهم من العرب الليثية ، ذوي خبرة بالأعمال الزراعية وصناعة المتسوجات وبناء السفن وغير ذلك من ضروب النشاط الصناعي

(١) انظر بحثاً مفصلاً ومالياً للأستاذ الدكتور حسين مؤنس بعنوان « تفريح مصر من التبع العرب إلى أن دخلها الفاطميون » في المجلد الثاني من تاريخ الحضارة المصرية. نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي (بدون تاريخ الطبع) ٤ ص ٣٢٣ - ٢١٧ .

الإمبراطورية يستغل نفوذه لمصلحته الشخصية أسوأ استقلال محتملاً على مصاهرته للأُسرة السلطانية .

منصب الصلوة العظمى بين الأحرار والصيد :

وحتى فتح القسطنطينية كان منصب الوزير الأول يشغله مسلمون أحرار^(١) . فقد عين السلطان أووخان بن صُبان الأول (١٣٢٦ - ١٣٦٠) أخاه الأمير علاء الدين في هذا المنصب ، واكتسب علاء الدين شهرة واسعة ، كما اشتهرت في تاريخ الدولة العثمانية أسرة إسلامية هي أسرة چانداری^(٢) Gendari. نولى أفراد منها من وقت لآخر لمدة أربعة أجيال ذلك المنصب^(٣) . وكان رابع أفراد هذه الأسرة ، ويسمى خليل باشا-يشغل ذلك المنصب وقت فتح القسطنطينية . وكان تعيين مسلم حر في منصب رئيسي في نظام الحكم أمراً شاذاً . ويقال إن السلطان محمد الثاني قد ساورته المخاوف من النفوذ الواسع الذي بلغته أسرة چانداری ، وشك في قيام توطؤ بين خليل باشا والبلاط البيزنطي ، واتهمه بالخيانة العظمى وأعلمه في ذات السنة التي تم فيها فتح القسطنطينية . واتجه فكره إلى إلغاء منصب الوزير الأول كلية والاستئناء نهائياً عن خلفائه انقضاء للشبهات التي تعوم حول شغل المنصب . وظل على رأيه ثمانية أشهر ، ثم رأى أن يجعل التعيين في هذا

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold : op. cit., vol. I, Part I, p 109.

(٢) يرد اسم هذه الأسرة في المراجع الإنجليزية والفرنسية في صيغ مختلفة بها : Genderei, Genderti, Gandarti.

(٣) كان هؤلاء أربعة هم :

أ - قره خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٨) .
ب - إيه علي ، وقد عين على عهد السلطان أبي يزيد الأول (١٣٨٨ - ١٤٠٣) .
ج - إيه إبراهيم ، وقد عين على عهد السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١) .
والسلطان مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١)
د - إيه خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الثاني والسلطان محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١)

(هـ - ٢٤ الدولة العثمانية)

المنصب مقصوراً على القولاى أى طبقة العبد . فضلاً عن فى منصب الوزير الأول رجلاً من هذه الطبقة . هو محمود باشا عفى (١) . ومنذ مطلع سنة ١٤٥٤ أصبح للسلور العظام والوزراء يمتنون من الموظفين العميل (٢) .
وزراء القبة :

استحدث السلطان محمد الثانى نظام وزراء القبة ، وهم وزراء مخصوصون للصدر الأعظم ، ويجلسون إلى جانبه تحت سقف واحد أو قبة واحدة . ولذلك أطلق عليهم وقعة وزيرلى ، أى وزراء القبة . وكان كل منهم يحمل لقب وزير وثلاثة أطواح ، ورتبة الباشوية . وكان عندهم أول الأمر أربعة ثم ارتفع إلى ستة ثم زاد عندهم ثباتاً فى القرن السادس عشر . وكانت ألقابهم هى التى عملت وضعهم فى البروتوكول العثمانى ، يسمى أحدهم الوزير الثانى ، والآخر الوزير الثالث ، وهكذا .

وكان الاختيار يقع على أحد وزراء القبة - هو الوزير الثانى عادة - ليحل محل الصدر الأعظم فى أثناء تغيبه فى ميدان الحرب . وكان وزير القبة يسمى فى هذه الحال « قاتعقام » ، ويتمتع بسلطات الصدر الأعظم . ويكون تعيينه قائماً بمناوبة ترشيحه لترقية إلى منصب الصنارة العظمى فى قابل الأيام . كما كان يعهد إلى وزراء القبة بقيادة الحملات العسكرية الصغيرة نسبياً . وكان يسمى فى هذه الحال « السردار » . ويسير إلى الحرب ومعه قوات من سلاح المشاة من الإنكشارية وقوات من سلاح الفرسان من الخيالة الثابتة ، وينضم إليه فى الطريق الحكام المحليون مع قواتهم الإقطاعية وقوات خدمتهم الخاصة .

وكان الهدف من إنشاء نظام وزراء القبة ، كما خطط له السلطان محمد

(١) D'Ohason, Ignatius Mouradgos, , op. cit., t. vii, p. 152.

(٢) خروجاً على هذه القاعدة السائدة للدولة العثمانية وجدت حالة استثنائية واحدة حين أصدر السلطان أبو مراد الثالث (١٤٨١-١٥١٢) ابن السلطان محمد الفاتح قرماناً يصير أحد أفراد أسرة چلدارلى ، وهو لدرهم بن خليل ، فى منصب وزير أول ، وظل مقبلاً على المنصب زهاء ثلاث سنوات (١٤٩٧-١٤٩٩) .

الناجح ، هو الخلد من سلطات الصلور الأعظم . ولكن لم يتحقق شيء مما كان يهدف إليه هذا السلطان . فقد أصبح وزراء القبة ينفذون الزمن عنصراً قوياً من عناصر المؤامرات . وقد حاولوا الأمر أن يسيروا من سلطاتهم ، ولكن كانت صلاحياتهم تقف حجر عثرة في سبيل تحقيق مطامعهم ، ومن ثم اتجهوا إلى المؤامرات والدسائس التي لم تنقطع يوماً عن رعيعة سلطة الصلور الأعظم وتهديد الدولة بأعظم الأخطار . وقد ألقى نظام ورياء القبة كلية في أوائل القرن الثامن عشر

الباب الثاني :

كانت المسائل الكبرى للدولة تبحث في القصر السلطاني . وفي ذات الوقت كان الصلور الأعظم يسكن منزلاً صغيراً أو متوسطاً خارج القصر . ورأى السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) أن يخصص مبنى شامخاً فخماً ليقم الصلور الأعظم وأسرته وخدمته وحرسه في أحد أجنحته ، ويخصص باقي الأجنحة لأجتماعات كبار موظفي الدولة يقومون فيها بتصرفاتهم مهمهم . وتم إنشاء هذا المبنى في سنة ١٦٥٤ فكان مسكناً رسمياً للصلور الأعظم ومقرًا لديوانه عام تبحث فيه مسائل الدولة باستثناء المسائل المالية التي كان لها مبنى خاص يسمى «دفتر دار قاسي» أي «بناية للدفتر دار» وكانت تضم جميع أقسام الإدارة المالية كما سبقي في موطن قادم . وكان درويش محمد باشا الصلور الأعظم للسلطان محمد الرابع أول من سكن مبنى الباب العالي من الصلور العظام . وعندها اسم هذا المبنى «باشي قايي» أي «بناية الباشا» ، «بناية عالي» ، أي «بناية عليا» ، ثم اكتسب اسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالي (٢)

(١) يقرر بعض الباحثين أن السلطان سليمان القانوني هو الذي أمر بتشييد المبنى ، وأنه استعمل مجلس الررداء الباب العالي ، وأنه صاحب مرتبات أعضائه ، وأنه أطلق على رئيسه لقب الصلور الأعظم .

أخر :

محمد حيل بهم : طبعة التاريخ المتكامل ، مرسع بيت ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٤ .
(٢) يرى من أنه من المحتمل أن مصطلح باب عالي كان يطلق من قبل على قصر السلطان ، ثم أصبح يستخدم للإشارة إلى للسكن الرسمي للصلور الأعظم وبشر السلطة الفعلية

La Porto Sublime، ويرى بعض المؤرخين أن إنشاء الباب العالي كان دليلاً على أنه أصبح مركز الفعل السياسى فى الدولة (١) ، لأنه قبل إنشاء هذا المصرح كانت تبحث كل شئون العامة للدولة فى القصر السلطانى ، فعندما أقيم الباب العالي هو مناط السلطة والمرجع الأعلى فى جميع شئون الدولة ، الداخلى والخارجى ، المدنية والعسكرية .

المآبىن :

ظل الباب العالي على وضعه التقليدى السياسى المخفوق حتى السبعينات من القرن التاسع عشر . ولما أصدر السلطان عبد الحميد الثانى فى اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - ١٨٧٨ قراره المشهور بتعطيل الدستور ومجلس المبعوثان والأعيان وتأجيل اجتماعاتها إلى أجل غير مسمى ، انفرد هذا السلطان بحكم الدولة حكماً مطلقاً . وأصبح ديوانه الخاص فى قصر يلدز المؤلف من مستشاريه هو المرجع الأول فى شئون الحكم دون الباب العالي . وقد عرف هذا الديوان باسم « المآبىن » وهى لفظة مأخوذة من اللغة العربية ، لأن هذا الديوان كان أداة الاتصال بين السلطان والباب العالي ، فهو ما بين القريبتين (٢) .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part (١)
I, p. 113.

(٢) يبدو أن هذا المصطلح « المآبىن » قد اكتسب من مصطلح يميل إلى الاسم نظام الخيمة الدخلى فى القصور السلطانية . فقد أطلق مصطلح « المآبىن » على مجموعة الغرف التى كانت تقع بين جناح الحرم والباطى الداخلى . وكان لا يسمح لأحد بدخول جناح الحرم إلا السلطان والسفراء وكفوة . وفى هذه الغرف الواقعة بين الخطين كان الرجال من أفراد الخشية يقومون على خدمة السلطان لقصر دهره وتلقاهم أنظفهم وإليه ولم السادة وورسها على رأسه . وكان لكل مهمة من هذه المهام موقف خاص يميل إليها خادماً ويرأسهم حياً اليان جرة دار . أى وليس الخدم المنسوجين . وكان يطلق عليهم المآبىنية . وحل ذلك فالتفرقة بين « مآبىن » قصر يلدز ومآبىن سائر القصور أن الأول كان خاصاً بالمستشارين السياسيين والقانونيين وعلماء الدين ومن إليهم الذين لمعان هم السلطان عبد الحميد الثانى ، بينما كان « مآبىن » القصور السلطانية الأخرى يزعم بأنهم يتكلم بخصوصين للسلطان .

الفصل الثالث عشر

الهيئات الحاكمة في الدولة (٢)

الدewan الإمبراطوري (الهاياوى)

كان الدewan بمثابة مجلس وزراء موسع . كان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . وكان يطلق عليه الدewan الهايوى (١) Le Divan Houmaloun واستمر هذا التقليد متباً حتى عهد السلطان سليمان المشرع الذى تخلف عن حضور جلساته وتولى عن رئاسة الدewan الصدر الأعظم . فأصبح الدewan فى وضعه الجديد يتكون — فضلاً عن رئيسه الصدر الأعظم — من الوزراء وعدد من كبار موظفى الدولة كان يطلق عليهم باللغة التركية « أركان دولت » أى أركان الدولة يمارسون عضوية الدewan بحكم وظائفهم *ex officio* .

ولكى نقتطع على تشكيل الدewan واختصاصاته وأسلوبه فى سير دولة أمور الدولة نلجأ أولاً إلهاً مريماً بشاغل المناصب الكبرى فى الإدارة المركزية فى الدولة والمصطلح التاريخى الذى كان يطلق على كل منهم . وهم : الرئيس أفندى ، الشاغى باشى ، الجاوش باشى ، كاشيا بك ، الباش دفر دار ، الدفر أمينى .

الرئيس أفندى :

يلاحظ أولاً أن كلمة أفندى فى تاريخ الدولة العثمانية تطلق على أرباب القلم ، بينما تطلق لفظة أها على أصحاب السيف . وكان الرئيس أفندى فى العصر

(١) هياوى كلمة تركية معناها المرقى مبارك ، مقس ، حسن الخط ، وتستخدم معنى ملكى أو سلاطى أو إمبراطورى . وتنبأ على ذلك نجل حياوة للهياوى معناها الدewan السلاطى أو الدewan الإمبراطورى .

الأول ذا مركز متواضع نسبياً بالنسبة للقشاشي باشي أو الكانشا بك أو الجاوش باشي أو اللغردار ، أو غيرهم من كبار موظفي الإدارة المركزية . ويوصفه أكبر الكتاب مركزاً في سكرتارية الصدر الأعظم كان يطلق عليه رئيس الكتاب . وما نظن في تاريخ الدولة منصباً كهذا المنصب بدأ بداية متواضعة ثم مر بتطورات متعاقبة ففاز إلى أعلى حتى أصبح منصب الرئيس أفندي مرادفاً لمنصب وزير الخارجية العثمانية .

وتتلخص اختصاصاته وتطوراتها في المجالات التالية :

أولاً : كان يشرف على السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، فكان يعتبر نائباً عن الصدر الأعظم في شئون السكرتارية . وامتدت اختصاصاته إلى خارج السكرتارية ، فكان يشرف على كبار الكتاب في الخزانة العامة « خزينة عامرة » .

ثانياً : كان يتولى حفظ القوانين هذا القوانين الخاصة بالشئون المالية وحيازة الإقطاعات ، كما كان يقوم بإعداد جميع الأوامر غير الخاصة بالشئون المالية .

ثالثاً : كان يقوم بإصدار برامات السلطة التي كانت تعطي لحكام الولايات وأصحاب الإقطاعات العسكرية وشاغلي الوظائف من أهل الصلح والقبايج باشية والسكرتيرين الذين يعملون في الإدارة والذين يتفوق إجازات من الأوقاف الدينية .

ويلاحظ أن هذا الاختصاص الأخير المتعدد الصور والأشكال كان ذا طابع وثائقي . ولذلك كان يعمل تحت إمرته ومتعاوناً معه موظف يسمى بيليكي *Beylikçi* يرأس قسماً يختص بحفظ القوانين وإعداد الأوامر السلطانية يسمى بيليكي قلمي *Beylik Kalemli* أي قلم الوثائق ، لأن كلمة بيليكي تحريف لكلمة « بتك » *Betik* بمعنى وثيقة .

واستحدثت الدولة قسمين آخرين -- غير بيليكي قلمي -- لإصدار البرامات . كان أحدهما يسمى « تحويل » وهو اسم يطلق على البرامات التي تصدر إلى موظفي

الطبقتين الأولى من أهل العلم . وكان الآخر يسمى « رعموس » وهو تغير يطلق على البراءات التي تصدر إلى أهل العلم من هم دون الطبقة الثانية وسكرتيرى الإدارة . وكان اصطلاح « براءات » يطلق على تلك التي تعطي لحكام الولايات . أما أصحاب الإختلاعات الحربية فكان يطلق على البراءات الصادرة إليهم اسم « ضبط فرمانى » . وكانت تصدر من مكتب التحويل أيضاً . وأخيراً فإن اصطلاح « براءات » كان يطلق كذلك على اخترايع بصرف معاشات من حراثة الأوقاف الدينية ، ولكنها كانت تصدر من قسم الرعموس . وكان يعمل فى السكرتارية حشد من الموظفين بلغ حدهم فى القرن الثامن عشر قرابة مائة وستين كاتباً من ثلاث فئات (سكرتيرون) وشاكرات ، وشرملوات) . وكان يشرف عليهم ستة من رؤساء الموظفين هم :

١ - القانونى وكانت مهمته البحث فى مجموعة قوانين الدولة من نص قانونى ينطبق على مشكلة ما قد تثار أو تطرأ .

٢ - الإعلامى ويختص بوضع فكرة من مثل هذه المشكلات التى قد تطرأ والتص القانونى الذى عاجلها . والكلمة مقتبسة من اللفظة العربية : أعلم بمعنى أخبر أو أبلغ .

٣ - المميز ومعناها فى هذا المجال المحقق . وكان يقوم بخصى وتصحيح الوثائق التى يعدها الكتبة . والكلمة مأخوذة من اللغة العربية : مير .

٤-٦ ثلاثة موظفين يطلق على كل منهم لقب « كيه دار » أى حامل الكيس . وكلمة الكيس مأخوذة من اللغة العربية بمعنى كيس القود . وكان الرئيس أفندى « كيه دار » مستقل وخاص به^(١) وهؤلاء الرؤساء الستة كانوا يتبعون البيايكجى .

وأخيراً : كان الرئيس أفندى مسئولاً عن الصياغة اللفظية وعن محتوى التقارير والمذكرات التى يضعها الصدر الأعظم ويرفعها السلطان . وكانت

هذه المحورات تسمى « تلخيص » . وكان يساعد الرئيس أفندي في هذه المهمة موظف آخر يسمى « آملجي » ، وهي كلمة فارسية مشتقة من آمد بمعنى حضر أو أتى . وكان الأملجي بمثابة مساعد الرئيس أفندي .

مخلصاً : تطور اختصاص الرئيس أفندي فأصبح الموظف المختص بشئون السياسة الخارجية للدولة ، وبعبارة أخرى هذا وزير الخارجية العثمانية . وظهر هذا الاختصاص في عصر متأخر ، لأن العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية كانت في أول الأمر في نطاق ضيق للغاية . كان السلطان أول الأمر يولي رعايته ، فلذا لم تلق استجابة من الدول الأجنبية كان يعلن الحرب . ثم بدأت الدولة العثمانية تتقدم معاهدات ثنائية أو جماعية مع تلك الدول ، ووافقت على إنشاء تمثيل دبلوماسي وقنصل بينها وبين الدول غير الإسلامية بعلمة والدول الأوروبية بمخاصة . وشهدت دار السعادة - - - إستانبول - قيام سفارات وقنصليات عامة لهذه الدول . وكان المصلح الأعظم أول الأمر هو الذي يقوم بإجراء المفاوضات واستقبال أعضاء البعثات الدبلوماسية . ولم يكن الرئيس أفندي وقتذاك يفعل أكثر من تسجيل المعاهدات . كما كان يعمل عند تسجيل أي أمر سلطاني أو قرار وزاري .

ولما تزايدت أعباء الصدر الأعظم ، وكان ازواء سلاطين الفترة الثانية عن الحياة العامة من بين أسباب تزايد هذه الأعباء ، ولما ازدادت العلاقات الخارجية للدولة بالدول الأجنبية عمقاً واتساعاً ، أُمحلت مسائل السياسة الخارجية تبعاً إلى الرئيس أفندي ، واستعان الأخير بجهاز من الخبراء والمترجمين . كان الخبراء يقومون بتزويده بكافة المعلومات السياسية والتاريخية والاجتماعية والدينية عن الدول الأجنبية . وكان المترجمون يتولون ترجمة المذكرات التي تبث بها السفارات الأجنبية في إستانبول إلى اللغة التركية وبالعكس . وكان هؤلاء المترجمون حتى أواسط القرن السابع عشر الميلاديين من أصل أوروبي احتقوا الإسلام . ومنذ أوائل القرن الثامن عشر استعانت الدولة بمترجمين من عائلات يونانية تسكن سحي القنار في إستانبول ويعرفون باسم « القناريون » Les Phanariotes وكانوا على حقل موهور من العلم والثقافة وسعة الأفق العقلي

والتراد ومتمموا بمرافقة الأصل وكرم المصنف . وقد سبق أن قضينا بهم في هذه الدراسة (١) . وكانت الدولة توترم بالتميز في المناصب الكبرى التي تحتاج إلى خبرات خاصة في الباب العالي وتختار من بينهم الأمراء الذين كانوا يحكمون ولائقي الدانوب تحت السيادة العثمانية (٢) . وكان هؤلاء المرشحون ينقسمون إلى مجموعات تختص كل مجموعة بدولة أجنبية أو ببعض دول . فكان مرجمو كل مجموعة يعدون الملكرات السياسية التي تتناول للنقاط الرئيسية من الموضوعات التي يتناولها الرئيس أفندي سواء في مقابلاته مع سفراء الدول أو في مفاوضاته مع البعثات الأجنبية . وكان رئيس المرشحين - ويطلق عليه ديوان ترجماني أي مترجم الديوان - يحضر مقابلات السلطان أو الصدر الأعظم أو الرئيس أفندي للسفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات الأجنبية التي كانت تمر بإستانبول . والباحث المتعمق في تاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن التاسع عشر تفتت نظره هذه الظاهرة : وهي سعي السفير في إستانبول أو الشخصية الأجنبية الوافدة إلى العاصمة لمقابلة ترجمان الرئيس أفندي ليست مع المشكلات الباطنة والمعلقة بين الدولة العثمانية والدولة التي يمثلها لتفسير عما جعل لهذا الترجمان مركزاً مرموقاً في نظر أعضاء البعثات الدبلوماسية في العاصمة . وقد استمد هذا المركز من اتصاله الوثيق بالرئيس أفندي . ويلاحظ أن المؤرخين الأوروبيين يشيرون في مؤلفاتهم إلى وزير الخارجية العثمانية بأنه الرئيس أفندي el Reis effendi وكان هذا الرئيس أفندي في نظر الدبلوماسيين الأوروبيين في ذلك الوقت هو الشخص الثالث في الدولة بعد السلطان والصدر الأعظم . أما المالية الساقطة من الأرباح العثمانية فلم يدركوا أهميتها أو أهمية منصبه .

النشائي بلاني :

اشتقت هذه الكلمة من اللفظة الفارسية « نشان » بمعنى شارة . وكان النشائي يضع ختم الطغراء على الوثائق والمراسم وسائر الأوراق الرسمية .

(١) انظر ص ٦٨ في هذه الدراسة

Miller W : op. cit., p. 16, pp 25-27.

(٢)

والطغراء هي شارة السلطان العثماني ، وهي نقش متلائم معقد يحمل اسم السلطان . وكان كل سلطان يتولى العرش يأمر بعمل طغراء خاصة به ، كما كانت تنقش هذه الطغراء على أحد وجهي العملات النحاسية أو القصية التي تسلك على عهده في الضرب بعمالة ، أي دار سك العملة . وقد أخذ الأتراك العثمانيون استخدام الطغراء من السلاجقة منذ حكم السلطان أورتخان بن عثمان ، ولكن لم يتم إنشاء منصب التشانجي إلا على عهد السلطان محمد الثاني وبعد فتح القسطنطينية .

وكان يذكار اسم التشانجي مقروناً بكلمة الباشي فيقال للتشانجي باشي ، ولكن غلبت عليه التسمية بنون ذكر كلمة باشي (١). وكان للتشانجي مقعد في الديوان منذ البداية مما يدل على أهمية المنصب الذي يشغله ويلمل أن شاغل بعض المناصب القيادية في الإدارة المركزية مثل الرئيس أفندي ، وكاغيا بك لم يحصل أي منها على مقعد في الديوان (٢) .

وعلى الرغم من أن الاختصاص الاسمي للتشانجي كان ختم الوثائق والمراسيم بالطغراء ، فقد كانت له عدة اختصاصات علمية وفنية على درجة كبيرة من الأهمية بل والخطورة . كان له حق اختيار الوثائق التي يمنحها بالطغراء وتصحيحها والتأكد من مساهمتها للقوانين المعمول بها ، وتفرغ عن الاختصاص الأخير حق هام هو إجراء تعديلات على الوثائق منعاً لقيام تعارض مع القوانين والوائح حديثة الصدور (٣) . وفي ضوء هذا الحق أصبح التشانجي يشبه إلى حد ما « المفتي » الذي كان من اختصاصاته أن يقرر أن الإجراء المزمع اتخاذه يتماشى مع قواعد الشريعة الإسلامية . ومن هنا كان التشانجي يعتبر « مفتياً للقوانين » . ومع ذلك كان للتشانجي لا يستطيع تعديل النصوص إلا إذا تلقى أمراً بهذا المعنى يسمى « تصحيح قرواني » ويختمه الصدور الأعظم بنفسه

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 182.

(١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. 1.

(٢)

Part 1., p. 118.

Loc. cit., p. 125.

(٣)

بالطغراء معاً لإسامة استخدام الحق المحول للنشائي في هذا الصدد. وبعد إدخال التعديل المطلوب وحفظ القانون المعدل في « الدفترخانة » أي دار السجلات كان النشائي يحفظ بالأمر الصادر له ، وهو « تصحيح فرمانى » كاستند لديه يدافع به عن نفسه إذا أثير موضوع التعديل في قابل الأيام . واستمر شأخو هذا المنصب - النشائية - يمارسون حتى مراجعة وتصحيح الوثائق التي تقدم لهم لكي يجمعوها بالطغراء حتى ألقى هذا الحق رسمياً على عهد السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣ - ١٧٣٠) . وكان من اختصاص النشائي أيضاً ترتيب مجموعات القوانين المعروفة باسم « لقانون نامات » وإعدادها للنشر

هذه الاختصاصات الدقيقة والمهمة التي أعطيت للنشائي تطلبت أن يكون هذا الموظف على حظ موفور من العلم . وكان يتم اختياره على عهد السلطان محمد القانع من هيئة العلماء ، ثم عدلت الحكومة عن اختياره من هذه الهيئة واعتدلت على طبقة القولا - العبيد - في شغل منصب النشائي . ويقول نيدر الأمريكي تعليقاً على هذا الاتجاه إن الأمياب العامة التي جعلت السلاطين يؤثرون العبيد بوظائف الهيئة الحاكمة هي التي جعلتهم يختارون منهم من يصلح لشغل منصب النشائي (٢) .

وكان النشائي يتمتع أول الأمر ببعض السلطة على الرئيس أفتدى . وتعتمد هذه السلطة بالتبعية إلى السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، كما كان له نموذج على دار السجلات وعلى رئيسها « الدفتر أمينى » ، أى أمين السجل . وكانت تحفظ في تلك الدار جميع الوثائق الخاصة بالسجلات .

وكان النشائي يعتبر في السلم الوظيفي تماً لمدير الإدارة المالية - الدفتردار - ويظل في هذه الوظيفة إلى أن يرقى للنشائي إلى الوزارة أو إلى الرتبة التي تليها مباشرة وهي رتبة حاكم بلاد الروم - البلقان - بكلربكى الروملى . وقد أخذ مركز النشائي في الأقول في الوقت الذى ارتفع فيه مركز

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I, (١)
p. 126.

Lytton A.H. ; op. cit., p. 186.

الرئيس ألفردى . ومرد هذا القول إلى صيحت : أولها اتزواء السلطان في أوصحة الحرم . فأصعب احتجابه الصلة التي كانت تربط السلطان بالتشايخي . ولأنها التوسع في إنشاء علاقات دبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية مما جعل الحاجة ماسة إلى شخصية تتمرغ للعلاقات الخارجية السياسية . وكان الصدر الأعظم يضطلع بمسائل السياسة الخارجية أول الأمر ، ثم تحل عنها الرئيس ألفردى الذي قام باختصاصات تماثل الاختصاصات التي يمارسها وزراء الخارجية في الدول الأوروبية وغير الأوروبية في الوقت الحاضر . وتقلدت مقابلات أعضاء الملك الدبلوماسي الأجبي له ، وادّرع شأنه وسلطت عليه الأضواء ، وفقر إلى القمة بينا هبط مركز التشايخي هبوطاً شديداً .

الجلوش باشي :

الجلوش معناها في اللغة التركية رسول . وكان الجلوش باشي يتولى قيادة فرقة الجلوشية . وكانت تنقسم هذه الفرقة إلى خمس عشرة فصيلة يقود كلا منها ضابط . وكان قوام كل فصيلة ٤٢ رجلاً وكان أفراد هذه الفرقة يشهدون الاجتماعات التي يعقدها السلطان مع كبار الموظفين ، كما كانوا يشهدون مقابلاته مع السراء ومن إليهم من كبار الشخصيات ، ويحضررون الجلسات التي تعقدها محكمة السلطان أو الصدر الأعظم وكانوا يشتركون في مواكب السلطان العامة بصفتهم جزءاً من الحرس السلطاني ، ويصحبونه حين يخرج إلى ساحات الحرب .

ولا زادت اختصاصات الصدر الأعظم نتيجة قيامه بمعظم مهام السلطان ، ألحق بالجلوش باشي وأفراد فرقة بحملة الصدر الأعظم . ولذلك خلعت على الجلوش باشي صفة أحد كبار موظفي الإدارة المركزية أكثر من صفته كضابط في البلاط السلطاني . وقد ذهب دوسون المؤرخ الفرنسي إلى أنه رقي إلى رتبة وزير رسمياً على يد إبراهيم باشا الصدر الأعظم في أثناء حكم السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣-١٧٣٠) . وسواء كانت هذه الترقية قد

(١) D'Ohson Ignatius Mouradegs ; op. cit., vol. VII, p. 159 et suiv.

حدثت لعل أو لم تحدث على الإطلاق ، كما يقول هارولد بون (١) ، فإن الجاوش ياشى كان أعلى مرتبة من الرئيس أفتلى ، كما كان يشتر أحد نواب الصدر الأعظم والموظف الثانى فى محكمة الصدر الأعظم ويتولى تقديم الدفء له (٢) .

وفى ظل الوضع الجديد للهيكل العام للإدارة المركزية فى النوبة تحولت رئاسة محكمة السلطان إلى الصدر الأعظم ، فأصبح الجاوش ياشى نائباً له ، بمعنى أن اتصاله بالصدر الأعظم كانت أكثر من اتصاله بالسلطان . وكان له دور كبير فى إجراءات المحكمة حتى وصل به الأمر إلى أنه خدا فى القرن الثامن عشر نائباً لرئيسها . وبهذه الصفة الجديدة التى أضيفت إليه كان الجاوش ياشى رأس الجلسات التحضيرية فى المحكمة توفيراً لوقت الصدر الأعظم ، فيعد ملخصاً للقضايا التى على الصدر الأعظم أن يفصل فيها ، كما كان الجاوش ياشى يحيل باقى القضايا إلى المحاكم التى هى أقل درجة من محكمة الصدر الأعظم .

وكان من المهام الرئيسية للجاوش ياشى تنفيذ الأحكام القضائية ، وتمكينه من أداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، وضعت الإدارة المركزية تحت تصرفه عدداً من ضباط الإنكشارية كان يطلق عليهم محضر آغا ، حسس ياشى ، صوباشى . وكانوا يتلقون الأوامر من الجاوش ياشى مباشرة . وكان هؤلاء الضباط يهتد إليهم ، بالإضافة إلى هذه المهمة ، بأعمال الشرطة بوجه عام . وعلى ذلك فلم يكن الجاوش ياشى مختصاً بمنع المحرمات أو المراقبة على الأمن فى العاصمة والمناطق المحيطة بها . وكانت مهمة الجاوشية الخاصة بقيادةه هى إدخال المتهمين والمذنبين وأصحاب الشكاوى إلى محكمة الصدر الأعظم ، وتنفيذ الأحكام ، ونقل ملفات القضايا التى كان الصدر الأعظم يرسلها إلى المحاكم الأقل درجة الفصل فيها ، والتحقق على الأشخاص ذوى

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I., Part I. (١)
p. 113, n. no.2.

Lybyer A.H.; op. cit., p. 183.

المراكز الكبيرة وبخاصة أهل العلم وحجوزهم في مكاتبهم حتى ينظر في المهمة الموجهة إليهم . وكان يقوم بمهمة التفتيش عليهم أحد أفراد فرقة الجاوشية يسمى جاوشلر كاتبي .

وكان الجاوش باشي ، في المناطق القضائية الذي كان يمارسه ، يشرف على أعمال اثنين من الموظفين يسمىان التذكرجية . ويقصد بالتذكرة هنا مراتب للدعوى المقدمة . وكان يطلق على أحد هذين الموظفين «بيوك تذكرجي» أي التذكرجي الكبير ، بينما كان يطلق على الآخر «كچوك تذكرجي» أي التذكرجي الصغير . وكانا يتناوبان مهمة قراءة الشكاوى المقدمة للصدر الأعظم ثم كتابة القرار الذي يتخذ الأخير في كل منها . وكان على هذين الموظفين أيضاً وصع الصياغة الفعلية للأوامر التي كان يصدرها الصدر الأعظم إلى الإدارات الحكومية المختلفة . وبالنسبة للمركز الوظيفي لهذين الموظفين ، جاء في القانون نامه الذي صدر على عهد السلطان محمد الفاتح أنها يستعان بالأسبقية من كتبة الريس أفندي .

وهكذا نرى أن الجاوش باشي قد تنوعت اختصاصاته تنوعاً ملحلاً . فجمعت هذه الاختصاصات بين الطابع العسكري والطابع القضائي . وأشرف على فئات شتى من الموظفين العسكريين والمدنيين ، ومارس نفوذاً واسعاً في شتى مجالات الإدارة المركزية .

كانخيا بك :

كان يعتبر نائباً عاماً عن الصدر الأعظم في المسائل الداخلية والخارجية ، ويعمل تحت إمرته عدد من الموظفين كانوا بمثابة حلقة اتصال بين الصدر الأعظم والموظفين القولار - أي عبيد السلطان - سواء في خدمة القصور أو في الجيش (١) . وكان كانخيا بك الصدر الأعظم في الأصل أحد الخدم الخاصين للصدر الأعظم ، ولم تكن له اتصالات بالإدارة المركزية . ولكن لما تزايدت أهمية الصدر الأعظم اكتسب كانخيا بك أهمية ونفوذاً ووجاهة . وأصبح

لا يشغل هذا المنصب إلا كبار موظفي الدولة . وكان يطلق عليه عدة أسماء ، منها : « وزير كاخيا بكى » تمييزاً له عن ضابط إنكشارى يحمل لقب كاخيا . وكان يطلق عليه أيضاً « أغا أفنديم » أى أفندينا الأغا ، فكان يجمع بين لقبى رجال القلم ورجال السيف . ونظراً للأهمية البالغة التي كانت لاختصاصاته في المسائل الداخلية والحربية كان لا يسمح له بأجزة في أيام الأعياد ، بينما كان موظفو الباب العالي يقومون بالأجزة ، حتى يستطيع اتخاذ قرارات فورية بالنيابة عن الصدر الأعظم إذا وقعت أحداث هامة أو ظهرت أزمات فجائية . وكان الكاخيا بك يشرف على المكتوبى وهو السكرتير الخاص للصدر الأعظم ^(١) ، كما كان يشرف على التشرىعاتى وهو مدير المراسم . وكان لهذا الأخير عدد وفير من المساعدين يحفظون سجلات مراسم البلاط السلطانى وتكون فيها الامتيازات التي يتمتع بها كبار موظفي الدولة . وأحياناً كان للكاخيا بك سكرتيران يسمى أحدهما « كاخيا كاتى » ، أى كاتب الكاخيا ، ويشرف على المراسلات العامة وتجميع حصيلة الرسوم الخاصة به وبالصدر الأعظم . ويسمى الآخرون « قولاى » أى الأذن السوداء . وتخصرت مهمة هذا السكرتير في القيام على المراسلات المتبادلة بين الصدر الأعظم وكاخيا بك .

ويستخذ أحد المؤرخين من نظام تناول الكاخيا بك الطعام دليلاً على حضوره للصدر الأعظم ، فيقول إنه - أى الكاخيا بك - والمكتوبى والتشرىعاتى كانوا يتناولون الطعام يوماً معاً وبمفردهم ، وأن هذا النظام ظل معمولاً به حتى أواخر القرن الثامن عشر في حين كان الجاوشى باشى وقرىس أفندى يأكلان على مائدة الصدر الأعظم . ومع ذلك فقد كان هؤلاء الموظفون الخمسة من كبار الموظفين ^(٢) .

(١) يصفه ليون باته السكرتير الخاص للصدر الأعظم . المرجع السابق ص ١٨٤ .
بينما يقول جيه هرون إنه السكرتير العام للصدر الأعظم .

انظر .

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I, p. 120.

Loc. cit., p. 121.

(٢)

وكان الكاخيا بك والمكتوبى والتشريفاتى يهتمون فى دخلهم على التصيب الذى يقاضاه كل منهم من الخدایا التى يقدمها إلى الصدر الأعظم أصحاب المناصب الحكومية عند تعيينهم فيها (١) . كما أن هؤلاء الموظفين الثلاثة كانوا يتناولون وجبات الطعام يوماً من مطابخ الصدر الأعظم . وكان الكاخيا بك يعتبر من أصحاب الدخول الكبيرة . وحاول كثيرون من شغلوا هذا المنصب فى الأوقات المتأخرة تجسيم ثروات ضخمة فى أثناء توليهم هذا المنصب .

الباشا دفتردار :

سبق أن تكلمنا عن الدفتردار واختصاصاته التى كان يمارسها فى النطاق المحلى كرئيس للإدارة المالية فى مصر إبان الحكم العثمانى عندما تعرضنا لنظام الالتزام (٢) . ولقد إنه كان رئيس الديوان الدفترى فى مصر . وقد أنشأت الدولة أول الأمر وظيفتين شغل إحداها دفتردار اختص بالشئون المالية للاتصال وسمى « دفتردار أناضولى » ، وشغل الأخرى دفتردار شمل اختصاصه بلاد البلقان وبقية الأقاليم الأوروبية التى خضعت للسيادة العثمانية وسمى « دفتردار الروملى » . وكان أعلى مركزاً من سابقه . وأطلق عليه الباشا دفتردار . وعلى عهد الفتوح العثمانية الكبرى فى القرن السادس عشر أنشئت على عهد السلطان سليم الأول وظيفة ثالثة يشغلها دفتردار امتلكت اختصاصاته مشملت سوريا ومصر وديار بكر . ثم أنشئت على عهد السلطان سليمان المشرع وظيفة رابعة لدفتردار شملت اختصاصاته ولاية البحر ومنطقة الدانوب (٣) . ولما تقدمت الدولة إقليم البحر فى أواخر القرن السابع عشر أُنِمت للدفتردارلق الخاصة بالبحر ، ومع ذلك أصبح دفتردار الروملى . وهو الباشا دفتردار — يتولى المسئولية عن السياسة المالية للدولة كلها .

Loc. cit.

(١)

(٢) انظر ص ١٤٨ « حاشية رقم ٢ فى هذه الدراسة .

D'Oshon Ignatius Mouradges; op. cit.; t. VII, p. 261.

(٣)

Lybyer A. H. ; op. cit., p. 162.

في شالي العراق والشام . فإن هذه الحركات لم تستهدف الانفصال عن الدولة والاستقلال بحكم بعض الأقاليم الإسلامية ، وإنما كانت في لحمتها وسداها تهدف إلى الأخراج بحكم الولاية مع بقائها داخل نطاق الدولة العثمانية . وإذا أخذنا حركة على بك الكبير في مصر كشفاً لهذا النوع من الحركات ، نجد أنه شل نفوذ « بيوك ديوان » أي الديوان الكبير وهو ديوان مصر أو « ديوان محروست مصر » كما تسميه الوثائق ، كما شل نفوذ للترقي العسكرية العثمانية ، ثم تخلص من الباشا العثماني في سنة ١٧٦٨ (١) كما امتنع في ذات السنة عن إرسال الجزية إلى السلطان (٢) .

وإذا كان على بك الكبير قد التمس مساعدات عسكرية من كبار السنانية قيصرية روسيا دعماً لحركته فإنه لم يجرؤ على إعلان استقلاله بمصر استقلالاً تاماً . لقد سلك على بك بعد انتمائه بحكم مصر سياسة فضية ثم أخرى ذهبية تحمل كل منهما على أحد وجهيها اسم مصطفى الثالث سلطان الدولة العثمانية وتلك (١٧٥٧ - ١٧٧٤) ، وتحمل على الوجه الآخر اسمه بطريقة ملتوية (٣) ، كما أمر بصرب إمام مسجد النواوية في القاهرة لأنه دعا في خطبته في أحد أيام الجمعة في أوائل شهر رمضان ١١٨٣ هـ (وكان يقع في الفترة من ٢٩ ديسمبر - كانون أول ١٧٦٩ حتى ٢٧ يناير - كانون ثان - ١٧٧٠) السلطان ثم دعا لعلي بك الكبير . فأظهر الأخير امتصاصاً من تصرف الخطيب ، وكان يريد أن يكون دعاه الخطيب مقصوداً من السلطان وحده ، على الرغم مما كان بين الاثنين من نفور ووحشة (٤) .

(١) الجيرقي ج ١ ص ٢٠٨ هـ ص ٣٣٤ .

(٢) «تجويد ج ٣ ص ٢١٨ هـ» وهو يترجم للتأثير قائم بك أبي سيم في وثائق

١٣١٧ هـ .

(٣) ذكره بعد وفاته وشفاً على بك الكبير ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٢-١٦٤ .

(٤) «ذكره بعد الفريز محمد الشافعي : سواد ابن حود الأخرى في مقنونة الاحتفال الفرنسي لمصر في أوائل القرن الثامن عشر . مرجع سبق ذكره ، ص ٩١ - ٩٣ وحاشية رقم ١ ص ٦٢ .

وبلاحظ أيضا أنه لم يكن هناك أى تجاوب بين زعماء مثل هذه الحركات وبين الجماهير أى القاعدة الشعبية المربصة التي بقيت على ولائها للسلطان . وهكذا شنت العاطلة للدينية الرعايا المسلمين إلى السلطان وأوجدت نوعاً من التماسك بين الدولة وولاياتها الإسلامية . وكان هذا التماسك يرد قوة وصلابة كلما أوغلت الدول الأوروبية في أطماعها الاستعمارية . كانت رومب الحروب الصليبية لازال عائدة في أذهان المسلمين . وكان المسلمون لا يعرفون عن أوروبا إلا وجهها القبيح الذي يتمثل في الحروب الصليبية وفي أطماعها الاستعمارية . ورأى الرعايا المسلمون في السلطان الرمز الحى لمبدأ الإسلام والذي يقف على رأس دولة عسكرية دينية مترامية الأطراف في أوروبا وآسيا وإفريقية بحيث غدت بحق دولة الإسلام الكبرى . ورأى المسلمون في السلطان أيضا السباغ القوي الذي يحمى بلادهم من الزحف الأوروبي الاستعماري . ومن ثم أغلقت الشعوب الإسلامية التي امتلئت إلبه الفتوحات العثمانية تتقبل السيادة العثمانية على بلادها . وتجهت الدولة في حماية الشرق الإسلامي من هذا الزحف ما بقيت الدولة قوية مهية الجانب . وارتاح السلطان لوضعه السياسي والديني في الدولة ، وعمل على دعمه في أذهان المسلمين وفي أوروبا على السواء ، وكان أن بعث ملاحين الدولة لقب « خبيعة » ليظهروا أن للسلطان نموذجاً روحياً على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

(ب) نفوذ السلطان على الطوائف غير الإسلامية :

لم ينعم السلطان القسطنطيني بطبيعة الحال على هذا النفوذ الروحي سواء على الأتليات المسيحية واليهودية في العالم الإسلامي الخاضع له أو بين سكان القسم الأوروبي المسيحي من أملاك الدولة ، على الرغم من التضاير التي كان يتحداها السلطان عند تعيين الرؤساء الروحيين للطوائف غير الإسلامية . كان البطريرك اليوناني يتلقى من السلطان فرمان تعيينه في منصبه . وكان هذا البطريرك يعتبر أكبر رئيس روحي غير مسلم في الدولة . وكان يتبعه الرؤم المسيحيون الأرثوذكس ، وله مكانة مرموقة في نفوسهم وهو إليه أقتسم . وح ذلك

كان هذا البطريرك في خدمة الدولة نظرياً . وكان يرد في فرمان تعيينه نص يوجب على الأساقفة ومن إليهم من رجال الإكليروس التابعين للكنيسة الشرقية وكذلك أتباعها طاعة البطريرك طاعة تامة في نطاق الاختصاصات الموقولة له . وكان السلطان يصدر فرمانات أخرى بتعيين الرومساء الدينيين لرحايا الدولة المسيحيين الذين يثبتون بمذاهب أخرى ، وكذلك لاختصاصات اليهود . وكانت تخرج في جميع ذلك الترميمات نصوص توجب طاعة كل طائفة لرئيسها الروحي في المسائل الدينية دون غيرها ، وأحياناً بالامتيازات التي كان يتمتع بها الأجانب في التولية الثابتة اعتمدت على مسح صدرت عن السلطان أو تطبيقاً للمعاملات التي أبرمها الدول الأجنبية مع السلطان .

ومع ذلك فقد كان تاريخ الدولة العثمانية بموج بحركات انفصالية في عهد اصمغلاملا وتلقورها ، أي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الولايات الأوروبية المسيحية مثل اليونان والصرب وولابيا الأناضول والبعدان ، وينطلق عليهما أيضاً مولدانيا وولاشيا ، وهما - رومانيا حالياً - وبلغاريا والبوسنة وهرسك-يوغوسلافيا حالياً- وغيرها . كان الرعايا المسيحيون في أوروبا بوجه خاص ينظرون خلعاً إلى تعيينهم لحاكم مسلم هو ساهان الدولة العثمانية . واستهدفت حركاتهم استقلال بلادهم عن الدولة . وكان مرد هذه الحركات إلى نمو الروح القومية وتأصل الرعة القومية بينهم ، وكانت بعض الدول الأوروبية الأكرى مثل روسيا والنميا أول الأمر تعلقى هذه الحركات الانفصالية بين الشعوب المسيحية الخاصة للدولة وتسوق لها شتى اللرائع سواء الخلاف الدين ، فلا يجوز في تقدير هذه الدول أو الشعوب أن يجمع شعوب مسيحية لحاكم مسلم ، أو أن هذه الشعوب ذات ماض حضارى مجيد يتوق حصاره الثماني . ولذلك ينطبق على حركات القسم الأوروبي صفة الثورات أو الحركات الاستقلالية أو الحركات التحررية أو الحركات الانفصالية (١) .

نخلص من هذا العرض إلى أن تقوؤ لا لاطان الثماني في الولايات الإسلامية كان قوياً ، وأن مركزه كان مدعماً بسبب العاطفة الدينية الإسلامية أولاً وبسبب

المصالح المشتركة بين الطرفين ثانياً ، ولذلك لم تر الشعوب الإسلامية في الاحتلال
العثماني لبلادها نوعاً من الاستعمار الأجنبي بالمعنى المعروف في العصر الحديث .
وقد أطلقت هذه الشعوب اسم الحماية العثمانية على جيش الاحتلال العثماني الماربط
في بلادها ، بينما رأت الشعوب المسيحية في الاحتلال العثماني لبلادها استعماراً
كثيراً سبب اختلاف الجنس واللون واللغة وما إلى ذلك ، ورأت أنه يتعين
عليها التمسك لإنهاء هذا الاحتلال والتحرر من التبعية للحاكم مسلم . ويقرر أمثال ذلك
إنجليزيان كبيران أن الدين كان عاملاً قوياً من العوامل التي أثارت الاضطرابات
في وجه السلطان من جانب الصربيين وأهالي الجبل الأسود والبلغار والألبان
المسيحيين والمقلونين . وعلى الرغم من أن هذه الشعوب كانت تقسم أحياناً
كبيرة من المسلمين ، فإن المسيحية كانت هي السالبة بمدحها الأرثوذكسي بين
أكثرية مسلمة الشعوب . وكان قيصر روسيا هو الرئيس الرسمي للكنيسة
الأرثوذكسية . ومارح الدين يتخذ في شبه جزيرة البلقان طابعاً سياسياً
حيماً (١) . وبمعنى آخر كان نفوذ السلطان في الولايات الإسلامية يستند في
المقام الأول إلى الوشيجة الدينية والمصلحة السياسية ، بينما كان نفوذ السلطان في
الولايات الأوروبية المسيحية يستند قياً يستند إليه إلى القوة العسكرية والنفوذ
السياسي في مجال السياسة الدولية ، ثم في عصور الاضمحلال إلى قرارات
المؤتمرات الدولية التي تولى عقدها في العواصم الأوروبية ليبحث ما عرف باسم
« المسألة الشرقية » دعماً لمركز الدولة أو تحسباً لمصالحاتها أصلاً فيما بين الدول
الأوروبية . وكان من بين هذه المؤتمرات مؤتمر لندن (١٨٣١) ، ومؤتمر
باريس (١٨٥٦) ، ومؤتمر برلين (١٨٧٨) ، ومؤتمر لندن (١٩١٣) .

٢ - القولا

القولا هم طبقة العبيد رفضتهم الدولة مكاناً علياً ، فشغلوا شتى المناصب
الحكومية من أدناها إلى أعلاها حتى منصب الصدر الأعظم أي رئاسة الوزارة ،
ولم تستثنى الدولة من هذه المناصب سوى وظائف القضاة الديني أو ما عرف
بـ « الميعة الدينية الإسلامية الحاكمة » . وقد جاء هؤلاء العبيد إلى الحياة أطفالاً

(١) Grant and Temperley ; op. cit. p. 211.

مسيحيين من آباء مسيحيين وأمهات مسيحيات ، ثم انزعجهم الدولة ، وهم في
سب غصنة من عائلاتهم وأبائهم عن الجح المائل وحوّلهم إلى الإسلام وأحدثت
لفريق منهم دراسات دينية ومدنية ، كما نظمت لفريق آخر دراسات دينية
وعسكرية لتتحدث في نهاية المطاف أهوات الحكم والحرب ، وأضمت عليهم
الدولة الكثير من الرعاية المادية والأدبية وأخذت عليهم الامتيازات في شتى
صورها وأشكلها بحيث أصبحوا طبقة متميزة في المجتمع المياني . وقد نكسنا في
موطن سابق في هذه الدراسة عن دور الدولة في نشأة هذا الفريق من العيد في
القطاع المدني^(١) . ويشير هنا إلى بعض المناصب القيادية المثنية التي تولاها القولا
فأصبحوا يشكلون إحدى الميئات الحاكمة في الدولة .

الفصل الأعظم ووزراء القبة (صدر أعظمي وقبة وزير لوى)

الإسلام ونظام الوزارة :

عرف العالم الإسلامى نظام الوزارة قبل قيام الدولة الميانية . ولكن لم تأخذ
وظيفة الوزير مكانها ضمن وظائف الدولة الإسلامية على عهد الرسول صوات
الله وسلامه عليه أو الخلفاء الراشدين أو الأمويين . ولكنها أنشئت أيام الدولة
العباسية . وقد نقلها الخلفاء العباسيون عن الفرس ، ورسخ نظام الوزير ككأساس
للإدارة العباسية . ويلاحظ أنه ورد في القرآن الكريم ذكر الوزير مرتين -
المرّة الأولى على لسان موسى عليه السلام : ولجعل لي وزيراً من أهلي ، هرون
أخى ، أشد به أذى ، وأشركه في أمري^(٢) . والمرّة الثانية : وقد آتينا
موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً^(٣) .

البيرواني :

وكان منصب الوزير عند أول عهد الدولة الميانية بهذا المنصب الميية

(١) الفهرست ص ١٢٠-١٢٨ في هذه الدراسة .

(٢) سورة طه ، الآيات من ٢٩ إلى ٣٢ .

(٣) سورة القصص ، الآية رقم ٢٥ .

وعطوره فقد كان بمثابة المستشار الأول للسلطان . وفي عهد السلاطين العثمانيين الأوائل لم يكن يطلق على صاحب هذا المنصب لقب وزير ، بل كان يسمى *پرفان* (١) *Porvane* أو *پرفانچی* *Porvanci* وهو مصطلح فارسي اقتنسه العثمانيون من سلاجقة قوية (٢) ، وملئوا هذا المصطلح قائد ، أو مفتش ، أو صاحب رتبة صدرت بها براعة الملكية أو براعة سلطانية . وكان للپرفان حق التصرف في تطلق السلطات الواسعة المخولة له من لدن السلطان ولذلك كان يعتبر الپرفان وزير تفويض ولم يكن وزير تنفيذ (٣) . ويرجع السبب في ذلك إلى أن السلاطين العثمانيين الأوائل كانوا منصرفين إلى العمليات الحربية التي لم تكن تتوقف أو تبدأ ابتغاء توسيع رقعة الدولة فتركوا للپرفان سلطات متعددة ووسعة مارسها نيابة عن السلطان . ويستثنى من هذا الحكم عدم وروء ثلاثة سلاطين هم محمد القاتع (١٤٥١ - ١٤٨١) ، وسليم الأول وهو ينوز سليم (١٥١٢ - ١٥٢٠) ، وسليمان المشرع (١٥٢٠ - ١٥٦٦) فقد كانوا على خط مرفور من الحيوية والنشاط والفكرات العقلية واستطاعوا أن يجمعوا بين القيام بأعمال الحكم وقيادة للجيش . ومن ثم كان الورداء الأول والورداء على صهودهم وروء تنفيذ . وظلوا على هذه الصفة حتى السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان حين تزوج روكسلانه *Roxelana* الرومية وأحبها حباً بلغ

(١) Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit., Vol. I Part I, p. 108.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية . مادة وزير .

(٣) اتفق علماء المسلمين على تقسيم الورداء إلى نوعين . فالنوع الأول هم وروء تنفيذ حين يكون ولد الأمر - خليفة كان أو سلطاناً أو ملكاً - منصرفاً إلى تصريف أمور الدولة بنفسه مستعيناً بالورداء لتنفيذ أوامره . أما النوع الثاني فهم وروء التفويض حين يكون ولد الأمر منصرفاً إلى حرب عظمى ، أو حياً عن الدولة بوضع غريضة الميع ملا ، أو كان حليفاً أو مشغولاً بملا ، أو غير ذلك من الأسباب العامة أو الشخصية فيترك أمور الدولة بصرف لينا الوزير كما يريد ، أو على أحسن الفروض يصرف في التعلق الذي يرضه له ولد الأمر أنظر :

الأوردى (حل بن محمد بن حبيب المصري البغدادي) ، أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة وسياقه ذلك ١٩٧٩ وهذا الكتاب من كتب نظم تتلوه مؤلف فيه نظام الورداء من التواضع الخفيفة وأمرى تواضعاً . واستحق مدته العلمية من الأحداث التاريخية ، وحسن الشروط التي يجب توافرها في كل من يشغل كل فرع من فروع الوزارة وواجباته وحقوقه .

شعاف قلبه ، وأصبح لا يطبق عليها بطلاً ، فأزوى عن الحياة العامة وعهد وزيره الأول وزير تقويض . ومنذ ذلك الوقت وطوال حكم خلفائه سلاطين الفترة الثانية إلا في حالات نادرة كان الوزراء على اختلاف درجاتهم ورواها تقويض .

إنشاء منصب الوزير الأول (المصدر الأعظم)

ولما اتسعت الدولة اتساعاً إقليمياً مريعاً ومذهلاً ، ازدادت أهمية مركز الوزير ، وتضاعفت اختصاصاته ، وصيغر على إدارات الحكومة ، وأنشئ منصب الوزير الأول .

ولما جمعت قوانين الدولة على عهد السلطان محمد القاتع وأدخلت عليها تعديلات وإضافات شتى أصبح مجموعها يشكل القانون الأساسي للدولة والمعروف باسم قانون نامه . وقد حددت في هذا القانون ثلثة مراكز موظفي الدولة المنتخبين واختصاصاتهم تحليداً دقيقاً ، فأشير إلى الوزير الأول على أنه « الوكيل المطلق » وهو مصطلح متبني من اللغة العربية بمعنى « الوكيل المطلق » أو الممثل المطلق للسلطان The Sultan's absolute representative . وأبطل استخدام لفظة پيرفان أو پرفانجی ، ثم استبدلت الدولة بهذا اللفظ مصطلحاً جديداً هو « أولو وزیر » Ulu Vezir أى الوزير الأول أو « وزیرى اعظم » Vezir-i A'zam أى الوزير الأعظم . وبذلك حادت الدولة العثمانية إلى التقليد الإسلامى باستخدام لفظة الوزير ، ولكنها أضافت كلمة أعظم تمييزاً له عن القب الذى كانت الدولة قد مسحه بالفعل لعدد من الأفراد على أساس أن لقب وزير كان شعاراً لرتبة . وكان هؤلاء الأفراد الأعزى الذين يحملون لقب وزير هم فى العادة حكام الولايات الكبرى مثل مصر . فكان السلطان يحسبهم القب ويخولهم منظمات واسعة يستطيعون إصدار فرمانات « بحاية » لها قوة القانون دون الحاجة إلى الرجوع إلى إستنبول لاستصدار فرمانات سلطانية إلا فى المسائل التى تقتضى طوعها عرضها على السلطان أو الوزير الأول الذى أصبح لقبه فى عهد سلاطين الفترة الثانية الصدر الأعظم ، ومعنى هذا المصطلح التاريخي أعظم كبار الموظفين ،

الصدر الأعظم في قانون نامه :

وقد وضع السلطان محمد القابع الوزير الأول - أو الصدر الأعظم كما لقب
لها بعد - مقاماً علياً في الدولة . فقد جاء في القانون الأساسي للدولة الشانية
والدمى قانون نامه مانصه : لتعلم أولاً أن الصدر الأعظم هو رئيس الوزراء
والأمراء إنه أعظمهم جميعاً ، وصاحب الصلاحية المطلقة في إدارة شؤون
الدولة . أما القسيم على أملاكى فهو للفقردار . غير أن الصدر الأعظم هو
رئيسه . والصدر الأعظم في حركاته ومساكناته ، وفي قيامه وقعوده ، حق
التصميم على جميع موافق الدولة ^(١) فكان هذا القانون قد وصيع الصدر الأعظم
في المكان الثانى بعد السلطان مباشرة ، أو كما يقول المؤرخ القرئى رامبو غلنا
الصدر الأعظم نائب السلطان أو نائب الإمبراطور ^(٢) . أما المستشرق الألماني
بروكلمان فيقول إن قانون نامه قد جعل الصدر الأعظم وصياً فعلياً على
الإمبراطورية ، مطلق الصلاحية ، يسيطر على فروع الإدارة كلها ، ويفصل في
جميع شؤون الدولة ، وفي مسائل الموت والحياة أيضاً ، متعدياً مطلق السلطة ^(٣) .

الصدر الأعظم ونظام السلطاني :

على أن أعظم امتياز ظفر به الصدر الأعظم كان في الواقع الحق الذي خوله
له سلطان الدولة في حل الخاتم السلطاني رمزاً لقبهم العميقة فيه ، إذ كان
الصدر الأعظم يوقع هذا الخاتم على القرارات السلطانية ، كما كانت تختم
به المخازن العامة وهى : مخزن السجلات المالية (مالية دفترخانه سى) ، والمخزنة
المخارجية للسراى (ديش خزانة) ، والمخزن العام للمحفوظات (الدفترخانه) ،
والخفية اليومية (رور نامه كبيه سى) ^(٤) . وكان المؤرخون العثمانيون في تعليلهم

(١) بروكلمان كلوك : الأتراك العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٢

ص ٩٤ ، حاشية رقم ١٦

Lavisse et Rambaud . Histoire Générale . t. IV L'Empire (٢)

Ottoman . L'Apogée (1481 — 1566) , p. 753.

(٣) بروكلمان كلوك : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٣

ص ٩٤ - ٩٥ .

Gibb Hamilton and Bowen, Harold op. cit., Vol. 1, Part (٤)

I, p. 112, fn. no.3.

على تعلم الصلبر الأعظم الخاتم السلطاني يقولون إنه حصل على شعار حامل العالم و نائل مهر شهر يارى جهان أنشأه (١) . وكان الصلبر الأعظم في العهد الأول يضع خاتم التوقيع السلطاني في أصله ، أما في العهد اللاحق فكان يضعه في جيبه في حافظة من القماش المنسج . وكان السلطان في العهد الأول يعث بخاتمه إلى الصلبر الأعظم في مكانه بمحله إليه أحد موظفي البلاط ، ثم تنبر حلاً التقليد منذ عهد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) ، إذ كان السلطان يتولى شخصياً تقديم خاتمه إلى الصلبر الأعظم . وكان نائب الخاتم من الصلبر الأعظم بمثابة أمر سلطاني بإقالته من منصبه . وكان السلطان يوقد أحد موظفي البلاط لمحبب الخاتم منه . وكان يصير على الصلبر الأعظم في هذه الحالة مغادرة العاصمة فوراً .

سلطات أخرى للصلبر الأعظم :

امتدت سلطات الصلبر الأعظم إلى الإدارة المركزية في الدولة وإلى إدارة الولايات . كان الصلبر الأعظم هو رئيس الديوان ، وستحكم في الفصل الثاني عن هذا الديوان من حيث تشكيله واختصاصاته وعوده اليار في حكم الإمبراطورية - وكان الصلبر الأعظم يسمي أيضاً على شئون الجيش ، وكان يقود المعارك الحربية حين تلحق الضرورة . وفي هذه الحالة كان له الحق في حمل البعق النبوي - راية النبي صلوات الله وسلامه عليه - إلى ساحة القتال . وهو حق كان يتفرد به السلطان دون سواه (٢) . وكان رأس المحكمة العليا ويشترك معه قضاة الشريعة الإسلامية . وكان الصلبر الأعظم يقوم بجولات في العاصمة ويتفقد أسواقها وبراققه في هذه الجولات قامى القضاء ، والمشرف على الأسواق ، وكان يسمى « احتساب أغاسي » بمعنى الرقيب ويقابل هنا المصطلح الثاني المصطلح العربي « المحتسب » ، ورئيس القباقي الإنكشارية ، ورئيس شرطة المدينة (٣) .

Loc. cit., ib.; no. 2

(١)

Loc. cit., p. 112.

(٢)

Lybyer A. H. ; op. cit., p. 166.

(٣)

وكان يفضي البلاط بروجون الصندور العظيم - لتضميم الحقيقة فيهم وتقديرهم الكبير لهم - من شأنهم أو شقيقتهم أو أخوتهم . وفي هذه الحالة يلحق باسم الصندور الأعظم لقب داماد ، وهي كلمة تركية بمعنى صهر . ويذكر هذا اللقب قبل اسم الصندور الأعظم مباشرة ، فكان يقال : داماد صوقلو محمد باشا .

فيهي من مظاهر العظمة على الصندور الأعظم :

وقد أضفت الدولة على الصندور الأعظم الكثير من مظاهر العظمة والأبهة . كان يغيب الصندور الأعظم في أيام محددة بعضها كل أسبوع والبعث الآخر كل شهر ولاء موطنى البلاط والدولة على غرار ما كان يفعل السلطان . فكان كل من رئيس الإنكشارية والقضاة والبكوات الصنائق وقادة الجيش ومن إليهم من شاغل المناصب القيادية راية الصندور الأعظم راية رسمية (١) . وكانت تتكرر هذه الزيارات في عيد القنطر وعيد الأضحي . وكان على جميع الموظفين المدنيين وأعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة - علما شيخ الإسلام أن يقبلوا طرف رداء الصندور الأعظم حين يدخلون مجلسه . وكان يلحظ إلى صلاة الجمعة في موكب رسمي يشارك فيه فرقة من حرس السلطان وفرقة المتفرقة ملابس التشريفة - الملابس العسكرية الرسمية - وكان الحلووش باشا (٢) وقوة من رجاله يصحبون الصندور الأعظم كل يوم في نعابه من مسكنه إلى مقر الديوان وفي عودته إلى داره . وكان فريق من رجال الخنكة في القصور السلطانية يقومون على خنكة الصندور الأعظم مرة كل أسبوع . وكان سماح السلطان هذه الخنكة يعد تشريفاً كبيراً للصندور الأعظم .

رجال الخنكة الداخلية للصندور الأعظم :

وكان يقوم على حراسة حرم الصندور الأعظم جماعة من الخنكيات يدورن عندهم بين أربعة وحصة ، وكان له خنكة داخلية وخنكة خارجية . ويرأس الخنكة الداخلية أربعة وعشرون غلاماً ، كان أكبرهم ساجدار أغا - حامل

(١) ذكر التاريخ لير أيام الأسبوع التي كانت تتم لها هذه الزيارات الرسمية .

Lybyer A.H. ; op. cit. p. 166.

انظر :

(٢) شرحنا اختصافات هذا الموضع في الفصل الثالث عشر في هذه الدراسة .

السيف وحارسه - وكان من بينهم القنوة جى باشى ، وكانت مهمته أن يعد القهوة ويقلمها للصدر الأعظم ولضيوفه ، وأبر يقنلو باشى ، وكانت مهمته أن يحمل إبريق الماء ويضرب الماء منه على يلى الصدر الأعظم حين يرغب فى ضلها ، ويشكر أغا وهو حامل البشكير المنشفة ، مسح للصدر الأعظم به يديه بعد ضلها ، وصاريق جى باشى ، وهو الذى ينف المامة ويصعها على رأس الصدر الأعظم ، وبربر باشى وهو الذى يقص شعر الصدر الأعظم ، وجوقه دار أغا أى رئيس الخدم المخصوصين ، وهم جميعاً يطابقون رجال الخيمة الداخلية فى القصر السلطانى - المنحاص أوطه ليه - مدن يحطون نفس الألقاب . كما كان للصدر الأعظم معتاح أغا ، يطابق الانتخاب أغا المنحاص بالسلطان (١) . وكان للصدر الأعظم أيضاً جمعية خاصة يقوم عليها طاقم من البحارة ، ويقود أوطه باشى هذه الجمعية ، فيملك بالذلة يتيها بحرف الآخرون .

منصب والخطار الصدر الأعظم :

وعلى الرغم من هذه المظهرية الزائفة وذلك النفوذ الواسع المرفى ، فقد كان الصدر الأعظم تحت رجة مؤامرات ودسائس الحريم السلطانى والخصيان فى القصور السلطانية ، وسخرض لما عند كلامنا على مراكز القوى فى الدولة ، وحبنا أن نذكر هنا إبراهيم باشا الذى وقع عليه اختيار السلطان سليمان المشرع ليشغل منصب الصدر الأعظم سنة ١٥٢٤ . وكان والده يونانياً من بترغره . وقد ظفر بتقدير السلطان سليمان إلى حد بعيد حتى أنه زوجه من أخته . ولم تكن مصاهرته للسلطان بماصمة له من الدسائس التى تعرض لها . فقد شطت دوائر الحريم السلطانى للإيقاع به ، وروجت شائعات تبمه بأنه طامع فى عرش الجبر . ولما أخفقت هذه الدسيسة ، وجهت إليه همة أخرى أشد خطراً ، هى أنه يرتو بيسره لاحتلاء عرش الدولة اعتياداً على المصاهرة

(١) لاقتصر لغة تركية منطها ملطخ . والاختصار ألقى شايط يقوم بأعمال الشرطة ثم أدخلت تعديلات على المصاحف .

التي تربطه بالأسرة السليمانية الحاكمة . وحلى الرغم من أن التهمتين لم يغم عليهما
أى دليل ماضى ، فقد اغتيل بأمر السلطان في مساء ٥ مارس - آذار -
سنة ١٥٣٦ وطويت صحفته بعد أن لبث رهاف اثنتى عشرة سنة كان خلالها
المرجع في كافة شئون الدولة . ونصيف إلى ذلك أنه لم يكن للصدر الأعظم
أية سلطة مباشرة على الهيئة الإسلامية ولا على خلع القصور . وكان الصدر
الأعظم يتولّى في هذا الصدد مع الوزراء سواء بسواء . وكثيراً ما كانت والنسبة
السلطان ورواجته الأربع تصدرن الأوامر إلى الصدر الأعظم ينتهيا إليه شعوباً
كبير النخيلان فيصعد بما يؤمر به .

وكان هناك خطر آخر دام يهدد حياة الصدر الأعظم بحكم أنه كان ينتمى
إلى طبقة القولا - عبيد السلطان - فكانت حياته مرتبطة برضاء السلطان عنه .
لهذا خصص عليه لم يكن السلطان ليقنع بيزله من منصبه ، بل كان في غالب
الأحوال يقرب عزله بإنهاء حياته . ويذكر ليبير المؤرخ الأمريكى أن حوالى
الاثنتين تولوا منصب الصلوة العظمى في خمسة قرون أعدم السلاطين عشرين
صديقاً أعظم منهم (١) . والحق أن المفارقات كانت عجيبة بين هذه النهاية
المنصبة وبين السلطات الواسعة والحياة الرغيدة والمظهرية المتألقة التي عاشها كل
منهم . لقد كانت الدولة تحرص على ألا يظهر الصدر الأعظم أمام الجماهير إلا
في مواسم رسمية تعظم حلقة تجمع صفوف العسكريين ونخبة المدنيين يحيطون
به من يمين ويسار ، ومن أمام وخلف ، وتتقدمه سارية تحمل خمسة أطواخ .

الوزراء وعبد الأطواخ :

كان لكل وزير ثلاثة أطواخ - جمع طواخ وتكتب في بعض المراجع العربية
بحرف العين على هذا النحو : طواخ وأطواخ ، وتكتب في بعض المراجع غير
العربية أحياناً Tugh وأحياناً أخرى Tag - والطواخ هو دبل حصان معلق في
سارية وفي أعلاها كرة من النحاس المغطى باللعب .

وكان كبار موظفى الدولة يتميزون بعدد الأطواخ التي ترفع لهم في

المواكب والحفلات الرسمية ، حيث كانت تتقدمهم سارية تحمل الطرخ أو الأطواخ المقررة بحكم القانون لكل منهم . وعدد الأطواخ هو الذي يحدد مراكز كبار رجال الدولة (١) . فالسلطان له تسعة أطواخ ، والصدر الأعظم خمسة أطواخ . أما الوزير فترفع أمامه ثلاثة أطواخ وكذلك الذي يحملون رتبة الباشوية . وكان البك يحمل طوحاً واحداً أو طوحيين تبعاً للمركز الذي يشغله ، فإذا كان يحكم وحدة إدارية هي الصنحية فإنه يحمل طوحناً واحداً ، وإذا كان حاكماً لولاية صغيرة أو متوسطة فإنه يحمل طوحيين . وإذا صار فرمان سلطانى منح أحد البكوات رتبة الباشوية فإنه يحمل بقوة القانون ثلاثة أطواخ بصرف النظر عن المنصب الذى يشغله . وكان يحدث أن تستد ولاية دمشق أو حلب أو بغداد أو مصر إلى ولاية سبق لم تقلد منصب الصدر الأعظم أو كانوا وزراء ، ففى مثل هذه الحالات كان يسمح لمولاه الولاية بالاحتفاظ بحقوقهم المقرر لهم من قبل فى عدد الأطواخ على الرغم من أن منصب الوالى كان يقل عن منصب الصدر الأعظم (٢).

وبدل استخدام الأطواخ على أن العنايين كانوا متمسكين بالمحافظة على التقاليد التى تتمثل فى بعض الرموز أو الشعارات المستمدة من أصول قبلية تركية قديمة . ويرى بعض المؤرخين أنه من المحتمل أن يكون هذا التقليد مستمداً من أصل طوطمى (Totem origin) وكانت الأطواخ توتل أوله الأمر من ذبول الياكات Yaka . ثم رأت الدولة أن تستبدل ذبول النبل بذيول الياكات .

مجموعتان من الصدور العظام :

يلاحظ أولاً أن المدنيين والعسكريين تمايزوا على منصب الصدارة العظمى .

Hourani Albert H., The Ottoman Background etc., op. (١)

cit., p. 7.

(٢) دكتور عبد الكريم فرياق ، سوريا فى القرن التاسع عشر ، مرجع سبق ذكره .

ص ٤١ و ٤٢ .

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., Vol. I, Part (٣)

I, p 139.

فهم يكنى هذا المنصب وفقاً على فريق دون فريق . ولكن كانت الحاجة ماسة في عهد سلاطين الفترة الثانية إلى شغل هذا المنصب بالسكريين ، لأن الصدر الأعظم كان يتوود الممارك الحربية بدلاً من السلطان الذي كان يؤثر السلامة والفرلة عن الجماهير وتلمس أسباب الممتعة شرب الخمر أو الإقامة في أجنحة الحرم (١) .

وقد حفل تاريخ الدولة بعدد من الصغور العظام كانوا على حظ موفور من الكفاية والإخلاص والوزارة . نخص بعضهم بالدولة بيناً أنقلها لبعض الأكثر من الانهيار في أولئقر القرن السابع عشر مثل كوبرلي . وقد تولى خمسة من أفراد هذه الأسرة - وهي أسرة ألبانية - منصب الصدارة العظمى (٢) ، وأسدى أربعة منهم على الأقل خدمات جليلة للدولة وسلتقى ببعض أفراد أسرة كوبرلي في هذه الدراسة .

(١) من بين السكريين الذين تولوا منصب الصدارة العظمى ، نذكر منهم :

- ١- عازى حسن باشا (١٠٢٣-١٠٢٤/١١١٤-١١١٥ م) .
 - ٢- سليمان محمد باشا (١١٤٤-١١٤٦/١٧٢٨-١٧٣٠ م) .
 - ٣- سليمان سيد محمد باشا (١١٤٨-١١٥٠/١٧٣٥-١٧٣٧ م) .
 - ٤- سليمان ناصر محمد باشا (١١٨٢-١١٨٢/١٧٦٨-١٧٦٩ م) .
 - ٥- سليمان محمد باشا (١١٨٤-١١٨٥/١٧٧٠-١٧٧١ م) .
 - ٦- حسن إبراهيم باشا أغا الإنكليزية (١٢٢١-١٢٢٢/١٨٠٦-١٨٠٧ م) .
 - ٧- سليمان مصطفى باشا (١٢٢٣-١٢٢٤/١٨٠٨ م) .
 - ٨- سليمان علي باشا (١٢٣٩-١٢٤٠/١٨٢٣-١٨٢٤ م) .
- ويلاحظ أن هؤلاء الصغور العظام قد تولوا هذا المنصب إبان عهد سلاطين الفترة الأولى

- عبد جل جلاله ٤ خلفه التاريخ العتيق ٤ مرجع سبق ذكره ١ ج ٢ ، ص ٣٤-٣٥
- (٢) محمد كوبرلي باشا تول دول الصدارة العظمى من سنة ١٦٥٦ إلى وفاته سنة ١٦٦٦
- (ب) ابنه لفضل أحد باشا وجد حسن صدر أعظم بعد وفاة والده سالمة في سنة ١٦٦١ وظل في منصبه حتى جاز إلى رده سنة ١٦٧٦ .
- (ج) فاضل مصطفى باشا ابن محمد باشا من صدر أعظم سنة ١٦٨٩ إلى أن تولى في حبه حرب سنة ١٦٩١ .
- (د) حسين باشا ابن أخ محمد باشا من صدر أعظم سنة ١٦٩٧ إلى أن احتل إلقه سنة

ولئن حظي تاريخ الدولة بهذا الطراز الطيب من الصدور العظام فقد انتشع تاريخها أيضاً بعدد آخر يصلق عليهم وصف المستعنين . فقد كانوا إما جهلة وإما وصلوا إلى منصب الصدورة العظمى بطرق غير شريفة أو غير كريمة . وقد وضع أحد الباحثين ثبناً بأسماء ثلاثة وعشرين شخصاً بدلوا حياتهم خلعاً في الدور السلطانية ، ثم دارت الأيام دورتها . فإذا هم يتولون منصب الصدورة المعصى الذى كان المنصب الثانى في الدولة بعد السلطان . وفى هذا التبت ذكر الباحث نوع الخرفة أو العمل الذى مارسه كل منهم قبل أن يشغل ذلك المنصب الخفير ، كما ذكر السنة التى تولى فيها منصب الصدر الأعظم وسنة وفاته أو عزله أو إعدامه . ومن هنا التبت تدف على حقائق منجدة : كان من بينهم من كان مريباً للسلطان ، أو خادماً ، أو دينياً ، أو حطياً في التصور السلطانية (١) . وحارت الشهات حول عدد منهم من حيث عدم النزاهة ، استعملوا نعود المنصب الكبير الذى سما إليه كل منهم وتفتوا في ابتداع وسائل الكسب غير المشروع ليطغى إنعام ثرواتهم . ومن الأمثلة التى تساق في هذا الصدد الصدر الأعظم صوفلو محمد باشا . وكان صقلياً من مواليد قرية صوفلى في إقليم البوسنة . وكان اسم صوفلو الذى اشتهر به هو توريك اسمه الأصلي صوفوليفيتش (٢) Sozolevici وقد تزوج إسماة الأميرة ابنة السلطان سليم الثانى فاكذب لقبه داساد ، وغدا اسمه داماد صوفلو محمد باشا . وظل متربهاً في منصب الصدر الأعظم مدة تلوحت بين خمسة عشر عاماً وثلاث عشرة سنة (٣) .

(١) داساد باشا هو بى مصطفى باشا . وقد شغل منصب الصدر الأعظم من سنة ١٧٠٢ إلى سنة ١٧١٠ وقد تزوج من عائدة سلطان أخت السلطان مصطفى الثانى فاصبح اسمه داساد .
ديمان باشا .
أنظر

Gibb Hamilton & Bowen Harold op. cit., vol. I, Part 1, p. 110, fn 3

(٢) محمد حبيبهم ، الطبعة العربية المتأخرى مرجع سبق ذكره ج ١ ، ص ٢٤٠ ص ٢٤١

Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part 1.

p. 110, fn. No. 3.

(٣) يقول البعض إنه تولى منصب الصدر الأعظم في سنة ١٥٦٥ في أواخر حكم السلطان سليمان القانوني ، وإنه عدم هذا السلطان في منصبه كصدر أعظم خمسة عشر شهراً ، بينما يقرر البعض الآخر أنه شغل منصبه سنة ١٥٦٨ بعد ستين من وفاة السلطان سليمان وفى أثناء حكمه

زين له جيشه وخلفه السوء أن يفرض على حكام الولايات البشائية أن يعيدوا شراء مناصبهم كل سنة ، بعد أن كانت عملية الشراء تتم مرة واحدة عند تعيين لأول مرة في المنصب . وكانت عمليات تجديد الشراء للسوية تقتصر بأن يقدم كبار الموظفين إلى صوقلو باشا هدايا نقدية وعينية تتناسب مع المركز القيادي الذي يشغله كل منهم والموارد المالية التي يدرها هذا المركز القيادي . وبما يذكر في هذا الصدد أن باشا البشائي في مصر كان يدفع ما يزيد على مائة ألف بندق^(١) كل سنة إلى محمد صوقلو باشا لقاء تجديد شراء منصبه أو بعبارة أخرى تجديد تعيينه وإبقائه والياً على مصر لمدة سنة أخرى^(٢) . أما إذا توفي أحد شاغلي المناصب فكان صوقلو باشا يعين خلفاً له من يدفع أعلى ثمن للوظيفة التي كان يشغلها المتوفى . ولما تمت أطماعه إلى العلاقات الخارجية بين الدولة العثمانية والقول الأوروبية . وحسبنا أن نذكر مثالا واحدا لهذا النوع من الصفقات ، فقد نجحت جمهورية البندقية في أن تشتري من صوقلو باشا مسلحا في سنة ١٥٧٣ لقاء خمس عشرة ألف دوكة^(٣) . ولقي هذا الصمد الأعظم مصرعه في سنة ١٥٧٩ جزاء وفاداً لما حصله من شروقي حتى دولة آتته ورفقته مكاناً علياً في حياته الوظيفية . كان صوقلو محمد باشا قدوة سيئة أمام موظفي الدولة في شتى فروع الإدارة سواء الإدارية المركزية أو حكومات الولايات وبخاصة أنه استمر سنوات طوالاً في موقعه ، ويظهر الرتل الثاني في

١- اسم البندق ، ويطلق الحبيب على أنه قل يشغل منصبه حتى قتل سنة ١٥٧٩ على عهد السلطان مراد الثالث . وعلى ذلك فإن دلماد صوقلو محمد باشا حاضر وهو يشغل هذا المنصب ثلاث سلطتين (ساجاد النجاشي ، وسليم البندق ، ومراد الثالث) في دوايته ، وعاصر سلطانين اثنين (سليم ومراد) في دوايته الأخيرة .

(١) محمد حبيب بيح - للملحة التاريخ البندقية ج ٢ مرجع سبق ذكره ، ص ٣١-٣٥

(٢) البندق حله نصية للباب إلى جمهورية البندقية .

(٣) كارل بروكلمان ، الكتاب الثالث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ ويضرب هذا المستشرق الألفي أمثلة أخرى على الوسائل غير المشروعة التي كان يلجأ إليها صوقلو باشا في استغلال منصبه وإثبات ثروته .

(٤) الدوكة واحدة دوكلات وهي حملة ذهبية ، وهي حل أنواع منها الدوكلات التمسدية ، وقد أطلق البشائيون حينئذ اسم بحر آتش أي الذهب البحري ، وسما الدوكلات لبندقية ، وقد أطلق البشائيون عليها اسم ظروبي أو بالذهب الكسبي

الإمبراطورية يستغل تفوقه لمصلحته الشخصية أسوأ استغلال مضاعفاً على مصاهرته للأسرة السلطانية .

منصب الصدارة العظمى بين الأحرار والعبيد :

وحتى فتح القسطنطينية كان منصب الوزير الأول يشغله مسلمون أحرار (١) . فقد عين السلطان أورخان بن عثمان الأول (١٣٢٦ - ١٣٦٠) أخاه الأمير علاء الدين في هذا المنصب ، واكتسب علاء الدين شهرة واسعة . كما اشتهرت في تاريخ الدولة العثمانية أسرة إسلامية هي أسرة چاندارلى (٢) Gendari . تولى أفراد منها من وقت لآخر لمدة أربعة أجيال ذلك المنصب (٣) . وكان رابع أفراد هذه الأسرة ، ويسمى خليل باشا بشيخ ذلك المنصب وقت فتح القسطنطينية . وكان تعيين مسلم حراً في منصب رئيس في نظام الحكم أمراً شاذاً . ويقال إن السلطان محمد الفاتح قد سالورته بخلاف من التفوق الواسع الذى بلغته أسرة چاندارلى ، وشك في قيام توطؤ بين خليل باشا والبلطازييز نغى ، واتهمه بالخيانة العظمى وأعدمه في ذات السنة التى تم فيها فتح القسطنطينية . واتجه تفكيره إلى إلغاء منصب الوزير الأول كلية والاستغناء نهائياً عن خدماته اتقاء لشبهات التى تحوم حول شغل المنصب . وظل على رأيه ثمانية أشهر ، ثم رأى أن يجمل التعيين في هذا

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part 1, p 109.

(٢) يرد اسم هذه الأسرة في التراجم الإنجليزية والفرنسية في صيغ مختلفة منها :

Gendemi, Gendekli, Gandarli.

(٣) كان الوزراء الأربعة هم :

- أ - قره خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٨) .
 - ب - ابنه على ، وقد عين على عهد السلطان أبي سعيد الأول (١٣٨٨ - ١٤٠٣) .
 - ج - ابنه إبراهيم ، وقد عين على عهد السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١) .
 - د - ابنه خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الثاني والسلطان محمد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١) .
- (١٤٨١ -)

[٢٤ - الدولة العثمانية]

المنصب مقصوراً على التتولار أى طبقة المييد . وفلا عين فى منصب الوزير الأول وجلا من هذه الطبقة . هو عمود باشا عدى (١) . ومنذ مطلع سنة ١٤٥٤ أصبح الصلور النظام والوزراء يعينون من اناوطين المييد (٢) .
وزراء القبة :

استحدث السلطان محمد الثانى نظام وزراء القبة ، وهم وزراء مخصوصون للصدر الأعظم ، ويجلسون إلى جانبه تحت سقف واحد أو قبة واحدة . وللتلك أطلق عليهم «قبة وررلى» ، أى وزراء القبة . وكان كل منهم يحمل لقب وررر وثلاثة أطواخ ، ورتبة الباشوية . وكان عددهم أول الأمر أربعة ثم ارتفع إلى ستة ثم زاد عددهم تبعاً فى القرن السادس عشر . وكانت ألقابهم هى التى تحمل وضعهم فى الپروتوكول العثمانى ، فسمى أحدهم الوزير الثانى ، والآخر الوزير الثالث ، وهكذا .

وكان الاختيار يقع على أحد وزراء القبة — هو الوزير الثانى عادة — ليحل محل الصدر الأعظم فى أثناء غيابه فى عيذان الحرب . وكان وزير القبة يسمى فى هذه الحال «قائمقام» ، ويستمتع بسلطات الصدر الأعظم . ويكون تعيينه قائمقاماً بمثابة ترشيحه للترقية إلى منصب المندارة العظمى فى قابل الأيام . كما كان يعهد إلى وزراء القبة بقيادة الحملات العسكرية الصعبة نسبياً . وكان يسمى فى هذه الحال «السردار» . ويسير إلى الحرب معه قوات من سلاح المشاة من الإنكشارية وقوات من سلاح الفرسان من الخيالة الثابتة ، وينضم إليه فى الطريق الحكام المحليون مع قواتهم الاقتصادية وقوات خدمتهم الخاصة .

وكان الهدف من إنشاء نظام وزراء القبة ، كما خطط له السلطان محمد

(١) D'Ohsson, Ignatius Mouradgou, . op. cit., t. vii, p. 152 .

(٢) خروجاً حل هذه القناعة العامة للدولة العثمانية وجبت حالة استثنائية واحدة حين أصدر السلطان أبو بريد الثانى (١٤٨١-١٥١٢) ابن السلطان محمد الثانى قرماناً بجبر أحد أفراد أسرة چاندارلى ، وهو إبراهيم بن خليل ، قد نصب وزير أول ، وظل مثلك هذا المنصب زهاء ثلاث سنوات (١٤٩٧-١٤٩٩) .

الناجح ، هو الحد من سلطات الصدر الأعظم . ولكن لم يتحقق شيء مما كان يهدف إليه هذا السلطان . فقد أصبح وزراء القبة يحصى الزمن عنصراً قوياً من عناصر المؤامرات . وقد حاولوا أول الأمر أن يزيلوا من سلطاتهم ، ولكن كانت صلاحياتهم تحف بحجر عثرة في سبيل تحقيق مطامعهم ، ومن ثم اتجهوا إلى المؤامرات وللصائس التي لم تنقطع يوماً عن رمزة سلطة الصدر الأعظم وتهديد الدولة بأعظم الأخطار . وقد ألغى دلام وزراء القبة كثية في أوائل القرن الثامن عشر .

الباب العالي :

كانت المسائل الكبرى للدولة تبحث في القصر السلطاني . وفي ذات الوقت كان الصدر الأعظم يمكن منزلاً صغيراً أو متوسطاً خارج القصر . ورأى السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) أن يخصص مبنى شامعاً حصواً يتم الصدر الأعظم وأسرته وخليفه وحرسه في أحد أجنحته ، ويخصص باقي الأجنحة لاجتماعات كبار موظفي الدولة يقومون فيها بتصرف مهامهم . وتم إنشاء هذا المبنى في سنة ١٦٥٤ فكان مسكناً رسمياً للصدر الأعظم ومقراً للديوان عام تبحث فيه مسائل الدولة باستثناء المسائل المالية التي كان لها مبنى خاص يسمى « دفتر دار قابيني » أي « بوابة الدفتر دار » وكانت تقسم جميع أقسام الإدارة المالية كما سئرى في موطن قادم . وكان درويش محمد باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الرابع أول من سكن مبنى الباب العالي من الصدور العظام . وخدا اسم هذا المبنى وباشي قابيني ، أي بوابة الباشا ، وباشي عالي ، أي بوابة عليا ، ثم اكتسب اسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالي (٢)

(١) يقرر بعض الباحثين أن السلطان سليمان للشرح هو الذي أمر بتشييد المبنى ، وأنه أطلق على هؤلاء الباب العالي ، وأنه شاع مرتبات أملاكه ، وأنه أطلق على رئيسه صدر الصدر الأعظم .
أنظر ١

محمد حيد بهم : فلسفة التاريخ العتيق ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٣
(٢) يرى غير أنه من المحتمل أن مصطلح بابي على كذا يطلق من قبل حل قصر السلطان ، ثم أصبح يستخدم للإشارة إلى المسكن الرسمي للصدر الأعظم وبقدر السلطة الفعلية .

La Porte Sublime، ويرى بعض المؤرخين أن إنشاء الباب العالي كان دليلاً على أنه أصبح مركز الثقل السياسي في الدولة (١) ، لأنه قبل إنشاء هذا الصرح كانت تبحث كل الشؤون العامة للدولة في القصر السلطاني ، فعند الباب العالي هو مناط السلطة والمرجع الأعلى في جميع شؤون الدولة ، الداخلية والخارجية ، المدنية والعسكرية .

الخاتمة :

على الباب العالي على وضعه القيادي السياسي المخوف حتى السبعينات من القرن التاسع عشر . ولا أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - ١٨٧٨ قراره المشهور بتعطيل الدستور وفصل مجلسي المبعوثان والأعيان وتحويل اختصاصاتها إلى أبل غير مسمى ، انفراد هذا السلطان بحكم الدولة حكماً مطلقاً . وأصبح ديوانه الخاص في قصر يلدز المؤلف من مستشاريه هو المرجع الأول في شؤون الحكم دون الباب العالي . وقد عرف هذا الديوان باسم « الخاتمة » وهي لفظة مأخوذة من اللغة الجرمانية ، لأن هذا الديوان كان أداة الاتصال بين السلطان والباب العالي ، فهو ما بين التفرقتين (٢) .

Gibb Hamilton and Bowen Harold : op. cit., Vol. I, Part (١)
1, p. 113.

(٢) يبدو أن هذا المصطلح « الخاتمة » قد اقتبس من مصطلح يحمل نفس الاسم لنظام الخاتمة الخاضعة في القصور السلطانية . فقد أطلق مصطلح « الخاتمة » على مجموعة العرف التي كانت تقع بين جنتي الحرم والبلاط الداخلي . وكان لا يصبح لأحد يدخول جنتي الحرم إلا السلطان والسياسيين والفقهاء . وفي هذه الغرف الواقعة بين الخطين كان الرجال من أفراد الخاتمة يقومون على خدمة السلطان للفصل شربه وتقديم أطعمته وإلباسه وغف البلبلة ووضفها على رأسه . وكان لكل مهمة من هذه المهام موظف خاص يعمل اسماً خاصاً ويرأسهم جميعاً الباشا جوقة دار ، أي رئيس الخدم المخصوصين . وكان يطلق عليهم المايتمية . وعلى ذلك فالفرق بين « مابين » وقصر يلدز ومابين سائر القصور أن الأول كان خاضعاً بالمستشارين السياسيين والفقهاء وعلماء الدين ومن إليهم الذين انتموا إلى السلطان عبد الحميد الثاني ، بينما كان « مابين » القصور السلطانية الأخرى يزعمهم بالخدم المخصوصين للسلطان .

الفصل الثالث عشر

الهيئات الحاكمة في الدولة (٢)

الديوان الإمبراطوري (المايوني)

كان الديوان بمثابة مجلس وزراء موسع . كان ملاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . وكان يطلق عليه الديوان المايوني (١) *Le Divan Houmaïoun* واستمر هذا التقليد متبعاً حتى عهد السلطان سليمان المشرع الذي تخلف عن حضور جلساته وتخلّى عن رئاسة الديوان للصبر الأعظم فأصبح الديوان في وضعه الجديد يتكون - فضلاً عن رئيسه الصبر الأعظم - من الوزراء وعدد من كبار موظفي الدولة كان يطلق عليهم باللقبة التركية « أركان دولت » أي أركان الدولة يمارسون عضوية الديوان بحكم وظائفهم *ex officio* .

ولكن نقف على تشكيل الديوان واختصاصاته وأسلوبه في تسير حدة أمور الدولة ثم أولاً إلماً سرياً بشاغلي المناصب الكبرى في الإدارة المركزية في الدولة والمصطلح التاريخي الذي كان يطلق على كل منهم . وهم : الرئيس أفندي ، النشاجي باشي ، الجلوش باشي ، كاشيا بك ، الياش ديفدار ، البغتر أمين .

الرئيس أفندي :

يلاحظ أولاً أن كلمة أفندي في تاريخ الدولة العثمانية تطلق على أرباب القلم ، بينما تطلق لفظة آغا على أصحاب السيف . وكان الرئيس أفندي في العصر

(١) هازين كلمة فارسية معناها المرق بهار ، طقس ، حسن المظـ. ويستعمل بمعنى ملكي أو سلطان أو إمبراطوري . وهناك من يرى أن كلمة الديوان المايوني معناها الديوان السلطاني أو الديوان الإمبراطوري .

الأول ذا مركز متواضع نسبياً بالنسبة للشاغبي باشي أو الكاشيا بك أو الجاوش باشي أو اللغزدار ، أو غيرهم من كبار موظفي الإدارة المركزية . ويوصفه أكبر الكتاب مركزاً في سكرتارية الصدر الأعظم كان يطلق عليه رئيس الكتاب . وما نفلن في تلويخ الدولة منصباً كهذا المنصب بدأ بداية متواضعة ثم مر بتطورات متعاقبة قفزاً إلى أعلى حتى أصبح منصب الرئيس أغنى مرادفاً لمنصب وزير الخارجية العثمانية .

وتتلخص اختصاصاته وتطوراتها في الحالات التالية :

أولاً : كان يشرف على السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، فكان يعتبر نائباً عن الصدر الأعظم في شئون السكرتارية . وامتدت اختصاصاته إلى خارج السكرتارية ، فكان يشرف على كبار الكتاب في الحرازة العامة و خزينة عامة .

ثانياً : كان يتولى حفظ القوانين على القوانين الخاصة بالشئون المالية وحيازة الإقطاعات ، كما كان يقوم بإعداد جميع الأوامر غير الخاصة بالشئون المالية .

ثالثاً : كان يقوم بإصدار براءات السلطة التي كانت تعطي لحكام الولايات وأصحاب الإقطاعات العسكرية وشاغلي الوظائف من أهل العلم والقاضي باشية والمكتريرين الذين يعملون في الإدارة والذين يتلقون إحانات من الأوقاف الخيرية .

ويلاحظ أن هذا الاختصاص الأخير المتعدد الصور والأشكال كان ذا طابع وثائقي . ولذلك كان يعمل تحت إمرته ومتعاوناً معه موظف يسمى بيليكيجي Beylikçi برأس قسماً يختص بحفظ القوانين وإعداد الأوامر السلطانية يسمى بيليك قلمي Beylik Kalemى أى قلم الوثائق ، لأن كلمة بيليك تحريف لكلمة « بليك » Bitik بمعنى وثيقة .

واستحدثت الدولة قسمين آخرين -- غير بيليك قلمي -- لإصدار البرامات . كان أحدهما يسمى « تحويل » وهو اسم يطلق على البرامات التي تصدر إلى موظفي

الطبقتين الأوليين من أهل العلم . وكان الآخر يسمى « روموس » وهو يعبر بطلق على البرامات التي تصدر إلى أهل العلم عن هم دون الطبقة الثانية وسكرتيرى الإدارة . وكان اصطلاح « برامات » يطلق على تلك التي تعطى لحكام الولايات . أما أصحاب الإقطاعيات الحربية فكان يطلق على البرامات الصادرة إليهم اسم « ضبط فرمانى » . وكانت تصدر من مكتب التحويل أيضاً . وأخيراً فإن اصطلاح « برامات » كان يطلق كذلك على التصاريح بصرف معاشات من خزانة الأوقاف الدينية ، ولكنها كانت تصدر عن قسم الروموس . وكان يعمل فى السكرتارية حشد من الموظفين بلغ عددهم فى القرن الثامن عشر قرابة مائة وستين كاتباً من ثلاث قطاعات (سكرتيرون ، وشاكرادات ، وشرهلوات) . وكان يشرف عليهم ستة من رؤساء الموظفين هم :

١ - القانونجى وكانت مهمته البحث فى مجموعة قوانين الدولة عن نص قانونى يتعلق على مشكلة ما قد تثار أو تطرأ .

٢ - الإعلامجى ويختص بوضع مذكرة عن مثل هذه المشكلات التي قد تطرأ والنص القانونى الذى عاجلها . والكلمة مقتبسة من اللفظة العربية : أعلم بمعنى أخبر أو أبلغ .

٣ - الخميز ومعناها فى هذا المجال المحقق . وكان يقوم بمحصر وتصحيح الوثائق التي يدخلها الكتبة . والكلمة مأخوذة من اللغة العربية : ميز .

٤-٦ ثلاثة موظفين يطلق على كل منهم لقب « كيسة دار » أى حامل الكيس . وكلمة الكيسة مأخوذة من اللغة العربية بمعنى كيس الثمن . وكان للرئيس أثنى « كيسة دار » مستقل وخاص به^(١) وهؤلاء الرؤساء الستة كانوا يتبعون البليكيكى .

وأخيراً : كان الرئيس أثنى مشغولاً عن الصياغة اللغوية وعن محتوى التقارير والملكرات التي يضعها الصبر الأعظم ويرفعها للسلطان . وكانت

هذه المهررات تسمى « تلخيص » . وكان يساعد الرئيس أفندى في هذه المهمة موظف آخر يسمى « آمىجى » ، وهى كلمة فارسية مشتقة من آمى بمعنى حضر أو أتى . وكان الأمىجى بمثابة مساعد الرئيس أفندى .

مخلصاً : تطور اختصاص الرئيس أفندى فأصبح الموظف المختص بشئون السياسة الخارجية للدولة ، وبمباراة أخرى غدا وزير الخارجية العثمانية . وظهر هذا الاختصاص في عصر متأخر ، لأن العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية كانت في أول الأمر في نطاق ضيق للغاية . كان السلطان أول الأمر يولى رعايته ، فلذا لم تلق استجابة من الدول الأجنبية كان يعلن الحرب . ثم بدأت الدولة العثمانية تفتد معاهدات ثنائية أو جماعية مع تلك الدول ، ووافقت على إنشاء تمثيل دبلوماسى وتنفصل بينها وبين الدول غير الإسلامية بسمة والدول الأوروبية خاصة . وشهدت دار السعادة - إستانبول - قيام سفارات وتنفصيات عامة لهذه الدول . وكان الصدر الأعظم أول الأمر هو الذى يقوم بإجراء المفاوضات واستقبال أعضاء البعثات الدبلوماسية . ولم يكن الرئيس أفندى وقتذاك يفعل أكثر من تسجيل المعاهدات . كما كان يفعل عند تسجيل أى أمر سىلى أو قرار وزارى .

ولما تزايدت أعباء الصدر الأعظم ، وكان أزواء سلاطين الفترة الثانية من الحياة العامة من بين أسباب تزايد هذه الأعباء ، ولما ازدادت العلاقات الخارجية للدولة بالدول الأجنبية عمقاً واتساعاً ، أصبحت مسائل السياسة الخارجية تياً إلى الرئيس أفندى ، واستعان الأخير بجهاز من الخبراء والمرجى . كان الخبراء يقومون بتزويده بكافة المخطومات السياسية والتاريخية والاجتماعية والدينية من الدول الأجنبية . وكان المرجحون يتولون ترجمة المذكرات التى تبث بها السفارات الأجنبية في إستانبول إلى اللغة التركية وبالعكس . وكان هؤلاء المرجحون حتى أواسط القرن السابع عشر الميلادى من أصل أوروبى اعتنقوا الإسلام . ومنذ أوائل القرن الثامن عشر استعانت الدولة بمرجى من هالات يونانية تسكن حتى القنار في إستانبول ويعرفون باسم « الفنازيون » *Leu Phanariotes* وكانوا على حظ موفور من العلم والثقافة وسعة الأفق العقل

والثراء وتمتعوا بمرافقة الأصل وكرم الحظ . وقد سبق أن التقينا بهم في هذه
المراسة (١) . وكانت الدعوة تؤثرهم بالصين في المناصب الكبرى التي تحتاج
إلى خبرات خاصة في الباب المالي وتختار من بينهم الأميرين الذين كانوا يحكان
ولا يبقى اللانوب تحت السيادة النمائية (٢) . وكان هؤلاء المرءون ينقسمون
إلى مجموعات تختص كل مجموعة بدولة أجنبية أو بعض دول . فكان مترجمو
كل مجموعة يعملون المذكرات السياسية التي تتناول النقاط الرئيسية من
الموضوعات التي يتناولها الرئيس أفندي سواء في مقابلاته مع سفراء الدول
أو في مفاوضاته مع البعثات الأجنبية . وكان رئيس المترجمين - ويطلق عليه
ديوان ترجماني أي مترجم الديوان - يحضر مقابلات السلطان أو الصدر الأعظم
أو الرئيس أفندي للفرع ومن إليهم من كبار الشخصيات الأجنبية التي كانت
تمر بإستانبول . والباحث المختص في تاريخ العلاقات النمائية الأوروبية في
القرن التاسع عشر تلفت نظره هذه الظاهرة : وهي سعى السفير في إستانبول
أو الشخصية الأجنبية الواعلة إلى العاصمة لمقابلة ترجمان الرئيس أفندي ليست
معه المشكلات العاجلة والمعلقة بين الدولة النمائية والدولة التي يمثلها السفير مما
يجعل لمسئلة الترجمان مركزاً مرموقاً في نظر أعضاء البعثات الدبلوماسية في
العاصمة . وقد استمد هذا المركز من اتصاله الوثيق بالرئيس أفندي .
ويلاحظ أن المؤرخين الأوروبيين يشيرون في مؤلفاتهم إلى وزير الخارجية
النمائية بأنه الرئيس أفندي *le Reis effendi* وكان هذا الرئيس أفندي في نظر
الدبلوماسيين الأوروبيين في ذلك الوقت هو الشخص الثالث في الدولة بعد
السلطان والصدر الأعظم . أما العاليية الساحقة من الأتراك النمائيين فلم يدركوا
أهميته أو أهمية منصبه .

التشاحجي بائي :

اشتقت هذه الكلمة من اللفظة الفارسية « نشان » بمعنى شارة . وكان
التشاحجي يضع غنم الطغراء على الوثائق والمراسم وسائر الأوراق الرسمية .

(١) انظر من ٦٨ في هذه المراسمة

Miller W ; op. cit., p. 16, pp 25-27.

(٢)

والطغراء هي شارة السلطان العثماني ، وهي نقش متداخل معقد يحمل اسم السلطان . وكان كل سلطان يتولى العرش يأمر بعمل طغراء خاصة به ، كما كانت تنقش هذه الطغراء على أحد وسجى العملات الذهبية أو الفضية التي تسلك على عهده في الصرخانة ، أي دار سك العملة . وقد أخذ الأتراك العثمانيون استخدام الطغراء عن السلاجقة منذ حكم السلطان أوردخان بن عثمان ، ولكن لم يتم إنشاء منصب للشانجي إلا على عهد السلطان محمد الثاني وبعد فتح القسطنطينية .

وكان يذكر اسم الشانجي مقرونًا بكلمة الياشي فيقال للشانجي باشي ، ولكن غلبت عليه التسمية بدون ذكر كلمة باشي^(١). وكان للشانجي مقعد في اللديوان منذ البداية مما يدل على أهمية المنصب الذي يشغله وبذلك أن شاغل بعض المناصب القيادية في الإدارة المركزية مثل الرئيس أفندي ، وكاتبه بك لم يحصل أي منها على مقعد في اللديوان^(٢) .

وعلى الرغم من أن الاختصاص الاسمي للشانجي كان غموض الوثائق والمراسيم بالطغراء ، فقد كانت له عدة اختصاصات حكمية وفيه على درجة كبيرة من الأهمية بل والعلوية . كان له حق اختيار الوثائق التي يختارها بالطغراء وتصحيحها والتأكد من صحتها لقوانين المعمول بها ، وتفرغ عن الاختصاص الأخير حق هام هو إجراء تعديلات على الوثائق متعمداً لقيام تعارض مع القوانين واللوائح حديثة الصدور^(٣) . وفي ضوء هذا الحق أصبح الشانجي يشبه إلى حد ما « المعنى » الذي كان من اختصاصاته أن يقرر أن الإجراء المزمع اتخاذه يتماشى مع قواعد الشريعة الإسلامية . ومن هنا كان الشانجي يعتبر « مفتياً لقوانين » . ومع ذلك كان الشانجي لا يستطيع تعديل النصوص إلا إذا تلقى أمراً بهذا المعنى يسمى « تصحيح فرماني » ويختمه الصدر الأعظم بنفسه

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 182.

(١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1,

(٢)

Part I., p. 118

Loc. cit., p. 125.

(٣)

بالطعراء متعاً لإساءة استخدام الحق القبول للتشافي في هذا الصدد. وبعد إدخال التعديل المطلوب وحفظ القانون المعدل في «الدفعات» أي دار السجلات كان التشافي يحفظ بالأمر الصادر له ، وهو «تصحيح فرماني» كسند لديه يدافع به عن نفسه إذا أثير موضوع التعميل في قابل الأيام . واستمر شاغلو هذا المنصب - التشافية - يمارسون حق مراجعة وتصحيح الوثائق التي تقدم لهم لكي يختموها بالطغراء حتى ألغى هذا الحق رسمياً على عهد السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣ - ١٧٣٠) . وكان من اختصاص التشافي أيضاً ترتيب مجموعات القوانين المرونة باسم «القانون نامات» وإعدادها للنشر .

هذه الاختصاصات الدقيقة والحامة التي أعطيت للتشافي تطلبت أن يكون هذا الموظف على حظ موفور من العلم . وكان يتم اختياره على عهد السلطان محمد الفاتح من هيئة العلماء ، ثم حلت الحكومة عن اختياره من هذه الهيئة واعتمدت على طبقة التولار - المعبد - في شغل منصب التشافي . ويقول ليبير الأمريكي تعليقاً على هذا الاتجاه إن الأسباب العامة التي جعلت السلاطين يؤثرون المعبد بوظائف الهيئة الحاكمة هي التي جعلتهم يختارون منهم من يصلح لشغل منصب التشافي (٢) .

وكان التشافي يتمتع أول الأمر ببعض السلطة على الرئيس أذنى . وتمتد هذه السلطة بالتبعية إلى السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، كما كان له تفوذ على دار السجلات وعلى ريدتها «الدفعات» ، أي أمين السجل . وكانت تحفظ في تلك الدار جميع الوثائق الخاصة بالسجلات .

وكان التشافي يحسب في السلم الوظيفي تالاً لمدير الإدارة المسالية - للتفتردار - ويظل في هذه الوظيفة إلى أن يرقى للتشافي إلى الوزارة أو إلى الرتبة التي تليها مباشرة وهي رتبة حاكم بلاد الروم - البلقان - بكربكي الروملي . وقد أخذ مركز التشافي في الأقول في الوقت الذي ارتفع فيه مركز

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I, p. 126.

Lytton A.H. ; op. cit., p. 186.

الريس أفندي . ومرد هذا القول إلى سجين : أولها أزواء السلطان في أجنحة الحرم . فأضمت احتجابه الصلة التي كانت تربط السلطان بالثنايحي . وثانيها التوسع في إنشاء علاقات دبلوماسية بين الدولة الثمانية والدول الأوروبية مما جعل الحاجة ماسة إلى شخصية تفرغ للعلاقات الخارجية السياسية . وكان الصدر الأعظم يضطلع بمسائل السياسة الخارجية لأول الأمر ، ثم نقل عنها لريس أفندي الذي قام بانتصاصات مماثل الاختصاصات التي يمارسها وزراء الخارجية في الدول الأوروبية وغير الأوروبية في الوقت الحاضر . وتعددت مقابلات أعضاء السلك الدبلوماسي الأجنبي له ، وارتفع شأنه وسلطته عليه الأعداء ، وفتقر إلى القصة بينا هبط مركز الثنايحي هبوطاً شديداً .

الجلوش باشي :

الجلوش معناها في اللغة التركية رسول . وكان الجلوش باشي يتولى قيادة فرقة الجلوشية . وكانت تنقسم هذه الفرقة إلى خمس عشرة فصيلة بقود كلا منها ضابط . وكان قوام كل فصيلة ٤٢ رجلاً وكان أفراد هذه الفرقة يشهدون الاجتماعات التي يعقدها السلطان مع كبار الموظفين ، كما كانوا يشهدون مقابلاته مع السفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات ، ويحضررون الجلسات التي تعقدها محكمة السلطان أو الصدر الأعظم وكانوا يشتركون في مواكب السلطان العامة بصفتهم جزءاً من الحرم السلطاني ، ويصحبونه حين يخرج إلى مناحات الحرب .

ولما تزايدت اختصاصات الصدر الأعظم نتيجة قيامه بمعظم مهام السلطان ، أُلحق بالجلوش باشي وأفراد فرقة محكمة الصدر الأعظم . ولذلك غلبت على الجلوش باشي صفة أحد كبار موظفي الإدارة المركزية أكثر من صفة كضابط في البلاط السلطاني . وقد ذهب تومسون المؤرخ الفرنسي إلى أنه رقي إلى رتبة وزير رسمياً على يد إبراهيم باشا الصدر الأعظم في أثناء حكم السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) . وسواء كانت هذه الترقية قد

حدثت فعلاً أو لم تحدث على الإطلاق ، كما يقول هارولد برون (١) ، فإن الجاوش باشى كان أعلى مرتبة من الرئيس أفتشى ، كما كان يعتبر أحد نواب الصدر الأعظم والموظف الثانى فى محكمة الصدر الأعظم ويتولى تقديم السفراء له (٢) .

وفى ظل الوضع الجديد للهيكل العام للإدارة المركزية فى الدولة تحولت رئاسة محكمة السلطان إلى الصدر الأعظم ، فأصبح الجاوش باشى تابعاً له ، بمعنى أن اتصالاته بالصدر الأعظم كانت أكثر من اتصالاته بالسلطان . وكان له دور كبير فى إجراءات المحكمة حتى وصل به الأمر إلى أنه خذا فى القرن الثامن عشر نائباً لرئيسها . وبهذه الصفة الجديدة التى أضيفت إليه كان الجاوش باشى يرأس الجلسات القضائية فى المحكمة توفيراً لوقت الصدر الأعظم ، فبعد منحها قضائياً إلى على الصدر الأعظم أن يفصل فيها ، كما كان الجاوش باشى يحيل باقى القضايا إلى المحاكم التى هى أقل درجة من محكمة الصدر الأعظم .

وكان من المهام الرئيسية للجاوش باشى تمثيل الأحكام القضائية ، وتمكينه له من أداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، وضمت الإدارة المركزية تحت تصرفه عدداً من صباط الإنكشارية كان يطلق عليهم محضر أغا ، محسن باشى ، صوباشى . وكانوا يتفقون الأوامر من الجاوش باشى مباشرة . وكان هؤلاء الصباط يمهّد إليهم ، بالإضافة إلى هذه المهمة ، بأعمال الشرطة بوجه عام . وعلى ذلك فلم يكن الجاوش باشى مختصاً بمنع الجرائم أو المراقبة على الأمن فى العاصمة والمناطق المحيطة بها . وكانت مهمة الجاوشية المناهضة لقيادته هى إندخال المتهمين والمدعىين وأصحاب الشكاوى إلى محكمة الصدر الأعظم ، وتمثيل الأحكام ، ونقل ملفات القضايا التى كان الصدر الأعظم يرسلها إلى المحاكم الأقل درجة للعمل فيها ، والحفاظ على الأشخاص خوى

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part I. (١)
p. 118, fn. no.2.

Lybyer A.H. ; Op. cit, p. 183. (٢)

المراكز الكبيرة وبخاصة أهل العلم وحجزهم في مكاتبهم حتى ينظر في المهمة الموجهة إليهم . وكان يقوم بمهمة التحفظ عليهم أحد أفراد فرقة الجاوشية يسمى جاوشلر كاتبي .

وكان الجاوش باشي ، في التتلاقى التفاضلي الذي كان يمارسه ، يشرف على أعمال اثنين من الموظفين يسميان التذكرجية . ويقصد بالتذكرة هنا عرائض الدعاوى المقدمة . وكان يطلق على أحد هذين الموظفين «بيوك تذكرجي» أي التذكرجي الكبير ، بينما كان يطلق على الآخر «كچوك تذكرجي» أي التذكرجي الصغير . وكانا يتناوبان مهمة قراءة الشكوى المقدمة للصدر الأعظم ثم كتابة القرار الذي يتخلله الأخير في كل منها . وكان على هذين الموظفين أيضاً وضع الصباجة القلمية للأوامر التي كان يصدرها الصدر الأعظم إلى الإدارات الحكومية المختلفة . وبالنسبة للمركز الوطني هذين الموظفين ، جاء في القانون نامة التي صدر على عهد السلطان محمد الفاتح أنها يستعان بالأسبكية على كتابة الرئيس أفندي .

وهكذا نرى أن الجاوش باشي قد توفت اختصاصاته تنوعاً ملحلاً . فجمعت هذه الاختصاصات بين الطابع العسكري والطابع القضائي . وأشرف على فئات شتى من الموظفين العسكريين والمدنيين ، ومارس نفوذاً واسعاً في شتى مجالات الإدارة المركزية .

كانخيا بك :

كان يعتبر غالباً عالماً عن الصدر الأعظم في المسائل الداخلية والخارجية ، ويعمل تحت إمرته عدد من الموظفين كانوا بمثابة حلقة اتصال بين الصدر الأعظم والموظفين القولار - أي عبيد السلطان - سواء في خدمة القصور أو في الجيش^(١) . وكان كانخيا بك الصدر الأعظم في الأصل أحد نديم الخوصعين للصدر الأعظم ، ولم تكن له اتصالات بالإدارة المركزية . ولكن لما تزايدت أهمية الصدر الأعظم اكتسب كانخيا بك أهمية ونفوذاً ووجاهة . وأصبح

لا يشغل هذا المنصب إلا كبار موظفي الدولة . وكان يطلق عليه عدة أسماء ، منها : « وزير كاخيا بكى » تميز آلُه عن ضابط إنكشارى يحمل لقب كاخيا . وكان يطلق عليه أيضاً « آغا أنتمز » أى أغنيانا الأها ، فكان يجمع بين لقب رجل القلم ورجال السيف . ونظراً للأهمية البالغة التى كانت لاختصاصاته فى المداخل الساخية والحربية كان لا يسمع له بأجزة فى أيام الأعياد ، بينما كان موظفو الباب العالى يتومنون بالأجزة ، حتى يستطيع اتخاذ قرارات رية باليات . من الصنور الأعظم إذا وقعت أحداث هامة أو ظهرت زمات ، حالية . وكان الكاخيا بك يشرف على المكتوبى وهو لا يكرتير أساساً فامسدر الأعظم (١) ، كما كان يشرف على التشرىفاتى وهو مدير المراسم . وكان لهذا الأخير عدد وافر من الماعدين يحفظون بسجلات مرلمس النبلاء السلطاني وتدون فيها الامتيازات التى يتمتع بها كبار موظفي الدولة . وأخيراً كان لكاخيا بك سكرتيران يسمى أحدهما « كاخيا كاتى » ، أى كاتب الكاخيا . ويشرف على المراسلات العامة وتجميع حصيلة الرسوم الخاصة به وبالصنور الأعظم . ويسمى الآخره قره قولاق أى الأول السودة . وانحصرت مهمة هذا السكرتير فى القيام على المراسلات المتبادلة بين الصنور الأعظم وكاخيا بك .

ويتخذ أحد المؤرخين من نظام تناول الكاخيا بك الطعام دليلاً على خضوعه للصنور الأعظم ، فيقول إنه - أى الكاخيا بك - والمكتوبى والتشريره نجي كانوا يتناولون الطعام يوماً معاً وبفردهم ، وأن هذا النظام ظل معمولاً به حتى أولئخر القرن الثامن عشر فى حين كان الجاولش باشى والريس أنفدى بأكلان على مائدة الصنور الأعظم . ومع ذلك فقد كان هؤلاء الموظفون الخمسة من كبار الموظفين (٢) .

(١) يصفه لير بأنه سكرتير الصنور الأعظم . المرجع السابق ص ١٨٤ ،
بينما يعرف عنه بـ « بهو » . به سكرتير تمام للصنور الأعظم .

نصر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part I, p. 120.
Loc. cit., p. 121. (٢)

وكان الكائنيا بك والمكتوبى والتشريفات نجى يحملون فى دخلهم من التصيب الذى يتقاضاه كل منهم من الهدايا التى يقدمها إلى الصلر الأعظم أصحاب المناصب الحكومية عند تعيينهم فيها (١) . كما أن هؤلاء الموظفين الثلاثة كانوا يتناولون وجبات الطعام يومياً من مطابخ الصلر الأعظم . وكان الكائنيا بك يعتبر من أصحاب الدخل الكبيرة . وساحل كثيرون من شغلوا هذا المنصب فى الأوقات المتأخرة لجميع ثروات ضخمة فى أثناء توليهم هذا المنصب .

الباش دفر دار :

سبق أن تكلمنا عن الدفر دار واختصاصاته التى كان يمارسها فى النطاق المحلى كريس للإدارة المالية فى مصر إبان الحكم العثمانى عندما تعرضنا لنظام الالتزام (٢) . ولذا إنه كان رئيس الديوان النفرى فى مصر . وقد أنشأت الدولة أول الأمر وظيفتين شغل إحدهما دفر دار احصر بالشئون المالية للأناضول ويسمى « دفر دار أناضولى » ، وشغل الأخرى دفر دار شمل اختصاصه ببلاد البلقان وبقية الأقاليم الأوروبية التى خضعت للسيادة العثمانية ويسمى « دفر دار الروملى » . وكان أعلى مركزاً من سابقه . وأطلق عليه الباش دفر دار . وعلى عهد الفتوح العثمانية للكبرى فى القرن السادس عشر أنشئت على عهد السلطان سليم الأول وظيفة ثالثة يشغلها دفر دار امتدت اختصاصاته فشملت سوريا ومصر وديار بكر . ثم أنشئت على عهد السلطان سليمان المشرع وظيفة رابعة لدفر دار شملت اختصاصاته ولاية البحر ومنطقة الدانوب (٣) . ولما فقدت الدولة إقليم البحر فى أواخر القرن الرابع عشر أعيت الدفر دارلنى الخاصة بالبحر ، ومع ذلك أصبح دفر دار الروملى . وهو الباش دفر دار — يتولى المسئولية عن السياسة المالية للدولة كلها .

Loc. cit.

(١)

(٢) انظر من ١٤٨ ٤ حالية رقم ٢ فى هذه المجلد .

D'Ohaon Ignatius Mouradgna , op. cit. ; t. VII, p. 261.

(٣)

Lybyer A. H. ; op. cit. , p. 168.

وكان الفردار يحفظ بالنفاذ أو السجلات التي فيها الموارد المالية للدولة سواء كانت هذه الموارد أموالاً مائلة أو عينية ، ومقتلر الأموال المتحصلة وانتظر إنفاقها ، والقائض والاحتياطي ، وكيفية الحصول على موارد مالية أخرى حين يطرأ عجز على موازنة الحكومة . وكان للفردار سكرتارية مالية خاصة به تسمى « مالية قلمى » . كما كان يعمل تحت إدارته عدد كبير من الموظفين المخصصين فى الشؤون المالية . وكانت تهيجه محكمة تفصل فى المنازعات التى تقوم بين الحكومة والأفراد فيما يتعلق بالمائل المالية .

وكانت رتبة الفردار باشا تعادل رتبة القشايى باشا . وكان يلى الصدر الأعظم باستثناء وزراء القبة وكبار رجال الهيئة الإسلامية . وكان الفردار هو الموظف الوحيد فى الإدارة الذى يتمتع بحق تقديم القرارات بتمه إلى السلطان . وكان لا يشاركه فى هذه الميزة سوى « قضاة العسكرية » أى روساء القضاة ورؤساء المحاكم .

وقد جاء فى مقدمة قانون نامه الذى أصدره السلطان محمد الفاتح أن الفردار هو القسم على أملاك السلطان . وكان له الحق فى حمل الطغراء واستخدامها فى الترميمات - أى المراسم - المتعلقة بالشئون المالية . وكان هذا الحق أساساً للقشايى ، ثم منح هذا الحق بصورة جزئية للفردار فى الشؤون المالية ، ومنح أيضاً لروساء القضاة فى القرارات المالية على قواعد الشريعة الإسلامية .

وهناك تشبيه للدولة العثمانية مستمد من البيئة الرعوية - الإستهس التى كانت المهادر الأولى للأتراك العثمانيين . يقال إن للدولة العثمانية كانت بمثابة خيمة نصبت على الأرض ، وشملت بحبال مربوطة بأربعة أوتاد مثبتة فى الأرض . وكانت هذه الأوتاد الأربعة فى حالة الدولة العثمانية هى الدعامات التى استندت إليها : الصدر الأعظم والوزراء ، قضاة العسكرية ، مجموعة المقتردارين ، (ن ٢٥ - الدولة العثمانية)

والتشايعي (١).

الدفتر أمينى :

كان يشرف على الدفتر خاتنة ، وهى دار السجلات . وكانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام . ويطلق على القسم الأول « إعمال » وتحفظ فيه الوثائق التى توضح توصيحات دقيقتاً حدود كل ولاية من ولايات الدولة وأقسامها ، وكذلك حدود كل إقطاعيات . ويسمى القسم الثانى « مفصل » أى السجل المفصل وتحفظ فيه وثائق ومستندات مشابهة ، ولكن تتعلق بالملكيات الخاصة Private Property ، وهى تقابل فى الوقت الحاضر فى مصر سجلات مصلحة الشهر العقارى . أما القسم الثالث فيسمى « روزنامة » . وقد سبق أن شرحنا مدلول هذه الكلمة عندما تعرضنا لنظام الالتزام (٢) . وكانت الروزنامة فى هذا المقام العام تخصص بتسجيل التغيرات التى تطرأ على عمليات نقل الإقطاعيات من شخص إلى آخر .

وكانت القصرى مهياً أمام الدفتر أمينى للترقية إلى منصب الدفتر دار الذى كان الطريق أمامه مهذاً للترقية إلى مرتبة وزير .

تشكيل البيران :

كان يتكون البيران من :

١ - الصدر الأعظم رئيساً .

٢ - الوزراء وكان يختلف عددهم بالزيادة من عصر إلى آخر .

٣ - قاضى عسكر الأناضول . وقاضى عسكر معناها كبير القضاة أو

قاضى القضاة

٤ - قاضى عسكر الروم إلى أى بلاد البلقان وأوروبا .

Lavisse et Rambaud; op cit., L. TV, p. 753.

(١)

(٢) انظر ص ١٤٧ حاشية رقم ٣ فى هذه الدراسة .

٥ - قاضي صكر عن إفريقية ، وقد ظفر هذا القاضي بعضوية الديوان بعد القترح النهائية في إفريقية في القرن السادس عشر .

٦ - دفتر دار الروم ليل وهو الهاش دفتر دار .

٧ - دفتر دار الأناضول .

٨ - دفتر دار ثالث أصيف إلى عضوية الديوان بعد القترح النهائية في العالم الإسلامي

٩ - قائد فيالق الإنكشارية بصمت ممثلا للجيش .

١٠ - قودان باشا - قائد الأسطول البحري - بصفته ممثلا للسلح البحري بالتعبير العسكري الحديث .

١١ - الشانجي باشا .

وكان يحضر جلسات الديوان عدد من المساعدين من قوى الخفوة في شتى المسائل . كان بعضهم يجلس على الأرض في قاعة الاجتماع ، والبعض الثاني يظن واقفاً ، والبعض الثالث يجلس في غرف مجاورة لقاعة الاجتماع للدخول إلى قاعة الاجتماع إذا استدعاهم رئيس الديوان للاستماع إلى رأيهم الفني في مسألة مطروحة على الديوان .

ويتضح من هذا التشكيل أن عضوية الديوان لم تكن مقصورة على كبار موظفي الهيئة العامة من طبقة القولا - عيد السلطان - بل كانت الهيئة الإسلامية ممثلة في الديوان عن طريق رؤساء القضاة الذي كان يطلق عليهم قضاة السكر . ويتضح أيضاً من هذا التشكيل الخطأ الذي يقع فيه بعض الباحثين حين يفررون أن الديوان في الدولة العثمانية كان هو مجلس الوزراء بمعناه المتعارف عليه في التاريخ المعاصر ، وهو خطأ مادي لا يتحصن اختلافاً في وجهات النظر .

جلسات الديوان زمن السلم :

وكان الديوان زمن السلم يقعد جلسات مطولة أربعة أيام من كل أسبوع

هى السبت والأحد والإثنين والثلاثاء . وفى خلال شهر رمضان كان يتوقف عقد الجلسات . وكان الديوان يعقد جلساته عند الصبح حتى وقت الأصيل، فكان الاجتماع يستغرق وقتاً يتراوح بين سبع ساعات وثمانى ساعات ويتخلل الاجتماع فترة وتعبها فترة أخرى عند نهاية الاجتماع ومحضرى المقررات لتناول الطعام الذى كانت تعلقه الدولة لأعضاء الديوان وغيرهم من الموظفين الذين تقتضى طبيعة عملهم أن يظلوا على مقربة من الأعضاء لتقديم البيانات أو الإيضاحات وما إلى ذلك . وكانت الدولة تستقطع نسبة معينة من مرتبات جميع أعضاء الديوان وموظفيه والحرس ومن إليهم قيمة جزء من تكاليف الطعام الذى تعلقه لهم على مدار السنة ، وكان يتكون من اللحم والخبز والأوز والفاكهة (١) .

اجتماعات الديوان أيام الحرب :

وفى زمن الحرب كان الديوان يعقد اجتماعاته فى خيمة الصدر الأعظم التى تقام على مقربة من خيم السلطان . ولما كان كبار الموظفين فى الدولة يصبحون السلطان إلى ساحات القتال ، فإن إجراءات عقد الديوان تكون بمألة تقريباً لنظام المتبع فى إستانبول . أما إذا كان السلطان متخفياً عن العاصمة فى رحلة ومنه الصدر الأعظم ، فإن الديوان يعقد اجتماعاته يومى السبت والأحد فقط . ويحضر هذه الاجتماعات المند القليل من كبار الموظفين أو أركان الدولة الذين يظلون فى العاصمة . وفى حالة الضرورة فى زمن الحرب أو فى حالة طوارئ خطيرة كان أعضاء الديوان يجتمعون وهم على ظهور الخيل ، وهى عادة قديمة درجت عليها الدولة العثمانية حيناً من الدهر وهى لا تزال فى مرحلة الإمارة ، وكانت تعتمد فى تعبيرها مشورتها على النظم القبلية . فكان يعقد وقتذاك مجلس عام يضم جميع رؤساء اللوازم فى الإمارة أو الدولة الوليدة ، ويجتمعون وهم على ظهور الخيل ، ويبحثون الموضوعات الهامة مثل حوض الحرب أو تحرير السلم . ويرى بعض المؤرخين أن هذا

المجلس كان تواة نظام الديوان ، أى أن الديوان هو نظام متطور بتطور الدولة نتيجة نموها السريع واتساعها الإقليمي وتشعب مصالحها .

لماذا تخلى السلاطين عن رئاسة الديوان ؟

قلنا إن السلاطين كانوا يحرصون أول الأمر على حضور جلسات الديوان ثم أوقف السلطان سليمان المشرع هذا التقليد (١) . وأتاب عنه الصدر الأعظم واكتفى بالاستماع إلى المناقشات التى تدور فى الاجتماع ، وذلك من وراء ستار أو من باصلة تطل على قاعة الاجتماع . وقد حل بعض المؤرخين ، وكان من بينهم كوشى بك Koşîl الفيلسوف التركى ، على السلطان سليمان تحفه عن حضور اجتماعات الديوان وخاصة بعد أن اتخذ خطبائه سلاطين لفترة الثانية هذا التخبى من جلسات الديوان تقليداً ألزموا به بعد أن اضطر معظمهم للحياة العامة واحتجوا فى أجنحة الحرم بالقصور السلطانية واستناموا إلى حياة اللذة أو إشباع شهواتهم مع النساء أو تعاطى الخمر حتى أطلق على بعضهم اسم السكر وما إلى ذلك من صور المتهمة التى اتهموا فيها ، فلم يرتفعوا إلى مستوى سلاطين الفترة الأولى . ويعزو هذا الفرق من المؤرخين اضمحلال الدولة إلى ذلك التقليد ، بينما يرى فريق آخر من المؤرخين مثل ليبير الأمريكى أنه كان لامناص أمام السلطان سليمان المشرع من التخلف عن حضور جلسات الديوان الذى كان يفقد أربع جلسات أسبوعية تستغرق كل جلسة اليوم بطوله مما كان يصرفه عن الطرح لمهام أخرى كانت تفرام أمامه . وكان حكمه حافلاً بجلال الأعمال الحربية والإنجازات التشريعية والإدارية وغيرها . ويقول ذلك المؤرخ الأمريكى دفاعاً عن السلطان سليمان أو تبريراً لتصرفه إن أعضاء الديوان كانوا يتناقشون ويتصرفون وكان السلطان سبياً مائلاً أمامهم . وقد حدث فى إحدى المرات أن أمر هذا السلطان

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 188.

(١)

ويقرر بورد أن السلطان الذى لم يتخذ هذا التقليد هو السلطان محمد قلات حين قسم له أحد الرجال يشكوى وكان ناقراً ، ولم يظهر إلا سراً الواسع نحو السلطان

انظر

Gibb Hamikon and Bowea Harold; op. cit., Vo. 1, Part I, p. 116.

بلعندما حشمت باشا الصدر الأعظم بعد أن استمع بطريقته الخاصة إلى مناقشاته في الديوان واستعاض السلطان سليمان عن حضور جلسات الديوان باستقبال أعضائه عند انتهاء الاجتماع ويعرض عليه الصدر الأعظم القرارات التي اتخذها الديوان في ذلك اليوم فيوافق عليها أو يطلب لإدخال تعديلات عليها . وكان في أحيان أخرى يملئ بنفسه رداً على رسالة بعث بها أحد السراة الأجانب .

نظام الحضور والدخول والجلوس في الديوان :

وكان حضور أعضاء الديوان إلى مقر الاجتماع ودخولهم إليه وجوسهم وانصرامهم كل أولئك يخضع لنظام دقيق . كانوا يصلون مبكرين إلى مقر الديوان ليكونوا في استقبال الصدر الأعظم الذي يصل حاملاً بحاشيته . ويقفون في صفين متقابلين لاستقباله . ويمر الصدر الأعظم بين الصفين ، ثم يسير خلفه الأعماء وفقاً لترتيب ونظام موضوعي . وكان الصدر الأعظم يجلس — طبقاً للطريقة التركية العثمانية — وسط أريكة طويلة تمتد حول ثلاثة جوانب من قاعة الاجتماع . وتأخذ الأريكة شكل حرف U فإذا استوى على الأريكة جلس إلى يمينه الوزراء ثم كل من باشا الأناضول وباشا اليقلا ثم وليس الإنكشارية ثم فيودان باشا ، وفي نهاية طرف الأريكة يجلس التشيغي باشا ويجلس إلى يسار الصدر الأعظم وقضاة العسكر الثلاثة ثم الدفردارون الثلاثة وكبير المرحلين . ويجلس على الأرض الرئيس أفندي ، كما يحضر اجتماع الديوان كل من التذكريجي ويتولى قراءة التشكاوي المقدمة إلى الديوان ، وقانچيلر كخياني Kapuilar kiazmi ويمتد للمؤرخ بوزو بأنه معشش حراس البوابات (١) بينما يقول عنه ليبير إنه كبير الياوران (٢) . أما الموظفون الذين

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part 1, p. 83.

Lybber A.H; op. cit., p. 190.

(٢)

وبلاحظ أن البارونى مع ياور . وق الله التركية إذا أصبت حرفا الألف والون إلى نهاية الاسم اكتسب هذا الاسم صيغة الجمع . مثل الصحفان أى رجال الحفظ ، والمجيد أى المجيدون .

قد يحتاج إليهم أعضاء الديوان فيظفرون في غرف مجاورة ، بينما يقف الخرس وأفراد الحاشية على مصابات متقاربة خارج ودخل الردهة. وقد يحتاج الديوان في أثناء الجلسة إلى الاستشارة بأراء بعض المختصين . فكان يستدعى بعض قادة الجيش أو كبار موظفي الدولة المدنيين للاستماع إلى آرائهم . ولهذا الغرض كانت توجد في عرفة مجاورة لقاعة الاجتماع مجموعة من العسكريين على أهبة الاستعداد للتحرك السريع لاستدعاء من يرى الديوان حاجة إلى حضورهم . وعند ما يبدأ الديوان للنظر في المسائل القضائية كان يبوك تذكروني ، أي الكركجي الكبير ، يقف أمام الصلر الأعظم ويتولى قراءة الشكاوى والمراسل المتعلقة بالديوان للمصل فيها ، ثم يكتب القرار الذي يتخذه الديوان في شأن كل عريضة أو شكوى .

وكان في مقنور أي فرد من رعايا الدولة أن يتقدم يشخصه إلى الديوان حاضراً مظلمة فينظرها الصلر الأعظم مستعيناً بقضاة السكر وبعض الموظفين المختصين . وكان في بعض الأحيان يحيلها إلى الجهة المختصة لدراستها ولكن أدى طول الوقت الذي كانت تستغرقه الاجتياحات الأربعة التي كان يعقدها الديوان أسبوعياً ، وازدحام جدول أعماله بالعديد من المسائل المتنوعة إلى استبعاد المسائل الفردية وتخصيص وقته لبحث المسائل العامة (١)

اختصاصات الديوان ودوره في حكم الدولة :

انتقلت إلى الديوان اختصاصات المحكمة العليا التي كان يرأسها السلطان من قبل ، لأن الصلر الأعظم كان قد حصل على تفويض عام من السلطان بحكم تقلد الأجير وظيفة الإمامة وتأسيساً على هذا التفويض كان الصلر الأعظم يتولى القضاء بالمحكمة العليا بمساعدة قضاة الشريعة بعد أن تم تقسيم الديوان بأكثر العناصر القضائية التي تمثل للشريعة الإسلامية . وكانت الكلمة العليا في هذا المجال لولاة القضاء الكبار بحكم ثقافتهم وتعمقهم في مسائل الشريعة ، أو وفقاً للمصطلح الحديث لأنهم كانوا من أهل الخبرة . ولكن ما

(١) انظر تفصيلات ولجنة من الميرون د :

D'Obston Ignatius Mouradgea; op. cit., vol, VII, pp. 211-232

كان الصلح الأعظم أعلى من القضاة في السلم الوطني بحكم منصبه ، كانت الأحكام والتصرف في القضايا تصدر عنه من الناحية الشكلية . وهكذا أصبح من اختصاصات الديوان النظر في المسائل القضائية ، أي تطبيق القانون من ناحية ، والنظر في المسائل الإدارية من ناحية أخرى . ويعبر المؤرخ الأمريكي ليبر اختصاصات الديوان فيقول إنه طالما كان القانون في الدولة الثمانية موضوعاً ومحدداً ، وطالما كان أي تشريع يصدر عن الدولة يرتكز حول شخص واحد هو السلطان ، فإن مجال المناقشات وتبادل الآراء يكون مقصوراً على المسائل الإدارية والقضائية (١) وهذا التبرير لا يصور الحقيقة كلها فيما يتصل باختصاصات الديوان ودوره في حكم الدولة . وسرى أنه عاد بعد ذلك فأعطى للديوان أبعاده الحقيقية سواء من ناحية اختصاصاته أو دوره المعاك في إيجاد رقابة دقيقة ومهكمة على أعمال الحكومة سواء في الإدارة المركزية أو في الولايات الثمانية .

لم يكن الديوان هيئة تشريعية تصح التشريعات للدولة ، ولكنه كان هيئة تجمع بين سمات الوزارة *Cabinet* ومحكمة عليا *Court Suprême* ويقول أحد رجال القانون وهو هايندورف - في تقييمه للملك الديوان إنه كان نوعاً من مجلس الدولة نوقشت فيه المسائل السياسية الهامة ، وفي ذات الوقت كان بمثابة محكمة عليا خولت الحق في أد تظل أمامها كل قضية وأن تنظر في القضايا بين الثمانيين والأجانب والتي تزيد قيمة المجال المتنازع عليها على ثلاثة آلاف أسبر.

Le divan était à la fois une sorte de Conseil d'Etat, où se discutaient les affaires politiques importantes, et une Cour suprême autorisée à épuiser tout litige devant elle et à connaître notamment des procès entre Ottomans et étrangers qui dépassaient la valeur de 3000 aspres. (٢)

أما المؤرخ الأمريكي ليبر فيعلق على اختصاصات الديوان وعلى الدور

Lytbjer A.H.; op. cit., p. 187.

(١)

Heidberg A. Manuel de Droit Public et Administratif de l'Empire Ottoman. Vienne, 1909, p. 141.

(٢)

الذى قام به في إدارة شؤون الإمبراطورية الثمانية تعليقاً قال فيه إنه على الرغم من أن هذا الديوان يجمع بين اختصاصات الوزارة والمحكمة العليا إلا إنه لم تكن هناك أوجه تشبه بين الديوان وهاتين الهيئتين . كان رئيس الديوان هو الصدر الأعظم ، وهو معين بمرمان سلطانى . وكانت مواصفة السلطان على قرارات الديوان أمراً ضرورياً حتى تكلمب للقرارات الصيغة القانونية وتدخل طريقها إلى التنفيذ . ولا يحضر السلطان جلسات الديوان . وكل عضو فيه مسئول أمام السلطان . ولم تكن هذه المسئولية محصورة في تصرفات العضو نفسه ، بل في حسن سلوكه وإلا كان جزاؤه الإعدام (١) . وفي ذات الوقت كان الديوان أعلى محكمة في الإمبراطورية كلها ، وهى محكمة من طراز فريد . فليست لما اختصاصات محكمة الاستئناف أو حتى محكمة أول درجة ، أى المحاكم الابتدائية . وكان لا يتدخل في اختصاصات محكمة الديوان مناقشة شرعية القوانين ، ومع ذلك فإن الديوان كمحكمة تشمل ولايته القضائية جميع القضايا المدنية والجنائية التى ترفع إليه من أى جزء من أجزاء الإمبراطورية ، ويحم عن ذلك أن سلطته القضائية لم تكن مقيدة . ولكن من ناحية أخرى لا تصبح أحكامه القضائية نهائية إلا بعد موافقة السلطان عليها ويعفى ذلك المؤرخ الأمريكى في تعليقه فيقول إنه على الرغم من أوجه القصور التى تؤخذ على نظامه واختصاصاته ، فقد كان الديوان ذا فائدة كبرى للحكومة الثمانية . كان الديوان أدنى درجة من السلطان ، ولكنه كان يعالج جميع الهيئات في الدولة . سواء الهيئة الحاكمة من طبقة السبيد - القولار - أو الهيئة الإسلامية . وكان يربط بينها بحكم وجود أعضاء فيه يمثلون هاتين الهيئتين . يلتقى بها في شخص السلطان الذى هو رأس الهيئتين . وكان الديوان بمثابة المحور الذى تدور حوله كل الوحدات المتنوعة في الحكومة الثمانية ، وهى حكومة ذات حكم مطلق . وفي رحاب الديوان كان يجتمع أكثر رجال الدولة كفاية ومقلدة وخبرة .

(١) كان هذا المؤرخ لا يصرى على قضاء السكر الأصناف في التمييز بحكم أنهم كانوا أحراراً ولم يكونوا من طبقة القولاار - عبيد السلطان - وكان الأخير يملك إعدامهم بدون مسئلة .

ويقع الاحتيار على كل عضو فيه بعد عملية دقيقة تمر في عدة مراحل وأعطت الدولة كلا منهم مستويات ضخمة ومتنهم منطلات واسعة كي يعملوا بدون إبطاء ، في النطاق المحدد لكل منهم ، للقرارات التي تصدر عن الديوان ويوافق عليها السلطان . فالديوان كان يسار ويلهم بطريقة بارعة وممتازة النظام المالي العام للإدارة المركزية في الدولة . وبفضل الديوان كان في استطاعة الحاكم بأقل جهد ممكن أن تكون رعايته على كل جزء في الإمبراطورية رقابة دقيقة ومحكمة عن طريق حكام على قدر كبير من اللكاء والمخترة ، وكانت تربطهم بالسلطان روابط وثيقة هي مزيج من المشاعر التي تمثل في العرفان بالحمل والمصلحة الذاتية والتطلع إلى مرید من الترقیات والخوف من بطشه . وفصلا عن ذلك كان الديوان بمثابة منسقة تلرب فيها القضاة ورجال الإدارة ورجال الحكم ، كما كان مجالاً لتنمية معلوماتهم وريادة تجاربهم . وكلما كانت حصيلتهم من هذه وتلك كبيرة أُنِحت لهم عليه القصر القريبة إلى وظائف أعلى . فالصدر الأعظم بصفته رئيس الديوان يتصل بهم اتصالاً مباشراً ومستمرأ أربع مرات في الأسبوع . وللسلطان على معرفة منهم يتابع بواحي مشاطهم . وفي يد الإثنين : السلطان والصدر الأعظم سلطة ترقيتهم . وفوق هذا كله ، لم يكن الديوان مجرداً من أي نموذج على التشريع . فالقوانين كانت تصدر باسم السلطان وبعد موافقة النهائية عليها . ولكن المادة القانونية التي تضمنتها هذه القوانين قد اشترك في إعدادها أعضاء الديوان ، وهم الذين قاموا بمطوعة مساعدتهم بوضع الصياغة القانونية لهذه القوانين . ولكل هذه الاختصاصات والأسياب وغيرها كان الديوان ، برئاسة الصدر الأعظم ، وهو يراقب الإدارة ويفصل في القضايا الهامة ويترك بصيانه في مجال التشريع . يحكم الدولة المالية تاية من السلطان ومن أجله ولمصلحته (١) .

نخلص من هذه الآراء السياسية والقانونية التي بسطناها للاحقين أحدها نساوي والآخر أمريكي إلى أنه إذا كانت السلطات السياسية والعسكرية

والإدارية في النخلة قد تركت في يد السلطان ، فإن إنشاء الديوان الطائفي أو الإمبراطوري لا يعني أن هذا الجهاز قد سلب اختصاصات السلطان أو جزءاً منها ، إذ لم يكن للديوان سلطة قطعية في المسائل التي تعرض عليه أو في القرارات التي تصدر عنه ، لكن موافقة السلطان عليها كانت شرطاً أساسياً *à titre qu'on* لتنفيذها . ولم يكن أعضاء الديوان سوى موظفين اقتضرت مهمتهم على بحث المسائل أولاً ، ثم تحضير القرارات ثانياً ، ثم تنفيذها ثالثاً إذا أقرها السلطان . وكان إنشاء الديوان ضرورة أملاها اتساع النخلة ، وتزاحم المشكلات بشق أنواعها ، والتوسع في إتمام متاعب جليدة وعدد من أجهزة الحكم ، سواء في العاصمة أو في الأقاليم التي فتحت ، وما استتبع ذلك من زيادة عدد الهيئات الحكومية ولزيادة عدد الموظفين .



الفصل الرابع عشر

الهيئات الحاكمة في الدولة (٣)

الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة

الهيئة الإسلامية والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة :

كانت الدولة العثمانية تضم بين رعاياها فريقين من المسلمين . ويطلق على الفريق الأول القولا ر كانوا في نشأتهم الأولى مسيحيين انزعهم الدولة وهم في س خضعة من آباءهم وأمهاتهم وحولتهم إلى الإسلام، وهيات لهم تعليماً عسكرياً ومدنياً، وجعلت منهم أدوات للحرب والحكم ، ولكنهم كانوا عبيداً للسلطان ، ومن ثم أصبح وضعهم الديني والقانوني والاجتماعي : من حيث لأمر الواقع مسلمين عبيداً. ويطلق على الفريق الثاني ، وهو خارج عن نطاق الفريق الأول ، الهيئة الإسلامية . وكانت هذه الهيئة تضم جميع رعايا الدولة المسلمين الأحرار بما انضم إليهم من مسيحيين اعتنقوا الإسلام طوعاً فأصبحوا يدورهم مسلمين أحرارا . وكان هؤلاء الأخيرون قلة عديدة نسبياً، ولكنهم كانوا مع أفرادهم أفراد للطائفة الأولى الذين جادوا من عائلات إسلامية يشكلون نسبة عديدة كبيرة جداً بالنسبة لفريق القولا ر . وبذلك كان رعايا الدولة المسلمون طائفتين :

١ - المسلمين العبيد ويطلق عليهم القولا ر .

٢ المسلمين الأحرار ويطلق عليهم الهيئة الإسلامية .

وأفراد الهيئة الإسلامية متساوون جميعاً ، وهيات لهم الدولة مبدأ تكافؤ القوم ، بمعنى أن الذين حصلوا منهم على قسط وأمر من التعليم في علوم الشريعة وأصول الدين وما يتصل بها من دراسات كانوا يشغلون شتى المناصب في سلك القضاء والإفتاء والتدريس وما إلى ذلك . وكانوا يتدرجون

في هذه المناصب حتى يصلوا إلى أعلاه ، وكان من بينها منصب المفتي الذي أطلق على شاغله فيها بعد شيخ الإسلام . وكانت أمنية كل والد يحرص على الهيئة الإسلامية أن يرى ابنه يتخرج في سلك تلك المناصب حتى يصل إلى أهل درجاتها . أما أفراد الهيئة الإسلامية الذين لم يصلوا في تعليمهم إلى نهاية الشوط ، فكانوا يشغلون المناصب الصغرى في القطاع الدينى وفي وظائفه الإدارية التي تتفق مع حجم العلم الذي حصلوا عليه . فكانت ألباب مفتوحة أمام الجميع ولا يشترط سوى معيار الكفاية والذي يتمثل في حجم حصيلة من العلم . فالمفكرة قامت على أساس ديمقراطي : المساواة وتكافؤ الفرص . وقد أطلق على أفراد الهيئة الإسلامية الذين تلقوا تعليماً دينياً أياً كان حجمه وشغلوا مناصب القطاع الدينى : الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أو The Religious Islamic Ruling Institution كما اصطلاح على تسميتهم المؤرخون والباحثون وهذه الهيئة هي موضوع دراستنا في هذا الفصل .

الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والمنظمات المسيحية :

وتختلف الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة في النحلة العثمانية في طبيعتها وتكوينها عن جميع المنظمات الدينية المسيحية في أوروبا . فالدين الإسلامى لا يعترف بوجود طبقة دينية. كما يطلق عليها في الغرب الكهنوت وما إلى ذلك من مصيحات والإسلام يتميز بالبساطة ويصعد عن التصفيدات ، ولا يقيم وسيطاً بين العبد وحالقه . ويقول سبحانه وتعالى « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (١) . وقد اختلط الأمر على البعض فأصبحوا يتكلمون عن وجود طبقة في الإسلام أطلقوا عليها اسم طبقة رجال الدين والحق أنه لا توجد مثل هذه الطبقة في الإسلام ، بل يوجد أفراد تفقهوا في الدين أى تتفقهوا بثقافة دينية عميقة واسعة سواء في علوم أصول الدين أو علوم الشريعة وما يتصل بها . والاسم الصحيح لهم هو علماء الدين ، ولكنهم لا يشكلون طبقة خاصة بهم . والإسلام لا يعترف بالارستقراطية الدينية ، أو الرهبانية ، أو الطبقية الدينية

(١) سورة النور ، آية رقم ١٨٦ .

مثل الكراخلة ، والأساقفة ، والقسيسين ومن إليهم . وفي ظل هذه النظرة الإسلامية السمحة يستطيع أى مسلم بالغ ملم بأصول الدين أن يؤذن للصلاة ، أو يلقي خطب الجمعة والعيد ، أو يؤم المصلين ، أو يصل على ميت أو غير ذلك من الأعمال التى تتصل بإقامة الشعائر الدينية . ولا يشترط الإسلام مكاناً معيناً لأداء مثل هذه الشعائر ، ولا يشترط شخصاً معيناً يقوم بها بحيث يكون أداؤها باطلاً إذا قام بها شخص عادى .

تشكيل الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة :

إذا كان السلطان هو رئيس الهيئة الإسلامية بمثلولها العام والخاص ، فإن شيخ الإسلام كان الرئيس الفعلى للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والمهيمن عليها . وكانت هذه الهيئة تضم أربعة عناصر :

١ - شيخ الإسلام .

٢ - القضاة بمختلف فئاتهم ودرجاتهم .

٣ - المفتون .

٤ - أساقفة الشريعة وأصول الدين .

٥ - هيئات للتدريس فى المدارس الإسلامية .

٦ - ويلحق بالهيئة الدينية الإسلامية الإديابون فى القطاع الدينى . وكان مستوهم العلمى لا يرقى إلى مستوى أفراد هيئة العلماء ، كما أن لعودهم لم يكن كبيراً .

شيخ الإسلام

كان يطلق على شيخ الإسلام أول الأمر مفتى العاصمة ، وأحياناً المفتى الأكبر . وكان يتمتع بمركز مرموق قضائى . كان الصلوة الأعظم والوزراء ، وفى بعض الأحيان السلطان نفسه ، يتسمون وأيه فى بعض المسائل الهامة ، كما كانوا يعرضون عليه مشروعات القوانين الوضعية قبل إقرارها بصمة نهائية . ويطلبون منه الرأى فى مدى مطابقتها لمبادئ الشريعة الإسلامية . وكان عمال

إلى شيخ الإسلام القضايا الجنائية التي يرى القاضي الحكم فيها بإعدام المتهم أو المتهمين فيها قبل إصدار الحكم بإعدامهم وهو إجراء كان يستهدف الإطمئنان إلى سلامة إجراءات التحقيق والمحاكمة ونوفر الأدلة على ثبوت التهمة . وكان هناك نوع ثالث من الاختصاصات على حجة قصوى من الأهمية بل والخطورة يباشرها شيخ الإسلام بإصدار فتاوى ذات طابع صيامي ، وتتناول موضوعات تتصل بالسلمة العليا للدولة . كان السلطان لا يقدم على حرب دون أن يستصغر من شيخ الإسلام فتوى يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين ، بل إن هذه الحرب لها أسبابها القوية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية . وكان شيخ الإسلام يوفد الوعاظ إلى سائر أنحاء الدولة يطلبون أن الحروب المقلعة عليها الدولة هي حرب دينية ، وأن الجهاد يجب أن تقف صفاً واحداً تؤيد قلباً وقالاً الجيش وهو يحرم الحرب ، ومنها أيضاً الفتاوى التي تجبر تنازل الدولة عن أقاليم عثمانية لصالح دولة أجنبية انتصرت عليها ، وكذلك الفتاوى التي تجيز عزل السلطان الحاكم لسبب أو لآخر . وكانت الحالة الأخيرة هي قمة الاختصاصات التي كان يباشرها شيخ الإسلام . وقد ذكرنا من قبل أمثلة لبعض أنواع هذه الفتاوى ونشير إلى أمثلة لاختصاصاته الأخيرة سواء في مجال السياسة العليا أو في عزل السلاطين بعد أن نشرح الملابس التي أحاطت بتغيير لقبه من مفتي إلى شيخ الإسلام ، ثم مركزه في البروتوكول العماني .

[إطلاق لقب شيخ الإسلام على مفتي العاصمة :

وقد رآنا للمسئوليات الجسام التي كان يصطليح بها مفتي العاصمة أو المفتي الأكبر ، رأيت الدولة أن يبره عن سائر رملاته رجال الإفتاء الذين كانوا يعملون في معظم الأقاليم والمدن الكبرى في أنحاء الإمبراطورية ، وكان عددهم يصل إلى قرابة مائتي مفتياً ، فأطلقت على مفتي العاصمة لقب شيخ الإسلام ، فأصبح هو الرئيس الفعلي للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة *de facto* وإن ظل السلطان هو الرئيس لهذه الهيئة من الناحية النظرية *de jure*

وقد وقع خلاف كبير بين المؤرخين والباحثين حول تحديد الوقت الذي

أطلق فيه على معنى العاصمة هذا اللقب . فبرى أحلم وهو قانونى تماوى
يسمى هايندبورن^(١) Haidborn أن السلطان مراد الثانى (١٤٢١—١٤٥١) هو
أول من أطلق لقب شيخ الإسلام على معنى أدوة الى كانت عاصمة الدولة
وقذلك، وأن خلفه السلطان محمد الثانى أمر بنقل مقر شيخ الإسلام إلى القسطنطينية
بعده فتحها وبعد أن اتخذها عاصمة جديدة للدولة ، وأنه أطلق عليه لقباً
جديداً هو رئيس العلماء^(٢) . وبرى فريق من المؤرخين على رأسهم تومسون
D'Oshson الفرنسى^(٣) وليبير Lybyer الأمريكى^(٤) أن السلطان محمد الثانى
(١٤٥١—١٤٨١) هو الذى أطلق لقب شيخ الإسلام على معنى القسطنطينية
بعد أن فتحها . وبرى فريق ثالث منهم جب ويون Gibb and Bowen
الإنجليزيان^(٥) أن السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠—١٥٦٦) هو صاحب
التسمية ، وأخيراً ذهب أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمد حميل بيهم ، إلى
أن إطلاق لقب شيخ الإسلام على معنى إستانبول قد حدث فى عصر متأخر
يرجع إلى منتصف القرن الثامن عشر . ويضيف إلى ذلك قوله إن السلطان
محمود الأول (١٧٣٠ — ١٧٥٤) هو الذى أطلق لقب شيخ الإسلام على
معنى إستانبول . وكان ذلك فى سنة ١٧٤١ م الموافقة لسنة ١١٥٤ هـ^(٦) .

Haidborn, A. , op. cit., p. 213.

(١)

(٢) و قانون نامه الثانى صدر على عهد السلطان محمد الثانى أدوة إلى شيخ الإسلام بكه

رئيس العلماء .

D'Oshson Ignatius Mouradgen ; op. cit., t. IV, p. 300. (٣)

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 208. (٤)

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol I, (٥)

part II, p. 84.

(٦) أنظر كتابه :

— فلسفة التاريخ العثمانى . كيف نشأت وارتقت السلطة العثمانية وإلى أى حد بلغت عظمته .

بيروت ، (فبراير) ١٩٢٥ ، ص ٢٩٨ .

وهو رأى ضعيف لا تؤيده الشواهد التاريخية ، وكذلك رأى القائل بأن السلطان مراد الثاني هو أول من أطلق فلك القرب على مفق العاصمة . بقى بعد ذلك الرأيان الآخران المتساويان إلى السلطان محمد الثاني ، وإلى السلطان سليمان المشرع . ولرأى الأدنى إلى الحقيقة منهما هو أن السلطان محمد الثاني هو الذى استحدث لقب شيخ الإسلام في تاريخ الدولة العثمانية ، فإنه بعد أن فتح هذا السلطان القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وبعد أن نقل عاصمة دولته إليها ، وبعد أن حول كاتدرائية القديسة صوفيا في القسطنطينية إلى مسجد ، وبعد أن أطلق على العاصمة الجديدة اسماً إسلامياً عالياً هو إستنبول أى دار الإسلام ، يقول إنه بعد أن أتم هذه الإنجازات أطلق لقب شيخ الإسلام على الحق في دار الإسلام متمشياً مع الجو الدينى والسياسى السابق للدولة وهي تعيش أجل أيامها وفي قمة أفراسها بفتح القسطنطينية وسقوط الدولة البيزنطية . أما القول بأن هذا السلطان قد أطلق لقب « رئيس العلماء » على الحق فهو من قبيل الزيد ، لأن شيخ الإسلام بحكم منصبه هو أكبر شخصية دينية إسلامية في الدولة العثمانية ، لذا أضيف إلى منصبه ذى الاختصاصات العلمية المشتملة على اتصال بعضها بالسياسة العليا للدولة — هذا القرب الجديد الذى حصل عليه وهو شيخ الإسلام فإنه يعتبر رئيساً للعلماء ، ويشملون القضاة ورجال الإنشاء وأساقفة الشريعة وأصول الدين ومن إليهم من أصحاب المناصب الرفيعة وغيرها في الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فهو يجتهد على بكرة أبيهم جيداً . أما السلطان سليمان المشرع فقد ازداد على عهده مركز شيخ الإسلام تألقاً (١) ، ولرضع مكاناً علياً حتى غدا من الناحية الافتراضية أو التقديرية نداً للصدر الأعظم (٢) . وكان الجانب

ب - القرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٤ ، حالية رقم ١ .

(١) دائرة للمعارف الإسلامية ، عامة شيخ الإسلام .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit. vol. I, Part (٢)

II, p. 86.

الحضارى المصعد الألوان والصور من أبرز الجوانب فى شخصية السلطان سليمان إلى جانب الإنجازات الحربية التى تمت إبان حكمه الطويل والذي استطال زهاء ستة وأربعين عاما . وستظل التشريعات التى تم وضعها من مفاخر حكمه ومن مفاخر الدولة فى تاريخها الحضارى . ومن هنا كان دور شيخ الإسلام على عهد سليمان دوراً بناءً خلافاً . وملاحظ أن الفترة التى حكم فيها كل من السلطان محمد الثانى والسلطان سليمان المشرع بنوع خاص قد شهدت نشاطاً ملحوظاً وغير عادى فى وضع التشريعات السبائية . وكان يطلق على هذه التشريعات التى تصدر فى حكم كل سلطان قانون نامه . وكان لشيخ الإسلام دور رئيسى فى وضع وصياغة هذه التشريعات ، يدل على ذلك أن جزءاً كبيراً منها كان عبارة عن مجموعات ظاوى فى صورة أسئلة وجهتها السلطات الحاكمة فى الدولة وإجابات شيخ الإسلام عليها . ومن المحتمل أن يكون القيس الذى حدث فى تجديد اسم السلطان الذى أمر بتغيير لقب مفتى إستانبول إلى شيخ الإسلام إنما مرده إلى الأضواء التى سلطت على شيخ الإسلام إبان حكم السلطان سليمان المشرع وكثرة ما كتب عن إنجازاته التشريعية مما جعل البعض يمتنعون أن سليماناً هو الذى أطلق اللقب على مفتى العاصمة ، مع أن جميع القرائن تدل على أن السلطان محمد الثانى هو الذى أحدث هذا التغيير بعد أن فتح القسطنطينية وأطلق عليها إستانبول أى دار الإسلام .

وملاحظ أن فريقاً من الباحثين ، وبعضهم من الأوروبيين والأمريكيين لا يلتزمون بالفاصل التاريخى الخاص بهذا اللقب بين المفتى وشيخ الإسلام ، ويخلطون بين اللقبين ، فيلتكرون فى بحثهم كلمة المفتى فى الوقت الذى غلب عليه لقبه الرسمى شيخ الإسلام . وكان يحدث هذا الخلط عادة عند كلامهم عن التناوى الذى كان يستصدها السلاطين من شيخ الإسلام ، فكانوا يربطون بين كلمتى المفتى والتناوى لتشابه كل منهما لغوياً ولفظياً .

مبيان لإطلاق لقب شيخ الإسلام على الحق :

تبقى مسألة لها أهميتها لأنها تتصل اتصالاً وثيقاً ومباشراً بموضوع لقب شيخ الإسلام ، وهي خاصة بمعرفة الأسباب التي حلت الدولة العثمانية على أحداث هذا التغيير . لقد قبلت في هذا الفصل عدة أسباب . كان أولاً رغبة الدولة في إضفاء مزيد من الأهمية والتبجيل على مفتي العاصمة في مواجهة رؤساء الطوائف الدينية غير الإسلامية ، تذكر منهم على سبيل المثال البطريرك اليوناني والبطريرك الأرمني وحكام اليهود . كان شيخ الإسلام وهؤلاء الرؤساء يشارون اختصاصاتهم الدينية من مدينة واحدة هي إستانبول . وكان السلاطين يوجه عام حريصين على احترام مشاعر رعايا الدولة غير المسلمين . ولم تكن تمر ثلاثة أيام على فتح القسطنطينية حتى أمر السلطان محمد الفاتح باتخاذ الإجراءات الضرورية لانتخاب بطريرك للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية يحتل كرمى البطريركية الشاغر . وأمر أيضاً بأن تتبع في إجراءات تفصيبه نفس المراسم التي كانت تتبع أيام أباطرة الدولة البيزنطية في هذه المناسبة مع تعديل طفيف هو استبعاد الإجراءات التي تتعارض مع العقيدة الإسلامية . وأعلم له السلطان مأدبة فخمة والتي كلمة أكد فيها أن البطريرك سيستمع بكافة الحقوق والامتيازات التي كان يمارسها أسلافه . وسار البطريرك في موكب رائع محتفياً صهوة أحد خيول السلطان المظهمة يحيط به كبار الموظفين العثمانيين حتى بلغ دار البطريركية .

ومضى السلطان محمد الثاني في سياسة التسامح الديني ، فاستدعى إلى إستانبول أسقف بروسة الأرمني . وأقامه بطريركاً للأرمن ، ومنحه نفس الحقوق والاختصاصات التي خولها البطريرك اليوناني ، كما أذن هذا السلطان لليهود في الإقامة في إستانبول وعين حاكماً لهم أطلق عليه «حاكم ياشي» ومنحه مناصب على رعايا للدولة اليهود مماثلة للمناصب الممنوحة لكل من البطريرك اليوناني والبطريرك الأرمني .

لذا كان السلطان محمد الثاني قد أبقى بعد فتح القسطنطينية على التنازع

الديني لرؤساء الطوائف غير الإسلامية وعلى المظاهر التي كانت تحيط بهم من عيّن وهمال لدخل التعلق المنهجي ، فكان من الطبيعي أن يحرص هذا السطاد في ذات الوقت على ألا تكون شخصية المهي في العاصمة ، وهو كبير موظف ديني مسلم في الدولة ، بأقل في مظهرها ومخبرها ، وفي ظاهرها وباطنها ، من شخصية أولئك الرؤساء جميعاً وبخاصة شخصية بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية للشرقية اليونانية . وكانت هذه الكنيسة برياستها وأبائها الكثي في العدد مركز قوة في الدولة ، ولكنها كانت تحت أعين رجال الحكومة ما بقيت الدولة الهائية قوية ، وفي استطاعتها حتى أية ثورة أو حركة تمرد قد يفكر أتباع هذه الكنيسة في القيام بها . ولاتسى أن الدولة الهائية كانت دولة تيوقراطية *un état théocratique* أي دينية ، فجاءت سياستها وتشريعاتها ومعظم تصرفاتها تتم بالطبع الديني الإسلامي الذي كان من أبرز خصائص هذه الدولة . وقد سبق أن تعرضنا في شيء من التفصيل لهذه الخصصية في هذه الدراسة (١) . فاضفاء لقب شيخ الإسلام على مفق العاصمة كان في لحمة وساء متمباً مع السياسة العليا للدولة وتطبيقاً عملياً لتلك الخصصية الدينية القوية من خصائص الدولة .

أما السبب الثاني الذي حمل الدولة على تغيير لقب المهي إلى شيخ الإسلام فيرجع إلى رغبتها في إيجاد نوع من التوازن بين الوظائف القيادية في تلكا الهيئين الحاكتين الرئيسيين في الدولة وهما طبقة القولا الحاكمة والمهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فإذا كان الصبر الأعظم باختصاصاته الملمدة وسلطاته الواسعة يعد أكبر موظف في طبقة القولا الحاكمة ، فقد رأت الدولة أن تطلق على شخصية دينية إسلامية لقباً دينياً وأدياً يجعل هذه للشخصية تدأ الصبر الأعظم ، وأضمت عليه الكثير من الاميازات سواء في حياته الخاصة أو في حياته العامة ، وسواء في كثرة اختصاصاته وتعدد مهامه أو في عدد الإدارات الفنية التابعة لمكتبه ، وفي حشد كتيف البلد من القضاة ومن إليهم من كبار العلماء الذين كانوا يعملون في شتى الأجهزة التابعة له .

ويلاحظ أنه لم يكن عضواً في الديوان الإمبراطوري الذي يرأسه الصدر الأعظم . والحكمة في عدم تقرير عضويته في هذا الديوان ترجع إلى حرص الدولة على ألا يكون شيخ الإسلام ، وهو أكبر شخصية دينية إسلامية في الدولة كما ذكرنا ، مرسواً للصدر الأعظم الذي ينتمي إلى طبقة القولا ر الحاكمة . واكتفت الدولة بأن تكون للميج الدينية الإسلامية الحاكمة ممثلة في الديوان بعناصر أخرى من هذه الهيئة أقل درجة من شيخ الإسلام .

ويرى البعض أن السلطان محمد الثاني كان متأثراً بوجود الخلفاء الباسيين في القاهرة بحوار سلاطين دولتي الماليك البحرية والشراسة منذ أن نجح الظاهر بيبرس في إسعاد الخلافة الصليبية وجعل عقرها القاهرة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وكان هؤلاء السلاطين يستولون إلى الخلفاء في تأييد سلطتهم . لهذا السلطان محمد الثاني حطوا بمائلا إلى حد ما ، ومن ثم حل حل أن تكون بجانبه شخصية دينية إسلامية تحمل لقباً دينياً براقا له وزنه وتقديره في نظر الجماهير . ويستطيع أن يستند إلى شيخ الإسلام في دعم مركزه وتثبيت عرشه وتأييد تصرفاته السياسية والحربية والمالية وغيرها . ومن المتصور — إن لم يكن في حكم الاستحالة — الأخذ بهذا التفسير لعدة أسباب ، نذكر منها :

أولاً : إن العرش في دولة الماليك الشراكية لم يكن وراثياً في معظم الأحوال . وإنما كان يتربع عليه الأمير الأعز نقراً والأكثر أنصاراً والأوفر ثراء ، وعلى ما كان يتصف به من صفات المكر والخديعة والنفور والتملق والمقدرة على تدبير المؤامرات إلى جانب الكفاية الحربية والمهارة الدبلوماسية . فظل عرش تلك الدولة متشاعاً بين القادرين من أمراء الماليك (١) ، بينما كان عرش الدولة النائية وراثياً ، كان يتقلده أفراد أسرة واحدة عبر الأجيال

(١) كان مبدأ وراثة العرش عموماً في حالات كثيرة أيام دولة الماليك البحرية ولا سيما في أسرة تيمورلنك .

انظر :

دكتور إبراهيم علي طرمان : مصر في عصر دولة الماليك الشراكية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٠-١١٠ .

والأدهار . ولم يكن يشترط فيمن يتولاه سوى شرط واحد هو أن يكون من أصلاب الأسرة ، أى من أولاد الذكور ولا يكون من أولاد البنات . فاللولة العثمانية كانت تتميز - فيما كانت تتميز به - بالاستقرار : فلا يجرى غريب أو طارىء أو من كان فى مرتع شبابه عبداً مملوكاً ثم يتولى العرش .

ثانياً : كان السلطان محمد الثانى يعلم علماً يقينياً الحقائق المتصلة بالخلافة العباسية فى القاهرة ، ومن بينها أنها كانت خلافة صورية تتمثل فى أن يصدر الخليفة تقريراً يسمى « التتليد » لكل سلطان مملوكى يتربع على عرش دولة المماليك حتى يكون لهذا السلطان حق شرعى فى الحكم شعوراً من سلاطين دولى المماليك - البحرية والشرابية - يخرج مركزهم لأصلهم غير الحر ، ولأنهم اختصوا السلطة فى مصر اختصاصاً مزرعياً من حكائما السابقين ، فأرادوا أن يفتنوا على حكمهم شرعية وعلى أنفسهم مهابة وعلى مركزهم دعامة يستندون بها عرشهم . وإذا كان اسم الخليفة يذكر قبل اسم السلطان فى خطبة صلاة الجمعة والعيدين ، فقد كان هذا الميثاق أيضاً مسألة شكلية ، لأن الخليفة كان محجوراً عليه . ولم يكن يقاوم دأبه فى أوقات السلم إلا مرة واحدة فى أول كل شهر هجرى وفى أول يوم من أيام العيدين إلى المقعة لتهنئة السلطان . فكان عدد المرات التى يخرج فيها من دائرة ثلاث عشرة مرة فى السنة (١) ، ولم يكن فى مكتبة أى شخص أن يتصل بالخليفة إلا بإذن من السلطان (٢) . أما فى زمن الحرب فكان الخليفة يصحب الجيش من قبيل التبرك . وبذلك تلاشت شخصية الخليفة أمام السلطان المملوكى موثق السلطة الفعلية فى الدولة (٣) . وعلى حد قول القرىزى كانت الخلافة العباسية

(١) من المروءة أن مرة شهر دولة هو أول أيام عيد الفطر فكان يؤذن للخليفة ويخرج فى هذا اليوم الذى تجتمع فيه ثلاث المناسبات لتهنئة السلطان ، وبذلك يصبح عدد المرات ثلاث عشرة مرة .

(٢) ذكر سيد عبد الفتاح حلقور : السمر للمماليكى الخ ، مرجع سبق ذكره .

ص ٢٤٧-٢٤٨

(٣) حدث استثناء لهذا المبدأ العام الذى ألزم به السلاطين المماليك تجاه الخلفاء العباسيين . قبل عهد دولة للمماليك الشراكسة تنقل على العرش أميراً ، هما : توروز ، وقنق . ورأى الأثير .

في القاهرة « ليس لها أمر ولا نهى » ، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين (١) . فلم يكن من المقول أن يستهوى السلطان محمد الثاني مثل هذا المركز الهابط الذي كان يشغله الخليفة العباسي في القاهرة ، فيعمل على إنشاء منصب ديني مقارب له في إستانبول . وقد ذكرنا من قبل أن السلاطين العثمانيين قد احتسوا باصافة لقب « حامي الحرمين الشريفين » إلى ألقابهم الطويلة عقب دخول الحجاز تحت سيادة العثمانية . ولكنهم لم يتخذوا وقتذاك لقب خليفة ، لأنهم كانوا يدركون أن هذا اللقب قد هوى بصاحبه في القاهرة إلى الخديض . ولكنهم يشار لقب خليفة في القرن الثامن عشر لأسباب سياسية . أما ما ذكره بعض المؤرخين من أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يتسبون تنويهاً من الخليفة العباسي في القاهرة عند اعتلائهم العرش (٢) ، فأمر مشكوك فيه ، لأن الاستعلاء الذي كان من أبرز صفات السلاطين العثمانيين كان بمنهم من أن يستمدوا سلطانهم من قوة خارجية يطعنون بجيلاً يبلغ هوانها في نظر السلاطين الممالك والشعوب الإسلامية في مصر والشام وغيرها . فالناس التقيض كان أمراً يتناقى مع طبائع السلاطين العثمانيين ومع أخلاقهم .

باب مشيخت ، شيخ الإسلام للإمام :

كان يطلق أحياناً على منصب شيخ الإسلام والمكاتب والأجهزة الملحقة به « باب مشيخت » أي باب المشيخة ، كما كان يطلق أحياناً أخرى مصطلح

« شيخ في مجلس القضاء على منصفه أن يقع مؤلفا الكلية العباسي ، المسلمين ، حل العرش (سنة ٨١٥ هـ ١٤١٢ م) . ولا تنجلي للموقف استطاع الأمير شيخ عزل الخليفة من العرش بعد أقل من سنة شهور بتس السيرة التي وضعه عليه ، ثم حوذه من خلافة أيضاً وسجته في القلعة .

انظر :

دكتور إبراهيم علي طريغاف : مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٣-٦٤ .

(١) المقترن : الموطأ والاحتياط وذكر الخط والأكثر . الكلية الإدارية . أربعة أجزاء القاهرة ١٩٠٧ ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ .

(٢) السيوطي جلال الدين : سنن المفسرة في أخبار مصر والقاهرة القاهرة ١٣٢٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

كثير هو « شيخ الإسلام قايىس » لى باب شيخ الإسلام (١) ، تأسيساً على أن لفظة « باب » جرى العرف على إطلاقها على قصر أو مفرأى حاكم أو بلاطه أو حكومته .

ولما قضى السلطان عمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) على نظام الإنكشارية سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) خصص الدار التى كان يشغلها قائد فيالق الإنكشارية لى إستانبول لشيخ الإسلام ، فأصبحت مقرآله يمارس فيها اختصاصاته . وكانت هذه الدار تقع على مقربة من مسجد السليمانية .

باب فتوى ، فتوى عتاه :

أنشأ السلطان سليمان المشرع مكتباً فنياً ألحقه بشيخ الإسلام وأطلق عليه المصطلح التتوى « باب فتوى » أو « فتوى عتاه » بمعنى دار الإفتاء . وكان يعمل بها جماعة من كبار العلماء يبحثون بصفة تمهيلية المسائل الشرعية التى يطلب إلى شيخ الإسلام إصدار فتوى بشأنها . وكان يرأس دار الإفتاء أحد كبار العلماء المرموقين ويطلق عليه « فتوى أمين » أى أمين الإفتاء أو أمين الفتوى (٢) .

وإذا أرادت الحكومة المركزية الوقوف على رأى شيخ الإسلام فى مسألة معينة ، وطلبت منه إصدار فتوى بشأنها ، كان عليها أن تقبل بطلب رسمى إليه . ولكن كان يسبق تقديم هذا الطلب اتصالات غير رسمية بين الوزراء المختصين من ناحية ، وبين أمين الإفتاء من ناحية أخرى ، فيبحثها بصفة تمهيدية أو يجدها إلى أحد معاونيه فى « الفتوى عتاه » .

التلخيصى :

وقد استحدثت كثرة عدد الفتوى التى كانت تطلب من شيخ الإسلام تعيين موظف كان يسمى « تلخيصى » -- وهذا المصطلح مأخوذ من

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة : باب مفتى .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold op. cit., vol. I, Part II, p. 86.

الهيئة العربية تختص والاسم منها - تلتخص - فيقوم بإعداد موجز العناصر التي تتألف منها المسألة المراد استصدار فتوى بشأنها^(١). وكان من بين موظفي مكتب شيخ الإسلام موظف يختص بإدارة المؤسسات الخيرية التي كان يهتد إليه بالإشراف عليها ، وكان هذا الموظف يسمى « كخيا » . ومن اختصاصه أيضاً الإشراف على الشؤون الخاصة بشيخ الإسلام ، فكان يساعد في هذا الصدد ، شأنه شأن باشوات الدولة . وكان هؤلاء الموظفون المحققون بمكتب شيخ الإسلام ، والذين يعتبرون مساعدين له يدخلون من رجال القضاء من فئة « مولا » أو من رجال الإفتاء .

مقارنة بين مركز كل من الصدر الأعظم وشيخ الإسلام :

كان الصدر الأعظم وشيخ الإسلام هما الموظفان الوحيدان في الدولة اللذين يتسلطان فرمان تعيين كل منها في منصب من يد السلطان . وكان من التقاليد المتبعة في الاحتفالات الرسمية ألا يتقدم أحدهما على الآخر ، بل كانا يسيران جنباً إلى جنب ، وإن قام أحدهما بزيارة رسمية للآخر ، تتبع في استقباله وتوديعه مراسم الشكر والتشريف التي تتبع في استقبال وتوديع الآخر . فكان كل منها يعتبر نائياً للآخر ، كما سبق أن ذكرنا .

وإذا كان الصدر الأعظم يتمتع بسلطات أكثر ، فإن شيخ الإسلام كان يظفر بتقدير أكبر . وكان من أسباب هذا التمييز العميق أن شيخ الإسلام كان يمارس سلطاته في مجالات دينية لها وزنها وتقديرها في نظر الجميع ، فضلاً عن اختصاصات لا تسمو إليها اختصاصات الصدر الأعظم وتتصل اتصالاً مباشراً بالرياسة العليا للدولة ، فله وحده ودون سواه ، الحق في إصدار فتاوى تميز الحرب التي تخوضها الدولة ، أو فتاوى

(١) يلاحظ أنه كان بين حاشية الصدر الأعظم سلكان يمثل كل منهما نفس اللقب وهو « تلتخصي » ، يقران بسلطان وليس أكسيان المردوهر أما القبايل المسماة قبائل أغاس - للأكراوات التي كان الصدر الأعظم يرسلها إلى السلطان وكان رئيس أكسيان قسود ، في معظم الأوقات . هو الوحيد الذي يمكنه أن يرفع هذه للأكراوات إلى السلطان .

بقرار الصلح ، أو إبرام المعاهدات ، أو عزل السلطان الحاكم . كما لم يكن لشيخ الإسلام شأن مباشر بالخدمة اللخنية أو الخدمة الخارجية للسلطان . واعتاد السلطان أبو يزيد الثاني (١٤٨٩ - ١٥١٢) أن يقف لاستقبال شيخ الإسلام ويمتعه مقعداً أعلى من مقعده (١) .

وكان على الصدر الأعظم أن يكون على اتصال مستمر بشيخ الإسلام لبحث المسائل الخاصة بشئون الدولة والتي تتطلب أخذ رأيه فيها من حيث مطابقتها لمبادئ الشريعة الإسلامية . ولذلك كان الصدر الأعظم هو الذي يقوم بزيارات عديدة لشيخ الإسلام في مقر منصبه على فترات متقاربة . وكانت هذه الزيارات لكثرتها تم في بعض الأحيان بطريقة غير رسمية لتجنب إقامة المراسم التي تتبع عند زيارته لشيخ الإسلام .

مركز شيخ الإسلام في البروتوكول العثماني :

حدد السلطان سليمان المشرع تحليلاً نهائياً وقاطعاً المركز الوظيفي والقانوني لشيخ الإسلام ، فجعله رئيس هيئة العلماء وأكبر شخصية عامة في الهيئة الإسلامية . كما أضفى على شاغل هذا المنصب الكثير من مظاهر التكريم والنفوذ . كان شيخ الإسلام يتقدم على جميع موظفي الدولة . ثم خلا يتمتع في البروتوكول العثماني بمركز يمتاز عن مركز الصدر الأعظم أي رئيس الوزراء وعن الوزراء . فعند ذهاب شيخ الإسلام لمقابلة السلطان كان ينفذ هذا لاستقباله متصفاً مسيح خطوات ، بينما لم يكن السلطان يتقدم لاستقبال الوزراء أكثر من ثلاث خطوات . وكان يسمح لشيخ الإسلام بتقبيل كنف السلطان ، بينما كان لايسمح للصدر الأعظم إلا بلثم ذيل ثوبه (٢) .

وقد قيل في مستهل حكم السلطان سليمان المشرع إن الشعب كان يظهر لشيخ الإسلام احتراماً لم يظهره قط لرسل آخر في الدولة . وقد ينشعب تقديره العميق له تأسيساً على أنه يمثل الإسلام والشريعة الإسلامية وأنه

Lybyee A.H. ; op. cit. p. 209.

(١)

(٢) محمد جميل بيم : العرب والترك العثمانيون ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٤ - ١٢٥

المصر لها . وكان السلطان لا يستطيع المساس بها من قريب أو من بعيد ،
ولإلا تعرض لقتل وقتل ، فالشرعية فوق السلطان نفسه . وكان السلطان
هو الذى يتولى اختيار شيخ الإسلام ، ويصدر فرماناً أى مرسوماً سلطانياً
ب تعيينه فى هذا المنصب . وكان السلطان يختاره أول الأمر من بين المفتين
الذين يعملون فى أنحاء الدولة . ولما تغير لقب مفتى إستانبول إلى شيخ
الإسلام كان السلطان يختاره من بين كبار رجال القضاء .

وكانت للدولة تخصص أحد كبار ضباط القصر السلطانى لمساعدة شيخ
الإسلام فى ارتداء ملابس التشريف . ويطلق على هذا الضابط اسم « الخاص
أوله باشى » وكان فى أول الأمر وعلى عهد سلاطين الفترة الأولى رجلاً
كامل الرجولة ، ثم رأت الدولة - بعد انتهاء حكم السلطان سليمان المشرع -
أن يكون هذا الضابط خصياً ومن طائفة الخصيان البيض (١) .

فتاوى تجيز تنازل الدولة عن أقاليم خيالة :

ومن الأمثلة على الفتاوى التى كان يصدرها شيخ الإسلام تجيز فيها
للولة أن تنازل عن بعض أقاليم خاضعة لها ، نذكر الفتوى التى صدرت عنه
فى سنة ١٨٢٩ . كانت الدولة قد اضطرت إلى قبول الصلح عقب الحرب
الخاسرة التى خاضتها ضد روسيا فى أبريل - نيسان - سنة ١٨٢٨ ، وعقدت
معاهدة أدرنة فى سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٢٩ ، واعترفت الدولة فى هذه
المعاهدة باستقلال اليونان استقلالاً داخلياً ، وباستقلال ولايتى الأفلاق
والبلقان (رومانيا حالياً) فى إدارتها تحت حماية روسيا . ورأى السلطان
محمود الثانى أن يتجه إلى شيخ الإسلام ، وحصل منه على فتوى تجيز هذا التصرف .
وبناء على هذه الفتوى أصدر السلطان تصديقاً Ratification على معاهدة أدرنة .

فتوى توجب معارضة محمد على وفتوى تجيز الظور عنه :

وعند ما انطلقت حرب الشام الأولى سنة ١٨٣١ بين السلطان محمود
الثانى ومحمد على والى مصر استصدر السلطان من شيخ الإسلام فتوى تجيز

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part I, (١)
pp. 332-333.

له عارية محمد علي . ولما توقفت العمليات الحربية وأبرمت اتفاقية كوتاهية في اليوم السادس من شهر مايو - آيار - سنة ١٨٣٣ استصدر ذلك السلطان من شيخ الإسلام فتوى أخرى تميز السلطان عن عارية محمد علي . وتذكر النص الحرق للطر الأول من الفتوى ، وهو في صورة سؤال موجه إلى شيخ الإسلام : إذا كانت طائفة من المسلمين جمعت المساكن وهجمت على طائفة أخرى أيضاً من المسلمين . ولكنها - بعد ذلك - عرضت الطاعة إلى إمام المسلمين وخليفة الأرضين ، ناله الله ملكة إلى يوم الدين ، ورجعت عن تمسكها ، هل يكون من المشروع أن تقبل طاعتها ، وتترك قتالها ؟ (١) . وصدرت الفتوى بقرآن أن قبول طاعتهم والكف عن قتالهم أمر مشروع .

فتاوى عزل السلاطين :

كان أقوى مظهر يوضح مدى سلطة وتفوذ شيخ الإسلام أنه كان له وحده ودون سواه الحق في إصدار فتوى بعزل السلطان القائم بالحكم تأسيساً على أنه انحرف عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية تطبيقاً سليماً ، أو استناداً إلى أنه مصاب بمرض عقلي لا يرجى شفاؤه ، أو غير ذلك من ذرائع أو أسباب . وكانت فتاوى العزل تختلف اختلافاً جليلاً عن الفتاوى التي تتناول مسائل السياسة أو الحرب ، فينبغي الفتاوى الأخيرة يستصدرها السلطان القائم بالحكم لأنه صاحب المصلحة الأولى في صدورهما ، كانت فتاوى العزل تستصدرها إحدى جهتين : أحد المتنافسين للسلطان على العرش من أخصاء الأسرة السلطانية ، أو من العسكريين أو من أحد مراكز القوى السياسية في الدولة . كما كان هناك فارق جوهري آخر هو أن فتاوى العزل لا تنهى بعزل السلطان الحاكم ، ولكن كان لها نتائج أخرى ترتب عليها ، هي قتل السلطان المزعول أو اعتقاله في أحد القصور مع حريمه وقبيل كل صلة بينه وبين العالم الخارجي بحيث يصبح السلطان مع أسرته من أموات الأحياء حتى يترك الموت السلطان المزعول ويتفرق ذروته .

(١) ملحق الحصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٤ .

وستمر مروراً سريعاً على أربع فتوى صدرت في أوقات مختلفة، وشرح الملابس التي أحاطت بصلور كل فتوى. كانت الفتوى الأولى قد صدرت بإزالة السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) لأنه أعاذ تنظيم الجيش وفق الأساليب الأوروبية ، عصرت الفتوى تحول : إن كل سلطان يدخل أنظمة القرنبة وعوالمهم ويعبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملكة . وتم حله وقته (١) على يد الإنكشارية الذين وقفوا بدافع المصلحة الشخصية في وجه كل محاولة لإصلاح الجيش وتطوير نظامه وأسلحته . وصدرت الفتوى الثانية في ٢٩ من مايو - أيار - ١٨٧٦ بموجب عزل السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) تأسيساً على إسرافه والتجاهل إلى عقد قروض أجنبية من البيوت المالية في باريس ولندن ، وصحزه عن نصريف شؤون الدولة . وأيد العسكريون هذه الفتوى وطالبوا بتفويضها . وكان أن عزل السلطان عبد العزيز رسمياً في اليوم التالي لصدورها (٢)، وعن مكانه ابن أخيه مراد باسم السلطان مراد الخامس . ولم يكن هذا السلطان أوفر حظاً من سابقه . فقد صحت حزمة من ملاحظات بالاشا وزملائه على عزله ، واستصعدوا فتوى من شيخ الإسلام توجب إقصاءه من الحكم . ولم يدموا سبباً يستندون إليه في استصدار الفتوى . وكان هذا السبب هو اختلال قواه العقلية. وتدل الملابس السياسية التي أحاطت برجال الحكم في ذلك الوقت على أن هذا السبب كان مخفياً . وتم عزل السلطان المنصور بعد حكم قصير لم يتجاوز ثلاثة أشهر وثلاثة أيام (٣). وعن أخوه الأصغر عبد الحميد في ٣١ من أغسطس -

(١) محمد جميل بيم : العرب والترك في الصراع الفخ : مرجع سبق ذكره ص ١٢٧

(٢) ولم تفر أيام ذات حد حل عزل السلطان عبد العزيز حتى قضى نحبه . وانطقت الآراء

حول وفاته ، لن قائل إنه مات متصراً ، ومن قائل إنه قتل غيلة . ويقول مير Miller المؤرخ الإنجليزي إنه تمتعت مع الطبيب ديكسون Dickson وهو الذي فحص جثمان السلطان ، ولم يتأكد أن السلطان عبد العزيز مات متصراً بعد أن قطع شرايينه بقمص . ومع ذلك فبعد خمس سنوات من وفاته وجهت التهمة إليه منحت بئنا وبعض وثائق بقتل هذا السلطان ، ولقدوا محاكمة صورية وأدينوا وأُعدموا . انظر :

Miller W. : op. cit. p. 368

(٣) صدرت إرادة السلطان مراد الخامس في أحد التصورات الموقعة على التوسيط وظل محتلاً

إليه زهاء ثمة وعشرين عاماً حتى جاز إلى دية سنة ١٩٠٤ وظلت زوجاته محتلات في هذا القصر حتى قام انقلاب سنة ١٩٠٨ فملك رجال الحكم الجديدة لحرمة بمنادوا بالتصريح بعد إقامة جبراً في المصالحات أكثر من ثلاثين عاماً .

آب - سنة ١٨٧٦، واتخذ لنفسه اسم عبد الحميد الثاني . ويقال إن نامق كمال - وهو من أبرز زعماء رجال تركيا الفتاة - توسل إلى ملحت باشا والتموع تفرق في صفيه كي يؤجل عزل مراد . ولكن أصر ملحت باشا على رأيه . وصارع السلطان الجديد عبد الحميد الثاني بتعيين ملحت باشا صديقاً عظيماً . وقد عُذر للسلطان عبد الحميد أن يستوى على عرش الدولة العثمانية فترة حاربت أربعة وثلاثين عاماً تراحت خلالها الأحداث الجسام على الدولة ، ثم يعزل عن العرش في سنة ١٩٠٩ بناء على فتوى أصولها شيخ الإسلام نزولاً على رغبة العسكريين ، وجاء في الفتوى أن السلطان عبد الحميد يكتسب لانتظام المستورى في الدولة .

طرازان من شيوخ الإسلام :

وقد يبدو من هذه الفتاوى على اختلاف أنواعها والتي صدرت من شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية أنهم كانوا أداة طيعة لينة في يد السلطان الحاكم أو في أيدي أصحاب مراكز القوى في الدولة يطلبون من شيخ الإسلام إصدار فتوى لتبرير أو لتضيق إجراء معين . وكان شيخ الإسلام يصدر بما يضر به . ونحن لا نذكر أن بعضهم كان من هذا الطراز من الرجال ، ولكن من ناحية أخرى كان بعض شيوخ الإسلام قوى شخصية قوية ، جاهروا السلاطين برأيهم في تصرفاتهم . ولم تصدر عنهم فتاوى إلا ما كان منها متمشياً مع مبادئ الشريعة الإسلامية . ونعرض في هذه الدراسة مثالا لهذا الطراز من شيوخ الإسلام .

شيخ الإسلام يتحدى السلطان :

كان عدد من رعايا الدولة في الأناضول يواجه نهجهم قد اعتنقوا في أوائل القرن السادس عشر المذهب الشيعي الذي تسال إلى أراضي الدولة العثمانية من الدولة الصفوية في فارس . وكان هذا المذهب خطيئاً من مبادئ الشيعة ومبادئ أخرى فوضوية يقول عنها أصحابها إنها تحريرية . وأطلق على هذا المذهب قول باشا أي الرأس الأحمر . ونجح السلطان سليم الأول في أن يحصل

من شيخ الإسلام على فتوى توجب قتل معتنى هذا الملعب. وتمت منابع عامة قتل فيها معظمهم، وبذلك تخلص سليم منهم. وانضمت إلى الدولة الصفوية في فارس واستصدر من شيخ الإسلام فتوى توجب قتل هذه الدولة، ومن ثم زحف عليها بقوات جبرارة وغاض حروباً خاطفة وأحرز انتصارات كبيرة، ودخل تبريز عاصمة الدولة الصفوية. ولكنه لم ينجح في سحق الشيعة صفياً كلياً، وحاد إلى إستانبول. وفي أثناء هذه العمليات صبرت عن الرعايا المسيحيين في الدولة تصرفات مريرة جعلت السلطان يترجس منهم خيفة. ورأى أنهم يشكلون تجمعات بشرة كثيفة داخل الدولة، وقد ينتهزون فرصة انشغال الحكومة في حرب ويكون الجيش العثماني منصرفاً إلى العمليات الحربية فيقومون بحركة تهدد الدولة تهديداً خطيراً في مثل هذا الوقت الحسب. وانتهى تفكيره إلى ضرورة تسوية هذه المشكلة، فيعرض على رعاياه المسيحيين أحد أمرين لا ثالث لهما، وهما: إما اعتناق الإسلام وإما القتل. ويقول أحد المؤرخين الأجانب إن السلطان سليم في اتخاذ هذا القرار كان متأثراً بالذبايح الدينية التي أقدمت عليها السلطات الإسبانية حين رفض مسلمو الأندلس اعتناق الدين المسيحي^(١). فلم يكن هذا القرار هو الأول من نوعه، بل كان له نظير في الطرف الغربي من أوروبا وفي ذات الوقت تقريباً.

عرض السلطان سليم الأول هذه المسألة بصورة مخنفة على الشيخ بحالي شيخ الإسلام، وطلب منه إصدار فتوى توجب إكراه رعايا الدولة المسيحيين على اعتناق الإسلام وقتل من يرفض منهم هذا الأمر. وصدرت الفتوى على النحو الذي كان السلطان ينتهيه، ثم امتحان لشيخ الإسلام أن السلطان سليم قد عرض عليه الموضوع عرضاً غير سليم، وأنه أخفى بعض عناصر الموضوع عنه، وبعبارة أخرى أدرك شيخ الإسلام أن السلطان قد خلعه. فما كان منه إلا أن أصدر فتوى لاحقة سحب فيها الفتوى السابق إصدارها بخصوص هذا الموضوع. وقرر في الفتوى الجديدة أن الشريعة الإسلامية تسمح للمسيحيين وغيرهم من أهل الكتاب الذين يحضرون للحكم الإسلامي

بالبقاء على دينهم طالما كانوا يلحقون جزية الرأس كبلد تقضى بعضهم من التجيد وبأن يارسوا على حريتهم شعائرهم الدينية ، وأن تتكفل الدولة بالمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم وطالما كان ملوكهم المماليك لا تشوبه شائبة ، وولائهم للدولة ملحوظاً ونصرفاتهم سليمة . وقد أبلغت عند القنوى إلى البطريرك اليوناني في إستانبول بصدته رئيس أكبر مكة غير إسلامية في الدولة . واحتر البطريرك هذه القنوى مثاقلاً أو مستنداً يلدأ عن رعايا الدولة خير المسلمين أى اضطهاد ديني قد يتعرضون له . وقد أذعن السلطان سليم لرأى شيخ الإسلام الذى بعثته تلك القنوى .

ويقول المؤرخ الأمريكى ليبير ، تعليقاً على موقف كل من السلطان وشيخ الإسلام ، لو أن السلطان سليم قد نفذ قراره بأكراه جميع رعايا الدولة غير المسلمين على اعتناق الإسلام لنجم عن ذلك مزايا كبرى بالنسبة للدولة العثمانية . وكان من بينها زوال الكنائس المسيحية التى كانت قائمة في أرجاء الدولة . وكانت تشكل مجموعة من الهياكل الدينية القوية والمناسبة للهياكل الإسلامية . وكانت آمال الرعايا المسيحيين متعلقة بهذه المنشآت الدينية التى تتميز بالحياة . ومنها أيضاً أن الدولة كانت تتم بوحدة العقيدة الدينية بين رعاياها ، إذ يحدث في المدى البعيد اختلاط وتصاريف بين الرعايا المسلمين والرعايا المسيحيين الذين يتحولون إلى الإسلام . ولكن ما حدث كان عاكساً تماماً لهذه التوقعات ، لأن الإبقاء على رعايا الدولة المسيحيين محافظين على دينهم كان معناه في المجال السياسى الإبقاء على الروح القومية والروح الانفصالية لتلججان في صلور الرعايا المسيحيين . كما كانت هناك نتيجة أخرى لو أن السلطان سليم الأول قد نفذ قراره بأكراه جميع المسيحيين على اعتناق الإسلام ، فيقول إن وجه التاريخ في منطقة الشرق الأدنى كان يتغير تغييراً جذرياً . ويظهر هنا المؤرخ الأمريكى موقف شيخ الإسلام ، ويصف قراره بأنه قرار سليم يتمشى مع قواعد الشريعة الإسلامية ، وكانت لدى شيخ الإسلام الشجاعة الأدبية حين أصلو هذه القنوى بصفته حارساً للشريعة الإسلامية . ويختم ذلك المؤرخ تعليقه على هذه القنوى قائلاً إن الإسلام

الذى جاء به قبل أن يأتى السلطان سليم الأول إلى الحياة بشعة قرون قد
جسل قيام وحدة دينية من رعاية الدولة العثمانية أمراً مستحيلاً (١). ونرى أنه
استند إلى أن الإسلام بسماحته كان يجيز لأهل الكتاب الإبقاء على ديانتهم
بشرط أداء جزية الرأس . وقد قال الله تعالى : لا إكراه فى الدين .

أما رأينا فى هذه المسألة فقد سبق أن ذكرناه من قبل وفى أكثر من
مؤلف لنا ، وهو أن التاريخ لا يتحدث عن المستقبل ، والتاريخ ليس
رجماً بالغيب ، وهو لا يبنى أحكامه على احتمالات قد تحدث فى قابل الأيام
وقد لا تحدث . والتاريخ الموضوعى المحايد لا يفترض أحداثاً، ويتابع المؤرخ
تنفيذها فى عالم الخيال . ويرتب على هذه الأحداث المتخيلة والتفيل الخيالى
نتائج تتماشى مع عقيدته الدينية أو اتجاهه السياسى ، فيقف منها مكتئباً حزياً
أو مبتهجاً مبتهلاً حسب وجدانه الكيفى ونزعة القومية ونحره من التعصب
لهذه أو ذور تخرج بالمؤرخ عن اختصاصه وتطلق دراسته كباحث يتميز
بالموضوعية والحيدة ، ولحق أن رأى شيخ الإسلام الذى عبر عنه فى
الفتوى يعتبر تملياً للسلطان ، ورجوعاً إلى الحق ، وتمسكاً بعبادة الشريعة
الإسلامية ، ودليلاً على شجاعته الأدبية .

لمحة أوروبا إلى شيخ الإسلام فى إستانبول :

وقد طاب المراقبين السياسيين فى دول غرب أوروبا فى القرن السادس
عشر أن يقولوا عن شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية إنه يشبه «كاردينالاً
عظيماً جداً» . وقالوا عنه بعد ذلك إن مركزه يفوق مركز البابا فى روما (٢) .
ولحق أن هؤلاء المراقبين والمعلقين الأوروبيين قد ربطوا فى أذهانهم بين
مركز شيخ الإسلام فى إستانبول وبين المركز القسوى للإمبراطورية العثمانية
وهى تقف فى ذلك الوقت فى الصف الأول بين أكبر دول العالم مهيبة

Lybyer A. H., op. cit., pp. 210—212.

(١)

Lybyer A. H., op. cit., p. 209.

(٢)

الجانب مرفوعة الرأس ذات قنات مسلحة ضاربة رهية . وبصورة أخرى رأى أولئك المراقبون والمثقفون السياسيون المسيحيون في تحليلهم السياسى للمركز المرموق الذى سما إليه شيخ الإسلام فى إستانبول أنه لا يستمد هذا المركز السياسى من الشريعة الإسلامية التى كان يمثلها فحسب ، بل من مركز الدولة الميرادى والتقيادى سوله فى العالم الإسلامى أو فى الأسرة العلوية . ونظروا إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى ، وأنها تضم الأراضى المقدسة فى الحجاز ، وكذلك المسجد الأقصى فى القدس ، وأن ممتلكاتها الإقليمية امتدت فى ثلاث قارات . ومن ثم كانت نظرتهم إلى شيخ الإسلام فى إستانبول على أنه أكبر شخصية دينية إسلامية فى العالم . وعما ساعد على تأكيد هذه النظرة إلى شيخ الإسلام أن لقب خليفة لم يكن قد التصق بعد باسم سلطان الدولة العثمانية وسيحدث هذا الالتصاق فيما بعد فى خلال القرن الثامن عشر وما تلاه .

ومن خلال هذه النظرة ، ومن حيث الواقع التاريخى أيضاً ، وفى أثناء القرن السادس عشر بالذات ، كانت دولة المماليك الشراكسة فى مصر قد ذهبت إلى مقبب ، وضعت مصر استغلالها وخسرت زعامتها للعالم الإسلامى ، وهبطت من دولة كاملة للسيادة إلى ولاية عثمانية ، واحتجبت إلى حين مكانة الأزهر ومكانة علماءه ، وهذا الميلان أمام شيخ الإسلام العثمانى طبعاً رجبياً خالياً من المتطهين الأقوياء .

وزجع هنا إلى باحث إنجليزى أقام فى إستانبول فى القرن السابع عشر ، وامتدت إقامته منين حلدا ، وأصدر كتاباً تناول فيه بالشرح الأوضاع السائدة فى الإمبراطورية العثمانية (١). وقد ذكر فيه أنه استقى مادته العلمية من السجلات العثمانية المحفوظة لدى كبار الموظفين ، ومن أعضاء هيئة العلماء المسلمين ، ومن رجل من أصل يولتنلى أتت به ضريبة الخيلان إلى إستانبول وحاشى فى البلاط العثمانى تسع عشرة سنة . وقال كتاب هذا الباحث الإنجليزى شهرة علمية عريضة ، إذ كان مرجعاً للذين كتبوا فى تاريخ الدولة العثمانية منذ

(١) Ricaut, Sir Paul: The History of the Present State of the Ottoman Empire. 6 th edition London, 1696.

التون السابع عشر . وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات . وإلى سنة ١٦٨٦ كان الكتاب قد طبع ست طبعات باللغة الإنجليزية . وقد منحه الحكومة الإنجليزية لقب سِر Sir . أفرد هذا الباحث جزءاً كبيراً من كتابه للحديث عن شيخ الإسلام في الدولة العثمانية وعلو شأنه واتساع اختصاصاته وإهمام السلطان العثماني بإسترضائه وتنفيذ ما يشير به شيخ الإسلام على السلطان . فقال إن شيخ الإسلام كان هو الرئيس الفعلي للهيئة الإسلامية ، وهو المرجع الذي ترفع إليه كافة المسائل المختلف عليها من ناحية مدى مطابقتها لأحكام الشريعة الإسلامية ، وهو يتمتع باحترام وتقدير عميقين من لدن جميع العثمانيين . والسلطان دون سواء هو الذي يقوم بصعته ، ويختاره رجلاً صالحاً في علوم الشريعة وأصول الدين ، معروفاً بفضائه ، مشهوراً باستقامة سلوكه . وإذا أصدو شيخ الإسلام رأياً أو بياناً فلا يستطيع السلطان بأية حال أن يقرض على ما جاء في ثنايا هذا الرأي أو ما تضمنته هذا البيان . والسلطان يطلب دائماً رأى شيخ الإسلام سواء عند إعلان الحرب أو عقد الصلح أو عند مواجهة كافة المسائل الأخرى ذات الخطر على الإمبراطورية . والسلطان يحصى دائماً بشيخ الإسلام إذا كان في صدد عزل أحد الباشوات من منصبه . أو إعدام وزير ، أو كان على وشك اتخاذ إجراءات جريئة وحادة وتناول تغييراً في سياسة الدولة ، ففي كل هذه الحالات وأمثالها كان السلطان يسلم نفسه باستصدار فتوى من شيخ الإسلام تميز له اتخاذ الإجراءات التي يقبل عليها السلطان ويقرر شيخ الإسلام أنها متماشية مع مبادئ الشريعة (١)

إلغاء منصب شيخ الإسلام :

وعندما آلت السلطة في الدولة إلى جماعة الاتحاد والترقي عقب إزقلاب سنة ١٩٠٩ ، وكان للنفوذ الأول في حوار هذا الحزب لقمباض الجيش ، حرص النظام الجديد على الانتقام من سلطة شيخ الإسلام وسائر علماء الدين ونجربهم تبعاً من اختصاصاتهم وامتيازاتهم . وكان قد اترع منهم الإشراف على التعليم والفضلاء .

والبيت وظيفه شيخ الإسلام مع إلغاء نظام السلطنة سنة ١٩٢٢ . ولما أُلغيت الخلافة سنة ١٩٢٤ أنشأت الجمهورية بدلا من وظيفه شيخ الإسلام إدارة جليلة للشئون الدينية ألحقت بمكتب رئيس الوزراء في آنفة . وكان رئيس هذه الإدارة يطلق عليه « ديات إيشلرى رئيسى » ويعد رئيس الموظفين الدينيين في جمهورية تركيا ، ويدين بقرار من رئيس الوزراء . وكان من اختصاصاته الإشراف على المساجد والمكاتب وتعيين الأئمة والوعاظ والمؤذنين وسائر موظفى المساجد ، وله أيضاً الإشراف على أعمال المكتبة ، كما أنشأت حكومة الجمهورية إدارة عامة للمؤسسات الخيرية برأسها مدير عام يطلق عليه « أوقاف عموم مدير ليشى » يختص بالإشراف على الأوقاف التى استولت عليها الحكومة والعمل على صيانة المباني الموقوفة (١) .



Lewis B., The Emergence etc., op. cit., p. 413.

(١)

الفصل الخامس عشر

الهيئات الحاكمة في الدولة (٢)

الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة

القضاء :

ينتمي القضاء إلى الهيئة الإسلامية . وكانوا يحرون بطريق درامى طويل قبل أن يتبوأوا مناصب القضاء . ونظرت الدولة إلى مرفق القضاء نظرة موضوعية ، ولم تسمح لتبر المؤملين علمياً بتقلد مناصبه . ووضعت نظاماً دقيقاً لتعيين القضاء وترقياتهم وتقلاتهم ومناصبهم . وكانت ولاية القضاء تشمل جميع أنحاء الدولة في القلاوات الثلاث : آسيا وأوروبا وإفريقية ، والأمر الجدير بالذكر أن الولاية القضائية غلت تمتد إلى الأقاليم التي صعد فيها النفوذ العثماني سياسياً أو عسكرياً أو إدارياً مثل بلاد القرم وشمال إفريقيا . وعلى ذلك فالقضاء العثماني كان أكثر نقاذاً وبقاء واستقراراً في القلاوات العثمانية من النفوذ العسكري أو السياسي أو الإدارى للدولة في تلك الأقاليم وأمطفا .

كانت المحاكم الإسلامية تنظر جميع أنواع القضايا سواء كانت قضايا مدنية أو جنائية . وسواء كانت من اختصاص الشريعة أو القوانين الرضعية أو العرف أو غير ذلك . وكان القضاء حل بكرة أيهم مسلمين ، ويفصلون في القضايا في ضوء مذهب الإمام أبي حنيفة وهو المذهب الرسمى للدولة . وقد أتم السلاطين بتقرير هذا المذهب منحياً رجعياً في الأقاليم الإسلامية التي قمتها القلاوات العثمانية . وكان هذا التغيير الملحق هو أحد التغييرات الرئيسية والقليلة التي أدخلتها الدولة في أقاليم العالم الإسلامي التي قمتها . وعلى سبيل المثال كان مذهب الإمام الشافعى هو المذهب الرسمى في مصر قبل الفتح العثماني ،

فلما تم الفتح استبدلت الدولة العثمانية الملعب الخشبي بالملعب الشاطئي . وكان لا بد أن يكون حديقاً كبير القضاة الذي توفقه الحكومة العثمانية إلى مصر ليشغل هذا المنصب القضاة الكبار . وكان يطلق على شاعله أيضاً قاضي القضاة أو قاضي صكر أفتى . ولكن لم تكن الولاية القضائية لتلك المحاكم تمتد إلى جميع الأشخاص في الدولة ، إذ كانت في الدولة هيئات معترف بها وكانت لها عاكمها الخاصة تنظر في قضايا أفرادها مثل القولا ، وهم العبد أعضاء الهيئة الحاكمة ، ومثل الأشراف الذين هم من سلالة أسرة النبي صلوات الله وسلامه عليه . أما رعايا الدولة المسيحيون فكانت قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بهم خارجة عن اختصاص المحاكم العادية ، وكانت تنظرها عاكم كنسية خاصة بجؤلاء المسيحيين برأسها رئيس الملة ، وله أن يسمي بعض رجال الدين المسيحي . وكانت هناك قضايا خاصة بإدارة أراض معينة من أراضى الأوقاف فكانت تنظر أمام عاكم خاصة برأسها عضو من الهيئة القضائية الإسلامية العادية . وعلى العموم فإن قضاء الهيئة الإسلامية كانوا ينظرون جميع القضايا التي تتعلق بالشريعة الإسلامية في جميع أنحاء الدولة سواء بين المسلمين بعضهم وبعض ، أو بين المسلمين والمسيحيين ، إلا إذا كان المسلم ينتمي إلى طائفة لها نظام قضائي يختص بها مثل القولا والأشراف كما سبق أن ذكرنا . وكان يشمل اختصاص القضاة نسبة كبيرة من القضايا التي تمس موضوعات خارجة من نطاق الشريعة الإسلامية .

وكان القضاء بوجه عام يحصلون على جزء كبير من دخلهم من مصلدين : الرسوم القضائية ، والתרملات التي يحكون بها ، وكلا المصلدين يدر إراداً وفيراً . كانوا يتقاضون جزءاً من الرسوم المقررة على معاينة التروكات وتقسيمها والمبايعات وعلى الأوراق الرسمية التي تصدر عن المحاكم ويطلق عليها الحجج الرسمية . وتسجل في كل حجة التصرفات العقارية ، ورسوم الزواج المقررة على زوج البت البكر وزواج الثيب . وكان رسم رواج الآتية ٣٢ أسيراً Aspect أو أمجة وهي عملة فضية ، بينما كان رسم زواج الثيب ١٥ أسيراً (١) .

(١) انظر رسوم التي عهدا السلطان محمد الثاني ثلث النسيان والمصرفات القضائية في :

Lybster A. H., op. cit., p. 203 ff. 1.

فئات القضاة :

كان القضاة يتدرجون تحت درجات أو فئات ثنى .

قاضى القضاة أو رئيس القضاة أو قاضى حسكر .

ميشات التدريس فى المعاهد والمدارس التى قدم للعلماء والباحثين والمتخصصين فى الثقافة الإسلامية العليا واللغة التركية والأدب التركى وشئى التخصصات فى نواحى المعرفة .

المولا (١) الكبير ويطلق عليه المصطلح التركى « مولا بيوك » .

المولا الصغير ويطلق عليه المصطلح التركى « مولا كوچوك » .

المفتش .

القاضى .

النائب .

وكان الاسم العام للقاضى بصرف النظر عن درجه هو القاضى . ولكن

كان التعبير للشئى الذى يطلق على كل منهم من قبيل الاحترام والتقدير هو المولا .

قاضى حسكر :

أنشأت الدولة على رأس النظام القضائى منصب قاضى القضاة أو رئيس

(١) المولا Molla تعريب لكلمة العربية مول- يفتح للملأوسها وسكون قواو ويضم اللام-
بمى سبه أو رئيس أو زعيم أو قيم - وقد حوت هذه الكلمة يدورها فى تأليم شمال إفريقيا
فأصبحت مولاي ومن بين أطراف الصوفية المشهورة توجد الطريقة المولوية التى أسسها جلال
الدين الرومى . وقد اشتقت اسمها من كلمة « مولانا » بمى سبنا .

ويطلق الأكراد إذن هؤوت الحاضر (١٩٧٨) لفظة المولا على السيد قزوين كبرى السن
فى المركز المرموق سواء من الناحية الدينية أو السياسية أو الاجتماعية . ومن تقابل فى المجتمعات
القبلية كلمة شيخ . وأكثر الأكراد استعمالاً لهذه الكلمة هم أكراد العراق ، فهذه كورد اسم
الشخص مسبوفاً بكلمة مولا . ومن سبيل المثال ، المولا مصطفى البرزاني زعيم الأكراد للناصر .
وتكتب الكلمة أحياناً اللام بعد إقطاع حرف اللام منها . وتنتقل فى اللغة التركية وفى اللغة العربية
بهم حرف اللام . وفى اللغة الكردية يفتح اللام . كما أنها تنقل فى هذه اللغات ثلاث برون شدة .

القضاة وكان يطلق على شاغل هذا المنصب اسم قاضى عسكر . وكان مقره العاصمة . ويشرف على أعمال القضاة في سائر أنحاء الدولة . ويقوم بترشيح من يقع اختياره عليهم لشغل وظائف القضاة على اختلاف فئاتهم ، ويراقب أعمالهم ، ويعد حركات تنقلاتهم وترقياتهم ، وتعرض عليه التقارير والمذكرات التى يبعث بها إليه قضاة الأقاليم . وكانت تقوم بجانب قاضى عسكر أجهزة فنية وإدارية يعمل فيها موظفون بمثابة مساعدين له ، وأطلقت عليهم شتى المصطلحات ، فذكر منها على سبيل المثال المطبىعى ، والتطبيقاتى والمكتوبى . وكان يحفظ بعضهم بسجلات تحوى أسماء القضاة وقائهم ، وكان يختص بعضهم بإعداد كشوف مرتبات القضاة ومن إليهم ، بينما كان يحفظ فريق آخر بصور من أختام القضاة لتحقيق من صحة الأختام على المذكرات والتقارير التى ترفع إلى قاضى عسكر .

وكان قاضى القضاة بجانب اختصاصاته القضائية يتمتع بشهود أدب كبير لم يظفر به من قبل قاضى القضاة في أى بلد إسلامى . وقد عفى أحد الصلوات العظام ، ويسمى قرمان محمد باشا ، أن يتفضل بتفوضه بجانب نقوذ قاضى القضاة ، فاقترح على السلطان محمد الثانى أن ينشئ منصباً ثانياً لوظيفة قاضى عسكر - ويسمى قاضى عسكر ليك - وأن يطلق على شاغله قاضى عسكر الأناضول ، وأن يطلق على شاغل الوظيفة الأولى قاضى عسكر الروملى ، وأن يتقاسم الاثنان الاختصاصات التى كان يمارسها قاضى عسكر ، فيختص أحدهما بقضاء الأناضول بينما يختص الآخر بقضاء بلاد البلقان وبقية الأقاليم الممائية في أوروبا . وكان النافع الخنى للصدر الأعظم - محمد قرمان باشا - على هذا الاقتراح هو كسر التفوذ الواسع العريض الذى كان يتمتع به قاضى عسكر حين كان هو الرئيس المباشر لقضاة الدولة . وقد أخذ السلطان محمد الثانى بهذا الاقتراح ، وتم إنشاء المنصب الجديد في سنة ١٤٨٠ قبل وفاة السلطان بسنة واحدة (١) . وعلى هذا النحو وجد في الدولة مهيئان يعمل شاغل كل منهما لقب قاضى عسكر مع إضافة الإسم الجغرافى الذى

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة قاضى عسكر .

بمجرد مناطق ولايته القضائية إلى اسمه . ولكن كان قاضي حسكر الرومي أعلى مركزاً من زميله قاضي حسكر الأناضول . وكان الأول يصعب الجيش العثماني حين كان يتوغل في أوروبا ويخوض المعارك . وكان من اختصاصاته تعيين جميع القضاة الذين يعملون في أوروبا ، وكذلك العاملين في المساجد التي أقيمت في الولايات العثمانية الأوروبية ، وكان قاضي حسكر الأناضول يمارس مثل هذه الاختصاصات فيما يخص بالأقاليم العثمانية في آسيا . وكان هذان القاضيان الكبيران بليان شيخ الإسلام في المرتبة ولكن توليه الدولة زيادة الأعباء التي نجمت عن التوسع الإقليمي العثماني في العالم الإسلامي منذ حكم السلطان سليم الأول ومن بعده ابنه السلطان سليمان المشرع أنشأت منصباً ثالثاً لقاضي حسكر شملت ولايته القضائية معظم الأقاليم الإفريقية التي دانت لحكم العثمانيين .

كان قضاة الحسكر أعضاء في الديوان الإمبراطوري . وكانوا يشتركون اشترافاً فعلياً مع رئيسه الصدر الأعظم في نظر القضايا التي تعرض على محكمة الديوان ، كما كان يشاركون في هذا العمل في بعض الأحيان بعض القضاة من فئة مولا الكبير ، وسنعرض لهم في موطن قادم في هذا الفصل ، ونقف هنا نود على رأي أبدهاء أحد كبار المستشرقين الإنجليز حين قرر أن عضوية الديوان الإمبراطوري كانت ميزة لقضاة الحسكر لم يشاركهم فيها شيخ الإسلام (١) والواقع كان عكس ذلك تماماً ، لأن علم تحرير عضوية شيخ الإسلام في الديوان الإمبراطوري كان نوعاً من التكريم لشيوخ الإسلام تعاقباً لوجوده في موقع يكون فيه تحت رئاسة الصدر الأعظم الذي كان يرأس بحكم منصبه الديوان الإمبراطوري . وكانت الدولة تحرص على تجنيد شيخ الإسلام مثل هذه المواقف التي قد تال من هبة شاغل أكثر منصب ديني إسلامي في الدولة .

امتيازات قاضي المسكر :

من بين الامتيازات التي تفررت لقاضي مسكر الذولة أن يقام حفل رسمي لكل منهما عند تعيينه في منصبه . وكان على الصدر الأعظم أن يحضر هذا الحفل من باب التقدير والتكريم ، وكان لا يجوز للصدر الأعظم أن ينيب أحداً عنه في حضور الحفل . وكان الصدر الأعظم يقف لقاضي مسكر رداء الكشيفة ، وهو فرو صبور ، ويساعده على ارتدائه في أثناء الحفل (١) . وكانت تخصص لكل قاضي مسكر حرية استقلالها في نقلاته . وإذا قامت الحرب في آسيا صاحب قاضي مسكر الأناضول الجيش المباقي إلى ساحة الحرب . أما إذا كانت الحرب في أوروبا فلك قاضي مسكر الرومل هو الذي يرافق الجيش . وفي كلتا الحالتين كانت تقدم لكل منها أطوار (٢) تنصب أمام خيمته التي تكون مجاورة لخيمة السلطان وخيمة الصدر الأعظم .

قضاة القضاة :

كان يل قضاة المسكر في الدرجة والمركز قاضي إستانبول ويطلق عليه إستانبول أفنديسي (٣) والقضاة الثلاثة لقضاة الثلاث : وكانت هذه الصلاحي

(١) D'Ohacon Ioustine Mouradgou, op. cit., Vol., IV p. 552.

(٢) انظر ص ص ٢٦٤ - ٢٦٥ في هذه القصة .

(٣) أتى لفظة حاكمية شاع استعمالها في جميع البلاد التي عظمى الدولة العثمانية . وهي لقب يمنح للأشخاص المدفونين الكهنة ثقافة واسعة . وقد اشتقت من كلمة أتى هذه مصطلحات تاريخية ، نذكر منها :
أنديم وستاها مولانا . وكان السلطان إسماعيل يتولى أسبقاً هذا اللقب .

أندينا وستاها مولانا . وكان ولاية مصر من أسرة محمد علي يطلق عليهم هذا اللقب مولانا . كان يصل منهم لقب عمير اجبلاؤ من سنة ١٨٦٧ أو من لم يكن يسلم قبل هذا التاريخ .

أنديم قتب سيدة السيدة أو السيدة .

أنديمسي : إستانبول أفنديسي أي قاضي إستانبول .

ديوان أفنديسي أي مسكرير ديوان القاهرة الكور ديوان بيرك .

الريس أفنديسي لقب يطلق على وزير الكلاسيكية العثمانية .

Barbier de Meynard; op. cit., Vol. I, pp. 42-43.

هي : سكوتاري Soutari وهو اسم يرجع إلى العهد البيزنطي ، ولذا كان يطلق على هذه الضاحية أيضاً الاسم التركي أسكودار (١) Uskudar ، ثم صاحبة جلالته Galatz ، ثم صاحبة أبواب ، وكان يطلق على هذه الضواحي الثلاث اسم « بلاد ثلاثة » أي البلاد الثلاثة . وجعلنا المصطلح له مدلول قضائي ومدلول إداري . فقضاة هذه الضواحي يتصرفون باستقلال قضائي عن قاضي إستانبول . كما كان لهذه الضواحي بعض الاستقلال في شئون الشرطة (٢) وكان هؤلاء القضاة الأربعة يحضرون جلسة الديوان الإمبراطوري يوماً واحداً في الأسبوع ، ويعملون على قاضي السكر ،

(١) استخدم اسم سكوتاري في أوامر عهد الدولة العثمانية . ويحصل أن يكون هذا الاسم قد اشتق من اسم كنيسة حمل المذبح التي رابطة في تلك الفترة على عهد الإمبراطور فالنس Valens . ويوجد اسماء أخرى من الاسماء القديمة ، هو أن هذه المنطقة قد اكتسبت اسمها من قصر كان مبنياً فيها يسمى سكوتاريون Soutarion من عهد الإمبراطور ثيودوسيوس Commencio .

أما كلمة أسكودار ، أو ، أسكودار ، أو إسكودار ، فهي كلمة تركية تعني سفاحا صلبا البرية . إذ كانت يحكم موقعها المرفأ القابعة للملح المحلات الكبيرة والصغيرة التي تخرج من العاصمة إلى المرافئ الإمبراطورية العثمانية في آسيا وإفريقية . إذ تقع هذه الضاحية - وهي أقيم على في إستانبول - في منطقة الواقعة على الجانب الجنوبي من البوسفور عند سفح تل بو لغورل حيث يمتد الشاطئ الجنوبي أقصى امتداده نحو الغرب مقابل برج لانتير Lender أو قبله قوله سي .

وفي العهد العثماني ازدادت كثافة السكان في أسكودار ، وبخاصة منذ عهد السلطان سليمان الملقب . وكان من أسباب زيادة تعدادها أنها أصبحت موقعا لتجسس الدواوين ومقراً لتكاتها ومركزاً حياً لحياة الصوف في العاصمة . وأظهر تلكها القائمة بما تكيه الطريقة المولوية . كما شهد قبة جدد كبير من الساجد استلأت أكبرها سيدات في البلاط العثماني ومن أشهرها : مهرماه جليسي أو إسكله جليسي شيد سنة ٩٥٤ هـ / ١٥٤٧ م أمام الحرم الكبير إسكوي واقعة جليسي ، ويقع في الجنوب ، وتم بنائه سنة ٩٩١ هـ / ١٥٨٢ م . جامع بيشلي ، في الجنوب الشرقي ، وكامل بنائه سنة ١٠٥٠ هـ / ١٦١٠ م . يكنى والده جليسي تم بنائه سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م . جامع السبيية وقد شيد سليم الثالث لحبه الخديعة الذي سمي « نظام جديد » .

(٢) لم تكن هذه الضواحي الثلاث تتخضع في شئون الشرطة لسلطة رئيس الإنكشارية ، لأن إستانبول تعمد ، وإنما كانت تتخضع لسلطة أخرى .

ويساعدون الصدر الأعظم رئيس الديوان في نظر القضايا . وكان يطلق على هؤلاء القضاة الأربعة - قاضي إستانبول وقضاة الضواحي . اسم مصر هو تخت قاضيبيي ، أي قضاة التخت ، لأنهم يقيمون بصفة دائمة في العاصمة وعلى مقربة من العرش السلطاني الذي كان يطلق عليه التخت . وكان الصدر الأعظم عقب انتهاء جلسة المحكمة ينهب في حصية قاضي إستانبول في جركته الصحفية الميدانية في العاصمة . وعما هو جدير بالذكر أن قضاة التخت الأربعة كانوا يتمنون إلى طائفة القضاة من فئة المولا الكبير .

القضاة من فئة مولا الكبير :

كان عدد القضاة من فئة مولا الكبير يختلف من عصر إلى عصر (١) وفي القرن الثامن عشر بلغ عددهم سبعة عشر قاضياً (٢) تصممهم عدة مجموعات .

قاضي عسكر الروملی ، وقاضي عسكر الأناضول .

قضاة التخت .

قاضي مكة المكرمة والمدينة المنورة .

قضاة بروسة ، وأدرنة ، ودمشق ، والقاهرة . ويلاحظ أن بروسة وأدرنة كانت كل منهما في وقت ما عاصمة للدولة العثمانية

قضاة بيت المقدس ، وأزمير ، وحلب ، ولاريسا (٣) ، وسالونيك .

وكان شيخ الإسلام هو الذي يعين هؤلاء القضاة السبعة عشر ، ويوافق الصدر الأعظم على تعيينهم ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيينهم في مناصبهم . وكانوا يشغلون المناصب القضائية مدى الحياة . ولكن كانت تصدر من وقت إلى آخر حركة ترقيات أو تنقلات تشمل أولئك القضاة الكبار . وكان لكل

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, (١)
Part II, p. 39.

Lybyer A.H.; op. cit., p. 217. (٢)

(٣) لاريس Larisae مدينة في بلاد اليونان وتقع في إقليم ثاليا

منهم جهاز إدارى يتكون من مراقبي الحسابات وأمناء الخزائن والكتابة ومن إليهم من المساعدين . وكان القضاة من فئة الملا الكبير يقدون الجلسات أحياناً في بيوتهم ، بينما كان سائر القضاة ينتظرون القضايا في المحاكم .

والى جانب أولئك القضاة من فئة مولا الكبير كان يوجد ستة علماء يسمون إلى هذه الفئة ، وهم : خوجة السلطان ، الإمامان ، حكيم باشى ، وجراح باشى ، ومنجم باشى .

المفتشون :

كان المفتشون من رجال القضاء ، وإن كان اسمهم لايم عن مهمتهم القضائية . وكان عددهم قليلا يصل إلى خمسة مفتشين ، وكانوا جميعا قضاة من درجة « مولا بيوك » ، أى مولا الكبير ، ويختصون بالإشراف على الأوقاف السلطانية ، فيفتشون من إيراداتها على المؤسسات الدينية والخيرية . وكان بعضها تحت إشراف شيخ الإسلام ، والبعض الآخر تحت إشراف الصدر الأعظم ، والبعض الثالث والأخير تحت إشراف رئيس الخصيان البيض الذى يقوم على الخليفة الداخلية فى أجنحة الحرم السلطانى . وكان يطلق عليه أحيانا « باب السعادات أخفى » ، أى أبا باب السعادة ، وأحيانا أخرى « قافى أخفى » . أى أبا البوابة . وكان مقر ثلاثة من أولئك المفتشين فى إستانبول ، يختص كل منهم بقسم من الأقسام الثلاثة لهذه الأوقاف . كان أحدهم يعمل مع شيخ الإسلام ويسمى « شيخ الإسلام مفتشى » ، وكان الثانى يعمل مع الصدر الأعظم ويسمى « وزيرى أعظم مفتشى » ، وكان الثالث يسمى « حرمين مفتشى »^(١) ، لأنه كان يشرف على الأوقاف المرسودة على الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . ويلاحظ أن الأخير كان حتى قرب نهاية القرن السادس عشر رئيس الخصيان البيض . وفى القرن السابع عشر تقاسم مع زميله رئيس الخصيان السود ، والذى كان

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I Part II, (١)
p. 92, ff. No. 2.

يطلق عليه « قيزار أغاسي » أي أغا البئات ، الإشراف على أوقاف الحرمين الشريفين ، ثم انفرد رئيس الخصيان السود بالإشراف على هذه الأوقاف في القرن الثامن عشر . أما المفتش الآخران فكان أحدهما يباشر عمله في مدينة أدرنة ، والآخر في مدينة يروسة ، وكانا يقبعان رئيس الخصيان ^(١) . وكان لكل من هؤلاء المفتشين الخمسة جهاز يضم عدداً كبيراً من الموظفين المساعدين يتجولون في مناطق الأوقاف ^(٢) .

لمتيازات رجال القضاة من فئة مولا الكبير :

كان القضاة من فئة مولا الكبير يتمتعون بعدة امتيازات . كان لكل منهم الحق في ارتداء صباغة من القرو السمر في الاحتفالات الرسمية من قبيل التكريم والتشريف . وكان هذا النوع من الصباغات يرتديه الباشوات وحكام الولايات ومن إليهم من كبار موظفي الدولة . وكان من تقاليد الدولة العثمانية أن يقام حفل رسمي كبير - سواء في عاصمة الدولة أو في عواصم الولايات - لتقديم هذا الرضاء للشخص أو للأفراد الذين يعم به عليهم . ويحضر هذا الحفل كبار موظفي الدولة المدنيين والعسكريين . ويتولى رئيس الحفل مساعدة القاضي في ارتداء القرو السمر .

وكان من امتيازات القضاة من فئة المولا الكبير أن يتمتعهم في شذراتهم وروحانهم عدد من الرجال يسمى كل منهم بالمخضر . وتكتب في اللغة التركية المخضر . وكان يرأس هؤلاء الرجال ويتولى توزيعهم على القضاة رئيس يسمى محضر باشي . وكان يؤخذ من حراس بوابات القصر - القابضية - وكانت توجه الدعوة إلى أولئك القضاة إلى كبار أساندة مدرسة الشريعة والقانون بإستانبول لحضور الاحتفالات التي تقام عند اعتلاء سلطان جديد للعرش العثماني ، ويقدم فيها كبار الموظفين لولاء له . وكانت هذه الدعوة تتكرر بعد ذلك مرتين على مدار السنة . كانت المرة الأولى عند حلول «كوجوك إبراهيم»

D'Othson Mouradges Ignatius, op. cit., t. IV, p.568. (١)

Lybber A.H.; op.cit., p.201. (٢)

الصغير ، ويسمى أيضاً « سكر بيراي » أى عيد الخلوى وهو عيد الفطر ،
والمرة الثانية عند حلول « بيوك بيراي » أى العيد الكبير ، ويسمى أيضاً
« قربان بيراي » أى عيد الأضحي . فكان يقام في كل عيد من هذين
العيدين حفل استقبال رسمي « ركاب هيايون » في القصر السلطاني . وكان
القضاة من فئة الملا الكبير يشهدون هذين الحفلين كما يشهدهما شيخ الإسلام
وقاضيا المسكر .

القضاة من فئة مولا الصغير :

كان القضاة من فئة مولا الصغير يعملون في عشر مدن من مدن الصف
الثاني ، وهي : مرعش ، بغداد ، بوسنا سراي^(١) ، صوفيا^(٢) ، بفراد ،
عتاب^(٣) ، كوتاهية ، قوتيه ، فيليو بوليس^(٤) ، ديار بكر .

القضاة الماديون :

كان القضاة الماديون يشكلون الغالبية العظمى من عند قضاة الهيئة
الإسلامية . وكان عددهم في أواخر القرن الثامن عشر قد بلغ زهاء أربعمائة
وخمسين قاضياً يباشرون القضاء في المدن الصغيرة في أوروبا وآسيا وإفريقية .
وكان عددهم في أوروبا يبلغ مائتين . وكان القضاة الذين يعملون في بلاد
القرم وفي شمالي إفريقيا يتبعون قصائماً كبير للقضاة في الرومل . وكان
قضاة مصر يتبعون في بعض الفترات كبير القضاة في الأناضول والذي يسمى
قاضى مسكر الأناضول ، كما كانوا يتبعون في بعض الفترات قاضى القضاة
في إستانبول .

(١) بوسنا سراي Bozna Sora في حاضرة ولاية البوسنة ، وتقع حالياً في
يوغوسلافيا .

(٢) صوفيا وتكتب أيضاً Sophia وأحياناً أخرى Sofla ، حاضرة بلغاريا .

(٣) عتاب مدينة في سوريا .

(٤) تكتب بالفرنسية والإنجليزية Philippopolis مدينة في بلغاريا ، وتقع على نهر
ماريتز La Maritza الذي يصب في بحر إيجه . وكانت إبان الحكم العثماني حاضرة لإقليم
الرومل . ولعل المدينة شهيرة واسعة في صناعة القروائع للحرير ، وبخاصة روح ثورود

التواب :

وكانت وظائف التواب تمثل أدنى درجات السلم الوظيفي القضائي . وكانوا يداشرون اختصاصاتهم القضائية في المدن الصغيرة أو في القرى الكبيرة ، كما كانوا يحلون محل القضاة في أثناء تقيدهم عن عملهم عند قيامهم بالأجازة أو في أثناء مرضهم . وكان النائب يشترى منصبه ولا يتقاضى مرتباً من الحكومة ، ولكنه كان يحصل على إجازات ضخمة من حصيللة العرامات المالية التي كان يحكم بها على المخالفين والذين يرتكبون أعمالاً مخلة بالأداب العامة وما إلى ذلك .

المفتون :

كان المفتون يشكلون قطاعاً هاماً للغاية في الهيئة الإسلامية إلى جانب القضاة . وكان المفتون يقيمون في المدن الهامة ويقومون بمهام متاعبهم بجانب القضاة ، ولكن كان مركزهم يأتي بعد مركز القضاة ، ويظلون في مناصب الإفتاء مدى الحياة ، أي دون التقيد ببلوغهم سن معينة يحالون عندها إلى التقاعد . وكانت مهمتهم إصدار الرأي القانوني في المسائل التي يطلب منهم حلها ، فيحكف الواحد منهم على دراستها في ضوء مذهب الإمام أبي حنيفة ، ثم يسجل رأيه كتابة على ورقة معلقة ومختومة من قبل ، وتشبه الاسيارة . وكان الرأي الذي ينتهي إليه المفتي يسمى فتوى .

وكان عند المفتين في أنحاء الإمبراطورية يصل إلى ما يقرب من المائتين . كانت غالبيتهم تعمل في المدن الهامة بجانب القضاة كما ذكرنا ، بينما عمل البعض الآخر بجانب كبار رجال الحكم في الولايات يعملونهم بالرأي الصحيح في المسائل العامة من حيث عدم تعارضها مع مبادئ الشريعة الإسلامية . فكان كل منهم يشغل ما يمكن أن نطلق عليه المصطلح الحديث منصب المستشار الديني . فكان هناك مفتيان : أحدهما يعمل مستشاراً دينياً للحاكم العام لمقاطعات الأناضول أو إلى أناضولى ، وثانيهما للحاكم العام لمقاطعات الرومل التي يطلق عليها إلى رومل ، كما عينت الحكومة مفتين لحكام المديريات الذين يطلق عليهم الصناجق البكوات . وكان إذا طلب حاكم الولاية أو الصنجن قبك من المفتي

أن يوضح له رأى الشريعة في مسألة عامة أو في قضية قانونية محلقة ، فإن مثل هذه الفتوى التي تصدر عن المفتي يؤخذ بها جلة وتضميلا ، ونحسم الموقف سواء في المسألة العامة أو في القضية المطروحة

وكانت مجالات العمل أمام المفتين محدودة وبالتالي ضيقة ، فقلما لحا إليهم القضاة أو رجال الحكم المحلي لإصدار فتاوى لهم ، ولذلك نعتهم بعض الباحثين بأن نشاطهم الوظيفي كان يشوبه الجمول أو الركود ، ثم اتسعت أمامهم آفاق العمل حين سمح للأفراد بالالتجئة إلى المفتين لإصدار الرأى القانوني في القضايا المطروحة أمام المحاكم . فكان المفتي يصدر رأيه كتابة ومسجلا على ورقة رسمية على قرار الفتاوى التي يصلها من الجهات الحكومية . ويأخذ المواطن هذه الفتوى ويقدمها للمحكمة كدعم موقفه في القضية . وكانت مثل هذه الفتوى تحسم القضية في العادة لصالحه . ويلاحظ أنه لم يكن في تلك الصور محامون غير هون يتولون المرافعة أمام المحاكم ، ولذلك كان المفتون مختصراً ضرورياً وعلماً ونافعا في النظام القضائي . وقد رحب المفتون بالفتاوى التي تصدر عنهم للأفراد ، لأنها جاءت بمورد مالي بسيط تمثل في الرسوم التي يدفعها طالب الفتوى . وكان المفتين نصيب من هذه الرسوم . فكان يأتيهم رزقهم رغداً من كل مكان .

أما المفتون الذين كانوا يعملون في سائر المدن فلم ينظفوا المركز الكبير الذي تمتع به مفتى العاصمة . كان المفتون في الأقاليم أقل درجة ومربطاً من القضاة ومن إليهم من موظفي الحكومة . وكانت وظائف المفتين لا تحاط بأى نوع من أنواع المظهيرية التي كانت تحاط بها المناصب الأخرى في نفس المدينة أو الإقليم أو الولاية .

وقد أسس المفتون للدولة أجل الخدمات ، فقدموا لها بصفتهم حراس الشريعة قوة الإسلام ، وهي أعظم قوة روحية عملت في هدوء ومثابرة واستمرار على تماسك الدولة وجمعياتها الإسلامية دون أن تتعرض هذه (م ٢٨ - الدولة العثمانية)

القوة الروحية لحزات أو تغييرات ، بل مضت في طريقها تطيع العثمانيين وحياتهم الخاصة والعامة بالطابع الإسلامي العميق .

وقام نفوذ المفتين على عدة عوامل ، منها : أن جميع الرعايا المسلمين يعضدون اعتقاداً راسخاً في التفوق المطلق للشرعية الإسلامية الأفراد ، لأنها جزء لا يتجزأ من عقيدتهم الدينية . والعثمانيون معروفون باحترامهم مبادئ الدين ويتحسمون الشريعة للإسلام . ولا يمكن أن يبدلوا قانون من القوانين الوضعية للشرعية الإسلامية . كما أن الرعايا المسلمين كانوا يعرفون أن أولئك المفتين قد درسوا الشريعة الإسلامية سنوات طوالاً وتحملوا في تعلمها وتحصيلها مجهوداً عظيماً مضنياً ، ولكنهم لم يهجروا العلم بمجرد انتهاء دراستهم ، بل مضوا يمارسون ملازمة العلم والاستزادة منه ، ثم تطبيقه عملياً في المجالات التي يعملون فيها وفي المواقف التي يطلب منهم الإدلاء برأي للشرعية فيها . يضاف إلى تلك العوامل التي كانت دعامة نفوذ المفتين أن العثمانيين كانوا يلوكون أن الفضل في بقاء الدولة العثمانية ونفوذها إنما يرجع إلى المفتين لأنهم أسهموا إلى حد كبير في بقاء الدولة العثمانية سليمة متماسكة ، واستطاعت أن تقف في وجه الحزات العنيفة والتكسبات الأجنبية وانحسار الفادحة التي تعرضت لها ، وأن يستمر بقاؤها أحقاباً وأحصراً وأدهاراً استطالت أكثر بكثير مما كان يتوقعه العالم كله لتسقوطها . وكان دور المفتين بارزاً وقوياً في بقاء بقاء الدولة شامخاً قوياً ضد أعداء كانوا يربصون بها الدوائر في الداخل والخارج .



كان عدد من كبار الموظفين ينتمون إلى هذه العلماء ، ويعملون على مقربة من السلطان ، وكانوا يحتلون الهيئة الإسلامية داخل القصور السلطانية . كان في مقاصدهم :

هجرة السلطان :

والمنع الحرفي لهذا المصلح معلم السلطان . كان بمثابة مستشار السلطان في المسائل الدينية وغيرها . ولذلك كان يظهر بتقدير هيب ومركز مرموق بين أفراد

حاشية السلطان وفي دوائر الحكومة . وكان خوجة السلطان في درجة المولا الكبير أى فاضل من الدرجة الأولى . ولذلك كان برقى من هذا المنصب المرموق إلى الرغائب العليا في الدولة ، وإذا امتد به الأجل يصل إلى أعلاها .

الإمامان :

وكان هناك إمامان للسلطان ، يؤم كل منهما السلطان بالتناوب في صلاته سواء في داخل القصر أو في المساجد السلطانية التي يقع اختيار السلطان عليها لأداء صلاة الجمعة فيها . ويلحق بالإمامين عدد من المؤذنين يؤذنون للصلاة سواء في مساجد القصور أو في المساجد التي يؤدى فيها السلطان صلاة الجمعة . وكان المؤذنين رئيس خاص بهم يسمى « المؤذن باشى » أى كبير المؤذنين . وكان المؤذنون يؤملون من الجاوشية الذين يتميزون برخامة الصوت ، وكانوا من جاوشية الأقسام الدنيا . وكان يختارهم موظف إلى المؤذن باشى في الرتبة ، ويطلق عليه الناس مؤذن أو « سرى محفل » أى رئيس القصور الخاصة التي كان السلطان يؤدى فيها الصلاة من وراء ستار في المساجد السلطانية . وكان « سرى محفل » يلرب الجاوشية ، فإذا أظهروا كفاية أدرجت أسماءهم في كشوف لتعيينهم حين تحلو وظائف لهم .

وكان خوجة السنطان والإمامان من الهيئة الإسلامية ، وتمتعوا بثقوة كبيرة جداً في الدولة ، لأن طبيعة وظائفهم كانت تتطلب أن يكونوا على اتصال مستمر بالسلطان . وكان لهم من ثقافتهم ومن الثقة الكبيرة التي أولاهما إياهم السلطان ما جعل الأضواء تسلط عليهم . وكان السلطان يقدّر آراءهم على أساس أنها منزهة عن الأغراض والأهواء الشخصية ، ولذلك أطلق على هؤلاء الثلاثة : آذن السلطان *L'oreille du Sultan* .

التخصصات العلمية أخرى ينتمى إليها علماء :

لم يكن علماء الدين وحدهم الذين ينتمون إلى هيئة العلماء ، بل كانت هذه الهيئة تتسع لتشمل الأطباء والجراحين والمنجمين (الكون من إليهم من أصحاب التخصصات

العلمية . ولعل مرد هذا الشكوك إلى أن فريقاً من الأطباء كانوا يجمعون بين دراسة القلب والفقه وأصول الدين وعلوم الفيلسفة وغيرها . وكانت لكل منهم في معظم هذه المجالات قدم واضحة . وبتذكر منهم على سبيل المثال هجت مصطفى أفندي (١١٨٨-١٢٤٩ هـ / ١٧٧٤-١٨٣٤ م) ، تقلد المناصب الطبية حتى وصل سنة ١٨٠٣ إلى منصب كبير أطباء السلطان ، ثم انتقل إلى المناصب الدبية والقانونية المرموقة ، كان من بينها منصب قاضي أرمر من طبقة مولا ثم قاضي مصر سنة ١٨٢٠ ثم توج حياته الوظيفية بشغله وعايته قاضي عسكر الأناضول سنة ١٨٢٢ ، ثم قاضي عسكر الرومل (البلقان وبقية الولايات العثمانية في أوروبا) سنة ١٨٣٢ . وكانت هذه للشخصية تعتبر أحد رواد الطب الحديث عن النمط الأوروبي . أنشئت تحت إشرافه مدرسة طب جديدة استمدت الدولة لها مدرسين أوروبيين ، كما أنشئ تحت إشرافه أيضاً مستشفى سليمان . وعكف على دراسة لغات أوروبية على يد كبير الترجمة في الباب العالي وقام بترجمة عدد لا يستهان به من الكتب العلمية والطبية ، منها : كتاب *per Jenner* عن التطعيم ، وكتاب *Buffon* عن التاريخ الطبيعي ، ومصنوعات أخرى من الكوليرا والزهرى وقوباى العنم (١) . وتولى ترجمة كتاب المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتي « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » إلى اللغة التركية . وقصر ترجمته على الجزء الخاص بالحملة الفرنسية على مصر ، وأطلق عليه « تاريخ مصر » وقد طبعه في إستانبول سنة ١٢٨٢ هـ (٦٥-١٨٦٦ م)

وتوجد شخصيات عثمانية أخرى من هذا الطراز كانت أسبق من هجت مصطفى أفندي ، نذكر منها على سبيل المثال آيدىلى (٢) حنفي باشا وهو ، خضر

(١) انظر ترجمة حياته في دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة « هجت مصطفى أفندي » .

(٢) آيدىلى نسبة إلى آيدىن وهي مدينة في آسيا الصغرى وقد دخلها السلجقة الروم في المصدر الرومى ، ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة إمارة أمسيا الأمير آيدىن وبنع عنها اسمه . وقد ضم حفيده الأمير جيسى هذه الإمارة إلى السلطان المملوك أبي يزيد الأول ، واستولى السلطان مراد الثالث عنها عام ٨٣٠ هـ (١٤٢٦ م) عند وفاة أخوها جيه . ولكن ظل حكم هذه الإمارة وراثياً في أسرة قره ميان لقرن عدة قرون حتى نجح السلطان محمود الثاني في إخضاع حكمهم لها سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) .

ابن علي بن خطاب ، وكان معاصراً للسلطان أبي يزيد الأول - يلزم - (١٣٨٨-١٤٠٣) ، جمع بين دراسة الفقه الإسلامي وعلوم البلاغة وبين دراسة الطب ، فقد ارتحل إلى القاهرة وجاور بالأزهر ودرس علوم الدين واللغة على أشياخ عصره ، وانصرف بعد ذلك إلى دراسة الطب . وألف في تلك التخصصات عدة رسائل وكتب ومراجع . ويلاحظ أن مؤلفاته الطبية غابت ، من حيث عددها وأهميتها ، رسائله في الفقه والتفسير والمنطق . وقيل إن كتابيه « النشاء » و « تسهيل الطب » قد نقلتا إلى اللغة اللاتينية (١) .

علماء التنجيم :

أما علم التنجيم ، فعلى الرغم من أن جبهة العلماء والفلاسفة المسلمين يجمعون على إنكار التنجيم ، إلا أنه يوجد عند قليل من علماء المسلمين مثل الكندي وإخوان الصفا وفخر الدين الرازي مخالفون هذه الجبهة ، ويعتبرون التنجيم فرعاً من علم النجوم ، وأطلقوا عليه علم أحكام النجوم (٢) . وفي

(١) من رسائله في الفقه والتفسير والمنطق :

« تفسير في جمع الأنوار في جميع الأسرار » . ويقع في مجلدين .

« طوابع الأنوار في الكلام » وهو شرح على تفسير القشيري للقرآن الكريم

سراسي من شرح منقش للرازي لكتاب « مطالع الأنوار في المنطق »

ومن مؤلفاته الطبية :

« النشاء » ولحنه باللغة التركية ويبحث في أنواع العلاج . وقسمه ثلاثة أقسام ، تناول في

القسم الأول علم وظائف الأعضاء وعلم العقول ، وفي الثاني الأهمية والأدوية ، وفي الثالث أسباب

الأمراض وتشخيصها وعلاجها .

« تسهيل الطب » وهو عبارة عن رسالة يسطر فيها كتابه السابق .

« فضائل الأسماء ودواء الآلام » .

« الفريدة في ذكر الألقاب المفيدة » .

« الفضائل » .

« الكيس الحلال » .

(٢) يقوم التنجيم على أساس أن جميع ما يقع من أحداث جسم وغير جسم في العالم إنما

يصل اتصالاً وثيقاً بحركات الأجرام السماوية ، وأن الإنسان خاضع لتأثيرات النجوم .

ويصير عمل المنجم في معرفة هذه التأثيرات . وكانت المسائل التنجيمية تتناول من حيث أنها

مسائل فلكية ورياضية من جهةٍ وحساب وحساب طلفات . وقد ظهر هذا الاتجاه في المصنفات

الخامسة بالنسبة وفي الحلاله التي وضعت لأغراض التماسك بالتنجيم وكان اليونانيون والمغاربة -

رأيهم أن علم الفلك وعلم أحكام النجوم يؤديان إلى علم التنجيم وأطلقوا على المشتغل به « الأحكامى » أو « المنجم » ، وإن كان لفظ المنجم يطلق على الفلكى أيضاً . ولم يفرق بدقة بين المجسم والفلكى إلا فى القرن التاسع عشر . وكانت مهمة المنجم تسمى « الطالع » سواء بالنسبة للفرد أو الشعب أو المدينة أو الدولة وما يتبع ذلك من وقوع حوادث سعيدة أو أحداث دامية مثل نشوب حرب ، أو انتشار أوبئة ، أو حدوث فيضانات خطيرة تهدد البلاد بالغرق ، أو وقوع كوارث أخرى مثل الزلازل والبراكين . وعلى الرغم من إنكار جمهرة علماء المسلمين لعلم التنجيم إلا أنه استهوى أقدلة الجماهير ، وكان له شأن كبير فى قصور السلاطين العثمانيين (١) .

حكيم باشى ، جراح باشى ، منجم باشى :

وكان السلطان ثلاثة من كبار الموظفين ينتمون إلى هيئة العلماء ، هم طبيبه

— هم أساتذة للتبصير الإسلاميين ولكن تفوق الأغبياء على من سهوهم من المنجمين الذين كانوا يقومون بحسابات مبسطة وجبهر بالذكور لأن دور الطباعة فى أوروبا قولت طبع الكتب والمداولات وحسابات الفلك فى علم التنجيم . وحل سبيل ذلك طبع فى الطباعة الكتاب الجامع الذى وضعه أبو الحسن على بن أبى الرجال ، وهو ثمانية مجلدات فى السنوات ١٤٨٥ : ١٥٠٣ ، ١٥٢٣ ، كما طبع فى مدينة إزمير سنة ١٥٥١ ثم فى سنة ١٥٧١ . انظر حكاية للنفوس الإسلامية : مادة التنجيم .

(١) كدليل على فساد علم التنجيم فى بعض فصول الإسلام قبل قيام الدولة العثمانية بقرون طويلة ما رواه التاريخ من أن جوامع الصقل لما أريد تأسيس مدينة القاهرة أحضر المنجمين ، وأمرهم بتحديد طالع ميعاد لوضع الأساس ، فخطوا بذلك السور قوائم من عشب ، ووصلوا بين كل قائمة على حدة إلى أبرمها ، وقالوا لها : إذا تحركت الأجراس فالتوا ما فى أيديكم من طين وسيفر . وبينما كان الهال يترقبون ، وقلق غراب على أحد تلك الهال ، فتمركت الأجراس جميعاً ، فظن الهال أن المنجمين قد حركوها ، فالتوا ما بأيديهم من الطين وسيفر وترسوا فوراً فى الماء . فصار المنجمون : كفتلر فى الطالع لطف ذلك ولهم ما تصدرو ، ويقال إن الترخ كان فى الطالع فى تلك المظلمات عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسورها للقاهرة .

وحل الرخم من أن سطم الترخعين ونصروا الأغصاء الرواية فإن خبرها بين الجماهير دليل على أن الكهنة كانوا يفتنون فى علم التنجيم للروس على الفلك والحسابات الفلكية . ويذكر ابن قتلاص أبو على حزة (٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) ، فى كتابه « ذيل تاريخ دمشق » (طبة —

الخاص ، ويطلق عليه « حكيم ياشى » أى كبير الأطباء ، ويعمل تحت رياسته عدد من المساعدين ، ثم « حراح ياشى » أى كبير الجراحين (١) ، ويعمل معه عشرة من الجراحين كتابية مساعدين له . (٢) ثم منجم يطلق عليه « منجم ياشى » (٣) أى كبير المنجمين . وكان لعلم المنجم مكانة فى البلاط السلطاني تمكن من على المنجم ياشى . وكان يعد تقويعاً بشياً فيه بالآوقات السعيدة للى على السلطان أن يتخذ فيها ما يعتزمه من مشروعات . وكان السلطان يسرشد بما جاء فى التقويم عند تعيين الوزراء ومن إليهم من كبار موظفى الدولة (٤) . ولذلك كان السلطان يؤجل اليده فى تنفيذ مشروع هام حتى يجين الوقت المناسب فى ضوء ما جاء فى تقويم المنجم ياشى (٥) .

الأشراف :

وكانت اقية الإسلامية فى الدولة تضم أيضاً الأشراف ، وهم الذين يسمون من أسرة النبى صلوات الله وسلامه عليه . وكان الأشراف يمثلون أحد نظامين وراثيين وحيلين فى الدولة . والنظام الوراثى الآخر هو وراثة العرش السلطاني . وكانت هذه الوراثة فى أسرة آل عثمان .

وكان يطلق على الأشراف اسماً آخر هو الأسياد ، فيذكر اسم الشريف مسبوفاً بكلمة سيد . ولكنهم كانوا لا يعملون أعضاء فى هيئة العلماء إلا إذا تلقوا فى المؤسسات التعليمية دراسات فى مستوى الدراسات التى يعملها العلماء . وكان بعض الأشراف يقتنون بانتسابهم إلى أسرة النبى صلوات الله عليه ولا يجهلون أنهم فى تنقيف أنفسهم . وكان عدد الأشراف بوجه

— بيروت سنة ١٩٠٨) أن الخليفة العائلى للمزدين الله كان يعتقد فى علم التنجيم ، ويسكنه منسبه فى كل ما يتعلق بحياته الخاصة وبالشئون العامة للدولة العثمانية . (ص ١٤) .

(١) ترد كلمة الجراح فى الكتب العربية القديمة ، وعلى لغة ، فى صور أخرى ، مثل : حراسى بكسر الحيم ، والمرادى بفتح الحيم ، والاسم يفتح الجراح وحى على أيدى مل الطبيب .

D'Oshson Mouradgos Ignatiev ; op. cit., t. iv, p. 548. (٢)

Lybster A.H. ; op. cit., p. 129. (٣)

Gibb Hamilton & Bowen Harold ; op. cit., vol. I Part II, p. 90. (٤)

D'Oshson Mouradgos Ignatiev , op. cit., t. iv pp 551—555. (٥)

عام كبيراً ، وتسل إلى صمولهم عدد من المدعين ، ولذلك لم تكن قصرات هؤلاء المدعين فوق مستوى للشبهات .

وكان الأشراف يتمرون بلباس خاص ، فكان لهم دوى مواهم الحق في ارتداء اللهامة الخضراء ، كما كانت لهم امتيازات شخصية ، فلم تكن توقع عليهم حقوة الصرب ، وكانت لهم محاكم خاصة بهم ، وقضاها من الأشراف .

وفي نطاق الأشراف كانت تسلط الأضواء على شريقتين : أحدهما يحمل علم السلطان ويسير به في المواكب الرسمية والعسكرية ، وكان يتقدم على جميع ضباط الجيش ويطلق عليه أمير العلم . أما الشريف الآخر فكان رئيس الأشراف ويطلق عليه نقيب الأشراف ، وكان يحل المكانة الثانية في الهيئة الإسلامية . وفي الاحتمالات التي تقام خلال شهر رمضان كان نقيب الأشراف يتقدم على معنى الإسلام ، وكان يعين في منصبه مدنى الحياة ، وكان السلطان هو الذى يصدر فرماناً بتعيينه في منصبه . وكان مقره في العاصمة ، وهو يرأس الهيئة القضائية الخاصة بالأشراف ، وله سلطة مطلقة عليهم ويتولى تنفيذ العقوبات عليهم . وكان له جهاز فنى وإدارى يعمل تحت إدارته . ويوجد بعضاً منهم إلى الولايات العثمانية الإسلامية لتقصى الحقائق عن الأشراف وأوضاعهم وما إلى ذلك . وتجرتا هذه المهمة . وهي تقصى الحقائق عن وضع الأشراف في ولايات الدولة إلى الإشارة إلى مركز الأشراف في مصر كمثل يمكن تصوره لوضعهم في سائر ولايات الدولة .

كان للأشراف في مصر نقيب يصدر بتعيينه فرمان من السلطان في استانبول . وكان النقيب يشغل هذا المنصب مدنى الحياة ، ولو أن هذه البداية لم يحترم تماماً وبخاصة عندما ضعفت قبضة الدولة على مصر التي اجتازت فترة ميامية دامية أطلق عليها عهد الانقلابات السياسية أو عهد الاضطراب السياسى (١٨٠١ - ١٨٠٥) ، فقد استطاع أفاق تركى أن يستصدر من السلطان فرماناً في نوفمبر - تشرين ثان - ١٨٠١ بتعيينه نقيباً للأشراف في مصر بدلا من السيد عمر مكرم . ولم يستطع الباشا العثمانى في ذلك الوقت ، وهو محمد

حسرو باشا ، أن يتجاهل فرمان السلطان ، فقلد هذا الباشا نقابة الأشراف في ٢ من فبراير - شباط - ١٨٠٢ للأطراف التركي واسمه يوسف أفندي ، ولحق أهيئت نقابة الأشراف إلى السيد عمر مكرم في ١٨ من أبريل ١٨٠٢ بعد مساع بذلت لدى السلطان في إستانبول^(١) . وكان للموكر المرموق الذي نبأه نقيب الأشراف في إستانبول أصلاء على موكر نقيب الأشراف في مصر ، إذ كان الأخير أبصاً يشغل مكاناً علياً . فهو بحكم منصبه عضو في ديوان القاهرة ، وكان الباشا الهنائي يرجع إليه في كثير من المسائل . وكان يقدم للنقيب فراوى سمور في شتى المناسبات وفي فترات متقاربة على مدار السنة . وكان أشراف مصر يتبنون لقبهم بالطاعة ، وكان يقدم لهم كل ثلاثة شهور مرتبات يطلق عليها جيكية . وكانت هذه المرتبات محددة قيمتها وملونة في مجالات النقابة . وبما هو جدير بالذكر أن السلطان سليم الأول لما فتح مصر سنة ١٥١٧ أبقى على الموارد المالية التي كان يعتمد عليها نقيب الأشراف في صرف المستحقات والمرتبات ، ولمذكور بلاد أعطاهامه السلطان ، ومكنه فيها لأجل معاشه وإعائه على ذلك^(٢) .

الدراويش :

وتلحق بالهيئة الإسلامية أيضاً طوائف الدراويش ، وكانوا كثيرة عديدة كبيرة ، ولكنهم لم يكونوا أعضاء في هيئة العلماء لأنهم لم يتلقوا دراسات علمية منتظمة أو محترمة . وكان الدراويش ينتمون إلى طرق كثيرة . وقد قرر المراقبون في القرن السادس عشر أن عدد هذه الطرق كان يتراوح بين ثمان وعشر طرق ، وإن كان أهمها أربعة فقط . وقد ازداد عدد هذه الطوائف زيادة مطردة وضمخمة فبلغت ستاً وثلاثين في أواخر القرن الثامن عشر . وإن كان البعض الآخر يرى أن عددها مجاوز ضعف هذا العدد ، بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن عددها تقرب إلى أربعة أمثال هذا

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشنغري : عمر مكرم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر . دار الكتاب العربي للطباعة والنشر . القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٩٢-٩٧ .
(٢) حسين أفندي ، مرجع سبق ذكره .

العند^(١). وانتشرت هذه الطوائف في أرجاء الدولة وشملت جميع الطبقات والأقاليم العثمانية^(٢). ومما هو جدير بالذكر أن مدتها بلغ في مصر إبان الحكم العثماني رهاء ثمانين طريقة^(٣). والمعروف عن العثمانيين أنهم يحبون التصوف والدروشة. وقد جعل الجبرتي عليهم ميلهم إلى الدراويش وهو يمرض لحادث حلة حسن باشا الجزائري على مصر^(٤). ويشبه بعض الباحثين^(٥) الدراويش بطوائف الإخوان الفرشيسكان والدموينكان الذين كان يطلق عليهم الشهادون^(٦). وعن طريق الدراويش انتشرت الحزبيات بين الرعايا المسلمين في الدولة ودبرت الفتن. وكانوا يشكلون مجموعهم وتأثيرهم في الجماهير الإسلامية حطوة على سلطة الحكومة. وكانوا يتنادون إلى إثارة الحروب الدينية. وقد مر بنا أن الدراويش قاموا في ٣٦ من مارس - آذار - ١٩٠٩ بدور فعال في تحريك ثورة ضد الحكومة القائمة في إستانبول عقب إعادة الدستور وتنادوا إلى إلغاء التنظيم النيابية وإعلان الشريعة المحمدية واستطاع الدراويش التأثير في جنود حلوية العاصمة وسار اليهود في مظاهرات صاخبة في شوارع إستانبول يتقمهم الدراويش حاملين أعلامهم المختلفة الألوان، ويهتفون هتافاً منغماً « باشا سون شريعة محمدية » أي ترحيباً بالشريعة المحمدية. وأريققت في هذه الحركة جماعة بريئة بين كبار وصغار ضباط الجيش على السواء^(٧). وتقتضي الدراسة الموضوعية أن نذكر أنه كان يوجد بين طوائف الدراويش عدد من العناصر الصالحة ضربوا المثل الأعلى في الأمانة ومحبة

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold, vol. I, Part II, p. 196.

Leo. cit. (٢)

(٣) دكتور توفيق الطويل التصوف في مصر إبان الحكم العثماني. القاهرة، ١٩٤٦، ص ٧٥.

(٤) الجبرتي، ص ٥٠٠ ذكره، ج ٢، ص ١٤٤.

(٥) Lybyer A.H., op. cit., p. 207.

(٦) دكتور عبد العزيز محمد كشكوى. أوروبا في مطلع القرن الحديث الطبعة الثالثة، ١٩٧٧، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٤٤٧-٤٥٢، حاشية رقم ٥.

(٧) الفرص، ص ١١٦-١١٧ في هذه التورقة.

الله ، بينما كان حدد منهم لوصفاً متجولين بارعين يتميزون بمحبة الحركة والقدرة على اختيار الشخص الذى يرى الله مع نظائرهم بالتقوى والصلاح .

الهيئة الإسلامية ونظرة الأوقاف :

كان يشرف على معظم الأوقاف الخيرية مجموعة من الموظفين ينتمون إلى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وكان اختيار السلاطين يقع على شيخ الإسلام وعلى غيره من كبار رجال هذه الهيئة نظاراً على الأوقاف المرصودة على مساجدهم وغيرها من الأوقاف الخيرية ، بينما كان البعض الآخر من السلاطين يختارون الصبر الأعظم لتتظر على هذه الأوقاف . أما أوقاف الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة فقد تبادل التنظر حلها بمعاونة أو بإشراف رجال الهيئة الدينية كل من رئيس الخديان البيض - باب السعادات أغاى - ورئيس الخديان السود - قيزلر أغاى - وفى القرن الثامن عشر كان الأخير يشرف على الأوقاف المرصودة على حسانة مسجد وكان يساعده عدد من رجال القضاء يطلق عليهم " حرمين مفتش " أى مفتشى الحرمين وإثنان من القضاء من فئة نائب يقيم أحدهما في بروسة والآخر في أدنة .

ومن الخصيلة الضخمة التى كانت تظنها الأوقاف الخيرية تنوعت أوجه الإنفاق نوعاً متحلاً . فالأراضى الزراعية الموقوفة على الهيئة الإسلامية كانت تشكل إيراداتها المنتجة المال الذى تؤخذ منه الأعبادات المالية للإنفاق على جميع أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، كما شملت أوجه الإنفاق المنشآت الدينية والتعليمية والاجتماعية ، ووضح في أوجه الاتفاق التكامل الاجتماعى الإسلامى في أروع صوره ، وتمثل فيها أيضاً حرص الواقفين على تأمين اللداع عن أراضى للدولة بصفحتها دار الإسلام هدف في مواجهة دار الحرب ، وما تتطلبه هذا التأمين من الإسهام المالى في تحصين البلاد وإقامة التحصينات العسكرية والتهوى بالأسطول البحرى الحربى العثمانى وكان الواقفون يذكرون في صلب الوثيقة أوجه الإنفاق التى يريدون توجيه إيرادات الأوقاف إليها .

وكان المشرفون على هذه الأوقاف يلزمون إلزاماً دقيقاً بتوجيه الإنفاق إلى المصارف التي يحددها الواقعون .

كان يصرف من إيرادات الأوقاف الخيرية على المساجد والزوايا والتكايا والأسبلة والحدائق والمستشفيات والملاجئ وبيوت النساء الأرمي والمطابخ والمغاسل والحمامات العامة ، فضلاً عن المؤسسات التعليمية مثل المدارس والمكتبات والمكاتب ، وتنظيم رحلات لتلاميذ وطلاب المدارس يقومون بها في فصل الربيع . وكذلك كانت توجه من حصيلة إيرادات الأوقاف أعمدة مالية لتقديم المال إلى المحزين ومساعدة البائس عند زواجهن ، ودفع الديون من المدينين المسجونين ، وتقديم مساعدات مالية لسكان بعض القرى وأحياء بعض المدن لدفع الضرائب العرفية (١) ، وتقديم المال لتجهيز ودفن الفقراء . وكانت إيرادات الأوقاف الخيرية توجه شطر منها لتقديم مساعدات عينية في شكل ملابس لتلاميذ وطلبة المدارس والفقراء الطاعين في السن ، وشراء كميات من الأرز أو الحبوب لإلتقاء تطيور في موسم الحليد نظراً لشدّة البرد ، وشراء طعام للحيوانات . وكان بعض إيرادات الأوقاف يوجه للإتفاق على القوات المسلحة في الدولة وتمويل عمليات إنشاء الحصون وصيانتها وإقامة تحصينات عسكرية والإتفاق على السفن الحربية . وكانت بعض الإيرادات توجه أيضاً إلى الأشغال العامة Public works التي تشهدها الخريف العام ويعود نفعها على المجتمع كله ، مثل إنشاء العرق ، وإقامة الكبارى ، وسفر القوات الصغيرة التي تعد للقرى بالمياه العذبة ، وبناء المنائر لتحقيق الأمن للسفن عند اقترابها ليلاً من الثغور .

الدولاب وأوجه استغلاله :

كانت إيرادات الأعيان الموقوفة تزيد أحياناً على المصروفات المخصصة

(١) أطلق على نوع من الضرائب في الدولة العثمانية اسم الضرائب العرفية تمييزاً لها عن الضرائب الشرعية التي تستحق أصلاً وجوبها من سبلحة الشريعة الإسلامية . أما الضرائب العرفية فتقتصد سنحاً للقانون من السلطات المتولة للسلطان السلبي بمقتضى الرئيس الأعلى للدولة يقررها لمواجهة النفقات غير المتوقعة .

للإتفاق على المؤسسات الدينية أو الخيرية المخلدة في بصوص الوقفية . وكانت تحدث هذه الزيادة في الأوقاف السلطانية بوجه خاص . وكانت هذه الزيادة أو الفائض تشكل مالا احتياطياً يطلق عليه « الدولاب » ، وهي كلمة فارسية معناها أسطوانة تدور حول نفسها توصل في فتحة في حائط مؤسسة خيرية مثل دار اليتامى أو دار النساء الأرملة ، ويصح فيها الغيرون التبرعات أو الصلقات رضى إلى الله . ومن هذا الدولاب أو الفائض كانت إدارة الوقف تشتري أحياناً جديلة سواء كانت أراض رراعية عوافة السلطان أو عقارات مبنية مثل الخوانيت والحواصل والطواحين وما إلى ذلك مما يمتلكه الأهالى ، ثم يبيع هذه وثائق على المؤسسات الدينية أو الخيرية أو غيرها . وكانت تتم عمليات الشراء وإجراءات تسجيل الوقفية في المحكمة وفي المكاتب المتخصصة بسرعة ومرونة ملحوظتين بحيث لا تتأخر أمام التعقيدات المكتبية ، أو ما يسمى « الروتين » وحتى يعم الخير المرتضى قطاعات دينية وخيرية واجتماعية جديلة . فهذا وجه من وجوه استفلال الدولاب أو الفائض . وهو استغلال يحمل الطابع الدينى الخيرى .

وكان هناك وجه آخر من وجوه استغلال الدولاب حين كانت الحكومة المركزية تلجأ إلى الاقتراض من « الحرمين دولابى » أى الفائض من إيرادات أوقاف الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة . وكان الهدف من الاقتراض هو مواجهة أزمة مالية ، أو عند شروع الحكومة في تنفيذ مشروعات عامة حاجلة ، أو خوض حرب . وهذا الوجه الثانى من أوجه استغلال الدولاب يحمل الطابع القومى ويستهدف المصلحة العامة . ويصفهم منتظرون على الأوقاف الخيرية أتيح لرجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة عديد الفرص للتدخل في القطاعات الحكومية وفى شتى نواحي الحياة ، وجعلهم على اتصال وثيق ومستمر بالثقافة الجاهلية الشعبية وارتفعت مكانتهم في هذه الأوساط .

(١) يه الدولاب إلى حد ما في الوقت الحاضر صندوق الثروة التي توضع في عدد من المساجد بجمهورية مصر ، مع فارق هام هو أن حيلة صندوق الثروة لا تنوجد إلى شراء عقارات وجعلها على مؤسسات دينية أو تعليمية ، بل يوزع جزءها في سلوة يسه منه على موظفي المسجد وطلابه ، ويحول الباقي إلى وزارة الأوقاف .

الهيئة الإسلامية والمساجد :

ولم تكن وظيفة المساجد الكبرى في مفهوم الدولة مقصورة على إقامة الصلاة فحسب ، بل كانت تلحق بهذه المساجد منشآت حجرية تضم مدرسة ومكتبة تحمل بكتوز من التراث الفكري الإسلامى سواء باللغة العربية أو التركية أو الفارسية ، وكانت المدرسة أو المعهد الملحق بالمسجد يسمع لسكنى الأساتذة والطلاب ، كما كانت تضم هذه المباني حماماً ومطبخاً وداراً للعجزة والشيخوخة ومستشفى وفندقاً صغيراً ينزل فيه الغرباء ويطلق عليه الخان ، وكان المسجد الكبير وما يلحق به من هذه المؤسسات يبدو كأنه مدينة مستقلة للأعمال الخيرية العامة . ومن المساجد التي طبق فيها هذا النظام مسجد محمد القاتع وسليمان المشرع وأحمد الأول في إستانبول وييلديرم بايزيد وجنبي محمد في بروسه ، وجميع أدرنه (١) . وكان السلاطين ووزرائهم يتنافسون في إقامة هذه المنشآت الخيرية . وإلى دمشق امتد هذا النظام على عهد السلطان سليمان المشرع ، فقد أقام مكان قصر الألبق الذى كان قد شيده السلطان بيبرس البندقدارى مدرسة وتكية إلى جانب المسجد (٢) . وكان يفتق على المسجد وتوابه والموظفين الذين يماون في هذه المنشآت من إيراد الأراضي الموقوفة على الهيئة الإسلامية كما سبق أن ذكرنا

الهيئة الإسلامية ومدارسها :

كان الهيئة الإسلامية نظام تعليمي دقيق . كان لابد أن يمر في جميع مراحل التطور إلى الوظائف الكبرى في هذه الهيئة . كانت المدارس تلحق بالمساجد وتنقسم إلى ثلاث مراحل :

١- المدارس الابتدائية ويطلق عليها المكاتب ، وعرفت في القرن

(١) بروكلمان كركل : الأتراك السنيون وسنارهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) محمد جميل يلم : العرب والترك في الصراع الفخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

السابع عشر باسم « أوكوماك يريرى » ومعناها أماكن القراءة وكانت تعلم القراءة والكتابة باللغة التركية واللغة العربية وبعض سور من القرآن الكريم .

٢- المدارس المتوسطة وكان يدرس فيها عدة مقررات في النحو والبلاغة والنطق والمنطق وحل المسائل وفقه اللغة . وكان المتخرجون في هذه المدارس يعينون مدرسين في المدارس الابتدائية أو يعملون وحفاظاً وأئمة في المساجد .

٣- المدارس العالية وتدرس فيها الشريعة والقانون . ويتعمق الطلبة في دراسة العلوم الشرعية والقانونية كالحدیث والفقه وأصول الدين ، كما كانوا يدرسون القوانين الوضعية . وكان يعين على الطلبة لوظائف القضاء والإفتاء أن يواصلوا دراساتهم العليا . ويشترك شيوخ الإسلام اشتراكاً فعلياً في امتحاناتهم . وكان الطلاب الناجح يجمع لقب ملازم . ولم تكن هناك سنوات عديدة لمراحل للتأليف . وكان المعيار في تحديد سنوات الدراسة هو الاستعداد العقلي للطلاب وقابليته للدراسة . ولكن كانت الدراسات العليا تفتى في سن يتراوح عادة بين الثلاثين والأربعين .

ولم يكن التعليم إجبارياً ، كما أن المدارس التي تشرف عليها الدولة لم تكن تلجأ لجميع الأطفال المسلمين على الرغم من وفرة عددها ، وكان عدد المدارس الملحقة بمسجد السلطان محمد الفاتح ثمانية ، وعدد المدارس الملحقة بمسجد سليمان خمس مدارس .

وكان من المفروض أن الأب المسلم الذى يسكن مدينة ويريد أن يلقى ابنه في مدرسة كان لا يعمل بينه وبين إلقاء ابنه بمدرسة المدينة . وكان التعليم ينفذ في المدارس الابتدائية . وغضلاً عن ذلك كانت تقدم لبعض تلاميذها الطعام وتأوى بعضهم في مبانيها . أما المدارس المتوسطة فكانت تقدم مثل هذه الخدمات لبعض تلاميذها . وفي المدارس العالية كان الطلاب يتقاضون مرتبات شهرية . ويقرر المؤرخ الأمريكى ليبير أن النظام التعليمى فى مدارس الشيعة الإسلامية كان يفوق أى نظام تعليمى آخر فى دول أوروبا فى ذلك الوقت .

وكان الثمانيون يؤمنون بفائدة التعليم وضرورته . ولكن ما أقصد التصميم روح المحافظة على القديم . وهي روح متأصلة في نفوسهم جعلت هذا النظام التعليمي العثماني يتقلب من نعمة إلى نقمة ، إذ ظلت نظم التعليم وبرامجه جامدة لم تتطور . وتعاقبت القرون دون إدخال أى تطوير عليها . ونجم عن هذا النظام العصبي في مدارس الهيئة الإسلامية والذي كان في بدايته مزدهراً وأخرج نخبة من العلماء أن تجرد في ذات الوقت الذي كانت فيه الدول الأوروبية تخطى قسماً في تطوير نظمها التعليمية

الهيئة الإسلامية وموظفو الجوامع والمساجد :

كان يقع الهيئة الإسلامية موظفو الجوامع والمساجد ، وهم : الإمام ، وخطيب الجامع ، والواعظ ، والمؤذن ، والقسم . وكان المستوى العلمي هؤلاء الموظفين لا يرقى إلى مستوى أئمة هيئة العلماء ، كما أن نفوذهم لم يكن كبيراً في دوائر الحكومة ، وإن كانوا موضع التقدير والإجلال من الجماهير .

كان الإمام يؤم المصلين يومياً . وكان خطيب الجامع يلقي خطب صلاة الجمعة وعيد العطر وعيد الأضحى ، ويؤم المصلين في صلاة الجمعة والعيدين . وكان الخطيب أعلى مركزاً من إمام المسجد ، لأن طبيعة عمله تتطلب أن يكون ذا مستوى علمي يفوق المستوى العلمي للإمام ، فهو يتناول في خطبه المسائل الدينية وقضايا الساعة وموقف الشريعة الإسلامية منها ، وكان يدعو في خطبه للسلطان العثماني الحاكم بالتوفيق في حكم الدولة ويأثّر على أعدائها . وكان الدعاء للسلطان في خطب الجمعة والعيدين مظهر من مظاهر السيادة السياسية للسلطان ، ويعد الدعاء قريناً لسك العملة باسم هذا السلطان . أما الواعظ فكان يلقي دروساً دينية في رحاب المسجد ويصبر المسلمين بشؤون دينهم وديارهم عقب صلاة الجمعة أو بعد صلاة العصر أو في الفترة التي تتخلل صلاة المغرب وصلاة الشتاء . أما المؤذن فكان يختار لرعاية صوته . وقد اهتم الثمانيون اهتماماً كبيراً بالأذان . وفي المساجد الجامعة والكبرى كان يشترك عدد من المؤذنين في أداء الأذان في وقت واحد وصوت واحد

حلب يخلق جواً روحانياً يشد المسلمين إلى الصلاة . وكان يسبق تعيين المؤمنين فترة تلويح يقضيها كل منهم على أداء شئ أنواع الأذان . وكان عليهم - بجانب الأذان - أن يرتلوا بعض الآيات . ويتخصص بعضهم في ترتيل آيات القرآن الكريم . أما القسيم فكان يشرف على موظفي الجامع أو المسجد ويراقب حضورهم في الوقت المناسب ، أي قبل حلول موعد الصلاة بوقت كاف ، ويراقب أداء أحدهم على الوجه الأكمل .

ولم تكن المساجد الجامعة تحصل على عدد متساو من الموظفين ، بل كان عددهم يريد ويتقص تبعاً لأهمية الجامع أو المسجد ، وبخاصة المساجد الجامعة السلطانية ، وتبعاً للموارد المالية الموقوفة على الجامع . ففي بعض المساجد الجامعة كان يوجد في كل منها اثنا عشر مؤذنًا . أما مسجد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) والذي شيد في مطلع القرن السابع عشر فكان يضم ستة وثلاثين مؤذنًا . وقد هنا هذا المسجد في فترة من الفترات أعظم المساجد السلطانية في الدولة . أما في المساجد الصغيرة فكان لا يوجد سوى إمام يقوم أيضاً بوظائف الخطيب والمؤذن والقسيم .

وكان التعيين في تلك الوظائف يتم بمعرفة المشرفين على المؤسسات الخيرية التي تدفع مرتبات موظفي المساجد . وكان وعاظ الجوامع السلطانية في إستانبول هم الذين لا يخضعون لهذا النظام في التعيين ، إذ كان شيع الإسلام هو الذي يتولى تعيينهم . فكانوا يشكلون فئة قائمة بذاتها وكانوا يبدلون حياتهم الوظيفية في المساجد المشيئة حديثاً ، فإذا رفقوا انتقلوا إلى المساجد الأقدم . وإذا امتد بهم الأجل وصلوا في ترقية إلى مسجد السلطان محمد الثاني الذي كان من قبل كاتدرائية القديسة صوفيا وأصبح قبة المساجد السلطانية . ومن أجل هذا السبب كان وعاظ هذه المساجد في مرتبة أعلى من مرتبة خطبائها ، بينما كان الخطباء في المساجد أهل مركزاً من الوعاظ وكان قسمن موظفي سائر المساجد القائمة في إستانبول يتطلب صلور تصديق أو موافقة شيخ الإسلام . أما موظفو المساجد القائمة خارج العاصمة والمنشرة (م ٢٩ - الدولة العثمانية)

في أنحاء البلاد ، فكان الأمر يتطلب صدور قرار باعتبار تعيينهم من أحد قاضي المسكر تبعاً لموقع المسجد إذا كان في أوروبا أو في آسيا .

الهيئة الإسلامية والحكومة العثمانية :

كانت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وهي تباشر اختصاصاتها في شتى مجالات عملها تخرس حرصاً بالغا على أن تكون مبادئ الشريعة الإسلامية موضع التنفيذ الدقيق والاحترام العميق من جانب الحكام والحكوميين على السواء . والدولة العثمانية دولة دينية ، واقسمت مبادئها العليا ومعظم تصرفاتها بالطابع الديني الإسلامي الذي كان من أبرز خصائصها . والأتراك العثمانيون شعب مطوع لحكومته ، غيور على دينه ، محافظ على تقاليده ، يعتقد أن النفس بأهلب الشريعة الإسلامية أسلوباً ومنهجاً وسلوكاً في الحياة يكفل للإنسان السعادة والنجاح في الحياة الدنيا والنعيم في الحياة الآخرة . فكانت الهيئة للهيئة الإسلامية الحاكمة ، وعلى رأسها شيخ الإسلام ، تؤدي رسائل الإسلامية نشرها وتطبيقاً وقضاء وإفتاء . وينبأ أفرادها مكاناً علياً وهم يشغلون تلك المناصب المرموقة . فكانت الهيئة الدينية هي صمام الأمان للشعب والحكومة معاً . وكان نفوذ الهيئة يغطي جميع أرجاء الدولة ويمتد إلى خارج حدودها السياسية .

وكانت الوشيجة الدينية والولاء للدولة يربطان المسلمين رعايا الدولة والذين جاوروا من عائلات إسلامية بمرور وثق . حقيقة لم يكن هذا الخط من التفكير الديني والسياسي يغلب على جميع الرعايا المسلمين ، كما لم يكونوا جميعاً من أتباع المذهب الحنفي وهو المذهب الرسمي للدولة ، ولكنهم كانوا جميعاً مسلمين فخورين بدينهم ، يخشون إخلاص عامر للإسلام ، ورغبة دافعة للعمل من أجل تحقيق حقوق الإسلام في أرجاء العالم . وإذا كان بعض المسلمين نظروا إلى نظام الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة على أنه نظام غير مثالي ، لأن الدولة أوجدت بجانبها طبقة الصييد - القولا - واصطنعتهم أدوات للحكم والحرب وأخذت عليهم الامتيازات إغداقاً ، فإن نظام الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كان على كل حال ، وفي رأيهم أيضاً ، نظام يلود

به المسلمون ، ويعين على صمود الإسلام كتيق عالمي أمام البابوية في روما وأمام الدول الأوروبية المسيحية . وكانت هاتان القوتان المسيحتان قد أظهرتا لنداً في العلماء للدولة الألمانية .

وباستثناء طائفة الأشراف الذين كانوا يحملون من نسل قنبي محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وباستثناء طوائف الدراويش الذين كانوا يمارسون ألواناً من النشاط الديني ، فإن جميع وظائف الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كانت متاحة لكل أفراد الهيئة الإسلامية أي المسلمين الأحرار طالما كانوا مؤهلين علمياً لتولي مناصبها ذات النفوذ الواسع والأهمية البالغة . كانت هيئة العلماء وهي تضم ثلاث فئات ، هم : الأساتذة والمقصدا والمفتين قد تلقى أفرادها العلم وفقاً لنظام تعليمي واحد ، واستقوا المادة العلمية من نفس المصادر والمراجع ، والتحقوا بمنازل وكتبات مفتوحة للجميع من أفراد الهيئة الإسلامية بمضى الطالب في رحابها سنوات طوالا يتلقى الدراسات إلى نهاية الشوط إذا كانت استمداداته العقلية تؤهله لاستكمال دراساته العليا ، ولا يتكبد دواء نفقات تعليمه ، لأن الموارد المالية التي تدرها الأوقاف الدينية الإسلامية كان يوجه جزء منها للإعانة عليه وانتشرت المدارس في أرجاء الدولة في القارات الثلاث تقدم العلم للراغبين فيه على يد العلماء . ولم يكن مستوى التعليم يقل في مستواه عن مثيله الذي سبق أن تلقاه هؤلاء العلماء حين كانوا يطلبون العلم . كانوا يتولون التدريس لنوعيات مختلفة من التلاميذ : الطلاب شباباً وشيبة ، أفراد طبقة القولا الحاكمة ، الأمراء ، والسلاطان الحاكم نفسه ، إذ كان يعمل على مقربة منه خوذة السلطان ، أي معلم السلطان ، وكان بمثابة مستشاره . وكان السلطان يكن له احتراماً عميقاً وتقديراً بالغاً . وكلما مصت الحياة بهؤلاء العلماء تشعبت أمامهم المسالك إلى وظائف القضاء والإفتاء بل إلى منصب شيخ الإسلام . وبذلك لم يظل أثر العلماء مقصوراً على الأفراد في مجالات التعليم ، بل امتد إلى مستقبل الدولة نفسها . كان عريق منهم يعملون في الحاكم قضاء ومفتين ، وعريق آخر يعملون في المساجد والمؤسسات الدينية في شئون الدعوة

والإرشاد والتوجيه . وفوق هذا كله كان بجانب كل موظف كبير في الإدارة المركزية وفي حكومة كل ولاية قاض أو معتمد يسدى إليه الرأي في المسائل التي يستلزم فهمها على ذلك الموظف الكبير ، فيتولى شرحها له في ضوء مبادئ الشريعة الإسلامية .

امتيازات علماء الدين :

وأصبحت الدولة على العلماء بعض الامتيازات المهمة مثل الإعفاء الضريبي . وكانت يمتلكون لانحصر المصادرة ، ولا تؤول ملكيتها على الإطلاق السلطان . فكانت يمتلكهم تودث لأولادهم ودرارهم حسب قواعد الشريعة الإسلامية . وقد رادت هذه الامتيازات من مكانة العلماء في نظر البهايم^(١) . ومنذ أوائل القرن السادس عشر كان أصحاب المناصب الدينية الكبرى ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام وقضاة المسكر وخروجة السلطان والقضاة من فئة المولا الكبير والمخترون ومن إليهم من العلماء ، يتقاضون مرتباً إضافياً أطلق عليه « آرية لق » أي مال الشعير^(٢) . وكان هذا المرتب في أصله عبارة عن علاوة تمنح لأولئك الذين يحتضنون بقوات من القرمسان المعروفين باسم السباهي أو يناط بهم العناية بالغيل سواء في الجليش أو في الإمطيلات السلطانية ، ثم توسعت الدولة في تطبيق هذا المرتب على رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة بعد أنصى لأصحاب المناصب الدينية الإسلامية سبعة آلاف أسير^(٣) . ومنذ القرن الثامن عشر أصبح منح هذا المرتب الإضافي مقصوراً على شاغل المناصب الدينية الكبرى

ويلخص الأستاذ ألبرت جوراني الخطوات الرئيسية الدالة على اهتمام الدولة العميق بالهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وذلك في شق المجالات التي امتد إليها نشاط هذه الهيئة فيقول . . « كانت السلطنة دولة عمكم في نطاق

Lybyer A. H., op. cit., p. 203.

(١)

(٢) آرية في اللغة تركية معناها الشعير .

(٣) دمج الكتاب الأوروبيون على استعمال كلمة أسير أو أمير Asper أو Aspro

على كلمة تركية أتجة « بضم الفراء وضحا » وهي كلمة تركية معناها مائل إلى اليأس وهي تحصل للدلالة على المسكوكات النضية وخاصة الصغيرة منها .

الشرعية الإسلامية وتتكف على تحقيق أغراض الإسلام الكبرى . وكانت سنية المذهب من شعور زاده حلة طول للصدام مع الدولة الصغوية التي كانت شيعية . وبفضل ما كان للعلماء من قربة وحب للترتيب والوصوح قامت الدولة العثمانية بتنظيم هيئة العلماء على شكل سلسلة من الرتب المحددة والتعيينات الرسمية والمراتب التي تجري عليهم بصفة رتبة ومنظمة . وكان رؤساء هذه الهيئة الدينية وهم شيوخ الإسلام ، وكبار رجال القضاء والإفتاء يستشارون في الشؤون العليا للدولة . وكان القضاة في الأقاليم هم السنين الرئيسى الذى يتم عن طريقه الاتصال بين الحكومة المركزية والرأى العام الإسلامى في المدن الكبرى . وبسطت الحكومة رعايتها وحديثها على المدارس الإسلامية في المدن الحرة ، وقامت هى من ناحيتها بإنشاء مدارس جديدة في إستانبول لتعليم أولئك الذين سيشتغلون أعلى المناصب في الهيئة الإسلامية في قبال الأيام » (١) .

وقد عمد المؤرخ الأمريكى ليبر Lybber إلى تشبيه الهيئة الإسلامية بيد الإنسان ، وتشبيه الحكومة العثمانية بالقفاز الذى يضمه الإنسان في يده . ومهد لهذا التشبيه بقوله إن الهيئة الإسلامية كانت تشمل جميع الرعايا المسلمين الأحرار الذين جاؤوا من عائلات إسلامية ، وهؤلاء يشكلون القاعدة الجاهريّة العريضة والقفاز لابد أن يكون مناسباً ليد ملائماً له ، كذلك كانت الحكومة العثمانية مناسبة وملائمة للهيئة الإسلامية ، واستطرد ذلك المؤرخ فقال إن التشبيه ينحسب إلى أبعد من هذا الحد . فاليد تؤدى وظيفتها بنفس الكفاية سواء بالقفاز أو بدون قفاز ، بينما يكون القفاز عديم الفائدة بدون يد الإنسان . ومضاه عن ذلك فإن اليد تعيش مع الإنسان وتلازمه في شتى مراحل حياته . واليد ترقى علواً كبيراً من القفازات ، وكلما بلى قفاز استخلفت اليد قفازاً جليداً ، وتستمر اليد تؤدى وظيفتها ما بقيت تنبض بالحياة (٢) .

Hourani Albert ; The Ottoman Background etc, op. cit., (١)

Lybber A.H. ; op. cit., pp. 223-226.

الفصل السادس عشر

دراسة مقارنة بين الهيئتين الحاكمتين

المنابع الأولى لنظام الهيئتين :

حاول بعض المؤرخين والباحثين تضييق المنابع الأولى التي امتدق منها الأتراك العثمانيون الفكرة الأساسية التي قام عليها نظام كل من طبقة القولاك الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . وقد أرجع فريق منهم المنابع أو الأصول التي قام عليها نظام طبقة القولاك إلى الصين وفارس القديمة بحكم مجاورة هاتين الدولتين للمهاد الأولى التي نشأ فيها الأتراك العثمانيون في مناطق الإستبس في أواسط آسيا . وقرر فريق آخر أن أسلاف سلاجقة الروم هم الذين تولوا نقل الآراء التي قام عليها نظام طبقة القولاك إلى الأتراك العثمانيين الذين تأثروا بعلومهم بعد ذلك بالمؤثرات البيزنطية ، كما أنهم تأثروا بمؤثرات الصليبيين الذين وفدوا من أوروبا ومروا بمنطقة آسيا الصغرى وهم في طريقهم إلى الشرق الآسيوي الإسلامي حيث استقروا حيناً من الدهر وتركوا بصماتهم في هذه البقاع . ويضيف هذا الفريق من المؤرخين والباحثين إلى ذلك أنه نجم عن هذه المؤثرات في مجموعها أن الأتراك العثمانيين لم يكسبوا بالأخط بنظام طبقة القولاك كما نقل إليهم فحسب ، بل عمدوا إلى تطبيقه بأراء جديدة فرسختها عليهم الملائسات التي أحاطت بهم منذ إنشاء دولتهم ، وآتهم مصوا في تحويل هذا النظام سواء في آسيا الصغرى أو في الأقاليم التي دانت لحكمهم في الجنوب الشرقي من أوروبا إلى عصر السلطان سليمان المشرح . أما فيما يخص بالهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فقد ذهب فريق من المؤرخين والباحثين إلى أن الأتراك العثمانيين قد استمدوا الهيكل العام لهذه الهيئة من النظم التي كانت سائدة في الدولة الساسانية .

ومن الصعب تحليل هذه الآراء التي تبدو أنها آراء استهادية أو افتراضية تتطلب منا أن نغوص في دراسة النظم التي كانت قائمة في ثلاث الدول القديمة لنكتبن وجه الحقيقة . وهذا الأمر يخرجنا بعيداً وبعيداً جداً عن نطاق الدراسة التي نقوم بها ، ومثل هذه الدراسة لا تسمح لنا بالتمرض لتاريخ نظم قامت في دول موغلة في القدم . ولهذا نرى أن نكتفي بذكر أوجه الشبه وأوجه الاختلاف وأوجه التداخل بين هاتين الهيئتين اللتين كانتا من المعالم البارزة في تاريخ الدولة العثمانية ، وقام على اكتاف أفراسها كل الإنجازات الحربية والإدارية والتشريعية والدينية والاجتماعية .

أوجه الشبه بين الهيئتين :

كان من أوجه الشبه بين طبقة القولاخ الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أنها اتخذتا من التعليم وسيلة للبقاء والاستمرار والأخذ بأسباب القوة والبناء . فكان لكل منهما نظام تعليمي خاص بأفرادها يتمشى مع رسالتها ويحقق أهدافها . كانت طبقة القولاخ الحاكمة تقدم إلى أبنائها تعليماً تتلون التربية العسكرية وتناول أيضاً النواحي التحقيقية العلمية الحديثة ، بينما كان اهتمام الطبقة الإسلامية مقصوراً على الدراسات العقلية ، وفي مقدمتها علوم التريسة وأصول الدين ، وأهملت إعمالاً تاماً التربية الرياضية .

وحرصت كلتا الهيئتين على تزويد القاعدة العريضة بتلاميذ جدد تقدم لهم التعليم وفقاً للمناهج الموضوعة لكل هيئة . وكان الصف الأول في كل من هاتين الهيئتين يجهز دولماً رصيداً لا يعتمد من رجال الصف الثاني ليشغلوا عنه المناصب العليا أو القيادية التي تحملها بعض الأيام . وبالمثل كان الصف الثاني يجهز معيناً لا ينضب من رجال الصف الثالث معلماً من الوظائف الشاغرة . وهكذا مضت عملية حل الصفوف في كل هيئة وفق خطة مرسومة ونظام رتيب .

واتشهر أفراد الهيئتين في شتى القطاعات المدنية والعسكرية عمل أفراد طبقة القولاخ والجيوش وفي الإدارة المركزية وفي حكومة الولايات وفي البلاط السلطاني . وكان أعلى منصب وصلوا إليه هو منصب الصدر الأعظم .

وعلى هذا النحو عملوا أدوات للحرب والحكم والطمعة الداخلية والخسنة الخارجية للسلطان في قصوره . أما أفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فقد شغلوا منصب القضاء والإفتاء وتدرّس علوم الدين واللغة والمشاركة على نحو ما في إدارة الأوقاف الخيرية وإقامة الشعائر الدينية والإشراف على المساجد والمؤسسات الدينية والخيرية مثل الكتّاب والأسبلة وغيرها . وكان أفراد من الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة يصحبون شق فرق الجيش إلى ميادين القتال ويقومون قبل المعركة بتسحين الجنود وروحياً ابتغاء رفع روحهم المعنوية ويضربون للجنود أروع الأمثلة على استقبال الجنود المسلمين في صدر الإسلام حين انطلقوا على موجات بشرية متلاحقة من قلب شبه الجزيرة العربية واتجهوا شرقاً إلى العراق وفارس ، وشمالاً إلى بلاد الشام ، واتجهوا إلى مصر ثم شمال إفريقيا ، وعبروا البحر المتوسط إلى الأندلس . ويتكبرون لهم الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تدور حول الجهاد الدنيوي والآخر يلحظون المسلمين : النصر أو الاستشهاد . ويشرحون لهم مواقف الصحابة واسترخاضهم الموت حتى استطاعت الجيوش الإسلامية العربية وتحت ذلك أن تلكع معازل دولة القروس والولولة البيزنطية كما كان رجال الهيئة الدينية الإسلامية يؤمنون الجنود في صلاة الخوف (١) وهم في ساحات القتال وكان أعلى منصب يصل إليه أفراد هذه الهيئة هو منصب شيخ

(١) من المعروف أن العرب لا يعتنقون أداء الصلاة في طائفة واحدة وفي ساحات القتال بينا المسلمون يترسّون بهم ، يردّهم الاسترخاء أو الانشغال من القتال ولو لفترة قصيرة ولعلهم على غيرة وتقدير من الله سبحانه وتعالى فطروا الطلعة والشفقة التي يجازب بها المسلمون ، وتمكّنوا لهم من إقامة الصلاة ، وتفسيراً طيباً لها ، فقد وردت في القرآن الكريم صلاة الخوف في قوله تعالى : « وإذا كنت فيهم فأولت لهم الصلاة ، فليفتح طائفة منهم معك ، وليفتحوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكبروا من وراءكم ، ولتفت طائفة أخرى لم يصلوا فليجوزوا معكم ، وليفتحوا أسلحتهم ، ود اللهم كفروا لو تفلحون من أسلمتكم وأسلمتكم ، فليولوا طاعتكم حقة واسعة . » سورة النساء ، صدر الآية للكرامة رقم ١٠٢

وفي صلاة الخوف تنضم الجيوش إلى الوحدة - سرية كانت أو صبيح - بشرط أن تكون مضمومة ، إلى جيوش مجرعة الاستعداد للهجوم القوي ومواجهة العدو والمهارة الفائقة مع الإلزام ، فبصل بهم وكثيراً في الصلاة الربانية ، ثم يسلمون من الصلاة وينصرفون

الإسلام . وكان أكبر منصبين في الدولة - الصلوة الأعظم وشيخ الإسلام - يتم التعيين فيها بمرمان يصلونه السلطان شخصياً ومباشرة لكل منها ، ويستقران في منصبيهما في العاصمة على مقربة من العرش السلطاني . وكذلك كان شأن معظم كبار أفراد المليكين .

أولاً : اختلاف الأساس الذي قامت عليه الهيئات :

كان من أهم أوجه الاختلاف بين طبقة القولاخ الحاكمة والمهية الدينية الإسلامية الحاكمة أن الأساس الذي قامت عليه كل منها كان يختلف عن الآخر اختلافًا جلياً . قامت طبقة القولاخ على أساس مصطنع غير طبيعي ، ولذلك لم يقدر له الاستقرار أملاً طويلاً . كان أفرادها عبيداً للسلطان ، ولكنهم لم يولدوا عبيداً . لقد جاءوا إلى الحياة أطفالاً مسيحيين أحراراً ، ثم تغير وضعهم الديني والقانوني والاجتماعي ، فتبدلوا مسلمين عبيداً للسلطان . ولم يكن في الاستطاعة أن تخفى هذه العملية المصطنعة أعصرها وأدهارها وأساقها دون أن يتربها وهن ثم اضمحلال يؤدي بها إلى التوقف والذوال . وقد ذكرنا من قبل أنه كانت هناك أربعة منابع حصلت منها للدولة على أفراد طبقة القولاخ الحاكمة : أسرى الحرب ، الفراء ، المدايا ، ضريبة الظلان . ومضى

— لا سلام مهم المحبوة الأولى التي تلقى بدورها لتعمل في الصلاة خصي مع الإناء ركعتين تسلم بعدما أما في حالة الاحتياك القتل أو قتل الملاحم فإن أهلوس يسنون بالإيماء ومهم أسلمتهم . ولا يشترط حيلة انتظار القبلة ، لأنه شرط مع القدرة على وقد حل الرسول صلوات الله وسلامه عليه صلاة الخوف على أنواع عطفه لتزولها بالتفصيل كتب القصة . والخوف من علة الصلاة هو التوقف بين ضرورات القتال وما يجب به من تجهيز وسر ، لإسهام مكانة العدو وجهاته المباشرة ومن اقتلاد حدة النصر كلفة ، وفي أروما الصلة بالله في الصلاة إذ هي السلاح الأول من أسلحة قصر في المعركة لا يجرى تركها أو تأجيلها ، ليعلم تلك الآية الكريمة في صلاة الخوف مع رسول الله ومع خلفائه وأئمة المسلمين المتقدمين يسته .

انظر :

أبو ظهير صديق بن حسن بن عز الحسين القنوص البخرى : الروفة الدينية . شرح الحدود البية . جردان . نشر وتصحيح وتعليق لإدارة الطباعة للتبصرة لصالحها ومديرها محمد مدير عهد أغا قسطنطين : شارع الكسكس رقم ١ ، القاهرة : ج ١ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

الزمن انحصرت هذه المتابع الأربعة في مصدرين : الأسرى وضريبة العيان .
وقد نصب معين المصدر الأول وهو أسرى الحروب بعد أن بلغت الفتوحات
العثمانية في أوروبا حد التشبع ، وبعد أن وصلت الجيوش العثمانية في زحفها
على قلب أوروبا إلى مشارف فينا ، وتعلم على هذه الجيوش أن تخشى
قنما في رحبها الخاطف والظافر . فاللولة كان قد بدأ عليها نمرال ،
بينما كانت الدول الأوروبية التي وقعت في وجهها بعد ذلك تملك الكثير
من أسباب القوة والمنة والصمود . أما المورد الآخر وهو ضريبة العيان
فلم يكن في مقصور اللولة أن تستمر في جمعها قروناً متعاقبة ، وانتهى بها
الأسر إلى إنسانها . وكان هؤلاء الصبيان يفصلون عن آبائهم وأمهاتهم
وسائر ذويهم فصلاً مصلحاً وحاداً وعتياً . ولما اشتد ساعد هؤلاء الصبية
واكتملت رجولتهم لم تشجعهم اللولة على تكوين روابط عائلية ، وإذا زوج
فرق منهم - لأن الزواج ظل محرمًا على الذين انخرطوا منهم في السلك
للسكري ثم أذن لهم في الزواج - لم يكن الآباء مطمئنين إلى أن الثروات
التي كونوها سواء كانت عقاراً أو أموالاً سائلة سوف تؤول إلى أبنائهم
وفرلوجهم ، بل كان يتنامى خوف مرير ملهم من أن يسلبهم السطال
أموالهم وممتلكاتهم بل وحياتهم . ولذلك كانت طبقة القولاار الحاكمة في
أساسها وفي نظمها تسير في خطوط تصارض مع فكرة الأسرة وروابط
الأسرة وجو الأسرة . أما الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فكانت تأخذ
أفرادها من أبناء المسلمين الأحرار ، وكان يريد عددهم باطراد .
وكان عليهم إذا أرادوا أن يتبوأوا مكانة مرموقة في وظائف الهيئة أن
يراصلوا دراساتهم العليا . وكانوا أحراراً لا يوقفهم حائق في علاقاتهم
العائلية أو في حياتهم الخاصة . يتضح مما سبق أن أهم سبب لاختلاف
الأساس الذي قامت عليه كل هيئة من هاتين الهيئتين أن أفراد طبقة
القولاار جاءوا - أو حصوا بعبارة أكثر دقة - من عائلات مسيحية ،
بينما جاء أفراد الهيئة الإسلامية من عائلات إسلامية . ومعظم أوجه
الاختلاف ، إن لم يكن جميع أوجه الاختلاف بين هاتين الهيئتين ، إنما تنبثق
من هذا السبب .

لأباً : نظرة كل هيئة إلى السلطان : صودية أو طاعة :

ينبت عن الاختلاف السابق اختلاف آخر وثيق الصلة به ، هو نظرة أفراد كل من الهيئتين إلى الرئيس الأعلى للدولة . فعمل الرغم من أن السلطان كان رئيس الهيئتين ، إلا أن نظرة أفراد كل هيئة إلى السلطان كانت تختلف اختلافاً جديراً عن نظرة أفراد الهيئة الأخرى إليه . ومرد هذا الاختلاف إلى أن رئاسة السلطان لطبقة القولا الحاكمة ورئاسة الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كانتا تستندان إلى اعتبارات قانونية . فالهيئة الأولى مجموعة من المسلمين العبيد ، والهيئة الثانية مجموعة من المسلمين الأحرار .

كان السلطان بالنسبة لطبقة القولا الحاكمة هو كل شيء : هو السيد المطلق ، وهم العبيد الأرقاء عاك بالنسبة لهم أبواب الموت ، ويتخذ صلح ما يشاء من إجراءات بحكم غلظه لم وما ملكت أيديهم ، لا مضى لملكه ، ولا رد لفرجه . وهم كصيد يدنون له بالعبودية التامة بكل ما تحمله هذه العبارة من معاني الصرامة والسيطرة التي لا يحصى قيد لوحد . أما بالنسبة للهيئة الدينية الإسلامية ، فكانت رئاسة السلطان لها تقوم على أساس أنه يعتبر إماماً للمسلمين الأحرار الذين هم أفراد الهيئة الإسلامية . وتجب عليهم طاعة السلطان بصفته ولي الأمر كما يأمرهم الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، قل تنازعهم في شيء فرضوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً (١) .

ونقف هنا لحظة قصيرة لتزيد جلاء هذا الوجه من أوجه الاختلاف بين أفراد طبقة القولا الحاكمة وأفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . توجد نقطتان هامتان تفرسان بينهما قسماً قرضاً في هذا الحال . النقطة الأولى هي أن التناقض كبير بين الصودية التي تدبر بها السلطان الطبقة القولا أي هييد السلطان ، وبين الطاعة التي يدبر بها السلطان المسلمون الأحرار ، وهم أفراد الهيئة

الإسلامية . والنقطة الثانية هي أن طاعة المسلمين الأحرار مشروطة بأن تكون في نطاق الشريعة الإسلامية . وطبقاً للنص القرآني في الآية الكريمة السابقة يجب على الذين آمنوا أن يعطوها الله ابتداءً ، وأن يعطوا الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، ما له من صفة الرسالة . طاعته هي من طاعة الله الذي أرسله بالشريعة . أما أولو الأمر أيما كان لقبهم أميراً أو ملكاً أو سلطاناً ، فيجعل الله طاعتهم تبعية ، ولا يجعل طاعتهم أصلية . ولذلك اقتضت حكمة الله أي برد النص القرآني في الآية الكريمة المشار إليها مجرداً من لفظ الطاعة عند ذكر أولى الأمر لئلا يلبس على أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله ورسوله ، ومن القيام على شريعة الله ورسوله . فليس لأولى الأمر طاعة فيها وراء الشريعة . لأن الطاعة لهم تبعية ، وليست طاعة أصلية ، إنها طاعة مستمدة من أصل ، وليست هي بلانها أصلاً . وقد أشار إلى هذا المعنى أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين (١) في أول خطبة عامة ألقاها بعد مبايعته بالخلافة أوضح فيها مباحة في الحكم . وكان مما جاء في هذه الخطبة المشهورة قوله : « أيها الناس بئى وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسبت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . . . » . « أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . . . » (٢) وهكذا طلب أبو بكر من جموع المسلمين طاعته طالما كان سائراً على هدى الله وسنة رسوله لا طاعة لمخالف في معصية الخالق . وقد مر بنا في هذه البوابة أن شيخ الإسلام كان يتوعد بالشريعة الإسلامية ويحتمد عليها إذا احتلم للخلاف بينه وبين السلطان أو القصر الأعظم إذا حاد أحدهما أو كلامهما عن مبادئ الشريعة . ويحصل تاريخ مصر إبان الحكم العثماني بمواقف رائعة تمسك فيها علماء الأحرار بهذا المبدأ الإسلامي تمسكاً جعلهم يرفضون تعيد أوامر السلطان العثماني إذا رآوا فيها خروجاً على مبادئ الشريعة . كان للسلطان قد أرسل إلى مصر عدة

(١) هو عبد الله بن أبي قحافة صديق أبي طالب بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن قصير بن مالك . وهو يلتقي مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه في مرة .

(٢) التقيتني أبو القيس أحمد . صحيح الأحيى في صفاته الإجماع ، ج ١ ص ٢٤٠ .

فرمانات^(١) كان بعضها يخص بتغيير نظام صرف الأموال المرصودة على المساجد والأسبلة والتكايا وغيرها من الجهات الخيرية . وطلب قاضي القضاة العثاني في مصر إلى علماء الأزهر تنفيذ هذه فرمانات ، كل فيما يخصه . ولكنهم رأوا أنها تتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية ، فرفضوا تنفيذها . فقال لهم قاضي القضاة « إن أمر السلطان لا يخالف ، ويجب طاعته » . فتصدى له الشيخ سليمان المنصوري ، ويصفه الجبرتي بأنه « أحد الصلحور المشاء إليهم » ومحدثي السلطان وأعلن في مواجهة قاضي القضاة أنه لن يعمل أمراً أصدره السلطان ، لأنه يخالف لأحكام الشريعة ، ولا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يفعل ذلك » . وجعل الجبرتي موقفاً مماثلاً لعلماء الأزهر حين وقفوا في وجه حسن باشا الجزائري قائد الحملة العسكرية العثمانية التي جاءت إلى مصر سنة ١٧٨٦ لكسر شوكة الأمراء المماليك ودعم نفوذ النوبة العثمانية في مصر . كان هذا القتال وهو أوج نفوذه قد فكر في استباحة أموال الأمراء المماليك والتقيض على نساءهم وأولادهم وعرضهم في سوق الرقيق بالقاهرة لبيعهم زائماً أنهم أرقاء لبيت المال . ولما أقدم حسن باشا على تنفيذ فكرته ، ذهب إليه وفد من علماء الأزهر مستنكرين هذه التصرفات . واجتمعت المناقشة بينه وبينهم ، وقال له الشيخ محمد أبو الأنوار السادات « هل أرسلك السلطان إلى مصر لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ؟ أو لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهدم الحرم ؟ » فقال « هؤلاء أرقاء بيت المال » . فأجابته الشيخ السادات « هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد » . فثار ثائرة القائد العثاني ، وأمرسكرتيره بكتابة أسماء العلماء الحاضرين لينسخ السلطان بحماضتهم لأوامره . فأنبرى له أحد الحاضرين قائلاً « اكتب ما تريد ، بل نحن نكتب أسماءنا بحطبنا » (٢) .

(١) حمل هذه فرمانات أمان إسطنبول . وكان ذلك في أثناء ولاية ياكيم بك الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩ هـ / ١٧٣٤ - ١٧٣٧ م) . لمصر :
المعري ، صدر سبق ذكره : ج ١ ، ص ١٤٨ .
(٢) : الجبرتي ، مصدر سبق ذكره : ج ١ ، ص ١٨٨ ، وقد جلد هذا النص في ميقات ترجمة الشيخ محمد السادات في وقيل سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ - ١٨٧٢ م .

ونخلص من هذا الموضع إلى أن المسلمين الأحرار أفراد الهيئة الإسلامية نظروا إلى الشريعة الإسلامية على أنها فوق السطان العثاني . أما المييد أعضاء طبقة القولا الحاكمة فلم يعترفوا بسطة السطان .

ويمكن تفسير هذا الوجه من أوجه الاختلاف بين طبقة القولا الحاكمة والهيئة الإسلامية بأن نشأة أفراد كل من هاتين الهيئتين قد انعكست على تصرفاتهن ومسلكنهم بل وعلى روحهن العامة في الحياة . كان أفراد طبقة القولا الحاكمة أطلاقاً مسيحيين في مهادهم - كما سبق أن ذكرنا - ثم انتزعهم للدولة من آباءهم وأمهاتهم وحولتهم إلى الدين الإسلامي . فكانوا حديق عهد بالإسلام . ونجم عن ذلك أن عقيدتهم الدينية الجدلانية لم تكن بنفس الأصالة والقوة والصلابة التي كان يشعر بها ويدن بها أفراد الهيئة الإسلامية الذين ولدوا مسلمين ، وشبوا وترعرعوا وعاشوا في جو إسلامي غير مصطنع ، فتشبعوا بالإسلام ديناً بعد أن تمكن من اقتنابهم وتغلغل في أعماق نفوسهم .

ثالثاً : نوعية أفراد الهيئتين :

ومن أوجه الاختلاف بين الهيئتين نوعية الأفراد الذين قسنى منهم كل هيئة . فاعتمدت المريضة فالدين الإسلامي دين عام بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد بعث به وصوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه للبشرية جمعاء ، فهو ليس ديناً خاصاً بقوم ، أو بجنس من أجناس البشرية ، أو بجيل من الأجيال ، أو ببلد من الأقاليم . والله يقول في كتابه العزيز « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، الذي له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي ، الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » . (١) والإسلام يمثل عبر التاريخ الإنشاء الإنساني في أروع صوره ، وقد جبر عنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع « أيها الناس ، إن ربكم واحد . وأبائكم واحد . لا فضل لعربي على عجمي ،

(١) سورة الأعراف : آية رقم ١٥٨ .

ولا لجمعية على عربى ، ولا أسود على أحمر ، ولا أحمر على أسود ، إلا بالتقوى » (١) . والإسلام لا يعرف الطبقة ولا التمييز العنصرى . والرسول عليه الصلاة والسلام ليس رسولا عنصرياً أو إقليمياً أو طبقياً ، وهو يقول « بعثت إلى الناس كافة » ، الأحمر ، والأسود » (٢) . وتأسيساً على هذه المبادئ التى جاءت بها الشريعة الإسلامية ، فإن الهيئة الإسلامية ، وهى تضم الأفراد العرب والمسلمين أحراراً ، كانت لا تقيم وزناً لأجناسهم .

أما طبقة القولاى الحاكمة فكان أفرادها يؤخرون عن الأمور المسيحية واعتقوا الإسلام . ويؤخرون أيضاً من الخصيلة البشرية لضريبة القلنداء ، وهى أغنى منابع الرقيق . وطبقت الدولة هذه الضريبة على طوائف معينة من رعاياها ، وأخضت طوائف أخرى . فقد أخضت رعاياها اليهود كتيبة ، كما أخضت رعاياها المسيحيين الكاثوليك . وطبقت الضريبة على المسيحيين الأرثوذكس وهم أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ويطلق عليهم فى بعض المراجع الروم الأرثوذكس ، ونجم عن هذا الإخفاء فروق صارخة . وسوق فى هذا المجال مثالا لهذه الصرخة . كان من بين رعايا الدولة الأرمن كاثوليك وأرمن أرثوذكس . وطبقاً للقانون كانت الدولة تمنح أبناء الأرمن الكاثوليك من ضريبة القلنداء وتطبقها على أبناء الأرمن الأرثوذكس ، مع أن الجميع رعايا الدولة ، والسلطان من الأرمن . ثم أدخلت الدولة فى الإخفاء بين أفراد المذهب اللاتينى الواحد ، فأخضت من الضريبة أبناء المسيحيين الأرثوذكس أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المقيمين فى المدن الكبرى مثل إسطنبول وأنشبا وبعض الجزر مثل رودس . وترتبت على هذا الإخفاء المكافئ فروق صارخة أيضاً على غرار ما سبق .

ومن ثم كان الاختلاف بين المقيمين ملحوظاً . فالهيئة الإسلامية تفتح أبوابها على مصارعها للمسلمين الأحرار ، وينقلد مناصبها ويتخرج إلى أهلها

(١) الخليلي ، جميع فتاواه . ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل . طبعة دار المعارف ، القاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٦١ من رواية ابن عباس .

كل فرد يعضى في درساته إلى هاية الشروط ، وإلا فإنه يتولى الوظيفة التى يؤمها لها مستوى ما حصل عليه من علم ، سواء كانت هذه الوظيفة فى القطاع الدنى أو فى القطاع الإدارى . أما طبقة القبولار الحاكمة ، وهى فى صدد تكوين قاعدتها للخدمة ، فكانت تأخذ فريقاً من أبناء رعايا الدولة المسيحيين دون أبناء فريق آخر . ومعيار التطبيق للعمل هو انتهاء الطالب للمذهب دنى مسيحي معين كان يستحقه آباؤهم ، أو لأنهم يقومون فى إقليم معين من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية .

رابعاً : امتيازات المبلعين :

أضمت الدولة العديد من الامتيازات على أفراد طبقة القبولار الحاكمة . وكان من بين هذه الامتيازات الإعفاء الضريبى والإعفاء من الخضوع للقضاء العادى ، وأنشأت لهم نظاماً قضائياً خاصاً بهم ، وأصبح التحين مقصوراً عليهم فى بعض فرق الجيش وفى المناصب المدنية خارج نطاق القطاع الدنى فى شتى مجالاته ، فشطروا عديد الوظائف سواء فى الإدارة المركزية أو فى حكومة الولايات أو فى البلاط السلطانى . وتمتعوا بمركز مادى واجتماعى وأدى مرموق . وكانت هذه الامتيازات على اختلاف أنواعها وطبيعتها ومسمياتها تشكل تعميماً للفروق الصارخة بينهم وبين أفراد البيئة الإسلامية ، إذ انفصل أفراد طبقة القبولار الحاكمة مالياً وقضائياً وضريبياً عن سائر رعايا الدولة ، الأمر الذى أوجد حقناً طبقياً على القبولار من جانب سائر المجتمعات العثمانية . حقيقة انحصت الدولة أفراد البيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وبخاصة الذين شغلوا منهم المناصب الكبرى ، بامتيازات . ولكن لم تكن هذه الامتيازات بمثل ذلك الحجم أو التنوع الذى عظم به أفراد طبقة القبولار الحاكمة .

خامساً : القبولار طبقة قائمة بذاتها :

والحق أن إطلاق كلمة طبقة على أفراد القبولار أدنى إلى الحقيقة من لفظة «بيئة» ، لأن القبولار - وهم عبيد السلطان - كانوا يشكلون طبقة

خاصة قائمة بملاتها في أجهزة الحكم في الدولة العثمانية . وكانوا في ذات الوقت شرعة عامة من شرائع المجتمع العثماني ، ينحى إليها أفراد معينون وضعت الدولة لهم مواصفات محددة تحديداً دقيقاً بحيث غلبوا يشكلون طبقة مظفة ، لا يدخلها ولا ينحى إليها سوى الأفراد الذين جلبوا إلى الحياة مسيحيين ، ويعتقون مذنباً دينياً مسيحياً معيناً ، هو مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ثم انزعهم الدولة من آباءهم وأمهاتهم ، وحولتهم إلى الإسلام ، وجعلتهم عبيداً للسلطان ، وعلقت لهم تعليماً عسكرياً ومدنياً مقروناً بدراسات دينية إسلامية ، ووسعت لهم مجالات واسعة يعملون فيها ، ورتبت لهم امتيازات مطلقة . أما الميعة الدينية الإسلامية الحاكمة فكانت هيئة مفتوحة تتسع للمسلمين الأحرار المؤهلين علمياً لتولي مناصبها .

سادساً : الأعطال التي كانت تواجهها طبقة القولار :

احتضنت حياة أفراد طبقة القولار عن حياة أفراد الميعة الإسلامية . كانت حياة القولار مهلدة باستمرار . فإذا غضب السلطان على أحد منهم ، كان له الحق في أن يصادر أمواله أو أن يأمر بقتله أو بإعدامه . ويتم إجراءات المصادرة أو القتل أو الإعدام دون محاكمة . ولم يكن في مقدور أحد في الدولة أن يرجع للسلطان في مثل هذه الرغبات أو الأوامر التي تسلب أحياناً من القولار أمواله أو حياته حتى ولو كان يشغل منصباً للمصلحة العظمى . أما أفراد الميعة الإسلامية فكانوا بمنجاة ، في الأعم الأغلب ، من أمثال هذه الإجراءات ، إذ كانوا يخضعون لإجراءات قضائية مقررة طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية . وكانت المحاكم تنظر فيما يشجر بينهم من خلاف أو بينهم وبين إدارات الحكومة أو ما يقع منهم من مخالفات . ولذلك عاشوا في طمأنينة نسبية على أموالهم وحل حياتهم .

سابعاً : ملهى القولاكل من الميئين :

كانت طبقة القولار الحاكمة تحتل أسباب القوة المادية التي تمثلت في الجيش والمناصب القيادية في الإدارة المركزية وفي حكومات الولايات وفي (١ - ٣٠ الدولة العثمانية)

البلاط للسلطان ، بينما كانت الميعة الإسلامية تحلّك أسباب القوتين الروحية والأدبية اللتين تمثلتا في ممارسة رجال الميعة أعمال القضاء والإفتاء والإمامة والإشراف على المسجد وإقامة الشعائر الدينية وإدارة المؤسسات الخيرية ، والتنظر على الأوقاف ثم نشاطهم في مجالات التعليم بشئى حرجاته وعلى ألقها الدراسات العليا في الكليات حيث كانوا يقومون بتدريس علوم الشريعة الإسلامية وأصول الدين . ولذلك كان رجال الميعة الإسلامية للدين عارسون هذه الاختصاصات أكثر التصاقاً برجل الشارع وأكثر تفهماً وتعاظفاً ونجابتاً مع الأهلىن .

كان نفوذ إسطى هاتين الميعتين ينمو ويزكو على حساب الميعة الأخرى تبعاً لشخصية السلطان المربيع على العرش . ومع ذلك - كما مرى في سياق هذه الدراسة المقارنة - كانت كلفة الميعة الإسلامية هي الراجعة في معظم اليهود ، إن لم يكن في جميعها . وقد شهدت الدولة عادات متنوعة من السلاطين . كانت تطنى على بعضهم النزعة الحربية تفكيراً ومنهاجاً في الحكم وأسلوباً في الحياة . فكان حكم كل منهم سلسلة متصلة الحلقات من الحروب الخارجية لا هواة فيها ، تهدف توسيع رقعة الدولة سواء في أوروبا أو في آسيا أو في إفريقيا ، أو في هذه القارات للثلاث معاً ، أو في الاستيلاء على جزر في البحر المتوسط كانت بمثابة قواعد عسكرية يتخللها أحداث الدولة جيواً صليبية لهم . وينطبق هذا النوع على عدد كبير من سلاطين الفترة الأولى ، وقد حفل حكمهم بانتصارات عسكرية رائعة ، نذكر منهم على سبيل المثال السلطان محمد القاتع . وعلى عهد هذا النوع من السلاطين كان نفوذ طبقة القولاار الحاكمة يزداد بل يشتد ، وبخاصة في القطاع العسكري . ومع ذلك يظل نفوذ الميعة الإسلامية قوياً ملحوظاً وبخاصة في ساحات القتال قليل المعارك وبعد المعارك على حد سواء . وقد تكللنا عن دورهم التطير قليل بداية المعارك الى كان يخوضها الجيش العثماني . وكان لهم أيضاً دور هام بعد أن تصع الحرب أوزارها ، إذ كانوا يحكمون على تنظيم الحياة الدينية الإسلامية في ضوء مبادئ الشريعة الإسلامية في البلاد المفتوحة .

وكان هناك فريق آخر من السلاطين جمعت الدولة على عهدهم بين

الأجساد العسكرية البراقة والإنجازات اللبية الرائعة . ونذكر منهم على سبيل المثال السلطان سليم الأول . أنهج في فتوحاته وجهة شرقية إسلامية كانت جليدة بالنسبة للدولة ، فقد حارب الدولة الصغوية في بلاد فارس ودخل عاصمتها تبرز . وبعث بهذه الدولة من دولة من الدرجة الأولى إلى دولة من الدرجة الثانية أو الثالثة ، ثم فتح بلاد الشام ومصر وقضى على دولة المسالك الشراكسة . وهي انتصارات عسكرية رائعة خلطت اسم السلطان سليم الأول في تاريخ الدولة العثمانية . وساعدت هذه الانتصارات على نمو نفوذ طبقة القولاخ الحاكمة . ومن ناحية أخرى دخل إقليم الحجاز دخولاً سلمياً تحت السيادة العثمانية . وهو من أهم الأحداث السياسية في تاريخ العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي ، وأهم حدث ديني في تاريخ الدولة العثمانية ، إذ أكد زعامتها للعالم الإسلامي . فهذا الإقليم يضم مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وهما أهم الأماكن المقدسة الإسلامية على وجه الأرض . وأضاف السلطان سليم الأول وخطاهه إلى ألقابهم لقباً دينياً جليداً استهوى أقتلهم ، كما ذكرنا من قبل ، وهو « حامي الحرمين الشريفين » . وصمت الدولة العثمانية أيضاً المسجد الأقصى في بيت المقدس وهو ثالث الحرمين الشريفين وأولى القبليتين ، إلى جانب مراكز الحضارة الإسلامية في القاهرة ودمشق وطبوغربها . وكان من نتائج هذه الانتصارات العسكرية والدينية التي تمت على يد سليم الأول أن ازداد عدد رعايا الدولة المسلمين زيادة جارية ، ورز في الدولة الطابع الإسلامي بروزاً واضحاً قوياً . وكانت لكل هذه الإنجازات نتائجها الهامة على الهيئة اللبية الإسلامية الحاكمة . فقد سبقت طبقة القولاخ الحاكمة بمراحل من حيث علو شأنها واتساع نفوذها ولزدياد هيبتها . وما حدث لها على عهد السلطان سليم الأول تكرر على عهد ابنه السلطان سليمان المشرع الذي فتح عدة جهات حرية واتساح الجيش العثماني في بلاد المجر وجانب الأسطول العثماني حوض البحر المتوسط يقضي على بعض الجيوب البلبية ، وييسط السيادة العثمانية على شمالي إفريقيا ما عدا مراكش ، ويفتح جهة ثالث في الشرق الإسلامي ضد فارس وفي العراق . وقد تميز هذا السلطان بمجاولب حضارية متعددة تخطت في التشريعات التي وضعها على هدى من مبادئ

الشريعة الإسلامية، وظل معمولاً بها في معظم ولايات الدولة حتى أواخر القرن التاسع عشر، كما تمثّلت في المنشآت الدينية المعمارية التي أقامها . وكان أهمها مسجد السلمانية والعديد من المساجد الكبرى والصغرى بالإضافة إلى معاهد تحفيظ القرآن والمدارس وتجهيز بناء الكتبة الشريفة في مكة المكرمة وتجهيز أسوار بيت المقدس . وكان اهتمامه بالنواحي الدينية بارزاً . وانعكس على وضع الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فازدادت مصاريفها المالية معاً وتعاظم نفودها .

وكان هناك النوع الثالث والأخير الذي يتمثل في سلاطين دوى ميول سلمية وتميزت عهودهم بهدوء نسبي . وينطبق هذا الحكم على الغالبية الساحقة من سلاطين الفترة الثانية . وإذا كانت الدولة على عهودهم قد عاشت حروباً خارجية، وهم لم يتولوا قيادتها في معظم الأحوال لأنهم آثروا السلامة والفرجة ، فإن هذه الحروب كان معظمها حروباً دفاعية استهدفت الحفاظ على تماسك الدولة وسلامتها بممتلكاتها . وقد استمر مركز الهيئة الدينية الإسلامية على عهودهم قوياً منيعاً لم يهتز ولم يحسه ومن قرب أو من بعيد .

ويمكن القول بوجه عام إن نفوذ الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كان يتصاعد باطراد في كل العهود . وكان الفارق بين عهد وعهد يكمن فقط في مدى السرعة التي يزايد بها هذا النفوذ . أما طبقة الفولار الحاكمة فكانت تزايد سلطتها وقوتها في نظر العالم الخارجي المعاصر ما بقيت هجة الفتوح الحربية تسير بسرعة ملحّة . فلما توقفت الفتوح، ذهب البريق الذي كان يحيط بها .

أما النمو السريع لنفوذ الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فيمكن إرجاعه إلى عدة عوامل تجمعت على مر السنين . كانت لها موارد مالية ضخمة تمثّلت في الأراضي الزراعية والفقارات وغيرها من الأوقاف الخيرية . وقد تكسبت هذه المصافى في أبهى الهيئة ولم تفقد منها شيئاً . وكان السلاطين أنفسهم شديلي الاهتمام برصد الأموال العامة والخاصة على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة سواء كان النافع لهم هو التقوى والرغبة في التقرب إلى الله ، أو نيل مزيد

من مظاهر المنظمة والتباهى ابتغاء اكتساب حبة الجماهير وتقديرها . وفي ذات الوقت تناقص الأثرىء من أهل البلد على إنشاء المساجد والكتليات والمدارس والحمامات العامة والأسلة والشكايا وغيرها ، ويوقعون عليها الأوقاف الخيرية للإضافى من إيراداتها على هذه المرافق الدينية . ومن هذه العوامل أيضاً احتكار الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة التعليم العقلى بعيداً عن ميدان التعليم العسكرى فكان فى يدها سلاح أدبى رهيب تغزو به عقول الناشئة . وكانت كل مدرسة جليطة وكل كلية شرعية تنشأ حليطاً عما يقوى أثر الهيئة الدينية الإسلامية وتقودها فى مجال تربية العقول . وكان كبار « الموجبات » يقومون بالتدريس لطوائف الفطمان فى القصور السلطانية ويسلمون للصالح إلى والدها السلطان ، وإلى زوجاته ، ويتولون تعليم أبنائه .

تأثير كل من الهيئتين فى الأخرى :

كانت الهيئتان : طبقة القولاار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة تؤيدان رسالتها وتحققان أهدافهما المرسومة لها ، وتعتمد عليها الدولة فى سيرتها سواء فى مرحلة التوسع الإقليمى هجوماً على أعدائها أو فى مرحلة الجمود الحربى دفاعاً عن أنفسها . وكان لا مناص من أن تؤثر كل هيئة فى الأخرى ، لأنها الهيئتان الرئيسيتان فى نظم الدولة ، وكانتا لشكلان معا العمود الفقري فيها .

جاء تأثير طبقة القولاار الحاكمة فى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة من طريقين : الحرب ، وارتقاء أفرادها مناصب الحكم والإدارة من أذلها إلى أعلاها . فساندت وجود الهيئة الإسلامية وحافظت عن بقائها وقيامها ووجودها *raison d'être* وكانت هى الوسيلة أو الأداة فى تنفيذ قرارات هذه الهيئة وأحكامها القضائية ، والحفاظ على الشريعة الإسلامية عملياً وعدم المناس بالمصادر المالية للهيئة الإسلامية بما كفل للسيولة القضائية تصل فى نظام رتيب إلى العلماء والقضاة ورجال الإفتاء ومن إليهم ، واستطاعوا المحافظة على مستوى معيشة محترم . وانصرفوا يكرسون جهودهم وأوقاتهم إلى أداء المهام المنوطة بهم فى شق مجالات الشريعة الإسلامية وأصول الدين نظرياً وتطبيقاتاً .

وأثرت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة في طبقة العبيد - القولار -
لذا طبعت الهيئة الأخيرة بطابع المحافظة على التقديم الذى وصل في بعض
الأحيان إلى الجمود . ومن المعروف أن المحافظة على التقديم ومقاومة كل
جديد كانتا من خصائص الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فقد قام العلماء
والمفتون ومن إليهم من أفراد هذه الهيئة الدينية الإسلامية بالتدريس للأمرام
والمبادئ القصور وغيرهم من ناحية ، أو بإصدار الفتاوى لرجال الحكم
مولد في الإدارة المركزية أو في حكومات الولايات من ناحية أخرى . وبذلك
تناولوا الجانب التعليمي والتدريسي في تشيئة فريق من أفراد الهيئة الحاكمة
وفي التوجيه السياسي والديني لرجال الحكم المركزي والحكم المحلي في المسائل
التي يطلب من رجال الهيئة الدينية الإسلامية إصدار الرأي فيها أو ما يسمى
الفتاوى . ولذلك ينسب المؤرخون الجمود الذى أصاب نظم الدولة وأجهزتها
إلى تأثير رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة، وهو حكم لا يصور الحقيقة
من جميع جوانبها . فالأتراك العثمانيون كمشبه اشتهروا بالمحافظة على التقديم
والاستمساك بالتقاليد والعرف والمبادئ لا يغيرون عن كل أولئك بدليلاً .
فهم يتحملون نصيبهم غير مقصود من مسئولية الجمود الذى ران على
أنظمة الدولة وأجهزتها في وقت كان العالم في أوروبا الغربية يوجه خاص
يطور حياته ويجدد نظمته في الحكم والإدارة والعسكرية وغير ذلك مجزئاً
بإراكم سنة التطور ويمشى مع إدخال العلوم الحديثة في شتى مجالات الحياة.
ومن المعروف أن الموقف الثابت المتجسد الذى تلتزم به دولة ما، هو الخطوة
الأولى التي تؤتى بهذه الدولة إلى طريق الانحلال .



الفصل السابع عشر

مراكز القوى في الدولة (١)

فيالق الإنكشارية

بجانب الميئين الحاكمين ... طبقة القولاار والميئة الدينية الإسلامية - وجدت في الدولة مراكز قوى كان لها نفوذ واسع وخطير في دوائر الحكومة ، ووجهت شئون الدولة ، سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية ، الوجهة التي كانت تبنيها . وكان من بين هذه المراكز : القياائق الإنكشارية في الجيش ، الحرم السلطانى ، الميد الخصيان ووزراءهم .

القياائق الإنكشارية :

نشأت الدولة العثمانية في أول أمرها إمارة خزاة . فكان الفزو العسكري هو شغلها الشاغل ابتداء التوسع الإقليمي المرحلى . وقد سبق أن ذكرنا أن الطابع العسكري الصارم كان المصبغة الأولى من خصائص الدولة العثمانية (١) . ولم تظهر هيئة و الدولة بعزل الاهتمام العميق للنس ظفر به الجيش العثمانى بوجه خاص . فقد كانت الدولة تنظر إلى الجيش على أنه أدامها في الفتوحات الحربية ، ووسيلتها في حكم الأقاليم التي استولت عليها ، ودرعها في الدفاع عن ممتلكاتها .

ولن نحوض في هذه الدراسة في ذكر الفرق العسكرية التي كان يتألف منها الجيش العثمانى في نشأته ، أو الفرق المستحقة التي أدمطت عليه تهاجا . ولن نعرض لتنظيمات الجيش وقيادته والمدرس العسكرية وما إلى ذلك من موضوعات تتصل بالجيش عامة . وسيكون بحثنا في هذه الدراسة مقصوراً

(١) انظر في هذه الدراسة من ص ٤٩ - ٥٣ .

هل الفياق الإنكشارية مع إشارة سرية في الحواشي يتضمنها مباح البحث إلى بعض الفرق العسكرية التي كان لها اتصال مباشر بالفياق الإنكشارية مثل فرقة البلطجة ، وفرقة البومانية ، وفرقة الجبهه جيه .

كان الإنكشارية - وهم طائفة عسكرية من البادية (١) - أى المشاة - يشكلون تنظيمًا خاصًا بهم ، لم تكنهم وشارتهم ودراساتهم وامتيازاتهم . وكانوا أعز فرق الجيش نفراً ، وأقرباً جنلاً ، وأكثرها نفوذاً ، وأفسحت الدولة لهم الطريق كي يقفزوا إلى أعلى الرتب العسكرية ويظلوا أخطر المناصب القيادية : العسكرية والمدنية على حد سواء ، وإذا كانت الدولة قد استعادت منهم في ساحات القتال في عصرها الذهبي ، فقد أصبرت منهم في العصور التالية ، إذ زعروا إلى حركات العصيان العسكري لتحقيق مطالب لم حيناً ، وللتنصل في الرئاسة العليا للدولة أحياناً متجاوزين اختصاصاتهم كمحاربين محترفين . واسترحوا سلاح الفردين بشروته في وجوه السلاطين والصور العظام ومن إليهم من كبار رجال الدولة ، فيمزقون ويقتلون ، ولأولئك - والآخر المصائب أنه لا حب الوهن إلى صفوفهم ، وقدوا الكثير من كتابهم القتالية لزدادوا شجوراً بقوةهم وأمسوا في طغيانهم بحيث ضلوا مركز قوة خطير في الدولة وشجعهم على ذلك ضعف السلاطين والصور العظام .

ضريبة الفيلان :

أشرنا من قبل في هذه الدراسة إلى ضريبة آدمية فرضها الدولة على أبناء رعاياها المسيحيين الذين ينتسبون لمذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة في إستانبول ، وتمولهم إلى الإسلام ، وتجبرى لهم جراحة الختان *La Circumcision* ، وتظم لهم دراسات دينية وعلمية - مدنية وعسكرية - لتتخذ منهم في نهاية المطاف أدوات إسلامية للحرب والحكم في خجلة الدولة (٢) . ويطلق على هذه الضريبة الأدمية المصطلح التاريخي

(١) البادية كلمة تركية سلتها « حل الأكام » وتعنيها في اللغة التركية « البادية » بنس للمنى .

(٢) انظر في هذه الدولة ص ١٢٠ - ١٢٢ .

ديو شيرمه Deuchermé وترجمها المؤرخون والباحثون في أوروبا
وأمریکا The Tribute Boys أو The Tribute Children
أي ضريبة العلمان ، وقلنا إن النولة كانت تنقسم إلى ثلاث مجموعات :
المجموعة الأولى وتعد أفرادها لشغل وظائف العلمان في القصور السلطانية ،
والمجموعة الثانية تعد أفرادها لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة ،
والمجموعة الثالثة لتشكيل من أفرادها فرق مشاة في الجيش العثماني . ويطلق
على أفراد هذه المجموعة الثالثة الإنكشارية (١) وممتاها الجنود الجدد وكان
عندهم ساحتاً جداً بالنسبة لعند المجموعتين الأوليين .

ثلاثة ضريبة العلمان :

كان صاحب الفكرة في فرض ضريبة العلمان المسيحيين الأرثوذكس

(١) كان المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب
بجامعة القاهرة يرى أن الباحثين العرب يفترون في عملاً لغوي واضح حين يلقون حل هؤلاء
الجنود للثقة اسم الإنكشارية ، ويرى أن الحق في الصيغة الفعلية تتطلب استعمال الفعل التركي
وهو انكى شرية ، وتورد في نفس المراجع بين تشرى . وأما في رأيه إلى أن الفرنسيين استعملوا
في نتمهم الكلمة التركية ، فأصبح مدلولها الفرنسي Les Janissaires .

والواقع أن شكل كلمة هذه الكلمة قد ساعد على تحريفها . ففى كتاب « يكتبرى »
وتتعلق « بين تشرى » لأن حروف الكمال في اللغة التركية القديمة كان يتلقى فوقاً « وحرف
الميم يتلقى تاء وذهبا . وهذا المصطلح التاريخي مكون من مشطين : الأول يكنى - ومعناه جديد
أو حديث . والثاني - جرى - ومعناه جنى ، فيكون المعنى : الجنود الجدد أو العسكر الجديد .
وعن - مع استمرات لرأى أستاذنا الدكتور زيادة ومع تقديرنا السبق لأستاذنا الفاضل -
نرى أن الكلمة التركية الأصلية وهي بين تشرى YemiTchéni ، والكلمة المعربة أو الكلمة
التي تستعمل في الكتب العربية وهي الإنكشارية قريبان فيهما من نفس الجذر لا يستعمل الأمر
مثل هذا التفسير الشكل الذي قد يؤدى إلى بلبلة الأكتار حول مدلول بين تشرى ، أو الله شرية .

انظر :

المحاضرة التي كتبها الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة مقرونة برقم ١ ص ٤٤٥ في ترجمته
إلى اللغة العربية لكتاب فيشر Fisher H. A. القسم الثاني : التاريخ لأوروبا في العصور الوسطى .
انظر : دار المنادى بالقاهرة ، ١٩٥٤ .

هو هايل الأسود (١) Black Habi وزير السلطان أورخان بن عثمان (١٣٢٦ - ١٣٦٠) (٢)، فهو الذي حبّ إلى هذا السلطان الفكرة وزياها له في قلبه ، فأخذ بها أورخان . وكانت هذه الفرية الأدبية حوماً كبيراً للدولة الناشئة على إيجاد مورد آدمي لا ينضب معيته لتجديد فرق عسكرية كاملة من المشاة يضحون حقولهم وأجسادهم وخبراتهم في خدمة السلطان في ميادين القتال ابتغاء احراز انتصارات عسكرية تحقق بها الدولة مزيداً من التوسع الإقليمي سواء في أوروبا أو في آسيا في ذلك الوقت ، ثم في إفريقيا منذ أوائل القرن السادس عشر . وقد وضع السلطان أورخان قانوناً خاصاً بالإنكشارية جاء في أربع عشرة مادة تضمنت النظام الداخلي لهم ، وتنظيم علاقات أفرادهم بعضهم ببعض ، كما نصت على السلطة المطلقة والافتقار التام للسلطان (٣) .

وكانت الحكومة المركزية تقوم بترحيل الفطمان اللذين لا يتعاملون اللغة التركية إلى الأناضول حيث يوضعون في خيمة السباهية - الخيالة الإقطاعيين - فترة قد تطول وقد تقصر ، ثم ينقلون إلى إستانبول حيث يعاد اختيارهم وقرزم ، ويطلقون بفرقة البلطة بجه (٤) أو فرقة

(١) Fisher H.A.L., A History of Europe, op. cit., p. 402.

(٢) يقرر بعض المؤرخين أن حكم أورخان امتد فقط إلى سنة ١٣٥٩

(٣) دكتور عبد العزيز محمد عوف ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢ .

(٤) البله بجه جمع بلجي ، وهي مشتقة من كلمة بلغة ، وهي كلمة عربية وتركية بمعنى القاس الذي يستعمل في تلح ميقات الأتجار وقروعهما والأعشاب يصفه حلة . أما مصطلح كصطلح لتدريس نحو فرقة عسكرية في الجيش فتسمى « بلجي لويق » أي فرقة الباطنية أو فرقة قلبي الأعشاب . وقد أثبتت قبل فتح القسطنطينية واستسلم أفرادها في تلح الأتجار وتجنيب المستعظم وتزيد الطريق أمام الجيش القريب ، ثم تحولوا بعد فتح القسطنطينية إلى حرس الحرم السلطاني . وكانت تضاف إلى حلوهم الجديد أعمالهم الأولى حين يلعب السلطان إلى الحرب . وقسمت هذه الفرقة إلى قسمين . كان مقر أحدهما القصر القديم ، ومقر الآخر القصر الجديد . وكان أما التحصينات بقوه القسم الأول . أما القسم الثاني فكان يقوم بالسلحار أما ، أي الصياغة حمل السيف . وكان يطلق على رجاله هذه العبارة : « روتوفو بلغة بجه » ومعناها تلعبو الأعشاب دور السواك ، لأنهم كانوا يمسحون ملابسهم من القشر على جبالهم ويوجههم (روتوفو كلمة تركية من زولف Zolf ومعناها عصاة من القشر تسمى زلف أسفل) .

اليوستاتجية ، أو فرقة الحية جيه (١) ، أو السلاح البحري في إستانبول

- أنظر

Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit, Vol., 1 Part 1, p. 86.

وكافة بطيخ شائعة الاستعمال في الوقت الحاضر في مصر وفي معظم بحول البحرية وتسمى الشخص المنحرف من القوة العقلية الذي لا يكثرث بالخروج عن القناتين في سبيل تحقيق أغراضه . ويضاف في المسمى لهذه كلمة هي غرائضى . ويضاف إلى المسمى السابقة مسمى آخر هو أن غرائضى يلبأ إلى استخدام حيلته في غريب الآخرين في سبيل حل مشكلاته .

(١) اليوستاتجية كلمة تركية مستنبطة من الكلمة العربية يستأن . وأطلقت على أفراد فرقة عسكرية وتسمى يوستاتجية لوجيات في فرقة الجيشتين . وكان يتودعها عبايط يطلق عليه يوستاتجي بالي . وكان أحد أغراض الركاب ، أي ضباط الركاب السلطان . وقد تكونت هذه الفرقة أول الأمر بهدف تحقيق حدائق القصر السلطان وتحويل الأرض الخلاء المهدورة للقصر إلى حدائق ذات حجة ويد مرابع خضراء مع استمرار العناية بها . ولم يلم هذا السب إلا حد قليل من أفراد هذا الأوجاق واشتغل بعضهم سراً على الخيل للخدمة بالقصر والخدمة بجوار أرواحه ، وحمل بعض بوابات أسوار القصر ، وحمل المرافقة الصغيرة قوقعة حول القصر الفخمي والبولسور وجنود من بحر سريرة . كما كان لهم الإشراف على السفن التي كانت ترسو في تلك المرافقة ، وكانوا يسلطون أيضاً مظلة حرقة عطية . وهكذا كانت الخصائص العامة السطى من أفراد لوجيات اليوستاتجية مهمة كل اليد من العناية باليشتين .

وكانت لخصائصهم الرئيسية تتركز في إشرافهم على شخص السلطان وحراسة بعض الممتلكات الخاصة بالقصر والمهارة له ، ومراقبة السفن التي ترسو في مرفأه قريبة من منطقة القصر ويكون في استطاعة هذه السفن إخفاء القصر بحال القصر . وقد بلغ عدد أفراد هذا الأوجاق ألفين وخمسة مائة ، وكان كل فرد منهم يرفع لواء قلنسوة حرمة تجرعه من أفراد الفرق العسكرية الأخرى . وكان يتألف لوجيات اليوستاتجية من عدة وحدات تكاد تكون كل وحدة متصلة من غيرها داخل الأوجاق . وكانت هناك وحدة الخيالة ووحدة الكناككية وهذه أفراد لاؤمات من ضباط الحلف Bone Officers يتقدمهم خاصكي بالي أو خاصكي أيد . وكان حما الضباط على في الرتبة وليس لوجيات اليوستاتجية . وكان يساعد بعض كبار ضباط الأوجاق . ويفترق سواد من قوة الخيالة في حراسة السلطان الخاصة ، كما يطلق أثناء عصر من الخيالة السلطان في جميع تطلعاته وتحركاته بصفتهم غيرهم ، ويطلق عليهم « تيجل خاصكية » ويرأسهم ضابط يسمى قباي تيجل على رئيس القبري . وكانت وحدة الخيالة تتألف من حيث طبعاً من الوحدات الأخرى في لوجيات اليوستاتجية ولقواها . ومن الوحدات الخاصة في هذا الأوجاق أيضاً : المستغية - أي المراكبية (المستغية جمع صغلي ، وهو الرجل الذي يسدل على صمل ، والصمل سفينة تهبط من الطراز الأوروبي) ، وكانت المستغية يقومون بالتدبير في « دحية » السلطان ، في حين يسلك رئيس لوجيات اليوستاتجية بالقلعة . ولم يكن المستغية -

وغالبول (١) . ولكن كان مصير معظمهم الانحراف في ملك القيايق الإنكشارية .

وجدير بالذكر أن هذه القيايق لم يكن جميع أفرادها من حصيلة ضريبة العلمان فقط كما يتبادر إلى أذهان الكثيرين ، بل كانت تضم بين صفوفها مجموعات صغيرة العدد من أولاد أسروا في الحرب أو اشترى بالمال (٢) .

= يقومون بالجنيف في سفر السلطان فحسب ، بل كانوا يحفرون أيضاً في مراكب كبار ضباط القصر للسلطان . وكانت هناك وحدة تسمى « ألبانية حية » نسبة إلى عضل ألبانية لأهم كانوا يقومون بتدريبهم العسكري قرب أساطي في منطقة كانت تزرع فيها ألبانية بكثرة . وكانت هذه الوحدة تقوم بحراجه لمرحلتين يلقا الملحق بالقصر للسلطان . وكانت هناك وحدة أخرى تسمى « الطوب قابي » أي براءة اللعاب ويصحب إليها مع الأسطبلين غير المرغوب فيهم من معول فنه القصر بالمرور من ناحية البحر . هذا إلى حد كبير جداً من الوحدات العسكرية تابعة لهذا الأوجاق . وكان اليوستفي ياتني يتبع في القصر بتقود واسع لم يفكر به أحد من رعاياه ضباط الركاب للسلطان . وكان مرد هذا التقود إلى سبب: أولها أنه كان يرأس أكثر من ألف رجل يقومون بأعمال تسمى وتسمى وسماحة تحت إشرافه ، وثانيها أن المحفوظات مع الموقوف المندوب كانت تم تحت إشرافه ، وكان يعرف على إجراءات تنفيذ أحكام الإعدام التي كانت تصدر على من ثبتت إدانته منهم .

انظر كلامي :

D' Ohsson Ignatius Mouradegha, op. cit., V.VII, pp 27 — 30L ybyer A.H., op. cit., p. 131, fn. 2.

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol 1. Part 1. pp. 350-352.

أما الجهة فهم هم ضباط الأسمدة (حية مستلما درج) ، وكان من اختصاص هذا الأوجاق إنتاج وإصلاح الأسلحة والذخائر الموجودة للشاة . وكان من واجبات هذا الأوجاق حراسة وسائل نقل الجيش والحاظرين في أثناء الحرب . وكان السلطان عبد القادر هو أول من أنشأ هذا الأوجاق . وكان تعداد أول الأمر سبائة جندي تحت إمرة ضابط يطلق عليه « حية حية بالي » .

(١) كانت غالبول تابعة البحرية العثمانية ، ثم انضمت الحكومة في سنة ١٨١٦ من إستانبول مقرراً البحرية الرئيسية ، وأنشئت مصانع بحرية جديدة في بقعة تسمى قاسم بلدا من ناحية جلاله على القرن الذهبي ، وتعرف منذ ذلك الوقت باسم « ترسانة بوقلزي » أي بوقلزي وهو المصانع البحرية ، أو بوقلزي البحرية .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, (٧) Part 1, pp. 59-60.

مواعيد جمع النملان :

اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً حول تحديد مواعيد جمع النملان ،
يقرر بعضهم أنهم كانوا يجمعون مرة واحدة كل أربع سنوات . ويقول
البعض الآخر إن هذه الفترة لم تكن ثابتة . ففي بعض الأحيان كانت عملية
جمع الأبناء المسيحيين تحدث مرة كل خمس سنوات (١) ، وفي أحيان
أخرى كانت هذه العملية تتم مرة كل سبعة أعوام (٢) . بينما يذكر المستشرق
الألماني بروكلمان أن هذه العملية الآدمية كانت تجمع أول الأمر كل خمس
سنوات ثم أصبحت تجمع سنوياً (٣) . والشئ الأخير من هذا الرأى أخذ إلى
الحقيقة ، إذ كانت الدولة في معظم الأوقات في صراع حربى خفيف ضد
بعض الدول الأوروبية . وقد انحدر هذا الصراع طابع التكتلات المسيحية والحروب
الصليبية . وكانت الحرب نهياً في جبهة تقتضئ احتف ما تكون في جهات
أخرى مما جعل الدولة المملانية في حاجة مستمرة إلى تعزيز الجيش فحرص به
المبارك في أوروبا فضلاً عن الجبهات التي قصتها في آسيا لمحاربة الدولة
الصليبية ، ثم فتح بلاد الشام والعراق وبنين وغيرها ، أو في إفريقية : في
مصر وشمالي إفريقية انتحافاً من سياستها العليا في التوسع الإقليمى المرحلى .

وحايات الدولة الذين طبقت عليهم ضريبة النملان :

كان فرض ضريبة النملان مقصوراً كما سبق أن ذكرنا - على رعايا
الدولة المسيحيين الذين يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ولذلك أضحى
منها اليهود وكذلك الأرمن الكاثوليك بحكم القانون . أما الأرمن الأرثوذكس
وهم الذين يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، فقد طبقت عليهم ضريبة
النملان . كما أضحى من هذه الضريبة الآدمية مكان بعض المدن الكبرى مثل :
إستانبول وأثينا وجزيرة رودس وبعض جزر أخرى . وفيها عدا ذلك طبقتها

Lavisse et Rambaud , op. cit., Vol IV, ip. 857.

(١)

سير آرثور نويس (سير) : الصورة إلى السلام . تريب دكتور سن ابراهيم
وإخايله . ص ١٧٥ - حالية رقم ٢ .

Lybryer A.H. ; op. cit., pp. 51 - 53.

(٢) انظر كلام من :

D'Oheson Ignatius Mouradgaa ; op. cit., Vol VII, p. 316 ff.

(٣) بروكلمان كولون : الأثر المملانيون وحضارتهم ج ٢ ، مرجع سبق ذكره ،

الدولة تطبيقاً صارماً في شبه جزيرة البلقان والمجر والساحل الغربي لآسيا الصغرى والسواحل الشرقية والجنوبية للبحر الأسود . ولكن كان أقوى المجندين وأقهرهم على الخطة يجلبون من المناطق المحلية التي تقطعها الطوائف المسيحية في ألبانيا والجبل الأسود وللشعوب السلافية أي الصقلية في جنوبي أوروبا^(١) وبعبارة أخرى شملت ضربة القتلان اليونانيين والصرب والبلغار وسكان كرواتيا وأهل المجر والألبانيين والأرمن الأرثوذكس وغيرهم .

معيشة الإنكشارية :

كانت الدولة تحرص حرصاً بالغاً على منع اتصال الإنكشارية بأقربائهم . وتحرص عليهم في وقت السلم أن يعيشوا كلية في الثكنات^(٢) . وخصصت الدولة للإنكشارية الذين رابطون في إستانبول ثكنتين ، كانت تسمى الثكنة الأولى تسكي أوطة لرؤ أي الفرقة القديمة . وتسمى الثكنة الثانية إيني أوطة لرؤ أي الفرقة الجديدة أو الحديثة . ولم تكن هاتان الثكنتان تحتويان فقط على أماكن النوم لضباط وجنود الإنكشارية ، بل كانتا تضماني مطابخ ومخازن^(٣) للأسلحة والذخائر وكافة الحاجيات المدنية لهم .

وخصصت الدولة لكل أورطة^(٤) من الإنكشارية شارة توصلح على أبواب ثكنتها وعلى أعلامها وعلى خيلها التي كانت تقام في ساحة القتال . وكانت خيلاً مستديرة واسعة وكانت هذه الشارات إما سمكة ، وإما معشاً ، وإما عظاماً «هلبا» ، وإما هراة ذات طرف مدبب . وجرت عادة الإنكشارية على نقش الشارة المميزة لهم على أذرعهم وسيفانهم مستخدمين طريقة الوشم^(٥) . وكانت تزيينات الإنكشارية تم طبقاً لقواعد الإظمية . وكانت الدولة تسرح

(١) Lybyer A.H. : op. cit., p. 34, pp. 51-52.

(٢) كانت الثكنة تسمى أوطة أي فرقة . وتسمى في اللغة التركية القديمة أوتاق

(٣) Gibb Hamilton and Bowen Harold : op. cit., Vol. I Part I, p. 62.

(٤) الأورطة وحدة حرية ظهرت عند أفرادها تباً للظروف ، فكان إبراهيم حديم

يس مائة جندي وخمسة مائة جندي وثلاثة آلاف جندي .

(٥) كان الإنكشارية يترززون رسم الشارة على أجسامهم بليفة ، ثم يصورون على هذا الرسم مادة سمية تسمى البليج . فبالحمد رسم اللطفة لوناً أعصر لاجئاً لا يمسه كثر الزمان .

الذين يقدم لهم السن أو تعيينهم عادة تتعلم عن العمل وفي كلتا الحالتين كانت الدولة تقرر لهم معاشاً ، ويعرفون باسم «أورواق» . وقد حصلت الدولة الطوائف الإنكشارية بعدة امتيازات (١) ، منها : منحهم حصانة تمتع القبط عليهم أو قيام السلطات المدنية بتوقيع العقوبات عليهم . وكان صباط الإنكشارية دون سواهم يقومون بتنفيذ العقوبات التي يحكم بها عليهم . وكانت العقوبات تختلف بين الجلد والسجن والخصاء والإعدام . وكانت عقوبة الخصاص توقع على الإنكشاري إذا ارتكب الإجرام أو تعددت حوادث خروجه على قواعد الانضباط العسكري . فيأمر «بني شريه أغاسي» ، أي رئيس الإنكشارية ، بإجراء عملية الخصاص الجزئي أو عملية الخصاص الكلي له . ويفقد الإنكشاري رجوله ويلحق بالخدمة المدنية في القصر السلطاني . وسنفرس لهذا الموضوع في الفصل الثاني والعشرين أما الإعدام فكان يتم مراراً في ظلمة الليل في رومل حصار . وكانت تصدر الأوامر إلى سلاح الطوبجية - أي المدفعية - بإطلاق طلقة واحدة من مدفع إيداناً بتنفيذ الحكم . لذا تم التعبد رميت جثة الإنكشاري بعد أن تشد إلى القلعة جثة من الحديد . وكان الإنكشارية يتقاضون مرتبات من خزائن السلطان . ولهذا السبب الأخير كان يطلق عليهم «قبوقالري» (٢) ، وهو اسم عام كان تدرج تحته القوات العسكرية التي تتقاضى مرتبات تميزاً لها عن القوات الإقطاعية *Fendak* التي كانت الدولة تسلي أفرادها أراضي زراعية يقومون باستغلالها في مقابل اشتراكهم في حروب الدولة دون أن تلحق لهم مرتبات

تجريم الزواج على الإنكشارية ونتائجه :

وكان يحرم على الإنكشارية الزواج فكان الفرد منهم يعيش دون أمل في أن تكون له زوجة أو بنت أو بنات أو حفدة . فالإسلام عقيدته ، والقرآن الكريم كتابه المقدس ، والسلطان العثماني والده ، والشككة العسكرية مأواه ،

(١) Lavisse et Rambaud ; op. cit. , Tome IV, pp. 759-760

(٢) تبرأه تقي لفظاً تركية معناها يد أو يوايه . قول يمي به . وهذا الاصطلاح له عدة مدلولات ، منها : كل شخص في وضع المييد يقدم على خدمة السلطان .

والحرب مهته ، والقور بلاطى الحسين مآريه . وكان الإنكشارى ينظر إلى أعداء الدولة على أنهم أعداء الله ، وليس أمامه إلا أن يمضى فى قتالهم ، فلما أن ينتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ، ولما أن يفوز بالجنة إذا استشهد فى الحرب . ولذلك كان يحوض المارك روح دينية إسلامية عالية ، ملوّهة حماس مطبج وتغصب وكبر (١) . وكما حرم السلاطين على الإنكشارية الزواج حرموا عليهم أيضاً تحريماً تاماً الاشتغال فى التجارة أو الصناعة خشية أن تحبوا عسكريتهم الصارمة وأن يتحولوا إلى أهل حرف (٢) . ويقول أحد المؤرخين الإنجليز إن الإنكشارية كانوا أول جيش ثابت نظامى عرفته أوروبا منذ المصور الرومانية (٣) .

العلاقات الوثيقة بين الإنكشارية والطريقة البكتاشية :

يرد فريق من المؤرخين والباحثين رواية تقول إن السلطان أورخان قد حصل على موافقة حاجى بكتاشى - الحاج بكتاشى - شيخ الطريقة الصوفية البكتاشية على مشروعه ، وهو جمع الطائى المسيحيين ثم تحويلهم إلى الإسلام وإعداد دراسات عقلية وتلريبات عسكرية تجعل منهم فى نهاية المطاف رجال حرب أو حكم يتولون المناصب القيادية فى الجيش أو فى القصور السلطانية أو فى مائر أجهرة الحكم والإدارة . وقال هذا الفريق من المؤرخين والباحثين لتتليل على صحة تلك الرواية أن الحاج بكتاشى قد بارك الرواد الأوائل من الإنكشارية بوضع كم رخائه فوق رءوسهم . ويسبب هذه المباركة وقع اختيارهم على خطاء غريب الشكل لرءوسهم ، كان عبارة عن قلنسوة من المصوف الأبيض تتلبد من خلفها قطعة طويلة من القماش أسطوانية الشكل هى رمز للبركة التى منحها الحاج بكتاشى لهم . وفى المصور التى رسمت لطاء رءوس الإنكشارية يظهر هذا الخطاء واضعاً .

(١) Fisher H.A.L. ; op. cit., p. 402.

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I, Part. (٣)

L., p. 64.

(٣) Grant A. J., A History of Europe 1494—1610., being Vol. V of " Methuen's History of Medieval and Modern Europe ". Eleventh edition, 1967., p. 212.

وهناك فريق آخر من المؤرخين والباحثين يتشككون في صحة تلك الرواية بل يعتبرونها تقيفاً بآناً تأسيساً على أن الحاج بكاش كان قد جاز إلى ربه قبل إنشاء أوجاق الإنكشارية بقرن من الزمان (١). ولئن نحوض في حراسة مقارنة بين هذين الرأيين المتعارضين أشد المتعارض ، لأنها خارجة عن نطاق البحث . ولكن الثابت تاريخياً - وهو ما يهدأ في القام الأول في هذه الدراسة - أن الإنكشارية كانوا ملتصقين المتصافين قوياً بالطريقة البكاشية ، ويظهرون نحو شيوعها طاعة تامة وصلت إلى حد الولاء العميق . ولذلك كان يطلق على الإنكشارية أحياناً « عسكري بكاشية » ، أي الجود البكاشية ، وأحياناً ثابته « بكاشية أوجاق » ، أي أوجاق البكاشية . وأحياناً ثالثة « حجي بكاشية أوغاري » ، أي أبناء الحاج بكاش (٢) . والواقع أن الأخيرة السياسية التي اكتسبتها الطريقة البكاشية إنما ترجع إلى ارتباطها الوثيق بالإنكشارية الذين كانوا ينظرون إلى شيوخ هذه الطريقة بمثابة آفة لهم (٣) .

وبعض الأيام ازدهرت العلاقات توتراً بين فيالق الإنكشارية وشيوخ وأتباع الطريقة البكاشية . ومن العوامل التي ساعدت على هذا الارتباط الوثيق بين الطائفتين كثرة عدد تلاميذ البكاشية وانتشارها في طول البلاد وعرضها . وكانت تطلق على شيخ كل تكية بكاشية كلمة « با » ، وعلى المرويض لقطة « مريد » ، وعلى الملتحق بالتكية لقب « منسوب » . وفي أواخر القرن السادس عشر ، وعلى وجه التحديد سنة ١٥٩١ مبع لثمانية من البكاشية أن يقيسوا في أحد ضارب فرقة إنكشارية كانت تسكن في التكنات الجلدية في إستانبول وهي الفرقة التاسعة والستون . وكان رئيس هؤلاء

(١) Koprulu (Kopru) Mehmed Fuad : Les Origines du Bektachisme. Paris 1926, p. 21.

(٢) Toghridj ; Encyc. of Islam. Art. Bektash. (٣)

(٣) من ملاحظات الإنكشارية بأربع الطريقة البكاشية انظر :

Hasnack F.W.; Christianity and Islam under the Sultans. 2 vols. Oxford, 1929, pp. 483-493.

(٤) م ٣١ - المجلد الثامن

الدرابوش يعتبر دميلاً شيع الطريقة البكتاشية. وكان هؤلاء البكتاشية يتناولون طعامهم في هذا الصبر ، ويعكفون على الصلاة ، وتلاوة القرآن الكريم ، وينهون الله أن ينصر القنات المنيانة المسلحة ، وأن يجعل القنوة المنيانة مهية مية من كل غزو تنعز له (١) . وكان هؤلاء الدراوش البكتاشية يسبرون في المراكب الرسمية أمام أعا الإنكشارية مرتدين للباس الخصر ، وينادي ولهم بأعلى صوته : « كرم الله » أي « الله كرم » ، فيرد عليه بقية البكتاشية في صوت واحد جهر « هو » أي أن الله سبحانه وتعالى موجود . ولهذا أطلق على هؤلاء الدراوش « هوكشان » Hu-kachen — ومنها الصامحون بلفظة « هو » (٢) .

ومن دلائل التصاق الإنكشارية بالطريقة البكتاشية أن أتباع هذه الطريقة كانوا يقفون إلى جانب الإنكشارية في أثناء حركات العصيان العسكرية التي كانت تقوم بها الفيلق الإنكشارية ضد السلطان والحكومة المركزية ، بل كانوا يشتركون فيها ، كما أن السلطان عمود الثاني حين حصف بالفيلق الإنكشارية أطاح أيضاً بالطريقة البكتاشية فأمر بإلغائها وإغلاق تكاياها ، كما سوضح في الفصل التاسع عشر .

مركز وليس الإنكشارية ١

كان رئيس الإنكشارية — ويطلق عليه أعا الإنكشارية أو المصطلح الرسمي نفي شرية أغامى — من أرب الشخصيات في الدولة المنيانة ، إذ كانت القوات العسكرية التي تحت قيادته تعد أقوى أداة عسكرية ردية في سلاح المشاة تحت تصرف السلطان . كما أنه يحكم منصبه مكان يشغل وظيفتين أخريين ، فهو رئيس قوات الشرطة في إستانبول ، وهو في ذات الوقت عضو في مجلس الدولة ، وإن كانت مثل هذه العضوية لا تعد وظيفية بالمعنى العام الذي

(١) Gibb Hamilton (Sir) and Brown Harold ; op. cit. Vol. 1 (١)
Part 1, p. 63,
Part 2 p. 193.

(٢) D'Ohsson Ignatius Montredge, op. cit., t. IV, p. 673;
et t. VII, p. 325.

يتبادر إلى الذهن . وكان رئيس الإنكشارية - بحكم منصبه كمفائد لقوات الشرطة (١) - يعتبر مسؤولاً عن حفظ النظام وتوفير أسباب الأمن وحماية الأملاك في معظم جهات العاصمة ، ولم يكن يخرج عن اختصاصه سوى القصر السلطاني والمنطقة المحيطة به . والضواحي الثلاث للعاصمة وهي 'أيوب' ، خلطة ، إشفوردية .

وطبقاً للتروتيكول العثماني كان رئيس الإنكشارية في درجة وزير ، فكان يتقدم على كل من تقل مرتبته عن مرتبة وزير ، وكان يتقدم أيضاً على جميع القادة العسكريين أيما كانوا فيما عدا أيام الأعياد ، فكانت الأسبقية عليه لقادة فرقي البهابة وبولوكات السيلدار ، لأن هذين السلاحين أقدم عهداً من سلاح الإنكشارية .

وكان لرئيس الإنكشارية مقر خاص في عاصمة الدولة ومكاتب في الجهات التي تشمل القرية فيها . وكان يتبعه على الدوام ضابط أركان حرب يحمل الدفاعة . ويتقدم هذا المفائد في ميدان القتال علم أبيض يطوله ثلاثة أطواخ (٢) ، ثم يتبعه الإنكشارية . وقد رفعوا أذيال ملايسهم وربطوها بأحزمتهم .

وكان السلطان يختار رئيس الإنكشارية من بين ضباط هذا السلاح . وظل هذا التقليد متبعاً حتى حكم السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠-١٥٦٦) فأراد أن يحد من جبروت أفراد هذا السلاح وعظمتهم وعصبانيتهم ، فأدخل تعديلاً جوهرياً على نظام الاختيار فقرر بقتضاه أن يتم اختيار رئيس الإنكشارية من بين كبار ضباط القصر السلطاني .

(١) يلاحظ أنه لم تكن توجد قوات شرطة مستقلة سوى في العاصمة أو في الولايات . وهل ذلك لأن اللام التي يجب أن تكون من اختصاص قوات الشرطة كانت تقوم بها وقت السلم فرق من الإنكشارية . أما المنطقة التي تقع تحت إشراف الأغا فكانت تقوم فرق مرسومة في العاصمة بهذه المهام . وفي وقت الحرب كانت هذه الفرق تنسحب إلى ساحات القتال وتحمل عليها قوات من الجيش لمؤخراته .

Gibb Hamilton and Bowes Harold ; op. cit., Vol. I, Part I, p. 66.

(٢) سبق أن مررنا عدول هذا المصطلح . انظر من ص ٢٦٤-٢٦٥ في هذا المجلد .

مواقف العائلات المسيحية من ضريبة العنان :

لم ترحب معنات العائلات المسيحية بضريبة العنان ، بل خافوها من حيث الربا ، ولجأ عدد من هذه الأسر إلى مدعى الوسائل للهروب من أداء هذه الضريبة البشيرة . فعملت إلى تزويج الأولاد الذين طمحو الحلم بحي تحول دون انزاعهم من ذوبهم . وكان القناتون يمنع أخذ الأولاد المتزوجين . وإذا كانت الأمرة على حظ موفور من الرأه ، فلنبا كانت تقام رهوة لذئوب الحكومة المركزية المنوط به جمع العنان . وقد وجد هؤلاء المنطوبون في هذه الرشا وسيلة لجمع الثروات بطريق غير مشروع . ولكنه كان بمن مصالح متباداة بين المنطوب الحكوى والأسرة المسيحية .

وبع ذلك فإن مدعى المؤرخين يقررون أن ظالية الآباء كانوا يرحبون بتقديم أولادهم ، ونظروا إلى الخدمة كلها بجميع جزئياتها ومراحطها على أنها امتياز لم أكثر منها عبثاً هيباً قليلا . ويؤكدون هذا الرأى بقربهم إن العائلات المسدة كانت تطلب إلى الأسر المسيحية أن تقدم أولادها المسلمين إلى منطوب الحكومة المركزية على أنهم مسيحيون بدلا من أولاد هذه الأسر المسيحية . وكذلك عمل اليهود على حشد أولادهم ضمن حصيلة ضريبة العنان على أنهم مسيحيون (١) . وبذلك تسرى ، في غفلة من الحكومة ، على أولاد المسلمين واليهود الامتيازات التي كانت تفادى إغداقا على أباء الأسر المسيحية (٢) . ويذكر بروكمان المستشرق الألماني في هذا الصدد . و كان في المستقبل اللامع الذي ينتظر الإنكشارية ما يخفف كثيراً من صرامة هذه الضريبة . والواقع أنه استنكر حشد الأتراك (٣) أنفسهم ، فكانوا يسعون ، في أحوال

(١) Christian parents had sometimes bought off their sons from conscription, Moslem, Jewish, and Gypsy youths had been substituted for Christian.

See

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 180

Lybyer A.H., op. cit., p. 54.

(٢)

(٣) كان هذا المستشرق يحدد بلفظ الأتراك المسلمين الذين جئوا إلى الحواة

من آباء مسلمين لأسرار

كثيرة ، إلى حد أنباءهم في صفوف القلمان من الصلوى (١) ولكن كانت الحكومة المركزية توقع عقوبات قاسية على مرتكبي حوادث القتل والروبر والرشا حين تكتشفها ، كما أن هذه المسألة - إذا مضت دون كشف أمرها - لم تنفض على الكفاية القتالية للفيالق الإنشائية (٢) .

والحققة التي لا مرأى فيها أن المداخلة الحقيقية لضرية القلمان كانت تنكر في الامتلات المسيحية التي كانت الماطة الشدية تسيطر عليها سيطرة جيلة . فقد كرهت أمثال هذه الامتلات أن يرتد أولادها عن المسيحية وأن يتحولوا إلى الإسلام مهما كان المستقبل أمام هؤلاء القلمان زاهراً ومبشراً بمجد ورفعة وراء . فالماطة الدينية عند هذه الامتلات كانت من القوة بحيث نبخرت أمامها مغريات الحياة المادية . وجدير بالذكر أن المؤرخين والباحثين الأوروبيين وهب المسلمين عموماً والذين لا يزالون إلى اليوم يهاجمون ضرية القلمان في التواتة العثمانية إنما تليق حملاتهم عليها من التذرع للدين . كما أن الكراهية الشديدة التي كان ولا يزال يشعر بها الأوروبيون نحو الأتراك العثمانيين كان من بين يواحيها ضرية القلمان .

آراء المؤرخين في ضرية القلمان :

اختلفت آراء المؤرخين والباحثين حول ضرية القلمان ، فبعضهم حادها هجومياً حقيقاً ، والبعض الآخر دافع عنها من حيث المبدأ . وقد أقام الفريق الأول من أولئك المؤرخين والباحثين معارضتهم على ركيزتين . كانت الركيزة الأولى المواقف الإنشائية ، فصوروا الألام النفسية المبرحة التي كان يش منها القلمان وغصاة الأم التكللي عند انتراع ولعها منها ، وكيف كانت تترقب للموع غزيرة ، وصوروا هذه المخططات بأنها أفسس المخططات التي تمر بها أم في حياتها . ووصفوا ضرية القلمان بأنها تمثل أشنع أنواع

(١) يروى أن كل من كركل الأتراك العثمانيين ومضارهم ، مرشح سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٨٤ .

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I, Part (٢)

١, p. 180.

الظلم والموتة واقعة الرحمة من قلوب البشر ، وأنها اعتداء سافر على حرية الفرد وعلى حق الآباء على أبنائهم الصغار ، وقرروا أن هذه الضريرة تنزع من الإنسان أحر ما يملك في حياته ، إنها ضريبة اللحم الإنساني يفرصها منصر على قوم شاء سوء حفظهم أن تلقى الحكومة المسيحية التي كانت تحكمهم هزيمة عسكرية على يد الأتراك العثمانيين ، ويندفع الشعب ثم من هذه الهزيمة في صورة تنافي مع الأخلاق والمبادئ الإنسانية . ويخلص أولئك السائحون إلى أن الأتراك العثمانيين قد سلبوا أقوى العناصر من الشعوب المسيحية التي دانت لحكمهم . أما الرخصة الثانية التي أقام عليها خصوم ضريبة العلمان اعتراضهم فكانت لإكراه العلمان على الارتداد عن المسيحية واعتناق الإسلام . وقالوا ، إن هذا الإكراه يتنافى مع حرية الفرد في اختيار عقيدته .

أما الفريق الآخر من المؤرخين والباحثين الذين دافعوا عن ضريبة العلمان من حيث المبدأ فقد استندوا إلى أن الحروب التي خاضها الأتراك العثمانيون في الأقاليم التي فتحوها قد نشرت الخراب والدمار فيها . واستهلك عدد كبير من العائلات المسيحية إلى خطر الملاك جوعاً . وكان معظم الأطفال المسيحيين الذين أخذتهم الدولة العثمانية قد فقدوا آباءهم . ولولا أخذ الحكومة لهم لتعرضوا للملاك أو الإغراق . كما أن عادة بيع المسيحيين أرقاء كانت معروفة وممتدة . فلم تكن ضريبة العلمان بالشئ الجديد على المجتمعات المسيحية الأوروبية في تلك القرون . بل إن بعض الباحثين يذهبون في هذا الصدد إلى القول بأن هذه العادة لم تكن إلا استمراراً حالة مماثلة كانت قائمة في ظل الدولة البيزنطية التي سقطت على يد الأتراك العثمانيين بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ .

استاذ أمريكي يناقش عن ضريبة العلمان :

يقول الأستاذ الأمريكي ليبر Lybce تعظيماً على ضريبة العلمان بمجموعاتها الثلاث إنه ربما لم تحدث على وجه الأرض تجربة أكثر جراحة وأوسع نطاقاً مثل التجربة التي أقدم عليها العثمانيون ، فليس لهذه التجربة نظير سوى في جمهورية أفلاطون من ناحية النظرية وفي دولي المائيك

البحرية والشراسة في مصر من الناحية العملية ، ولكن لا يثبت هذا الاستاذ الأمريكي أن عقيد أوجه الشبه ، يقول إن نظام جمهورية أفلاطون يشترط أن تكون القبة الحاكمة مقصورة على الأرستقراطية الهيلينية ، كما أن التجربة الهلانية عثرت أكثر مما عثرت تجربة المالك بعد أن أزال الهلانيون دولة المالك الشراكية . وبعضى الأستاذ ليبير في تحليله على ضريبة العمداء فيقول إن نظامها كان لا يترقبه بالفروق الاجتماعية . لالدولة تجمع أبناء رعاياه المسيحيين من الريف ، والناحية الساحقة منهم يعملون في فلاحه الأرض ورعى الأغنام ، ومهم الفقراء الذين لم قلم راحته في محالفة الفقر ومزاملته حتى الحق بهم الفقر والتقصرا به ، وأصبحوا هم جزءاً لا يتجزأ من محاسبة الجؤس والفاقة والحرمان ، وإذا بأولاد هؤلاء المسلمين في الأرض قد بلغوا بعضى الأيام أرقى المناصب : صلوراً عظماً ، ووزراء ، وقادة عسكريين ، وحكاماً ، في دولة إسلامية مترامية الأطراف في القارات الثلاث الى كانت تشكل العالم القديم وتطغى .

ويسل الأستاذ الأمريكي على ديمقراطية النظام الهلاني في ضريبة العمداء بقوله إن شعب الولايات المتحدة الأمريكية قد يقهر بأن رجالاً وصلوا الى كرمى رئاسة الجمهورية وكانوا في مسهل حياتهم يؤدون أعمالاً متواضعة ومضنية في انتخابات المهجورة البعثة من العمداء . ولكن أمثال هؤلاء الرجال قد بلغوا منصب رئيس الجمهورية بفصل مجهودهم ، وليس بفصل الرقى وفق نظام وضع بمثابة لينفعهم الى مدارج الرقى . ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى فيقول إن الكنيسة الكاثوليكية قد تفخر بأن بعض البابوات كانوا في مطلع حياتهم ملاحين ، ولكن من الثابت أن اختيار الكنيسة لم يقع على أحد يتحلى من أسرة كانت تعتق ديناً مخالفاً للمسيحية أو تدس بمذهب مخالف للمذهب الكاثوليكي . أما الدولة الهلانية فعلى التقرض من تلك كله ، أخذت حليماً كانوا يتمتعون أبناء مباشراً الى عائلات مسيحية . وقد حلت هذه العائلات أسماء مسيحية أجيالاً وأعصراً وأحداً . وأخذت الدولة بأيدي أطفال هذه العائلات وفحت أمامهم الأبواب على مصاريدها وجعلت من بعضهم جنوداً في الجيش يصلون الى أعلى المناصب العسكرية ، وجعلت من البعض

الأخو رجلاً يشتغلون في البلاط العثماني ووزراء . ولم يمتد أن وجهت النوبة
مؤلاً إلى أحد من هؤلاء الأطفال تستصر منه عن اسم والده أو المهرمة
التي كان يزاولها أبوه ، بل كانت النوبة تقول له إن اختيارها قد وقع عليه
ليكون جندياً باسلاً في جيش السلطان ، وإذا أثبت كفاءة عسكرية فإنه
سيبلغ أعلى الرتب العسكرية وأرق المناصب للقيادة في القوات المسلحة .
وتترو النوبة لطفل آخر وهو ينشئ تنويعه المادي والعسكري إنه سيمثل في
البلاط السلطاني . وإذا أظهر متذرة فإنه سيكون والياً في إحدى الولايات
أو وزيراً أو صديقاً عظيماً . ويمثل هذا النظام - في نظر الأستاذ الأمريكي -
الديكتاتورية بأعلى معانيها . كما أنه يعطى على إفساح الطريق أمام الكذبات
فنبؤاً مكاناً علياً بعد أن كان مقبلاً لما أن تعيش مغشورة وتتمشى حياة
يحب بها الزمن من بين وهمال (١) .

تقديم حرية الضمير :

إن تلك الآراء التي يسطرها القريظان المعارضان من المؤرخين والباحثين
ليست إلا آراء اجتهادية لا تعدو أن تكون تبريراً لموقفهم من حرية أدبية
فرصتها النوبة على إعلان مسيحيين . ولكن هناك رأى واحد يمكن أن نسوقه
هنا نقسراً لهذه القضية يجب حياً جميع الآراء التي سبق عرضها تأييداً أو
اعتراضاً على حرية الضمير . إن هذه القضية ليست إلا صيغة من صور
الاجتهد العسكري الذي تباشره الحكومات في كافة الدول النامية والمتقدمة على
حد سواء لسد حاجة القوات المسلحة من الرجال مع وجود عدة فروق
هامة ، فذكر من بينها :

أولاً : إن الشاب المجند يقضى فترة التجنيد لمدة زمنية محددة ، وقد
تطول وقد تقصر تبعاً للظروف السياسية والعسكرية التي تختارها الدولة ،

Lybbyer A.H.; op. cit., pp. 45-47.

(١)

والخدمات التي تفر في هذا المرح الفصل الثاني بعنوان :

The Ottoman Ruling Institution : as a Slave-Family. General Description, pp. 45-61.

بل إن بعض الدول كانت تستقي الجندي في سلك الجيش حتى يتغنى بحبه سواء حلف أنه أو في ساحات الوحي . أما الدولة النمائية فبدلاً من أن تنظر العلام حتى يبلغ أشده ويصبح في عمول شبيهة لتجنده ، يجد أنها تأخذه وهو في سن مبكرة لتطويعه للتدريب الذي يتشبه مع استعمالاته القتالية والجهانية تمهيداً لتدريبه في وظائف السلك العسكري أو السلك المدني ، ويظل في خدمة الدولة طوال حياته .

ثالثاً : إن الجندي في الدول الأخرى لا يبيع عند وفاته أو عند تسريحه من الجيش رتبة من الرتب العسكرية الكبيرة . بينما كان العلام الذي تأخذه الدولة النمائية يصل إلى أعلى الرتب العسكرية والمناصب القيادية في الجيش أو البلاط السلطاني أو المصاهرة العظمى - رئاسة الوزارة - أو كرمي الوزارة أو الوظائف الإدارية المدنية ذات المستوى العالي . وعلى ذلك فإذا كانت الدولة النمائية تأخذ الأطفال المسيحيين وهم في سن قضاة ، فإن مستقبلها زاهراً كان ينتظرهم في قابل الأيام ويظلون يعملون به مدى الحياة .

رابعاً : إن الجندي في الدول الأخرى كان لا يطلب منه في الأعم الأغلب تغيير عقيدته الدينية أو ملهه الدينية . أما في الدولة النمائية فكان يتم تحويل العلام إلى الدين الإسلامي ، لأن هذه الدولة كانت تلزم في معظم الأوقات التزاماً صارماً بتطبيق مبدأ عام هو عدم إشراك غير المسلمين في الجيش الذي يظل مقصوراً على المسلمين دون سواهم .

ويلاحظ أن فريقاً من المؤرخين والباحثين ينقسمون المسألة الزمنية التي تفصل بين الغيلان اللذين عاشوا في أوروبا في القرن الرابع عشر وما تلاه وبين الغيلان أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وتجاهلوا الحروب الدينية العديدة والعقيدة التي خضبت أرض أوروبا بالدماء منذ حركة مارتن لوثر ، وحتى تقصر حبيبتنا في نطاق التاريخ الحديث ، ولا نوهل بعيداً في أغوار تاريخ العصور الوسطى أو تاريخ العصور القديمة . وكانت كل طائفة دينية تريد إكراه طوائف أخرى على اعتناق مذهبها ، وما تحفل هذه الحروب من الاغتيالات وعمليات عامة تنوعت صورها وأشكالها ووحشتها ، سواء في شبه

جزيرة إيطاليا ، أو ما يسمى الآن ألمانيا الاتحادية (الغربية) ، أو ما يسمى الآن ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) ، أو هنسّا ، أو سويسرا ، وغيرها بين الكاثوليك والبروتستانت ، أو في أسبانيا بين الكاثوليك والمسلمين بوجه خاص . ونحن إذا أشّرنا إلى هذه الأمثلة فلنأبى لا نناقض عن سياسة الدولة العلمانية في هذا الصدد استناداً إلى أن أحداثاً على شاكلتها قد وقعت من قبل في أوروبا . ومن المبادئ المقررة في مناهج البحث العلمي التاريخي أن تقييم الحادث وورنه لا يتأثر إلا في ضوء تقاليد المجتمع وقتذاك وحضارته والعصر الذي وقع فيه هذا الحادث .

أهمية الإنكشارية :

ترجع أهمية الإنكشارية إلى عدة عوامل ، من بينها كفايتهم القتالية وشجاعتهم المخرطة ودهرهم المديدة (١) وعصارتهم في المعارك الحربية . فكانوا يشكلون نخلا حرياً ربيعاً لمصلحة الدولة في الحروب التي كانت محوها بغيتوش العمانية دفاعاً أو هجوماً سواء في آسيا ، أو في أوروبا ، أو في أفريقيا .

وقد أرجع أحد المؤرخين ضلوة الإنكشارية في القتال وغشوتهم وجفاء طباعهم إلى الصرامة التي اتسمت بها تربيتهم ، وإلى عو ماضيمهم نحو كاد يكون تاماً ، وإلى التركيز على الاستقبال في الحرب واسترخاؤهم لموت . فكانت حصيلة هذه التربية للعينة من جو الأسرة والتي تركو فيه شئ المشاعر من الحب والطعام والحنان ، أن نشلوا مجردين من جميع الموراث الإنسانية التي تهذب الطباع ، وعبرومين من جميع الصفات المكتسبة التي تفتح الأذهان ، ويعيدون من كل المثل التي تحرك الإرادة . فعلمنا تفكيرهم وسلوكهم ومستقبلهم مرتبطاً بالحرب (٢) .

(١) كان عدد الإكتفائية أول الأمر ١٢,٠٠٠ ثم وقع حدم بخلاف إلى ١٣,٠٠٠ ثم ١١,١١٢ ثم ١٤,٠٠٠.

Fisher H.A.L.; *A History of Europe*, op. cit., p. 402. (r)

وكان الإنكشارية يأخذون سبى المواقع في ميدان الحركة ، بل وقيل
بدايتها . كان فريق منهم يراقبون طليعة الجيش يقبضهم عدد من رؤسهم .
إذا بلغ الجيش مكان الحركة وقفت الإنكشارية في القلب واتخذ السلطان
مكانه خلفهم ، وإلى جانبه يرق الحرب ، وهو العلم الإمبراطورى (١) .
وكان النصر الأعظم يقف إلى جانب السلطان ، وكذلك كبار القادة . وجميعهم
من نواح ضرورية الحياك ، أى القرار عيد السلطان .

وكان الإنكشارية أيضاً يتبعون السلطان في تنقلاته . ويعزو بعض المؤرخين
والباحثين مصاحبة الإنكشارية السلطان في تحركاته إلى أنهم كانوا يؤمنون
الحرس السلطانى . ويقولون إن هذه المرافقة للسلطان كانت وظيفتهم
الرئيسية . ومن الخطأ الأخطأ بهذا الرأى الذى يجعل البعض يعتقد أن عمل
الإنكشارية الرئيسى كان مقصوراً على الخدمة في الحرس السلطانى في حين
أنه كانت هناك أربع فرق عسكرية ذات مركز عال تعمل إلى جانب فرق
أخرى والحرس السلطانى . وهذه الفرق الأربع هى : الصولاك ، واليكسكات ،
والجاوشية ، والمفرقة . وكان أفراد بعض هذه الفرق يطيعون بالسلطان في
المواكب الرسمية ، بينما كان البعض الآخر لا يتركون السلطان إطلاقاً حين
كان يذهب إلى الحرب ، وكان البعض الثالث يتناوبون الحراسة في القصر .
وكان البعض الرابع يلازمون السلطان باستمرار . وكانت العائلية العظمى من
أفراد هذه الفرق لا يقومون بأى خدمة حربية إلا في تلك المناسبات (٢) .
وما يلخص الرأى الذى ذهب إليه تلك الفرق من المؤرخين والباحثين ،

(١) استمدت الدولة راية الرسول صلوات الله وسلامه عليه وللملوك البرى البرى بالعلم
الإمبراطورى . وندم هذا التغيير منذ حكم السلطان سليم الأول . ودخل الحجاز تحت السيادة
عثمانية عام ١٥١٧ وكان الصليبيون يمتدحون هذا البرق من أهم الأمانات المنحة ، وأطلقوا عليه
« صحن شريف » أى الفرق الشريف . وكان هذا البرق الشريف من بين الهدايا التى أرسلها
برككس شريف مكة إلى السلطان سليم الأول في أثناء تقدمه في القاهرة عنواناً على ولائه للدولة
ودخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . وكان الصليبيون منذ ذلك الوقت يحرمون على أحد هذا
البرق الشريف منهم حين يخرجون إلى الحرب تركاً به .

وهو أن الإنكشارية كانوا يؤمنون بالحرس السلطاني ، أن القياقي الإنكشارية كانت من أهم القوات الضاربة الرئيسية التي اعتمدت عليها الدولة في فتوحاتها لأقاليم مترامية الأطراف ، وفي صمودها أمام تكتلات صليبية أوروبية وهمة واجهتها الدولة عبر تاريخها الطويل (١)

ويؤيد هذا الرأي جبهة من أعلام المستشرقين والمؤرخين الأجانب وحسبنا أن نذكر أربعة منهم . يقرل بروكلمان المستشرق الألماني إن الإنكشارية كانوا قوام الجيش العثماني وعماده (٢) . ويقرر المستشرق كليان إيوردت أن الإنكشارية كانتوا أكبر قوة في فرق المشاة استطاع بها السلاطين بمقتضى الفتوح الواسعة التي قاموا بها في القرن الرابع عشر وفي القرون التالية (٣) . وهنالك مؤرخ إنجليزي - هو الأستاذ جرانث - يذهب إلى أبعد من هذا الرأي ، فيقول : إن إنشاء الإنكشارية كانوا أكثر أهمية من سلاح الفرسان . وكان معبراً أو مستقر الدولة العثمانية - إلى حد كبير جداً على الإنكشارية (٤) ، ثم يقول في موطن آخر إن الدولة العثمانية أحرزت أعظم انتصاراتها في ساحات القتال بفضل الإنكشارية ، بسبب مقلوحتهم القتالية وشجعهم الحورية . ولما اقتنوا هذه المزايا والحاصل ولت الأيام النعنية التي عاشتها الدولة عبر تاريخها الطويل (٥) . أما المؤرخ الإنجليزي فيشر فكان أكثر تفصيلاً لهذا

(١) من التوسع الإسلامي ومن تكتلاته لحضر .

دكتور عبد الحريز عبد الشفيق : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ج ١ ، الطبعة الأولى : ص ٤٦٤ - ٥٨٢ ، ص ٥٩٣ - ٦٢٠ ، ص ٦٢٥ - ٦٥٠ ، ص ٦٥٥ - ٦٦٨ ، ص ٦٧٥ - ٦٧٧ ، ص ٦٨٩ - ٧٠٦ ، ص ٧١٠ - ٧٢٤ ، ص ٧٢٨ - ٧٤٠ ، ص ٧٦٠ - ٧٧٧ ، ص ٧٨٢ - ٧٨٨ ، ص ٧٩٣ - ٧٩٥ ، ص ٧٩٩ - ٨١٠ .

(٢) بروكلمان كركل : الإمبراطورية العثمانية وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ص ٨٢ .

Huart Cl., Encyc. of Islam. Art. Janissaries. (٣)

Grant A.J., A History etc., op. cit., p. 211. (٤)

op. cit., p. 212. (٥)

الرأى من سابقه ، فهو يقول إن وجود فرقة واحدة من الإنكشارية في أى جيش عثمانى كان كفيلاً باستماتة هذا الجيش كله في ميدان القتال ، ثم يقول في موطن آخر إن الإمبراطورية العثمانية قامت ، وظلت قائمة ، لا بفضل رجال من العثمانيين فحسب ، وأولئك لم يكونوا أكثر في الجيوش العثمانية ، بل كذلك بفضل رجال مذهبهم صفالة الأصل ، ولأنهم أمهاتهم مسيحيين ، ثم جئ بهم إلى المدارس الإنكشارية حيث تلحقوا طامع الحصوع العسكري والمثلية الإسلامية (١) .

ويسجل أحد الباحثين العرب المحدثين رأيه في أهمية القبائل الإنكشارية في القرون الأولى للملحمة العثمانية ويشيد بعشرات أفراد هذه القبائل ودورهم في الفتححات العثمانية التي تمت غرباً وشرقاً ، فيقول إن القبائل الإنكشارية كانت محور قوة الدولة . وهذه القبائل المنظمة والملمية والمتفانية استطاعت الدولة أن توسع حدودها بسرعة . فلما من ناحية فتح بلاداً في أوروبا كانت حتى ذلك الوقت خارج حوزة الإسلام ، ومن ناحية أخرى استولت على الإمارات الإسلامية الصغيرة التي قامت في الأناضول على أنقاض دولة الروم السلاجقة (٢) . ولا شك أن هذا البحث العربي كان يتكلم عن القوات الإنكشارية في عصرها الذهبي قبل أن يتطرق إليها القساد وتبدل مدار أقطار على الدولة .

ونصيف إلى ما قرره هؤلاء الأربعة ، عن الدور الرئيسي الذي قام به الإنكشارية في حروب الدولة هجوماً ودفاعاً ، أن الإنكشارية كانوا يشكلون

(١) "... it is clear that without such a tribute (the tribute of Christian children) a regular recruitment could not have been maintained. It followed, as a consequence, that the Ottoman Empire was made and maintained, not only or even mainly, by men of the Ottoman race, but by the slave children of Christian parents, who had issued through the seminaries of the janissaries, with the appointed stamp of military subservience and the Moslem faith"

Fisher H. A. L., op. cit., p. 402.

(٢) ملحق المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧-١٨

الحمايات التي ترابط على حدود الدولة . وكانوا يتفقون مرتبهم من الحكومة المركزية في إستانبول .

وجرت العادة على أن ترسل هذه الحكومة عدداً من ضباط الإنكشارية أول الأمر إلى المواقع المقترحة لإنشاء الحمايات فيها . ويقوم هؤلاء الضباط بدراستها على الطبيعة وتقديم مقترحاتهم إلى إستانبول . وكانت الدولة أيضاً تعزز جيوش الاحتلال في الأقاليم التي فتحها بقوات من الإنكشارية . وكانت لهذه القوات الصدارة على سائر فرق جيوش الاحتلال في الولايات العثمانية في أوروبا ، و فرق الحمايات العثمانية في الولايات العربية . وتذكر على سبيل المثال بلاد الشام بتقسيماتها الإدارية ، ومصر ، والعراق . وكان الإنكشارية في الممتلكات العثمانية يحصون لإمرة الولاة المحليين ، ويتقاضون مرتبهم من الحكومة المحلية في الولاية .

جبروت الإنكشارية وطغيانهم :

كان الإنكشارية سلاحاً رهيباً ساداً بآراء استطاعت به الدولة أن تضي قدماً في سياسة التوسع الإقليمي المرحلي . وكان الجيش العثماني يصارع أقوى الجيوش الأوروبية . ثم غلبوا مركز قوة خطير في حياة الدولة تعرضت بسببه لأخطار جسيمة . استشرى نفوذهم وازدادوا إدراكاً لأهميتهم ومفلسرتهم القتالية فدخلتهم الفرور ، أو عبارة أكثر دقة ، ازدادوا عروراً على غرور ، وصلاً على صلف .

- كانوا يزجون بأنفسهم في السياسة العليا للدولة ، وهي مسائل ليست من اختصاصاتهم . كانوا يطالبون بجمع السلطان القائم بالحكم بمقولة أنه ليس له نشاط حربي ، ويتدخلون في اختيار السلطان الجديد . ويأخذون حظاً يطلون عليها بالحشيش - أي البشيش - كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد ، بحيث أصبحت هذه العطايا تقليداً راسخاً لا يستطيع سلطان مها أوتي من قوة أو حرمة أن يتجاهلها وإلا تعرض للمهانة على أيديهم . ثم ألفت هذه العطايا منذ عام ١٧٧٤ حين تولى السلطان عبد الحميد الأول عرش الدولة في اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام

١٧٧٣ (١) وكانت حجة في إلغاء هذا التقليد حجة قوية ، هي أن الدولة كانت تحتل وقتذاك أزمة مالية عسيرة بسبب ضخمة الإنفاق العسكري على القوات النمائية المسلحة زيان الحرب التي اشتعلت بين الدولة وبين الروميا . وهي الحرب التي استطلت ست سنوات كواهل وتعظم فيها البلش والأسطول النمائيان ، وانتهت بقصد معاهدة جائرة هي معاهدة كنفشك كبريجي في اليوم الحادي والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٧٧٤ . وقد ألحق بسلمه المعاهدة بندان سريان . نص أولهما على أن تدفع الدولة النمائية لروميا غرامة حرية قدرها خمسة عشر ألف كيس ، تسدد على ثلاثة أقساط متساوية في اليوم الأول من شهر يناير - كانون ثان - في عام ١٧٧٥ ، وعام ١٧٧٦ وعام ١٧٧٧ .

وبدأت ظاهرة تدخل الإنكشارية في المسائل السياسية العليا منذ عهد السلطان وأبي يزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢) ، ثم امتدت هذه الظاهرة على جهود معظم خلفائه السلاطين . حدث أن السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) - وهو معروف بصراته وإسرافه في سفك الدماء - كان قد توغل في أراضي الدولة الصغوية في فارس على رأس قوات راحفة جرارة . وضجأة طلب الإنكشارية من هذا السلطان وقف العمليات الحربية بحجة الاكتفاء بما حققوه من انتصارات واستيلاءات على أراضي العدو . ونشئ السلطان أن يمسوا إلى الفرد والحصان وهو بعيد عن قاعدة دولته مما قد يرضخ للبلش النمائي إلى التزق . وكان تقدير السلطان للموقف الحربي أن الانسحاب هو أنفع الضررين . فرضخ لطلب الإنكشارية . وعاد أدواجه إلى عستانبول . وتكرر مثل هذا الحادث على عهد سلطان لاحق هو السلطان عثمان الثاني . وسنوضح هذين الحادثين في الفصل القادم .

وازداد نفوذ الإنكشارية بعد أن انتقلت قوات كثيفة العدد منهم إلى حاضرة الدولة مما أتاح عديد الفرص لروسانهم ليتدأوا في طلباتهم كلها آتسوا

(١) يروي بعض المؤرخين والباحثين التفاضي عن الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر - كانون

أول - ١٧٧٢ ، ويصلون عام ١٧٧٤ بداية حكم السلطان عبد الحميد الأول .

من السلطان الحاكم ضحماً كانوا يملكون السلاطين والصدور العظام والورراء ومن إليهم من رجال الدولة ، ويتخلون بهمهم ، ويتدخلون في تعيين غيرهم في المناصب التي تخلو بقتل أو عزل شاعليها . وأصبح كبار موظفي الدولة بحشون الإنكشارية ويتلقون رؤسائهم ، ويخاضون أوامرهم خوفاً من بطشهم . ويبلغ من عثر الإنكشارية أنهم كانوا لا يحفلون بتكليف الأوامر العسكرية التي تصدر لهم من قيادة الجيش . وتذكر على سبيل المثال أنه إذا استول الجيش على مدينة وعينت هيئة أو اتفاقية مؤلفة تتضمن شروط التسليم ، وكان من بينها المحافظة على أرواح سكان المدينة وأموالهم وأعراضهم ، كانت الفيلق الإنكشارية لا تقبأ بشروط التسليم ، وتتعلق في نشاطهم مغموم تملس أعمال النهب والسلب والقتل وهتك الأعراض وإحراق المباني

وكان الإنكشارية في أوقات السلم يشقون عصا الطاعة ، ويلجأون إلى سلاحهم الفيلق ، وهو القيام بحركات عصيان تعمل معنى التحدي للسلطان والحكومة المركزية في العاصمة . وانتهى بهم الأمر إلى أن أصبحوا بمثابة عصابات عسكرية تجفو بقومهم إلى أعمال التمرد وخطع السلطان الحاكم والمنداة بتتصيب سلطان جديد يقع عليه اختيارهم طمعاً في تجديد العطايا . وكانوا يلجأون إلى وسائل بعيدة كل البعد عن الانصياع العسكري . كانوا يترصون الموكب السلطاني ويعتصمون السلطان من الوصول إلى القصر ويهجمون في وجهه حشافات غير كريمة مغالبي إما بمزيد من العطايا والإمتيازات ، وإما بالقاء قواتهم كانت قد صدرت باخلاق محلات بيع الخمر وحظر تناول هذه المشروبات فكانوا يعملون في أيديهم كلوس الشراب ويرفعونها في وجه السلطان مما يعد تحدياً صريحاً للرئيس الأعلى للدولة وحكومته .

الإنكشارية يتخلون من الفرائدات رمزاً لتمردهم :

كان الإنكشارية يتخلون من الفرائدات - وهي القصور التي يطهى فيها العلام - رمزاً إعلامياً يهرون به عن مسلكتهم . فكانوا لا يجتمعون حول

القرانات لتناول الطعام فحسب ، بل ولتتجاوز في أمورهم الخطيرة أو الهامة . فإذا استقروا رأياً على القيام بحركة حصيان عسكري جماعي قلبوا القرانات بعد التمام الأطلعة الموجودة بها ، ووضعوها صفوفاً مترابطة أمامهم في مساحة آت ميداني - أي ميدان الخيل - وكانت تقع في هذا الميدان ثكناتهم . ويمكن أن أمام القرانات بعض الوقت ، وهم في هرج ومرج شديدين . فإذا أُقبل رؤسائهم ساد المخاضرس صمت مطبق ، ويعلن أحد الرؤساء تفاصيل القرد العسكري وأهدافه سواء قتل شخصية كبيرة ، أو عدة شخصيات ، أو تنظيم مظاهرات عسكرية تعرض لموكب السلطان في أثناء مروره ، أو الهجوم على القصر السلطاني والمناداة بخلع السلطان وتصيب غيره . ويبدأ ينطلق الإنكشارية وحرشاً كالسرة لتضيق محطط المعصيان . وهم في وضع استعداد تام لمواجهة أية قوات ترسلها الدولة للتصدي لهم . وكانوا إذا قتلوا شخصاً أو أكثر حملوا رؤوس القتلى معهم ووضعوا كل رأس أمام قران مغلوب . وعند نجاح تنفيذ محططهم تصبر لهم الأوامر من قيادتهم بإعادة القرانات إلى ثكناتهم قسراً عن انتهاء القرد العسكري .

تألم محططو الإنكشارية :

وإزدادت مشكلة الإنكشارية ثقافاً عندما قررت الحكومة المركزية ، أو بعض عناصر هامة مستبيرة فيها ، تطوير الجيش بإدخال النظم العسكرية الحديثة التي أخذت بها الدول الأوروبية في جبهتها . وقد أطلق المانيون على مشروع تطوير الجيش « النظام الجديد » (١) . وجاء قرار الحكومة في هذا الصدد نتيجة لتعرض جيوش الدولة لحرائم أليمة متعاقبة من الدول

(١) كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) هو الذي أطلق هذه للتسمية على القرد العسكري التي بدأ في إنشائها ، وجعل مترابطة ساحة لوند يمتدح على مرتفعات لوند كويك ، وأرسله كرم على السائل الأوروبي فيوسفود .

الأوروبية . وبات واضحاً حيز الدولة عسكرياً عن الدفاع عن ممتلكاتها الأوروبية بوجه خاص . ونبتت الفكرة القائلة إن ضعف الدولة هو ضعف عسكري قبل كل شيء ، وأنه لا يرجى أى إصلاح إلا إذا بدأت الدولة بإدخال التنظيم الحربية الحديثة في قواتها العسكرية بحيث يسار الجيش العثماني جيوش الدول الأوروبية تسليحاً وتنظيماً وتدريباً . ومن المعروف أن الدولة العثمانية كانت دولة عسكرية عاشت أزهى عصورها على الأجداد العسكرية التي حققتها الجيش العثماني . وكان هذا الجيش أداة للحرب أولاً ، وأداة الحكم ثانياً . وقد ذكرنا من قبل أن بعض المؤرخين شبهوا الجيش العثماني بعمله صريت على أحد وجهيها لفظة «الحرب» ، ونقشت على الوجه الآخر كلمة «الحكم» . فكان الحكم العثماني في لحمة ومداة حكماً عسكرياً .

عارض الإنكشارية معارضة شديدة لإدخال النظام الجديد في فيالقهم ، لأنهم أدركوا أن تطبيقه في محيطهم العسكري سيؤدي إلى إدماعهم أو ذوبانهم في الفرق العسكرية الجديدة التي أنشأتها الدولة وفقاً للنظام الجديد . وكابوا حريصين الحرص كله على الاحتفاظ بكيانهم الخاص ووضعهم الخاص وامتياراتهم الخاصة في الجيش . ولذلك رفضوا رفضاً باتاً وقاطعاً العروض التي قدمها لهم بعض السلاطين ، مثل السماح لهم بالانضمام إلى الفرق العسكرية الجديدة ، ورفضوا أيضاً قبول معاش يحرره الدولة لمن يرفض منهم النظام الجديد . واستهجنوا هذا النظام ، بل أنكروه قائلين : «إد ولي الله الحاج بكباشي كان قد بارك جماعة الإنكشارية عند تكوينها ، ودعا لها بالنصر الدائم» (١) . وزعموا ، تأسيساً على دعاء هذا الولي وبركاته ، أنهم في غنى عن كل تنظيم .

وقد ذهب الإنكشارية في معارضتهم لتطبيق النظام الجديد عليهم إلى أنهم لجأوا إلى سلاحهم الرهيب وهو تنظيم حركات التمرد أو العصيان في وجوه السلاطين والصدور العظام ومن إليهم معتمدين على قوتهم العسكرية ووفرة أعدادهم بحيث أصبحوا مركز قوة خطر عريض أمن الدولة الداخلي والخارجي

(١) ملحق للمصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٦-٧٧ .

لأخطار بالغة . ونجحوا في إكراه عدد من السلاطين على إلغاء النظام الجديد . وهكذا أصبح الإنكشارية بمعنى الزمن عنصر فساد في جسم الدولة ، يؤثرون مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة . وتعلقت حركات العصيان وارتسوا إليها ، إذ وجدوا فيها وسيلة عملية لتحقيق رغباتهم من ناحية ، ولكي يثبتوا من ناحية ثانية لساثر أسلحة الجيش ولكبار موظفي الدولة وللقطاعات الجماهيرية أنهم لا يزالون أولى بأس شديد ، وفي استطاعتهم عزل السلاطين وقتلهم وتعيين غيرهم ، فصلا عن قسرتهم على البعش برجال الدولة من ناحية ثالثة .

شروط الإنكشارية تنحدر إلى المذهب :

وامتدت شروط الإنكشارية في أوقات السلم إلى المديين الواحدين ، سواء في عاصمة الدولة أو في عواصم الولايات ، فارتسوا نشاطاً إجرامياً في السلب والنهب . كانوا يعملون إلى إحراق أحد أحياء مدينة يفرقونها ، فإذا اشتعلت النيران وارتفعت ألسنة اللهب في عيان السباه انطلق الإنكشارية يشبهون الأحياء الأخرى في المدينة . فكانوا يقتحمون البيوت ، ويهتكون الأعراض ، ويهاجمون الممتلكات التجارية ، ويركزون هجومهم على محلات اليهود ويضطفون بضاقها (١) . ويبلغ بهم الجبروت والعصيان أنهم احتلوا أن جميع الأقاليم مساحة لم حتى ولو كانت ثمرات الدولة تنمهم من ارتكابها أو الإتيان بها (٢) . ووصل بهم الأمر إلى مهاجمة النار المخصصة لسكنى الصدر الأعظم إذا تباطأ في تنفيذ طلباتهم (٣) . وبذلك أصبح الإنكشارية كأن قلوبهم خلف (٤) لا تسمى شيئاً ولا تقبل نصيحاً أو أمراً عسكرياً ، لأنها مغلقة ، ولكن طبع الله عليها بسبب جبروتهم وطغيانهم .

Lybyer A.H.; op. cit., p. 92. (١)

Lavisse et Rambaud; op. cit., tome IV, p. 759. (٢)

D'Oshon Ignatius Mouradgca, op. cit., tome VII, pp. (٣)

359 - 360.

(٤) خلف مفرداً أغلب . ويقال قلب أغلب لا يلى لعدم فهمه ، كأنه حجب عن القلب كما يحجب السكين ونحوه بالثلاث .

إجراءات الدولة للحد من طغيان الإنكشارية :

استأن السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) نعمة الإنكشارية نحو
 الفرد العسكري ثم تلخظهم في السياسة العليا للدولة . وقد وضحت هذه
 المخابل منذ الأيام الأولى لحكمه وفي أثناء الحرب التي نشبت بين الدولة
 والصفويين على النحو الذي سنشرحه في الفصل التالي ، ورأى هذا السلطان ،
 مع الإبقاء على الإنكشارية كتتظيم عسكري في الجيش ، أن يكسر وحدة
 طغيانهم وجبروتهم من ناحية ، وأن يفيد منهم كقوة من المشاة لما ورها
 وقتها في الحرب من ناحية ثانية . ولما فتح بلاد الشام سنة ١٥١٦ ثم مصر
 سنة ١٥١٧ عزز القوات العثمانية المسلحة التي تركها في هذب الإقليم
 بغياقي من الإنكشارية لدعم الحكم العثماني فيها وتثبيت جموع الإنكشارية
 بحيث لا يتجهضون أو يتكلمون في حاصمة للدولة . ولما عاد إلى إسطنبول
 تلقى نداء من خير الدين بربروسه ، أي خير الدين ذي القبة الحمراء ، كي
 يحاونه في جهاده ضد الإسبانين ، فأرسل له السلطان سليم في عام ١٥١٨
 ألفين من الإنكشارية (١) كل إجراء سريع ، وسمح له بتجنيد الأهالي من
 الأناضول حتى يتمكن من مواجهة الأخطار الاستعمارية الصليبية . وقد
 أقبل أهالي الأناضول على الالتحاق بخدمة خير الدين طمعا في الغنائم (٢)
 من ناحية ، وإسماها منهم في حركة الجهاد الثبتي في شمال إفريقيا من ناحية
 أخرى . وكان هذا التصرف من جانب السلطان سليم الأول متمشيا مع
 السياسة التي أرمى فواعدها تجاه الإنكشارية . ومصبت الدولة على عهد
 السلاطين اللاحقين تتابع هذه السياسة في الثبايات العثمانية الثلاث في شمال
 إفريقيا والتي دخلت تحت السيادة العثمانية في القرن السادس عشر .

ولما استعظمت شروور الإنكشارية عهد السلاطين إلى وسائل أخرى

(١) كان خير الدين يبربروسه يقود الحملة العثمانية في الجزائر . ومخرج مركزه به
 مثل أمه مروج في أثناء عفرته بخليل مدينة تلسان من الإسبانين .
 انظر :

ابتغاء الحد من طغيانهم . كان من بينها توزيع القبايل الإنكشارية على ضواحيات الحدود كما سبق أن ذكرنا في موطن سابق في هذا الفصل . وكان السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) أحد السلاطين الذين تصالحوا لمشكلة الإنكشارية . كان يملك تماماً أنهم يجاوزوا المدي وأصبحوا مركز قوة خطير في الدولة ، أو كما يقول المستشرق هارولد برون ، إنهم غلبوا أصحاب الدولة الأقوياء (١) . وانتهى هذا السلطان فرصة وقوع حوادث مؤسفة في إستانبول في أثناء الاحتفالات التي أقامها بمناسبة ختان ابنه سنة ١٥٨٧ . ازدحمت العاصمة بالآلاف من سكان الأقاليم قلموا إليها لمشاهدة المهرجانات . ومات من شدة الزحام كثير من الواقفين ومن سكان العاصمة . وبرر في هذه الأحداث شباب أظهروا شجاعة وحس تصرف في إنقاذ الأهلين من الازدحام والموت . وأراد السلطان أن يكافأهم فألحقهم بقبايل الإنكشارية (٢) ، كما أمر هذا السلطان بإخلاق عدد كبير من المحدثين غير المدربين بمبادئ الإنكشارية مباشرة . ولقى هذا الإجراء معارضة شديدة من رئيس الإنكشارية . ولكن لم يأبه السلطان بهذه المعارضة ومضى يتخذ هذا الإجراء الذي قابله رجال المعارضة بترحيب حار . وانتهى السلطان مراد الثالث فرصة تجديد الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، فوجه ضربة شديدة إلى الإنكشارية كتنظيم عسكري ، إذ سمح بإدخال أعداد وفيرة من المحدثين المسلمين الأحرار ، أي الذين ولدوا من آباء مسلمين ، في القبايل الإنكشارية بعد أن كانت هذه القبايل مغلقة تماماً في وجه هؤلاء المحدثين . وثمرت على تدخلهم نتيجة هامة هي مطالبة هؤلاء المحدثين بإلغاء الخطر المقرض على أفراد القبايل الإنكشارية بعدم الزواج . واستجاب السلطان لهذا المطلب ، وبعبارة أكثر دقة ارتفعت الدولة لهذا المطلب ، ورفضت الخطر عن جميع أفراد

The Potential Masters of the State.

(١)
المر

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 180.

(٢) انظر تفصيلات عن هذا الموضوع في :

دكتور عبد البريد محمد الشناري . أوروبا في مطلع القصور الحديثة . مرجع سبق ذكره .

الطبعة الأولى ، من ٧٥٥-٧٥٦ .

هذه القبائل . فغفل الإنكشارية بمشكلات الحياة الزوجية والإنسال عن الحياة العسكرية التي كانوا متصرفين إليها كلية . وضعف استعدادهم الحربي وأصبح الالتجاء إلى القبائل الإنكشارية وراثياً بنقض للنظر عن كفايتهم القتالية مما أدى إلى تدهور نظام الإنكشارية . ثم غطت الدولة خطوة أخرى في سبيل كسر شوكة الإنكشارية ولستر ضآلتهم معاً . فأدنت لهم في ممارسة بعض الحرف أو الاشتغال بالتجارة في أوقات السلم بعد أن كان محرماً عليهم العمل في أمثال هذه الأنشطة الحرفية والتجارية (١) . فلزادوا ابتعاداً عن الحياة العسكرية البحتة ، وازداد مستواهم القتالي هبوطاً . وأصبح بعضهم لا يذهبون إلى ثكناتهم إلا لتسلم مرتباتهم . وكانت الدولة لا تسمح لهم بحمل الأسلحة النارية في أوقات السلم تجنباً لاستخدامها في حركات العصيان العسكري أو في القتال بالمدينة . وعلى الرغم من كل هذه القيود التي أحيط بها الإنكشارية من يمين وشمال فقد ظلوا يمثلون كاهل الحكومة ومرتباتهم وسائر النفقات العسكرية . وظلوا في مركز القوة لأن ثكناتهم التي كانوا لا يذهبون إليها إلا لما كانت مكاناً لتجمعهم إذا أرادوا القيام بحركة ثمود . وكانت لهم صيغة تجمعهم في الثكنات ، وهي « يولداس يوكى » (٢) ومعناها ليس لنا زملاء ؟ وكان لهم صباط يقومون بتسليحهم وتوجيههم قبل تنفيذ حركاتهم الفردية .

ونعرض في الفصل التالي صوراً من طيفان الإنكشارية وجبروتهم كمرکز قوة خطير في تاريخ الدولة .



Marriot J.A.R. (Sir), op. cit., pp. 102-103.

(١)

(٢) يولداس معناها زميل طريق . كلمة يولداس معناها طريق وتستخدم في الوقت الحاضر عبارة يولد في الصلح . وتكتب هذه الصيغة في اللغة التركية بالحروف اللاتينية : Yoldas Yoku.

إفصل الثامن عشر

مراكز القوى في الدولة (٢)

صور من

طغيان الانكشارية وجبروتهم

الانكشارية يرتكبون عمليات القتل والسلب عند تعيين أبي يزيد الثاني سلطاناً :

توفي السلطان محمد الثاني أو السلطان أبو الفتح أو السلطان الفاتح عن ولدبن، أكبرهما بأبو يزيد^(١)، وكان حاكماً على آتاسيا، والآخر، إجم، وكان يحكم القرمات. وقد أسير قرماني محمد باشا الصلر الأعظم نبأ وفاة السلطان محمد الفاتح إلى ابنه الأكبر كي يسرع في العودة إلى إستانبول ويتبوأ العرش. ولكن عاد الصلر الأعظم فأرسل إلى الابن الثاني الأمير جيم بغيره سرّاً بوهة والده. وحدث تسابق بين الأخين على السفر إلى العاصمة، وكان كل منهما يسعى للوصول إليها قبل الآخر مما يتيح له الفرصة لارتقاء العرش. وحلم

(١) يرد اسم هذا السلطان في الغالبية العظمى من الكتب العربية مكتوباً على هذا النحو .
بأبجدية . ولواقع أن كلمة بإيزيد هي الملقب التركي لإسم القرماني أبو يزيد .
وعا هر جيم بالذكر أنه توجد مدينة تحمل هذا الاسم في آسيا الصغرى ، وكانت حاضرة
صينق في ولاية أنشروم وتبعد ستة كيلومترات عن الحدود النائية القارسية . وتشرف
على الطريق المؤدى إلى أنزليجان . وقد أنشأ عنه المدينة السلطان أبوبزيد الأول واتخذ منها
مركزاً لمراقبة تهود ، وفيها قلعة قديمة . ومن داخل البلدة مسجد رائع شينه يملأه تلك الزاوية
التيك من تلك الزلاية . وظل في هذا المنصب حتى عام ١٨٢١ ، ولم يسيطر عليها النابليون مطلقاً
لثمة إلا بعد الحملات التي وجهها السلطان سليمان الملقب على الفترة القصيرة في سنوات ١٨٢٣
١٨٤٨ و ١٨٥٢ . واستولى عليها الروس عدة مرات في القرن التاسع عشر في سنوات ١٨٢٨
١٨٥٤ و ١٨٧٧ ثم في سنة ١٩١١ . وهي تقع حالياً بجمهورية تركيا . ومنظم سكانها من
الأتراك والأكراد . ويتركز نشاطهم في قرية الأعظم والتلج الصوف والبلود انغام والحدود
للتهرة وصنع السجادة .

الإنكشارية بصرف الصبر الأعظم ظفروا عليه وقتلوه ، ثم عاثوا في
إستانبول نهباً وسلباً . وألقوا ابن الأمير أبي يزيد ، واسمه قرقند ، وقائعماً
عاماً للدولة ، أبى سلطاناً بالنيابة حين حضور والده إلى العاصمة وبياشر مهام
منصبه سلطاناً للدولة . ووصل أبو يزيد إلى إستانبول حيث كان في استيلائه
كبار رجال الدولة عند يوغاز اليوسفور . وفي أثناء اجتيازه اليوسفور أحاطت
به سفن وقوارب عديدة ملئت بالإنكشارية الذين رحبوا به . وكان الهدف
من هذه المظاهرة البحرية هو إشعار السلطان الجديد بأن لهم اليد الطولى في
ارتقائه العرش بعد أن كسب الجولة الأولى من أحبه الأمير جم ، ولما وصل
السلطان الجديد إلى القصر السلطاني وجد قبائلي من الإنكشارية مرابطة أمام
القصر ومدخله ، وهم في مظاهرة عسكرية ، وقدموا له عدة مطالب
وطلبوا تنفيذها فوراً ، وكان من بين هذه المطالب عزل أحد الوزراء واسمه
مصطفى باشا وتعيين وزير آخر يسمى إسحق باشا كان متعاطفاً معهم ، وأن
يقدم لهم عطايا ابتهاجاً بتعيينه سلطاناً ، وأن يصدر حقواً عاماً عنهم بسبب
ما ارتكبه من أعمال السلب والنهب في العاصمة . وقد استجاب السلطان
أبوزيد الثاني لجميع مطالب الإنكشارية . وكانت مبادرة هذا السلطان
بتقديم عطايا مالية للإنكشارية بمناسبة ارتقائه العرش تقليداً يلتزم به التزاماً
صارماً بعد ذلك كل سلطان يترفع على عرش الدولة (١) . واستمر هذا
التقليد صارماً زهاء ثلاثة قرون — أو مائتين وأربعة وتسعين عاماً على وجه
التحديد — حتى يجع السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤—١٧٨٩) في إلغاء
هذا التقليد . ولم تكد تنقضي ثلاثة أشهر على ارتقاء السلطان العرش حتى
طلب منه الإنكشارية أن يسمح لهم بنهب مدينة يروسة عقاباً لسكانها على أنهم
أدوا إليهم أنحاء الأمير جم الذي كان ينازعه على العرش . ورفض السلطان
طلبهم . وخوفاً من حدوث شغب منهم دفع إليهم عطايا مجزية للمرة الثانية
في مسهل حكمه . وقد مررت في الفصل السابق أنهم أجبروا السلطان أبوزيد على
إعادة فتح محلات بيع الخمر كي يملأوا عادتهم في تناول المسكرات .

(١) كان يطلق على عرش الدولة « العتق السلطاني » .

الإكشافية يشتركون في عزك السلطان أبي يزيد الثاني :

كان السلطان أبو يزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) قد أنجب ثمانية أولاد ، توفي خمسة منهم وهو لا يزال على قيد الحياة (١) . وبقي له ثلاثة أولاد هم : الأمير أحمد ، والأمير قرقند Korkoud ، والأمير سليم ، وعين والدهم كلا منهم حاكماً على إقليم من أقاليم الدولة . عين أحمد حاكماً على آلمانيا ، وعين قرقند حاكماً على صابروغاك (مانيسه) ، وعين سليم حاكماً على طرابزون . وكان الأمير أحمد أكبر الأبناء الثلاثة وأحهم إلى قلب السلطان فاختاره ولياً للعهد . فتمحرت عوامل الغيرة في الأميرين الآخرين . وكان يروم كل منها أن يكون ولياً للعهد . واشتهر الأمير سليم بشغفه بالحرب وسرشته وصرامته وميله لسفك الدماء . ويطلق عليه المؤرخون الأوروبيون لقباً يجمع هذه الصفات ، فيقولون إنه الوحش أو المفترس Le Féroce ويصفه أحد البنادقة في حمله العبارة « إنه أكثر السلاطين قسوة ، ولم يكن يحلم إلا بالزور والحرب » (٢) أما المؤرخون العثمانيون فيطلقون عليه « ياوز » (٣) أي السلطان الحاد البائر العنيد . وينظرون إليه على أنه يعقل يمثل أروع تمثيل العبقريّة العسكرية

(١) كان هؤلاء الأولاد خمسة هم :

- الأمير عبد الله . وقد توفي عام ١٤٨٣ .
- والأمير محمد . وقد توفي عام ١٥٠٤ .
- والأمير محمود . وقد توفي عام ١٥٠٧ .
- والأمير خاتسله . وقد توفي عام ١٥١١ .
- والأمير عليشاه . وقد توفي عام ١٥١٢ .

الفر :

ذكرت أحد هؤلاء عروق : الفتح العثماني لتمام ومصر . ومقتلته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له . الناشر : دار قبضة العربية ، القاهرة : ١٩٧٦ ، ص ٨٨ .

(٢) ذكره عبد العزيز عبد الشاوي : أوروبا في مطلع القصور الحديثة . مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، الناشر دار المعارف ، القاهرة : ١٩٦٩ ، ص ١٢٩-١٦٨ .

(٣) إن لفظة ياوز في اللغة التركية تعادل في اللغة الفرنسية كلمتي : Tranchant ومعناها البائر ، أو الحاد ، أو القاطع ، أو الحاسم . وأيضاً Tranchante ومعناها القاطع السند الصلب الذي لا يلبس . ويترجم البعض كلمة ياوز بلفظة مهول .

العثمانية (١) . وقد أكمته هذه الصفات شعبية واسعة بين أفراد القبائل الإنكشارية . وكانت تقوسهم تنحو إلى استئناف سياسة الفتوح الحربية طمعاً في خضاعتها . وكانت معظم الحروب التي خاضتها الدولة على عهد السلطان « أبى يزيد الثالث » حروباً دفاعية أكثر منها حروباً هجيرية نظراً لبيوله السلمية حتى اشتهر باسم « أبى يزيد الصوفى » أو « أبى يزيد المتصوف » أو « أبى يزيد الأول » . وعقد معاهدة صلح مع جمهورية البندقية سنة ١٥٠٣ ، ثلثها هدنة في ذات السنة مع المغرب فلتها سبع سنوات . واكتفى بتعزيز المجهود الحربى الذى كان يبذله قانسوه للفورى (١٥٠١ - ١٥١٦) سلطان دولة المماليك الشراكسة في صراعه ضد البرتغاليين في البحر الشرقية . فأرسل إليه أبى يزيد مقادير وقيرة من المنافع والتمنار والأسلحة بالإضافة إلى شحنات كبيرة من الأخشاب لبناء سفن حربية . وقد وصلت هذه الشحنات إلى مصر في شهر يناير - كانون ثان - عام ١٥١١ ورفض أبى يزيد أن يتقاضى ثمنها واعتبرها هدية من الدولة للسلطان المورى ، ثم أرسل الكمين من البحارة العثمانيين إلى مصر ليشاركوا في بناء وإعداد السفن الحربية في ميناء السويس . وكان هؤلاء البحارة تحت قيادة قائد بحرى عثماني هو سلمان المورى (٢) . وكانت معظم سنوات حكم السلطان « أبى يزيد » قد ران عليها هدوء حربى . وظل الجيش العثماني خلالها بمختلف فرقته في حالة استعداد . وعلمت آمال الإنكشارية بوجه خاص بالأمير سليم - إذا ظفر بالعرش - في أن ينفض حجلة الحروب في حركة دائية مطردة نشيطة .

طلب الأمير سليم أن ينتقل من طرابزون . وأقام طلبه تأسيساً على أنه ظن

(١) وما هو جدير بالذكر أن رجال تركيا الفتاة أطلقوا اسم « يادر سلطان سليم » على أفراد الأتلي « جرين » الذين استطاع أن يخلص من مطاردة الأسطول البريطانى له في البحر المتوسط في سبيل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وانتهى هذا الطراد إلى حوزة تركيا .

بروكلين كلوك : الأتراك العثمانيون اليوم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٦٤-٦٥ .
(٢) ذكرى عبد العزيز محمد الشورى : المراسل الأولى للوجود العثماني في شرق إفريقيا
تجزئة وموقف الدول الإسلامية للثلاث الكبرى مع . من بيروت مؤخر الدراسات التاريخية للفرق
الحربية العربية التي عقدت في القسوة في الفترة من ٢١ مارس - أكتو - إلى ٣١ من عام ١٩٧٧ .

في هذه الصنحية مدة طويلة تاهزت الثلاثين عاماً (١) ، وأن طرايزون تنبع في جهة نائية على أقصى الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الأسود ، وطلب أن ينتقل إلى إحدى الصنحقيات في أوروبا . ورفض أبو يزيد طلب ابنه على الرغم من الشكايات العديدة التي بعث بها سليم إلى والده وإلى الصدر الأعظم وإلى أعضاء الديوان المهابيوني في إستانبول (٢) . وفي حطيت دار بين سليم وأحد كبار العلماء ، قال الأخير إن عصيان الابن لوالده يؤدي إلى مواجهة عسكرية بينهما . فرد عليه سليم بقوله « ليحدث ما يحدث » (٣) . جمع سليم قوات من رجاله ومن جنود خان القرم واتجه بها إلى أدنة ليقابل مع والده الذي كان يقيم وقتذاك في هذه المدينة . وقبل أن يصلها سليم كان السلطان قد غادرها عائداً إلى إستانبول حزينا على وفاة ابنه الأمير شاهنشاه . واشتد عليه المرض . فأرسل في طلب ابنه الأكبر الأمير أحمد ، بصنفته ولياً للعهد ، ليكون قريباً منه إذا وافته الأجل المحترق . وفوجيء الأمير أحمد عند وصوله إلى إستانبول بتدخل الإنكشارية ضده وأكروه على العودة من حيث أتى . وفي هذا الوقت الحرج تمخل الإنكشارية مرة أخرى لمصالح الأمير سليم . وضغطوا على السلطان « أيى يريد » ضغطاً شديداً حتى أجبروه على إصدار « خطي شريف » (٤) Hatt-i-Sherif بالظهور من الأمير سليم وإعادةه إلى ولاية

(١) جدي رسالة أرسلها الأمير سليم إلى الصدر الأعظم أنه أقام في صنحية طرايزون ثلاثين عاماً ، ثم ذكر في رسالته بحث بها إلى أعضاء الديوان المهابيوني في إستانبول أنه أقام في طرايزون عاماً وعشرين سنة .

(٢) انظر الرسائل التي وجهها سليم إلى ذوي الدوائر العليا في إستانبول مترجمة من اللغة التركية إلى اللغة العربية في : دكتور أحمد قزاد متول ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٩-٩٦ .
(٣) للمرجع السابق ، ص ٩٣ ، وقد جدي تقرير الذي رده هذا العام . راسم لور الذين ساروا كوردي إلى السلطان -- أن الأمير سليماً مصر على موقفه ، وأنه حيد إلى أبدي حدود السند .

(٤) خطي شريف مصطلح تاريخي مأخوذ من اللغة العربية ترجمه خط شريف . وسماه بصرف قرار يصل اسم السلطان . وقد يذكر هذا المصطلح في بعض الأحيان خطأً إلى لغة طرايزون على هذا النحو : خطي طرايزون شريف . وترجمته الخرافية قرار بمر الطوري شريف . وسماه بصرف قرار سلطان شريف يصل اسم السلطان . وقد مر بنا صدور خطي شريف بستانه عام ١٨٣٦ ، وخطي طرايزون عام ١٨٥٦ انظر في هذه الدراسة : ص ٩٦ ، ص ٩٧ .

مختصرة^(١) Semendria في أوروبا والتي كان قد عينه حاكماً عليها . وفي أثناء سفر سليم إليها قابله الإنكشارية وعادوا به إلى إستانبول . فدخلها سليم وسط حشود عسكرية من الإنكشارية . وعمر السلطان أن الأرض تبتد تحت قلميه ، واهتز مركزه اهتزازاً حقيقياً . وكحل هذه الأزمة عرض السلطان على ابنه سليم أموالاً طائلة لإغراء له على العودة إلى مقر منصبه . فرفض الابن . وعاد السلطان يصر على ابنه أن يمينه ولياً للعهد بشرط أن يحتفظ الوالد بالعرش ويمارس مهام منصبه حتى يقضى نحبه . ورفض سليم والإنكشارية هذا العرض وأصرروا على عزل السلطان فوراً وتعيين سليم مكان والده . وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٥١٢ نظمت مظاهرة عسكرية كبرى ضمت الإنكشارية والسباهية - الفرسان الإقطاعيين - وبلغ عدد المشتركين في هذه المسيرة العسكرية اثني عشر ألف جندي . واتجهت هذه المسيرة إلى القصر السلطاني في إستانبول . وطلب كبار الضباط مقابلة السلطان ، أبي يزيد الثاني ، فأذن لهم . ولم يكن في مقدوره أن يرفض ظلمهم . وقالوا له إن الهادشاه^(٢) رجل طاع في الس تنتابه الأمراض ، ونريد أن يتجوأ ابنكم الأمير سليم العرش بدلاً منك . وطبقاً للترتيب الموضوع لهذه المقابلة ارتفع إلى عتات المياه مصعب الجلود حتى يدرك السلطان أن الأمر جد وليس بالمزول ، فتنهار حالته النفسية . وقد نجح هذا الترتيب فأدمن السلطان وتنازل عن العرش لابنه سليم . وبعد عشرين يوماً طلب الولد من ابنه السلطان سليم الأول أن يأذن له في مغادرة إستانبول والتوجه إلى مسقط رأسه في ديموتيقه Demotique ليقتضى فيها ما تبقى له في الحياة من خطوات . وفي اليوم الثالث للرحلة توفي في الطريق^(٣) .

(١) مستورة هي الساحة القديمة لبلاد العرب ، وهي تقع عند التقاء نهر الكافوب بنهر مورانا . وإليها سميت ولاية مستورة .

(٢) الهادشاه . وتكتب في بعض المراجع الهادشاه - جزيرة من كليتين فارسيتين : هاد ، وهاد ، ومعناها ملك اللوك *Mois des Moies* . ويقصد بها في هذه الدراسة السلطان . ولذلك ترد هذه اللفظة في بعض الكتب بإدائه آل حيان ، وفي كتب أخرى بإدخال الإسلام .

(٣) يرى بعض المؤرخين أنه مات حزناً وكلاً . ويرى البعض الآخر أنه مات بعد -

وهكذا قام الإنكشارية بالنور الرئيسي في خلق السلطان «أبي يزيد الثاني» لأنهم ضاقوا ذرعاً بالسياسة السلمية التي اتبعها هذا السلطان في معظم سنوات حكمه . وانتهزوا فرصة الصراع الذي نشب بين أولاد السلطان الثلاثة على العرش فزجوا بأنفسهم في هذا الصراع ابتغاء تحقيق منافع لهم ، لأنهم توسعوا في الأمر سليم الرغبة والقدرة معاً على دفع صجلة الخروب الخارجية واستئناف سياسة التوسع الإقليمي للدولة العثمانية .

موقف الإنكشارية من السلطان سليم الأول :

كانت أول مشكلة واجهها السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) هي موقف الإنكشارية منه ، اعتقدوا أنه مدين بعرشه لهم . فأرادوا أن يتفادوا منه الثمن أصحافاً مصبغة . كان سليم قد خرج إلى أسوار العاصمة مودعاً والده ، وعاد إلى القصر السلطاني لياشر سلطات الحكم . ولكن رأت إليه الأئمة بأن الإنكشارية محتشون في مظاهرة عسكرية في الطريق المؤدى إلى القصر ليطأوا السلطان بمكافآت حمية لقاء مساعدتهم له في ارتقاء العرش . وقد استاء السلطان من هذا التصرف ، فأقسم تدبيرهم وسلك طريقاً آخر وصل منه إلى القصر . ولكن لحق به الإنكشارية واضطر أن يلجأ لكل جندي اشترك في الحركة خمسين دوكة (٢) . وتشجع أحد الرؤساء وطلب من السلطان زيادة مرتبات العسكريين ، فاستل سليم سيفه ، وبصرته واجلته صريعة أطاح برأس هذا القائد .

— أن دس أحد المراقبين له في الفرقة لهم في الطعام . وهو وأول صاحب تلبية طلبات بوفته . ويذكر أحد المؤرخين أن سليماً الأول هو الذي قتل أباه أبي يزيد الثاني معاندة الإنكشارية .

Grant A. J. : A History etc., op. cit., p. 213.

(٢) الدوكة Le Ducat هي عملة ذهبية كانت متفولة في العالم الشرق الأدنى وأصل التيطر والأصل على التبادل بها نظراً لأنها ذات جوار حال يقرب من أربعة وعشرين تيمراً . وكانت عملة تسمى في الجبلية . ويطلق عليها البعض تيمراً غامراً في الفوكتات المتساوية .

الطر =

دكتور عبد الرحمن فهمي : التتود المتفولة أيام الحريق . بحث منشور في مجلة بعنوان : عبد الرحمن الحريق . دراسات وبحوث . لشر المطبعة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦

من ٥٨١-٥٨١ .

الإنكشارية يجرون السلطان سليم الأول على إنهاء الحرب :

غير أن خطر الإنكشارية ظل قائماً على الدولة العثمانية وعلى السلطان سليم الأول بالذات ، على الرغم من أن هذا السلطان كان قد استجاب استجابة فورية لتطلبهم توزيع عطايا مالية عليهم بمناسبة توليه العرش ، وكان واثقاً في السابعة والأربعين من عمره ، إذ مرعان ما ظهر نفوذهم وتدخلهم في شئون الدولة أخطر ما يكون هذا التدخل وحك للتود . فلم يمض عام وبعض عام حتى استكمل سليم استعداداته لحرب شاملة يشنها على الشاه إسماعيل الميموي . واندلعت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس . واستطاع سليم أن يوقع هزيمة بالصفويين في موقعة تشالدران (١) في اليوم الثاني والعشرين من شهر أغسطس - آب - عام ١٥١٤ وأن يدخل في العام التالي تبرز حاصمة الدولة الصفوية في ذلك الوقت ، وأن يستولى على عرش الشاه وكتوزة ونحفه وسالاه ، ومضى سليم يتجهل من نصر إلى نصر متوغلًا في أراضي الدولة الصفوية ، وانسحب الشاه إسماعيل إلى داخل بلاده خشية وقوعه في الأمر . وبينما كان سليم في قمة انتصاره إذ حدث تطور في الموقف الحربي ، فقد أوقع سليم العمليات الحربية فجأة . وعاد إلى استبول قائماً بما استولى عليه من كثير من بلاد أرمينية وما بين النهرين . وكان سبب هذا التطور المفاجئ هو أن الإنكشارية طلبوا من السلطان سليم إنهاء الحرب (٢) وخشى سليم أن يعملوا إلى الفرار وهو بعيد عن بلاده . ويقتض الشاه إسماعيل هذه الفرصة النحبة ويعيد الكرة على الجيش العثماني . وقد ينال منه مثالا عظيماً ويعترض الجيش التتزيق .

(١) تشالدران سهل يقع بين النخبة تبريز ومدينة لومبة .

(٢) تختلف التواريخ التاريخية في ذكر السبب الذي تلوذ به الإنكشارية لمطالبهم السلطان سليم تجاه الصفويين الحربية . فذكر بعض التواريخ أنهم طلبوا إبراء الأسماء الحربية في فارس ، بينما تذكر مراجع أخرى أنهم تلوذوا بحجة أخرى هي الاكتفاء بالانتصارات التي حققها السلطان في هذه الحرب نظراً لخطورة تقبب الشاه إسماعيل بسبب وعودة الشاه وكثرة المستعجلات ووجود الحاسب .

الإنكشارية يهدون حركة تمرد على عهد السلطان سليمان المشرع :

دبر الإنكشارية حركة عصيان في شهر مارس - آذار - عام ١٥٢٥ في إستانبول عقب عودة السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠ - ١٥٦٦) إليها من أدرنة حيث كان يقضى فصل الشتاء . وقاموا بنهب قصر الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، وكان وقتذاك في مصر ، كما هاجموا الديوان جمركي - ديوان الجمارك - وعدداً من مساكن الأعيان ، ثم اتجهت جموعهم إلى حارة اليهود . حيث قاموا بعمليات النهب والسلب . ويلاحظ أن الخنف من عصبياتهم كان اختصاب الأموال سوله من أماكن حكومية أو أهلية ، ومواء من المسلمين أو اليهود ، وقد تدارك السلطان سليمان الأمر بنهضة بمنى السرعة ، فودع عليهم ألف دوكة Duccats كلخضة أولى ثلوثها أقساط أخرى إذا أخطلوا إلى النظام . وأتى الإنكشارية حركة التمرد طمعا في الحصول على مزيد من العطايا . وقد غلبهم السلطان بتشتيت فعلهم بتوزيعهم على عدة أماكن يربطون فيها ، ثم ألقى القبض على رؤسائهم الذين زعموا حركة العصيان فقتل بعضهم وحزل البعض الآخر (١) . وكان من بين المكاسب التي عادت على الدولة من الحروب التي خاضها تباعاً للسلطان سليمان المشرع وبخاصة في أوروبا وفي آسيا امتصاص زعة التمرد الإنكشارية (٢) . إذ لم يكن لديهم من الوقت حقن لتبوير حركات تمرد يفتلون بها الدولة . ويضاف سبب آخر هو قوة شعبية للسلطان سليمان المشرع وشدة بطشه .

الإنكشارية يعرضون موكب سليم الثاني ويطلبونه بأعطيات :

تعرض السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) في مسهل حكمة للمهانة على

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٦-٦٧

(٢) يذكر لاورغون السلطان سليمان أنه جيزت عدة حكمة .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشاوي ، أوروبا في طلع الصعود الحديثة ، مرجع سبق ذكره ،

ج ١ ، القلعة الأولى ، النشر دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٩٨٤ ، ص ٦٩٢ -

أبدى الإنكشارية حين دخل إستانبول لأول مرة عقب ارتقائه العرش مباشرة وسط مظاہرات صاغية قاموا بها وأظهروا في أثنائها ازدهارهم الشديد له ، إذ اعتبروا طريق موكبهم بمرية ملئت تبناً . وتوقف الموكب السلطاني وطلبوا السلطان بدفع مبالغ ضخمة بمثابة أعطيات لهم حتى يسمحوا لموكبهم بمواصلة التقدم إلى القصر . وقد رضى السلطان لطلبهم .

تمهى الإنكشارية السلطان مراد الثالث :

وعلى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) طالب الإنكشارية بتسليمهم كل من الباشا دفتردار (١) وكان يتولى المسئولية عن أموال الإمبراطورية كلها ، ومحمد باشا يكلربك الروملي (٢) ، وهو رئيس البكوات الصنائج ويشمل نفوذه الولايات الشمالية في أوروبا . وكانت مدينة صوفيا مقر قيادته . وكان يحمل ثلاثة أطواخ (٣) ولقب باشا (٤) ، ويمثل السلطان كخالد أعلى في الولايات الأوروبية ، ويصحب على الأمرء أنفسهم أن يطيعوه ويخضعوا له (٥) . وكانت حجة الإنكشارية في طلبهم القيص على هذين المولفين الكبيرين أنهما أرادا أن يصرفا لهم حقاً قضية ناقصة الحيار . وكانت الحكومة المركزية في إستانبول قد لجأت فعلاً إلى هذا الإجراء

(١) كان الباشا دفتردار هو دفتردار الروملي أول الأمر ، وكان يتولى الشؤون المالية في ولاية البحر وسطفة السانوب . وكان السلطان سليمان المنيع هو الذي أنشأ منصب دفتردار الروملي . ظلت شاعت المير في أواخر القرن السابع عشر ألغت الدولة هذا المنصب ، وأصبح دفتردار الروملي يلقب باسم الباشا دفتردار . وهذا مقرر إستيبول .
أنظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold: op. cit., vol. I, Part, 1, p. 129, Pa. No. 5.

- (٢) يرد ذكره في بعض التراجم يكلربك دوم ليل .
(٣) سبق أن فرشنا جدول نقطة أطواخ في ص ٣٦٤ - ٣٦٥ في هذه الدراسة .
(٤) كان يكلربك الروملي أعلى مرتبة من زميله يكلربك أناسول ، أي باشا الأناسول ، وكانت أقره مقر قيادته حتى عام ١٤٥١ ثم أصبحت كوتلجة مقر قيادته .
(٥) يوكلائن كارل الأتراك السليويون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

لمواجهة زيادة حجم الإغراق العسكري نتيجة تفسخ عدد أفراد الإنكشارية بعد أن أصبح السلطان مراد الثالث المجتهد المسلمين الأحرار بالالتحاق بالفيالق الإنكشارية كما رأينا في الفصل السابق . ولما لم تستجب النوازل العليا في الدولة لطلب الإنكشارية جمعوا مجموعهم وانجهوا إلى مكان كل منهما وصربوا حصاراً حول داريهما . ومعوا دخول أو خروج أحد ، ثم اقتحموا المدارس وقطعوا شرقفة وعجز السلطان وحكومته عن منع الإنكشارية من ارتكاب جرمي القتل . وذهبت هاتان الشخصيتان ضحية طغيان الإنكشارية . وكان قتلها محمياً صارخاً لأكثر شعبية في الدولة ، وهو السلطان مراد الثالث ، ومشجعاً في ذات الوقت لبعض الفرق الأخرى في الجيش على القيام بثورات أو حركات عصيان مثل فرقة الحياة التي قامت بثورة بعد ذلك بستوات قليلة على عهد السلطان مراد الثالث ، وثورة أخرى في سنة ١٦٠٣ إبان حكم ابنه السلطان محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣)، ولكن كانت هذه الحركات قليلة لأن لم تكن نادرة ، وكانت تحدث على فترات متباعدة ، وأهم من ذلك كله لم تبلغ درجة الخطورة التي كانت تبلغها حركات الإنكشارية .

الإنكشارية يعزلون ثم يدمرون السلطان عثمان الثاني :

اشتهر السلطان عثمان الثاني (١٦١٨-١٦٢٢) في تاريخ الدولة العثمانية بلقب «كنج» بمعنى الحدث أي صغير السن الذي لم يبلغ الحلم . فكان يظن عليه كنج عثمان، لأنه تولى العرش في سن مبكرة غير مسبوقة بمثال . وطبقاً لما يذكره أحد الباحثين كان عثمان من مواليد سنة ١٦٠٤ (١) . وهناك سبب آخر لإطلاق هذا اللقب عليه هو تمييزه عن عثمان الأول مؤسس الأسرة والدولة . وقد استخف به الإنكشارية وثاروا عليه وطلبوا منه إنهاء الحرب التي كان يحوضها ضد بولندا . وكان موقفهم يتعارض مع تقاليدهم بصفتهم

(١) محمد جمال بيم : اللغة التاريخ السلف ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٧ .

جوداً محترمين ، ووظيقتهم الوحيدة هي القتال يستهوى أفئدتهم . واضطر
السلطان إلى التزول على رغبتهم ، وعقد الصلح مع البولنديين في أكتوبر -
نشرين أول - سنة ١٦٢٠ . وحتى السلطان على الإنكشارية لموقفهم المخزي ،
قد أوقف العمليات الحربية وعقد الصلح دون أن يحقق جميع أهدافه من
هذه الحرب . فاضرم السلطان عيان الثاني تصفية قوات الإنكشارية . وأمر
بمحو قوات عسكرية كثيفة العدد من ولايات آسيا حتى إذا كملت هذه القوات
عدداً وعنة استعان بها على زيادة هذه القوة من الإنكشارية . وشرع فعلاً في
تنفيذ خطته . وأحسن الإنكشارية هذه الحركة وثارت ثارتهم . ووطلوا
العزم على عزل السلطان عيان الثاني . ونصبوا فعلاً في عزله في اليوم الثلاثين
من شهر مايو - آيار - عام ١٦٢٢ ، وهجموا عليه في القصر السلطاني
وأخلطوه إلى ثكناتهم ، ولوسعوه سباً وشتياً وصرباً ، ثم ساقوه إلى بلد
قوله - قلعة الأبراج للبحر - التي أصبحت السجن الرسمي للدولة (١) حيث
تم إعدامه (٢) . وقد كان لإعدام السلطان أصله بعيدة ، إذ انتشرت الرهبة
في دوائر الحكومة وفي شتى القطاعات الجماهيرية . وعلا شأن الإنكشارية
حلوا كبيراً ، وأخلطوا يولون الوزراء ويعزلونهم .

الإنكشارية يقتلون الصدر الأعظم إبان حكم السلطان مراد الرابع :

لم يمض وقت طويل على قتل السلطان عيان الثاني حتى أقدم الإنكشارية
على قتل حسن باشا الصدر الأعظم على عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ -
١٦٦٤) (٣) . وقد بدأت أحداث هذه الجريمة حين أصدر السلطان مراد

(١) كان السلطان محمد الثاني - حطب قسمة التسلطانية عام ١٤٥٣ - قد أمده بإفاد الأسوار
المحيطة بها ، وشيد حدة غرضها المنوي الفري ، إلى جانب بحر مرمرية ، هذه القلعة .

(٢) محمد نوري بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

(٣) تولي عرش الدولة بعد السلطان القليل عيان الثاني سلطان آخر ، ثم بهلر أكندة
أحمد لعرش السلطان مصطفى الأول (١٦٢٧ - ١٦٢٣) لأنه كان قد سبق أن ارتقى العرش
(١٦١٧ - ١٦١٨) ، ثم خلع ، ثم أعدم عام ١٦٢٢ وظل متربساً على العرش إلى أواخر شهر
أغسطس - آب - عام ١٦٢٣ حيث خلع بإشارة للملك كما ذكرنا على باشا الصدر الأعظم لصفحة

فرماناً بمنزل خسرو باشا الصدر الأعظم وإعادة حفظه باشا إلى منصب
الصدارة العظمى . فأراد الباشا المنزول أن يؤكد كيداً السلطان ، فالتصّل
برؤساء الإنكشارية وأبلغهم أن السلطان لم يعرفه من منصبه إلا لأنه كان
متماطفاً مع الإنكشارية ويسارع إلى تنفيذ رغباتهم . فثار الإنكشارية وطالبوا
بإعادة خسرو باشا إلى منصبه . وأصر السلطان مراد الرابع على موقفه ،
فأشعل الإنكشارية فتنة كبيرة في العاصمة ، وقتلوا حافظ باشا الصدر الأعظم
في اليوم التاسع من شهر فبراير - شباط - عام ١٦٣٢ ، وكان السلطان قد
أخفق في بسط حمايته عليه . ولكنه عمد إلى الرد عليهم رداً عالياً ، فأمر بقتل
خسرو باشا على أساس أنه محرك الفتنة العسكرية التي قام بها الإنكشارية ،
وأصدر فرماناً بتعيين يرهم محمد باشا صلياً أعظم . وأجبر السلطان على
المضي في خطته وهي إيداع الإنكشارية ، وأمر بقتل رؤسائهم الذين شاركوا
في الفتنة كخطوة أولى ، فلما فرغ منها أمر بتوسيع عمليات القتل لتشمل
كل من ثبتت عليه أنه شارك ولو مشاركة جانبية في الفتنة التي أشعلوها .
فلجأ الإنكشارية إلى خطاع السلطان ، ونظّاهروا بأنهم يلتزمون بقواعد
الإنضباط العسكرية ، وأنهم يتكون السلطان مراد الرابع كل تقدير
وينفذون أوامره تنفيذاً صارماً ويطيعونه طاعة عمياء . واستهفوا من
هذه المظاهر القويّة على السلطان كي يوقف المذابح التي أمر بها . ولكنهم
كانوا يبيتون أمراً آخر .

لم يكن يمر شهران وبضو شهر حتى قاموا بحركة عصيان بقيادة
رجب باشا في شهر مايو - آيار - في ذات السنة (١٦٣٢) ، فأمر

- مزيج من رومن قراء العنقيد . والحق أن هذا السلطان كان من أنس ملابن كبرية ، لأنه لم ي
سيّاه قبل توليه العرش حرولاً من العالم في القنص (أنظر ما سبق من ص ٣٥٠-٣٥١) فلما
تولى العرش أول مرة كان طبع التجارب . ولم يكن يدري شيئاً عن أسرار القنص . ولم يكن
قد مارس أعمالاً حنة . وقد أطلق عليه في تاريخ الفتنة لقب الفتنة أو الأبله . ويرد ذكره في
الزاجع الفرنسيّة مفروفاً بوصف انطباعه بعض الشيء السابق . وتولّى العرش بعد حنة الفتنة
الثانية السلطان مراد الرابع . وعمل السلطان القنص بعضاً الأول مهجاً عن العرش ومن المجلسات
إلى أن قضى نحبه في سنة ١٦٣٩ .

السلطان بقطه وإلقاء جثته من شبايكك للتصبر حتى يراها الإنكشارية (١) .
ومضت السنوات الأخيرة من حكم هذا السلطان في جو هادئ سيباً إذ أدرك
الإنكشارية أنهم أمام سلطان قوى مقتدر .

الإنكشارية يعزلون ثم يحتفون السلطان إبراهيم الأول :

من الجرائم البشعة التي ارتكبتها الإنكشارية أنهم قتلوا خنقاً السلطان إبراهيم
الأول (١٦٤٠-١٦٤٨) . وكانت الحجة التي استعملوا إليها أن السلطان
يقف موقفاً عدائياً معهم ، ولأنهم يتناولونه بالتقدي والتجريح ، واستقر رأيهم
على عزله ، واشتروا فرصة رواج إحدى بنات السلطان من ابن الصلح
الأعظم . وفي ليلة الزفاف اجتمعوا في أروطة جامع - مسجد للفرقة -
وانضم إليهم بعض علماء الدين وشيخ الإسلام عبد الرحمن أفندي . وقرروا عزل
السلطان إبراهيم وتولية ابنه محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) واغتالوا إجراءات
عسكرية واسعة النطاق لتنفيذ قرارهم . وتمت هذه الثورة في اليوم الثامن من
شهر أغسطس - آب - عام ١٦٤٧ . ويبدأ أن نرى المواقف في أيديهم .
ولم تكن تمر عشرة أيام حتى أظهر رؤساء فرق الجيش الأخرى عدم ارتياحهم
لتولية سلطان صغير السن عرش الدولة وطالبوا بإعادة السلطان إبراهيم إلى
العرش . ورأى الإنكشارية لزاد هذه المعارضة أن يرضوا الجميع أمام الأمر
الواقع . وقرروا عزل السلطان إبراهيم . وصرحوا ما قاموا بحركة تمرد واتجهت
جوامعهم ومهم الخلافة - قره علي - إلى حيث يقم السلطان وقتلوه خنقاً (٢) .
كما قتلوا السلطان صبان الثاني من قبله . ولولدت نفوس الإنكشارية هنا
الانتصار الرخيص واضمح الحال رحيباً أمامهم كي يمشوا في الأرض صداداً
منهزب فرصة تولي سلطان صغير السن هو محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧)
عرش الدولة ، وامت الاضطرابات أرجاء البلاد وتعرضت الدولة هزائم أمام
التركيين والهنود وغيرهما . وتدهور موقف الدولة إلى أسوأ مما كان قد
وصل إليه قبل أن يلى الحكم السلطان مراد الرابع . ومع ذلك فإن السلطان

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٧ - ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

الجديد - محمد الرابع ... على الرغم من حكمة الطويل لى نفس المصير الذى لقيه معظم أسلافه . فقد عزله الإنكشارية فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٦٨٧ ، وولوا أخاه السلطان سليمان الثانى وهو ابن السلطان إبراهيم الأول الذى سبق أن قتلوه خنقاً . أما السلطان المحزول - محمد الرابع - فلم يتعرض له الإنكشارية بالقتل ، وظل معزولاً قرابة خمس سنوات حتى قضى نحبه فى اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٦٩٢ .

الإنكشارية يميلون إلى قتل الصدر الأعظم وسبى زوجته أيام السلطان سليمان الثانى :

أخذ السلطان سليمان الثانى (١٦٨٧-١٦٩١) السطاي على الإنكشارية وصفح عن عصيانهم الذى كانت نتيجة عزل السلطان محمد الرابع . ولكن لم تلبث الثورة المرجوة سيمة المال والصحح التى اتجهها هذا السلطان مع الإنكشارية ، إذ انحلوا إلى حركات العصيان سيلاً فحاصروا قصر سيامس باشا الصدر الأعظم ، ثم اقتحموه ، وقتلوا الصدر الأعظم وعرف باسم قتل الإنكشارية ، وألقوا القبض على زوجته وانحلوهن سايًا . وأصبحت إسطنبول تتوجج بالفتن والإضطرابات مما شجع أعداء الدولة على مهاجمة الممتلكات العثمانية الأوروبية : فى النمسا ، والمجر ، وبلاد اليونان ، والصرب .

الإنكشارية يطالبون بقتل شيخ الإسلام والصدر الأعظم ويوفدان باشا :

نشب الحرب بين الدولة العثمانية على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) وبين الدولة الصفوية على عهد الشاه طهماسب الثانى (١٧٢٢-١٧٣٢) . وكان السلطان السنانى حزوفاً عن الحرب ، رغب فى تسوية التراجع القائم بين الدولتين بالطرق السلمية . ولكن ثار الإنكشارية فى اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٣٠ على سياسته السلمية ، إذ تحول بينهم وبين الحصول على غنائم الحرب وما تتيحه فتوح المدن من ممارسة

عمليات السلب والنهب . وترغم ثورة الإنكشارية بترونا خليل (١) . وطلب من السلطان قتل شيخ الإسلام والصنبر الأعظم وقبودان باشا - قائد السلاح البحري الصلبي - بحجة أنهم يؤيدون السلطان في انتهاج سياسة سلمية تجاه الدولة العثمانية . ورفض السلطان الاستجابة لطلبهم أول الأمر . ولكنه تراجع عن موقفه حين تأكد من إصرارهم على قتلهم طوعاً أو كرهاً ، وخشى أن تمتد شرور الإنكشارية إليه ، فسمح لهم بقتل الصنبر الأعظم وقبودان باشا والإبقاء على حياة شيخ الإسلام خوفاً من إثارة الرأي العام عليه . وقبل الإنكشارية هذا الحل على مضض . وقتلوا الصنبر الأعظم وقبودان باشا . وألقوا بجثثهما في البحر في أول أكتوبر - تشرين أول - ١٧٣٠ . وعلى الرغم من ذلك ، فلم ينع رضوخ السلطان لطلبات الإنكشارية من تطاولهم عليه . وشجعهم على هذا التطاول قسامة المستمر معهم . فأعلنوا في مساء ذات اليوم عزل السلطان ونادوا بقتل ابن أخيه السلطان محمود الأول . وأدعى السلطان أحد الثالث لطلب الإنكشارية بلون معارضة . وظل معزولاً إلى أن جاز إلى ربه في اليوم الخامس من شهر أبريل - نيسان - عام ١٧٥٨ (٢) .

الإنكشارية يقتلون رئيسهم :

لم تكن شرور الإنكشارية مقصورة على الملاطين والصلحور الضام وكبار رجال الدولة فحسب ، بل امتدت إلى زعمائهم . لم يكن للسلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤) من السلطة إلا اسمها . واستأثر بالقود بترونا خليل رئيس الإنكشارية الذي قاد حركة الانقلاب وعزل السلطان أحد الثالث بعد أن قتل الصنبر الأعظم وقبودان باشا . فكان يعزل من يشاء ويولي من يشاء من كبار الموظفين تبعاً لأهوائه ، وأصبح كبار رجال الدولة يتملقون هذا الزعيم الإنكشاري . وقد أوغل في استبداده حتى عيّل صبر السلطان محمود الأول .

(١) برز ذكر اسمه في بعض المراجع على هذا النحو : بطرونا خليل .

(٢) ما يذكر لهذا السلطان أنه أدخل الخليفة و استقبله ، وأسس دار طبه فيها بعد أن استصدر نصري من شيخ الإسلام تميز هذا الإبرء ولثرتة الأمير جدم طبع القرآن الكريم خشية ونزع أعظمه مطبعة أو تحريف فيه .

وفي ذات الوقت تحركت الإطلياع في نفوس أفراد القبائل الإنكشارية، وطالبوا زعيمهم بترونا خليل بتحصين أوضاعهم المالية . ولكنهم وجدوا على عكس ما كانوا يتوقعون أنه يستوى على بعض محصلاتهم، فاتفقوا على التخلص منه معتمدين على كثرتهم العددية وتم لم تخطه دون أن يتحرك أحد للدفاع عنه . وهكذا انطبق على الإنكشارية القول إن الثورات تأكل من بنها . وبفضل هذا الزعيم عادت السكينة إلى إستانبول وأمن سكانها على أموالهم وأرواحهم . وباشير السلطان محمود الأول سياسة حرية فشيطة ضد الدولة الصغوية في قارس ثم ضد النمسا والروسيا .

السلطان مصطفى الثالث يجنب الاحتمال بالإنكشارية :

ولما تولى العرش السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧-١٧٧٤) أراد أن يعض في حكمة أمأ مطمئناً من الإنكشارية حتى لا يصيبه منهم ما أصاب أسلافه . واتجه إلى تطوير السلاح البحري وسلاح الطوعمية - المدفعية . واستسلم عدداً من الخبراء العسكريين الأوروبيين . وكان من بينهم البارون دي توت De Tott وهو مجرى الأصل ، النحى والده خذمة الحكومة الفرنسية وحصل على الجنسية الفرنسية . ولوفدت حكومة باريس ابنه البارون دي توت إلى إستانبول حيث مكث على إصلاح سلاح المدفعية وسلاح البحرية (١) . وكانت الحرب الروسية النمائية على أشملها ، وهي الحرب التي انتهت بمعاملة كتشك كينارجي Kizil Koyun في اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٧٧٤ (٢) . ولم تثر إصلاحات السلطان مصطفى الثالث ، لأنها لم تمتد إلى القوات الصارية الرئيسية في الجيش وهي

(١) دكتور محمد نؤاد شكرى الحلة الفرنسية وظهر محمد على الكافر منحه للمبارك وسكنها بمصر . لم تذكر من الطبع ، ص ٧٦ - ٨٠ .
(٢) عقدت معاهدة كتشك كينارجي بعد أن جاز إلى وجه السلطان مصطفى الثالث في اليوم التاسع من شهر غوك عام ١١٨٧ - للولاق اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر . كانون أول - ١٧٧٣ وأبرمت المعاهدة في سنبل حكم أغيد السلطان عبد الحميد الأول .

البيادة - المشاة - ومن بينها القبايل الإنكشارية (١) .

تمرد الإنكشارية على الدولة في الصرب :

من الصور التي يتشع بها تاريخ الإنكشارية لهم قاموا بحركة عصيان ضد الدولة في الصرب في السنوات الأولى من حكم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) . كانت الحرب قد انطلقت بين الدولة العثمانية وبين روسيا والنمسا في التاسع من شهر فبراير - شباط - عام ١٧٨٨ لأن حكم السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤-١٧٨٩) . واستطاعت هاتان الدولتان إزول هزائم بالقوات العثمانية في اليوم الواحد والثلاثين من شهر يوليو - تموز - واليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - من عام ١٧٨٩ . وفي أثناء اشتعال هذه الحرب عرضت جموع كثيفة العدد من أهل الصرب إلى المهر حيث انضم أفرادها جوقاً بواحد إلى الجيش النمساوي أملاً في أن تنهي الحرب بهزيمة ساحقة للدولة العثمانية ، ويستطيع الصربون التخلص من الحكم العثماني لبلادهم . ولكن لم تؤد الحرب إلى نتيجة حاسمة بسبب نشوب الثورة الفرنسية في منتصف عام ١٧٨٩ وانصراف حكام أوروبا إلى مراقبة تطوراتها وتناجها على بلادهم . وتدخلت بين الدول الثلاث المتحاربة بعض الدول الممادية كفرنسا مثل إنجلترا وروسيا فتوقفت العمليات الحربية بعقد هدنة مع النمسا عام ١٧٩٠ تلتها معاهدة صلح معها في ٤ من أغسطس - آب - ١٧٩١ ردت النمسا عنقضاها معظم الأراضي التي احتلتها إلى الدولة العثمانية ، ثم دارت معاضات طويلة مصنية مع روسيا تدخلت فيها بعض دول أوروبا لإنجاحها ، وأسفرت عن إبرام معاهدة صلح في اليوم التاسع من شهر يناير - كانون ثان - ١٧٩٢ احتضنت فيها روسيا نفسها ببعض الأقاليم التي كانت قد استولت عليها في أثناء الحرب .

ولا عاد الصربيون إلى بلادهم عقب انتهاء الحرب فعرضوا لعمليات

(١) دكتور البه رجب حراز . الدولة العثمانية وفيه جزيرة العرب . (١٨٢٠ -

١٩٠٩) : ١ : الفقرة ٤ ، ١٩٧٠ ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، من

السلب والتهب والتقتل بصورة وحشية لم يسبق لها من قبل مثل هل أبدى الإنكشارية . وكانت الذريعة التي استدلوا إليها هي أن المصريين انضموا إلى أعداء الدولة فلا مناص من التكتيل بهم . وكان هذا القول تبريراً يفسرون به عن غرضهم الحقيقي والأوحد ، وهو تحقيق منافع شخصية وعطلة لهم بطريق غير مشروع . وكان تصرفهم مدعاة لإحراج الباب العالي أمام الناس . إذ نصت الفقرة الثانية من المادة الأولى من معاهدة المصلح على أن : يمنع كل من الطرفين حصول التعلل والإهانة على الآخر ، ويصفو عن كل من اشترك في الحرب من دوايا أحد الطرفين ضد الآخر ، وعلى الأشخاص جميع صفوف أهالي الجبل الأسود والبوسنة والصرب والأفلاق والبنات ، بحيث يكون لهم الحق بمقتضى هذا العهد العمومي في الرجوع إلى أوطانهم والفتح بجميع أملاكهم وحقوقهم أيما كانت بدون أن يسألوا أو يحاكموا أو يعاقبوا على عصيانهم بجلالة السلطان صاحب السيادة عليهم والخليفة الأعظم ، أو لإظهار ولائهم بجلالة إمبراطور النمسا (١) .

أرسل الباب العالي قطعات عاجلة إلى السلطات الثمانية الحاكمة في بلغراد استنكر فيها تصرفات الإنكشارية ضد المصريين ، وقال إنه أصدر عفواً عاماً لجميع أهل الصرب . وطلب أن تصدر السلطات الثمانية في بلغراد أوامر مشددة إلى الفياق الإنكشارية بعدم الاحتذاء على المصريين . غير أن الإنكشارية لم يحفلوا بهذه الأوامر واستمروا في غيهم . وتوالت شكايات المصريين على الحكومة المركزية في إسطنبول . فأصدرت أمراً إلى والي بلغراد بالتصدي للإنكشارية وطردهم من الأراضي الصربية كلية . وصارع الوالي إلى تنفيذ هذا الأمر وبخاض ضدهم قتالاً معشداً على بقية القوات التي لديه ، وكان على رأسها السباهية - الثمرسان الإصطاعيون - وطلب عليهم ، ولقي رئيسهم هوى أحد مصرعه .

الإنكشارية ينضمون إلى أحد الطرفين المتحاربين :

جاء الإنكشارية إلى أحد المخاضين الثأرب العتاة ، وهو بلزوند

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٩ - ١٩٢ .

أوغلي (١) ، ويعرف أيضاً باسم حيان باشا . شق عصا الطاعة على الدولة ، واتحد من ولاية ودي (٢) في بلغاريا مقرأ له ، وجمع فيها حوله قطاع الطرق والإنكشارية المتمردين الذين أخرجوا من الصرب . وجردت الدولة عليه قوات جرادة ، ولكنه انتصر عليها ، فأرسلت إليه كوجيك حسين باشا (٣) وظلت الحرب بينهما محالاً . وختفى حسين باشا أن يخضع لحكام الولايات العثمانية في البلقان حلو هذا التأثير ويقومون بثورات ضد الدولة . وأخذ السلطان سليم الثالث بالتفراج حسين باشا وهو مع التأثير حكام ولاية ودين طواس حياته . وكان هذا التأثير من أكبر المعارضين لمشروع تطوير الجيش ومن أشد خصوم السلطان سليم الثالث عتقاً (٤) . وكان من الطبيعي أن ينصوي

(١) يرد ذكر اسمه في بعض المراجع ، بلسان لؤلؤ ، بترواته أوغل ، ماورالت لؤلؤ ، بترواته زاده حيان .

(٢) يرد ذكرها في بعض المراجع الغربية فليين استقطاً إلى اسمها بالفرنسية Voden مدينة حصينة في بلغاريا ، وتقع على نهر الثانوب وهي ذات موقع إستراتيجي عام وتبته ٢٢٥ كيلو متراً عن بلغراد . واكتسبت شهرة خاصة في تاريخ الدولة العثمانية ، إذ كانت مقرأ للتأثر بترواته زاده حيان .

(٣) يد كوجيك حسين باشا من أعلام المتمردين القليلين . وكان اللزاع الأمير السلطان سليم الثالث في تنفيذ مشروع تطوير القوات المسلحة البلقانية وتطابقت وجهة نظرهما في ضرورة التخليص من الإنكشارية بيد أن أصبحوا عنصر عدا في جسم الدولة ومن أسباب تأخرها . وقد نظر بتقدير حقيق من سليم الثالث ووجه إسطه أعوانه . رجعت جيوداً حلاً أي رئيساً السلاح البحري القليل . وبطل جهوداً كبيرة في إصلاح النور وإزالة الخلل الحصة عليها ، وألفاً حدة من البحرية على فرار أحدث السفن الإنجليز والفرنسية . واستظم عدداً كبيراً من مهرة المهتمين من السوية وقصدوا نسب المدافع ، ولدخل تطويراً خطراً في للخدمة البحرية وعلوه الفلوجية - المدعية . مشغلاً مع أحدث النظم في للندرس العسكرية الأوروبية وحل فرغم من أنه كان قائماً السلاح البحري ، فإنه أنشأ في سنة ١٧٩٦ فرقة مشاة وفقاً لنظام الحيدو ، وجعل عددها ١٦٠٠ جندي ، وعهد بتدريبه إلى ضابط إنجليزي احتلت الإسلام والفنير باسم « (تجليل محلي) » .

(٤) كان حيان باشا لللقب بترواته لؤلؤ (١٧٥٨ - ١٨٠٧) من أسرة مسارية احتضت الإسلام . وكانت تقيم في مدينة توروله من أعمال البوسنة في البانيا وأعلنت الثورة في عام ١٧٣٩ على عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) جهه للنسب بلسان ألفا قريتين بالقرب من ودي في بلغاريا مكافئة له حل حسن بلاه في الحرب التي غاضتها الدولة ضد القرويا والبانيا عام ١٧٣٦ ، وكانت لجيش القسارية قد أضررت حل -

البرصة والصرب وغيرها . ولم يقتصر ميراث ابنه - هو ألفا بامبان لوفل - على هاتين القريتين اللتين آتتا إليه ، بل كان يصفه ويوتغلرأ - حامل العلم - رجلاً ثوباً مريضاً . وقد قتله ذلك الجلبة لأنه شق عليه صسا الفتنة . وكذا يدعى ابنه حينئذ نفس مسير . ولقد لولا أنه فر إلى ألبانيا ، ولكنته عاد إلى محصا يده أن اشترك في الحرب التي انقضت مرة أخرى بين الدولة وبين الروميا والمسا عام ١٧٨٨ م تزوج ذلك ولاية وديي عام ١٧٩١ ، وفيها انتقل هو ورجاله في إحداه الحلات التي كان يبيت بها إلى الألفلق والصرب ضد الدولة النمساوية . ولما أُرَادَ السلطان سليم الثالث سحقه أجن حاكم صصا له عام ١٧٩٣ وانضم إلى الجبال ، وغزا إقليم وديي في أواخر ١٧٩٤ مستعيناً بمسديات قطاع الطرق والإتكشافية ، ثم هاجم في سنة ١٧٩٥ الخناج مصطفى باشا دبل بندرد . وكذا الأسير من أنصار تطور الجيش النمساوي ومهدت إليه الدولة بالتسلل من حاكم ، إلا أنه أسقط في تلبوه لوكته . فأولم الباب هناك عدة فرق لمحاربه ، ولكنها فشلت في الطلب عليه . وولدت الدولة لتتابع الطريق السلي ابتداءً من حطيرتها رجلا من رجلا . ودارت اتصالات بينها وديي وأواخر عام ١٧٩٥ ، وأخفق ديس السلي ونزل حاكم مستقلا بالقطاع التتالي من بندرد . ولم تتفرق الدولة رسمياً به ، فبدا حاكم طرد الرائل السلي في وديي . وقام حاكم بنزو الروايات المأثورة عام ١٧٩٧ واسفل وحده في الشرق بلباناً كبيراً ، وبندربا ثم لقيه إلى بندرد وقصحا ولكن مستصت عليه ظله حله للجملة ، إلا أن جمع في الاحتفاظ بها النمساويون والسريريون الذين سلمهم الخناج مصطفى بك ذلك بندرد .

وزاد من خطورة حاكم أن اتصالات دارت في الخلف بين فرنسا وديي لتصفق النمساوات الحربية ضد الدولة . ووقف الباب هناك على أمر حله المفضلات ، فأولم قوات كثيرة المتد بقريده كوتيك حسين باشا وحاميرث وديي حتى أكتوبر ١٧٩٨ ثم رقت الحصار بسبب وصول الحملة الفرنسية إلى مصر في مطلع شهر يونيو - تموز - عام ١٧٩٨ وبجاسي في دخول القاهرة وانصراف الدولة إلى مواجهة هذا الموقف العسكري والسياسي الجديد . كما أنها غطيت التماح سرقة السيفي في البلقان فأعلنت بحصه كوتيك حسين باشا وحفظت على كرمها سلماً مع حاكم ومنحه لقب باشا عام ١٧٩٩ .

وكان حاكم باشا يصرح بمخوضه لتطوير الجيش ، ويحتفل به الحكومة المركزية في إسطنبول ، وببندد ولاية السلطان سليم الثالث ، مما يدل على أنه لم يكن صادقاً لية في قبول الصلح . وقد أرسل عدة حلوس نهب ولاية الألفلق في عامي ١٨٠٠ و ١٨٠١ وسامطه جمع الإتكشافية في اسطول قلعة بندرد في صوف ١٨٠٦ وذلك قبل الخناج مصطفى باشا في أواخر العام نفسه .

ولم يقتنع حاكم باشا بما حققه من نجاح ، فبدا يخطط له قهر الروميا كي يجره من وعاهه المسلمين . وحرص عديده على فرنسا وأمينها الباب هناك أن حاكم يأرجح في ولاية الدولة ، فقرر عاربه عام ١٨٠٣ ولم يكنك يبدأ القتال حتى توقف بسبب ثورة الصرب عام ١٨٠٤ ثم وجد حاكم باشا في ظهور الروس على القسلة البسري لبر النمساويين عام ١٨٠٦ فرصة لمصالحة

الإتكشافية تحت لواء هذا التأثير، واستطاعوا بمساعدته حصار بلغراد، ثم دخلوها وقلقوا إليها وانتشروا في أطراف البلاد يبيون ويسرقون . ولما ضاق الصربون ذرعاً بالإتكشافية اجتمعوا لمناقشة وسائل الدفاع عن أرواحهم وأعراضهم وأموالهم . واستقروا رأياً على ضرورة ردع الإتكشافية باستخدام القوة ضدهم . وانتخبوا رئيساً لهم هو قره جورج Kara George أى جورج الأسود وهو سليل أسرة كارچيفيتش Kargovitch وطاردوا الإتكشافية وأعلمهم من القرى وضيقوا عليهم الخناق حتى حصروا إقامتهم في البلد . وكان صانعوها متخفين للاقتصاص عليهم إذا حدثتهم أنفسهم بالسلب والنهب أو أية صورة من صور العدوان . وأدرك الباب العالي خطورة الموقف في الصرب نتيجة تصرفات الإتكشافية، وأدرك أن هذا الموقف ميم بالمخاطر . وخشى أن يتقلب قتال الصرب للإتكشافية إلى حركة قومية لا تهدف القضاء على هذه الفئة الباغية ، بل طرد الصيادين كنية من الصرب .

« القوة الصيادية تعرض غصنها عليها ، ولكنها لم ترض عنه ووجدت بالنيابة العامة إلى قتال روستوف ما أثار حفيظة عثمان بك وحسم على أن يخلص عن دونه وسدعا عند معيانت الروس والصربين . ولكن حاجته المالية في ٢٧ يناير - كانون ثلث ١٨٠٧ »

والحق أن التضميد المهاد لشخصية عثمان بانما يكشف من حلة حقائق عنه ، مما أن الطابع الإسلامي السيف كان صيداً يهدأ في تصرفاته المختلفة وكان رمزاً للنيابة ، تلوح في ولايته بين أروع دول في الصيادية والعلوية والروسية والفرنسية وكان رائده في هذا التطلب تحقيق منافع شخصية وأجساد في مجالات السياسة والحكم والغرب والفساد . وكانت الدولة الصيادية هي أكثر الدول الأربع سيطرة من تصرفاته . انقلب عليها ، وساعد الإتكشافية في حركة التمرد التي قاموا بها في الصرب ، وانقسم إلى صفوف الجيش النمساوي وحارب القوات الصيادية . وصبرت عليه الدولة وصارته مصابة مثابة ، وأصلدت عقراً شاملاً عن جميع جرائمه التي وصلت إلى حد الحياة السطو ، وصلحته وحيته والياً على دونه طوال حياته ، وأخذ يجمع منها في حزم واستعداد المكوس والشرائب . ثم حوّل أسلوبه غير الاعتلاق والتمسك بأعداء الدولة لمساندتهم عليها . ولما وجد إمرأته منهم ، عاد يفرغ خدماتها عليها ، ولكنه بذلك ، إذ وجدت أنه وصول متقلب ، فكان يحمي رمزاً للسياسة الكيفانية بين باشوات لشوله يطلب بين حشوة وضلعها على أوقاف اسمه .

انظر :

Bojraktarevich F.i Encyc. of Islam. Art. Fawwan - Ogloo.

فأرسل الباب العالي إلى بكير باشا وإلى اليوسه بأمره بالتحلف على بنفرد وطرد الإنكشارية منها . وقد استطاع بكير باشا بقواته ومساعدة الصرب دخول بلغراد التي كان الإنكشارية مصحصين بها . ونجح في طردهم منها ثم تعقبهم حتى شنت عليهم . وعاد بكير باشا إلى مقر منصبه في اليوسه .

وبعد فترة قصيرة عاود الإنكشارية سيرتهم الأولى . جمعوا غلومهم ومارسوا بحماس مسجور عمليات النهب والسلب ولزهاق الأرواح . فقام الصربون عام ١٨٠٤ بزعامة قره جورج وقاتلوا العثمانيين قتالا صيفاً ، لأن الصربين اعتبروهم مسئولين مشولية كاملة ومباشرة عن الأعمال الإجرامية التي قام بها الإنكشارية وعن إعتدائهم عن قواعد الانضباط العسكرية . وحفلت هذه الحرب بملاحم بطولية ، واتشخت أيضاً بمنايخ دموية بين الطرفين . واستطاع الصربون مقاومة العثمانيين ثمان سنوات متعاقبة . ونجح قره جورج في تدعيم مركز الصربين فحصل في المعاهدة العثمانية الروسية عام ١٨١٢ على وحد بالاستقلال الذاتي لبلاده ، غير أنه لم يلبث أن دب الشقاق بين الصربين واصطر إلى الفرار إلى الأراضي النمساوية ، ثم أشعل منافسه وقاتله ميلوش أورينسو ليتش Milos Obrenovic ثورة أخرى عام ١٨١٥ ونجح في دهم استقلال الصرب استقلالاً واقعياً *de facto* أي يستند إلى الأمر الواقع (١) ، واستطاع بعد الكثير من التوسيعات المفضية الحاصل على دستور لبلاده والاعتراف به أميراً للصرب (٢) .

نخرج من هذا العرض السريع لحركات تمرد البلقان الإنكشارية في الصرب بحقائق هامة ، منها : أن شروق أفراد هذه القبائل لم تكن مقصورة على إستانبول وحواصم الولايات العربية فحسب ، بل امتدت شروهم إلى البلقان ، وهي منطقة حساسة ، إذ كانت موطن الثورات قامت بها الشعوب المسيحية البلقانية على الحكم العثماني مدفوعة بعمل القومية من ناحية ، وعامل

(١) سبق أن عرضنا مدارك هذا السيلع للتفريق . انظر ص ٢٦٤ - ٢٦٥

في هذه النواصير .

Grant A.J. and Temperley, op. cit., p. 203.

(٢)

الدين من ناحية ثانية ، وتشجيع الروسيا من ناحية ثالثة . وكان قيام الصربيين بقتال الإنكشارية المحد من شروهم مقلمة لتطور هذا القتال إلى معارضة للدولة العثمانية لإجبارها على خلع عادية الإنكشارية عنهم ، ثم تطور القتال إلى معارضة الوجود العثماني في الصرب . وكان الصربيون ، وليس اليونانيون ، هم أول شعوب البلقان سعيًا وتحركًا في سبيل حرية البلقان ، فهم الذين أشعلوا الشرارة الأولى عام ١٨٠٤ زعامة قره جورج ، على الرغم من أن الصرب كانت أكثر خصوصًا لإستانبول من إقليمي مولدافيا ، وولاشيا (١) . وكان ضعف الدولة العثمانية وتردها أو تلكوها في الصرب على أبداً الإنكشارية في الوقت المناسب مما شجع شعوب البلقان على القيام بحركات استهدفت الانفصال من الدولة واستقلال هذه الشعوب .

سليم الثالث بين قائد الإنكشارية صلياً أعظم :

أولى السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) منذ أن ارتقى العرش اهتماماً عيقاً بإدخال « النظام الجديد » في الجيش وقتك بإعادة تنظيم الفرق العسكرية وتطوير أسلحتها وتدريبها على طرار الجيوش الأوروبية الحديثة . واتخذ الزى الأوروبي الجيش ، وشيد ثكنة خاصة به ، واستقدم من أجل تعليمه وتدريبه خبراء عسكريين من بعض الدول الأوروبية ، ولكن اعترض الإنكشارية على هذه السياسة الإصلاحية في الجيش جملة وتفضيلاً احتشاداً منهم أن هذه السياسة وإن لم تمسهم مساً مباشراً ومورياً في أول الأمر ، فإنها متوقفة في النهاية إلى القضاء على البقايا الإنكشارية .

واعتق أن التدخل المباشر للسلطان سليم الثالث كان - بجانب الحروب التي خاضها ضد الروسيا وفرنسا والثورات الداخلية التي واجهها - هو إدخال « النظام الجديد » وتمسيه في جميع فرق الجيش . وقد تحبط في سياسته لزاء المعارضة التي حمل لواءها الإنكشارية ، فكان يجيب الاحتكاك

(١) يطلق على طين الإقليمين أيضاً البلقان والأناضول ، وما يكرنان الجزء الأكبر من رومانيا حالياً .

بهم حيناً ، ويلتخل معهم في مواجهة عسكرية حيناً ثانياً ، ويرضخ لطلباتهم حيناً ثالثاً .

كان مركز الخطر هو القياقي الإنكشارية المرابطة في الولايات العثمانية في أوروبا . وقد اتخذ أفرادها من مدينة أدرنة وكرماً للمؤامرات . ورأى السلطان استخدام سياسة الضخام العسكري عليهم ، واستقدم من الأناضول قوات عسكرية بقيادة عبد الرحمن باشا ، وكان من أشد المتحمسين لتطوير الجيش . وبعد أن أقامت هذه القوات بعض الوقت في إستانبول حيث استعرضها السلطان ، واصلت سيرها إلى أدرنة في منتصف شهر يوليو - تموز - عام ١٨٠٦ ، ولكنها فشلت في اقتحام المدينة بعد عدة محاولات وعادت أدراجها إلى إستانبول . وأدعى السلطان لمطالب الإنكشارية وهم في قمة الانتصار . وكان من بينها إعادة الفرق العسكرية الجديدة التي هاجمهم في أدرنة إلى الأناضول ، وإلغاء النظام الجديد أو على الأقل وقف تطبيقه عن القياقي الإنكشارية ، وهزل الصلح الأعظم ، وتعيين أها الإنكشارية صديراً أعظم ، وتعيين بعض ضباط الإنكشارية في مناصب قيادية في أجهزة الحكومة . وهكذا استشرى نفوذ الإنكشارية وطمعهم ، فأصبحوا وكأنهم دولة معادية انتصرت على السلطان وأملت عليه شروطها ، لقبها كوكيس دولة منهزمة .

الإنكشارية يضمون المتصوفة وبعض علماء الدين إليهم :

لم يقنع الإنكشارية برضوخ السلطان لمطالبهم . بل كان هذا الرضوخ مشجعاً لهم على مواصلة سياستهم العنائية نحو السلطان . وأخذوا يتناولون هذا العامل بالتقدم والتجريح . واستقر رأيهم على خوض جولة جديدة لغزوة من الحكم . واصطنعوا وسائل جديدة ، منها : تأليب بعض عناصر الشعب عليه ، وضم فريق من علماء الدين ورجال الطرق الصوفية إليهم . وكانت هذه الطرق قد انتشرت انتشاراً واسعاً في آسيا الصغرى أولاً ثم في الروم إلى بعد ذلك . وكان الإنكشارية يستعملون نفوذهم وسلطتهم من البكاشية ،

وهم من أكثر الطرق الصوفية في الدولة . ويقول أحد المستشرقين الألمان « إن الإنكشارية قد انضوا تحت لواء الطريقة اليكاشية » (١) . واستند علماء الدين والمتصوفة في معارضتهم للنظام العسكري الجديد إلى أن الصنيع العسكري من الأمور التي لم يعرفها الإسلام ، وأن الفتوحات الإسلامية كلها تمت دون أن تحتاج إلى أمثال هذا التعليم (٢) . وحطوا من هذا القول إلى أن النظام الجديد إما هو بدعة . وأنطوا يردفون الحديث النبوي الشريف « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » . ودعوا في معارضتهم إلى التزم بأن من مبادئ الإسلام أن من تشبه بقوم فهو منهم (٣) . وكان لصدور هذه الآراء وغيرها من بعض علماء الدين والمتصوفة أصداؤه بعيدة في الرأي العام . وهكذا تكونت جبهة حريضة لمعارضة « النظام الجديد » . وكان قوام هذه المعارضة القبائلي الإنكشارية وعلماء الدين ورجال الطرق الصوفية وعدة قطاعات جماهيرية أخرى كثيفة العدد من الجهاداء ، وانضم إليهم فريق من الصعيين والوصوليين من رجالات الدولة واتسع المجال أمام النعاس والمكررات . ووقع اختيار هذا الخليط من المعارضين لتطوير أنظمة الجيش على رئيس لم يدهي قياهمي أوغل . وضع خطة محكمة لاحتلال كسار رجال الدولة المؤيدين للنظام الجديد ، ثم إلغاء هذا النظام ، ثم عزل السلطان سليم الثالث أو اغتياله إذا تطلب الأمر إقصاءه عن العرش .

الإنكشارية يعزلون السلطان سليم الثالث :

ولما اطمان رؤساء الإنكشارية إلى هذا التخطيط واستكمال خيوطه وعناصره ، قرروا القيام بحركة تمرد تعبيرا عن استنكارهم للنظام العسكري الجديد . وحشدوا في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٠٧ جموعاً ضخمة من الجنود الإنكشارية في آت ميقلق ، أي ميدان الخيل .

(١) بروكلمان كولون : التاريخ السليوني وسلفه ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٢٢

(٢) منبع الحصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٩ .

(٣) ذكره السيد رجب سركاز : القول السلياني ألب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢ .

ومطبقاً لتقائدهم جاءوا بالقرائنات ، وهى قتلور الطعام ، غارغة ، ووضعوها
مقبولة فى صفوف مترامة ومنظمة ، علامة على عصيانهم . وثليت عليهم
أسماء جميع المويدين للنظام العسكري الجديد من الوزراء وكبار موظفى الدولة ،
ثم انطلقوا إلى مساكنهم وقطوعهم ، وأتوا برؤوسهم ووضعوا كل رأس أمام
قرآن من القرائنات ، ثم فرسوا حصاراً محكمًا حول قصر السلطان . وأرغموه
على إصدار فرمان بإلغاء النظام الجديد وتسريح الجيود الذين التحقوا بالجيش
وفقاً لهذا النظام . ولكن لم يضع الإنكشارية برئاسة السلطان سليم الثالث
عن مشروع إصلاح الجيش ، وعرضوا أن يعود فى يوم ما إلى تنفيذ هذا المشروع ،
فقرروا عزله بعد أن استصلحوا فتوى من شيخ الإسلام جاء فيها « إن كل
سلطان يدخل نظم الإفرنج وعاداتهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون
صالحاً للملك » (١) . وعهد الإنكشارية إلى شيخ الإسلام ، وكان صالحاً معهم ،
بإبلاغ هذه الفتوى إلى السلطان . فلهب إليه وأبلغه بها « مظهراً أسفه من هذه
الحادثة الجبرية » (٢) . وأدعى السلطان وغادر القصر السلطانى . ولم تستمر
حركة عصيان الإنكشارية سوى يومين . وتوحدى فى اليوم التاسع والعشرين
من شهر مايو - آيار - عام ١٨٠٧ بزل السلطان سليم الثالث وتنصيب
السلطان مصطفى الرابع - وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول - خلفاً له .
وتخربق الجيود النظاميون شلر ملر ، وألقى مشروع تطوير الجيش
العثماني لأعراض الإنكشارية عليه . وقتل بعض الوزراء المهيدين
لهذا المشروع ، بينما احتفى البعض الباق منهم عن الأقطار . ولم يكن
حصوع السلطان سليم الثالث لقرار الإنكشارية بيزله حاصماً له من
القتل فى العام التالى ، أى فى سنة ١٨٠٨ ، حين أمر بخلعه السلطان مصطفى

(١) عهد فريدريك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

والنظر أيضاً :

سالم الكيال : الأدب والقنوية فى سوريا من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية

للقاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٨٤ .

(٢) عهد فريدريك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

الرابع بقتله علما طالب أنصار النظام الجديد بإعادته إلى العرش حتى يستمر في تنفيذ مشروع إنشاء الجيش الجديد .

الصراع بين أنصار النظام الجديد ومعهومه :

كان السلطان مصطفى الرابع (١٨٠٧ - ١٨٠٨) يدرك أنه مدين بارتقائه العرش للإنكشارية ولشيخ الإسلام . فالأولون قاموا بحركة عصيان ومادوا بتنصيبه سلطاناً بعد أن خطروا سقته السلطان سليم الثالث ، بينما كان شيخ الإسلام صاعقاً معهم في هذه الحركة . وقد وصى السلطان الجديد هذا الدرس تماماً . فعدا أداة طيعة لنية في أبلى الإنكشارية وشيخ الإسلام . وأسمى النموذج في إستانبول مركزاً في هاتين القوتين . استجاب السلطان لرغبة الإنكشارية ، فبس قباضه أوعلى قائلاً لجميع قلاع البوسفور . وأعاد الإنكشارية القزانات - قدور الطعام - إلى ثكناتهم كصغير على عن رضائهم عن السلطان مصطفى الرابع ، وأعطوا إلى المسكينة .

ولكن حين ترامت إلى الجيش العثماني الذي كان يغوص حرباً أوروبية ضد الروسيا في ولاية القفقاز . أبناء الفتنة التي قام بها الإنكشارية المراهبون في إستانبول اغتبطت فيالق الإنكشارية المشتركة في هذه الحرب ، لأنه كان من نتائج هذه الفتنة وقف تمويل مشروع « النظام الجديد » ولكن القائد العام للجيش ، وهو حلمي إبراهيم باشا ، المصير الأعظم ، اضطر على حركة العصيان التي قام بها الإنكشارية في إستانبول وعزلوا فيها السلطان سليم الثالث . فثار الإنكشارية على المصير الأعظم وقتلوه ، وأقاموا مكانه مصطفى شلبي باشا وأصبح لقبه القائم مقام مصطفى باشا إلى أن يصدر السلطان مرسماً بتشييعه في منصبه الجديد . ووقع الاضطراب في صفوف الجيش وفي وقت عصيب كانت تمر به الدولة وقتذاك . ولكن كان من حسن حظ

(١) أنظر دور الإنكشارية في الاضطرابات العسكرية والسياسية التي واجهتها الدولة في تلك الفترة في كل من .

عنه لفردي بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١١ - ٢١٧ .

Lewis B., The Emergence etc., op. cit., pp. 74-76.

الدولة أن انتصر في ذلك الوقت نابليون الأول على روسيا وبروسيا في معركة فريدلاند Friedland في اليوم الرابع عشر من شهر يونيو - حزيران عام ١٨٠٧ وتقهقرت الجيوش الروسية من ولاية البيلدان . من غير مثال ونجا الجيش الألماني من الترق أو التمحط . ويلاحظ أنه تعاقب على منصب الصداوة العظمى في إستاتول عدد من الصلور النظام في الفترة من سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٧ حتى شهر نوفمبر - تشرين ثا - عام ١٨٠٨ ، وكان علم الاستمرار السياسي في أجهزة الحكم من أبرز خصائص هذه الفترة . واقتسمت البلاد بين أنصار النظام الجديد وخصومه . وكان للإنكشارية دور بارز في تصعيد الترويض السياسية والعسكرية التي حاقت بالبلاد .

مصطفى باشا اليرقندار وخلان روستيقي :

كان مشروع إصلاح الجيش قد اكتسب أنصاراً أقوياء في بعض الولايات الألمانية . واستذكروا الأحداث التي تتابعت في إستاتول من عصيان الإنكشارية وإلغاء النظام الجديد وحزل السلطان سليم الثالث . وكان قريش من هؤلاء الأنصار يقيمون في روستيقي (١) Ruschuk وحرخوا فيما بعد باسم « خلان روستيقي » وكان على رأسهم مصطفى باشا اليرقندار (٢) حاكم

(١) يرد اسم المدينة في بعض المراجع على هذا النحو : روسجوق ، روسيقي ، روسيك

(٢) يرد اسمه في بعض المراجع : شليستور والكشتان بمعنى واحد هو حامل العلم وكلمة بيرقندر تتكون من يرق بمعنى علم وكلمة دار ومعها اليرق النبوي أي العلم النبوي . وتقسيم بعض المراجع الإنجليزية كلمة اليرقندر Standard - bearer بينما تذكر بعض المراجع الإنجليزية اللفظة التركية بحروف لاتينية على هذا النحو :

بيرقندر Beyrakdar

ألمندر Alemdar

والأصل في شغل هذه الوظيفة أنه كان أكبر ضباط الخدمة المالية في قصر السلطان . وكان مستولاً على العلم السلطاني والشار الكاسي بالسلطان وهو قسمة ألواح - ولم يكن يطلق على هذا الضابط « بيرقندر » بل « ميرطم » وصناديق أمير العلم وكان اليرقندر يقدم إلى حكام الولايات عدة نموذجت شعارات تقتضب مع درجة وظيفة كل منهم . وكان مستولاً أيضاً من غرفة القصر الرئيسية العسكرية ، ثم أضيف إليه اختصاص كسر هو الإنشائية على مجموعة من البعثين المخصوصين الذين سوا لأسباب تاريخية تبايعوا باليه -

المنطقة . وكان هو الآخر يفيض حماساً لإدخال النظم الأوروبية الحديثة في الجيش ، بعد أن كان في مطلع حياته من أشد المعاصرين عنفاً لتطوير الجيش . وكان تحت إمرته قوة تتكون من ستة عشر ألف جندي ، وقرر الزحف على إستانبول لردع الإنكشارية وإعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش لتمكينه من مواصلة تنفيذ مشروع إصلاح الجيش . وكان هذا السلطان لا يزال على قيد الحياة .

أُسْرَ مصطفى باشا البيرقدار إلى مصطفى باشا شلي الصدر الأعظم وبعض الوزراء رأيته وهو إعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش ، وأقنعهم بضرورة مساواة كل من شيخ الإسلام وقياحي أوغلي باعتبارهما مسئولين عن حركة التمرد التي حمل لواءها الإنكشارية وعزلوا فيها السلطان سليماً الثالث واستأثروا بالنفوذ . واستصدر الصدر الأعظم أمراً من السلطان بإعدام قياحي أوغلي تأسيساً على أنه كان السبب المباشر في قتل للكثيرين من كبار موظفي الدولة بصفته رئيساً لحركة التمرد التي تمت في أواخر شهر مايو - آيار - عام ١٨٠٧ . وقد عهد الصدر الأعظم إلى أحد رجاله - حاجي علي - بتنفيذ هذا الأمر على أي صورة من صور القتل . فسار الأخير على رأس مائة فارس إلى إستانبول قتلته ، بينما كان مصطفى باشا البيرقدار متجهاً إلى العاصمة في ستة عشر ألف جندي عن طريق أدنة . ولما وصل حاجي علي إلى مشارف إستانبول علم أن قياحي أوغلي مقيم في قصر خارج العاصمة فالتحقم القصر وقتله . وفي ذات الوقت وصل مصطفى باشا البيرقدار مع قواته وعسكر خارج إستانبول ، وانضم فرسان حاجي علي إلى قوات البيرقدار .

حول ثم قتل السلطان مصطفى الرابع :

حين علم السلطان مصطفى الرابع بهذه التطورات ازدادت هواجسه

« (جمع قايحي ياسي) أي كبير الخراس . وكافة حكام الولايات السبانية يسمون إلى عبط من ذوي الترتيب العالي بالعثاني بأعلامهم المكسدة وبشعارهم . وكان يطلق على كل من هؤلاء القباط بيرقدار أو لقب آخر له نفس المعنى هو المستحق دار . وكان لكل أوردته من الإنكشارية حارس منها ويسمى بيرقدار . وكان هذا القتب يطلق أيضاً على بعض دعاة آيايا الأوراثي .

وحشى على نفسه أن يصيه سوء ، فانقلب على الإنكشارية وأنصارهم ،
أو لعله تظاهر بهذا الموقف المهادى لهم ، فأمر بعزل شيخ الإسلام الذى كان
صانعاً مع خصوم « النظام الجديد » ، الذى حارب قلبه ولسانه وقلمه إدخال
الأنظمة الحديثة فى الجيش ، وأمر السلطان أيضاً بتسريح القياقي الإنكشارية
التي كانت تحت قيادة قباچي أوغلى ، وهى القياقي التي كانت لها اليد الطولى
فى عزل السلطان سليم الثالث وإيقاف العمل فى تطوير الجيش . وتظاهر
البرقدار بأنه راضى تماماً عن الوضع الجديد ، وأشاع أنه عازم على العودة
إلى مقر منصبه فى روستحق . وفى صبيحة اليوم الثامن والعشرين من شهر
يوليو - تموز - عام ١٨٠٨ نجح قواته إلى القصر السلطانى ، وطلب بإعادة
السلطان سليم الثالث إلى العرش . وورداد السلطان مصطفى الرابع
اضطراباً ، وتراجع فى موقفه حيال أنصار « النظام الجديد » وخصوم هذا
النظام . وتغلبت عليه رغبة البقاء على العرش ، فأمر بقتل السلطان سليم وإلقاء
جثته إلى النثرين . وكان فى تقديره الموقف الصعب الذى يحيط به من بين
ويسار أن النثرين يعودون أدراجهم بعد أن يروا بأعينهم ويتأكدوا أن
السلطان الذى يطالبون بإعادته إلى الحكم قد غدا جثة هامدة . ولكن أدى
هذا القتل إلى نتيجة عكسية تماماً ، فازداد النثريون هياجاً ، واندادوا على النهوض
بعزل السلطان مصطفى الرابع وتعيين أخيه محمود سلطاناً للدولة باسم محمود
الثانى . وأمرؤا باعصال السلطان المنزول فى نفس القصر الذى كان محجوزاً
فيه السلطان سليم الثالث . وقد قتل فى ذات السنة التى عزل فيها (١٨٠٨)
وهى ذات السنة أيضاً التى شهدت قتل سلفه .



الفصل التاسع عشر

مراكز القوى في الدولة (٢)

الخطوة الخامسة

النفاذ الفياثق الإنكشارية

السلطان محمود الثاني يحول تطويع الإنكشارية بالمعنى :

كان السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) ذا هزيمة قذت من حليد . صمم عل تعمم تطوير القوات المسلحة بجميع أسلحتها و فرقها ، فيها الفياثق الإنكشارية ، ولكنه أثر أول الأمر أن يملك مسلحاً سليماً تجاه الإنكشارية . وحاول بالمعنى إقتاعهم بقول إدخال النظم الحديثة في الفياثق الإنكشارية حتى تكون متمشية في تنظيمها وتسليحها وتدريبها مع سائر الفرق العسكرية في الجيش . وعرض في ذات الوقت معاشاً على كل من يرفض منهم مشروع الإصلاح الجديد في الفياثق الإنكشارية . ولكنهم رفضوا هذا العرض بشقيه ووصحوا أصابعهم في آذانهم وأصروا واستكبروا استكباراً .

وعلى الرغم من موقف الرفض الذي اتخذته الإنكشارية ، وعلى الرغم من أن السلطان محمود كان موقفاً أنهم لن يرضخوا لطلبه ، إلا أنه أراد أن يجد لهم في حال الضرر ويمسحهم فرصة أخرى لحسم موقفهم قبل أن يخوض مواجهة عسكرية صائرة ضلهم . فعهد إلى الصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار بتنفيذ خطته . وكان قد عينه في منصب الصدورة العظمى منذ أن ارتقى العرش ، لأنه كان من أنصار تطوير الجيش من ناحية ، ولأنه كان قائد حركة الانقلاب العسكري التي نادى به سلطاناً من ناحية أخرى . دعا البيرقدار إلى اجتماع يحقده في القصر السلطاني في إستانبول في مطلع شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٨ ، ووجه البيرقدار الدعوة إلى عدد من

أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وعلى رأسها شيخ الإسلام ، وبكلارك
الروم ليلي ، وبكلارك أناصولي ، وحكام الولايات القريبة من العاصمة ،
وقادة أسلحة الجيش ، ومن إليهم من كبار الموظفين المدنيين والعسكريين ،
وكذلك الأعيان (١) ، وروساء العائلات الإقطاعية القوية في الأناضول والذي
يطلق عليهم حذر بكووات (٢) Darabays أي أمراء الوديان (٣) Valley Lords .
وشرح لهم الصدر الأعظم التدهور الذي أصاب الإنكشارية بعد أن كانوا
أداة بطش برهمنو أعداء الدولة وينزلون بهم أفطح الحصار ، وما يجب
أن يكونوا عليه من الالتزام الصارم بالانضباط العسكري ، وضرورة
استخدام الأسلحة الحديثة ، والتي كاد استغلالها في الجيش الروسي في
مقدمة أسباب انتصارات الروس الأخيرة على جيش الدولة . ثم أحتم الصدر
الأعظم حلجه إلى المجمعين بعرض المقترحات هامة ، كان من بينها : إلزام
الإنكشارية في أوقات السلم عمالة تكتاتهم ، وخصوصاً غير المتزوجين منهم ،
ولإيقاف صرف مراثيات وبدلات الساكنين خارجها ، وضرورة مواظبتهم
على حضور التدريبات العسكرية ، وتسلحهم بالأسلحة النارية الحديثة .
وأكد الصدر الأعظم اعتقاده المراسح أنه لو استجاب الإنكشارية لهذه المقترحات
وضربها فإنهم يستطيعون مجتهد الحرب القديم ويصبح الجيش الثاني من أقوى
جيوش العالم كما كان في أول الأمر ، وقبل أن تنسرب القوي إلى صفوفهم
وقبل أن يتجاوزوا اختصاصاتهم بتدخلهم في الشؤون السياسية الخارجية
والداخلية للدولة مثل عزل السلاطين والصدور العظام وقورراء ومن إليهم
ما عرض الأجهزة الحكومية لمزات صيغة أمام أعداء الدولة . . وقد أقر

(١) الأعيان طبقاً بدأ ظهورها في القرن السابع عشر تتكون من الشخصيات البارزة في كل
ولاية . وكان الأمراء هم الذين يتشبهون أولئك الأعيان تتكلمهم لدى السلطات المحلية . وكان
السلاطين يمدونهم فساداً بضيقتهم . وكانوا يتدخلون في المصطلح . « أعيان ولاية وهران أرزي »
أي أعيان الولاية ورجال الشؤون وكانوا يستمدون نفوذهم من كونهم ملاك الأرض وفي القرن
الثامن عشر تطورت اختصاصاتهم فأسهبوا يشرفون على الإيرادات المالية والمالية في المدن .

(٢) انظر نشأة واختصاصات هذه العائلات في

Lewis B. The Emergence etc., op. cit., p. 38

الحاصرون مقرحات الصدر الأعظم الذى لم يكتف بهذه الموافقة الإجماعية ، بل استصدر فتوى من شيخ الإسلام الجليل بصرورة تنفيذ نظام الإنكشارية بكل حزم وصرامة . فأصدر الصدر الأعظم أوامره بتنفيذ مقر حاله متحصناً بموافقة المجلس الذى دعا إليه وبالتوى التى حصل عليها من شيخ الإسلام (١).

تحدى الإنكشارية السلطان والصدر الأعظم :

لم يأبه الإنكشارية برغبة السلطان ولا بأوامر الصدر الأعظم . وصمت عزيمتهم على مقاومته . وطبقاً لتقاليدهم وضعوا الفرائض ، قلور الطلسم ، مغلوقة دلالة على قيامهم بحركة عصيان . ولم يكن لدى الصدر الأعظم قوات تحت نصره سوى ستة عشر ألف مقاتل جاء بها من ويستحق ، وهى المنطقة التى كان يحكمها قبل تعيينه صليراً أعظم ، وثلاثة آلاف جندي تحت قيادة عبد الرحمن باشا رئيس الجنود النظاميين السابقين . وبض صفى حرية تحت إمرة راعى باشا أمير البحر .

هزيمة الصدر الأعظم أمام الإنكشارية ومصرعه :

حدث الإنكشارية جموعهم فى مدينة ميلية (٢) وأعلنوا العصيان فوجه الصدر الأعظم اثني عشر ألف جندي لمحاربتهم . ولم يبق لديه سوى أربعة آلاف مقاتل وثلاثة آلاف جندي تحت قيادة عبد الرحمن باشا . وأحد الإنكشارية صالة حجم القوات التى لدى الصدر الأعظم . وانتهزوا هذه الفرصة الذهبية كي يكيلوا كيداً للسلطان الجليلي محمود الثاني وللصدر الأعظم مصطفى باشا البرقدار . وانجهوا فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثاك - عام ١٨٠٨ إلى قصر السلطان المنزول مصطفى الرابع لإعادته إلى العرش . وتصدى لم الصدر الأعظم وقاومهم مقاومة عنيفة . ولكن استبان له أن القتال يدور فى صالح الإنكشارية . وحشى العواقب الوخيمة التى تنجم من انتصارهم ، ومن أهمها أن الإنكشارية يعلنون عزل السلطان محمود

(١) محمد لريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) حجة تقع فى مقدونيا .

الثاني وإعادة السلطان مصطفى الرابع إلى العرش . فأمر الصدر الأعظم بنقل السلطان الجريح . وكان راقبه من هذا القتل هو إفساد خطة الإنكشارية ، فإن السلطان مصطفى الرابع كان الورقة الراجعة في أيديهم . وقد أمر الصدر الأعظم بإلقاء جثة السلطان مصطفى للإنكشارية ، وما أن وقعت أعينهم على جثة السلطان حتى ازدادوا هياجاً ، وأصرموا النار في القصر كي يصطر الصدر الأعظم إلى الفرار ويقع أسيراً في أيديهم ويختلون بجثته بعد قتله . ولكن الصدر الأعظم آثر الموت على التسليم للإنكشارية ، فألقم على عملية انتحارية وظل يدافع هو ومن معه حتى مات حرقاً . ويقال إنه تمخض في أحد الأبراج ثم أشعل النار في البارود المكس في هذا البرج ومات هو ومن معه تحت الانفاس في شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٨ .

وفي أثناء دفاع الصدر الأعظم كان رامز باشا أمير البحر قد رسا بسمه الثلاث في مضيق البوسفور وسلط مدافعها على ثكنات الإنكشارية ، ثم نزل إلى البر مع فريق من البحارة ورجال المدفعية ومارسهم لتدعيم قوات الصدر الأعظم . ولم يكن يدري أنه قضى نحبه ، وفي ذات الوقت كان عبد الرحمن باشا ومعه ثلاثة آلاف جندي يسرعون في رحبهم لمساعدة الصدر الأعظم ، وفوجئوا ببدأ وفاته . ولم يطورق اليأس إلى رامز باشا وعبد الرحمن باشا وقرروا مواصلة قتال الإنكشارية ، ولكنهم عجزوا عن إحراز أي نصر عليهم . واستمر إطلاق المدافع والبنادق في الأمتانة طوال اليوم . ولما سما الليل رأى رامز باشا أمير البحر أن يفضو عن جميع الإنكشارية بشرط أن يلقوا سلاحهم ويسلموا أنفسهم لرحمة السلطان محمود الثاني . أما عبد الرحمن باشا فلم يشاطره هذا الرأي ، ورأى مواصلة القتال والتمسك بحركة المصبيان التي قام بها الإنكشارية وسيلة لإعدامهم وإنهاء طاعتهم بتشكيلاتها الحربية . وكان السلطان محمود من أنصار هذا الرأي . وتمسك مع هذا الاتجاه تحركت جيوش السلطان في صبيحة اليوم التالي تتقدمها المدافع تطلق قذائفها على الإنكشارية من كل حذب وصوب . ولا رأى الإنكشارية أن الموت يحيط بهم من بين وهما أصرموا النار في جميع أرجاء المدينة حتى

كادت الثيران تلتهم جميع مبانيها . وفى هذا الموقف العصيب تذرع السلطان سياسة الخلم والأناة على ما فيها من غصاصة ، لأن حركة العصيان التى قام بها الإنكشارية فى هذه المرة كانت أوسع مدى وأشد خطراً من سابقتها . واضطر إلى الإذعان كى يتخذ المنيعة من دمار محقق ، وأن يرجئ حساباته مع الإنكشارية إلى فرصة أخرى فى قابل الأيام . ومن ثم انصرف إلى إخماد الحرائق التى كادت تلهم المبانى لو لم يتشاركها السلطان . واستمر الإنكشارية فى صهيهم وضجيجهم مصرين الإصرار كله على معارضة إدخال النظم الحربية الحديثة فى الفيلق الإنكشارية . ولم يلبث أن تعرض السلطان لمواجهة الحرب التقليدية التى اشتعلت بين الدولة وروسيا وانتهت بتقد معاهدة محارست فى اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨١٢ .

الموس الذى خرج به السلطان من الثورة اليونانية :

استطاع السلطان فيما بين عامى ١٨١٤ - ١٨١٦ أن يتخلص سراً من جماعات صاعدة البلاد من الإنكشارية (١) . وأجل القيام بحركة تصفية شاملة لجموع الإنكشارية حتى تحس أنه فرصة مواتية فيوجه إليهم ضربة قاضية ويتخلص منهم جميعاً . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى انطلقت الثورة اليونانية فى شبه جزيرة المورة فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس - آذار - عام ١٨٢١ وظفر الثوار بانتصارات سريعة وباهرة على القوات اليونانية التى يث بها السلطان بقيادة خورشيد ناشا (٢) . وكانت هذه

Haaluck F.W. , op. cit., Vol. 2, p. 619.

(١)

(٢) هو أحمد خورشيد باشا وكان حاكماً للإسكندرية ثم رقى والياً على مصر ودخل القاهرة فى ٢٦ من مارس - آذار - عام ١٨٠٤ . وفى أثناء ولايته قام أهل القاهرة بانتفاضة شعبية حربية على مقلده . وترجم الانتفاضة للشيخ عبد الله سبى الشوير باسم الثوارلى شيخ الخلع الأزهر والميد حرم حرم الأسير على تقى الأشراف ، والتبت هذه الانتفاضة بالمناذاة فى ١٣ من مايو - آيار - عام ١٨٠٥ خلع خورشيد ومضى محمد على مكانه . واستعجبت الثورة على كره منها هذه الرغبة الشعبية . فعزل فرمان بتثبيت محمد على فى ولاية مصر وبنتل خورشيد إلى ساقطية . وظل خورشيد ينتقل فى عهد من المناصب القليلة إلى أن جهدت إليه الدولة لإخماد ثورة تلم بها على باشا فى ألبانيا وتخصى فى ألبوس واتخذ بالربنا Jemina مقراً له . ودارت اتصالات -

القوات تخضع علناً من الفيلق الإنكشارية . وانتقل الثوار اليونانيون من نصر إلى نصر . وملوا عملياتهم الحربية إلى مقلوبيا وفساليا ، واستولوا على المدن والمراكز الحصينة ، وكان من بينها : تريبوليترا (١) مقر السلطة النهائية في هذه المنطقة ، وأوقعوا بالقوات النهائية والسكان المسلمين مذابح رهيبة (٢) . ولم يمض عام ١٨٢٢ حتى كان النفوذ العثماني قد تقلص من المورة مما جعل الإنكشارية موضع الهكم والسخرية من الجماهير النهائية

- بين هذا التاريخ وقادة الثورة اليونانية لتطبيق القتالون العسكريين . واستطاع نخوسيد باشا إخماد الثورة بعد أن ضرب سحواً ممكناً على مقر الثوار في يانينا . وكان الأمير قد هُزم من وصول لجندات عسكرية إليه من قادة الثورة اليونانية . واستسلم في الخامس من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٢٢ نخوسيد باشا الذي لم يكن يملك إلى الهام حيث كان بعض الجنود في انتظاره ، فقاموا بجرح رأسه ، وأرسلت إلى إستاتيرول . وحفظ جسد السلطان محبوساً في القلعة إلى أن تم إرساله إلى اسطنبول . وأمررت انقضاء المرحلة الأولى ثم ظهر عليه الثوار اليونانيون الذين أنزلوا به سائر جسيمة . ولذا فقد الثوار جرأة ما حققوه من انتصارات في بحر الأدرينيل حيث أسروا كثيراً من السفن التركية ، وغارتوا في البحر لسطاً . وتصرفوا لسيدهم ألقمت من إستاتيرول وهي في طريقها إلى الإسكندرية . وكان من بين ركبها قاضي قضاء مصر العثماني وروجته وبنته وسواربه وعدد من الخيالج فقطعوا للثوار ذكاً عن آخرهم ثم ألقوا في البقعة انظر كلاً من :

(١) الخبر في عجائب الآثار الفخ ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٢١٩-٢٢٠ (سوانك في القصة عام ١٨٢٩ / المصطفى - آف - طم - ١٨٢١)

(ب) محمد لمبة بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٧-٢٢٨

(ج) عبد الرحمن الرافعي : مصر بعد حل . الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، الناشر : مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٦٢-١٦٤

(د) دكتور محمد نواز شكري ، أوروبا في القرن التاسع عشر . الصراع بين البرجوازية والإقطاع ١٧٨٩-١٨٤٨ ثلاثة مجلدات ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، الناشر دار الفكر العربي . المجلد الثاني ، ص ٥٥٨-٤٦٢

(١) تتبع هذه القضية في قلب شبه جزيرة المورة وكانت حامية المورة (٢) يقول مير إن حشد المسلمين الذين ذبحهم الثوار اليونانيون بلغ عدة آلاف . وأمر السلطان محمود الخلف المسلمين فأمر بإجراء مذبحة عامة بين اليونانيين وبيناً بترجيان الباب العالي والمضخمت التي كانت تحتل حي الثمار في إستاتيرول ، وكان سوطن الأرستقراطية اليونانية ثم أمر ببيع جيورجي الخلف بطريق الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وهو من المورة موطن الثورة وثالث جنته سلطنة ثلاثة أيام حل باب الكنيسة ، ثم أُرسل اليهود وسيموا في القوارب وألقوا به

التي كانت تعلق آمالاً كبيراً على الإنكشارية بسبب ما اشتهروا به من شجاعة وكفاية قتالية . وفي هذا الوقت المصيب استعان السلطان محمد علي باشا والى مصر لإخضاع اليونانيين (١) ، فأرسل الأخير ابنه إبراهيم باشا على رأس حملة كبيرة من الجيش المصرى الحديث تمسحها وحدات من الأمطول المصرى . وأطلقت الحملة من الإسكندرية في شهر يوليو - تموز - عام ١٨٢٤ واستطاعت القوات المصرية أن تمرل في مودن Moden في أقصى الطرف الجوى العربى للمورة ، وأن تخضعها في فبراير - شباط - عام ١٨٢٥ وتوجه إلى الثوار ضربات صعبة ، وتقتلهم غير المورة وتستوى على معظم المواقع اليونانية المحصنة مثل مسولنجي Mesolonghi في اليوم الثاني والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٢٦ ، وتبريطيرا - وأثينا في اليوم الخامس من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٧ ، وبسقوط أثينا أصبحت المورة بأكملها تقريباً في أيدي القوات المصرية . وبلغت الانتصارات الرائعة التي أحرزها الجيش المصرى حداً جعل الروسا تعلم أنه لا بد من التدخل لإقضاء اليونانيين من القناه (٢) . وأخذت الجباهير

حق البحر واستعاج بعض اليونانيون لاستخراج المدد من البربروتوها في أثينا ، ثم نفلت بعد خسائر حدة إلى كاتبرائية أثينا واضطج الخليج إلى اليونانيين في سالونيك ، وأزمير ورودى ، وقبرص ، وحميرس Chios انظر .

Miller W ; op. cit., pp. 74-75, 79-80.

(١) كان السلطان محمد الثانى قد عهد إلى محمد علي عام ١٨٢٦ - أى قبل سنة المورة - بأن يرسل أسطولاً لغرب سفى النوار . وقد أصر الأسطول من الإنكشارية في اليوم السادس من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٢٦ ، واتجه إلى مياه روىس لمطردة السفن اليونانية والتي بالأسطول المتألف من مياه المرفئيل ثم حاد إلى الإنكشارية في مارس - آذار - ١٨٢٢ بتأهب لنقل الحملة المصرية إلى جزيرة كريت . وكان السلطان قد عهد إلى محمد علي بإيجاد الثورة فيها . فأخذ محمد علي حينه من خمسة آلاف جندي تزلوا في جزيرة كريت في يونيو - حزيران - ١٨٢٢ وظفروا بالثوار وشقوا شملهم ، وفر كثير منهم إلى البحر اليونانية الأخرى أو المورة في المورة فلهذا شعر السلطان أنه عاجز عن القضاء عليها ، فهد إلى محمد علي بإيجادها وتحويله حكم ولاية المورة ككل إلى

اليونانية تقاوم بين إحقاق الإنكشارية في إخضاع الثورة اليونانية ونجاح الجيش المصري الحديث في القضاء عليها . وانتصر السلطان محمود الثاني هذه الفرصة لوجه إلى الإنكشارية صربية قاصية إذا أصروا على الرقص .

والواقع أن السلطان محمود الثاني ازداد اقتناعاً بالكفاية القتالية و الجيوش الأوروبية التي أنظمت بالأنظمة العسكرية الحديثة تسليحاً وتدريباً و قتالاً . وأرجع إلى هذا السبب الانتصارات التي أحررتها الجيوش الأوروبية على الجيش العثماني . وكان أمامه مثل حي في دولته في منطقة الشرق الأدنى كما كانت تسمى في ذلك الوقت (١) ، تمثل في الجيش المصري الذي شرع في إنشائه منذ سنة ١٨٢٠ محمد علي باشا والي مصر من الفلاحين المصريين وفقاً للأساليب الأوروبية الحديثة ، واستقدم الخبرة العسكرية من بعض دول أوروبا لتدريب أفرادهم على أحدث التسلح الحربية . وكان السلطان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن إبراهيم باشا ابن محمد علي مدين بانتصاراته التي حققها في بلاد المورة وبأن الثورة اليونانية منذ عام ١٨٢٥ للجيش المصري الذي أخذ بالنظم والنظريات الحربية الحديثة في التسليح والتدريب والقتال . وكانت هذه الحرب اليونانية أول حرب أوروبية حاض هذا الجيش المصري الصميم غمارها

(١) كان رجال السلافة في أوروبا وأمريكا يسمون إلى جميع الشرق إلى ثلاث مناطق :

الشرق الأدنى : The Near East وكانوا يسمون من هذه المنطقة أحياناً بـ : The Near East : وتشمل مصر وبلاد الشام وتركيا واليونان والشرق الأوسط : The Middle East ويشمل شبه الجزيرة العربية والشرق الأقصى : The Far East ويشمل جنوب شرق آسيا بآسيا الشرقية والصين واليابان . وكانت هذه التسميات شائعة إلى الحرب العالمية الثانية ، (١٩٢٩-١٩٤٥) ثم أصبح السلافة الأمر يكتفون التسميات الأولى بضمها في بعض ، وأطلقوا عليها الشرق الأوسط الذي أصبح يمثل في ملوك آسيا الشرقية : مصر ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، والأردن ، وتركيا ، والشرق والسردي ، وإيران بضمها ، والدول العربية في الخليج ، وإيران ، والهند ، وباكستان ، ونيوزيلاند ، وسري لانكا ، وأفغانستان .

ويلاحظ أيضاً أن المؤرخين الغربيين أطلقوا مصطلح الثلاث : Levant من الدول المحيطة على الحوض الشرق البحر المتوسط والمناطق الساحلية فيها بضمها عنده ، وهي مواعيل مصر ، وبلاد الشام ، وتركيا ، واليونان .

وتدبر من فيها على مقبرة قذالية ممتازة ، وأنه يضارح أرق الجيوش الأوروبية في ميادين القتال .

أربعة عوامل خارجية شجعت السلطان إلى تطوير الصياليق الإنكشارية أو الأتاليا :

ومما جعل السلطان محمود الثاني زجاء تشبهاً برأيه وهو ضرورة تطوير فرق الجيش ، ومن بينها الصياليق الإنكشارية ، أنه كان يشعر بأنه محوط بالوهابيين أو السلفيين (١) في شبه الجزيرة العربية ، وباللوار اليونانيين في المورة ومياه بحر الأرخبيل ، وكانت لا تنيب عن ذمته المملوثة التقليدية والمزمنة بين الدولة العثمانية والروميا . وقد شهد مطلع حكمه استئناف الحرب ضد الروميا التي أوقعت هزائم بالجيش العثماني بقيادة يوسف ضياء باشا الصلبي الأعظم (٢) . واستولى الروس على عدة من الأقاليم العثمانية في أوروبا . وانتهت الحرب بمعاهدة بخارست في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨١٢ ، وبمقتضاها انتصبت الروميا لتعصبا بلقلم يساريا . يضاهب إلى هذه العوامل الخارجية أن السلطان كان يتوجس خيفة من محمد علي

(١) كان الوهابيون يطلقون على أنفسهم أول الأمر « اللوسيين » أو « المسلمين » ثم أطلقوا على أنفسهم « السلفيين » .

انظر في هذه القضية ص ٧٩ ، الملحق رقم ١

(٢) كان يوسف علي باشا الصلبي الأعظم هو الذي جده إلى مصر عن طريق بلاد الشام على رأس جيش حين أقسم مقاليد الحكم في أثناء مفاوضات الصلح بين الفرنسيين والإنجليز والعثمانيين . واستولى ضياء باشا على مصر في اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٧٩٩ وما سقطت سلطنة المماليك في اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٠٠ تقدم عليه باشا بجنوده فتفككت المساعدة فدخل بدون قتال قلعة ، والصلحية ، وبلبيس ، والسويس وللمنصورة ، وعزبة البرج ، وهماط ، واستقر في بلبيس فلما تخففت مساعدة المماليك انتقلت الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين . ودارت معركة بين جيشي اليوم العشرين من شهر مارس - آذار - عام ١٨٠٠ والتي على يد الجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية وقلعة هزيمة متكررة انسحب الصلبي الأعظم بعدها إلى بلبيس ثم تنحصر إلى الصالحية ، ثم ارتد إلى حدود فلسطين . ثم جد إلى مصر في شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٠١ على رأس جيش يتكون من عشرين ألف مقاتل للإسهام مع القوات البريطانية في إسراج الفرنسيين من مصر .

باشا والى مصر ، إذ كان يعتقد أن هذا الباشا لن يضع بمركزه كوال من الولاة العاديين في الدولة ، بل يسمى الاستقلال بحكم مصر . ويلاحظ أن محمد علي كان قد تسرع فأعرب في وقت مبكر جداً رجوع إلى شهر ديسمبر أيلول - عام ١٨٠٧ - أي بعد تعيينه والياً على مصر بطامع وبعض عام - عن رغبته في أن يحكم مصر وراثياً في أسرته متمسكاً بالاستقلال الذاتي في نطاق الدولة العثمانية ، على غرار الأسرة الحسينية التي حكمت تونس وراثياً منذ عام ١٧٠١ ، وعلى غرار أسرة القرمانلي التي حكمت طرابلس الغرب وراثياً منذ عام ١٧١١ (١) . ومن المفضل جداً - إن لم يكن من المؤكد - أن

(١) كشف محمد علي عن مشروعه في أثناء المفاوضات التي دارت بينه وبين المتعربين الإنجليز خلال الحملة البريطانية التي سجلت بقيادة الجنرال فرينر Mackenzie Fraser إلى مصر واحتلت ثغر الإسكندرية في النصف الثاني من شهر مارس - آذار - عام ١٨٠٧ . وحل أثر الغزيين الذين اقتبسوا الحملة في رشيد وفي الجبل ، ولأسباب أخرى، رأيت الحكومة البريطانية الخلاه من الإسكندرية . ودارت المفاوضات لتنظيم حملات الخلاه وتزويدها بالأسلحة والعتاد من ذلك من سلال . وكانت المفاوضات ذات طابع طابع عسكري عاشر بالبالا ، وتابع سياسي يتعلق بمشروع محمد علي لتحقيق الاستقلال الذاتي ، أي حكم مصر وراثياً في أسرته ، ويقتل عن الدولة العثمانية في مترو الحكم التناحلي ، ولا تتركه بالدولة سوى السيادة الاسمية التي يبرز إليها بجزيرة مصرية ينضم محمد علي للسلطان في موافقة متطلعة وحسنة ونية على أن تعهد تينة هذه الجزية ، وبعض مسائل أخرى يفتن عليها فيما بعد . وطلب محمد علي أن تبذل الحكومة البريطانية مساهمة المبدئية لدى دوائر الباب العالي لتطبيق هذا المشروع في مقابل حشد مساعدة تحالف بين بريطانيا ومصر تمسح من تعهد محمد علي برعاية المصالح التجارية البريطانية في مصر ، وتسهيل المواصلات البريطانية عبر الأراضي المصرية إلى الهند ، وتزويد القوات البريطانية في مالطة ومالور القواعد العسكرية التي كانت تحت سيطرة بريطانيا في ذلك الوقت بالمواد التموينية وماء الغرب ، وأن تبادر الحكومة البريطانية إلى وقف أي محاولة قد يقوم بها الباب العالي لقتل محمد علي من مصر إلى ولاية أخرى ، كما حدث عند ما أصدر السلطان مرسماً بقتله والياً على مالطوك وتعيين موسى باشا والياً على مصر ، وقرن للسلطان هذا فرمان بإرسال أسطول بقيادة صالح باشا قبودان وصل إلى الإسكندرية في أول يونيو - تموز - عام ١٨٠٦ . وطلب محمد علي أيضاً أن تستخدم بريطانيا قواتها البحرية في الدفاع عن الإسكندرية إذا حاول الصيكون أو الفرنسيون أو جيش أي دولة أخرى مهاجمة الإسكندرية أو غيرها من شتور سواحل مصر . ومن المعروف أنه محمد علي لم يكن قد ولد بعد علاقته مع فرنسا وبهاجرة أخرى أراد محمد علي من معاهدة التحالف مع بريطانيا أن يؤمن مركزه في مصر ضد العثمانيين والفرنسيين والماليك . وكان الأخيرين حلفاء الإنجليز ولم يجد مشروع محمد علي لذاتاً صليحية من الإنجليز . وعقدت معاهدة الخلاه من الإسكندرية في الرابع -

الإنجليز قتلوا قناصلهم هذا المشروع إلى دوائر الباب العالي وعلم به السلطان محمود الثاني الذي تولى العرش بعد شهور معلومة من تلك المفاوضات ، واستطاع حكمه اثني وثلاثين عاماً . ومن هنا كانت توجد أزمة عدم ثقة بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي في معظم سنوات حكم هذا السلطان . وكانت سياسته تقوم على اتخاذ الأخطار والمخاطر التي واجهها وسيلة لتحقيق هدفين ، أولهما الاستمالة بمحمد علي للتضامن على الحركة الوحدانية وللإتحاد الثورة اليونانية . ثم طلب منه الاشتراك مع جيوش الدولة في حربها ضد الروميا عام ١٨٢٨ ، ولكنه رفض متعللاً بعدم المسافة بطريق البر وبعد وجود منن تغل الخوذة بطريق البحر ، ويتعشى وباء الكوليرا في مصر والشام وبتأثيره من جنود الجيش المصري (١) . وكان ثاني الهدفين إضعاف محمد علي عسكرياً ومالياً واقتصادياً بسبب إسهامه في حروب الدولة . وقد تكبدت مصر فيها خسائر فادحة في الأتفص والأموال والسفن والأمنحة وما إليها (٢) . وقد صبغت نبوة السلطان ، فلم تكن تمر سنوات ذات عدد

— حذر من دهر صير — أبابوله عام ١٨٠٧ . وكانت مقصورة على أسئلة العسكرية المتصلة بجلاء القوات البرية من الإسكندرية . ولم تعرض عن غريب أو من يبد المشروع لتبليغ الذي عرضه محمد علي .

للاستفادة من المعلومات عن الجانب السياسي للمفاوضات النظر :

Domn George; Mohamed Aly, Pacha du Caire. (1805-1867). Le Caire, 1926.

ترجمة رقم ١٥٩

ومن الجانب العسكري المفاوضات النظر :

Domn George et Fawst-Jones B. C. : L'Angleterre et L'Egypte etc., op. cit.,

ترجمة رقم ١٦٠ وما بعدها

- (١) أوتى وباء الكوليرا بحالة خيفة آلاف جندي . وما به من الخسائر نحو ١٥٠ ألف نسمة . واستطاع حكمه أزمة وثلاثين يوماً في عام ١٨٢١ .
- (٢) كانت الحرب الوحدانية أشد الحروب التي غاضت مصر تحاربا ، وأطولها مدى ، ومن أكثرها ضحايا ومطعب . جردت مصر خلالها حملات طويلة مصاحبة عن امتداد سنوات متوالية . وتلى فيها الجنود التذات من وحدة الطرق وحدة القبط وقلة اللوثة ونذرة المياه وقى حاربة صبر صعب بل كل نفسي وقطبي ظمأ عن وطنه وبلده
- أما القوات التي بلغت بها مصر لإنهاء الثورة اليونانية فقد بلغ تعداد أفرادها اثني وأربعين ألف جندي عسرت بهم ثلاثين ألفاً . وبسنت نفقات الحملة ٧٧٥,٠٠٠ جنيه ، وفقدت أسطولها في معركة نظرين البحرية

على اشتراك مصر في إخماد الثورة اليونانية حتى نشبت بين السلطان ومحمد علي حرب الشام الأولى عام ١٨٣١ وتلتها حرب الشام الثانية سنة ١٨٣٩ .

اجتماع موسع لمناقشة مشكلة الإنكشارية :

بعد أن استردت القوات المصرية - بإمر السلطان العثماني - مدينة مسولنجي من الثوار اليونانيين في اليوم الثاني والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٢٦ ، كما سبق أن ذكرنا ، رأى السلطان محمود أن يحسم قديماً في إصلاح الجيش . وهو المشروع الذي كان يعلق عليه أغلب الآمال منذ الأسابيع الأولى التي تولى فيها العرش عام ١٨٠٨ . وقد صر على الإنكشارية وصارهم أملاً طويلاً لعلهم يهبطون موقفهم المعارض لتطوير الفيلاني الإنكشارية . وقد استقال عدلوهم لهذا التطوير رهاء ثمانية عشر عاماً منذ أن تولى العرش . ونمسياً مع خطته تجاه الإنكشارية بالذات قرر أن يحسم فرصة ملحة أخيرة ، فيحاول تطويرهم بالحسنى على فرار ما فعل في مسبل حكمه في مطلع شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٨ ، فلما رفضوا ، لجأ إلى مواجهة عسكرية يخوضها ضلعم بعد أن يعد عدته من التواحي العسكرية والتنيفية والشعبية لئلا هذه المواجهة حتى يستأصل هذه الطاقة الباغية ، ويقب الجيش والمجتمع شرورها .

طلب السلطان من محمد مظهر باشا الصدر الأعظم أن يدعو إلى اجتماع موسع يقصد في دار شيخ الإسلام في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٢٦ ويحضره قادة أسلحة الجيش بما فيهم كبار صباط الفيلاني الإنكشارية ورجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وعلى رأسهم شيخ الإسلام ، وكبار الموظفين والأعيان . وتحدث في هذا الاجتماع الصدر الأعظم موضعاً ما وصل إليه الإنكشارية من تدهور وعظم انقياد رؤسائه وتعدد حوادث تمردهم وعصيانهم وتسلطهم في المسائل السياسية متجاوزين حدود اختصاصاتهم

- أنظر ١

معه لرحمن الرافعي ، صدر محله على ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ ، وص ١٨٦

ونزوحهم إلى سلب ونهب المدنيين . ومضى محمد مظهر باشا بعدد في
استضافة أتباعهم التي دأبوا على ارتكابها في وضع النهار وظلمة الليل حتى
أصبح الإنكشارية من أكبر أسباب اضطلال الدولة وضعت مركزها
المعسكرى أمام تقدم الدول الأوروبية المطرد في الحالات الحرجية . وتخلص
الصدر الأعظم من حجيته الضايق إلى ضرورة الأخذ بالنظم العسكرية الحديثة
في التتاليات الإنكشارية ، إذ لا يمكنها عالتها في ذلك الوقت الوقوف أمام
الجيوش الأوروبية الحديثة التنظيم والتسلح والتدريب . وقد تقيت هذه
الأراء والتوجهات التي جاءت على لسان الصدر الأعظم موافقة فورية
وجسامة من الحاضرين . وصعد قرأ المكتوبى - وكان يقوم بعمل كاتم
السر في هذا الاجتماع - مشروعاً بإعادة تنظيم القوات الإنكشارية . وكان
هذا المشروع يتكون من ست وأربعين مادة تناولت جميع التعديلات
المراد إدخالها على نظام التتاليات الإنكشارية . وتمحورت مصبغة لهذا الاجتماع
واقع عليها جميع الحاضرين بما هيهم ضباط الإنكشارية . وكانت هذه المصبغة
تشمل أيضاً التعديلات التي اقترحتها الصدر الأعظم فيما يخص بالنظام المعلوم
التتاليات الإنكشارية . ثم قرأ المشروع مرة ثانية على ضباط الإنكشارية
فأقرروه . وأصدر شيخ الإسلام فتوى يوجب تنفيذ التعديلات الجديدة
ومحاربة كل شخص تسول له نفسه الاعتراض عليها (١) . ويلاحظ أن
اختيار السلطان محمود الثانى دار شيخ الإسلام مكاناً لقد هذا المجلس الموسع
كان اختياراً هادفاً أتبع من رغبته في إضفاء الشرعية الدينية الإسلامية على
القرارات التي يتخذها المجلس في دار شيخ الإسلام وفي حضوره وبموافقة
بما يجعل الجماهير تقبل قرارات المجمعين دون مناقشة وأن تؤيدها قلباً
وقالاً .

موقف الإنكشارية من الخط الشريف كان البداية السريعة لتهايتهم :
وفي اليوم التالى لهذا الاجتماع الموسع - أى في الثامن والعشرين من

(١) محمد قويد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٦-٢٤٥ .

شهر مايو - آيار - عام ١٨٢٦ (١) أصدر السلطان محمود الثاني في ضوء القرارات التي صدرت عن ذلك الاجتماع الموسع - ما عرف باسم خطي شريف - ويقضى بإنشاء جيش جديد وفقاً لتنظيم الأوروبية الحديثة في التنظيم والتسليح والتدريب . واشتمل هذا الخط الشريف على الست وأربعين مادة التي أقرها الاجتماع الموسع . ولنا هنا ملاحظات على هذا الخط الشريف فيما يتعلق بالإكشافية كمرکز قوة خطير في الدولة :

أولاً : لم يعمد السلطان محمود إلى إنشاء الفياقي الإكشافية ، بل أبقى عليها وقرر أن تقدم كل كتيبة مرابطة في إستابول مائة وخمسين جندياً لإحلالهم بالفرق الجديدة . ولعلنا سنهتف من إدراج هذا النص في الخط الشريف ، استالة الإكشافية حين يدركون أن السلطان قد أبقى على طائفتهم كمسكرين . وأنهم لن يصبحوا مبتدئين بعيدين عن هذه القوات بل يزدودونها بوحدة الأولى .

ثانياً : أنه قرر في ذات الخط الشريف أن الدولة لن تستخدم صباطاً أو غمراء مسيحيين في تنظيم وتدريب الفرق الجديدة . وقد أراد السلطان أن يقطع الطريق عليهم فلا يعملوا على الإثارة الدينية سواء في محيطهم أو محيط حكامهم الذين أو الجماعات المسلمة .

ثالثاً : تجنب السلطان ذكر « النظام الجديد » في « الخط الشريف » ، لأن هذا النظام يقترن في الأذهان باسم السلطان سليم الثالث ، وعن التغيير صور الفرق الجديدة على أنها بحث لتنظيم العسكري الصارم الذي أوصى قواعد السلطان سليمان المشرع . وهو النظام الذي نظر إليه دعاة الإصلاح في الدولة منذ أن قدم كوتشي بك (٢) Khudiy-Bey رسالته الشهيرة على أنه

(١) تذكر بعض المراجع أن السلطان أصدر الخط الشريف في ذات اليوم الذي فيه الاجتماع الموسع برئاسة محمد مظفر بالله الصدر الأعظم ، أي في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو آيار - عام ١٨٢٦ . وهذه لغة شكلية لا تقدم ولا تؤخر في جوهر المسألة .

(٢) كان كوتشي بك من مواليد ألبانيا لم خدمتيا . وجد إلى إستابول ضمن أخضاعة الأكاديمية لفرقة التتالان . وأظهر منذ جئته من مواعيد طفله ، تلمذت له الدولة بالدراسة الحديثة ميدانياً لخصمه القديم بهيماً من التعليم العسكري . وفتح عليه الاختيار ليصل إلى القصر السلطاني وعظم بقتله حتى من السلطان مراد الرابع وجعله مستشاره الخاص . وقد عهد إليه -

النظام الأمثل والدواء الثاني من جميع الملل التي تصافرت على إضعاف الدولة ،
والرومية العنيفة لاستعادة عصرها الذهبي . فلما أصدر السلطان محمود الثاني
« ناطق لشريف » لى تأييداً واسعاً على المستوى الرسمي والديني والشعبي .

أنموذج عسكري في تاريخ الدولة الخامسة لياتل إنكشارية في إستانبول :
وعلى الرغم من أن ضباط الإنكشارية قد أقرروا المشروع الذي حرضه
عليهم الصلح الأعظم محمد مظهر باشا في اجتماع اليوم السابع والعشرين من
شهر مايو - آيار - عام ١٨٢٦ ، انفضح أنهم يقولون بأنفسهم ما ليس في
قلوبهم ، وأهم قوم مروءوا على الضمبان والتمناد والصلب . ففي اليوم الخامس
عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٦ - بعد مضي عشرة أيام على
الحفل الرسمي الذي أقيم بمناسبة بدء تكوين الفرق الجديدة في الجيش - تعرض

موقع مذكرة يصرح فيها السبب لاحتلال الدولة في ذلك الوقت والوسائل التي يرى أنها كفيلة
بإنقاذها . وقد أتم كوتشي بك وضع المذكرة وقدمها للملأمة عام ١٨٢٠ ، ويطلق عليها في
تاريخ الدولة العنيفة « رسالة » . ويقدمها رسالة كوتشي بك . والرسالة للغة مأخوذة من اللغة
التركية بنفس المعنى وهي عبارة عن بحث أو تقرير ضابط يتكون من سبعة عشر فصلاً . ومن
الملاحظات التي كتبه اتليم البشت أن كوتشي بك استل كل فصل من فصول الرسالة بإشارات
موجزة وأضفها بإشارات موجزة استلح فيها السلطان مراد الرابع وأضف عليه الكثير من صفات
الذكاء والحكمة والفتنة .

وكانت هذه الرسالة موضع التقدير العميق من رجالات الدولة وفي الأوساط الأوروبية .
كما أصبحت مصغراً تاريخياً لمتى من مؤرخو الدولة العنيفة مادتهم لطلب في الكتابة عن أسباب
احتلال الدولة . كما جعلت هامر يطلق على مؤلفها التلقائي اسم أحد أعلام الفكر الفرنسي قبل
الثورة الفرنسية وهو مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥) صاحب كتاب
« روح القوانين L'Esprit des Loix » فقال إن كوتشي بك هو « مونتسكيو الباشا »
Le Montesquieu Ottoman . وقد ذكر الأستاذ رنارد لويس هذا التنبيه
« مونتسكيو التركي » The Turkish Montesquieu وهي نسبة تتلوى على عتبات
لأن كلمات تركي ، وأترك ، وتركي ، لها مدلولات أخرى قبل القرن العشرين ، كما سبق
أن ذكرنا في الفصل الأول .

انظر كلامي :

Lavisse et Rambaud, op. cit., Tome v, p. 880—881.

Lewis B., The Emergence etc., op. cit., p. 22 N. 3 and pp. 78 — 79.

ويلاحظ أن اسم كوتشي بك يرد في المراجع الأوروبية مكتوباً في صيغ فهي مثل :

khodji, khodja, Koço-Bey,

الإنكشارية لوجود وقت التريب ، وأوسعهم ضرباً . واستقر رأيهم على القيام بحركة تمرد . وكانت لآزال عاقلة في أنعاشهم حركات التمرد التي قاموا بها من قبل احتجاجاً على مشروع قطور الجيش ونجاشهم في تحقيق مآربهم . وجرياً على عادتهم اجتمعت خمسة فيالق لإنكشارية في ميدان الخيل ووضع أفرادها القزانات أمامهم وهي مقلوبة ، وانطلقوا في شوارع إستانبول يشعلون النار في مبانيها ، ويهاجمون المنازل ، ويعطسون المحلات التجارية ، ويسلبون البضائع . وكانت حركة العصيان هذه هي آخر حركة تمرد يقوم بها الإنكشارية في تاريخ الدولة في إستانبول . وكان السلطان أكثر استعانةاً لمواجهة . وكانت الجماهير أكثر ميلاً للإصمام في مقاومة الإنكشارية بعد أن لاقوا من جبروتهم وطفائهم ما لم يكونوا يطيقون .

الطوعية والاندماجية في مواجهة عسكرية ضد الفياق الإنكشارية :

كان السلطان محمود الثاني يقيم يومئذ في قصره القائم في بشيكطاش (١) ، فأسرع بالانتقال في قارب إلى القصر السلطاني في إستانبول . وأمر بادي ذي يده بقتل كل إنكشاري يتعرض بسوء إلى الجنود أو يعيث بالانفاز العام . واستدعى السلطان إليه شيخ الإسلام والمفتين ومن إليهم من أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والذين كانوا وقتذاك في العاصمة . وشرح لهم موقف الإنكشارية فاستهجنوا تصرفاتهم وأشاروا عليه بمقاومتهم ، فاستصنوا من

(١) بشيكطاش ضلعية بإستنبول على بعد ميلين ونصف الميل من جسر جلالة على الساحل الأوروبي القرمقور . وكان اليونانيون يطلقون على هذه الضلعية اسم دياركرونيون *Diploktionion* نسبة إلى حرفتي أوليها هناك رومانيوس الأكبر . ومن هذا الموضع استطاع السلطان محمد الثاني حته شروعه في فتح القسطنطينية أن يقتل ستة غرق تلال ويرا *Pera* إلى القرن الذي قام به من مله من ناحية القوسقور بسلسلة جديدة . وكانت هذه الضلعية في القرن السابع عشر وكان من حتر زجر بعد من القصور الدينية التي كان يختلف فيها السلاطين . وفي الوقت الحاضر تحيط بسلسلة الضلعية مجموعة من القصور الرقعة مثل سره بانهية ، وقصر باندر ومن الأماكن السلسلة ذات أهمية تاريخية في هذه الضلعية غير غير الذين يررررررر أمير البحر الثالث المتوفى عام ١٥٤٦ . وكانت بشيكطاش عبارة عن الدائرة السلسلة للبلدية بإستنبول .

شيخ الإسلام لقوى بوجوب زيادة هذه القوة الطاغية والفضالة . وأمر السلطان باستدعاء عدة فرق عسكرية كان من بينها : آلاى طوبجية وهى فرقة من سلاح المدفعية كان قد أعاد تنظيمها وتدريبها عقب احتلاله للعرش . وكون أفراد هذه الفرقة مع أوجاق القمبية - أى الذين يثبون الألفام (١) - قليلاً ، وكون حملة البنادق ورجال البحرية قليلاً آخر . ودعا السلطان أفراد الشعب إلى قتال الإنكشارية . وقد صحت عزيمته السلطان فى هذه المرة على زيادة الإنكشارية ووضع نهاية لشروطهم واسترسالهم فى حركات القرد والظفان .

الواقعة الخيرية :

وفى صباح اليوم السادس عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٦ أخرج السلطان اليرق الثبوى - العلم النبوى الشريف - واتجه مع القوات العسكرية ومع المدنيين المسلمين إلى كت ميدانى - ميدان الخيل - وكانت تطل عليه ثكنات الإنكشارية . وكانت قد استقصدت فى هذا الميدان خمسة لياق من الإنكشارية ، وكانت القزانات - قنود الطعام - أمامهم وهى مقفولة رمزاً لاستمرار حركة العصيان العسكرى . وكانوا فى هرج ومرج شديدين وألقوا التاريس أمام البوابة الكبرى لثكناتهم . ولم يمض قليل من الوقت حتى أحاط رجال المدفعية بالميدان ، واحتلوا جميع المرتضعات المشرقة عليه . وسقطوا مدافعهم على الإنكشارية من جميع الجهات . وهجم الإنكشارية على مواقع المدافع ينفون الاستيلاء عليها ، فحصلتهم المدفعية ونالت منهم مثلاً كبيراً . وأيقنوا أنه لا طاقة لهم على مقاومة المدفعية . والتجأوا إلى ثكناتهم طلباً للنجاة . وفشل تحيطهم . إذ سلطت المدافع قذائفها على الثكنات وهدمتها واشتعلت فيها النيران حتى دمرتها على رموس البقية الباقية

(١) لم كلمة تركية بمعنى قلعة تحت الأرض . وكان كان أوجاق القمبية شأن أوجاق الخيرية - أى الذى للتأثيل - من حيث أن أفراد مسلحين الأرمانيين لم يكونوا يملكون مرتبات من خزينة الحكومة ، بل يعتمدون على مساعدات عسكرية من الأرمن .

انظر :

منهم ونولى الجنود النظاميون إلقاء جثث الإنكشارية في البحر . ويقدر عدد قتلاهم في ذلك اليوم بستة آلاف إنكشاري ، ولو أن البعض يقفز بهذا التقدير إلى أصحاب هذا العدد (١) . وعلى هذا النحو انتهت في السادس عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٣٦ حركة العصيان والتمرد التي قام بها الإنكشارية بإرادة معظمهم . ويسمى الثيانيون قتل الإنكشارية في هذا اليوم « وقعة خيرية » أي الواقعة الخيرية لأنهم تقاعدوا بها خيراً (٢) .

إلغاء نظام الإنكشارية :

واستبعد زيادة الإنكشارية في الواقعة الخيرية اتخاذ حدة قرارات لاحقة وعاجلة لتلبي المجتمع . فأصدر السلطان في اليوم التالي - السابع عشر من شهر يوليو - حزيران - فرماناً بإلغاء القيايق الإنكشارية إلغاء كلياً بحيث يشمل الإلغاء تنظيماتهم العسكرية وأسماء القيايق الإنكشارية وشاراتها وأعلامها ومصطلحاتها العسكرية في جميع أنحاء الدولة . ونودي بهذا القرار في شوارع إسطنبول . وفي ذات الوقت صدرت الأوامر إلى حكام جميع ولايات الدولة بصحب كل من بقى من الإنكشارية على قيد الحياة وإعدامه أو نفيه خارج البلاد حتى لا تبقى منهم بقية في نطاق الدولة ، ولا تقوم لهم قائمة

وفي ذات اليوم أصدر السلطان محمود الثاني فرماناً بإنشاء جيش جديد وفق للنظم الأوروبية الحديثة ، وأطلق عليه « عسكري منصورى عيسى » أي العسكري المنصورة المصلية . وهو قصير ذو طابع ديني إسلامي لا يفوتنا أن نسجله في هذه الدراسة استهدف منه السلطان قطع الطريق أمام أي هيئة أو طائفة تحاول الإثارة الثيانية بين الجماهير نتيجة لإبادة القيايق الإنكشارية ، وقد أراد السلطان أيضاً من هذه التسمية تسجيل الآمال التي تعلقها الدولة

(١) دكتور جلال يحيى : الممثل إلى تاريخ العالم الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ .

(٢) Lewis B. : The Emergence etc. ; op. cit., p. 79.

والنظر أيضاً :

سالم المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ ، ويقول هذا لتؤكد إن قصور الخيول وقلة خيولها يدل بالحساب الأبعد على تخلف الواقعة بالسة الخيرية .

والجواهر على القنطرة التنشائية للجيش الجديد في تحقيق انتصارات عسكرية باهرة لا تقل في روعتها عن انتصارات الإنكشارية في عهدهم الأول

وبإلغاء القياقي الإنكشارية ألغى السلطان محمود الثاني منصب رئيس شريعة أظامى - أى رئيس الإنكشارية - واستبدله منصباً جديداً بالمنصب القديم وأطلق على شاعله سر عسكر ، وهو مصطلح تاريخي عثماني استحدث في العهد السابقة وكان يمنح لقادة الجيش ، ومعناه رئيس العسكر أو القائد العام (١) . ولكن أدخل السلطان محمود تعديلات شتى على اختصاصات شاغل هذا المنصب ، فأصبح يجمع في يديه اختصاصات وزير الحرية واختصاصات القائد العام للجيش ، وأضاف إليه اختصاصاً ثالثاً هو مسئولية المحافظة على الأمن العام وواجبات الشرطة في العاصمة (٢) . وقد عين في منصب سر عسكر حسين باشا أما وهو أحد كبار ضباط القياقي الإنكشارية ، وكان قد انقلب عليهم من قبل احتجاجاً على تصرفاتهم وانضم إلى السلطان . وكانت له اليد الطولى في واقعة ١٦ من يونيو - حزيران - ولم يمض عام ١٨٢٦ حتى تم تعريب وتسليح عشرين ألف جندي كمرحلة أولى ، على أن تكون حصيلة المرحلة الثانية في نهاية العام التالي ٢١٠ ألف وعشرين ألف جندي نظامي (٣)

حل الطريقة البكتاشية دعمًا للإنكشارية :

لم يكد يمر شهر واحد على إلغاء القياقي الإنكشارية حتى أصدر السلطان محمود الثاني فرماناً بحل الطريقة الصوفية البكتاشية وهدم تكاياها التي كانت قائمة في إستانبول وما جاورها ، وإغلاق بقية تكاياها التي كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في أنحاء البلاد ، وهدم دفع أى إمانات لها (٤) . واستند السلطان

(١) عدد كبيراً ذكر هذا المصطلح في كتب الجبرق إجماع من الجزء الثالث عند كلامه عن المنعرجات التي كانت تصاد عن قيادة الجيش الفرنسي أثناء الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١

(٢) Lewis B., The Emergence etc., op. cit.:p. 80. (٢)

(٣) عند قريه بك ، مرجع سبق ذكره ٤ ص ٢٤٧ .

(٤) Lamouche (Colonel); Histoire de la Turquie. Paris, 1933. (٤)
pp. 250-252.

في قراره إلى أن أتباع هذه الطريقة أعطوا يشرون القلاقل ويحرضون الجماهير على القيام في وجه الحكومة احتجاجاً على قتل الإنكشارية في واقعة ١٦ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨١٦ . وقد سبق أن تكلمنا في الفصل السابق عن العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الإنكشارية بأتباع الطريقة البكتاشية .

ولكن يفتنى السلطان محمود الثاني الشرعية الدينية على قراره بحل الطريقة البكتاشية استصدر فتوى من شيخ الإسلام بأن البكتاشية خارجون على القانون ، وأنه لا ترسيب على ولي الأمر إذا اتخذ لإجراءات أمس كي يمنع شرودهم من المسلمين . واستناداً إلى هذه الفتوى بشقيها أمر السلطان بأن يهدم حلاً ثلاثة من كبار البكتاشية ، وأن يفتى القانون ، وأن يثبت دليل أنجع الطريقة بترحيلهم إلى أطراف الدولة مفرقين متناً لأى جماعات يقومون بها في إستانبول (١) . وكان تصرف السلطان في هذا الصدد نابهاً من حوصه التشديد على تفادي أى نتائج ضارة قد تحدث بعد إلغاء القيان الإنكشارية .

ويبدو من ملاحظات هذه الفترة القصية - شهرى يونيو ويوليو - حزيران ونحور - عام ١٨٢٦ أن حل الطريقة البكتاشية كان لإجراء مكملاً لإلغاء القيان الإنكشارية ، وأن هذا الإجراء كان أمراً لا مندوحة عنه *Sine qua non* في حلال هذه الأزمة ، لأن الطريقة البكتاشية لم تثبت أن عادت بعد ذلك إلى الازدهار وبدأ رويداً ، ولو أنها لم تستعد قط ما كان لها من مركز مرموق في ترويج المجمع العثماني (٢) .

(١) هذه تريدة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٩ .

Lewis B.: The Emergence etc, op. cit., p. 79.

(٢) وجدت في دليل الأناضول تكية عياد جيك ، فضلاً عن التكية الأصلية للمنت في هذه المنطقة . وجدت في قرب الأناضول تكية أخرى في مدينة إسكي شهر . وهذا من التكايا البكتاشية الخاصة . وهناك تكية ثالثة أثبتت حل طبع جبل المقطم بالقاهرة ، ونسبة أعداد كبيرة نسبياً من البكتاشية إلى الوقت الحاضر في المؤسسات الإسلامية في شبه جزيرة البلقان ، وبنسبة في ألبانيا حيث توجد تكية البكتاشية الكبرى في تيرانا عاصمة الإقليم . رجاء في بعض لوائح أنه كان لا يزال في جمهورية تركيا إلى عام ١٩٥٢ ثلاثون ألف بكتاشي . انظر

Tachudi; Encycl. of Islam. Art. Bektash.

ويلاحظ أن الأوامر الخفية سواء بالنسبة للإسلام أو المسيحية قد تغيرت كثيراً جديراً في النهاية أن توجه الحكم القوي مما عت الستجبات في القرن العشرين .

ولكن يؤخذ على السلطان محمود الثاني أنه أسرف في الاقتصاد من البكاشية كان يدخل في مرتهم كل شخص كان متصلاً بهم أو متعلقاً معهم على أي نحو من الأنحاء . ومن الأمثلة التي تماق في هذا الصدد خطاباته محمد ويشتهر باسم مائي راد (١٧٦٩-١٨٢٦) . كان أحد أعلام الفكر العثماني في القرن التاسع عشر . كان ذا عقلية موسوعية وتعلم عدة لغات أوروبية . ودرس الطب ، وعينه السلطان سنة ١٨١٩ مدوناً للتاريخ العثماني . وعكف على ترجمة بعض المراجع الطبية إلى اللغة التركية ووضع بحوثاً في علوم وظائف الأعضاء ، والتشريح ، والطب . وأدخل في اللغة التركية لأول مرة مصطلحات لغوية في علوم الطب . وقد أخذ عليه السلطان أنه على صلات باتباع الطريقة البكاشية ، فأمر بيزله ونفيه . ولم يشفع له إلا إراء الطلي الطبي الذي حفلت به حياة هذا العالم مع أنه لم يكن رجياً . وقد جز إلى ربه في ذات السنة التي شملت نفيه من إسطنبول إلى أحد الأطراف النائية على حدود الدولة (١) .

ويعد أن يحج السلطان محمود الثاني في استكمال شأقة الإنكشارية مضي يستكمل إصلاح الجيش وأصدر تباعاً عدة قواتين عسكرية تخرج عن نطاق هذه الدراسة . وحسبنا أن نذكر أن هذا السلطان تطلع إلى محمد علي باشا وإلى مصر ليساعده في تدريب الجيش الجديد . فطلب منه في ذات السنة (١٨٢٦) أن يبعده باثني عشر خبيراً من الخبراء العسكريين لتدريب الجيش العثماني . واحضر محمد علي عن عثم لإرسال الخبراء بأعداد ضخمة (٢) . وولى السلطان وبجبهه شطر أوردوا كما فعل محمد علي من قبل . وتردعت فرنسا وبريطانيا ، بنبيا لقي استحباباً من روسيا والنمسا . فجماعه من روسيا في أواخر عام ١٨٣٥ في زيارة خاصة القضايط الروس في الشجرة العالمية فون مولتكه (٣)

(١) Lewis B. ; The Emergence etc., op. cit., pp. 85-86.

(٢) Lewis B. ; The Emergence etc., op. cit., p. 81.

(٣) كان مولتكه أحد أربعة عالمة تلت على أكتفهم الإمبراطورية الألمانية الحديثة في مطلع عام ١٨٧١ (علوم الأول ، وبيترك ، وجون روك Von Rook) ودير حرب وفون مولتكه) . وقد ولد عام ١٨٠٠ وعين عالماً بالجيش البروسي ، ثم سافر إلى إسطنبول وعرض بطلبه مهتم من السلطان محمود الثاني ، وعدم في الجيش العثماني . وحضر مولتكه لسيدي =

Heinrich von Moltke وقد عينه السلطان مستشاراً لشئون تدريب الجيش ، ثم جاء في أثره خمسة ضباط بروسيين آخرين . وكان استخدام الضباط الألمان في الجيش العثماني خطوة هامة على أول الطريق الذي أدى فيما بعد إلى نمو النفوذ البروسي (الألماني) في الجيش العثماني نمواً عظيماً (١) ، وبأكورة أول لحاكم ميمنة الثغارب التي انتهجها ألمانيا فيما بعد نحو الدولة العثمانية . وهي السياسة المعروفة باسم Drang Nach Osten أي الاتجاه نحو الشرق .

الطريق عام محمود الثاني لإزالة الباقى الإنكشارية :

هناك شبه إجماع من المؤرخين والباحثين على الإشادة بالسلطان محمود الثاني لتنهجه في إلغاء الباقى الإنكشارية وتخليص الحكومة المركزية والمجتمع العثماني من شرورهم . ويصممه البعض بالزعم والشجاعة ورجاحة الفكر والخصاصة . وقالوا إنه اكتسب معظم هذه الخصال من احتكاكه بالأوروبيين (٢) . ويعتق أحسنهم على نجاح السلطان في التخلص من الإنكشارية بقوله إنه لو لم

- وسيما اللدعمون المرموقين قريب Nezib (٢١ من يوليو - حزيران - ١٨٤٩) وقد سى فيها الجيش العثماني جزءة سابقة على يد الجيش للمصري . وكان مولفك في حينه أركان الحرب بالجيش العثماني . ويقال إنه ولد الأديار مع سائر الضباط العثمانيين دون أن يسكن من أهل ملجيه وأورده انكاسة . وعاد إلى بروسيا وتخرج في الرتلكتف العسكرية إلى أن عين رئيساً لأركان الحرب بالجيش البروسي ، وحصل على رتبة مشير Field Marshal . وبعدهن جوده هذا الجيش أقوى جيش في أوروبا . وكانت له اليد الطولى في انتصار بروسيا على النمسا في معركة ساهوا وهي التي يسميها اللدعمون الألمان كونيغراتز Königgratz (٣ من يوليو - تموز - ١٨٦٦) ، وحل لمساى موقفة سيدان Sedan (٢ من سبتمبر - أيلول - ١٨٧٠) وأقيم له تمثالان في سواه . ولشكره الخلة في سنة ١٨٨٨ ف توفى عام ١٨٩١ .

(١) أوسلت الحكومة الألمانية في عام ١٨٨٢ بقعة عسكرية إلى الأستلة لتعمل تنظيم الجيش العثماني وفق الأساليب الحديثة . وكانت عام البقعة بريمة الككونلويل تون دوسولتس .

(٢) قيل إن وفاة السلطان محمود الثاني كانت قرصية . وله دولة ضعيفة ، يدحضها أنه لم يكن يعرف لغة الفرنسية على الإطلاق . كما أنه لم يكن يتكلم لغة أردوية . وكان تلميذه طعياً بالنسبة لأمره من أمراء الأسرة الحاكمة . وكانت دولته مقصورة على الشريعة الإسلامية واللغة التركية وبعض اللغات الشرقية والغربية . ولم تكن له معرفة مباشرة بالعلوم الغربية على الرغم من أنه كان يخدم بجرلات في الولايات العثمانية والأوروبية مستقلاً أحوالاً .

يمكن للسلطان من الأياضى اليقضاء على الممالك المروسة (١) إلا إلغاء طائفة الإنكشارية لكن ذلك لتخليد ١٨٨١ في بطون التاريخ مشكوراً ملحوظاً إلى أيدى الأبد (٢). ويعلق آخر تعليقاً مثيراً فيقول إن نجاح محمود الثانى في القضاء على الإنكشارية كان كافياً وحده لاعتباره من أعلام الإصلاح في الدولة العثمانية (٣). وذهب أحد المؤرخين في تمجيد السلطان إلى القول بأنه يشبه بطرس الأكبر قيصر روسيا من حيث الدور الذى قام به كل منها في دولته ، ومن حيث الإصلاحات التى أدخلها كل منهما في بلاده (٤).

والحق أن الباحث الحاد لا يستطيع أن يقلل من أهمية وحجم النجاح الذى أصابه السلطان محمود الثانى في إلغاء القبايل الإنكشارية بعد أن تقاض طغيانها وجبروتها وغدت مركز قوة خطير في حياة الدولة ، وتضخ قيمة انتصاره على هذه الفئدة الباغية إذا وضعنا في اعتبارنا المعوقات العديدة التى فرصت نفسها فرضاً على السلطان ونشر هنا إلى أهم هذه المعوقات حتى عام ١٨٢٦ وهو تاريخ إلغاء القبايل الإنكشارية كان على رأسها الحركة القومية أو السلفية في شبه الجزيرة العربية ، واستئناف الحرب الروسية التى انتهت بمعاهدة غارست عام ١٨١٢ ، والثورة التى حل محل لوامها على باشا والى يانينا ، والثورة اليونانية وما صاحبها من تدخل دولي - حربي وسياسي - لصالح الثوار اليونانيين . وقد استغرقت هذه المعوقات ثمانية عشر عاماً من حكم السلطان فلما فرغ منها ، أو كاد يفرغ منها ، التفت إلى مشكلة الإنكشارية وهى مشكلة حساسة مبيت أن تعرض معظم السلاطين السابقين لحلها على عر من الأثماء . ولكن باء جميعهم بالفشل . كانت نهاية بعضهم القتل ، بينها كان مصير البعض الآخر القتل ، واحتصم البعض الثالث بالسلبية حرصاً على أرواسهم ومراكزهم . أما محمود الثانى فقد التفت نصرفاته بالحصافة والأناة في المرحلة الأولى ، فلم يتجه إلى إلغاء القبايل الإنكشارية ،

(١) الممالك المروسة يقصد بها الممتلكات البيانية .

(٢) محمد قريه بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٢ .

(٣) دكتور السيد رجب سرار ، الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر ، ص ٢٠ .

(٤) Phillips W.A., Modern Europe (1815-1899), p. 210.

بل عمد إلى الإبقاء عليها والعودة بها إلى وضعها الأول في حصرها اللهي مثلا أهل للنظام والطاعة والامتثال في ساحات القتال . وقد بذل السلطان محمود الثاني في هذا الصدد محاولة سلمية في حلال الشهور الأولى لتولية العرش . ولما لم يجد استجابة من الإنكشارية أعرض وتآى بجانبه عنهم ، ثم بذل محاولة سلمية أخرى بعد ثمانى عشرة عاماً لتعديل نظام القبايل الإنكشارية مع الإبقاء عليها . ولكن أصر الإنكشارية على موقف العناد . وحيداً حول السلطان هل أن يدخل في مواجهة عسكرية استهدف منها إلغاء القبايل الإنكشارية إلهاء كلياً بدلاً من تعديل نظامها والإبقاء عليها . وكانت هذه المواجهة تمثل المرحلة الثانية . واتسمت تصرفات السلطان بها بالتخطيط الدقيق والشجاعة والمهارة الحربية . وسار على رأس بعض القوات العسكرية وجواهر الشعب واستخدم أسلحة أشد خطراً من تلك التي كانت في أيدي الإنكشارية فضتكت بهم فتكاً فريماً وانهارت ثكتهم فوق رؤوسهم مما كفل له الانتصار الساحق عليهم وأتى بجيشهم في البحر . وقرن إلغاء القبايل الإنكشارية بحل الطريقة النكاشية بصفتها دعامة قوية كانت تشد أزر الإنكشارية في الأوساط الجاهلية وعمل في غير هوانة على سد الفراغ الذي تركه القبايل الإنكشارية ، فأنشأ في ذات السنة (١٨٢٦) فرقة عسكرية جديدة وفق النظام الحديث . وأرسل بطات عسكرية إلى الكليات الحربية في بروميا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا . واستقدم الخبراء العسكريين الأوروبيين لتدريب الفرق العسكرية . وأصبحت هذه الخطوة سياسة عليا التزم بها للدولة حتى القرن العشرين .

على هذا النحو توارى إلى الأبد الوجود الإنكشاري العسكري في الدولة منذ صيف ١٨٢٦ ، ونجح السلطان محمود الثاني في القضاء على مركز خطير من مراكز القوى في الدولة كان يهدد أمنها الداخلي والخارجي بأشد الأخطار . يقول أحد كبار المؤرخين الإنجليز إن الإنكشارية كانوا مصدر هلع وذعر لأوروبا حيناً من الدهر ، ثم غدوا مصدر رعب وإرهاب للملاطين ولرعاياهم المدنيين الخاضعين عن طيب خاطر للقانون يلتزمون به في حياتهم سلوكاً ومنهجاً (١) .

كانت حركات العصيان التي قام بها الإنكشارية من وقت لآخر تم في المدن . وإيماناً في تحدي السلطان كانوا يتخللون من القرائات وسيلة إعلامية لحركات التمرد . ولا يتورعون عن عزل وقتل السلاطين والصلور النظام والوزراء وغيرهم . واحتلوا على القوة العسكرية في تنفيذ خططاتهم . ومن هنا كانت تكمن خطورتهم ، على النقيض من المركزين الآخرين من مراكز القوى في الدولة ، وهما : الحرم السلطاني والحصيان وأغواتهم . فإن مؤامرات وخطط هذين المركزين كانت تحاك في السر ، وتنفذ في العلن ، ولا يعلم بها أو يتأهبها أحد سوى فئة قليلة العدد من موطنى الخيمة الداخلية أو الخيمة الخارجية في القصر السلطاني وعدد ضئيل من كبار الموظفين في أجهزة الدولة وهذا ما سنتناوله في القصول الثلاثة التالية ، مع فصل رابع لتقييم مراكز القوى الرئيسية مع مراكز جانبية أخرى أطلت برأسها ، وأرادت أن يكون لها نصيب من الجلاء والنفوذ والتسلط .



الفصل العشرون

مراكز القوى في الدولة (٤)

الحريم السلطاني

نظام الحريم السلطاني :

أخذ سلاطين الدولة العثمانية بنظام الحريم في تصورهم . وأطلق على هذا النظام « الحريم السلطاني » . وكانت أسرة السلطان هي مركز الدائرة بالنسبة إلى جميع الهيئات والمؤسسات التي تعمل في منطقة الحريم . كانت تخصص حدة أجنحة في القصر لسكنى والدة السلطان الحاكم ، إذا كانت لا تزال على قيد الحياة ، وروجات السلطان . ونطلق عليها وجليه في هذه الدراسة سيدات الفئة الأولى ، ثم بنات السلطان وأولاده الصغار ، ثم فئات من الجوارى الحسنات كن يسنن في القصر ، ويشغل بعضهن حتى الوظائف الكبرى والعصرية فيه . كما كانت توجد طائفتان كثيفتا العدد من التخصيان واليغز والتخصيان السود . وعليهم رؤساء على شاكلتهم يطلق عليهم رؤساء أو أغوات التخصيان يقومون بحراسة منطقة الحريم وحلقة ساكناته . وكانت أجنحة الحريم عبارة عن مبان مستقلة أو وحدات سكنية مستقلة بلغت الروعة من حيث فخامة المبنى ورفرفته وأثاثه وتعدد حجراته وقاعاته . وكان يطلق على كل مبنى « دائرة » . وتخصص دائرة لكل مينة من سيدات الفئة الأولى في الحريم السلطاني وكذلك لأولاد السلطان وبناته .

وما هو جدير بالذكر أن موضوع الحريم السلطاني من الموضوعات الصعبة للغاية في تاريخ الدولة العثمانية نظراً لقلّة المادة العلمية عنه . إذ كان الحريم السلطاني بكل فئاته وهيئاته يعيش وراء الأسوار العالية بعيداً عن العالم الخارجي . ويذكر المؤرخ دوسو D'Ottomon أنه لم يصاب جملة في

الوقوف على مادة علمية موثوق بها من هذا الموضوع ، وأنه اتصل بعدد من زوجات الدلاطين واللاق خادون القصر بعد وفاة أزواجهن ، كما اتصل بالفتيات الثلاث، سبقت له الإقامة في القصر ثم حرون وتزوجن ، وأنه قلم هؤلاء وأولئك الهدايا الثمينة لإغرائهن على تزويله بالمعلومات . وقال إن التحقيقات التي قام بها بخصوص هذا الموضوع قد كلفته متاعب أكثر مما تطلبته الأجزاء الأخرى من كتابه التي يقع في سبعة مجلدات (١) وقد سبق أن ذكرنا أنه أقام في إستانبول سنوات طويلا وحكف خلال الثلاثين عاماً (١٧٨٨ - ١٨١٨) على وضع كتابه ليجاء إليه بموسوعة علمية عن تاريخ الدولة العثمانية (٢) . وقد أشار مؤرخ أمريكي إلى الصعوبات التي صادفها هو الآخر في جمع المادة العلمية عن موضوع الحرم السلطاني (٣) .

أجنحة الحرم :

كانت تحاط منطقة الحرم بأسوار عالية تقوم عليها حراسة مشددة ، وكان الطريق المؤدى إلى منطقة الحرم عبارة عن ممر طويل ، له أربعة أبواب ، بابان منها مصنوعان من الحديد ، وبابان من البرونز . وكان رئيس الحصيان السود وعدد من هؤلاء الحصيان التابعين له من رتبة «نوبت قلعه ميه» (٤) وهم من الصف ضباط يتأيدون الاحتفاظ بمفاتيح هذه الأبواب ليلاً ونهاراً. وكانت أجنحة الحرم تحاط بمنطقة «a closed zone» ومنطقة محرمة out of bounds

(١) D'Ouseon Ignatius Mouradjea, op. cit., Vol. VII, p. 58.

(٢) انظر في هذه الكلمة ص ١١٩ حالية رقم ١ .

(٣) Lytbye A.H; op. cit., p. 126.

(٤) نوبت كلمة تركية مختصة عن الفلك البرية لوبة أما قلعة فمعناها وليس . وفيهارة

معناه « وليس نوبة الحراسة » . انظر رتبة هذه القلعة من الحصيان في ص ٦٥٨ حالية رقم ٢ . وانظر سائر اختصاصاتها في ص ٦٦٠ حالية رقم ٤ .

لا يسمح لأحد دخوله أو الاقتراب منها أو النظر إلى ساكناتها إلا لرجل واحد وحيد كبير نسبياً من أشباه الرجال . أما الرجل الواحد فهو السلطان . أما أشباه الرجال فهم الخصيان - وهم عيب يفض وسود - استعملت من أجسامهم أعضاء التماسل . وبذلك يفتق منهم كل خطر أو شبهة خطر أو مظنة خطر على ساكنات أجنحة الحرم المحرم وبما يدل على صرامة النظام الموضوع لأجنحة الحرم السلطاني أنه حدث على عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٨٠) أن تجرأ أحد التجار من رعايا جمهورية البندقية وحاول أن ينظر من بعد إلى أجنحة الحرم السلطاني واستخدم نظارة تخريب المسافات *une lunette d'approche* وسرعان ما اكتشف أمره وهو يقوم بمحاولة ، فأمر السلطان بشقه فوراً (١) . وتكررت المحاولة بعد ذلك وقام بها أرمني يصل ترجماناً مترجماً - السفير الفرنسي في إستانبول ، وألقت السلطات الثمانية القبض عليه وأسرعته بشقه قبل أن يتدخل السفير الفرنسي ، مارشيل Marochville ، انجاساً لسفروته .

ويلاحظ أن حركة النساء كانت من التقاليد القديمة في العالم الإسلامي . وكانت المجتمعات في ذلك الوقت مجتمعات دينية إسلامية . وكان احتجاب النساء من أبرز سمات هذه المجتمعات . فلم يأت الثباتيون بجديد في هذا الصدد بل إنهم احترموا تقليدًا إسلاميًا موروثًا ورأسخًا . ولذلك لم يكن يسمح لأية سيدة - ابتداء من زوجات السلطان حتى الخاديات بالخروج من القصر إلا في حالات نادرة ، حين كان السلطان يصحب بعضهن في زيارة لأحد القصور الصيفية . وكانت القاعدة العامة هي ضرورة التواجد الدائم داخل أجنحة الحرم السلطاني وإذا أرادت إحدى سيدات القبة الأولى وكلملك بنات السلطان التزه في حدائق القصر ، كان عليها أن تحصل أولاً على إذن من السلطان شخصياً ، فإذا استجاب السلطان التحلت سلطات القصر احتياطات

شديدة لمنع أى شخص من النظر إليها . وقد أطلقت كلمة حريم Harem في ذلك الوقت للمولين ، مما : « المنع forbidden والمقدس sacred ^(١) » وتطبيقاً لهذا المعنى المزدوج ، فإن عبارة الحريم السلطان تعنى «المقدس والحرم على غير الاقتراب منه أو النظر إليه سوى السلطان والمحرمين وروماهم أى أخوات المنصيان .

مدينة السلطان وسط الحريم :

وكانت توجد في منطقة أجنحة الحريم مساحات واسعة من الحدائق المتصلة بأجمل تسيق ، وإلى جانبها عدد من الساحات المكشوفة . وكان السلطان مقصورة خاصة وسط أجنحة الحريم ، وتجرى غرفة نومه وحماماً وقاعة استقبال كبيرة كان يؤدى فيها للصلاة ، ويستقبل فيها قريباته المزدوجات . وعند زيارته لأجنحة الحريم كانت تصحبه الكايا ، وهى من كبرى موظفات الحريم السلطانى ، ومن بين اختصاصاتها تنظيم الأوقات التى يقضها السلطان مع ساكنات حواري الحريم سواء فى الليل أو فى النهار ، وعلى زياته مع البعض من و حقائق أجنحة الحريم . وكان يطلق على هذه الزيارات « ضيوت هابون » (٢) أى الخطوة السلطانية . ولكى يتم الإعلام بوصوله إلى منطقة الحريم كان السلطان يلبس مبتدلاً من ضمة كى يحدث صوتاً على الأرض المكسوة بالرخام (٣) . أما إذا فاجأه السلطان بوجوده في منطقة الحريم فإنه كان من قواعد البروتوكول ألا تنتظر السيدات ولقنات إلى وجه السلطان ، بل يفضضن من أبصارهن وينظرن إلى الأرض حياءً وغفراً (٤) وكان السلطان يتمتع باحترام يفوق ما يتمتع به سائر البشر (٥) . ويرى أحد المؤرخين الإنجليز أن الحريم السلطانى بهذه القيود الثقيلة المفروضة على ساكناته

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., Vol. I, Part 1, p. 72. (١)

D' Ohsson Ignatius Mouradgna; op. cit., Vol. VII 52. أنظر كذلك : (٢)

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. Cit., Vol. I Part. p. 329 N.B.

D' Ohsson Ignatius Mouradgna, op. cit. Vol. VII, p. 62. (٣)

Loc. cit. (٤)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol I, Part I, p. 76. (٥)

كان صناً للعبيد *a prison of slaves* ثم عمم هذا الرأي على حاشية السلطان (١). ويذهب مؤرخ أمريكي إلى القول بأن الحريم السلطاني ينتمي إلى نظام القولار أى حيد السلطان . ويستثنى من هذا التحميم أولاد السلطان وبناته . أما سائر الميولات والفتيات فلائى كن يقمن فى منطقة الحريم فكان عييدات السلطان (٢).

نساء السلاطين :

ليست الحياة الخاصة لرئيس الدولة أبداً كان لقيه : إمبراطوراً ، أو سلطاناً ، أو ملكاً ، أو أميراً - ملكاً حاصلاً له ، لأن هذه الحياة الخاصة والشخصية ، فى استقامتها أو فى حوجتها ، ترك بصمات قوية على مصائر الدولة . وقد كان لسلاطين الدولة النهائية مواقف معينة من تعدد الزوجات ، والإنسان من اجوارى . والزواج من الكتائب الأجنبية . ولذلك نرى لزماً علينا فى هذه الدراسة أن نمروراً سريعاً على المبادئ العامة للشرعية الإسلامية فيما يخص بهذه الموضوعات الثلاثة التى تعد مدخلاً ضرورياً توضع على استفاضة السلاطين أحياناً من الرخص المفيدة التى جاء بها الإسلام ، أو على استغلالها أحياناً أخرى . فقد كان لملك السلاطين تجاه هذه المسائل الثلاث آثار خطيرة ، إذ أصبح عدد كبير من نساء الحريم السلطاني مراكز قوى خطيرة سواء فى السياسة الداخلية أو فى السياسة الخارجية للدولة .

الإسلام وتعدد الزوجات :

أباح الإسلام للرجل أن يتزوج بأكثر من زوجة . ولكنه وضع لهذا التعدد قيوداً وشروطاً منها : ألا يحتضن الرجل بأكثر من أربع زوجات فى وقت واحد ، واشترط أن يلزم الزوج بإقامة العدل بينهن . وإن خفهم ألا تقسطوا فى البتة فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تحملوا فواحشة ، أو ما ملكت أيمانكم . فلك أدنى ألا تفعلوا (٣) (٤) .

Ricault Paul (Sir) : op. cit., p. 16.

(١)

Lybyer A.H., op. cit., p. 56.

(٢)

(٣) أى جمعوها ، فلك ملك الحاكم إذا جاز .

(٤) سورة النساء ، آية رقم ٣

وقصدت الشريعة الإسلامية بالعدل أن يقيم الرجل العدل بين زوجاته في المعاملة وفي الحقوق الظاهرة مثل توزيع ماله من حيث عنتن والإعناق حين وما إلى ذلك ، فلا يكون الأساس في معاملة الزوج لزوجاته الزوجية الحليّة والزوجة المقدّمة ، أو الجسيلة والقيصة ، أو الزوجة التي تنضم إلى أسرة غنية والأخرى التي تنسب إلى أسرة فقيرة . وفي الحديث الشريف : « من لم يعدل بين نسائه جاء يوم القيامة وشقه ساقط » . أما العدل في توزيع حوائط الرجل نحو زوجاته ، وهو ما يبرهنه بالميل القلبي ، فلا قبل به لإنسان ولا تكليف به لإنسان ما أتى إظهاره في المعاملة وتأثيره على حقوق الزوجات الأخريات . « ولن تستطيعوا أن تصلوا بين النساء (١) ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل (٢) فتدرونها (٣) كالحلقة (٤) ، وإن تصلوها وتحموا فإن الله كان شفوياً رحماً » (٥) .

وهذا القيد الذي وضعه الإسلام لعدل الزوجات ، وهو أن يلتزم الزوج نحو زوجاته بالعدل المطلقة الشاملة فيما ظهر منها وما بطن ، إنما هو شرط يبعد المثال . فإذا عرف الزوج أن في نفسه ضعفاً أو عدم مقدرة على تحقيق هذا العدل المطلق الشامل بين زوجاته ، فالحلال زوجة واحدة فقط ، وما سواها محظور . « وإن عظم ألا تصلوا فواحدة » . والنص القرآني للشرطي يؤكد هذا المعنى هنا . ويصره بأن التحديد بزوجة واحدة في هذه الحالة أقرب إلى اجتناب الظلم والجور . « ذلك أحق ألا تقولوا » . وللظلم حرام ، فالوسيلة إليه حرام . واجتناب الظلم واجب ، فالوسيلة إليه — أي إلى اجتناب الظلم — واجبة . والوسيلة إلى الظلم هنا هي الصدق ، والوسيلة إلى اجتناب هي التوحيد (٦) .

(١) في المعية

(٢) إلى الزوجة التي تكون لها حياً فوق جميع الزوجات الأخريات ، فتدرون الزوجات المطلقة بكثرة الإخفاق عليها وقصد الوقت مجعاً ، وما إلى ذلك .

(٣) تركوا الزوجة لمال منها . وهذا قيل لا يصلح إلا في المضارح والأمر .

(٤) أي تركوا مثل هذه الزوجة كاللحقة لا هي ذات بعل ولا هي أرملة ، أي لا هي متزوجة ولا هي حلفت .

(٥) سورة النساء : آية رقم ٦٦٩ .

(٦) مذهب : في هؤلاء القرآن . الميز : الرابع ، الآية الثانية ، طبع دار إحياء الكتب

العربية . موسى الباب الخليلي ومركب ، القاهرة ٢٠٠٢ ، ص ٨٢ .

ولكن تواجه الجماعات البشرية في مسيرتها عبر العصور والصور والحقب ظروفاً سياسية ، أو أزمات سكانية ، أو حالات اجتماعية تجعل تصد الزوجات حلاً لها في الحالات الطارئة . والإسلام جاء لجميع الأجناس وكل الأجيال ، ولكل زمان ومكان . فهو يتسم بالرونة ولا يقف جامداً لإزاء هذه المشكلات التي تفرض نفسها على البشرية سواء كانت شعوباً أو أفراداً .

والظروف السياسية ، وهي التي تهتأ بالدرجة الأولى في هذه الدراسة ، تتمثل في أن يرى الحاكم ، أياً كان لقبه ، للنواحي الحكمة السياسية وإجراءات الأمن القوي ، أن يصير إلى حد من القاتلات أو القاتل الكبرى ذات الأساس والثراء والعصية والنفوذ والكثرة العددية في أفرادها وبطونها ، فترتبط مصالح هذه القاتلات أو القاتل بمصالح الحاكم ، ومن ثم تشد أزره في « واجهة خصوم نظام الحكم الجديد » ، وبذلك يتوطد مركز الحاكم وتضيق دعام الحكم . وما هو جدير بالذكر أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تزوج السيدة خديجة بنت خويلد وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، وكان وقتذاك في شرح لعبا ورمحاً الفتوة وإكمال الرجولة . وظلت السيدة خديجة وحدها روجه ثمانية وعشرين عاماً حتى تخطى الخمسين لم يشرك معها زوجة أخرى على امتداد هذه السنوات الطوال على الرغم من أن تصد الزوجات كان أمراً شائعاً عند العرب في ذلك العهد ، وعلى الرغم من أنه كان حمداً عليه الصلاة والسلام منلوحة في الزوج على خديجة لأنه لم يشأ له منها ذكر في وقت كان وأد البنات أمراً درج عليه المجتمع المجزى بامة والمجتمع المكي بخاصة ، وكان للذكور وحدهم هم الذين يعتبرون خلقاً . وقد ظل عليه الصلاة والسلام مع السيدة خديجة سبع عشر سنة قبل بدء ولائها عشرة سنة بعده ولم يفكر قط في أن يتزوج غيرها ، ثم هو بعد أن يتخطى الخمسين يجمع في خمس سنوات أكثر من سبع زوجات ، وفي سبع سنوات تسع زوجات على القول الرابع (١) . وكان الهدف من تصد الزوجات هو توثيق لأواصر الجماعة

(١) ذكره محمد حسين عيكل : حياة محمد . الطبعة الثالثة ، مطبعة دار الكتب المصرية ،

الإسلامية الناشئة فهو لم يتزوج بهد العبد من نفسه بلافع من شهوة او غرام . ومع ذلك فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يتيب من حجزه عن إقامة العدل بينهم ، وتقصده بالعدل هنا توزيع ميله القلبي نحو من توزيماً متساوياً ، ولذلك كان يقول عند قسمه (١) بن أزواجه : اللهم إن هذا قسمي فيما أملك . فلا تأخذ في فيما تملك ولا أملك (٢) .

وقد أخذ عبد كبير من رؤساء الدول الإسلامية في المصور الوسطى مبدأ تعدد الزوجات لهذا السبب السياسي ، كما أخذ به الملوك الأوائل لبعض الدول الإسلامية الكبرى في التاريخ المعاصر لهذا السبب أيضاً .

أما الأزمات السكانية فقد تنفخ حروب أو تشاب ثورات ، ومحمد هذه وتلك من الرجال أضعاف ما تحصله من النساء ، بحيث يصبح عدد النسوة ثلاثة أضعاف عدد الرجال ، فيقل عدد الرجال الصالحين للإسكان ، ويكون التمدد حلاًجاً لاختلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث ، وصوناً للمرأة من النقص ، وقصيصاً للأمة عما فقدت .

أما الحالات الاجتماعية فن فيها مرض الزوجية أو حقنها ورغبة الزوج في الإبقاء عليها أو حاجتها هي إليه . وهناك بواحد أخرى تساق في هذا الصدد مثل القول إن في بعض الرجال طاقات حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجية أو لا تجد كفايتها في زوجة واحدة ، ومن ثم يصبح تعدد الزوجات أمراً لا غناء عنه لأمثال هؤلاء الرجال . ولواقع أن هذه مبررات يلود بها بعض المخلوقات من تسيطر على تفكيرهم وسلوكهم في الحياة ورغبات جسمية جارية يذعنهم أنهم أوتوا نصيباً من المال الموروث . وتصبح الممارسة الجنسية هي شغلهم الشاغل ، بل هي وظيفتهم الوحيدة في الحياة لا ينفون عنها حولا . وما لا جدال فيه أن أمثال هذه المخلوقات هم ضحايا تربية فاسدة ونتاج يثارت يعيش الجهل والخلقة على حقوق أصحابها . وإن الحياة المنتظمة والملم المحيط

(١) القسم يفتح القاف وسكون السين هو توزيع الميراث بين الزوجات

(٢) محمد أبو دمرة : الأحوال الشخصية . طبعة الثالثة . القاهرة ١٩٥٧م

كفيلان بالتخفيف من حدة هذه الحيوانية الانسانية عن طريق إعلاء الفريضة والتساي بها Substitution أولاً ثم لإسلافها Substitution ثانياً .

نخلص من هذا المرض السريع لأهم مبادئ الشريعة الإسلامية فيما يختص بعدد الزوجات إلى حلة حقائق ، نذكر منها :

أولاً : ينصح الإسلام بالاكتماء بالزوجة الواحدة في الحياة العادية ، ويشيد بفضل الزوجة الواحدة لمجرد الخوف من عدم إقامة العلاقة في شيء صورها وأشكالها بين الزوجات مع التأكيد بأن هذا العمل غير مستطاع . ويرى أحد كبار رجال الفقه المحدثين أن الزواج الأمثل في الإسلام هو الزواج بواحدة ، لأن فيه معنى من نطاق الظلم ، ولكن لا يرضى بهذا الزواج الأفضل والأمثل إلا أمثل الرجال ، ثم يتساءل عما إذا كان الرجال جميعاً من هذا الطراز ؟ (١) .

ثانياً : أما التعدد فهو في أصله رخصة ، وهو ضرورة تواجه ضرورة ، هو مجرد أمن قوى في الظروف السياسية غير العادية ، وهو صمام أمن في حالة كثافة عدد السكان الإناث بالنسبة لعدد الذكور ، وهو وقاية خلقية في الحالات الاجتماعية الصارخة .

ثالثاً : لم نجد البشرية حتى اليوم حلاً أفضل من نظام التعدد كمعالج لتلك الظروف الاستثنائية . فقد جربت الإنسانية حلولاً أخرى أدت إلى حواقب وخيمة خلقياً واجتماعياً . وأباح الإسلام نظام التعدد ، ووضع في تطبيقه قيوداً كانت أقصى ما يمكن من الاحياط (٢) .

(١) محمد أبو زهرة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ .

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٨٨١ .

ونظروا له ايضاً

السلام الملكي والإسلام . الطبعة الأولى . مكتبة ربه خلدون الجمهورية (البرلمان والاساقفة)
صاحبين القاهرة . وقد طبع في إسهاب موشوع تعدد الزوجات في فصل عنوانه وسلام
البيت .

زوجات السلاطين :

ارتاحت للغاية السليمى من سلاطين الدولة العثمانية إلى مبدأ تعدد الزوجات وللأسف جاهد به الإسلام ، والتزموا بالشرط المسمى الذى ورد فى القرآن الكريم ، وهو ألا يحتفظ الزوج بأكثر من أربع زوجات فى وقت واحد . وليس معنى ذلك أن جميع السلاطين تزوجوا أربع زوجات ، بل لأنهم تزوجوا أكثر من زوجة واحدة ، تزوجوا ثنى ، أو ثلاث ، أو رباع . . ولكن المهم أنهم لم يشخطوا بأى حال لحد الأقصى لتعدد الزوجات المقرر فى الشريعة الإسلامية . وكانت هؤلاء الزوجات أميرات مسلمات ومسيحيات ، وكذلك حرائر ، وحسن حرائر ، ومن حرائر ، بمعنى آتت لم يقمن فى حيلتين فى الأسر ، ولم يحتفظن أحد من تيجار الرقيق ، ولم يحصل طين للسلاطين من طريق الشراء بالمال أو الهدايا . وقد تزوجهن السلاطين بمقتضى زواج شرعية . وقد نتج هذا التبع السلاطين السبعة الأوائل اجدده من حثان الأول وانتهام بالسلاطين محمد القاتع (١) . وقد حكم هؤلاء السلاطين السبعة حقاً بلفت زهاء مائة واثنين وعشرين عاماً (١٢٩٩ - ١٤٨١) (٢) . ولكن حدث بعد ذلك

(١) كان هؤلاء السلاطين السبعة هم :

عثمان الأول (١٢٩٩-١٣٢٦)

أورخان بن عثمان (١٣٢٦-١٣٦٠)

مراد الأول ابن أورخان (١٣٦٠-١٣٨٩)

أبى يزيد الأول للشورى باسم يثيرون أى الجوق ، (١٣٨٩-١٤٠٢) وهو ابن مراد الأول

محمد الأول بن أبى يزيد الأول (١٤٠٣-١٤٢١)

مراد الثاني ابن محمد الأول (١٤٢١-١٤٥١)

محمد القاتع ابن مراد الثاني (١٤٥١-١٤٨١)

(٢) يستبعد بعض الباحثين من هذه الحقب الفترة التى أعقبت حريمه السلاطين أبى يزيد الأول

حتى يه للمول بقبيلة تيمور الأهرج فى معركة أقره فى اليوم العشرين من شهر يونيو-سبتمبر -

عام ١٤٠٢ ودمر السلاطين فى الأسر . وقد ظل يرست فى أغلاده حتى وافته الأجل فى السنة التالية ،

ثم نشوب الحرب الأهلية بين أبناء السلاطين أبى يزيد الأول ومحمى ، وعبد ، وسليمان ،

وموسى ، بسبب تنافسهم على العرش . واستطاعت هذه الحرب الأهلية زهد إحدى عشرة سنة

(١٤٠٣-١٤١٢) وانتهت بانتصار محمد حرقى كهرلة ، وقد عرفه باسم السلاطين محمد الأول =

أن جميع السلاطين الذين حكموا الدولة بعد محمد الفاتح قد نبأوا نبأاً تاماً الزواج من السراة بمقود زواج شرعية وانصرفوا إلى الجوارى الحسنات اللاتي كان يعرج بين القصر السلطاني (١) . وسنعرض لموضوع الجوارى في هذا الفصل .

ولذا كان أولئك السلاطين السبعة الأوائل قد التزموا بالشرط المسمى لتعدد الزوجات ، إلا أنهم أهفوا الشرط الآخر ، وهو إقامة العدل بين الزوجات . كان لكل سلطنة وضع محدد ومقرر في البروتوكول العثماني . وهذا المركز يختلف علواً وهبوطاً عن مركز زميلاتها . فالسلطنة التي تتجب ولداً تميز عن زميلتها التي تتجب بنتاً . ويتبع هذا التميز تميزاً أكثر في المخصصات المالية التي ترصد لكل سلطنة . وفي المادة تظهر السلطنة والدة الإبن برحابة وتقدير يفوقان الرعاية والتقدير اللذين تحظى بهما زميلاتها على أساس أن ابنتها هو ولي العهد . ولكن فيما هنا ذلك تقريباً كانت كل سلطنة تقسم في جناح خاص بها في الحرم السلطاني . كما كانت لكل سلطنة حاشية خاصة بها تضم ميولات وفتيات تخدم على عطاها . وكانت هذه الحاشية تقسم حلداً معيناً من الخصيان ورئيساً لم يسمى أغا الطواشية أو أغا الخصيان ، يقوم فريق مهم بخدمة الزوجة بينما يقوم فريق آخر منهم بحراسة الجناح وبواباته والمساكن المؤدية إليه . وكان يبلغ عدد هؤلاء الحراس أربعين شخصاً . أما الأغا فيتقرب غيات السلطنة أو أومارها ، فيقبلها إلى السلطان في الحالة الأولى ، وإلى الصدر الأعظم في الحالة الثانية .

«وسى أيضاً السلطان عبد قدير . ويخلص هذا الفريق من الهاتين رأياً إلى وجوب استبعاد فترة تلك الحرب الأهلية من هذا الخطب .

انظر ١ : ذكرهم به الوزير محمد كشتلي : «أوردوا في مطلع آتبع ، مرجع سبق ذكره » ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ٦٢١ - ٦٢٢ .

(١) يستثنى من هذا الحكم الشام سلطنتان قديماً فحكم في النصف الأول من القرن السابع عشر كروجا بقرود زواج فرعية نسوة من عدة للسنيين . وكانت واحدة منهن جارية فأقطع

الإسلام والزواج من الكتائيات :

يجز الإسلام المسلم أن يتزوج الكتائية ، سواء كانت يهودية أو مسيحية . وقد جاء في القرآن الكريم : اليوم أحل لكم الطيبات (١) ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل (٢) لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات (٣) من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتهم من أجورهن (٤) محصين (٥) غير مسافحين (٦) ولا متغلبين أغصاب (٧) ، ومن يكفر بالإيمان (٨) فقد حبط عمله (٩) ، وهو في الآخرة من الخاسرين (١٠) . وهذه الآية القرآنية الكريمة تذكر الطيبات الحرائر من الكتائيات جنباً إلى جنب مع الطيبات الحرائر من المسلمين . وهي مملحة لا يفيض بها إلا الإسلام من بين سائر الأديان (١١) . كما أن هذه الآية الكريمة تشترط لزواج المسلم من الكتائية أن يرفع لها المهر . وأن تكون البتة لدى الزوج هي الإحفاف والإحصان الذي يخص به الرجل زوجته ويقبها رلات الحياة ، فلا يكون المهر وسيلة إلى اتخاذ الزوجة صبيحة سرّاً يمارس معها السفاح .

(١) الطيبات مع طيب ، وهو ضد الخبث .

(٢) حل لكم أي طهركم .

(٣) المحصنات من الحرائر الطيبات من الزنا .

(٤) أوتوهن أي جودهن .

(٥) محصين أي صيغين . مشتقة من أحسن أي صف .

(٦) مسافحين أي زائلي ومجاهدين الزنا .

(٧) أغصاب مع غصب (يكرس الله وسكون الحال) أي الصلح في السر على وزن حمل وأحال . وتستخدم تلك اللفظة للدلالة على الذكر كالأثم . والنسب : ولا متغلبين صديقات سرّاً .

(٨) يكفر بالإيمان : فطه الآية الكريمة : ترائع الإسلام .

(٩) حبط عمله أي بطل ثوابه .

(١٠) سورة المائدة : آية رقم ٥

(١١) إن المسيحي الكاثوليكي يصح من الزواج بالوثنية أو البروتستانتية أو بأية فئة تحت طابعاً مسيحياً آخر . ولا يقدم على ذلك إلا القسوس معصم من عقوبة .

انظر :

سيد قلب : في هلال القرآن ، مرجع سيد ذكره ١ ج ٦ ص ٣٢

وقد وضع عليه الشريعة عدة مبادئ فيما يخص بالزواج من الكليات
نذكر من بينها :

- ١ - أن يكون جميع الأولاد مسلمين بدون فرق بين الذكور والإناث .
- ٢ - عدم التوارث بين الزوجين إذا مات أحدهما ، لأن شرط إرث المسلم الحمد الدين . أما الأولاد فغريون وللمسلم ولا يرثون والذم .
- ٣ - يكون الزوجة الكاتبة كل حقوق الزوجة المسلمة ، وعليها كل واجباتها نحو زوجها وأولادها فيما هذا التوارث (١) .

ولذا كان الإسلام قد حرم زواج المسلم من الوثنية وأجاز زواجه من الكاتبة ، فلأن الكاتبة تنفق مع المسلم في كل الفضائل الخلقية والاجتماعية ، لأن الأديان السماوية في أصلها واحد . ومن الممكن أن تستمر الفسرة الزوجية بينها معتدلة من غير استواء . وكان الرجل الأول من الصحابة لا يتحسس الزواج من الكاتبات ، وإن كانت كل حادثة منهم قد أقدمت على الزواج من . ونذكر على سبيل المثال طلحة بن عبيد الله وكان حرم من الخطاب رضي الله عنه ينهى عن الزواج من الكاتبات إلا إذا كان الزواج يستهدف فرغاً سامياً كارتباط سياسي بجمع القلوب ويؤكد فيها أو نحو ذلك (٢) ويرى بعض الفقهاء أن الأفضل ألا يتزوج المسلم إلا مسلمة لقيام الألفة من كل وجه (٣) .

وحل الرخم من أن الإسلام يجعل الرجل قواماً حل زوجته في كل ما يحقق صالح الأسرة والصالح العام ، إلا أنه لا يميز للمسلم المتزوج كاتبة أن يرغمها حل ترك دينها ، كما لا يميز له أن يتمتع من أداء عبادتها وشعائر دينها ، بل إن بعض أصحاب المذاهب الفقهية الإسلامية يرون أنه ينبغي عليه أن يصحبها إلى حيث تودع هذه العبادات في كنيستها أو يبعثها إذا رغبت في ذلك (٤) .

(١) محمد أبو زهرة ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٤

(٣) المرجع السابق ، ذات الصفحة .

(٤) الدكتور علي عبد الواحد وافي : الحرية في الإسلام ، دار الشارف ، القاهرة ، ١٩٦٨

البواش السياسية والعسكرية وواد زواج السلاطين من الكنائيات الأجنبية :

عند حند كبر من سلاطين الدولة إلى الزواج من الكنائيات الأجنبية. ونقصد بهن في هذه الدراسة المسيحيات اللاتي لم يكن من رعايا الدولة العثمانية. فكان الخرم الحظاتي في أهل مراتبه يهن غالباً زوجة كاتبة أجنبية إلى جانب الزوجات العثمانيات المسلمات . وقد بدأت ظاهرة الزواج من الكنائيات الأجنبية منذ نشوء الدولة العثمانية على عهد عثمان الأول (١٢٩٩ - ١٣٢٦) التي تنسب الدولة والأمة إليه . فقد رأى عثمان أن إمارته أو دولته تحيط بها كيانات سياسية إسلامية ومسيحية معادية تترصد بالعثمانيين الدوائر . وأراد تجنب إمارته مواجهة حرية ضد تكتلات إقليمية عسكرية . وأدرك أنه لا يستطيع - بالإمكانات المحدودة التي لديه - ممارسة سياسة التوسع الإقليمي المرحلي للدولة التي يتطلع إلى تكوينها ، فإمارته ذات تعداد سكاني قليل . فلجأ إلى وسائل متعددة سبق أن عرضنا طرفاً منها (١) . وكان من بينها مصاهرة الدول أو الكيانات السياسية المجاورة أو الخاضعة . فاختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية من قيليقيا (٢) ، ورشح سيدة يونانية مسيحية رائدة الجلال زوجة لابته أورخان (٣) وكان يطلق عليها نيلوفير *Nemahar* أو *Nilüfer* ومعناها زهرة القوس (٤) . وقد وضع هذان الماهلان تقليداً للبنين والحفنة من أعضاء الأسرة العثمانية الحاكمة وهو الزواج من الكنائيات الأجنبية (٥) . وقد أنجب السلطان أورخان من تلك السيدة اليونانية ابناً تولى العرش من

(١) انظر ص ٤٠ في هذه الدراسة .

(٢) تسمى أرمينيا الصغرى ، وهي دولة مسيحية .

(٣) يقال إن عثمان أسر هذه السيدة في إحدى حروب ، وحبس على المسيحية .

(٤) *Lybyer A.H.; op. cit., p. 17* .

(٥) من دلائل ميل السلطان أورخان إلى التوسع في تحقيق سياسة الزواج من الكنائيات الأجنبية بين أعضاء الأسرة العثمانية الخلافة أنه في سلطنة سكوتاري *Scutari* (١٣٥٩) التي حكمت به رين سنا بالبولج (إبراهيم الدولة البرقنية) قرر أن يتزوج خديج ابن السلطان أورخان من ابنة الإمبراطور سنا بالبولج . وكانت تبلغ من العمر عشر سنوات . ويبدو أن هذا الزواج قد أودج في سلب السلطنة عبقاً لتفليها ، لأنها أبرمت أصلاً على أساس احترام الدولة البرقنية بفرصات الدولة العثمانية في إقليم ترانسيا في البلدان

بعله باسم السلطان مراد الأول (١٣٥٩ - ١٣٨٩) . وقد حطاً هذا السلطان
 حلقو أبيه وجده ، فزوج من ابنة ملك بلغاريا المسمى ميشاك *Michak*
 بعد أن طوّقه الصربانيون في تيغويوليس على نهر المانوب . ولوقضى هذا
 الملك أن يدفع الجزية الصربانيين وأن يزوج ابنته للسلطان مراد الأول (١) .
 ولما تولى العرش السلطان أبو يزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) أراد أن يتخذ
 من دولة الصرب ، أو بعبارة أدق ما تبقى منها ، دولة حليفة له كي يحمل
 منها دولة حليزة *un des tempes* بينه وبين دولة المجر ، إذ كان
 يخشى أن تنهز هذه الدولة لمرصة انشغاله في الجبهة الأناضولية فتسير على
 الأقاليم الصربية في البلقان . فزوج من أوليفيرا *Oliviera* ابنة ملك
 الصرب لازار *Lazar* الذي كان الصربانيون قد دمّروه عقب معركة
 قوصوه الأولى *Kosovo* عام ١٣٨٩ رداً على قيام صربي يدعى كوييلتش
 ميلوش *K. Milosh* بقتل السلطان مراد الأول (٢) وتمشيّاً مع
 السياسة الودية التي انتهجها أبو يزيد الأول ابن السلطان القليل واتفق أبو يزيد
 على أن يحكم بلاد الصرب ابنا الملك لازار ، حسب قوانين الصرب وعاداتهم
 وتقاليدهم ، ويلتزم له بالولاء ويقدمان له جزية سنوية وحلداً معيناً من الجلود
 يشتركون في فرق خاصة بهم إلى جانب الجيش الصربي . واتخذ خطوات
 أخرى لاسترضائهما (٣) بجانب زواجه من أختها أوليفيرا . وسار على هذا

(١) ذكره عبد العزيز محمد القسطنطيني : أوروبا في مطلع أئح ، مرجع سبق ذكره ،

ج ١ ، الصفحة الأولى ، من ص ٥٩٩ - ٦٠٠

(٢) بهذا كان السلطان مراد الأول يتخذه ميثاق القتال بعد المعركة إذا به يمر صرباً
 ويموت لسانه في الخصر حفر من شهر يوليو - حزيران - عام ١٣٨٩ إذ تقدم منه هذا الصربي ،
 وكان قد أصيب بجراح في أثناء المعركة وأراد أن يستقم عزمة بلده . وظن السلطان مراد أن
 لديه شكوى فسبح له بالقدم تحفه فطسه بخنجر . وقد نكّل الصربانيون جهوراً جبلة حتى استطاعوا
 أسر لازار ملك الصرب وحده كثير من القبلاء . وصدرت الأوامر بأنهم جميعاً أمام سجنان
 السلطان مراد الأول المسجون في ساحة القتال

انظر :

ذكره عبد العزيز محمد القسطنطيني : أوروبا في مطلع أئح ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ،

الصفحة الأولى ، من ص ٦٠٦ - ٦٠٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١٠

النج - الزواج من الكنايات الأجنبية - السلطان مراد الثاني (١٤٢١-
 ١٤٥١) فقد تزوج من مارا *Mara* ابنة أمير الصرب جورج
 رانكوفتش *G. Brankovitch* . وكانت هذه ترقية من
 التزجبات السياسية التابعة للقبيلة التي أثمرت ثماراً طيبة في مجال العلاقات
 الدولية فقد كانت سبباً في توليق حري التحالف بين الدولة العثمانية
 ودولة الصرب التي امتدت من تقديم أية مساعدة للقائد حنا حنيادى (١)
J. Hanyada حين زحف في أواخر صيف - - أيلول - - عام ١٤٤٨
 على رأس جيش يتكون من ٢٥,٠٠٠ رجل من الألمان وسكان والاشيا
 وبوهيميا والمجر وترانسلفانيا . وأدخل في تحديده ثألياً عسكرياً يظفر
 به من الصرب . ولكن خدعت تحديراته . وزحف مراد الثاني وهو يقود
 جيشاً بلغ حمله خمس ألف جندي وتقابل مع القوات المتعددة في سهل
 قوصوه في ١٧ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٤٤٨ واستمرت المعركة
 ثلاثة أيام صوما . وانتهت في ١٩ من ذات الشهر بعوز ساحق للعثمانيين
 الذين اقتحموا معسكر حنيادى فهرب ، وحاول أن يثقل طريقه عبر البنادوب
 فوقع في أيدي أعدائه للصرب . ولا توفى السلطان مراد الثاني بالسكة القلبية
 في اليوم الخامس من شهر فبراير - شباط - عام ١٤٥١ خلفه ابنه السلطان
 محمد الثاني أو القديح (١٤٥١ - ١٤٨١) ، وكليجراه أمين داخل أمر بتحويل

(١) حنا حنيادى ابن غير فرسى ملك المجر سيجسموند ، ألجبه من سيدة مجرية . وعين
 ساعداً لإقليم ترانسلفانيا المجرية . وأظهر صفات حربية ممتازة في عدة المعارك، حين كانوا يتغلزون
 في ترانسلفانيا . وأصبح حفيد الأوماط الروسية والصربية في أوروبا، وازداد امتداداً بنسبه
 وحزراً واستمداداً، وأخذ من عائلته هذه الكفاح عن المسيحية والصنعية العثمانية، وبلغت الشهادة
 حركة الجهاد التي تصمدوا . وقد توقع يالينيكين عدة جرائم متلاحقة ، ثم انصهر العثمانيون
 معه في معركة فلرنا *Varna* في اليوم الخامس من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٤٤٤
 وقتلوا فيها القائد لفلرنا ملك المجر . وقد حكم حنيادى بلاد المجر بعد مصرع ملكها باسم ابنة القاصر .
 نظر :

دكتور عبد الحميد محمد قشلاوي : أوروبا في مطلع النج . مرجع سبق ذكره ، ج ١ ،
 الطبعة الأولى ، ص ١٣١-١٣٥

زوجة أبيه - مارا - إلى موطنها الأصلي في الصرب كي يأمن شر النعمانس التي قد تمككها صده في أوساط الحريم السلطاني وكانت والدة السلطان محمد الثالث (١٥٩٦ - ١٦٠٣) قد جرى بها من البنتقية . وهناك مثال آخر صارخ ، فإن ميمنة يونانية زوجت السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) وأنجبت منه ولدين ربما على عرش الدولة العوليد بعد الآخر ، وهما . راد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) وإبراهيم الأول (١٦٤٠ - ١٦٤٨) . ويطول بنا الحديث إذا مصينا في ذكر الزوجات الكتائيات الأجنبية اللاتي زوجن سلاطين الدولة . ونكتفي هنا بذكر الحقائق التالية ونعصر النتائج التي ترتبت عليها :

أولاً : إن الغالبية العظمى من السلاطين أقبلوا على مثل هذه التزيمات بحيث ندر من السلاطين من لم يندخل في حريمه زوجة كتائية أجنبية . وقد أصبحت هذه التزيمات تقليداً دوج عليه سلاطين الفترة الأولى وسلاطين الفترة الثانية .

ثانياً : إن سلاطين الفترة الأولى كان لهم من قوة الشخصية ومضاء المبرعة والانكباب على قصرهم شئون الدولة ما يجعل زوجة كل منهم تأخذ حجمها الطبيعي فقط كزوجة للسلطان ، فلا تتدخل في شئون الدولة ولا تمارس نفوذاً على الصلبر الأعظم والزواء وعلى غيرهم من كبار رجال الدولة . أما سلاطين الفترة الثانية فإن غالبيتهم قد خضعوا خضوعاً كامداً يكون تاماً لأولئك الزوجات . حتى أصبحن مركز قوة خطير . وكان بعض هؤلاء الزوجات يتسلطن في السياسة العليا للدولة ويوجهنها الوجهة التي تردها . وهكذا استفضل خطر أولئك الزوجات وتركبن بصانهن بارزة قوية في تاريخ الدولة .

ثالثاً : إن زواج سلاطين الفترة الأولى بالكتائيات الأجنبية كان يتم في ظروف متباينة وللهوابع غصلفة بحيث كان لكل زواج ملامسته ودوافعه . كان بعض السلاطين يطليون أو يسون لمصاهرة أسرة حاكمة في دولة مجاورة توثيقاً لعلاقات حسن الجوار . وكان البعض الآخر يتزوجون الكتائية الأجنبية

تنبهاً لبند في المعاهدة التي فرضوها على دولة أوروبية مزمنة كضمان لتسهيل
 بؤد المعاهدة . وكان البعض الثالث يتزوج الكناية الأجنبية كظهور على
 التحالف العسكري الذي تعقده الدولة العثمانية مع دولة أخرى تنتمي إليها
 الزوجة الكناية أو على الأقل لتلزم حكومتها بموقف الحيدة في حرب تضمن
 للدولة خوضها ضد أحلاف صليبية أوروبية تكونت لفضاء على الدولة
 العثمانية . ولذلك كانت تنطب البواعث السياسية أو العسكرية على معظم هذه
 الترتيبات .

وأخيراً : إن عدداً من الزوجات الكنايات الأجنبية اعتنقن الإسلام
 بمجرد التحاقهن بالحرم السلطاني . وظل عدد آخر منهن على المسيحية موافقة
 أزواجهن السلاطين ببقاء على مشارف الأمصار الجبلية وضماناً لتحقيق الأهداف
 السياسية أو الحربية التي كانت وراء زواج السلاطين بهن . ومع ذلك فإن
 أولئك الزوجات كن يمتلطن في الإسلام بعد فترة قد تطول حيناً وقد تقصر
 أحياناً أخرى تبعاً للعلاقات السياسية وتطورها بين الدولة العثمانية والدولة
 الأجنبية التي تنتمي إليها الزوجة الكناية الأجنبية .

مختصاً : إن بعض الزوجات الكنايات كن يتظاهرن باقتناع الإسلام ،
 ويتظاهرن بحب أزواجهن السلاطين ، ويتظاهرن بولائهن للدولة العثمانية .
 ولكن كانت كل منهن تخفي بين ضلوحها حباً وولاء لوطها الأول ، وقصد
 على تنفيذ برنامج من وحى حكومة بلادها لتحقيق مصالح وطنها الأول ،
 حتى ولو كان هذا البرنامج يتطوى على الإصرار بمصالح الدولة العثمانية .
 التي جعلت منها سلطنة لأكبر دولة إسلامية ومن كبرى دول العالم .

الإسلام والجولوى :

المجارية ، في الشريعة الإسلامية ، هي كل امرأة أخطت أسيرة في
 الحرب ، أو نقلت قسراً من بلاد العدو بشرط أن تكون غير مسلمة ،
 لأنه لا يجوز ، لأي سبب من الأسباب ، أن تنسب المسلمة وتسلم ، أو هي
 التي تنجبها أمة محكومة ، ويكون أبوها حيداً ، أو غير مالك لها ، مسلمة كانت
 أو كناية . أو هي التي تؤخذ شراء من أسواق الرقيق حيث يبيعها المخاضون .

وهؤلاء ليس يؤمنهم استرقاق المسلمين أو الكنائيات فلا تنحرف أصولهم إلى ديار الإسلام . وإنما يأتون بالرقائق من البلاد غير الإسلامية ، ويتاجرون به ، لأن الإسلام حرم النبي منذ قصاته على عادة الغزو المتأصلة في نفوس البدو .

ومن الثابت أن العرب قبل الإسلام حرفوا نظام الجوارى . وكان لأغرياء قريش وزعمائها جند من الجوارى انصرفوا إلى الفناء أو الأعمال التي قامت بها الجوارى بعد ذلك في قصور المسلمين . ولا جاء الإسلام أغلق جميع أبواب الرق بالنسبة للرجال والمهملات ما حدا رقى الحرب ، فقد أبى عليه الضرورة ، كما سوضح ذلك في الفصل الثاني والعشرين الخامس بالعبيد المخصيان . وكانت الفتوح الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام فرصة مواتية للحصول على قتلتين العرب على أطلال وغيرة جداً من الجوارى ، لأن العرب إذا دخلوا مدينة حنة ، ولم تكن قد وضعت شروط للفتح ، كانوا يمتدرون المدينة المفتوحة حنة ملكاً لهم بما فيها من أرض ومن عليها من عمارين وشيوخ وساء وأطفال . وكانوا يتصرفون بهم تصرف المالك . ولصيح كل من تقع في أيديهم من نساء الممارين وبناتهم إماء لم يقتلن معهم إلى بلادهم مع الأسلاب الأخرى . ويوزعونهم بينهم بعد أن يقدموا النسبة المقررة إلى الخليفة أو بيت المال وهي الخمس ، ويحولون ما يتبقى منهم إلى منازلهم . وقد برزت هذه الظاهرة بصورة واضحة وساحقة على عهد الدولة الأموية . وكان العرب قد اناسحوا غرباً في شالي إفريقية والأندلس وجنوبي فرنسا ، وشرقاً نحو الهند وما وراءها . ويقال إن موسى ابن نصير فاتح المغرب والأندلس لما عاد إلى دمشق كانت معه جموع كثيرة للمسلمين بلغت حنة آلاف من عذارى المائلات القوطية البيلة (١) . ثم اشتعلت ظاهرة الجوارى بروزاً على عهد الدولة العباسية . ولما هدأت حركة الفتوح الإسلامية اتجه حكام المسلمين وأرسلوهم إلى الحصول على

(١) دكتور جود حة الفتوح : الجوارى . التاريخ دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة

الثانية ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

الجوارى عن طريق الشراء من تجار الخلفة بأثمان باهظة . وكانت قصور دمشق وفسلاد والقنطاط وعواصم مصر الإسلامية الأخرى التي تعاقب إنشائها وكذلك قصور قرطبة وإشبيلية وغيرها عليها بالجوارى لقنانات . وقد حفلت حياتهن بالترف : كن يرتدين الثقب من الملايس ، ويتفنن في الثريزة ، وفي تطبير أجسامهن ، وإراز علسها ، ويتناولن أشهى الأطعمة ، ويضفرون بقدر كبير من الإعزاز والإكرام . ومن أجلهن أهدرت الأموال . وقيل حين تغيير لادع يصور جانياً كبيراً من الحقيقة ، فأطلق عليهن « سلع الجمال والمثمة » .

وكان مدمن يعوق عدد السيلات الحرار في هذه القصور . وهكذا تسربت الجوارى الحسان إلى بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والقادة العسكريين ومنازل الأثرياء . وكانت غالبية الجوارى يمارسن ألواناً من فنون النشاط وبث الموح في قلوب أسيادهن بما يقضه من الرقص والفناء (١) ، وسيطرن على عقول مواليهن حتى اتقادوا لهن وأصبحوا أداة طيعة في أيديهن . وحاول بعض الخلفاء الأمويين ولا سيما معاوية إقصاء الجوارى عن التعود وحصرهن في الخلدور حتى لا يتطلون إلى السلطة . وذهب لتحفظ بالأشياخ المترفين إلى الخط من أبناء الجوارى ونصحوهم بالابتعاد عنهم لأنهم يفسدن العرق العربي . ونظر كثير من هؤلاء إلى المعجزة (٢) فطرة أمهان أول الأمر . وكان من بينهم أبناء خلفاء وأشراف . وقد نجبت هذه الكرامية على تعاقب السنين . وأقبل العرب إقبالا شديداً على الزواج من الجوارى الحسان . وكانت هناك عدة عوامل وراء هذا الإقبال المتزايد ، منها : اعتقاد العرب أن رواجهم من الجوارى يؤدى إلى إنجاب أولاد أشداء أقوىاء وإلى ظهور أجيال صاعدة تبرز فيها النماء العربية بالنماء الأجنبية ، إذ كانت الجوارى من بلاد شتى من أوروبا وآسيا . وفي الحديث الشريف « اغتربوا لا تفسدوا » (٣) .

(١) كانت مثل قلعة لينة - بفتح اللام وسكون الهمزة - على الأمة البيضاء التي بجده قنطرة .

(٢) المعجزة جمع معجز ، وهو شخص على أيوه عربى وله لمة .

(٣) معنى الولد إذا فسر جسمه وحركه ، فهو شلوى (مفلج) . والقصد - بفتح القاف -

العرب بلون الجوارى المشرق ، وسرهم أن يجيء أبناؤهم على شيء من يبيض البشرة على عكس أبائهم السمر الوجوه أو المائلين إلى السواد . ومن هذه العوامل أيضا انتقال الحلوين العرب من بلد إلى بلد وابتعادهم عن السمريات الخالصات ، ثم كان فوق ذلك كله الميل الجنسي اللينيف نحو جوار فانتات حسانوات الوجوه ، زرق العيون ، ناعمات البشرة ، نظمت فيهن روعة الجسام الأوروبية أو التركية أو الشركسية .

أخط نفوذ الجوارى يشتد في بلاط الخلفاء . وكن أقرب النساء إلى قلوبهم ، وتدخلن في شئون الدولة ، وأصبحن المرجع الرئيسى في كثير من المسائل الحفلة . وكان الخلفاء يستجيون لرضائهن أو نوحتهن أو أوامرهن . وقمن بأدوار حاصلة في تاريخ المباسين بحيث غidon مركز قوة خطير . وكان هادون الرشيد أول من أسرف من المباسين في تقريب الجوارى إليه ، بل وفى تقصيلهن على الخرائر . وكان معظم أولاده من الإماء (١) . وأصبحت الجوارى

سوتديما رضع القلوب - هو الخزال . وكان العرب يعتقدون أن ولد الرجل من لحيته يجيء غالبا أمها

(١) كان منهم :

- ١- عبد الله المأمون ، كانت أمه جارية قزمية ، يقال لها مراميل ، وأصبحت أم ولد .
- ب - القاسم الملقب ، كانت أمه جارية ، يقال لها قصص ، وأصبحت أم ولد .
- ج - عبد أبو إسحاق النعمان ، كانت أمه جارية تركية ، يقال لها عرفة ، وأصبحت أم ولد . وكانت أكثر الإماء خطرا . أثرت تأثيرا كبيرا على ابنها المأمون الثلاثة وذهبت له استعداد الأثر ذلك ، ودفنوا المنصب القبلية في أجرة الدولة على حساب العرب والفرس وانزعوا من الخلفاء كل نفوذ .

- د - صالح ، أمه جارية ، يقال لها وتم ، وأصبحت أم ولد .
- هـ - عبد أبو حمزة ، أمه جارية يقال لها عرابة ، وأصبحت أم ولد .
- و - عبد أبو يقرب ، أمه جارية ، يقال لها علفة ، وأصبحت أم ولد .
- ز - عبد أبو عيسى ، أمه جارية ، يقال لها محبت ، وأصبحت أم ولد .
- ح - عبد أبو سليمان ، أمه جارية ، يقال لها رضع ، وأصبحت أم ولد .
- ط - عبد أبو بل ، أمه جارية ، يقال لها دواج ، وأصبحت أم ولد .
- ي - عبد أبو أحمد ، أمه جارية ، يقال لها كنان ، وأصبحت أم ولد .

أنظر :

الجوارى أبو جعفر محمد بن جرير : تلويح الأمم والملوك . ج ٦ ، ص ١١٠

في تنفيذ المؤامرات التي كانت تمكك في بلاد الخلفاء تلحق خليفة والمبين
أكثر .

وكما كانت الجوارى مصلحات المسافر والأجانب والأقارب ، مضاربات
في الجبال ، كن أيضاً مخلفات في المدن . إذ كن يخصص عامة إلى الإسلام أو
المسيحية أو اليهودية أو المجوسية أو الوثنية . أما الميوسيات والوثنيات فكان
يدخلن في الإسلام . ونحو ذلك خالية المسيحيات واليهوديات أيضاً إلى الإسلام
أو تظاهرن بالدخول في الإسلام حرصاً على مصلحتهن أو تخلاً لأسيادهن
الذين كانوا يجررون بهن فزوج منهن زواجا شريفاً ، لأن اختلاف
الزوجين في الدين كان - كما ذكرنا - يمنع أن يرث أحدهما الآخر . أما
الجوارى الثلاثي يدين في الرق فكان يحافظن في أغلب الأحيان على دينهن
الأول . وكان أسيادهن يقبلون هذا الوضع ولا يكرهونهن على اعتناق
الإسلام ، وأكثر من هذا كانوا يسمحون لمن بالقيام بالطقوس الدينية في
الأعياد والمناسبات الدينية . وكان المتهربون إلى الخليفة المأمون يدخلون مجلسه
فيجلون صدى من الجوارى الروميات وقد تمتلطن بالزناير^(٢) وحلقن على
صلورهن صلباً من الذهب ، ولمسكن في أياهن الخوص بمناسبة عيد

(١) من الألفاظ التي نالت في هذا الصدد ما حدث على عهد الخليفة المقتدر . فقد لول الخلافة
بمساعدة الأمراء . وكان لا يزال صبياً في الثالثة عشرة من عمره . واضطروا أن في جنودهم
البطرة عليه وعلمة شدة القوة بانه لصره ونسب شخصيه . ولكنهم لم يجروا برائته
وكانت جارية رومية أصبحت أم ولد ، فطغر بالثروة وتصرف في شؤون الدولة بحزم وكفاية
مئة ربح قرن ، وهي أطول مدة تولت فيها أحد هكسين الحكم وحظك . وعرض الخليفة للول
مربعين . ووقعت أنه إلى جانب تلك مصلحتها وتضع الخط لإعادته إلى كرسى الخلافة إلى أن أصبح
الكصور في قبضته .

وكانت هناك جارية أخرى من فبركر خلقت مركز قوة في الدولة أيام الخلفيين المفل
والمتنكر . وسعت في إفساد الأول من الخلافة وحرفت خلاصا السعي على سبل عليه بظنة
جنبه عاية به أن لطاف التواد من علم لقاء عليه . وأرادت أن تسير على الخليفة الثاني ، ولكنه
رفض أن يجمع لها أية فرصة للعمل في شؤون الدولة ، فاستطاعت له البند من المكافاة إلى أن
تجست في قلبه عليه .

(٢) الزناير جمع زائر وهو قصير . يقال زائر قصير إلى أنه قد زائر على وجهه .
وزلزه بالتهديد إليه الزائر .

الشمانيين ، ومن في غاية البهجة والمرح . والخليفة المأمون ينظر إليهم دون أن يتعرض عليهم (١) . فمن الخطأ القول إن المسلمين أكرهوا الجواريم على اعتناق الإسلام . وقد ذهب بعض حكماء المسلمين إلى أبعد من هذا الحد في التسامح الديني . فبنى أحلمهم ، وهو الأمير خالد بن عبد الله القسري عامل العراق للأُمويين كنيسة خاصة لوالدته المسيحية ، إذ لم تكن في زمانها كنيسة لروم الملكيين في الكوفة ، وبنى حولها حوانيت بالأجر والبص (٢) .

وكان يحدث أن بعض الخوارج كن يقتلن لأزواجهن علناً من الجوارى القاتلات من ملوك الخاص فعند ما هام هارون الرشيد حب « دنابر » بجارية جعفر البرمكي . وازداد ترحده عليها فاشترت زوجته زينة عشر جوار حبيبات وأعتنن إليه لينصرف عن المحضى في حب « دنابر » . وكان من بين هؤلاء الجوارى أم المحتشم وأم المأمون وأم صالح . وروى الجبرقي وهو يتحدث عن إحدى زوجات أبيه أنها كانت لصلاحها وكألا وبرها زوجها تشتري له الجوارى الحسن من ملها وتصل على زينهن باللعب وارتناء الملابس الفاخرة وتعلمهن لزوجها طلياً للأجر والواب ١

الدولة العثمانية لم تستحدث نظام الجوارى :

يخلص من هذا العرض إلى حقيقة تاريخية هامة هي أن سلاطين الدولة العثمانية لم يستحدثوا نظام الجوارى في قصورهم ، بل كان هذا النظام قائماً وشائعاً في دول إسلامية كبرى سبقت قيام الدولة العثمانية مثل الدولة الأموية والدولة العباسية والدولة الفاطمية وما تفرع عن هذه الدول لثلاث الكبرى من دول ودويلات وكيانات سياسية مختلفة الأسماء والأنواع سواء في الشرق أو في الغرب .

نكاح الجوارى :

وقد أجاز الإسلام نكاح الجوارى إذا لم يكن في مقدور الرجل نكاح

(١) دكتور جورد عبد القادر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦-٨٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠-٩١

الحرائر لطيف ذات يده وعشى الماشقة في «قالية دوافع القطرة» . والتصريح
للقراءة الكريمة الواردة في سورة النساء تفضل الزواج من الحرائر أولاً ،
ثم تنصح لأسباب قهرية فكاح الجارية . ولكنها تنصح بعدم الالتجاء إلى ذلك ،
لأنه من الخير للرجل عند ربه إذا استطاع أن يصبر عن كاح الجارية ، وإذا
استطاع أن يتألم الشهوة البيمية .

يقول الله سبحانه وتعالى : ومن لم يستطع معكم طولا (١) أن يسكن
المحصنات (٢) المؤمنات ، فمن ما ملكت أيمانكم (٣) من فتياتكم المؤمنات ،
والله أعلم بأيمانكم بعضكم من بعض . فانكحوهن بإذن أهلهن ، وأكثرهن
أجورهن بالمأروف ، محصنات غير مسلمات (٤) ولا متحملات أعتدان (٥) .
إذا أحسن فإن أتين بفاحشة (٦) فليكن تصدق ما على المحصنات من العذاب ،
ذلك لمن خشى الفتنة (٧) منكم ، وأن تصبروا خير لكم (٨) ، والله غفور
رحيم . يريد الله ليس لكم ، ويهديكم سنن (٩) الذين من قبلكم ويحبب إليكم
والله عليم حكيم (١٠) .

والخاصة المستفادة من هاتين الآيتين الكريمتين أن الزواج من الجارية أو

(١) مدة في المال وأمره الزيادة والتفضل . يقال طال كل فلان يطول فهو طال إذا تمس
عليه ووفيه مكافأ طياً .

(٢) المحصنات المراد هنا الحرائر المؤمنات .

(٣) أي ملكت أيمانكم من قبله المسلمات في الحروب ولمن أزواج غير مسلمين ، فمن
سائر السابقين .

(٤) مسلمات أي زانيات .

(٥) سيق أن فرسها مخلوق هذه الكلمة في هذا الفصل .

(٦) متاعاً من الزنا .

(٧) الفتنة انكسار الظن في جسم الإنسان بهيجره ، ثم تسببت هذه الفتنة لكل مشقة
وعسر . يقال فتنته فتناً أي وقع في الفتنة .

(٨) أي وقد تصبروا عن الزواج بالزنا سنن تصبروا ثراً فتزوجوا بالحرائر فهو
خير لكم .

(٩) جمع سنة وهي الطريقة .

(١٠) سورة النساء : الآية رقم ٢٥ ، والم رقم ٢٦ .

الأمة ليس هو الزواج الأمثل . وليس ذلك كراهية لنكاح الجارية أو الأمة في ذاته ، ولكن لأن الكثيرين - كما سبق أن ذكرنا - كانوا ينظرون إلى أبناء الجوارى والإماء نظرة أدنى من نظرهم إلى أبناء الحرار ، وهي نظرة منبذة من نظرهم إلى الجوارى والإماء أنفسهم . فإن آدميتين في نظر هذا الفريق من الناس أدنية مهذرة ، أو أسن من الناحية الإنسانية البحتة ما حظت (١) . وقد ذهب بعض علماء الدين إلى القول بأن الشريعة رخصت نكاح الجوارى والإماء الضرورة (٢) .

أوضاع الجوارى في الفقه الإسلامى :

وقد وضع أصحاب المذاهب الفقهية قواعد تنظم أوضاع الجوارى من رق وحق ، ووطء وزواج ، وإنجاب وطلاق ، وغير ذلك من مسائل تتصل بأحوالهن الشخصية . واستندت هذه القواعد بوجه عام إلى آية القرص أمام الجوارى الحق وتفصيل عدد من روايات رقب الجوارى تمهيداً لتلصوب معينه مع الزمن . وبهذا أن نذكر بعض القواعد العامة التى تتصل بهذه الدراسة .

أولاً : إذا وطأ السيد الجارية التى هى ملك يمينه وأنجب منها فتر وضعها القانونى إذ تصبح « أم ولد » (٢) . ولا يجوز له بملكه أن يبيعها أو يهبها أو يتصرف معها أى تصرف يتقل ملكيتها لأخر أو يعوق حريتها . ولا تعود « أم الولد » إلى الرق ، ويصبح أولادها - الذكور والإناث - أحراراً وينسبون لأبهم ويأخذون اسمه ويرثونه نسوة ينسبون وأنسابهم ممن ولدوا من أمهات حرار . وتصبح أم الولد حرة عقب وفاة زوجها فلا يرثها الوارثون أو يستحوذ عليها المالكون . وفى هذا الشأن قال عليه الصلاة والسلام : « أم الولد لا تباع ولا تزوج ، وهى حرة من جميع المال » . ولا تنجب صلوات الله وسلامه عليه ابنة إبراهيم من سريته مارية قال : « أحضها ولدها أى أن إنجابها

(١) سيد شمس : فى فقه القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ١٠٨ .

(٢) ذكره عبد الحميد حيدرى : فى شرح القامح ، ثلاثون جزءاً ، ج ٥ ، ص ١١٤ .

السادة ، القاهرة ، ١٣٩٢ ، ١٩٧٢ ، ص ٦ .

(٣) أم الولد ، مصطلح فقهي ، يصح أمهات الأولاد .

منه هذا الإن جعلها مستحقة للعتق بعد ولادته . واستنكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه المحاولات التي بلطها بعض العرب ليبيع أمهات أولادهم وصاح بهم قائلا : أبعد أن انحططت حماؤكم بلعائين ولحومكم بلعومين تربلون يمين ١ ؟ .

ثانياً : إذا أعتق السيد جاريته ، وحقق عليها ، وتزوجها ، تمتعت بجميع الحقوق الخاصة بالتزوجات الحرار .

ثالثاً : إذا كان الإسلام قد أذن السيد في أن يتسرى بجواريه ، إلا أنه حرص في ذات الوقت على تقليل العقيات التي قد تثقف في سبيل حقهن . ومن ذلك أنه لم يقيد عتد الجوارى الثلاثي بجوز السيد امتلاكهن وتسريحهن . فلما لم يكن له أن يحصل على أي عتد يريد من متى كانت إمكانياته تسمح له بذلك على عكس التقييد المحدث الذي فرضه الإسلام على تمتد الزوجات ، لأن الكثرة العددية الجوارى كانت وسيلة عملية وسريعة وفعالة تؤدي إلى حق الجوارى وحرية أولادهن واتصال نسب الجوارى وأولادهن بالسيد . ومن المعروف أن المنة الجنسية كانت في مقعدة النوافع وراء اقتناء الجوارى . ولا يجوز أن تقيد تلك الوسيلة بقيد حديث ، لأن مثل هذا التقييد يؤدي إلى تضيق مثالب الحرية أمام الجوارى كما يؤدي إلى الإبقاء على أوضاعهن كرتيق . وكذلك لم يقيد الإسلام هذا التسرى بعتد زواج ، ولم يقيد به بإيجاب وقبول ، لأن وسيلة تؤدي إلى حرية الجارية وحرية نسلها لا يصح أن توضع أمامها عقيات أو قيود تجعلها مشروطة بطلع صديق أو إحضار شاهدين على عقد الزواج أو على تسريحها أو أخذ رأيها وموافقها

وتطبيقاً لهذه القواعد العامة فإن معاشره سيد لجاريته وإيجابه منها كانا يؤيدان في الإسلام إلى حقها وحرية جميع نسلها

رابعاً : تميز للشرية بين ثلاثة أنواع من القترش : فرأش قوى لزوجات الحرار ، وفرأش متوسط لأمهات الأولاد . أي الجوارى الثلاثي أجهن من أسيادهن نسل . وفرأش ضعيف للجوارى الثلاثي يتسراهن أسيادهن ولا ينتجن منهم .

خطباً : تشجع الشريعة على حق الرقيق عتقاً خالصاً لوجه الله وتقرّباً إلى الله ، أي دون أن يكون هذا الحق بمثابة كفارة للغيب ارتكبه المسلم كالقتل الخطأ وشبه الخطأ أو الحنث في اليمين وما إلى ذلك . ويسرى هذا الحق لثلاث لوجه الله على الذكور والإناث من الرقيق . وما هو جدير بالذكر أن سلاطين الدولة العثمانية قد درجوا على حق عتد من الجوارى كل عام بعد أن يختاروا من أروابها من كبار موظفي الدولة . وكان السلاطين يحرصون على ألا تفل الجارية في الرق بعد أن تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً كعتد أقصى .

مصادر حصول السلاطين على الجوارى :

كان للقصر السلطاني عروج بأعداد وفيرة من الجوارى الحسن . وكان السلاطين يحصلون عليهم من ثلاثة مصادر : بشرائهم من تجار الرقيق الذين كانوا يمارسون إلى ساحات القتال حين يسمعون أن حرباً أوروبية قد اشتعلت ، ويشترون السيدات والفتيات اللاتي يوقعن سوء الحظ أسيرات في أيدي المتحاربين . وكان أمين جبرك العاصمة يأخذ حطبة للقصر السلطاني من الفتيات اللاتي تراوح أعمارهن بين العاشرة والحادية عشرة . وفي أوقات السلم كان تجار الخمسة في أوروبا وبعض أقاليم من آسيا يمدون إلى خطف البنات لبيعهن . وكن من بلاد شتى : بلاد اليونان ، وجمهورية البندقية ، وألمانيا ، والنمسا ، وبلاد القرم ، والرومية . وكن على حظ مغرور من الجمال . وكان أهل القوقاز قد انجهموا إلى تجارة الرقيق الأبيض نظراً إلى المكسب الكبيرة التي كانت تدرها عليهم هذه التجارة الآدمية . ومنذ نهاية القرن السادس عشر كانت غالبية الجوارى تأتي من القوقاز على يد أولئك للتجار . وكان الإقبال على شرائهم شديداً لأنهم كن يظفرون بعجائب شديدة بسبب جمالهم المفرط (١) . أما المصدر الثالث والأخير فكان الهنايا يتلقاها السلطان . ولم تكن هذه الهنايا سوى جوارى كن آية في الجمال ، يقدمن بعض كبار موظفي الدولة أو حكام بعض الدول الأوروبية بعد أن يكن قد حضرن

دراسات علمية واجتماعية واكتسب مهارات شتى بحيث لم يقل مستوى هؤلاء
الوافدات الجليليات عن مستوى الجليليات اللاتي قضين في الحرم السلطاني
سنتين حداثاً (١).

من هذه المصادر الثلاثة كان السلطان يأخذ حاجته من أولئك الفتيات
ليكون لديه رصيد بشري سائي كبير في الحرم السلطاني بدلاً من المراكز
والتأصب التي تغزو تهاجاً . وكانت أولئك الفتيات في أصولهن الأولى
مسيحيات (٢) ، وفي ذات الوقت كن حرا ، وذات جمال باهر ، ثم وقعن
في الأسر لسبب من الأسباب ، واشترأهن السلطان . وبمجرد التحاقهن
بالقصر السلطاني تتغير أوضاعهن . فيصبحن مسلمات ، ويصبحن جوارى
ملك بين السلطان . ويضن حفته رغباً ، وينتظرهن مستقبل باهر .

مستقبل الجوارى في القصر :

وبمجرد التحاق الجوارى بالقصر السلطاني ، ودخولهن في الإسلام ،
كانت تبدلن في داخل القصر دراسات في الثقافة الدينية الإسلامية وبعض
مواد الثقافة العامة والسلوك الاجتماعي واللغة التركية . وكانت جميع الجوارى
يخضعن في هذه الدراسات . وإذا كان لدى الجارية استعداد عقلي للدراسات
النظرية أضيفت إلى هذه الدراسات مقررات لتعلم اللغة القارسية أو اللغة العربية
بجانب إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية ثم التاريخ الإسلامي والجغرافية .
أما إذا لم يكن لديها استعداد ذهني لهذه الدراسات النظرية فلأنها تتلقى دروساً
في التنظير والحياكة والموسيقى والفناء والرقص . وتتم هذه الدراسات
بكافة نوعياتها في طاقق القنابد الإسلامية . وكانت الجوارى تحتضمن في
مجموعات ، قوام كل مجموعة عشر جوار . وتشرف رئيسة كل مجموعة .
وتغنى الأيام وتزداد الجارية جمالاً في الخلقة ، ورشاقة في الجسم ،
وعمقاً في الثقافة ، وأدباً في الحديث ، وورعاً في الحس . وكان لا بد

(١) D'Oiseau Ignazio Mouradze; op. cit., t. VII, pp 63-64.

(٢) يعني من هؤلاء الفتات أولئك اللاتي يحصل طين السلطان بطريق الفلأيا من كبر
مرافق القصر .

أن يحدد مستقبلها عند من معينة ألقاها الخليفة والعشيرة ، فيعضها السلطان .
ويأذن لها كسيدة حرة في الزواج من أحد كبار العسكريين أو المدنيين . وكان
السلطان هو الذى يختار لها الزوج وتفاخر القصر كما سبق أن ذكرنا . وقد
يحبس البخارية اتياه السلطان إليها ويضعها وتجنب منه والداً أو بنتاً أو أكثر
وتصبح أما لأولاده ويصل مركزها إلى مرتبة تقرب من مرتبة السلطنة .
ويطلق عليها لقب قادين (١) . وعلى ذلك فلأن عبارة « الحريم السلطانى »
كانت تعنى في أحد ملحولاتها المكانية مدرسة لإعداد قادينات السلطان أو
زوجات لكبار موظفى الدولة المدنيين أو العسكريين .

لقادينات السلطان :

ذكرنا أن السلاطين السبعة الأوائل تزوجوا فساء حرائر بقواد زوج
شرعية . وأن السلاطين الذين تعقبوا على عرش الدولة بعد السلطان محمد
القائى قد أطرحوا لإطراحاً تاماً مثل هذه الزوجات ، وأنجهوا إلى جوارى القصر
باعتبار البخارية ملك عيى السلطان ، له أن يطأها وتجنب منه ذكوراً وإناثاً ،
فتصبح أم ولد ويجمع نسلها بالشرعية . أما هى فتبقى عقب وفاة السلطان .
وله أيضاً أن يعقها ويضع عليها ، وتجنب منها .

ولقد اكتفى كل من هؤلاء السلاطين بأربع جوارى من جوارى القصر .
واحتفظ فى ذات الوقت بسائر جواريه ، لأن الشريعة الإسلامية لا نفع
قيداً على عدد الجوارى اللاتى يجوز للرجل المسلم أن يحتفظ بهن ويطأهن .

امتيازات القادينات :

حرم كل سلطان من أولئك السلاطين على أن يرفع « الجوارى »
السابقات الأربع مكاناً هلياً بعد أن أحضهن وتغير وضع كل منهن الاجامى
ومركزها القانونى من مجرد جارية ملك عيى السلطان إلى سيدة يطلق عليها
قادين (٢) *Uno Cadin* ، وكانت القادينات الأربع تظفرن بمسألة تقرب

(١) أنظر مايل

(٢) قادين كلمة تركية معناها سيدة . وفى الأم الأقطب تنقل على سيدة ذات المركز
الاجامى المعنى . ويجمع قادينات . ويورد ذكرها فى المراجع الإنجليزية *Kadin* ويجمع *Kadins*
أما فى المراجع الفرنسية فرد فى بعضها *Cadine* وفى صيغة الجمع *Cadines* . وفى بعض -

من المعاملة التي كانت تقامها السلطانات من حيث الاحترام العميق ، وتحديد
أوضاعهن في البروتوكول العالي ، وتخصيص جناح خاص لكل منهن في
منطقة الحرم السلطاني . فكانت كل قادين تعيش بمنزل من زميلاتها القادينات
الثلاث الأخريات ، ولا يرى بعضهن البعض إلا في الحفلات . فكانت كل
قادين بمثابة سلطنة . كانت لكل من حاشية تقوم على حاشيتها ، وكانت
ترصد احتياجات مالية لكل منهن ، وترتب قوة من الحرس لكل منهن ، وغير
ذلك من امتيازات بحيث كن يشكلن أعلى درجة في الحرم السلطاني باستثناء
والدة السلطان إذا كانت لا تزال على قيد الحياة .

تحديد أوضاع القادينات :

وكان هناك اعتباران في تحديد أوضاع القادينات في البروتوكول العالي .
أحدهما التسمية القادين بين أرباب القادينات . ولذلك كانت تطلق عليهن
ألقاب معينة ، هي : بيوك ، إيكينجي ، أورتينجه ، كجورك (١) . أي الكبرى ،
الثانية ، للوسطى ، الصغرى ، على التوالي . وثانيها ، وهو الأهم ، نوعية الطفل
الذي تنجبه . فإذا أنجبت ولداً للسلطان أطلق على والدته لقب أكثر فخامة ،
وهو « باش قادين » أي كبرة القادينات . ويطلق عليها أيضاً « خاصكي
سلطنة » (٢) *Haseki Sultan* تقريباً لمركزها من مركز السلطنة الحقيقية .
وتصبح السيدة الأولى في القصر بعد والدة السلطان . ويكون ابنها في العادة
ولياً للعهد ويتربع على العرش بعد وفاة والده إذا سارت الأمور سيراً عادياً
ولم يتعرض لأمرات تحاك ضده سواء في القصر أو في اللواثر العليا في
الحكومة المركزية في إسطنبول . وكان يطلق لقب « خاصكي سلطنة » أيضاً
على بنات السلطان من باب التجاوز . أما إذا أنجبت القادين بنتاً فقط أطلق
عليها « خاصكي قادين » *Haseki kadin* أو « خاصكي خاتون »

ملحوظات القارية الأخرى ترد مكتوبة على هذا القصر *La Khatoon* أي « خاتون »
أو « كاتون »

(١) ترد ألقاب هؤلاء القادينات في اللغة التركية مكتوبة بالحروف اللاتينية على هذا النحو :

Buyuk, İkinci, Ortanca, Küçük.

(٢) « خاصكي » مأخوذة من الكلمة العربية « خاص » ويقال إنها مأخوذة من اللغة الفارسية
« خاصكي » بمعنى « خاص » أو « حسن » ومعنى هذا القاب « خاصكي سلطانات » .

ويطلق عليها أيضا « خاصكي كاتون » *Khasaki-katon* ومعناها
والدة ابنة السلطان .

مستقبل القادين إذا صرف السلطان عنها في حياته أو توفي عنها :

وعلى الرغم من الامتيازات التي كانت تتمتع بها القادينات ، فإن مركزهن
لم يكن مستقراً بصفة عامة . فقد يحدث أن يأم السلطان من إحدى القادينات
لسبب من الأسباب . ولا محظ لرأيه في هذه المسائل الشخصية والحساسة ،
فيحصل عنها بسهولة وسرعة ، ويأمر بأن تغادر القادين السراى الجديد .
تقصر الجليد - إلى قصر القديم (١) . وفي هذه الحال يملأ مكانها المشاغر
في الحرم السلطاني بجارية يستقنها السلطان ويرفعها إلى مرتبة قادي .

وإذا توفي السلطان تنتقل قاديناته إلى قصر القديم ما هنا الباش قادين -
كبيرة القادينات - إذا تولى ابنها العرش ، فلها تبقى في القصر الجديد ،
وأكثر من ذلك ، فتدور بين عشية وضحاها ، والدة السلطان الجديد والسيدة
الأولى في القصر ، وتمازس في هذا الموقع تفوقاً كبيراً على الحرم السلطاني
بكافة ميثاقه النسائي والحضائي . ومنرى أمثلة لأمهات سلاطين بلخ من
حلو لغرد آمن نجمن في إقصاء أبنائهن السلاطين عن محاضرة معظم

(١) البري *Seray* كلمة تركية مأخوذة من لغة الفارسية ومعناها قصر . وهذا
رأي آخر يقول إنها مأخوذة من الكلمة الإيطالية *Seraglio* بنفس المعنى . وكان البري القديم
مبارة من بين أربع من هذه المبرة البرلية . ولما نزع السلطان عبد الله (١١٥١-١١٨١)
التسكنية أمر بترميمه واستعمله بعد فتح طه البسة نوراً (١١٥٢) . ويقع هذا القصر
القديم في المكان الذي تشغله حالياً جامعة إسطنبول .

أما البري الجديد فقد أمر طه السلطان بتشييده . وأتمه عام ١١٦٨ هـ وهو الآخر كان
يضم بعض مباني كانت موجودة بالفعل . ويطلق على طه الباش الآن طوب قاي برى *Top Kapı Serayı*
والى عهد السلطان سليمان المشرح كان السلاطين يزورون إقامتهم - حين
يكرلون في إسطنبول - بين القصرين . ولم يصبح القصر الجديد المقر الوحيد لإقامتهم إلا منذ
حكم السلطان سليمان المشرح .
انظر ،

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 74,
N. (1).

اختصاصاتهم بعد أن هبأن لم الجور للاتفهم في التنازلات . وأسبغت هؤلاء الأمهات القادينات في ظل هذه الأوضاع مراكز قوى خطيرة في تاريخ الدولة . وعلى هذا النحو أصبح القصر القديم في فترة من الفترات بمثابة مشى القادينات اللاتي هجرهن السلطان أو توفى هنهن هذا السلطان ومع ذلك لم يكن الطريق أمامهن مسدوداً وبخاصة اللاتي لم ينجبن ذرية من السلطان الخوف . فقد كن على أية حال سيدات حرار مبق أن تلتن حريتهن من السلطان . وكان كثير من رجال الدولة الطموحين يسعون إلى الزواج بن ليمخلوا مهن وسيلة إلى الظفر بعض المناصب ذات المستوى الرفيع إذ كانت أولئك القادينات السابقات ه يسمح لهن بالتردد على الحرم السلطاني وزيارة قادينات السلطان الجديد ولتلمسن مهن مساعتهن على تعيين أزواجهن في مناصب مرموقة . وكانت القادينات الجليليات يستجبن في الأعم الأغلب لرجائهن . وكان السلطان يلوره يتقلد رغبات قاديناته . وكانت نوحية سلاطين الفترة الثانية مما ساعد على نمو هذا النفوذ الجاني ، لأن هؤلاء السلاطين احتلوا الحياة بمزول عن الناس مما جعلهم يتأثرون بتوجيهات أو آراء المخططين بهم وبخاصة النساء .

لم تكن هناك أسباب جديدة لتعدد زوجات وقادينات السلاطين :

ومن الصعب تفسير تمسك سلاطين الدولة بنظام تعدد الزوجات بأنه كان وسيلة شرعية يتضمن بها كل سلطان إنجاب ابن له يرث العرش من بعده . إن هذا القول يعتبر تبريراً ولا يعد تفسيراً علمياً ، لعدة أسباب ، منها :

أولاً : ثبت تاريخياً أن ثلاثة عشر سلطاناً تماقوا على عرش الدولة منذ حكم عثمان الأول حتى محمد الثالث ، وهي فترة زمنية استطالت أكثر من ثلاثة قرون (١٢٩٩-١٦٠٣) ، كان كل سلطان خلالها يورث العرش من بعده لإبنه . ولم يخلد سوى استثناء واحد بعد هذه الفترة حين جاز إلى ربه السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) بدون عقب . ومع ذلك لم يتعرض العرش النجاني لأية هزة ، لأن السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) كان قد أبنى على إخوته ، وأصبح العرش ينتقل إلى غير الأبناء ، وتوسى إلى

أنهيه بالملك وأصبح توارث العرش على قاعدة الأرشد فالأرشد . وتولى العرش أخوه باسم مصطفى الأول (١٦١٧-١٦١٨) (١) ثم تعاقب على عرش الدولة ثلاثة إخوة من أبناء السلطان أحمد الأول (٢) . وتولى العرش بعد ذلك ثلاثة إخوة وكانوا من أبناء السلطان إبراهيم (٣) .

ثانياً : إن أحد سلاطين الفترة الثانية وهو سليم الثاني قد توفي عن ستة أولاد (٤) وثلاث بنات وتولى أكبر الأبناء العرش ، وهو مراد باسم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) . وكان أول عمل قام به أنه أمر بجمع إخوته الخمسة كي يأمن على نفسه وعرشه من ضائقتهم (٥) . فلما كان الميعاد من تهنئة التزوجات والتهنئات هو ضياع إيجاب ابن يكون ورثاً للعرش لما أنجب ذلك السلطان ستة أولاد .

ثالثاً : تكررت هذه المأساة بصورة أشد حثاً وأكثر إيلافاً . فإن ذلك السلطان مراد الثالث توفي في مساء اليوم السادس من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٥٩٦ عن خمسين سنة وبعد حكم دام إحدى وعشرين سنة :

(١) عاد إلى العرش سنة ١٦٢٢ بعد عله ، وعمل ثلاثة سنة ١٦٢٢ لأسباب لا تحت بسلا إلى نظام توارث العرش ، بل لأسباب تحصل بالإنكشارية كتركوا قوة عظمى في الدولة يتدخلون في عزل وتقل السلاطين ، والمضرد النظام ومنه إليهم .

(٢) كان هؤلاء السلاطين الثلاثة الإخوة هم :

أ- حيان الثاني ١٦١٨-١٦٢٢ .

ب- مراد الرابع ١٦٢٢-١٦٩٤ .

ج- إبراهيم ١٦٩٠-١٦٩٨ .

(٣) كان هؤلاء السلاطين الثلاثة الإخوة هم :

أ- محمد الرابع ١٦٩٨-١٦٨٩ .

ب- سليمان الثاني ١٦٨٧-١٦٩٦ .

ج- أحمد الثاني ١٦٩٦-١٦٩٥ .

(٤) كان الأولاد خمسة هم : مراد ، محمد ، سليمان ، مصطفى ، وجيهانكي ،

وجيهانة .

أنظر :

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٠

(٥) Grant A.J., A History of Europe (1494-1610), op. cit., p. 225.

وأُنجب عشرين ابناً خير عدد من البنات . وقد تولى العرش من بعده أكبر أولاده باسم السلطان محمد الثالث (١٥٩٦-١٦٠٣) . وكانت ولادته من جمهورية البندقية . وكان أول عمل قام به هو ذبح إخوته التسعة عشر فى الوقت الذى كان يولدى فيه جثمان والده . فإذا كان الخلف من تعدد الزوجات والقادينات هو ضمان إجماع وريث العرش لما أنجب ذلك السلطان هذا العدد الوفير من الأبناء .

وأخيراً : إن السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) قد أنجب مالا يقل عن واحد وثلاثين ولداً . وعلى الرغم من أنه كان يجب المال حياً بما إلا أنه أضحى الكثير من الأموال على حفلات خطان أولاده . وكان يميل إلى حياة التهلكة ، ويقضى وقته فى التهور والمتع الجنسية مع قاديناته وجواريه (١) .

إحصائياً : إن ظاهرة تعدد الزوجات والقادينات وما أحاط بها من حياة المليون كالمستغنى فى النساءيات وإدمان الخمور كانت ظاهرة بارزة على عهد سلاطين الفترة الثانية ، إذ كان عدد منهم قد استغرقوا فى شهواتهم .

إحصائياً : لم يكن الباحث لمؤلاء السلاطين على تعدد الزوجات والقادينات هو الاستفادة من رخصة أجازها الإسلام للزوج لاستخدامها فى ظروف استثنائية سبق أن شرحناها ، ولكن كان الباحث لم هو استغلال هذه الرخصة ، وفارق كبير بين الاستفادة والاستغلال .

وأخيراً : لم يمتنع السلاطين بتعدد الزوجات ، إذ كانت توجد فى الحرم السلطانى أعداد وفيرة من الجوارى الحسناء يحفظ كل سلطان بهن . وتقوم مائة صبيحة من مبيعات القصر بتنظيم ليل السلطان مع القديتات القادينات . وكان الآلة القرائية الكريمة تنطبق على طريق من سلاطين الفترة الثانية ممن أطلقوا العنان لشهواتهم « زين قناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير

المتنطرة (١) من القنصل والقنصلية والمسومة (٢) والأتمام (٣) والمحرث (٤)،
ذلك متاع (٥) الحياة الدنيا ، والله عنده حسن الثواب (٦) .

العراق الوعيمة لتعدد زوجات والقديسات السلاطين :

نجم من تعدد الزوجات والقديسات مشكلات خطيرة انضمت آثارها
على الدولة . فإن تعدد من أدى إلى تعدد الأمهات . وأدى تعدد الأمهات
بدوره إلى إشاعة جو صاخب من الفجوة والحقد والتنافس بينهن . إذ كانت
كل أم أنجبت مولوداً ذكراً تسمى سميّاً حبيباً كما يكون ابنها ولياً للعهد ،
ولو كان ترتيبه أى وضعه فى البروتوكول لا يؤهله لشغل هذا المنصب . ومن
ثم تحاك المؤامرات ويشارك فى تنفيذها الصبيان وروسلوهم ، فضلاً عن
الصدر الأعظم المتصالح مع القاديين أو المتصالح لما أو المتصالح معها بلطاف
مصلحة مشتركة بينها . وتعدو القاديين مركز قوة خطير ، إذ نجد من السلطان
أذنّاً صافية . وتنتهى هذه المؤامرات عادة بقتل ولى العهد الذى كان والده
قد اغتاره ليتولى العرش من بعده . كما أدى تعدد الزوجات والقديسات إلى
وجود تنافر عنيف بين السلطان وأبنائه الذى أنجبهم من سيدة أخرى والذين
حرموا من وراثة العرش . وقد وصل هذا التنافر فى حدة حالات إلى حد
الصراع الحربي السافر بين السلطان وهؤلاء الأبناء . ثم كان هناك أيضاً انتشار
بين الإخوة وخصوصاً الإخوة غير الأشقاء . وكان كل منهم يلوذ بوالدته
فسمى عن طريق المؤامرات الماهرة للدولة لتحقيق حلم حمل يرلود الإبن

(١) المتنطرة جمع قنصل - والمتنطرة مشتقة منها لتأكيد . ويراد بالبطرة المال الوفير .

(٢) المسومة أى المعلقة ، من المسومة وهى الصلاة ، وقيل المرسلات وطبها ركباتها ، وقيل
المرضى فى الفروج والمرضى .

(٣) الأتمام جمع اسم ، وهى الإبل والبقير والتمير .

(٤) المحرث يقال يحرث فى الأرض وتسميتها الفروج . وقد يسمى المحرث سوطاً . ولتراد
بها الفروجيات .

(٥) المتاع بمعنى المتع .

(٦) الله المرجع ، من كتب يذهب أولاً ، الله مرجع .

(٧) سورة آل عمران ، آية رقم ١٤ .

ووالته معاً . وهكذا ابتداءً للحريم السلطان بجوارتي موبده بالخواتم والشماس والشكولات النسائية والقيارات الخفية المتنافرة أشد التنافر .

شخصيات نسائية أخرى في الحريم السلطاني :

بجانب الزوجات الحرار المسلمات والمسيحيات السلاطين ، وبجانب قاديئاتهم بعد ذلك ، كانت توجد في الحريم السلطاني ميدان وثنيات أخريات كان من وزن وقيل وهيان إلى حد أن بعضهن كن يعقن الزوجات والقاديئات في المكاتب والتفوذ بحيث أصبحن يشكلن مركز قوة حطير في تاريخ الدولة . وكان على رأس هذه الشخصيات النسائية : والدة السلطان ، وبمجموعات من الجوارى المقاتلات كان هن ، بطبيعة أعمالهن واختصاصاتهن ، دلال على السلطان .

والدة السلطان :

كان أعلى مركز في الحريم السلطاني يمكن أن تسو إليه سيدة هو مركز والدة السلطان الحاكم ، ويطلق عليها « سلطانة والدة » *La Sultane - Valide* . أي والدة السلطان ، إذ كان السلاطين السنيون يكونون لأمهاتهم قدراً كبيراً من التبرجيل ، ولا يرفضون من طلباً . ولا يقف نفوذ والدة السلطان عند هذا الحد ، بل كان نفوذها يمتد إلى جميع زوجات ابنها السلطان وجواريه .

وكانت لها سيدة بمثابة رئيسة أو مديرة لمكتبها أو وكالة عنها تسمى « كاخيا سلطانة والدة » . ويقع عليها الاختيار عادة من بين السيدات المتقدمات في السن ، والثلاثي قضين سنين حلياً في أجنحة الحريم السلطاني حتى يمكن الاستعانة من تجارها وغيراتها . ويعمل تحت إمرتها عدد كبير من السيدات والفتيات . وكانت تعد المصحفة الرسمية باسم والدة السلطان . وفي ذات الوقت كانت أداة الاتصال بينها وبين السلطان وورثته أو قاديئاته . وفي ظل هذا المركز مارست نفوذاً واسعاً جداً سواء في القصر أو في دوائر الحكومة . وبمساعدة نفوذها ويتلقى نجمها إذا كانت والدة السلطان سيدة أجنبية الأصل ذات شخصية قوية . ويلاحظ أن قسماً من اختصاصات هذه السيدة « كاخيا

سلطنة والدته ، كان يتدخل مع اختصاصات رئيس الحشيان . وكان الأمير يمثل مركز قوة خطير في الحرم السلطاني ، ويدور في لفه صراع بين هاتين الشخصيتين . وكانت القلية في معظم الحالات السينة ، كاتنيا سلطانه والدته ، بصفتها أداة الإتصال بين أكبر شخصية نسائية في الدولة وبين السلطان . وكانت تدأثر بموضوعات تتصل بالسياسة العليا أو مسائل عامة ذات الطابع العاميل وتتطلب الإتصال القوي بالمسؤولين والمسئولات .

أولاد السلطان وبنته :

ولدى جانب السلطنة والدة وزوجات السلطان كان يعيش في القصر أولاده وبنته . أما الأولاد فكانوا يتلقون دراسات علمية وعسكرية مع اهتمام حقيق بالجوانب الدينية ومواد الثقافة العامة واللغات . وكانوا يتأدرون القصر السلطاني في سن مبكرة ، ويصبر السلطان فرماناً بصبي الإن حاكماً على مدينة كبيرة أو مقاطعة ومنحه رتبة صنيق بك ، ويقادر القصر والماصمة وبصحبته حامية كبيرة المجد للخدمة الداخلية والخارجية وحمل من الحشيان وحرس كثيف للمجد . ويعيش في موقفه الجديد وكأنه سلطان صغير . فإذا أبتسم له الحظ وترجع على عرش الدولة بعد وفاة أبيه فإن والدته لا تغادر القصر المسمى السراي الجديد إلى السراي القديم شأن نكروجات والنساء الأخريات السلطان المتوفى ، بل تصبح سيدة القصر الأولى بصفتها والدته السلطان الحاكم ، وتنفذ صاحبة النفوذ الأعلى . أما البنات فكان يحضرن دراسات خاصة تمد هن في الدين وثقافة التركية وإحدى اللغات والموسيقى ومواد ذات ثقافة نسائية وثقافة عامة . وينظرن في القصر حتى يأمر السلطان بزويج الإبن إلى أحد كبار رجال الدولة مثل الصدر الأعظم أو أحد الوزراء أو أحد كبار الباهية . وكن يتأدرون القصر بعد إتمام الزواج . وكن يتزوجن في مقبل العمر ، وللملك لم تكن إقامتهن في القصر السلطاني تمتد سنوات طويلة .

عنصر نسائية آخرى في الحرم السلطاني :

كانت تل القادينات في المركز أربع جوار يطلق عليهن « الكدكنيات » (١)

(١) Gerdikn أو Gerdikn وسنأخذ الميزات أي اللات يصنع ميزات مينة

أى المبررات . وكان مرشحات القرية إلى مرتبة قاذبين عامما مخلو هذا المنصب لسبب أو لآخر . وكانت الكاكتيات تضمن على خدمة السلطان شخصياً . وكان السلطان يتدخل من عمليات له *des concubines* وكانت تعمل معهن في هذا المجال وعلى اتصال لوثق بالسلطان مجموعة من أفرادهن يطلقن عطين وخاصاً أولادهن (١) أو فتيات المبررات . وكان يطلق على الواحدة منهن أيضاً « إقبالة » أى سجيعة الحظ (٢) .

وكانت توجد في الحرم السلطاني وظيفتان رئيسيتان تشغلها جاريستان ، يطلق على شاغلة الوظيفة الأولى « كاشيا قاذبين » (٣) وكان يطلق عليها أيضاً « المعلقة » . وكانت مسئولة عن النظام في أجنحة الحرم . ويطلق على شاغلة الوظيفة الرئيسية الثانية « مخزينة دار أوسلى » (٤) أى الخازنة . وكانت مسئولة عن المسائل المالية الخاصة بالحرم السلطاني بجميع فئاته وطوائفه . وكان على هؤلاء عهده من الجولوى كنن يقمن على خدمة ولاة السلطان والقاديتان وأولادهن وبناتهن . ثم كانت هناك طائفة أخرى تسمى « شاكر زاده » (٥) بمعنى المذنبات ، وهن الجولوى الثلاثي التحقن حديثاً بالقصر ، وكن يقضين أوقانهن في دولسات نظرية وعملية وتدريبات تطبيقية . وأخيراً كانت هناك طائفة المملحات ، وكن يشكلن أدنى العوائف مرتبة في الحرم السلطاني . وكن لا يرضعن عن مرتبتين إلا نادراً (٦) ، بينما كانت مملحات وفتيات الطوائف الأخرى يشققن طريقتهن متدرجات إلى المراتب العليا (٧) .

(١) *Khas-Odash* أو *Hass-Odash* بمعنى « تابع القرية » .

(٢) *Ikbal* كلمة تركية تعني « كلمة القرية » .

(٣) كاشيا بمعنى « وكيل أو وكيلة » .

(٤) مخزينة مأخوذة من الكلمة العربية في اللغة القمصى خزانة . وكلمة دار فارسية بمعنى « صاحب أو مدير » . وأوسلى كلمة فارسية أيضاً بمعنى « امتد أو دهم أو دهم على » . وللمنى « المم » هو « المم » .

(٥) « ذاكر » زاده كلمة فارسية مستعارة من « ذاكر » .

(٦) *Lybyer A.H.*, op. cit., p. 56 .

(٧) *Gibb Hamilton and Harold Bowes*, op. cit., Vol. I, Part I, p. 74 .

على هذا النحو كان المحرم السلطان بمثابة مدينة صغيرة، ويشمل إلى جانب الحصيان عماراً كبيراً من المسكنات والبلواري وغيرهن ذوات مستويات مختلفة من حيث المركز الاجتماعي والثقافي والميل الذي تقوم به كل منهن . وقد بلغ عدد المحرم السلطان ما يقرب من ثلاثمائة على عهد السلطان سليمان المشرع (١) . وقد قفز هذا العدد في العقود اللاحقة فترات سريعة وكبيرة .



الفصل الحادى والعشرون

مراكز القوى فى الدولة (٥)

الحريم السلطانى

تسلل نفوذ الحريم السلطانى فى شئون الدولة :

قامت سيئات الفتنة الأولى من الحريم السلطانى بلور خطير فى توجيه السياسة العليا للدولة حتى أصبح يشكلان أقوى وأخطر مراكز القوى فى الدولة على الإطلاق . كى يصلن على إشمال الحرب بين الدولة وأهملها سواء فى أوروبا أو فى آسيا . وكن يتدخلن فى شئون الجيش وبخاصة قياداته العليا ، وكن يتدخلن فى تعيينات كبار الموظفين أحياناً ، وفى ترقيتهم أحياناً ثانية ، وفى مزعم أحياناً ثالثة . فلذا كان الصدر الأعظم هو الشخص المطلوب عزله ، تدخلت السلطنة الوليدة لدى أبها ، أو الباشا قادر أو القادين لدى السلطان ليصدر الأخير مماناً مزله . وكان هذا المزق يقترن عادة بقتله فوراً أو بعد أيام ذات عدد . أما إذا كان الشخص المراد إقائه يشغل منصباً ثقل مرتبته من مرتبة الصدر الأعظم تدخلت إحدى سيئات الفتنة الأولى من الحريم السلطانى لدى الأخير فيصدح بما يؤمر به . وكان رؤساء الأقوات فليسيان السود أو البيض هم حلقة الاتصال بين هؤلاء السيئات وبين السلطان والصدر الأعظم . يقول المستشرق بيون فى تعليقه على تسلل نفوذ الحريم فى أجهزة الحكومة إن كلمة واحدة تصدر من قادين كانت تصعب الأهاليب فى معظم الأحوال . (١)

A word from a kadim often worked wonders.

أسباب نمو مراكز القوى في الحريم السلطاني :

ومرد هذه الظاهرة التي فشت غشواً كبيراً منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر والقرن التالي له إلى سيبين رئيسيين هما : ضعف شخصيات السلاطين الذين حكموا للدولة إبان هذه الفترة ، وبمجموعة الباشوات الذين تعاقبوا بكثرة ملحوظة على منصب الصدارة العظمى في أثناء هذه الفترة أيضاً . ويستثنى من أولئك السلاطين والصدور عدد قليل جداً كانوا على درجة كبيرة من الخلق والكفاية ، وانكشف على عهد هذه القلة نفوذ الحريم السلطاني كمرکز قوة . ولكن سرعان ما كانت تستعيد سيادات القوة الأولى من الحريم السلطاني نفوذهن بمجرد قتل أو وفاة هذه القلة من السلاطين والصدور النظام .

أولاً : ضعف شخصية سلاطين تلك الفترة :

انصرف معظم سلاطين تلك الفترة عن شؤون الدولة . وكانوا لا يقابلون كبار الموظفين إلا على فترات زمنية متباعدة ، وكانوا لا يخرجون مع الجيش إلى ساحات القتال باستثناء ثلاثة من السلاطين الأتاتية الذين حكموا الدولة بعد سليمان المشرع حتى محمد الرابع . وكان هؤلاء السلاطين الثلاثة هم : محمد الثالث (١٥٩٦-١٦٠٣) في حملة كيريزنس (١) ، وعثمان

(١) تالت أصوات المسلمين في إستانبول بوجه عيس بضرورة خروج السلطان عهد ثالث إلى الحرب بعد أن حوالت على الخمسة كنية الحرام الأئمة والمصافة التي تزلت بالجيش السهل في أوروبا . وخرج السلطان معه البندق الحربي لقتال البيروني الإمبراطورية التي كانت تتكون من الألمان والإيطاليين والجر . وكان يقود هذه الجيوش الإرفيدوق مكسييليان L'Archiduc Maximilian وسيسيسوند زابوليا Stigismond Zepolya وقابل المصاريون في معركة ساعنة في كيريزنس استمرت ثلاثة أيام قتل فيها المصاريون المزعجة والأخصر ، وانتهت في اليوم الثالث - السادس والعشرين من شهر أكتوبر - تقرياً أول - عام ١٥٩٦ - بالتصالح سائق المينيين الذين أنزلوا عساكر للدولة بالقوات الأوروبية المتصاعدة وبذلك خسرتها حينئذ ألف جندي . وكانت هذه المعركة تنبه بالسياسة لغير معركة موحاكر في اليوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس - آب - عام ١٥٩٦ وهي المعركة التي أباد فيها الجيش العثماني بقيادة السلطان سليمان للفرع الجيش العثماني وقيل لها لويس الثاني ملك المجر .

هذا وتقع كيريزنس على نهر التيس Thiss التي ينبع من جبال الشكوبات في أوروبا الوسطى . ويحدها في الشمال بولونيا وفي الجنوب في نهر الدانوب -

الثاني (١٦١٨-١٦٢٢) في حدة كوتين^(١) Khotin ، و مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) في حدة بتلاد^(٢).

من شأنه الأيسر حل مقربة من بشفرد . ويطلق بعض الباحثين على هذه الحركة اسم حركة الخيول .

انظر :

وكتود ميه الفرد محمد كشتوي : أوروبا في مطلع أبع ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ،
 قسمة الأولى ، ص ص ٧٨٤ - ٧٨٥ .

(١) كان يعيش على حدود الدولة العثمانية وبولندا القوزاق Les Kosaks والجنار . وكان القوزاق المقيمون في كرواتيا يعتبرون من دعايا بولندا . أما القوزاق كانوا يشكلون دولة تسمى حامية القرم ، وكانت شبه مستقلة ومرتبطة بالدولة العثمانية التي أيدت عليها لانقاذها دولة مجيرة لأنها تقوم على حدود دول مدغية . وكان علاقات القرم يتصرفون بسيادة السلطان عليهم وكانوا يسلمون من السلاطين الأطوارح والأعلام والقشريات العثمانية . وكثيراً ما أدى احتكاك الجنار بالقوزاق إلى اشتعال الحروب بين الدولة العثمانية وبولندا . وكانت بولندا تنصاع إلى احتلال إقليم مولداليا وانزاعه من العثمانيين . ولحققت الدولة العثمانية في عام ١٦١٨ بانصرافات خطيرة تشتعل في مولداليا بقيادة سراتيكي Gratienski . وسارع البولنديون والقوزاق بالانضمام إليه ما أدى إلى اشتعال حادثة القوزاق . وكانت قد أيرست مساعدة بوسا Bonosa في اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر أيلول - عام ١٦١٧ بين الدولة العثمانية وبولندا . تقرر فيها ألا تصنع بولندا في شتون مولداليا وولاشيا وترسلها ، وأن يظل نهر دانيستر Danister الحد الفاصل بين الدولة العثمانية وبولندا ، وأن يصعد السلطان جميع القسار من مهاجمة الأراضي البولندية . وصحت حزيمة السلطان هناك على الجهاد هذه الاضطرابات . ورحل عام ١٦٢٦ على رأس الجيش على كوتين . وحقت الحملة العثمانية حطم أحدها وحقت مساعدة في عام ١٦٢٢ تقرر فيها أن تستمر بولندا في دفع جزية سنوية حددت بأربعين ألفه فلورين Florentia إلى عائد القرم ، وأن يصعد السلطان بعدم الإغارة على الأراضي البولندية .

(٢) كانت الحدود بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس مصداقاً لاحتكاكات جديدة بينهما . ولدت إلى ثغوب حروب جديدة وطويلة وضارية . كما تعددت الثورات والاضطرابات في الأقاليم العثمانية في تلك المناطق . وأراد السلطان مراد الرابع أن يضم حروباً المشكوكات العسكرية والسياسية مع الدولة الصفوية . فقد كانت هذه المشكوكات بمثابة زيف دموي حاد ، وتعددت الدولة العثمانية من التناحر في الأرواح والأموال والعتاد . وفي سنة ١٦٣٥ تولد السلطان لولادة حمنة كبرى زحف بها على تلك الأقاليم الشرقية ، واستولى على بعض المدن والمواقع الهامة مثل إديشاه Brivna ، ثم اتجه إلى بغداد واستولى علىها . ثم أدين بوسا ، ثم دخلها في اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٦٣٨ وقام الجيش

وإنما هو جديد بالذكر أن محمد فريد بك أحد رؤساء الحزب الوطني في مصر ومن أعلام الفكر والسياسة فيها (١٨٦٨ - ١٩١٩) (١) قد

السياسة مصالح رعية التواتر. الفلسفة التي كانت تتلخ من هذا . وقد أهداه على فكرة أيضا ويقال إن أحد أركانها بلغ ثلاثين ألف جنيه . دخلت للتأليف أيضا حدة كبيرة من السكان المثقفين في العاصمة ، وأظهرت مصالح المثقفين الآخرين الأمرين الذين هم من الملاح . وانتهت حلة مراد الرابع بهذه سلطنة مصر بين الدولتين العثمانية والصربية في اليوم التاسع عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩٣٩ (ويرد في بعض المراجع ذكر تلويح المصلحة اليوم السابع عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٩٣٩) وحسب فيها على أن تحفظ الدولة الصربية بمعية إيرفان والمناطق التابعة لها . وأن تسجل الدولة العثمانية على بنفاد ومتعلق أخرى مدينة سادات في سلطنة . وجاء اتفاق مرة أخرى إلى الحكم السيفي ، كما علمت الحدود بين الدولتين إلى وضعها السابق أيام سليم الأول وسليمان المشرع . وتسمى هذه المصلحة صليح إستانبول الثاني تميزا لها من صلح إستنبول الأول الذي أبرم بين الدولتين في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس - آذار - عام ١٥٩٠ .

(١) كان محمد فريد بك من المؤرخين بصلاتهم بالدولة العثمانية طبقا للتعليم السياسي التي كانت سائدة في الولايات العثمانية .

وقد وضع فريد بك عدة كتب ، منها :

الجنة التاريخية في تلويح مؤسس السلطنة العثمانية (١٨٩١) (محمد طر)
تلويح الدولة العثمانية ١٨٩٣ .

تلويح الرومان . وقد نشر أيضا حتى سقوط قسطنطينة في مجلة الموسوعات ١٩٠٠ ، ١٩٠١ .

وله عدة بحوث متفرقة في مجلة الموسوعات ، منها :

- إنجلترا وفرنسا بإفريقية (عدد ٢٩ أبريل - نيسان - عام ١٨٩٩) .
- الإنجليز في غرب إفريقيا (عدد ٨ أغسطس - آب - عام ١٨٩٩) .
- كيف ضاع استقلال الجزائر لولا (عدد ٢٣ أغسطس - آب - عام ١٨٩٩) .
- إنجلترا والبرتغال (عدد ٢١ سبتمبر - أيلول - عام ١٨٩٩) .
- إنجلترا في جنوب إفريقيا (عدد ١٩ نوفمبر - تشرين الثاني - عام ١٨٩٩) .
- روسيا في ملكة كوردا (عدد ١٤ يوليو - حزيران - عام ١٩٠٠) .
- ملحق أوروبا في الصين (عدد ١١ أغسطس - آب - عام ١٩٠٠) .
- رئاسة جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية وكيفية انتخاب رئيسها (عدد ٥ فبراير - شباط - عام ١٩٠١) .

وكان آخر عدد من مجلة الموسوعات هو العدد ١٩ من السنة الثالثة وقد صدر في شهر ربيع آخر عام ١٣١٩ - ١٧ يوليو - تموز - عام ١٩٠٩ وكانت مجلة طوعية تصعب شيرة أسرها محمد فريد بك الاشتراك مع الأستاذ أحمد حليق حوصي بك والأستاذ محمود أبو كسر بك . =

تعرض للسلطان مراد الثالث - - وه أحد سلاطين الفترة الثانية - - ونعى عليه عدم خروجه مع الجيوش العثمانية إلى ساحات الحرب ، وأرجع الخزانة العسكرية التي أقيمت للدولة من جيوش الحرب وانحسرت إلى تلك الظاهرة . وعلق عليها تعليقاً يفصح بالأمى والمسرة . وكان مما قاله : يجب علينا وحل كل شيئا التأسف ، والتمسح على عدم خروج السلطان بنفسه (١) إلى الحرب ونحجبه عن أحد جيوشه وعدم قيادتهم بملكه للشرقة إلى ساحات النصر ، فلولا ذلك لكانت العلية دائماً لم يذنه تعالى . فقد حردهم عز وجل النصر على الأعداء في زمن أجداده سليمان وسليم الأول ومن قبلهم ، لأن وجود الخليفة الأحظم في رأس جيوشه يثبت فيهم روحاً جلية ، فيصحبون معه قلياً وقائلاً ، ويسرون معه إلى النصر المبين . ولنفوز العظيم . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله (٢) .

سلاطين لا يراهم أحد : *Des Sultans invisibles*

لم يخلف السلاطين عن حضور ورئاسة جلسات الديوان المهابوي - - الإمبراطوري - - قطع ، بل تكاسلوا أيضاً عن مراقبة أعماله وسامع مناقشات أعضائه من وزراء سائر ، وهو تقليد حرص عليه سلاطين العصر الذهبي .

وكان السلاطين لا يرحلون القصر ، واستطابوا الإقامة في أجنحة الحرم السلطاني بورجون ، أو بشاره أكثر دقة ، يندحون أوقاتهم بين القاديات حيث ، وفيتات للفرف أحياناً كثيرة انماساً للمتع ، ويسرلون في تناول الخمور ، ويرتكبون سائر الميقات مستلين العزلة التي أحاطوا أنفسهم بها أو التي أحاطها سيدات الفقة الأولى من الحرم السلطاني بهم . وقد أطلق عليهم « السلاطين الظلم لا يراهم أحد » *Des Sultans invisibles* إذ لم يكن يراهم

سائر :

١ - عبد الرحمن الرافعي : محمد فريد رمز الإخلاص والفضيلة . العلية الثالثة ، ١٩٦٢ ،
الطبعة مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة . ص ٣١ - ٣٢ .

(١) يقدم السلطان مراد الثالث .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٠ .

رهاهم ولا الجيش ولا الوزراء . وكانوا لا يطمون شيئاً عن تصرفات
حكام الولايات .

Des Sultans Fainéants

سلاطين « تنابلة » :

كانت لجنة الحريم هي ماوهم ، وكان الانتماس في المتع الجنسية
وغير الجنسية مع القادينات وفتيات الغرف هو شغلهم الشاغل ، وقد قيل إنه
كان لأحد سلاطين الفترة الثانية في إنشاء توليه الحكم أكثر من ثلاثمائة فتاة
من الجوارى القاتنات (١) ، كما قيل إن عدد المذكور والإناث اللين
أنجبهم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) لم يقل عن مائة وثلاثين
نتيجة إسراره في المسائل الجنسية (٢) ، وأخيراً فإن جهل أولئك السلاطين
بالأحداث الجسام التي تجري في الدولة نتيجة انصرافهم عن ممارسة
اختصاصاتهم كانت صفة بارزة في أخلاقهم . ولذلك أطلق عليهم أحد
المؤرخين القرنين اسم « السلاطين التنابلة » (٣) *Les Sultans fainéants*
وقد أشاد أحد كبار المؤرخين الإنجليز بهذه التسمية واستخدمها وهو
يتناول تاريخ تلك الحقبة ، فقال إن الدولة العثمانية ، وهي أعظم الدول
السورية ، قد وقعت في أيدي سلاطين « تنابلة » (٤) .

وكان عدد من أولئك السلاطين يتعرضون للزل نتيجة تمرد عسكري
تقوم به القبائل الإنكشارية أو نتيجة فتوى تصدر عن شيخ الإسلام بعدم
صلاحيتهم للاستمرار في الحكم . وكان مزلم يقترن عادة بقتلهم أو اعتقالهم .

والحق أن مركز السلاطين في تلك الفترة قد اهتر اهتراكاً حقيقياً في نظر
الجيش وموظفي الدولة وسائر هيئاتها والجاهل بعد أن استغاضت الأعيان

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I,
Part I, p. 73, f. 2 (١)

Loc. Cit. (٢)

(٣) كلمة *fainéants* القرنية منادى الفصحى الكسول جداً ، وتكامل جداً ، والتي
ليس تليها أي تصاعد القام سهل جداً . وتناول في لغة البرية المصرية « قتل » .

Grant A. K.; op. cit. p. 225. (٤)

بحصرفات أولئك السلاطين . وانتقلت هذه الاختيار هجر السلطنة إلى العالم الخارجي . وإن السيف الذي كان يحكم به السلاطين الشوامخ في العصر الذهبي للدولة من أمثال أبي يزيد^(١) الأول الذي اشتهر باسم يلدرم أي البرق لتفلقه الحرية للبرية بين الجبهتين الكاضوية والبقانية ، والسلطان محمد الثاني الذي فتح القسطنطينية ، وسام الأول وسليمان المشرع ، قد تحول من سيف يتر إلى شمشية^(٢) (٢) *in buche* .

وقد بلغ من هوان السلاطين على أنفسهم في تلك الفترة أن الاتصالات السلطان بالصدر الأعظم كانت تتم عن طريق أحد العبد المخلصين ، وكان يطلق عليه « دار للمحادثات الخاصة » أي أغا دار الحداة . وكان يشار إلى الأخير عادة باختياره القليل أو أخصى أي أغا البناات^(٣) . وطبقاً للبروتوكول النهائي كان هذا الأغا يعد أكثر موظف في القصر السلطاني كله . وكان يشغل المركز الثالث في الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . وكان في حوجة وزير ويحمل ثلاثة أطواخ . وقد أتاح لوضع المتميز جداً لهذا الخصى فرصة ضخمة المحرم السلطاني لتصعيد فوضن كركز قوة ، فيقتل إليه أوامرهن أو رغباتهن سواء السلطان أو الصدر الأعظم . وكانت مؤامراتهن نجداً طريقتها مبدأ وميسراً لتنفيذ القوي .

أشهر قصة غرام في تاريخ الدولة العثمانية :

ونلاحظ بسلاطين الفترة الثانية سلطاناً آخر كان آخر سلاطين الفترة الأولى وهو سليمان المشرع . وعلى الرغم من أنه يقف في الصف الأول من بين سلاطين الدولة في جميع عصورها وبلغت الدولة على يده الأوج في القوة

(١) بايزيد هو الصلي التركي لكافة « أبيريزيد » .

(٢) كلمة *buchoet* هي اللغة الفرنسية تعاليل في اللغة العربية العارضة لفظة شمشية . يضم حرف البين وسكون حرف اللام . وهي لامية عطيفة جداً في وزنها تحمل اللعل إلى لا يزال يجرى في مائه . وهي عبارة عن كرة صغيرة مغطاة تماماً . ويغاطها عدد من الكرات الصغيرة - البيل . ولها طيف فيسلك البقل المتغير ، وهو الكرة فصعدت صوتاً يندب من هذه الكرات . وقد صحت هذه الكلمة أيضاً لفظاً على الشيء الذي يندب أو يندب التهمة .

Larive et Rambaud op. cit., t. v, p. 883.

(٣)

(٤) انظر الفصل التالي .

والنفوذ في السياسة الدولية وفي الاتساع الإقليمي ، إلا أنه كان على شاكلة سلاطين الفترة الثانية من ناحية واحدة ، هي خضوعه في سنواته الأخيرة من عمره المديد لإحدى قاديناته خضوعاً كاد يكون تلياً . وهي تجارية روسية الأصل تسمى روكسلاته Rosebanc وكانت ذات وجه باسم ، وكانت على حظ موفور من الجمال هام بها وأحبب منها ذكوراً وإناثاً . ولما بلغ من الكبر حثياً ووهن العظم من سيطرت على قلبه وحقه بحيث أصبحت مستشاره الأول . وحاول السلطان استعادة أيام الشباب ومبة للسيا ، وهي أيام كانت قد ولت بالنسبة له . وكان في حكم الانحطالة أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء ومن انشغاق إلى يستخلصها الباحثون من دراسة سير عظماء التاريخ أن بعضاً منهم يحاولون وهم يحطون بخطواتهم الأخيرة في الحياة أن يعرضوا ما فاتهم في حياتهم من متع ونجعة صرفهم عنها الأعباء العسكرية أو السياسية أو العلية التي شاركوا في صنعها وتركوا بهايتهم قوية في تاريخ بلادهم بسبب هذه الأعباء ونتيجة لما . وهكذا كان شأن سليمان المشرع مع روكسلاته فأت الجمال والدلال والإغراء . وكان لإفراطه في الالتئان بها وخضوعه لما تنتائج أضرت بالمصالح العليا للدولة ضرراً بليغاً . وفي رأينا كان هيامه بها يشكل أشهر قصة غرام في تاريخ الدولة العثمانية على الإطلاق . وستعرض في موطن قادم في هذا الفصل لروكسلاته كمرکز قوة خطير ، ليس في الحريم السلطاني فحسب ، بل على أعلى المستويات في الدولة . فقد بلغ نفوذها اللورة من الخطورة في توجيه القيادات العليا على النحو الذي كانت تشهيه . وكان نفوذها المريب وسيطرتها - كمرکز قوة خطير في الحريم السلطاني - على السلطان سليمان المشرع نقطة سوداء في تاريخ هذا الماهل .

أسباب ضعف أولئك السلاطين :

كان من أسباب ضعف شخصية أولئك السلاطين الأسلوب الذي اتبعوه منذ أواخر القرن السادس عشر في تشيئة الأمراء العثمانيين . فقد جلدوا إقامتهم في دانتل القصر ، كل منهم في مقصورة أطلق عليها القفص (الكواحظ) .

(١) سيقاد فرحتنا على النظام في الفصل التالي ، على تحت عنوان : « أقياس الأسرار »

كل أمير منهم بعدد من الجوارى والخصيان . وحرموا عليهم الاتصال بالعالم الخارجي ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن أخبار الدولة . ف عاشوا في عزلة مدمرة ، وأصبوا بانيار الأعصاب ، وميل مبكر إلى التسلّيات مع الجوارى . وقد طبق هذا النظام أيضاً على الأمراء الذين انتخبوا لتولي العرش . فكان الأمير ولي العهد يخرج من القفص بعد وفاة السلطان الحاكم ليرتقى العرش وهو عظم نفسياً ، مهتز الشخصية ، ضعيف في تفكيره ، عديم التجارب ، نعوزه الشجاعة . يريد أن يوضع حياة الحرمان والعزلة نحو آخر فيه تحرر ، وفي انطلاق ، وفي تمتع بمباهج الحياة . أما اختصاصاته كسلطان فكان لا يكاد يعرف شيئاً عنها . ومن هنا كان انصرافه عن ممارسة شؤون الدولة ، ومن هنا أيضاً كان التأثير عليه سهلاً وسريعاً من جانب والدته أو أخته أو القاديتات وجميعهن من سيلات الفخ الأولى في الحريم السلطاني . وكان مطمع كل واحدة منهن أن تستأثر بالنفوذ الأعلى ، وأن تلبوا القمة بين مراكز القوى في الدولة . والواقع أن هؤلاء السلاطين كانوا ضحية نظام فاسد ، هو نظام القفص ، استعملته الآباء حرصاً منهم على المحافظة على مراكزهم من وسائل الأبناء أو أقاربهم أو كبار رجال الدولة يتدخلون من أحد الأمراء مطية للإطاحة بالسلطان الحاكم وتعيين آخر يأتسون إليه .

ويجب فساد هذا النظام إما قzarناه بالنظام الذي كان قائماً أيام سلاطين العصر الذهبي . فقد عمل الأنكسرون على الإقادة من نشاط أمراء الأسرة الحاكمة في قيادة الجيوش أو في حكم بعض الأقاليم . وقد طبقوا هذا النظام حتى على الأمراء الذين لم يكونوا مرشحين لتولي العرش . فلذا توفي السلاطين الحاكم سعيه بولي العهد من موقعه إلى إستانيول لتولي العرش ، وهو بعيد عن نفوذ النسبة ، منفتح الذهن ، كثير التجارب ، قوى الشخصية ، على دراية واسعة بشئون الحكم والحرب ، لا يهاب أحداً (١) .

== انظر ص ٣٥٠ في هذه المجلد .

(١) حدث استبداد نظام القفص على عهد سلاطين الفترة الثانية مما سبب الخلل أول سلاطين هذه الفترة . ولم يكن سطولا أن يلجأ والده سليمان الخضر إلى هذا النظام الفاسد للمسر . أما السلطان الآخر فكان ضحية الثالث .

يضاف سبب هام ساعد على ضعف شخصيات بعض سلاطين الفترة الثانية ، ومن ثم أدى هذا للضعف إلى تصاعد نفوذ الحريم السلطاني كمرکز قوة في الدولة ، وهو أن عدداً من سلاطين الفترة الثانية تولوا العرش وهم في سن مبكرة جداً . ترلوح أمهاتهم بين من السابعة ومن الرابعة عشرة . فقد ارتقى العرش السلطانان أحد الأول وعثمان الثاني وكان كل منهما في الرابعة عشرة من عمرهما ، والسلطان مراد الرابع في سن الثانية عشرة ، والسلطان محمد الرابع وله من العمر سبع سنوات . وأقيمت على هؤلاء السلاطين وصاية بأشرها عدد من الوزراء ومن إليهم من كبار رجال الدولة ، ولكنها كانت وصاية صورية ، لأن الوصاية الفعلية كانت في أيدي سيدات البنية الأولى في الحريم السلطاني .

ثانياً : ضعف السلطان العظام :

أما السلطان العظام فكانوا يلوهم - بسبب الملاسات والفتيات السياسية الخفية التي انحطت بهم من بين ويسار - من العوامل التي ساعدت على نمو مراكز القوى في الحريم السلطاني . فقد كثر تعاقبهم على منصب الصدارة العظمى خلال الفترة التي تبدأ من أواخر القرن السادس عشر . ونذكر على سبيل المثال أنه في أثناء حكم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) اغتيل عام ١٥٧٩ محمد صوكلوباشا الصدر الأعظم . وتعاقب بعد اغتياله تسعة من سلاطين عظام على هذا المنصب خلال المئة التي تلت على حكم مراد الثالث وهي ستة عشر عاماً ، أي بمعدل صدر أعظم واحد لكل مدة تقل عن سنتين . ولم تشغل شخصية قوية منصب الصدارة العظمى بعد ذلك إلا بعد مضي قرن من الزمان بتعيين محمد كوريلي باشا (١) . وهناك مثال صارخ وقع في أثناء الحكم الثاني للسلطان مصطفى الأول المعروف باسم

(١) هو من أسرة ألبانية تنسب إلى كوربي ، وهي طيبة صغيرة في آسيا الصغرى على أحد روافد نهر نزل إزمك على مسافة ١٢ فرساً من مدينة آملسيا . وقد تزج إلى هذه المدينة وجبل من ألبانيا مع مملته . وعمرت هذه العائلة باسم كوريلي نسبة إلى المدينة التي انحدب منها ؟ لها .

السلطان الأتلي أو المخوه (1٦٢٢ - ١٦٢٣) ، قد نقاب مدينة صبور
عظام حتى ذلك المنصب مع أن حكمه في الفترة الثانية لم يزد عن خمسة عشر
شهراً ، أي بمعدل شهرين ونصف شهر لكل عمل أصغر .

وكان الصبور العظام - باستثناء محمد صولقو باشا إلى حد ما -
ضخاماً للشخصية ويتم تمييزهم وعزلهم وفقاً لرغبات سيدات الفتى الأولى في
الحريم السلطاني . فكان يتدخل لدى السلطان إما لتخلياً مباشراً وإما غير
مباشر عن طريق أموات الصبيان . وكان السلاطين في مجدهم يستجيبون
لرغبات الحريم .

وكان هؤلاء الصبور العظام يدركون تماماً أنهم مدينون بمناصبهم للسلطنة
والوالدة ، أو الياش قادين ، أو القادين . ويدرك كل منهم أن بقاءه في منصبه
مرتبط برضاء الحريم السلطاني عليه . ومن ثم كان الواحد منهم أداة طيعة لبيت
في أيدي الحريم . وكان كل واحد منهم يدرك أيضاً أن تباطؤه في تنفيذ أمر
بصبر إليه من شأنه أن يضره من منصبه . ومع ذلك فإن سيدات الفتى
الأولى في الحريم السلطاني كن يمسكن إلى تغيير الصبور العظام متى حقق
الأكثرون الأغراض التي من أجلها عينوا في مناصبهم .

وكان راعي في اختيار الصبور العظام في تلك الفترة عدة اعتبارات
تعارض مع المصالح العليا للدولة . وكان من بين هذه الاعتبارات ما عرف
عن الواحد منهم من السلبية أو ضعف الشخصية أو ضيق الأفق العقلي
أو مصاهرته للسلطان الحاكم كأن يكون متزوجاً من ابنته أو شخته ، أو يكون
ذا من متعلقة جداً . وسرى عند عرض مراكز القوى في الحريم السلطاني
أن أحد الصبور العظام تولى منصبه لتطير وقد بلغ من الكبر حتماً ، إذ كان

(١) سبق أن عينا عليه بعض الأمثلة . انظر في هذه الدراسة ص ٣٦٨ ، وهناك فريق من
الباحثين يرمون صولقو باشا مكاناً طلياً في تاريخ الدولة العثمانية . ويقولون أن هذه الشخصية
كاتب تجمع بين جوانب حسنة ولعمري حسنة .

عمره وقتلك مائة عام . وكان هناك صلبو أعظم آخر بلغ من العمر تسعين عاماً وكان ذلك على عهد السلطان أحمد الأول . وقد عهد إليه السلطان إجراء مفاوضات مع شاه الدولة الصفوية ، عباس الأول الكبير ، لتحديد الحدود بين الدولتين . ولكنه لم يكدم بدأ المفاوضات حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وسقط بجثة هامدة أمام مائدة المفاوضات (١) . وكان للدولة قد أجمعت أو أضيفت بالغنى . فلم تكن للنسب كفايات سياسية أو إدارية أو حرية يكون أصحابها في صفوان الرجولة ومضاء الفريضة وروحية الألق العقلي وقوة الذاكرة . ولكنها كانت سياسة مرسومة من سيدات الخرم السلطاني ، إذ كن يرمحن لمل هذه التوجيه من الصلور العظام . وهكذا خلت الدولة تجمع بين المتناقضات : سلطان ينبو العرش وهو في سن السابعة أو الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ، وفيها صلبو أعظم يتقلد منصبه وهو في سن المائة ، وغدا رجلا طاعاً في السن ومن العظم منه . والاثنتان - السلطان والصلب الأعظم - لا يصلحان لحكم دولة من كبرى دول العالم وتحت أمانها في ثلاث قارات وترعى بها معظم الدول الأوروبية الدوائر .

ولما انصرف السلاطين عن حضور ورياسة جلسات اللديوان المعايير ومن مراقبة مناقشات أعضائه من وراء ستار ، كما سبق أن ذكرنا ، انتهت سيدات لفة الأول من الخرم السلطاني هذه الفرصة ، فلدن فوذمن إلى هذا اللديوان الذي كان أعلى مية أو مجلس في الدولة . وأصبح هذا اللديوان برئاسة الصلب الأعظم يخضع لتوجيهاتهن . ومن أجل المحافظة على حياتهم وعلى متابعهم ترك الصلبور العظام أولئك السيدات يتدخلن في إحصائياتهم . وكان الصلبور العظام يتابعهم الخوف بل اللحر إذا عدت للفتيان الإنكشارية أو فرق عسكرية أخرى إلى التمرد كوسيلة للضغط على الحكومة لإجابة مطالبهم . وبلا من أن يواجه الصلب الأعظم الموقف منه بذايته بجزم ، كان يتركهم يتفهم . وتكون نتيجة هذا التمرد من ناحية ، والفرنسي

في معالجته من ناحية أخرى ، عزل الصدر الأعظم بلى وعزل السلطان أيضاً وقتل الاثنين معاً .

وكان الصدر العظام - شعوراً منهم بضعف مراكزهم تجاه مراكز القوى في الغرب السلطاني - ينفذون تأييد القبائل الإنكشارية أو فرق السباهي - الإسبانية - لهم . وكان أفراد كل من هذين السلاحين يصرون العداوة والبغضاء لأفراد السلاح الآخر . وأسرف الصدر العظام في تقديم المنح والامتيازات وإجراء الترقية السريعة لأفراد السلاح المؤيد لهم كضمان لاستمرار تأييدهم العسكري . ولكن كان العسكريون يطلبون المزيد . وفي إحدى المرات فتح مير حسين باشا الصدر الأعظم للإنكشارية المؤيدين له المآزر السلطانية يأخذون منها الحبوب والشعير وكل ما هو ضروري لهم . وقال لهم هذا الصدر الأعظم ، الحمد لله ، إن الهادشاه - أي السلطان - رجل واسع الخراء (١) . وثار أفراد سلاح السباهي وطالبوا بالمعاملة بالمثل من هذا الصدر الأعظم فإذن لم في أخذ بعض الأولاد القضيبة . وفي دجى الليل كانوا يسبرون في شوارع العاصمة يسيرون ويقتلون ويشعلون الحرائق . وكانوا يستأجلون مدينة معادية فتحت عنوة . وكان مير حسين باشا لا يستطيع لم دفعاً . وفي ذات الوقت رفضت القبائل الإنكشارية المؤيدة أنه تخوض صراعاً حريماً أو صداماً دعوياً رهيباً ضد فرق السباهية من أجل صدر أعظم كان الإنكشارية يعلمون أنه مما قليل مقصود من منصبه .

وحقبة الانقلاب الذي تم في الأيام الأولى من شهر أغسطس آب - عام ١٦٤٨ والذي كان من بين نتائجه خلع وشنق السلطان إبراهيم المعزوم وتولية ابنه السلطان محمد الرابع البالغ من العمر وقتذاك سبع سنوات - أدلى أحد اللذين شاركوا في هذا الانقلاب بتصريح جاء فيه « إنه من الممكن مع ارتقاء العرش سلطان حدث ، أن يشغل منصب الصدر العظمى رجل حصيف في مقدوره أن يصحح الأمور في نصائبها » . ولكن كان هذا الرأي

Levins et Rambaud; op. cit., t. ٧, p. ٢٥١.

(١)

Loc. cit.

(٢)

مرابا ، ويدل على جهل صاحبه بحقيقة الأوضاع في الدولة في ذلك الوقت ، لأن تعيين الصلور النظام كان يخضع لتوجهات أو رغبات أو أوامر ميدان القوة الأولى من الحريم السلطاني ليستمر نفوذهم في تصاعد ويكون الصلور النظام أدوات طيعة في أيديهم .

بلطه جي باشا يقاضى رشوة :

لم يكن بعض الصلور النظام في تلك الفترة فوق مستوى الشبهات . وتذكر على سبيل المثال بلطه جي محمد باشا الصلور الأعظم على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) فقد رددت الأكسة أنه تقاضى رشا (١) من بطرس الأكبر قيصر روسيا (١٦٨٢ - ١٧٢٥) حين أطيقت عليه الجيوش العثمانية عام ١٧١١ وهو يسير جنوباً بحضرة نهر بروث . فلم يجد بداً من طلب الصلح . واستجاب بلطه جي محمد باشا لطلب القيصر وعقد اتفاق أو سلم بروث (٢) في الثالث والعشرين من شهر يوليو - تموز - ١٧١١ وتنازل بطرس عن آزوف ، ووافق على عدم القلاع المرفى على إقامتها ، وتعهد بعدم إخراج بنفيه في شئون تار الترم أو في شئون بولند ، وبألا يعود إلى تعيين سفير له في إستانبول ، وأن يكف عن التآمر مع رعايا السلطان الأرثوذكس . واتضح أنه كان في استطاعة الصلور الأعظم أن يجبر القيصر على قبول جميع مطالب الدولة نظراً لمركزه بالحرب . ومن ثم قامت الشبهات قوية حول بلطه جي محمد باشا أنه أخذ رشا حتى ارتضى التوقيع على هذا الاتفاق الذي انطوى على تسامح وسخاء . ويذكر بعض

(١) رشا باسم الرشا جمع رشوة بكسر الراء .

(٢) يرد اسم هذا الاتفاق في المراجع الإنجليزية على أنه صلح الترمين .

Agreement of Pruth

Peace of Pruth

Traité du Pruth

ويرد في المراجع الفرنسية صلح بروث

ولهذه الصلحة اسم آخر تعرف به ، هو فالكن Falcken

انظر : Lavisse et Rambaud ; op. cit., tome VI, pp. 810-812

Hodderway W.F.; A History of Europe 1610-1715.

London, 1967, p. 437.

لجورجين أن كاترين الأولى (١) قد ضمت جميع ممتلكاتها وحطبها وأمور أخرى ، إذ أوعزت إلى زوجها بطرس الأكبر بأن يقدم هذه الثروة الهائلة إلى بطريرك سيجي محمد باشا الذي ضعف أمام هذا الإغراء المالى وغير المالى ، ووافق على إبرام معاهدة بروث (٢) .

صانع حظوى يفتنوا أصحلام :

كانت نوجية بعض قصود النظام مثار غبطة الجساهير عليهم . كانوا من حيلة ضريبة النملان وأعدوا إعداداً طويلاً لشغل المناصب القيادية ، العسكرية أو المدنية في الدولة ، ولكن تسلسل إلى صفوفهم - نتيجة حالة أو سباجة بعض السلاطين - رجال بدأوا حياتهم بداية متواضعة وفي مجالات لا تمت بصلة إلى اختصاصات الصدر الأعظم في دولة من كبرى دول العالم . نذكر من هذا الفريق رجلاً يسمى إبراهيم . بدأ حياته صانع حظوى في إسكى سراي - أى للسراي القديم في إستانبول - وهي حرفة يطلق على شاغلها في اللغة التركية « حظوى » ، واكتسب إعجاب السلطان أحمد الثالث ، واقتله صفياً له . وظل يتدرج في مناصب الخدمة الخارجية في السراي القديم وفي مناصب أخرى في إستانبول والأقاليم . ثم انتهى به الأمر إلى أن روجه السلطان إسحى بناته ، وهي الأميرة فاطمة ، في عام ١٧١٧ وكانت تبلغ من العمر وقتذاك ثلاث عشرة سنة . واكتسب « العريس » لقب داماد ، فأصبح اسمه إبراهيم باشا داماد (٣) أى إبراهيم باشا صهر السلطان ، وهذه

(١) قصود كاترين الأولى من أسرة قاتير . تزوجت في حلق شبابها جمعاً من السريد ، ثم وقعت أسيرة في يد القروس سنة ١٧٠٢ ، وكانت على حظ موفور جداً من الجلب ، فأصبح لها الأمير مشكوف وإتقنا خليفة له . وفي عام ١٧١١ وقعت أسيراً بطرس الأكبر حينها فسلم بحبها وإتقنا خليفة له ، وولفتة في عظم حروبه . وبعد أن أنجبت منه عدداً من الأولاد تزوجها رسمياً بتزوجها إمبراطورة في عام ١٧٢٤ . ولا تحق للتيسر في لغة التالية . غلته في حكم الدولة وتوفيت سنة ١٧٢٧ .

Hoar CL; Encycl. of Islam. Art. Ahmed III

(٢)

(٣) قريب في التاريخ للدولة شخصية أخرى تحمل ذلك الاسم وفاتت القرب ، وهي شخصية إبراهيم باشا داماد . وكان صديقاً للسلطان مراد الثالث ، وتولى منصب الوزارة العظمى ثلاثاً .

السلطان صليباً أعظم وظل يشغل منصبه حتى عشرة سنة حتى قام الشعب بفتنة خطيرة في شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٧٣٠ أسفرت عن سقوط إبراهيم باشا وخلع أحمد الثالث. وقد رفض السلطان تسليم صفيه حياً إلى الشعب اللأثر فشقته في القصر في ٣٠ من سبتمبر - أيلول - عام ١٧٣٠ وفي اليوم التالي اضطر السلطان إلى التنازل عن العرش.

كان تصالون نفوذ السلاطين والصدور العظام يسير سيراً حكيماً مع زيادة نفوذ الحريم السلطاني، بمعنى أنه كلما انكشف نفوذ السلاطين والصدور العظام ازداد نفوذ مراكز القوى في الحريم السلطاني علواً وطغياناً. وينطبق هذا الحكم العام على عهد صولطان باشا الصليبا الأعظم أيضاً. وقد سبق أن التقينا به في هذه الدراسة. وتضيف هنا أنه استحال عليه ممارسة اختصاصات منصبه أمام مراكز القوى في الحريم السلطاني، وتعلم عليه الاتصال بالسلطان مراد الثالث أو الصالون منه على الرغم من أنه كان متزوجاً من الأميرة إسحمت أخت السلطان. لم تشفع له خدماته إلى أسلافها للدولة ولا مصارحته بالسلطان. ورؤى التخلص منه ودخل الجاني متكرراً في زى أحمد القراويش إلى مجلسه بحجة تقديم شكوى له. وطعنه بحجر في قلبه فأزراه قتيلاً في الحال. وقد وقع حادث اختياله في اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٥٧٩ بعد مضي أربع سنوات من تولي مراد الثالث العرش. ولم تشغل شخصية قوية منصب الصليبا العظمى إلا بعد قرن من الزمان بتعيين محمد كوبرلي باشا.

دوكسلاخ ذات الوجه الباهم مركز قوة خطيرة في الدولة :

ومن أبرز الأمثلة على استئصال نفوذ الحريم السلطاني الدور الذي قامت

بمرات على عهد عثمان السلطان عبد الثالث. وكروج الأميرة حاتنة ابنة السلطان مراد الرابع في آخر شهر مايو - آيار - ١٥٨٩.

وفي تاريخ الدولة يوجد في آخر هو إبراهيم باشا كان صليباً السلطان سليمان المرحوم التي حبه صليباً أعظم ومنحه اختصاصات واسعة في الحكم وحضر السلطان حفل زفافه في ٢٢ مايو - آيار - عام ١٥٦٤ وكان يومها مشهوراً في التاريخ الهلالي. وكانت نهاية هذا الصليبا الأعظم مروعة، إذ أمر السلطان بإعدامه فبكت نتيجة مؤامرة دبرتها دوكسلاخ لخدمة السلطان، وكان ذلك في ١٥ مارس - آذار - ١٥٣٩. وستبقى هذه الشخصية في مراحل قادمة في هذا الفصل.

به روكسلانه *Roxalane* ، وهي روسية الأصل اختطفها
تجار الرقيق من خوبيا في بلاد القوقاز . وكانت ابنة لأحد رجال الدين واسمه
مدي روجالين *de Rogalino* ، وباعوها للسلطان سليمان
المشرع فأطلقها بالحريم السلطاني . واستبلت حياتها الجميلة في القصر كجارية .
كانت على حظ موفور جداً من جمال الخلقة والرقّة ونخعة الروح
ورمالة الشعور . وكان يطلق عليها خورم ، *Kourum* ، وهي لفظة تركية
معناها الباسمة ، أو ذات الوجه الباسم . كما عرفت باسم روكسلانه *Roxalane*
أي الروسية . هام بها السلطان سليمان المشرع ، وبلغ حبه لها شخاف قلبه فأعقها
وأحب منها ذكوراً وإناثاً ، وارتضت مكانها طبقاً لقواعد البروتوكول
من جارية إلى قادين وظل حبه لها نيتاً نضراً يتفياً ظلاله عن عيني ويسار .
وسيطرت على قلب السلطان وحقله ممّا ، فأصبحت مستشاره الأول في
شئون الدولة (١) . واحتجب في قصره لأنه كان لا يطيق حباً بعلماً . وتحل
من قيادة الحملات الحربية . وكان موجوده في ساحات الحرب يثير حماس
الجنود . واعتاد الإنكشارية ألا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود الحملة .
وكانت أوروبا تترك جيداً مدي نفوذ العريس والرهيب التي كانت تتمتع
به روكسلانه . وأجعت آراء المعاصرين لها على أنها كانت السيلة الأولى في
الدولة العثمانية ، وكانت تصفو لها جباه الجميع ، ويتصامل أي نفوذ في الدولة
أمام شخصيتها الطاغية وذكائها الساحق .

أرادت روكسلانه أن يكون ابنها الأمير سليم ولياً للعهد بدلاً من الأمير
مصطفى ، وهو الابن الأكبر للسلطان سليمان من زوجة أخرى شركية .
ودبرت روكسلانه مؤامرة محكمة لتحقيق أمنيتها . وكان أول مخطط هذه
المؤامرة إفساد الجو العائلي بين السلطان وزوجه الشركية . انضمت بشادة
كلامية مع غريمها . وبدأت هذه المشادة بالمقاومة بين النساء الأولى لكل
منها . وضطورت المناقشة إلى الاشتباك بالأيدى . واصطنعت روكسلانه
للضعف وزرعت غريمها تنال حبها ضرباً ولكلاً ، وشملت شعر رأسها
وزرعت بفضاً مه ، وتغلقت الزوجة الشركية لخلشت وجه روكسلانه

بأظفارها بحيث أصبحت أكار الخنوش يادية على وجهها . وقالت : « هنا مثالا كبيرا ، وهذا ما كانت تصب روكسلاته . » وحينئذ عن السلطان على غير عادتها ، واستبد به القلق عليها . وأرسل يستدعيها ، فاعتذرت عن عدم الحضور إليه . وتكرر الاستدعاء والاعتذار . وفي آخر الأمر أرسلت إليه رسالة شفوية قالت فيها إنها غير جديرة بالظهور أمام السلطان ، لأنها « لم يباع ويشترى » ، وهي العبارة التي أطلقها عليها الفريرة الشريكية . وأمر السلطان على حضورها . فبجاسته على استدعاء وظاهرته بتأثرها الشديد لما وقع لها من إهانات بالغة . وكانت المجموع تهرمن مقتبها ، وأكار الخنوش والكلمات يادية على خطبها . وكان شعرها غير منظم . وقصت عليه ما حدث لها من زوجها الشريكية . ولادت لأثرة السلطان على الأخيرة . وقال إنها لا تستحق منه تقديرا (١) . ونجحت حيلة روكسلاته في إفساد الجوين السلطان وزوجه الأولى .

مضت روكسلاته بعد ذلك في تفيل حقائق المؤامرة . فخلعت الأمير مصطفى ولي العهد وابن غريمها حاكما على آلمانيا (٢) . ثم التفت كى يكون بعيدا عن إستنبول مقر الحكم وعن مؤمراتها (٣) . ثم التفت إلى إبراهيم باشا الصدر الأعظم فخلعت من زوجها السلطان سليمان حزه من منصبه . وكان هذا الرجل الألباني (٤) من جيرة للصدور النظام على عهد السلطان سليمان وموضع قته الثامة وتقديره العميق . وقد روجه السلطان من إحدى شقيقاته . وكان يخرج مع السلطان في الحملات العسكرية في

(١) نشر لكرنوخ القرنى راسموفيتش من تقريره سنة ١٩٥٣ عن هذا الخلق برافرو
البحر Borsado Navero مثل جمهورية البلقية لدى السلطان الألباني في إستنبول
انظر للرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٧٦١ حالية رقم ١ .

(٢) مدينة في الأناضول ، وقبع على نهر لنكر لدمك Yechil-Irmack . وتسمى
نهرها من أنها كانت مملكة رأس سترابون Strabon الجغرافى اليونانى للظهور
ويكتب اسم هذه المنطقة في بعض اللوائح الفرنسية Amasiah

(٣) كان الأمير مصطفى حاكما على آلمانيا Magasie . وعلى في إقليم ليبيا في
الأناضول وتربية سجا من إستنبول . وكان يهترق السفرا إليها من العاصمة بدمه أيام .
أما آلمانيا فكانت ليد من إستنبول بمسيرة خمسة وعشرين يوما في قته فوقت .

(٤) ذكر بعض اللوائح أن إبراهيم باشا كان يونانى الأصل .

أوروبا ون آسيا . وكان له دور بارز في الانتصارات الحربية على الدولة الصليبية في فارس ، وأكل فتح إقليم آذربيجان ، واتجه إلى العراق وفتح بغداد في أواخر عام ١٥٣٤ ونزلها السلطان سليمان في يناير كانون ثان ١٥٣٥ . وكان السلطان ينيه في إجراء المفاوضات مع الدول (١) . وكان على حطموغور من العلم والثقافة والفنون وراعياً للشعراء والمثقفين . واستجاب السلطان سليمان لرغبة روكسلانه ، فزول إبراهيم باشا للصدر الأعظم من منصبه . ولكنها لم تفتح بهذا العزل ، بل طلبت من زوجها قتلها . وتم اغتياله في اليوم الخامس من شهر مارس - آذار عام ١٥٣٦ وهو يدخل القصر السلطاني ليلا ليتناول طعام العشاء على مائدة السلطان . ولم تشفع له انتصاراته وإنجازاته عند السلطان . وهكذا قتل الصدر الأعظم غيلة دون أن يوجه إليه اتهام أو يقدم لهاكمة . وكان اغتيال إبراهيم باشا فرصة ذهبية لروكسلانه لإطلاق يدها في استكمال حقائق المؤامرة . ووقع اختيارها بعد فترة على أحد الباشوات ، ويدهى رسم باشا ، اطاعت اليه ليكون حوفاً لها في تحقيق حلمها بتعيين ابنها ولياً للعهد ، وزوجته إحدى بناتها واسمها محرمه Mihremash . وطلبت من زوجها تسميته صديراً أعظم . حقق السلطان رغبة روكسلانه . وأصبح للصدر الأعظم ألمعية في يدها تحركه كيف شامت وأتى شامت . وتحقيقاً لرغبتها واسترضاء لها أخلق السلطان الكبير من الرعاية على صهره رسم باشا . والنهز الأخير مصاهرته السلطان ، فلجأ إلى وسائل الكسب غير المشروع طمعاً في الإثراء الخرام والسريع . ونقض السلطان للطرف عن اعترافه واستغلاله المدين لمنصبه الكبير ، فوضع يده على حدة قرى كبيرة من أملاك الدولة ، وأوقف على نفسه : التيارات ، وهي الأرض الزراعية التي كانت تعطى لطوائف من العسكريين طبقاً للنظام الإقطاعي العسكري (٢) . ولا اقتصرت الحروب بين الدولة العثمانية والدولة الصليبية مرة أخرى عام ١٥٤٨ سحقت لها الفرصة التي طال انتظارها لها لتتخلص من ولي العهد الأمير مصطفى .

(١) انظر مرةً للإختصاصات التي قام بها إبراهيم باشا في : .

Lavisse et Rambaud ; op. cit. t. IV, p. 762.

(٢) سجد أن فرصتها في هذه المراسمة لها النظام .

انظر من ص ١٢١ - ١٢٢ .

ويقال إن هذه الحرب قد قامت بإيعاز منها ، ويقال في هذا الصدد أيضاً إن روكسلان كانت تبادل مراسلات مع زوجها طهاسب الأول (Tamasp I) (١٥٢٤-١٥٧٦) شاه الدولة الصفوية . واهتقت السلطنة روكسلان مع رسم يشا على إيفار صدر السلطان إيتاراً حقيقاً على ابنه وولى عهد الأمير مصطفى . فأدخل رسم يشا في روع السلطان أن ولى العهد يتآمر مع الفرس لتحقيق مكرب شخصية له ، ثم عاد فأبلغ السلطان أنه سمع الجنود الإنكشارية يقولون إن السلطان قد غدا رجلاً طاعناً في السن ووعن العظم منه بحيث لا يستطيع أن يخوض المبارك ، وقد كان الآوان للمناداة بالأمير مصطفى سلطاناً وتنحية والده رجة به وشفقة عليه . وقد فعلت هذه الرشاية فعلها . وأصبح الأب بنوحى خيفة من ابنه وولى عهد . وانتهى رأياً إلى ضرورة التخلص منه بقتله . ولكنه أراد أن يطمئن إلى سلامة القطة فنكرا إلى أرمع تفتيلها ، أو لعله أراد أن يضمن عليها صيغة شرعية إسلامية . فحرص على شيخ الإسلام أنى سرور الموضوع بعد أن غير معاملة الشككية واستطلع رأيه في هذه المسألة . وقد عرضها السلطان سليمان المشرع على شيخ الإسلام بقوله إنه كان في إستنبول لتاجر يرى ذو مركز اجتماعى مرموق . وطلبت تجارته أن يغيب عن العاصمة بعض الوقت . وعهد إلى عياله كثيراً ما أحسن إليه أن يشرف على أعماله ويرعى في ذات الوقت زوجته وأولاده في أثناء غيابها . ورأى للتاجر أن يبلغ زوجته وأولاده أنه عهد إلى هذا العهد برعايتهم في أثناء غيابها . ولم يكمل للتاجر بنادر إستنبول حتى سعى العبد لاختلاس أموال سيده وتلميع تجارته وتكر على حياة زوجته وأولاده . وعلم السلطان سليمان من هذه القصة الخيالية إلى سؤال طرحة على شيخ الإسلام ليجيب عليه . ما هي العقوبة العادلة التي يستحقها هذا العبد ؟ فأجاب أنه يستحق الإعدام . يقول ليبر الأمريكى - الذى نقلنا عنه هذه الرواية (١) إن هذه القصة التي

Lybster A.H. ; op. cit., p. 213.

(١)

وقد نقلها من كتاب وصف باللاتينية أحد السفراء في إستنبول على عهد السلطان سليمان المشرع تقول فيه ترويع المرأة المتأينة ، وكان مقيراً لذلك شلوك الخامس ، واتهم في إستنبول من عام ١٥٥٥ إلى عام ١٥٦٢ و٤٩

De Busbecq Ogier Ghinain; Life and Letters. Translated by C.T. Forster and F.H. B. Daniel, 2 vols. London, 1881, vol. I, pp. 116-117 .

صارت من شيخ الإسلام - سواء كانت تغيراً حقيقياً عن رأيه في ضوء الشريعة الإسلامية أو أنه أصله هذه الفتوى بإعاز من رسم باشا نو من روكسلاته - فلها - أي الفتوى - جعلت السلطان سليمان زخاد نصيباً على قتل ابنه وولي عهده الأمير مصطفى تأسيساً على أن حياة الابن لوالده لا تقل في بشاعتها عن حياة العهد لسيده التاجر في إستانبول (١) . وبعت سليمان في استنحاء ابنه إلى آسيا حيث كان يقم السلطان مع جيشه . وعفى أصلحاه الابن مئة هذه المقابلة ونصحه بعدم اللهاب إلى والده . ولكن عفى، وقال إن طاعة الموالدين أمر يفرضه الدين . وإنه لم يرتكب عملاً يخفى منه غضب والده ، وإنه إذا قطعه هو على كل حال والده ، وهو الذي أتى به إلى هذه الحياة . ولما دخل الابن على أبيه في عيمته أعطى الأمير إشارة معينة ، فاتفق عليه ثلاثة من الجلادين وقطروه . وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر سبتمبر - أيول - عام ١٥٥٣ ، وكان من سوء حظ الدولة العثمانية أن تمت هذه القصة للشهادة ، إذ كان من بين نتائجها :

أولاً : حرمان الدولة من سلطان مرهوب هو الأمير مصطفى أجمع معاصروه على أنه كان يستمتع بكنائبات ممتازة تجعله جذباً بارهقه العرش خطفاً لسلطان عظيم هو سليمان المشرع .

ثانياً : اندلاع حرب أهلية في الدولة . فقد كان الأمير سليم أكبر أبناء السلطنة روكسلاته موضع احتقار شديد من القيايق الإنكشارية . وكانت تصرفاته المشبهة بموضوع حطيت الجماهير . ثم وقف بجيش في وجهه بصفته ولياً للعهد . فدأبت الآمال الابن الثاني لروكسلاته ، وهو الأمير أبو يزيد ، كان حاكماً على إقليم قرمان Karaman في جنوبي آسيا الصغرى ، وأراد أن يستأثر بولاية العهد دون أخيه الأكبر . واستعان بقوات من الجيش . واندلعت حرب أهلية ، وحدث انقسام خطير في صفوف الجيش . وماتت السلطنة روكسلاته في مهتل هذه الحرب . وحزن زوجها عليها حزناً شديداً أصبح مصرب الأمثال في وفاة بعض الأزواج لزوجاتهم بعد رحيلهن عن

هذه الحياة الدنيا . وعلى الرغم من حرته ومن شيخوخته سار السلطان على رأس قوات من جيشه لمحاربة ابنه الأمير أبي يزيد . واستطاع السلطان سليمان وابنه الأمير سليم إزقاع هزيمة ساحقة للأمير أبي يزيد في قوته عام ١٥٥٩ ، وفر الأمير المنهزم إلى فارس . وطلب والده من طلمب الأول شاه الدولة الصفوية تسليم الأمير اللاجئ . وقبل الشاه بعد أن تقاضى أربعمائة ألف قطعة ذهبية . وكانت نهاية هذا الأمير الحسن مروعة . فقد ذبح هو وأولاده الخمسة عام ١٥٦١ (١) . وكان انصياع السلطان سليمان المشرع وتوجهه روكسلاته وتلقاه على استرضائها على أي نحو من الأنحاء ، والمخالب التي قام بها في إطلاق الأسيرة الحبيبة ، نقلاً سوداء في تاريخ هذا السلطان الذي يعد من أعظم سلاطين الدولة العثمانية سوله في الحرب أو السياسة أو التشريع أو التصير الذي يمثل في بناء مسجده الكبير الرابع في إستانبول بالإضافة إلى أكثر من ثمانين مسجداً كبيراً واثنين وخمسين مسجداً صغيراً والكتائب التي أنشأها لتحمي القرآن الكريم والمعاهد للدراسة والمستشفيات والمطاعم العامة والمباني العامة والمتاحف والقصور وغيرها من المنشآت الهائلة (٢) .

ويطلق عليه المثل الفرنسي المشهور *cherchez la femme* أي ابحث من المرأة . ولم تكن هذه السيلة سوى روكسلاته وزوجه ومحبوبته اغفلها الله الأدنى بين نساء العالمين .

الثاني : انتقال وراثته العرش ظلماً وخدراً إلى الأمير سليم الثاني العرش باسم السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) عقب وفاة والده السلطان سليمان المشرع (٣) . وكانت حياته الخاصة تشبع بأفكار الرذائل التي

(١) Lavisse et Rambaud; op. cit., tome IV pp. 763-764.

(٢) أنظر مرعياً خلافاً لفتاوى السلوية سوله في مكة المكرمة أو بيت المقدس أو بغداد أو قرطبة وغيرها .

دكتور عبد العزيز محمد الفتوى : ادرويا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، السيرة الأولى ، ص ٦٨٦ - ٦٨٨ .

(٣) جاز السلطان سليمان المشرع إلى دية ليلة ٥ - ٦ محرم - أيلول - عام ١٥٦٦ ليلة

يشعر الإنسان بالجل عند مجامعها ، إلى جانب إسرائفه في تناول الخمر .
وكان لا يقيم من سكره إلا لاما وأطلقت عليه الجاهل - من باب التكم عليه
والسخرية به - سليم مست ، أي سليم السكر ، وأطلق عليه سليم نصف الروسي
le demi - Russe إشارة إلى أن والدته روكسلاته كانت روسية . وكان
يقضي أوقاته في جمل القصر يحارس هواياته في شرب الخمر ومطلقاً للسان
لشواته البيمية ، ومسامراً حثالة الناس الذين كان بعضهم في حاشيته . ولم
يلعب هذا السلطان قط إلى ساحة قتال . ويقرر أحد كبار المؤرخين الفرنسيين
أن سبباً لتأني كان أول سلطان في الدولة العثمانية لم يخرج إلى الحرب . ويوجز
هذا المؤرخ بعض هذه المعالم الرئيسية في الحياة الخاصة والحياة العامة للسلطان
سليم الثاني في هذه العبارات :

Sélim. II, le demi-Russe, fut sur le trône une manière de roi fainéant.
Le fils de ce Soliman qui avait passé sa vie en chevauchées est le premier
des sultans ottomans qui n'ait jamais paru dans les camps. Il passait ses
jours au fond du Sérail, livré à tous les vices, même les plus honteux.
Il lui en est resté le surnom de Sélim Mesi (Sélim l'ivrogne) (١)

والترماً بالموضوعة تقول إنه ثم في هذه لإرسال حملة عسكرية بقيادة
ستان باشا عام ١٥٦٩ إلى اليمن لإعادة السيطرة العثمانية على هذه البلاد ، وهي

١٩ - ٢٠ - ص ٩٧٤ من ثلاث وسبعين سنة تقسم بها سباً وأربعين سنة في الحكم .
ويلاحظ أنه ولد في اليوم السابع والشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٤٩٤ (هـ ٩٠٠)
شمالاً . وقد قضى فيه وهو بعيد من العاصمة ، إذ كان على رأس الجيش إلى مدينة أولو
وهي في بلاد البحر في الشمال الشرقي من مدينة يرد (برطانت) على مسافة مائة وثلاثين كيلو متراً
وعلم وهو في الطريق أنها أنجب سكرتيراً ، وهي مدينة في بلاد البحر كقبر بمساحة التربة ،
له أطلال الصيوان فزأ أن يصبه إليها لولا . واحتل سبقتها الإسلامية ، فأغل جبرهما مراتهم
خطية واحصوا بقلتها . ولفه فيه المرض في أثناء الحملات الحربية ولفه أنقلب الأخيرة .
وأعنى بعد صوفه باشا بآؤفه من الجيش . ولأنه أن السلطان مريض ولا يستطيع مقابلة أحد .
وأجل به سليم الثاني ، قاصر بالسفر إلى إستانبول حيث قضى فيها يومين ، ثم استأنف سفره
إلى سكرتير لمرافقة جده والده إلى إستانبول . ولا بلغ صوفيا أناع سليم في ٦ من أكتوبر -
تشرين أول - ١٥٦٦ وفاة والده وتولية العرش . ثم قصد مدينة بلنراد ومكث فيها حتى وصل
بعد صوفه باشا رسم جده جده إلى إستانبول .

الحملة التي يطلق عليها بعض الباحثين تجاوزاً الفتح المماني الثاني لليون . كما
ثم لمان حكم سليم الثاني فتح جزيرة قبرص (١٥٧٠-١٥٧١) . ويرجع
هذا الفتح للمعركة إلى قوة الدفع التي كانت لا تزال كامنة في الدولة بعد
حكم والده السلطان - لمان - المشرع . وكانت شعلة الجهاد لا تزال مشتعلة في
نفوس أفراد القنات المسلحة للمماني ووجود شخصيات عمالية قوية وزينة
تركها لمان لابنه في المراكز القيادية في الدولة . ومع ذلك فإن فتح قبرص
يرتبط بواقعة تسمى إلى سمعة - لم الثاني . كان في حاشيته صليبي حرم من حثالة
اليهود يسمى جوزيف ناسي Joseph Nassi كان يسمى أوب الأمر دون
ميجيه Don Migeaz وهو من الرعايا . ونجح في التسلل إلى حاشية السلطان .
وفي ظل شتى أنواع الانحراف الملقى الذي تدرى فيه منم الثاني تمتع اليهودي
بغزو كبير لبلده . وزين له غزو جزيرة ناكوس Naxos وتم استيلاء
الممانيين عليها عام ١٥٦٧ ، وبلغ من حظوة اليهودي لدى سليم أن الأخير
أعطاه جزيرة ناكوس إقطاعاً له . ولم تحض سنوات معلومة حتى تجاهر
اليهودي وأعلن نفسه حوقاً عليها « بفضل الله » . ولم تقف أطماع اليهودي عند
هذا الحد ، بل زين السلطان فتح جزيرة قبرص على أمل أن يأخذها إقطاعاً
له . وكان من بين الأماني التي ساقها اليهودي للسلطان أن يبذل قبرص لا
يضارعه نيذراً آخر في العالم . وفي نشوء النسر والمملكات قال سليم لليهودي :
« ستكون ملكاً على قبرص » (١) .

وعلى عهد هذا السلطان الكبير والنصف رومى والمتحرف مطلقاً ،
اعترضت الدولة لكارثة حرية دينية قومية . إذ تكون حطب صليبي أوروبي
ضلعها . وكان قوام هذا الحطب : إسبانيا ، وجمهورية البندقية ، واليابونية في
روما ، وتسكانيا ، وچنوا ، وسافوى ، وإلما Parme ، وماندو Mandone ،
وفرارا Ferraro وغيرها من الكيانات السياسية في شبه الجزيرة الإيطالية ،
وكلكتا فرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطة . وكان من بين أسباب قيام

(١) « دكتور عبد العزيز محمد كشوي : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع

مجلد ١٠ ج ١ ، طبعة الأولى ، ص ٧٦٢ - ٧٦٣

هذا الصعاف الصليبي ما تراه إلى مسلم ملك وروماء هذه الدول والكيانات السياسية من أبناء صافية عن انصراف صام للثاني عن شئون الدولة وللرفية في القضاء على وجودها في البحر المتوسط واسترجاع المكاسب الإقليمية التي حققها والده السلطان سليمان . واشتبهت القوات البحرية للدولة هذا الحلف الصليبي ، وكان حلف سفنًا مائتين وخمسين سفينة ، مع الأسطول العثماني وكان حلفه سنة ثلاثمائة سفينة في معركة ليهانت (١) Lepanto في السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٧١ ، ولم تستمر الحركة أكثر من ثلاث ساعات ، وحلّ الرغم من الخسائر الكبيرة التي تكبدها أعضاء الحلف الصليبي في السفن والأرواح ، إلا أن خسائر العثمانيين كانت فادحة . فقد تحطم الأسطول العثماني . غرقت معظم سفنه ، وأسرت سفن أخرى ، ولافت بالفراغ ثلاث عشرة سفينة . وتحلّ في الحركة القبطان باشا وحلفه من الباشوات والبيكرات وحكام بعض الأقاليم العثمانية . وبلغت خسائر الدولة في الأفراد وهاء خسرين ألفاً (٢) . وكان البابا بيوس الخامس Pius V هو المخطط والحرك الأول لهذا الحلف (٣) ويطلق المؤرخون على هذه الحرب La Croisade Chrétienne أي الحرب الصليبية المسيحية (٤) . وكانت معركة ليهانت إحدى معركتين بحريتين كبيرتين وقعتا في القرن السادس عشر (٥) .

وقابل العالم المسيحي بايهاج شديد أبناء المذمبة التي نزلت بالدولة العثمانية بصفتها دولة الإسلام الكبرى. وأقيمت في كنائس جميع أنحاء العالم المسيحي صلاة شكر to Dieu لانتصار المسيحية على الإسلام . ونظمت الاحتفالات

(١) يطلق اسم ليهانت على سفينة يحمل على بائرس Petrus خليج كورنث Corinth ، وليانت حالياً لمرمى يوناني .

(٢) انظر وصفاً تفصيلياً لمعركة ليهانت وحملات الملقين في :

Lavisse et Rambaud ; op. cit. t. v, pp. 859-862.

Loc. Cit. (٣)

Loc. Cit. (٤)

(٥) كانت المعركة الثانية هي معركة الأرمادا البحرية عام ١٥٨٨ ، وقد استطاع فيها الأسطول البريطاني تحطيم الأسطول الإسباني على الساحل الغربي قرب كاليب Calis

وأقيمت الزينات في روما وبنسقية وغيرها ، وكانت احتفالات البابوية في روما باللة الروعة ، فقد نظمت طبقاً لتقاليد الرومانية القديمة (١) . ولعد معركة ليهانت من أفدح الكوارث في تاريخ البحرية العثمانية .



فذلك هو السلطان سليم الثاني غرس يد والده الروسية ووكسلاته ، فرضه فرضاً على الدولة ، بعد مؤامرة محكمة الحلفاء متحدة الخطوات . نجحت في حمل زوجها السلطان سليمان المشرع على إصدار أوامر متعاقبة يهزل ثم قتل إبراهيم باشا الصدر الأعظم ، وتوزيع ابنها من رسم باشا ثم دميته سراً أحظم ، وقتل الأمير مصطفى ولي العهد ، وتعيين ابنها سليم في هذا المنصب . وكان نجاحها في تنقيط هذه المؤامرة يعكس الأوضاع السياسية على أهل المستعرات في الدولة ، ويجسد الدور البارز للحريم السلطاني كمرکز قوة من أنشط مراكز القوى . وكان رائدتها في هذه المؤامرة تفضيل مصلحة ابنها على المصالح العليا للدولة . وزيد في خطورة هذه السيلة — كمرکز قوة — أنها تقلعت مؤامرتها على عهد زوجها السلطان سليمان المشرع الذي يقف في الصف الأول من بين ملاطين الدولة العثمانية على امتداد تاريخها . ولو كان سليم الثاني شخصية قوية وعلى خلقه من الأمر ، ولكنه كان من أسوأ السلاطين ويطلق عليه رامبو Rambaud المؤرخ الفرنسي وصفاً دقيقاً هو « التبلد » (٢) *faiblesse* . ويجمع المؤرخون على أن حكم سليم الثاني كان البداية الحقيقية والفعالية لانحلال الدولة العثمانية (٣) ، وأن الدور الخطير الذي قامت به ووكسلاته في هذا الأمر قد جلب الكوارث على مستقبل الدولة العثمانية (٤) .

أربع سنوات كن دعائم الدولة :

سبق أن ذكرنا أن بعض المؤرخين شبهوا الدولة العثمانية بإمان مصرها

(١) دكتور عبد العزيز عبد الفتاح : *الدولة في مطلع الخ* ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الفقرة الأولى ، ص ٧٧٥ - ٧٧٧ .

(٢) انظر سابق ، ص ٩٠٣ .

Grant A.J. : *A History etc.*, op. cit., p. 225.

(٣)

Lavisse et Rambaud, op. cit., t. IV p. 761.

(٤)

اللهي الأول بنجمة كبيرة شملت إلى أربعة أوتاد ، وأن هذه الأوتاد الأربعة كانت بالنسبة لقوله بمثابة دعائم أربعة quatre supports ، وأن هذه التسمية مقتبسة من حياة المختصات في المراضى التي عاش فيها أجداد الغمانيين في سهل الإسكس في آسيا قبل نزولهم إلى الأناضول . وكانت هذه الدعائم تتمثل في الورداء ، وورساء القصاة ، والافترهاريين ، والانشائية ولكن تحولت هذه الدعائم الأربع على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) إلى أربع ميولات ، هن :

أولاً . ولادة السلطان مراد الثالث ، ويطلق عليها المصطلح التاريخي « سلطنة ولادة » ، وهي إحدى قاضيات السلطان سليم الثاني وكانت تسمى نور بانو Nour Bano ومما لها سيلة لنور Dame de Lumiere وكانت مركز قوة خطير في الدولة ، وهي تشبه من هذه الناحية ملكة فرنسا الولاية كاترين دي ميديشي ، وكانت معاصرة لها .

ثانياً : الزوجة الأولى للسلطان ، وبجارة أكثر حيلة الباش قادين أي كبيرة القاضيات واسمها صفية . وهي من جمهورية البندقية ، وتنتمي إلى أسرة نبيلة مسيحية تسمى أسرة بافو Baffo ويطلق بعض المؤرخين عليها اسم أسرتهما المسيحية فيقولون السلطنة بافو بدلا من صفية . وكان ولدها حاكما على جزيرة كورفو Corfu . وبينما كانت في سفينة مع بعض السيدات النيبليات في طريقها إلى ولدها تسقطها القرصنة . وكان عمرها وقتذاك أربعة عشر ربيعا . وكانت على حظ موفور من الجمال . وقد بيعت وألحقت بالقصر السلطاني ودخلت الحرم كجارية . وسرعان ما تألق نجمها وجلبت انتباها السلطان وهام بعشقها ، فأحضرها وزوجها وأنجب منها وارثا من مركزها من جارية إلى قادين ثم إلى باش قادين . ومما يذكر أنها - بعد أن خدمت مركز قوة خطير ودعامة من الدعائم الأربع للدولة - عملت على أن توجه السياسة الخارجية للدولة العثمانية على نحو يخدم مصالح وطنها الأول ، وهو جمهورية البندقية . ويلاحظ أنها أرادت أن تكفر عن هذا الانحراف الخلق والسياسي ، فكتب عدة مشروعات خيرية دينية إسلامية . ولا يزال يوجد في

القاهرة مسجد يحمل اسمها خفياً ، ولوقفت عليه أولاً بحسرة مدبرة .
 وأقيمت فوق الباب الأوسط لفة الجامع لوحة تذكارية لما نصها : « أنشأت
 هذا الجامع المبارك المصنوع بذكر الله تعالى » صاحبت « الخيرات الآدر
 الشريفة » (١) ولفة المرحوم مولانا السلطان محمد خان طاب ثراه على يد فخر
 الخواص المخضرين مولانا الناظر الشرعي على الوقف المذكور . وكان للتراغ
 من هذا البناء المذكور في السابع والعشرين من شهر محرم الحرام من سنة تسع
 عشر وألف من الهجرة « (٢) . كما يوجد بدار الوثائق والمكتب المصرية

(١) الآدر الشريفة يقصد بها الحرم السلطاني ، والآدر أيضاً من ألقاب الشريف التي
 تحصل للإخوة إلى الخلفاء أو سادات الأسرة من طلبة العلماء ذكوراً وإناثاً . وهناك
 أيضاً مصطلح تاريخي هو آدر الغرب أي دور مكة المشرفة . وآدر جمع دار .
 انظر :

دكتور سيد محمد القليوب : القصر البابلي في مصر وقسطن . مرجع سبق ذكره .
 ص ٣٨٨ .

(٢) يوافق هذا التاريخ المجرى اليوم الخامس والعشرين من شهر أبريل نيسان -
 عام ١٦٦٠ . ويقع هذا الجامع في خط اللطيف .

وقد قسمت حصة الوقف أن تصرف من ربح الأوقاف المرسودة مرتبات معلومة على الجامع
 والقرئين وأمين حفظ المساحات الشريفة ، ومساقى الحرم المسجد أو إصلاحه كلما دعت
 حاجة المسجد إلى ذلك . كما قسمت فروط الوقفية ثمن أدوية دجالة الثانية بالمستأن للفقير
 فاضل البهنا الكبير المواجه للمجمع . ويقوم الثمن بمرس الأسطول والبرسان ، ويشترط
 فيما أن يكونا على دراية بعلوم الأعمال . ويقوم الاثنان الآخران بمرس البستان ويشترط فيما
 أن يكونا شديدي البقية .

وتدعى هذا الجامع على غرار الجامع المنيكية قد إستنبول . وهو ثلاث طبع في مصر
 بنى من الفولاذ النحري المنقش . أولاً طبع سليمان باشا بالقننة ، وثانياً طبع سنان باشا
 بولاق ، وثالثاً طبع صفية ، ثانياً أدوية جوامع من طبع محمد بك ابن القبط بجوار
 جامع الأزهر ، وجميع هذه على باشا بالقننة ، وجميع الحج يمايين .
 انظر :

Mme Devonshire R.L. : L'Egypt Musulmane et Les Fondateurs de ses
 Monuments. Paris, 1925, pp. 123—124.

على مذكور باشا : الخط العرفيكية : مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ١٠٥ ، ص ٢٩ - ٤٠
 حسن عبد الوهاب باشا : تاريخ المسجدة الأزهرية ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٠٠
 ٢٠٦ - ٢١١ ج ٤ ، ص ٧٤ ، ص ١٤٨ - ١٥٠ .

بالتاهرة مصحف شريف مجلول وعلى باللحى مكتوب عليه أنه وقف
المرحومة صبية أم السلطان محمد خان في سنة ١٠٣٢ هـ (١) (٢).

ثالثاً ، أخت السلطان مراد الثالث والمسيحة إسحاث Basmak وكانت
متزوجة من محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم . وللكل خلق باسمه لقب
وخامداة ومسنه صهر وأصبح اسمه يرد في الوثائق المذكوراً على هذا النحو .
خامداة صوقلو محمد باشا .

رابعاً : صيلة عجوز تسمى چاقيد خاتون Djouffda - Khetoun
كانت تقوم بسل كايا Rıya وهي القديسة على الجوارى في قنصور السلطانية
وكان من بين اختصاصاتها تنظيم ليالى السلطان وتوقيع أسباب النعمة المشروعة
وتحريم المشروعة .

الصراع بين والدة السلطان مراد الثالث والقادين صبية :

دار صراع خفي حياً وسافر أحياناً بين نور بانو والدة السلطان مراد
الثالث وبين القادين صبية . وكان هذا الصراع في لحمته وسنده يدور حول
مراكز القوى ، كل منها تريد أن تستأثر بها لنفسها . ولجأت السلطانية والوالدة
إلى سلاح خطر ثبت أنه كان مدمراً لسعة ابنها مراد وكفايته كسلطان بحكم
دولة كبرى متزامة الأطراف . فأحاطت ابنها بعدد من الجوارى القاتلات .
وكان معروفاً عنه شغفه العميق بالنساء . وكانت هذه الحواشي أضاعف نقطة في
خطئه . واستهدفت السلطانية والوالدة من هذا الإجراء أن يجبروا حب السلطان
للقادين صبية أو ينصرف عنها ، ويطلق تأكيداً كبيراً . واستهدفت السلطانية
الوالدة أيضاً من هذا السلاح تحقيق مصالح شخصية لها تمثلت في إخلاء الجو
لها تستأثر في حلة من السلطان بالتمرد في الحرم السلطاني وتسيطر على أجهزة
الحكومة ، وأهم من هذا كله ، وأخطر من هذا كله ، لتوجه السياسة الخارجية
للاولة لحمة مصالح وطنها الأول وهو جمهورية البندقية (٣).

(١) يوافق هذا العام التقريبي سنة ١٦٢٢ وشرطاً من سنة ١٦٢٣ م .

(٢) دلو الوثائق ، المكتب المصري ، القاهرة . هرس المصاحف الشرقية ، ج ١ ،

٢٤٥

— Lavisse et Rambaud; op. cit. t.v, p. 846.

(٣)

وقد تجاوز نفوذ الحرم السلطاني كل حد على عهد هذا السلطان - مراد الثالث - وانتقلت أنباء نفوذهم في الأجرة الحكومية إلى الدول الأوروبية . وقد كتب دى جرميني de Gernigny السفير الفرنسي في إستانبول مذكرة مؤرخة في اليوم الثامن من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٥٧٩ إلى وزارة الخارجية الفرنسية ، وكان مما جاء فيها قوله إن ميلاد الحرم السلطاني يقمن بهور كبير في حكم الدولة ، وإن السلطنة الواقعة على قمة هذا القرن من السبلات ، فهي تسيطر على اللياشوات ، وهي التي تشير بصيغهم في المناصب الرئيسية في الدولة ، وهي التي تصي عليهم الكثير من مظاهر الرعاية (١) .

ولما توفيت السلطنة الواقعة ، نور باتو ، كان من المنتظر أن تخف وطأة مراكز القوى في الحرم السلطاني . ولكن حدث أن السيدة السجور المتحصصة في تنظيم ليالي السلطان ، وهي چاتنبا خاتون ، تطلعت إلى شغل موقع السلطنة الواقعة الواحدة فتدلو هي الأخرى مركز قوة خطير . فسارت على ههجا ، وأكثرت من شراء عدد كبير من الجوارى الفاتحات وألحقتهن بالحرم السلطاني حتى قيل إن مشتريات القصر من هؤلاء الجوارى قد زادت زيادة لم يشهد لها القصر من قبل مثيلا . وأدى الإقبال الشديد على شرائهن إلى ارتفاع سنون في أسعار هذه السلعة الآدمية المتميزة بمجال الوجه ، ورشاقة الجسم ، ونخعة الدم ، والحوية المتلطفة . ومما ساعد على إطلاق يد هذه السيدة للسجور في شراء عدد كبير للغاية من الجوارى الحسن أن لم يكن للدولة في ذلك الوقت مראה منظمة ، إذ لم تكن هناك تمييز واضح بين مصروفات الدولة ومصروفات السلطان . وقد واجهت الحكومة المركزية في إستانبول أزمة مالية حادة على عهد السلطان مراد الثالث نتيجة إسراف الحرم السلطاني في الإنفاق . ولما اضطرت الحكومة إلى سلك حملة ناقصة الميزان ورفض الإنكشارية

Grant A. J.; A History of Europe 1494-1610. op. cit. p. 225. =

(١) نثر المروج الفرنسي وليسو قرات من هذا التقرير . أنظر :

Levişon et Ragnaud; op. cit. t. v. p. 246.

تسلحها ، وبنلأوا إلى سلاحهم الثقيلى ، وهو إعلان التمرد للمسكرى ،
وقطعوا المنفر دار باشى ، وعمد باشا بكربك بك الروملى كما سبق أن ذكرنا .

فاقوم المنيانين :

افسكت هذه الأوضاع على مركز الدولة المنيانية في أوروبا بوجه خاص .
قامت منوشات حل حدود النمسا واشتعلت الحرب بين الدولة والمجر . وثارت
ولايات الأتلاق والبطلان وتراسلانيا ، وانقسمت إلى رودلف
الثاني Rodolphe II ملك النمسا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وقد
جاء الأخير بفاقوم كبير وأمر بأن يلقى فاقوم الخطر ثلاث مرات في اليوم
تذكيراً لرعاياه بضرورة حشد الجهود لمحاربة المنيانين . ولملك أطلق
على هذا الفاقوم : فاقوم الأتراك La Cloche des Turcs ، وقد لى
المنيانيون المزامم وانسحبوا من بعض المواقع المهمة . وفي الجهة الشرقية
اشتعلت الحرب التقليدية بين الدولة المنيانية والدولة العثمانية بعد وفاة الشاه
طاسب الأول سنة ١٥٧٦ ووقوع اضطرابات داخلية . وتبادلت الدولتان
المزمنة والانتصار في حرب استمرت سنوات طوالاً أكثر خلافاً لغير القيادات
المسكورية في الجيش المنيانى نتيجة استفحال نفوذ المجرم السلطانى وتدخلهم
في تعيينات المناصب المسكورية الكبرى .

وفي تقدير أحد أعلام المؤرخين الفرنسيين ، وهو ألفريد رامبو Alfred
Rambaud أن السلطان مراد الثالث يدخل في زمرة السلاطين « الثابتة »
Les Sultans Fatalests الذين حكموا الدولة ، وأن ترتيبه الثاني في
مجموعة هؤلاء السلاطين . أما السلطان الذى يحمل رقم ١ في هذه المجموعة
فهو والده السلطان سليم الثاني .

وفي رأى كوتنى بك فيلسوف السياسى المنيانى أن الإنحلال المتلقى
والفساد المالى في الحكومة المنيانية إنما يبرزان بصورة صارخة إبان حكم
السلطان مراد الثالث . وهو رأى صحيح إلى حد بعيد . وقد جعل هذا الرأى

في المذكورة التي وضعها وعرفت باسم « الرسالة » وقدمها سنة ١٦٣٠ إلى السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) كما سبق أن ذكرنا .

ولما تولى السلطان مراد الثالث ارتقى العرش أكبر أولاده باسم محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣) وكانت والدته ، صفية ، لا تزال على قيد الحياة . وقد ذكرنا أن هذه السيدة كانت أصيلاً من جمهورية البندقية . ولذلك نحن باسم ابنها السلطان محمد الثالث لقب السلطان نصف البندق أو نصف البندقيسي *Le Sultan demi-Vénétien* وكان نفوذ السلطنة الوالدة عليه عظيماً . وهكذا عارضت نفوذاً واسعاً إبان حكم زوجها وحكم ابنها محمد الثالث. وتذكر بعض المراجع قسرية أن هذه السيدة كانت حريصة كل الحرص على استمرار نفوذها في شتى أجهزة الحكومة بعد وفاة زوجها مراد الثالث . فلما تولى ابنها العرش أصدرت أولها لجهة الاختصاص في الحريم السلطاني بتقديم الجوارى اللواتي واحدة بعد أخرى لإبنها السلطان (١) ، لأنها كانت تعرف نقطة الضعف في قلبها ، وهي شغفه الزائد بالجيالات اللواتي ، وأنه جاء على شاكلة أبيه مفتوناً بالنساء الحسان ، فصارت على إتمام بلى وإشغال الفريضة الجنسية في ابها . ونجحت السلطنة الوالدة في غيظها ، إذ انصرف الإبن للنسائات مطلقاً الضمان لشهواته ، وترك لوالدته تصريف شئون الدولة واستمرت مركز قوة وظلت تنبؤاً مكاناً حلياً وتسيطر على شئون الدولة حتى . إذا تولى ابنها عام ١٦٠٣ وخلفه على العرش ابنه باسم أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) كان في مقعدة تصرفاته تجريد جدته المجرور من كل نفوذ . فأمر بحبسها في السراي القديم ومنع اتصال أحد بها كما أريد خلصها . ولكن شهد حكمه انتشار الفتن والاضطرابات في شتى أنحاء الدولة وبوجود عناصر في أوروبا وفي آسيا .

السلطان إبراهيم الأول المسموم :

وسجدت سيدات الحريم السلطاني في ارتقاء إبراهيم الأول (١٦٤٠-١٦٤٨) حرش الدولة فرصة ذهبية لتحقيق مزيد من النفوذ كتركز قوة ،

فإذا لم يستطع بلوغ هذه الناية ، فلا أقل من الحفاظ على موعدهن وسطو بهن ويقاشر مركز قوة . كان هذا السلطان هو آخر أبناء السلطان أحمد الأول ، وأخ كل من السلطان عثمان الثاني ، والسلطان مراد الرابع ، واشتهر باسم السلطان إبراهيم الخنون . كانت تصرفاته شاذة تدعو إلى السخرية ، وتجعله أخطى إلى المصائب بأمراض حقابة منه إلى الأسماء .

السلطان برص لحية بالؤلؤ :

كان لإبراهيم خرام شديدة بترس لحية بطريقة غريبة وشاذة . كان يضع في شعر لحية ، عند جلوس الشعر ، أسلاكاً رفيعة يحميها شعر لحية الكثيف من الأذى . وكان يفضى هذه الأسلاك من الذهب الخالص ، والبيض الآخر من القفصة الخالصة ، ثم يثبت تثبيثاً عكسياً في هذه الأسلاك مصوصاً من اللؤلؤ . ويصرف الباحثون هذا التصرف تفسيرات شتى . فبعضهم أن السلطان كان يعتقد أنه بهذه الأثره ينمو حيلة مهيأ أمام ناظره وبخاصة النساء ، فيردن حيلماً به وتقديراً له . وكان معروفاً عنه أنه يميل إلى السيدات ميلاً عظيماً ويرى البعض الثاني من الباحثين أنه كان يزين بالؤلؤ في لحية لسبب آخر هو أنه كان يميل إلى عاكاة النساء ، إذ كان متصفياً ، ويمثلون إلى أن إبراهيم كان أكثر السلاطين تحفاً . ونجد نثنى هذا البعض أن النساء لا يصنع اللؤلؤ على أذنانهن أو أصابعهن أو خلودهن ١ ١ . ويرى فريق ثالث أن هذا التصرف من جانب السلطان إبراهيم إنما يرمع عن خيل أو اضطراب أو ضعف في قواه العقلية . والرأى الأخير هو الأرجح ، وبخاصة أنه اشتهر بلقب الخنون لهذا التصرف وشاذة أخرى . فغير إليها تباحاً . وأنه بسبب هذه التصرفات صدرت فتوى من شيخ الإسلام بعدم صلاحية للحكم ونم مزله .

صور أخرى من شذوذ السلطان إبراهيم الخنون :

كان السلطان إبراهيم يوحز لبض الحفرين إليه بكسر أبواب محلات بيع المهورات تهب ما فيها . ولم تكن عمليات التهب مقصورة على المحال التي يملكها وعلماء الدولة ، بل كانت تمتد إلى محلات الأوروبيين الذين يشتغلون

في تجارة المخدرات، ولم يأبه باستجلبات مفراء الدول الأجنبية على هذه العمليات الإجرامية فالهمم لديه أن يحصل على كيات وفيرة من التلوث رصع بها لحيته وبغير توضاها في كل يوم . وكان يستعظم حيات الكهرمان في زين سقرته . وفي إحدى المرات أراد أن ينطى جدران القصر السلطاني بالفراء المسور . وبمجة تنفيل هذه الرغبة استحدثت ضريبة قنطلى حصيلها أعان للفراء وبكائيف شحها من روسيا ، وصميت ضريبة للفراء *taxe de fourrures* كما استحدثت ضريبة الكهرمان *taxe d'ambre* .

والدة السلطان تلغ ابنها في طريق الغواية :

استحوذت الجواوى المستنوات على عقله وتفكيره ووقته . وقامت والدته السلطانة كوزم (١) *Koosma* بطور كبير في دفعه في هذا الطريق وكانت حياته الخاصة مضيعة بالقافورات . وقد فاق هذا السلطان في النسق والنموجور والاضلال الخلقى السلطان مراد الثالث . زين له الشيطان أن يجلدى على روجات بعض رجال الدولة . وآثر الأخيرون ترك مناصبهم والمهجرة من إستانبول إلى السجاز ليقضوا بقية أعمالهم متقلين بس الكمية الشريفة في المسجد الحرام بمكة المكرمة وبين المسجد النبوى في المدينة المنورة . ووقعت مغبة كانت ثقل بعضهم في أيدي فرسان القنيس بوحنا - كان مقرهم وقتذاك في جزيرة مالطة - فقتلوا الرجال وسبوا النساء وحولوا الأطلاق إلى المسيحية . فديهم ليكونوا في زعم هؤلاء الفرسان جنوداً من جنود المسيح عليه السلام يحاربون ويقتلون ويأسرون المسلمين في أعالي البحار .

تصاعد النفوذ مراكز القوى في الحرم السلطاني :

تفرغ السلطان ابراهيم للتساليات وترك والدته والقاديات يتصرفن في شئون الدولة . ويقول المؤرخ هرنسى رامبو إنه لم يحدث من قبل أن حكمت سيدات الحرم السلطاني الدولة النهائية بمثل هذا الشمول والتغلغل في أجهزة الحكومة كما حكمتها سيدات الحرم على عهد ابراهيم المخبون . وبلغت والدته

(١) كان اسمها كوزم مابيك *Koosma Mahpikar*

للعودة في مراكز القوى في الدولة . طلبت من ابنها قتل قره مصطفى باشا
والصدر الأعظم، واستجاب السلطان لطلب والدته عام ١٦٤٣ ، ولم تشفع
للصدر الأعظم ببالته في عارية الدولة الصفوية . وكان المأخذ الوحيد عليه
أن والدته السلطان كانت تشر تحوه بكرامية . واستتالا لأمرها أقدم السلطان
على قتل يوسف باشا قائد الحملة على جزيرة كريت بحجة أنه لم يقدم التعصيب
الأدنى من ختام الحرب السلطان والدته (١) . وازداد خبل السلطان فغى
يقول الصلور العظام الواحد بعد الآخر . فأمر بقتل صالح باشا الصدر الأعظم
سنة ١٦٤٧ لأنه رأى حربة نقل بصالح تحف في أحد الشوارع التي مر منها

(١) كان الإسلام قد فرح أول الأمر ملكية ختم الحرب التي يقول عليها المختارون
المسلمون في الماركة ، ورد حله فتمت، إلى الله والرسول ، ليجرد المسلمين من الأوطار ويصلوا
أحرار كله فيهم والرسول صلوات الله وسلامه عليه عليهم . وبذلك يخوض المختارون للماركة
له وفي سبيل الله ونحت راية الإسلام ولفاته الله . وقد جده هذا الحكم الإلبي في أول سورة
الأفقال ، يثأرونه عن الأفقال ، قل الأفقال لله والرسول ، فلتقوا الله وأطيعوا ذات بينكم ،
ولتقوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين .

حتى إذا أصدأت نفوس المسلمين واستقر في أفهامهم أنهم لا يملكون فتمت إبداء ولايتهم
بحق الخضر ، عاد الإسلام في ذات السورة ليجرد عليهم أروية أغناس الفتن ويستحق لنفسه على
الأصل إله والرسول ومن يهول الرسول والجماعة الإسلامية من قوى القرب واليهي والمساكين
واين السبيل . قال تعالى في الآية رقم ٤٧ : وأطيعوا إنما فتنتم من شيء ، فإن لله خمسة والرسول
ولدى القرب واليهي والمساكين واين السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم
الفرقان ، يوم تلقى البصائر ، والله على كل شيء قدير .
ويلاحظ أن :

١ - الأفقال جمع نقل على وزن سبب وأسباب وهي الفتن . ومنها : إن تقوى الله في غير
نقل ، أي غير خفية .

٢ - وأطيعوا ذات بينكم أي للشكوك التي بينكم بخصوص توزيع ختم الحرب في سرية
يد .

٣ - يوم الفرقان يوم معركة بدر . وكانت فرقاً بين الحق والباطل ، أو فرقاً بين حادين
في تاريخ الدعوة الإسلامية : جد السبر والاعتصار والنجس ، وبعده الفترة والافتتاح والمعاد .
ولكن السلطان إبراهيم الأول لم يقل أن يقول على فتنتم خطفاً لتسبة التي قررناها الشريعة
الإسلامية ولوله أن يسأل على فتنتم هيبوز الحسن .
انظر خصوص موقف هذا السلطان ،

المركب السلطاني . واحترم مرتين قتل جميع المسيحيين في إستانبول لولا أن
لوقف في وجهه أحمد زاده أبو سعيد أفندي شيخ الإسلام وحلوه من مغية
هذا الإجراء . وأدرك محمد زاده بلاش الصدر الأعظم أنه بشعر باستحالة
محاكمة اختصاصات وظيفته أمام رغبات مجموعة من الجولرى الحسان والروسيات
والبولنديات والمجريات والفرنسيات . وقال إنهن لا يفكرن إلا في أنفسهم ،
ولا يقدرن المسئولية ، وإن الدولة على وشك الانهيار . وقد أسر بهذا الحديث
إلى أحد أصلقاته وانسكت هذه الأوضاع على مركز الدولة . فهاجم
القوزاق سواحل البحر الأسود . وأغارت جمهورية البندقية على البوسنة
والمشاشيا وجزر يلبونيز *Philopondia* أما الموقف الداخلي فقد ازداد
تدهوراً ، إذ استمر السلطان في مجونه وفسقه . ولهذا السبب في أبدي عطياته .
وكان له من بين أصفياه أحد علماء الدين ، واسمه جنجي خوجه حسين ،
كانت بصاحته من العلم قليلة ، وكان سوء السيرة ، استغل ثوبهات
الإغواء التي كانت تعترى السلطان وحاجله بطلمبات مصرية حتى استطاع أن
يسيطر عليه سيطرة تامة . واستغفلت شهوات إبراهيم ومطالب الحرم وأعوام
رجال البلاط الموارد المالية للدولة . وريدت فئات الضرائب المقررة
واستحدثت ضرائب أخرى لسد نفقات الترف الجنوني في القصر . وأدت
هذه العوامل مجتمعة إلى قيام ثورة علون فيها علماء الدين وعلى رأسهم شيخ
الإسلام أبو سعيد . وبلغت الفياثق الإنكشارية إلى حركة تمرد . وكان الصدر
الأعظم ، عزله ياره أحد ، أول ضحايا الثورة التي أدت إلى عزل هذا السلطان
عام ١٦٤٨ والمتنادة بابنه محمد سلطاناً باسم محمد الرابع ، وكان لا يزال صغيراً ،
له من العمر سبع سنوات (١) . أما والده المزعول فقد تم نقله إلى « جيلي
كوشك » أي القصر العيني حيث شق في اليوم الثامن عشر من شهر أغسطس -
آب - عام ١٦٤٨ بعد أن قضى حشرة أيام في موقعه الحديد والأخير قبل
أن يقسم القبر لهذا السلطان الذي باع نفسه للشيطان .

الصراع على مراكز القوة بين والدة السلطان وجده لأبيه :

أجلس على عرش الدولة السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) . وكان من الطبيعي أن يدور صراع سافر وحديث في الحرم السلطاني على مركز القوة في حكم سلطان يبلغ من العمر سبع سنوات . وتناحست سبلتان تبغى كل منها أن تستأثر بالغزو الأعلى . كانت إحداهما بجته لأبيه وهي سيدة يونانية الأصل صبور اسمها كوزم ماهيكر *Kozum Mahpeker* ، وكانت الأخرى ولدت ، وهي سيدة روسية الأصل ، لا تزال في حبة الصبا وتعبارة الشباب ، عرفت باسم السلطنة الوالدة طرخانة *Turkhan* واشتدت حدة التنافس بين الاثنين . ولم تأخذ اللجنة المعجوز بتصالح وتوجهات العقلاء من أحلام السياسة والتفكر في الدولة واتجهت إلى زعماء الحركة التي قامت عام ١٦٤٨ وأسفرت عن عزل وقتل السلطان إبراهيم الخيون . وتأمرت مع الإنكشارية على قتل منافسها السلطنة الوالدة طرخانة . وفي الليلة المحددة لتنفيذ الحامرة فتحت أبواب القصر السلطاني وأبواب جناح طرخانة ليسهل على الإنكشارية التسلل إلى مخدعها . وشعر الحرس بحركات مريبة وكان الأغوات الخصيان يكتون وراء حديقاً للسلطنة الوالدة . وحدث في أرجاء القصر موبة الخطر في سكون الليل ، وفزع الحرس إلى أسلحتهم وأغلقوا جميع الأبواب ، واتخذ الجميع أماكنهم على أهبة الاستعداد لقتل كل من تحدته نفسه بالاقتراب من القصر . وتوجهت فرقة من الحرس إلى جناح السيدة المعجوز جللة السلطان واندفع أفرادها إلى مخدعها ، فوجدوها غضية في دولاب الملابس بحجرة نومها ، ولم تكن أحدهم تقع عليها حتى ذبحوها . وعلى الرغم من انفراد السلطنة الوالدة طرخانة بعد هذا الحادث الذي وقع في عام ١٦٥١ ، استمرت شؤون الدولة في التدور واستشرى نفوذ مراكز القوى فيها : حلا نفوذ الأغوات الخصيان في دوائر الحكومة ، وتصاعد نفوذ الحرم السلطاني ، وطمح المسكرويون وبخاصة الإنكشارية وملأوا البلاد فساداً ونهباً . وتماقب حل منصب الصدارة العظمى حتى عام ١٦٥٦ ثمانية صدور عظام أعدم معظمهم نتيجة دسائس الحرم السلطاني وطميان الإنكشارية .

إحدى مراكز القوى في الحرم السلطاني: يونانية تحظر ورود الربيع:

كان السلطان محمد الرابع قد شب عن الطوق واستمال حكمة زهاد أرمين عاماً ، وأصبح له قاذبات ، وفي مقلتين باش قادين أو خاصكي سلطنة ، أطلق عليها ربيعة جولش Babes Gulmish ومعناها السيلة التي تحظر بخلصة عذر ورود الربيع ، أو التي لا تروى حطتها إلا ماء ورد الربيع . وكانت جارية يونانية الأصل ، عيل لون بشرتها إلى السمرة الخفيفة ، ولكنها كانت ذات جمال ودلال وجاذبية . وسرعان ما اشتعل الصراع التقليدي حل مراكز القوى في الحرم السلطاني بين السلطنة الوليدة والخاصكي سلطنة . وكان السلطان يستحب لرعيته الأحيرة ، ويستمتع لتوجهاتها وخبا نفود السلطنة الوليدة طرخانة التي تفرغت إلى تشقة ولبنها سليمان وأحمد . وكانا بليان أخنهما السلطان و الس . وكانت طرخانة تعدهما لارتقاء العرش بعد أعينها .

ولم يشترك السلطان في أي حرب خاصتها الفتوة حل عهده . وفي إحدى المرات التي كان الجيش يتأهب فيها لتحرك إلى ميدان القتال أعلن محمد الرابع عن هزيمه على قيادة الجيش . وخرج فعلا مع الجيش راكياً حصانه . ولما وصلت القوات للميمنة إلى أدرنه توقفت قليلا ، ونزل السلطان من حصانه ، وسم البرق النبوي إلى الصدر الأعظم وحلق على عنته خصلة من الريش رمزاً لشجاعته ، وقال له إنه سيدهو الله كي ينصر الجيش . وقتل السلطان راجعاً إلى قصره حيث استلحق إليه كبار المتجسسين بالبحرود من نتيجة الحرب التي ميخوضها الجيش ، وهل ستكون انتصاراً أو هزيمة .

هذه الشجاعة المزعومة التي تخطت حته أو تخطى هو عنها وهو يسير مع الجيش إلى إحدى الجبهات الحربية كانت تطوره من وقت لآخر حين شرع أكثر من مرة في قتل أخويه سليمان وأحمد ، كي يمسح الطريق أمام ولديه ليحكمنا بعده مباشرة . وكان على أفندي شيخ الإسلام بحول بينه وبين ما كان يشنيه . وفي إحدى المرات لما صا الليل تسلى إلى محمد أخويه وفي يده سيف

مسلول يريد قتلها. وتصلت له والدته واستطاعت أن تنزع السيف من يده . وقد وقع هذا الحادث في عام ١٦٦٩ (١).

وقع اختيار مراكز القوى على رجل يسمى جورج Goodz لشغل منصب المصدر الأعظم . وكان يبلغ من العمر مائة عام وكان الدولة قد أصيبت بالعقم في الرجال ، فلم تجد مراكز القوى خيراً منه ولكنها كانت في الحقيقة تهدف إلى التحاذه السوية في يدها تتخذ عن طريقه ما تشاء من قرارات . كان هذا الرجل ضعيف الذاكرة ، بطيء التفكير ، ومن العظم منه ، واشتملت عليه شياً . وكان في مناقشاته يشير إليها ويمسكها بيديه . وكانت السلطنة الوليدة طرحاته تراقب من وراء ستار مناقشاته في أثناء رياسته لليونان المايوني . وفي إحدى المرات قتلت أصابعها وصاحت قائلة : يا أبني إن المسألة ليست لحية ذات شعر أبيض أو شعر أسود . إن المسألة أعمق من ذلك بكثير . إنها تحقيق الحكم الصالح وإبداء الآراء السليمة .

رئيس الخصيان السود يقدم السلطنة الوليدة أحد الصلور العظيم :

ولما زارت الأختار وأصلحت بالدولة من يمين ويسار، رأت السلطنة الوليدة طرحاته أن تعهد بمنصب الصلورة العظمى إلى رجل ذى بأس شديد هو محمد باشا كوبريل وهو ينتمي إلى أسرة كوبريل الألبانية . وقد أحضره إليها في الغطاء وخمس الخصيان السود في الحرم السلطاني . واشترط محمد كوبريل عدة شروط لقبول هذا المنصب ، منها : إطلاق يده في اختيار العناصر الصالحة لشغل المناصب الحكومية ، ومنحه سلطات واسعة للضرب على أيدي أصحاب مراكز القوى في الدولة ، وصح الموترات التي قد أبدرها

(١) قول كلامي الحكم بعد نصيبا . وتراوت مدة حكم كل منها بين أربع وخمس سنوات . فحكم مئيدان الثاني من عام ١٦٨٧ حتى توفي سنة ١٦٩١ ، وعظمه أخوه أحد الباشا (١٦٩١-١٦٩٥) وقد أظهر الأول صفحا شجاعا أمام التمرد السكري الذي قام به الإلكتشارية والقصوا دار سيلوس بلايا المصدر الأعظم وتطوره واعتبرا احده منكرأ على سريه . أما السلطان أسد الثاني فكان غلاما والمقصود حراية في الشعر والموسيقى مع ميل إلى الكسوف . واحتلت جمهورية ألبانية جزيرة ساقو سنة ١٦٩٤ وعسرت الدولة مصطلح كوبريل بلايا المصدر الأعظم وعظمه في منصبه مره حتى بنا وكان غلاما ضعيفا وحلا ثلثة الحرم السلطاني

البعض ، وعدم الاستماع إلى الوشائات التي قد يروجها المربضون ابتغاء النيل من تصرفاته أو سمعته ، وغير ذلك من شروط وافقت السلطنة الوليدة عليها وعلى غيرها ، وتقلد منصبه في عام ١٦٥٦ وتستخلص من هذا التبيين حقيقة هامة هي أن أحد الصلور العظام الذين تركوا بصمات قوية في تاريخ الدولة قد وصل إلى منصبه عن طريق رئيس الخصيان السود والحريم السلطاني . وتدل هذه الحقيقة بدورها على عظم نفوذ هاتين القوتين : الخصيان وأهواتهم ، والحريم السلطاني ، كركيزين من مراكز القوى في الدولة .

ولم يكن السلطان محمد الرابع ذا مواهب ممتازة ، وكان مستوى تفكيره عادياً للغاية وشخصيته مهترية . اهتم بتجديد الأوامر الصادرة بحظر تناول الخمر ، أو شرب القهوة ، أو التدخين . وكان للدولة قد فرغت من مشكلاتها الداخلية والخارجية التي كانت تحيط بها . وكانت مواهبه الرئيسية صيد الفرس . وقد بلغ في هذه الهواية وقته وجهده ، وشغل أجهزة الحكومة بتشديد الحراسة عليه ، إذ كان لا يحلوه الصيد إلا في الأقاليم العثمانية الأوروبية تاركاً لتصرف: الأمور لمركز من أقوى مراكز القوى في الدولة . الحريم السلطاني : بعده ، ثم والدته ، ثم زوجه . واستراح لحكم بمسوحة من الصلور العظام كانت خاليهم ألبوبة في أبني الحريم السلطاني وأغوات الخصيان . ولم يشد منهم سوى آل كوبرلي .-

وكان السلطان أحمد الثاني (١٦٩١-١٦٩٥) ، وهو ابن السلطان إبراهيم المتوفى ، حل فرار من سجنه . كان مسرفاً في الشراب ضعيف الشخصية تسيطر عليه حاشية تحركه كيف شئته . وكان يسود في المراج ، أكثر من عزل الصلور العظام . ووقعت على عهده اضطرابات في الجبل والعراف . وقدعت للدولة بعض ممتلكاتها في أوروبا . ووقعت الجيوش العثمانية المزام في معظم المعارك التي خاضتها ضد النمسا والبلغاريا وسيطر البنادقة على جزيرة خيوس الهامة ، وكابلاً من أعمال طاشيا . ولم تكن الجيوش العثمانية أكثر توفيقاً في بولندا منها في طاشيا .

ومن الأمثلة التي تساق في هذا العهد: أيضاً السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-)

١٧٣٠) وهو ابن السلطان محمد الرابع استقال حكمه وهما ثمانية وعشرين عاماً . وفي الفترة الأولى من حكمه (١٧٠٣-١٧١٨) حين ما لا يقل عن ثلاثة عشر صندراً أعظم . ولكنه لم يكن حكيماً في اختيارهم أو بارعاً في توجيههم توجيهاً سليماً ، فلم يستعن بهم في التخلص على نموة مراكز القوى في الدولة مثل الحريم السلطاني والخصيان أو الإنكشارية ، إذ لم يكن هو نفسه القوة طيبة . فقد كان يميل إلى حياة المجون ولفس مع الجوارى الحسن في القصر الجديد ، ولأنه أحاط نفسه بمركزين من مراكز القوى وهما السلطانة الوليدة ، ورئيس الخصيان السود . واتخذ له صديقاً زوجة ابنته وعينه صندراً أعظم سنة ١٧١٣ وعرف باسم سليمان خاناد علي باشا . وكان هذا السلطان يجمع بين المتناقضات . ازدهر حكمه وانتصر على بطرس الأكبر قيصر روسيا ، وهو الانتصار الذي قلل من حيبه حيوة بلطجي محمد باشا الصدر الأعظم كما سبق أن ذكرنا . وجدد تجديداً شاملاً السلاح البحري ، ونفذ لأول مرة مشروع بناء السفن الحربية من ذوات الطليقات الأربع . وشهد هذه أيضاً توسعاً موقوتاً للحكم العثماني في مناطق واسعة من غرب فارس . ولكن قصائد هذه حرائل أثارت سخط الشعب على السلطان أحمد الثالث . كان من بينها حياة الترف التي عاشها البلاط بكافة طبقاته ، والأخذ بالأساليب الأوروبية الحديثة في الحياة العامة وتلحور مالية الدولة ، وانتشار المحسوبية وأخيراً قام الإنكشارية بحركة تمرد عسكري احتجاجاً على محاولة السلطان إدخال الأنظمة الحديثة في الجيش . وطالبوا بقتل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وقبوا باشا . وأظهر السلطان صفناً شاملاً في مواجهة الخصيان العسكري ، ووافق على قتل الأول والثالث ضلها الإنكشارية وألقوا بجثثها في البحر على الرغم من أن الصدر الأعظم الذي وافق السلطان على أن يقتله الإنكشارية كان صديقاً له وصديقاً له بسبب رواجه من ابنة السلطان - فاطمة سلطان - التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها ، كما كانت من قبل زوجة سليمان علي باشا بالإسم . وكان اسم هذا الصدر الأعظم الذي ضحى به السلطان لإرضاء الإنكشارية هو : نوشيرلي خاناد إبراهيم باشا . ولم تمنع استجابة السلطان لطلبهم من التفاوض عليه ، وجرائم تسامحه معهم على المطالبة

بعزله من العرش . ووافق السلطان واشترط تأمين حياته وحياة أبنائه . وتم عزله في أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٧٣٠ ، وخلفه ابن أخيه عمود الأول . أما السلطان أحمد الثالث فقد بقي في العزلة التي فرضت عليه حتى وافاه أجله المحتوم في عام ١٧٣٦ . وما يذكر أنه على الرغم من الحروب التي خاضها الدولة على عهد أحمد الثالث في الجبهات الأوروبية والأسيوية، لم يذهب هذا السلطان قط إلى ساحات القتال ، وقنع أو لعله أتاح لقضاء وقته مع سيدات الحرم السلطاني .

والحق أن هاتين القوتين - الحرم السلطاني ، والخصيان البيض والسود يكلاهما بعضهما البعض في مجالات مراكز القوى في الدولة بحيث يصعب الفصل بينهما . ولا يمكن دراسة موضوع الحرم السلطاني دون استكمالته بدراسة موجزة لموضوع الخصيان . فقد كانوا اليد اليمنى والخطوة لسيدات القبة الأولى من الحرم السلطاني ، وأسهموا إسهاماً كبيراً في تصعيد نفوذ الحرم السلطاني .



الفصل الثاني والعشرون

مراكز القوى في الدولة (٦)

الخصيان وأقربائهم

الخصاء الجزئي والخصاء الكلي :

يقصد بالخصيان في علم الدراسة طائفة من العبيد - بيض وسود - كانت الدولة تحصل عليهم من عدة روافد، وتلحقهم بملزمة الحرم السلطاني في القصور السلطانية . وقبل أن يباشروا أعمالهم كانت الدولة تهذب إلى بيض غير المسلمين بإجراء عمليات جراحية لهم . وكانت هذه الجراحات على نوعين : النوع الأول ويطلق عليه الخصاء الجزئي *La Castration Partielle* ، وفي هذه العمليات تستأصل من أجسادهم أو تستل منها الخصيتان . والنوع الثاني ويطلق عليه الخصاء الكامل *La Castration Complète* ، إذ كان يستأصل إلى جانب الخصيتين عضو التناسل . وكان يلحق بالعبد اسم الخصي (١) سواء أجزيت له عملية الخصاء الجزئي أو الخصاء الكامل . وكان الهدف من هذه العمليات هو القضاء تماماً على القدرة الجنسية لدى أولئك العبيد ، وبذلك يكون ولي الأمر - وهو السلطان في هذه الدراسة - مطمئناً لاطمئنان الكامل إلى سلوك أولئك الخصيان عندما يختلطون في أجنحة الحرم بزوجات السلطان وجواربه وأميرات الأسرة الحاكمة . وكان هناك تمايز بين لعبد الذي تجرى له عملية الخصاء الكامل والعبد الذي تجرى له عملية الخصاء الجزئي . فالأول كان يؤدي شتى أعمال الخدمة المنزلية للسيدات في أدب جم وتغافل بالغ ابتغاء لظفر بمرضاهن . وكانت الخطمات المنزلية على الرغم من تنوعها وحساسيتها توزع على هذا الفريق من الخصيان ، ولذلك كانوا على اتصال

(١) جسمها عريان بكسر الكاف ومكون لسان .

دائم ووثيق جهولاه السيفات مما أتاح لهم حديد القرص لمزيد من النفوذ والجاه . أما الحصى الذى تجرى له عملية النقصان الجزئى فيكون عمله مقصوراً على الخفحة الخارجية وعلى حراسة أجمة الحرم . وتكون مرتبته أدنى من مرتبة زميله الذى أجريت له حماية النقصان الكامل . ولكنه لم يكن يقل عن زميله أدباً وعقلاً وإخلاصاً وتفانياً فى العمل .

وكانت تظهر تغيرات جسدية ونفسية على أفراد هاتين الطائفتين من الحصيان فتعدو قلمتهم طويلة أكثر من الطول الطبيعى لأجسامهم ، وكللك أصابع أيديهم . وتميل قلمتهم إلى الإنحناء عند الكفين ، وتتلل شعاعهم السفلى ، وتكثر قوة الإبصار لديهم .

وكان شعورهم بفقدانهم القدرة الجفسية بترك أكثر أهمية فى نفوسهم . وينطردون على أنفسهم فى أوقات الفراغ أو الراحة ويحاولون فى ذات الوقت تعويض هذا النقص بنوع من الجبروت والشحكم والعتو يسيطر عليهم إذا تولوا منصباً ذا بعد . ومن هنا كان لهم ولرؤسائهم نفوذ كبير فى دوائر القصور السلطانية وفى أجهزة الحكومة على السواء كما سنرى بعد .

ألقاب الحصيان :

وكان يطلق على العبد المسمى فى تاريخ الدولة أحد لقبين : أولهما طواشى (١) وثانيها أعا (٢) . وكان يطلق على الحصيان السود فى القصور السلطانية قررة أغار (٣) . ويطلق على زملائهم الحصيان البيض فيو أعا (٤) . ويلاحظ أن

(١) طواشى جمعها طواشى . ويجمعها المبرق ، طواشون . . ومن غير كلمة طواشى بفتح طاء وتشديد طاء ، ومن شاذة الاستخدام فى دول الخليج العربية ، وسنصادف تأثير الازدواج جمعها طواش أو طواشون . أما المثلثة فبمعناها جلة الازدواج . ويتردد طواشون على البحر ، والكويت وقطر والأحساء وهناك لممارسة نشاطهم فى تجارة اللؤلؤ .

سيف مرزوق الشعلان : تاريخ نفوس على الازدواج والكويت والخليج العربي . الكويت ١٩٧٥ ج ١ ، ص ٢٨٠ - ٢٨٦ .

(٢) أعا جمعها أعرات

(٣) قررة فى اللغة التركية بمعنى أسود ، أى الأعور السود .

(٤) فيو فى اللغة التركية بمعنى أباً أو براءة ، أى أعرات قبوابة أو أعرات الرب .

(٥) أعا : الدولة العثمانية .

لقب أغا كان يطلق على أفراد ثقات كثيرة من موظفي الدولة في شتى مراحل تاريخها. وكان هذا اللقب يلحق بوجه خاص بالسماء شأنه في المناصب العسكرية (١).

الإسلام والرق :

وقبل أن ننضم في الكلام عن العبيد الخصيان وجورهم في تاريخ الدولة نركز قوة ، ولم لئلاً سريعاً نوقف الإسلام من الرق ومن رق الحرب ، لأن الخصيان كانوا أولاً وقبل كل شيء دقيقاً ، ثم أجريت لهم إحدى عمليات الخصاء . فالرق بالنسبة لهم كان الأصل أو الأساس الذي وجد حياتهم وجهة معينة . أما الخصاء فقد لحق بهم بعد أسرهم .

لما جاء الإسلام وجد الرق نظاماً اجتماعياً واقتصادياً متغلغلاً في حياة المجتمعات في معظم أنحاء العالم في ذلك الوقت . وكان موقف الإسلام من الرق واضعاً كل الفوضوح . فقد أُنقذ جميع أبواب الرق ما عدا رق الحرب . وعلى عادة الإسلام أخذ المجتمعات في حوادة لنيل نظام الرق ، فعمل على التريض في تحرير الرقيق في صورة سلمية وهادئة ، وأتاح للمجتمعات فرصة الانتقال كي تتخلص شيئاً فشيئاً من هذا النظام . فبعد أن طاقته من الجرائم والأنشطة التي يكثر حدوثها وجعل كفارتها تحرير الرقيق ، مثل كفارة القتل خطأ وما في حكمه . قال الله سبحانه وتعالى : وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً

(١) كان يطلق على قائد الفيلق الإنكشارية يكنى بـ "أغاسي" أي أما الإنكشارية . وكانت له أميته على جميع عبيد الجيش المقيدين على ورواء الدولة . وبعد أن أُنقذ السلطان محمود الثاني نظام الإنكشارية كانت تطلق كلمة أغا على العبيد الأميين من رتبة قائد (طهيد) . أما العبيد المأمونون فخرجوا منه لرس السكارية . فكان يطلق عليهم " أغاسي " . فبعداً لم من العبيد الأميين . وكانت كلمة أغاسي تطلق على القسوس المسلمين من أرباب العلم . وكانت توجد حتى سقوط الدولة العثمانية طب الحرب . المانية الأولى رتبة عسكرية بين البورين (السبي) واليكاشي (القديم) تسمى بـ "أغاسي" ، أي قائد جيش أي صاغ (رائد)

اتظر

Bowen Harold; Encycl. of Islam. Art. Agha. Panouques.

ويطلق على الخصيان في اللغة الفرنسية Panouques وفي اللغة الإنجليزية Eunuchs . والكنيسة المسيحية من اللغة اليونانية Eunuchos . معنى حارس غرفة نوم أو حارس في مقلة داخلية تقع فيها موائد .

إلا خطأ . ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا . فلأن كان من قوم عنو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم يبكم وينهم يطاق الغيبة مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة . . . (١) . وجعل الإسلام تحرير الرقيق كفارة للمحنت في أبيي قال تعالى : لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤخذكم بما عقدتم الأيمان . فكفارته إلعام عشرة مساكن من لوسط ما تطعدون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم . واحتفظوا أيمانكم ، كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تشكرون . (٢) . وجعل الإسلام تحرير الرقيق أيضاً كفارة إذا أوقع الزوج حل روجه ظهاراً ثم عاد في ظهاره (٣) . قال تعالى حلوا كبيراً الذين يتأهرون منكم من نساءهم ما من أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللاتي ولنهم . ولأنهم ليقولون مكرراً من القول وزوراً ، وإن الله لخبو غفور . ولذين يتأهرون من نساءهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأما ، ذلكم توعظون به . والله بما تعملون خبير . (٤) .

وقرر الإسلام الرقيق حته كاملاً في الحنت والتحرير في نظير مبلغ يوفيه لسيده موجلاً ويتفق معه على مقضاه . وهذا الاتفاق الذي يتم بينها يسمى في الشريعة والمكاتبه (٥) . ومنذ أن تم المكاتبه عملك العبد حرية العمل وحرية الكسب ويعد إليه أجر عمله . وفرض الله على السيد أن يستعط جرماً من المبلغ مساعفة للعبد على جمع المبلغ الذي كوتب عليه . قال سبحانه وتعالى

(١) سورة النساء ، آية رقم ٩٢ . (٢) سورة المائدة ، آية رقم ٨٩ .

(٣) كان من عادة العرب أنه إذا غضب الزوج من روجه قاله لما : أنت على كفبر أمي . فصاح بحرة عليه . وهذا هو الظاهر . وهو مذكور شرعاً ، وقول منكر ورود يمس الآية للكرمة ، لأن الأم هي التي أنجبت الرتل ، والزوجة هي التي تزوجها الرجل ، ولا يصح أن يمس الرجل الزوجه عمة عليه كلمة أبداً يخل طلة القول للباطل .

(٤) سورة المجادلة ، الآيات رقم ٢ و رقم ٣

(٥) كانت ثم صيغة للمكاتبه على النحو التالي . يقول السيد لسيده وكتبتك من أنت دهر في أربعة أشهر ، تقع في كل شهر مائة وخمسين دهنرا فلما أدتها فأتت حره ليقول اليه : فهدت .

١٠ الذين يظنون الكتاب (١) بما ملكت أيمانكم فكانت بهم إن علمت فيهم خبر (٢) وآتوهم من مال الله الذي آتاكم (٣) . . . (٤) ويلاحظ أنه إذا كان الكتاب جارية فإن حكمها يسرى على من تملكه بعد ملكيتها . فيعتق معها بدون دفع مبلغ أكثر بمجرد بائعها بأداء المبلغ الذي كوتبت عليه .

ويحرص الإسلام أيضاً في مواطن عديدة أخرى في القرآن الكريم على التنبه بأهمية إعتاق الرقيق وتحرير من أوقفهم سوء الطالع في الرق حتى يستردوا آدميتهم وكرامتهم وحريتهم السليبة . قال تعالى : ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين (٥) وابن السبيل (٦) والمساكين (٧) وفي الرقاب (٨) وأقام الصلاة وآتى الزكاة والمؤمنون بعهدهم إذا عاهدوا والصدّيقون في الأمانة (٩) والصدّقة (١٠) وحسن البأس (١١) ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (١٢) .

وقد نزلت هذه الآية القرآنية الكريمة في أعقاب محوّل المسلمين في صلاتهم من قبله المسجد الأقصى في بيت المقدس إلى المسجد الحرام حيث الكعبة الشريفة . وذكرت الآية أن البر ليس مقصوداً منه أن يولى الناس

(١) لكتبت هنا معنى المكتبة (٢) إن توسّع فيهم صلاحاً لذلك واستعداداً لنيل الفداء . (٣) هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للسلطة أصلياً عليه بأن يصدروا جزءاً من المال يتصدق به السيد في عرقته بالزكاة لئلا ينفذهم لئلا ينفذهم . وفي معنى الإيتاء حظ من المال يتصدق عليه ويحرص الآية الكريمة على أن الأموال التي لدى السادة الأتربة وآتى فرض عليهم أن يوزعوا جزءاً منها لمساعدة الرقيق على التحرر (وما هي من نعم الله عليهم ومن أفضالهم عليهم .

(٤) سورة النور : جزء من الآية رقم ٣٢ .

(٥) من قالين لا يجرؤن عليه ولا يأمنون الناس .

(٦) ابن السبيل هو المسافر المتعلّق من ماله ولو كان غنياً في بلد . ويهوى هذا الحكم في الوقت الحاضر على اللاجئين من فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام التي فيها الاستعمار والصهيونية .

(٧) المساكين هم الذين يحتاجون للمساعدة في شؤون الناس .

(٨) وفي الرقاب أي الصدقة في تلك الرقاب الأتربة أي تحريرهم ، إما بإعتاق من يملكهم سببه على الحق في نظير مبلغ يرضى به ، وإما بشراء وتعتيق وإعتاقهم من هذا المال .

(٩) البقرة سورة البقرة .

(١٠) البقرة سورة البقرة .

(١١) حين البأس وقت شدّة القتال في سهل الله . (١٢) سورة البقرة : آية رقم ١٧٧ .

وجوهم في الصلاة نحو المشرق والمغرب ، وإنما البر هو أعمال وتكاليف تنشئ آثارها الطيبة في حياة المجتمع الإسلامي . والبر الذي يحقق أهداف الإسلام هو الإيمان بالله الواحد الأحد وباليوم الآخر والملائكة وبالرسالات جميعاً وبالرسل أجمعين . ولتتفق المال ، على الرغم من حب النفس له وأهوازهم به ، على قنات من المجتمع حلتها الآية الكريمة ، وكان من بينها « لك الرقاب » أي أن الإنفاق يوجه - فيما يوجه إليه - لتعتق الرقيق بشراؤه وتحريره ، أو بتقديم بعض المال الذي كوتب عليه الرقيق المكاتب مع سيده في نظره حقه . ويلاحظ أيضاً أن هذه الآية القرآنية الكريمة ذكرت الزكاة بعد الحديث عن إنفاق المال على حبه على من جاء ذكرهم في الآية . والرتيب هنا مقصود . فالإنفاق في تلك الوجوه ليس بديلاً عن الزكاة ، وليست الزكاة بديلاً عنه . وإنما الزكاة هي ضريبة إجبارية لا اختيار للمسلم لها أما ذلك الإنفاق فهو مجاله الحر لتطهير قلبه ووصله بالمجتمع الذي يعيش فيه ووصل هذا المجتمع به . والزكاة ضريبة لا يسقطها الإنفاق . ولا تنفي هي عن الإنفاق . وإذا علمنا أن الشريعة تخصص مهماً من حصيلة الزكاة لتعتق العبيد ، فإن معنى هذا المزواج أن الشريعة قد أوجبت متعديين هامين وراسخين لتحرير الرقيق . إن هذه الآية تجمع بين أصول الفضيضة وتكاليف النفس والمال وتجعلها كلها وحدة لا تفصم ، وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو البر . وتصف النفس يتسمون بهذه الصفات بأنهم صادقون في إيمانهم وصادقون في ترجمة عقيدتهم إلى أعمال بارزة ذات أثر طيب في المجتمع الإسلامي ، كما تصفهم بأنهم متقنون يحشون الله ويصلون الله ويؤدون واجبه (١) . وفي توجيه في تحرير الرقيق أقوى أثر في النفس من هذا السياق القرآني البليغ ؟

ولا يدع الإسلام فرصة تمر إلا ويحث المسلمين على التوسع في حقن الرقيق . فلهم بتخصيص جزء من حصيلة أموال الصناعات لشراء العبيد

(١) سيء طلب ، في خلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ج ٢ ، الصفحة ١٤٦ ، ص

وتعبر بهم أو تقديم المساعدات المالية لمن يحتاج منهم إليها في سبيل عتقهم
كالمكاتبين ومن إليهم . قال تعالى : إنما الصدقات للفقراء (١) والمساكين (٢)
والعاملين عليها (٣) والمؤلفة قلوبهم (٤) وفي الرقاب (٥) والعاملين (٦) وفي
سبيل الله (٧) وابن السبيل (٨) قريضة من الله والله عليم حكيم (٩)

ويرى بعض كبار رجال الفكر الإسلامي أن المعنى من لفظة « الصدقات »
التي وردت في هذه الآية القرآنية الكريمة إنما هو الزكاة (١٠) وكانت الزكاة
تشكل مورداً هاماً من موارد الحكومة الإسلامية تشدد في تحصيلها . وكانت
الحكومات الإسلامية على تملدها تحترم مصارف الزكاة بعلمة ومصرف حق
الرفق بخاصة . وفي بعض الأحيان كانت تنفق فيه أكثر من المبالغ المرسود
لها الفرض (١١) . ويلاحظ أيضاً أن الله سبحانه وتعالى جعل الرفق من بين

(١) الفقراء هم الذين يعمدون حنك الكفالة .

(٢) للمساكين سبق شرح متعلق في الآية السابقة .

(٣) العاملون عليها الذين يقومون على تحصيلها ما لم تخصص لهم مرتبات من خزائن الحكومة .

(٤) المؤلفة قلوبهم هم طوائف من الناس دخلوا حديثاً في الإسلام ويراد قلوبهم عليها ،
وسم الذين ترجو العودة أن تكلف قلوبهم قسماً ، ومنهم الذين أسسوا ويؤمروا وترجو العودة
تأليف قلوب أعدائهم في قومهم ليؤمروا إلى الإسلام حين يرون إيمانهم يترقبون ويرادون .

(٥) وفي الرقاب سبق شرح متعلق .

(٦) للمدينون في غير محبة لمساكنهم في سداد ديونهم .

(٧) وفي سبيل الله أي إنفاق المدة للجهاد وتجهيز المنطوقين وتدريبهم وبسط الجهود
للعودة إلى الإسلام وبهذا أمكلمه وشراؤه الناس أسبيين ، وتأسيس المدارس والمناهج وبطاعت
التي تربى الفتاة تربية إسلامية سليمة ولا تركهم يلتصقون بدفوس الفجاءة التنصيرية .

(٨) وابن السبيل سبق شرح متعلق .

(٩) سورة البقرة ، آية رقم ٢٦٠

(١٠) تفسير الخليلي - جلال الدين محمد بن أسعد ، وجلال الدين محمد الرحمن بن أبي بكر

السمرقاني . القاموس ، د . ت . ص ١٦٠

سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ص ٨٠

دكتور علي عبد القادر علق : المروة في الإسلام ، دار المطبوعات ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٨-٤١ .

دكتور محمد محمود حجازي : التفسير الراشح ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ص ١٠

(١١) يذكر محمد بن أسعد أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز قد عهد إليه بجمع الزكاة من
بعض الأقاليم الإسلامية في إفريقيا فقتضها . وطلب فقره يعطهم بها فلم يجد ، لأن عمر -

طوائف ثمان أوجب الإتفاق عليها من أموال الزكاة . وقد سجد الله هذه الطوائف تحديداً دقيقاً ، ولم يترك لرسوله عليه الصلاة والسلام ولا لأحد اختيار هذه الطوائف . وإتفاق هذه الأموال مقصور على أفراد هذه الطوائف ولا يتناهم إلى غيرهم أبداً . وهي تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله وترد على الفقراء والفقير ومن إليهم من حملت أوضاعهم الاجتماعية فريضة من الله ، وهي ليست تقارباً ، ولا تفضيلاً ، أو منحة ممن فرضت عليهم ، فهي فريضة عممة ، وهي ليست إحساناً من المعطي ، وليست شجاعة من الآخذ . فقام النظام الاجتماعي في الإسلام على التمسك ، ولن يقوم (١).

وحب الإملام إلى الناس تحرير الرقيق وجعله أعظم قرينة بتقرب بها الإنسان إلى ربه . فقد ذكر الله في القرآن الكريم عدة قربات يتخذها عباده الصالحون زلي إلى سبحانه وتعالى . ولكنه يجعل تحرير العبد على قمة هذه القربات . وفي هذا قال عز من قائل : فلا اقتحم العقبة (٢) . وما أدراك

مما يجد الممير بذلك وسكته بعد جعل النفس في حقها فأمر بتحويل الأموال المرسدة للفقراء والمساكين ليشتري بها كلاً جيداً وأحسبهم .

(١) مذهب ، في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٠ ، ص ٨٠ .

(٢) العقبة في تفسير الإمام المرحوم الشيخ محمد عبد ، الطريق الويرة في الجبل يصبم سلوكها . ولكن الله سبحانه وتعالى أمر الخمر بالعتبة حتى حيث قال : وما أدراك ما العتبة ، تلك رقية ، فأراد منها تحرير التي يصبم سلوكها إلى حيث تنال سادة الدنيا والآخرة ، وإي كانت صعبة السلوك لمصلحة المولى وسلامة الشهوة لساكنها . وفي هذا كتابه عن سبل الإسلام إلى الحرية وبقوته للأمر بالمعروف .

ويقول الدكتور محمد محمود سبازي في العقبة إن للإنسان عقبتان من نفسه وشيطانه ودنياه . فبأن يكون جوارداً فوق تلك الحرية ويصطفاً أو يصل على ذلك بكل قوله .

ويرى الدكتور علي عبد الواحد رافق أن العقبة هي العقبة الكبرى التي لا بد من اجتيازها للوصول إلى الجنة . وهي تتطلب أن يقترب المؤمن في أفعاله حيلته إلى ربه يصل جيل من أعمال البر لتسرير الرقيق .

أنظر كلامي :

الإسلام محمد جيد ، تفسير جزء عم . الناشر مطبع الشهاب . القاهرة ، الطبعة الرابعة ، دت . ص ٦٩ .

دكتور محمد محمود سبازي ، التفسير الوافي ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢٠ ، ص ٥١ .

دكتور علي عبد الواحد رافق ، الحرية في الإسلام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١ .

مالعقبة فلك رقة (١) ، أو لإطعام في يوم ذي مسغبة (٢) ، يتبأ ذا عقربة (٣) ، أو مسكيناً ذا عقربة (٤) ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا (٥) بالصبر (٦) وتواصوا بالرحمة . أولئك (٧) أصحاب الميمنة (٨) و (٩) .

وقد بلغ من تعظيم الإسلام لقربة تحرير الرقيق أن رسول الله صلوات الله وملائمته عليه كان يضرب بها المثل في تقويم هذه القربة وعظم الثواب عليها ، فيقول لمن فعل كلها فكأنما أحق رقة أو يكون ثوابه عند الله ثواب من أحق رقة و (١٠) .

الإسلام ووقى الحرب :

سبق أن ذكرنا أن الإسلام قد أغلق جميع أبواب الرق ما عدا رقة الحرب (١١)

(١) فلك رقة أى حقها

(٢) المسببة هى الحاجة

(٣) المقربة هى القربة أو القربة المالية

(٤) المسكين ذو الرقة هو الفقير الشديد الفقر اللابس بالتراب . ويقال قدر مدح رقيق مدح أى مخلص بالقوله هو التراب .

(٥) تواصوا أى أوصى بعضهم بعضاً .

(٦) الصبر على الشكره وعن المسببة

(٧) أولئك أى هؤلاء

(٨) الميمنة أى اليمين أو اليمين

(٩) سورة البقرة آيات من رقم ١٠ إلى رقم ١٨

(١٠) أفقر ما جده في الأسانيد لقربة القربة من ثواب حق الرقيق ووجوب إسماع الحكومة الإسلامية والمضج الإخلاص في مساعدة السيد المكاتبين على أداء جزء من المبالغ التي عليهم عليهم أداؤها لتحريرهم من الرق ، ف :

صحيح البخاري : أي عبد الله عبد بن إسماعيل بن إبراهيم بن كثير بن برد بن البراء

جزءان . ج ٢ ، فصل من الرق ، الجزء الثاني ، ص ٧٧-٧٥

(١١) اشتملت الشريعة الإسلامية من وق الحرب الذين يأسرون في حرب بين مسلمين من المسلمين . فإلا لا يقرض عليهم الرق سواء كانوا من الطائفة المالية أو من الطائفة النجس عليها .

أما الحروب التي تكون بين المسلمين وغيرهم فلا توجد في رأى أصحاب المذهب الفقهي إلى وق من يأسرون فيها إلا بتوسط كبير ، من أحياء أن تكون أمثال هذه الحروب شرعية أى

وقد أتى عليه الضرورة ، لأن المجتمعات الحادية للإسلام كانت تترقى أسرى المسلمين طرماً لتقاليد السائلة . ولم يكن في مقدور الجبهة الإسلامية وقتذاك إجبار هذه المجتمعات على تبني تقاليد حرية حقيقة الجطور أنجلت ما يعرف بالتعبير الحديث قواعد القانون الدولي العام . ولو فرض أن الإسلام غرر بإطال استرقاق الأسرى لكان مثل هذا الإجراء مقصوداً على الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين ، بينما الأمازي المسلمون يلاحون مصيرهم السيء في حاتم الرق هناك . وفي ذلك إطماع المعادين للإسلام في أهل الإسلام (١) .

وفي أول الأمر كان الإسلام يمنع فداء الأسرى المشركين الذين يقعون في أيدي المسلمين كي يستقيم في حوزتهم لإضعاف لشركة المشركين وتقوية المعسكر الإسلامي . ففي غزوة بدر - وهي المعركة الأولى الكبرى بين المسلمين والمشركين - كان النصر فيها حليف المسلمين إذ قتلوا سبعين رجلاً من المشركين وأسروا منهم سبعين رجلاً ، وولى بالقون الأذكار ، واستشار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر في مصير الأسرى . فكان رأي أبي بكر أن يأخذ منهم الفدية تأسيساً على أن أولئك الأسرى هم بو العلم والشيعة من

هو يجوز ما للإسلام . وسبب أن نذكر هنا ثلاث حالات لفصل فيها لفضل هذه الحروب
أولاً : حالة فداء المشركين . وفي هذا يقول الله تعالى : « وتقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تبغوا ، إن الله لا يحب الظالمين » . سورة البقرة ، آية رقم ١٩٠ .
ثانياً : مسألة نكاح السبي والكتبه للدين الإسلامي . وفي هذا يقول الله تعالى : « وإن نكحوا أيمنهم من بعد هدم ، وضوا في دينكم ، فقاتلوا أمة الكفر ، إنهم لا إيمان لهم ، لعلهم يتوبون » . سورة المائدة ، آية رقم ١٢
ثالثاً : فداء أسبب تعرض أسن لقوله تعالى أو الخلقى للخطر ، مثل إثارة الفتن . وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « وتقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا حول إلا على الظالمين » . سورة البقرة ، آية رقم ١٩٣
ولم يتجلبز حروب لرموس صلوات الله وسلامه عليه هذه الحالات سواء في ذلك حروبه ضد قريش أو ضد اليهود أو ضد الروم .
أنظر

١ دكتور عبد الله فواز ، الحق في الإسلام . مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨-٢٩ .
(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٦٢

ناحية ، وأن أحد لفظة منهم يذهب مركز المسلمين تجاه الكفار من ناحية ثانية ، وقد هدى الله أولئك الأسرى للإسلام ويصبحون عضداً للمسلمين من ناحية ثالثة . أما عمر فكان رآيه أن يمكن رسول الله عليه الصلاة والسلام من قريب له فيضرب حنظلة ، وأن يمكن علياً من حنظلة بن أبي طالب فيضرب حنظلة ، وأن يمكن حمزة من فلان أنضرب حنظلة حتى يعلم الله سبحانه وتعالى - علم ظهور - أن ليس في قلوب الصحابة هودة في جهادهم ضد أعداء الإسلام . فالصحابة يصربون أئمة الكفر وصناديدهم وقادتهم وأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم رأى أبي بكر . وارتضى أن يخلد القلاء في مقابل إطلاق مراح الأسرى . فزلت هذه الآيات القرآنية الكريمة ، وما كان لشيء أن يكون له أسرى حتى يمشى في الأرض (١) ، تربطون عرض الدنيا (٢) ، والله يريد الآخرة (٣) ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق (٤) لمسكم فيها أنظمت حذاب جهنم (٥) . فكلوا مما خصم حلالاً طيباً واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم (٦) .

وتشير الآية القرآنية الأولى في مطلعها إلى ضرورة الإيمان في الأرض ، أي يحمي المسلمون في خوض معارك صارية تالية وحديثة يملكون فيها الكثيرين من الكفار المحاربين ، ويستبقون ما يقع في أيديهم من الأسرى . والمهدف من الإيمان والاستبقاء هو إضعاف قوى المشركين . وتنطوي الآية على لوم المسلمين الذين قبلوا هذه أسرى المشركين في غرة بدر ، تربطون عرض الدنيا ، حين قبأوا المال وأطلقوا أمارى المشركين ، والله يريد الآخرة ، أي يهتدى توجيه المسلمين إليها لتكون هدفهم . ثم تقول الآية الكريمة : لولا كتاب

(١) يمشى في الأرض أى يكثر فيها القتل ويبلغ منه ليل الكفر ويقتل مدناً أنصاره .
محقق من أئمة الرضا أى أئمة .

(٢) عرض الدنيا أى حلالها .

(٣) والله يريد الآخرة أى يهتدى لكم قولها ونسبها .

(٤) لولا كتاب من الله سبق ، أى لولا حكم سيد من الله ، وهو أنه لا يملك القتل منكم .

(٥) أى لأنكم طلبت طمع بسبب ما أعطتم من القلاء من الأسرى .

(٦) سورة الأنفال ، الآية من رقم ٦٧ إلى رقم ٦٩ .

من الله سبق لمحكم فيما أشعلتم حناب عظيم . أى أنه أحق المسلمين من حذاب عظيم فى قبول القتل من أسرى بدر تنقيلاً لوحده سابق بالغزو عن المنطقين . ثم أصنى الله الكثير من آياته عليهم فأحل لهم اللثام ، وكانت محرمة على المحاربين .

وإذا كان الإسلام قد منع فداء أسرى المشركين فى غزوة بدر ، فقد قرر فى ذات الوقت الإبقاء على حياتهم وهم فى الأمر ، لا ليستسلم انتقاماً ، ولكنه لمن قلوبهم لمسة إنسانية حقيقة تحيى الرجاء فى نفوسهم وتعلق فيهم الأمل فى مستقبل مشرق خير من الماضى ، وفى مكاسب ترجع ما فقدوا من مال القتل ومن للخيال لئى تركوها . قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا قتلوا من فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم (١) . وفى ذات الوقت لئى تفتح فيه للأمرى نافذة الرجاء المشرق فى قابل الأيام ، حللهم حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه كما خاتوا الله من قبل ، فلاحوا دأماً المصير . « وإن يريدوا حياتك فقد خاتوا الله من قبل فلمكن منهم ، والله عليم حكيم » (٢) ، خاتوا الله فاشركوا به . فإذا حملوا إلى حياة الرسول وهم أسرى فى يديه ، فليذكروا عاقبة النهاية الأولى . والله عليم بسرائرهم ، حكيم فى إيقاع العقاب عليهم . ولم يستمر قائماً هذا الخطر - عدم قبول فداء الأسرى الذين يقعون فى أيدي المسلمين ، فلما اشتد مآخذ المسلمين واستقرت أوضاعهم السياسية والعسكرية وقويت دعائم الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة أجاز لهم الإسلام حرية التصرف مع الأسرى فى نطاق المبادئ العامة للشرعة مع الاستمرار فى سياسة الإنحياز إلى الأراضى . قال تعالى فى كتابه العزيز : « فإذا لقيتم الذين كفروا فخربوهم وحاربوهم » (٣) ، حتى إذا أنتصروهم (٤) قتلوا الوثاق (٥) ،

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم ٧٠ . (٢) سورة الأنفال ، الآية رقم ٧١ .

(٣) «أصله فاحاربوا الوثاق حرباً يقطع القتل وتدمر البلاد» .

(٤) «أن أكثرتم قتلهم والمقتلوه وجعلوه ثمناً لهم» .

(٥) «فإذا لقيتم الذين كفروا فقتلوا الوثاق أو كسرهم ما يرضون به» ، أى ما يريدون به .

فلما مات بعد (١) ، وإما قتله (٢) ، حتى تنفع الحرب أوزارها (٣) . . . (٤) ، ويلاحظ أن هذه الآية القرآنية الكريمة لم رد فيها ذكر لكلمة الرق ، بل جاء فيها ذكر الخن والقتلاء بعد وقوع الأعداء أسرى في أيدي المسلمين . ولم تصل على الترغيب في الرق ، بل حث على الترغيب في غيره . وفضلت للمن والقتلاء على الرق .

نخلص من هذا العرض السريع لموضوع رق الحرب أن الإسلام لم يقر الرق في صورة مطلقة ودائمة . ولم يجعل الرق نتيجة حتمية للأسر ، بل ترك للدولة الإسلامية أن تعامل أسراها وفقاً لما تنفق عليه مع أعدائها في ضوء قواعد الشريعة للأفراد : ضمن عليهم لو على فريق منهم بإطلاق سراحهم بدون مقابل ، وتضلى من تضلى من الأسارى من الجانبين ، وتبادل الأسرى بين الفريقين ، وسرق من سرقوا من المسلمين ، حتى لا يصيب الأسارى من المسلمين أرقاء ، والأسارى من الكفار طلقاء (٥) . والإسلام لم يجعل الرق الحرب سوى مسلك من المسالك التي يجوز للدولة الإسلامية أن تتخذها حيال الأسرى . وبقده بفيود تؤدي إلى تصويب موارده وتفضي عليه بالتدريج . وإتاحت الإسلام حديد القوس أمام رقيق الحرب العتيق والتحرر متى انغمسوا إلى الجماعة الإسلامية وصلحوا صلحتهم بالكفار المحاربين .

وقد لوجز أحد الأمثلة البحتة المخطوط الرئيسية لموقف الإسلام من الرق في هذه الفقرة « لم يقر الإسلام الرق في صورة مطلقة دائمة ، وإنما أقره في صورة تؤدي هي نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج ، بدون أن يحدث ذلك أي أثر سوء في نظام المجتمع الإنساني ، بل بدون أن يشعر أحد بتغير في مجرى الحياة . وقد ارتضى للوصول إلى هذه الغاية أبلغ الوسائل آراء ، وأصلحها

(١) فلما مات بعد أي لما تمتحن عليهم لإطلاق سراحهم متى أي من غير شيء .

(٢) وإما قتله أي ولما تقبضهم قتله بما لا أو بأسرى مسلمين أو يسل يجهلون إليهم بأدائه .

(٣) أي حتى تنفع الحرب ثقلها ، وهو كناية عن انتبه السلبيات الحربية .

(٤) صورة محمد عليه الصلاة والسلام ، أنه رقم .

(٥) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

نتيجة ، وأقصاها أمناً . ويتلخص ما ارتضاه الوصول إلى هذه الغاية في مسلكين : أحدهما تضييق الروافد التي كانت تمد الرق وتزليه وتكفل بقاءه ، بل العمل على تخفيفها تخفيفاً كاملاً ، والآخر توسيع المأخذ التي تؤدي إلى العتق والتحرير . وبذلك أصبح لرق أشبه شيء بمجول كثرت مصباته ، وانقطعت عنه موارده التي يستمد منها الماء . وخلايق مجول هله شأنه أن يكون مصير « إلى الجفاف » (١).

بعد هذا العرض الموجز لموقف الإسلام من الرق ومن رق الحرب ، لننتقل إلى موضوع العبد المصنوع .

الخصاء بين التحريم والإباحة :

حرف الخصاء منذ عصور موحدة في القدم في الشرق والغرب على السواء . استخدم في الصين والهند . وأدخله ملوك دولتي آشور وابل في بلاطهم . وشاع الخصاء في مصر اليوناني وأندلس الرومان عن اليونانيين (٢) . وكان في مقعدة الواجبات التي عهد بها إلى المصنوع القيام على خدمة وحراسة السيدات والأمهات في القصور الحاكمة . ولما جاءت المسيحية وأصبحت ديناً رسمياً للكنيسة الرومانية وتوطد مركز الديانة المخلقة انقسم رجال الكنيسة حيال نظام الخصاء فرئيين : فريق عارض الخصاء على أساس أنه يتنافى مع الطبيعة البشرية ويتمارض مع ما أراده الله من قصير الأرض . وذهب هذا الفريق إلى القول بأنه يكفي أن طوائف كثيرة للعبد من رجال الدين حرروا من الزواج أو الاتصال الجنسي على أي نحو من الأنحاء ، وأنه لا داعي لحد هذا التحريم إلى طائفة من الرجال مما كان عددهم صغيراً من أجل أقلية ضئيلة للعبد من السيدات ، وأن على أوليائهن أن يديروا وسائل أخرى لحكمة هؤلاء السيدات وحمايتهن . وقد ظل هذا الفريق من رجال الكنيسة متمسكاً برأيه عبر العصور التاريخية الوسيطة والحديثة . وكان من أبرز البابوات الذين عارضوا الخصاء

(١) دكتور علي عبد الواحد وافي : الحرية في الإسلام = مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢-٢٤

(٢) أسد حجة الله : القاموس الإسلامي ، الجلد الثاني ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

في المصور الحديث اليابا لير الثالث عشر ، وهو من أصل إيطالي تولى كرسى اليابانية من عام ١٨٧٨ إلى عام ١٩٠٨ (١) أما الطريق الآخر فقد أيد نظام الحياء . وكان في مقدمة المؤيدين له القسس . وقد اتفقوا يشجعون حياء النسبة لامتناعهم في فرق لارتيل الكنسي محصنين بسبب الحياء بأصوات رفيعة وحيدة ، وكان يطلق عليهم السورانو (٢) Soprano ، كما كانوا يعرفون باسم الكاسترا (٣) Les Castrats والتعبير الأخير مقصور استعماله على النسبة الذي أجريت لهم عملية الحياء . وبعضى النسبة نشأت طوائف دينية مسيحية شجعت عمليات الحياء مثل طائفة السكوييس الرومية .

ولما جاء الإسلام كانت عادة الحياء معروفة بل شائعة في جميع البلاد التي لصحتها المسلمون . وما هو جدير بالذكر أن الشريعة الإسلامية لا تقر مبدأ الحياء إلا للضرورة القصوى إنقاذاً لحياة مريض أصيب ذلك الجزء من جسمه بمرض بحيث يتطلب استئصال الجزء المصاب من جسمه متناً لانتشاره في باقي أجزاء الجسم . ولكن ظل مبدأ الحياء محرماً تحريماً قاطعاً بحكم السنة . جاء في الصحيحين أن عثمان بن عفان سأل النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يأذن له في حياء نفسه ، إذ أنه رجل تشق عليه الفرية في المفازي ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم : لا ، ولكن عليك بالصوم . وجاء في الحديث الشريف ألا يعتبر مسلماً من لم يخص أو خص آخر (٤) . وعلى الرغم من هذا التحريم كان الرقيق من الحبسيان يباعون في أسواق المواسم الإسلامية .

(١) اسم هذا البابا جوايم بيتي Jochim Pecci وقد ولد في ملية كاربنتو Carpinetto في إيطاليا

(٢) Soprano كلمة فرنسية نشئت من كلمة إيطالية هذا النسبة . ونسجى في اللغة العربية Soprano .

(٣) Castrato كلمة فرنسية من أصل لاتيني Castratus

(٤) بعد جلوسه للترية الإسلامية إلى الحياء من السورب التي تسوخ للطلاق بالحوار . عياً مستحكماً لا يمكن البرهنة ، ولا تقطاع به الفرية إلا بسور . فلذا تزوجت امرأة ووجدت زوجها عسياً ولم تكن قد طعت عطية حاله مع هذه قرأتها ولم ترض بالقيام به وطبت قلبها ، فلها الفاضل في الحال .

الدولة العثمانية وأصل نظام الخصاص :

وقد أحدثت الدولة العثمانية بنظام الخصاص في قصور السلاطين على الرغم من أن الشريعة الإسلامية تحرم تحريماً قاطعاً مبدأ الخصاص . وكان أصل الدولة بهذا النظام غير الشرعي من الحالات القليلة بل النادرة التي خرجت فيها الدولة عن الشريعة الإسلامية . وقد سبق أن ذكرنا أن من الخصائص البارزة أنها دولة ذاتة تفرص حرصاً بالغاً على تطبيق مبادئ الشريعة والإلتزام التام بها في تصرفاتها . في سياستها الخارجية والداخلية . ولا يمتنع وجود عييد خصيان في بعض مدن وعواصم العالم الإسلامي مبرراً لأن تحملو الدولة العثمانية هذا العبء .

ألقاب الخصيد يقومون بعمليات الخصاص للعيد الواقعين من السودان :

كانت هناك طائفتان من الخصيان : الخصيان السود ، والخصيان البيض . وكانت مصر تعد المورد الأول للعيد السود للخصيان . وكان قولاة العثمانيون في مصر يترقبون وصول قوافل العيد من حارفور وكردقان وميناء في السودان إلى أسبوط . وكانت قوافل حارفور وكردقان تسلك في رحلتها الشاقة طريقاً أطلق عليه ضرب الأرميس لأن الرحاة كانت تستغرق أربعين يوماً . وكانت أسبوط هي نهاية المطاف . وكانت قافلة دارفور وكردقان تحمل منوبياً عنداً من العيد يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف عدا كيات من الحاج والمقر هندي وجاود النور والقصع وريش النعام والكون وثراب الذهب والفضة . أما قافلة ستر فكانت تحمل في رحلتها السنوية بضع مئات من العيد . وكان إلباشا العثماني في القاهرة يبحث منوبى إلى أسبوط أو يعيد إلى حاكم الصعيد ولقبه بلك جرجا أو حاكم جرجا . وكان أحد كبار الأمراء المماليك (١) ، بشراء

(١) كتبت سلك تعد إلى مسلم أتباع الوجه القتل وإلى القواست وتبقة الحارة : رسائل الجنائل السائلة في تلك الأتكم .

عند معي من العبيد الذين جاءت بهم القافلة . وكان الباشا العثماني يوصي بشراء العبيد صغار السن . وفي أسبوط أو أي تيج ، وبأمر الباشا ، كانت تجرى لخولاء العبيد عمليات الخصاء الجزئي أو الخصاء الكلي . وكان أقباط أسبوط هم الذين يتولون إجراء عمليات الخصاء ، لأن الشريعة الإسلامية تحرم الخصاء كما ذكرنا . وبعد أن يتم شقائهم كانت سلطات أسبوط تقوم بترحيلهم إلى القاهرة بالطريق النهري في منظم الأحوال (١) . ويبحث الباشا العثماني في القاهرة بهذه الفناذج البشيرة عنابة هدايا إلى السلطان في إستانبول . وقد منح حكام بعض الولايات العثمانية الأخرى هج حكام مصر في خصاء العبيد وتقدمهم هدايا السلطان . وكان أولئك الحكام يحصلون على العبيد بالشراء أو بأية طريقة أخرى . وهكذا كان للسلطان العثماني مورد ثان للخصيان . وكان هناك مصدر ثالث يحصل منه السلطان على الخصيان هو الشراء . ومن هنا ، لمصدر الثالث كان السلطان يحصل على الخصيان البيض . وكان موطنهم الأصلي بلاد القوقاز . وكان أسرى الحروب من قبائل الـملاط وأهل بوهيميا ومن الجرماني بضياعه أدمية ثمينة . كانت تجرى لهم عمليات الخصاء بمعرفة أسرهم ويأخذون رقيقاً للسلطان وما يفيض عن حاجة السلطان كان يرسل إلى العواصم الإسلامية حيث يعرضون للبيع في أسواق الرقيق . وأتبعاً كان هناك مصدر رابع يحصل منه السلطان على الخصيان مباشرة وذلك بإجراء عملية الخصاء لأفراد من لمبائلي الإنكشارية كنوع من العقوبة توقيع عليهم بعد أن تكون القيادة العسكرية قد استعندتهم معهم كل الوسائل لرددهم . وكان هذا الطريق من أفراد الإنكشارية يضمنون إلى الخصيان البيض . ويقدر بعض الباحثين أنه كان قليلاً جداً عدد الإنكشارية — وهم الجنود البواسل — الذين

(١) انظر ما جاء بخصوص مائة أسبوط و١٥٠ دارفور وستور في :

Description de L'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant L'Expédition de L'Armée Française. Edition de C.L.F. Panckoucke, Paris, de 1821 à 1829, 26 vols de texte in-8 et le même nombre de Planches; vol. IV, pp.125-133, vol XVII p.p. 277-305, 274-291 et 291-299.

جرتهم الدولة إلى حصيان . بينما يرى البعض الآخر من الباحثين أن هذه الإنكشارية الذين أبحرت لهم عمليات الخصاء كان على العكس كبيراً جداً (١) . ونرى أن كلا الرأيين صحيح . ففي عصر سلاطين الفترة الأولى كان الإنكشارية يستبلسون في القتال ويسترحضون الموت ومثلاً أعلى في الطاعة والإنضباط العسكري ، ولذلك ندر منهم من كانت الدولة تحولهم إلى حصيان . ولما تحول نظام الإنكشارية في عصر سلاطين الفترة الثانية تعددت حوادث الفرد والخصيان التي كانت تصدر منهم ، فزاد عدد الإنكشارية الذين وقعت عليهم حقوة الخصاء . ويلاحظ أيضاً أنهم كانوا يفقدون لياقتهم البدنية وكفايتهم الحربية بعد إجراء عمليات الخصاء . فإذا كانت التحصير السلطانية قد كسبت الإنكشارية الحصيان ليقوموا على حراسة وخدمة الحرم السلطاني ، فإن الجيش السيفي قد خسرهم كعسكريين أكفاء .

إجراءات استقبال الخصيان الجدد :

وضعت الدولة أنظمة في التصور السلطانية لتطبيق على الخصيان . ويتعاقب الناس رحلت هذه الأنظمة حتى غلت من التقاليد المرحية . وسرى صوراؤها في هذا الفصل . فعند وصول الخصيان إلى استنبول كانوا ينتقلون الإسلام ويتحلقون بالنسراى الجديد . وينأون حياتهم الجديدة فيه بعضهم أولاً حتى « التيزلر أغامى » وهو رئيس الخصيان السود ، ثم يمرضون على ضابط كبير يطلق عليه « باش قاني غلامى » أى رئيس غلمان البوابة ، وهو في ذات الوقت كبير ضابط حرس الخصيان ، فيخرج اسماء الخصيان الوافدين الجدد في كشوف التمييزات . ثم تجيء الخطوة التالية والأخيرة فيرشطون إلى المشرف العسكري الذى يشرف على إعدادهم علمياً وعسكرياً . وكان يطلق عليه بهذه الصفة لقب « لا لا » (٢) أى المشرف . ويكون هذا المشرف أحد

Lybber A.H.; op. cit., p. 57 and f.m. no.5.

(١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part 1, p. 331.(٢)

وكان يطلق على كبير المشرفين : « لا لا باشى » . ويلاحظ أن لقب « لا لا » كان يطلق أيضاً على الشخص الذى يتولى الإشراف على تربية أبناء السلاطين . وكان هذا المصطلح مطول أكثر هو « الأب الزنقة » .

الصف ضباط من رتبة « حاصلية » (١) Hasilla أو « لورتانجه » (٢) Ortaşa وكان على الشخصيات أن يقبلوا يد هذا المشرف في مسهل لقائهم الأول منه .

لتدريب الشخصيات :

واعتب الفواغ من إجراءات الاستقبال كانت تعد للشخصيات دراسات تدريبية نظرية وعملية على المهام التي يعهد بها إليهم في قابل الأيام . ليتعلمون القراءة والكتابة باللغة التركية ، وقدرأ سبراً من الثقافة الدينية الإسلامية باللغة العربية تمكيناً لهم من أداء شعائرهم الدينية ، ثم المطلوعات العامة مع دراسة في السلوك الإجتماعي الممتاز . وكان يقوم بتعليمهم المواد النظرية مجموعة من المدرسين يطلق عليهم « الخوجيات » (٣) . وفي ذات الوقت يتلقون تدريباً على بعض المهارات العسكرية . ويقوم رؤسائهم بالمهمة الأخيرة . وكان الشخصيات في أثناء تلقيهم دراساتهم يستغلون بمثابة حراس لأبواب أجنحة الحرم . وعندما يستكملون دراساتهم كانوا يمينون للحكمة التي تبدأ بحراسة أبواب دوائر الحرم . ولذلك خصصت لهم حناير يعيشون فيها على مقرنة من هذه الأبواب . وكان كل شخص عندما تنتهى نوبة حراسته يطلق في أثناء جزء من فترة راحته مزيداً من الثقافة الدينية والمعلومات العامة .

وكان لكل مبنى مستقل في منطقة الحرم السلطاني ، وهو الذي يطلق عليه دائرة ، مثل دائرة السلطنة الواقعة ، ودائرة الباشا قادين ، ودوائر القاضيات ، ضابط شخص مسئول يطلق عليه باشا أخا . ويعمل تحت إمرته

(١) حاصلية ومردعا حاصل ، معنفا كليل التدريب . وكان يحصل هذه الرتبة صف ضابط . وكان عدد صف الضباط الذين يحصلون هذه الرتبة أثنى عشر . وكانوا يعيشون في المركز الأورثانجات .

(٢) الأورثانجات ومردعا أورثانجه ، عدد صف الضباط الذين يحصلون هذه الرتبة لا يفرد عن خمس . ومن أورثانجه وسط أي أن صف الضباط الأورثانجه يكون في مركز وسط بين الحاصلية وبين « النوبت قلعة سه » الذين يحرق مركزهم بهذه الألقاب اعصامات هذه القلعة الأخيرة في سن ٦٦٠ ، حاصلية رقم ١

(٣) خوجيات كلمة تركية مفردة عرجة . ومعناها المعلم أو المدرس .

عدد كبير من الخصيان من أصحاب الرتب الصغيرة ، ويسمون « حرم أخنسية »
 لى أخوات الحرم تمييزاً لهم عن أخوات الحراسة . وكان فى القصور السلطانية
 الأخرى حرس من الخصيان ، برأس حرس كل قصر « باش قانى خلایى » ،
 ولكن كانوا جميعاً محبسون لرئيس الأخوات السود . وكان شأهم فى ذلك
 شأن الخصيان الذين يعملون فى خدمة الأمراء والأميرات المروجيات وغير
 المزمحات . وكان لكل أميرة « باش آغا » على غرار النظام الموصوع للسلطنة
 الوليدة واللقادينات . وكان لها أيضاً « باش قانى خلایى » ، و « ماينجى » (١)
 يأتمر على حشرة أو اثني عشر خصياً من خصيان الحرم . وكان فى مقصور كل
 قادين ، مصلداً عن الباش قادين والسلطنة الوليدة ، أن تستخدم الخصيان فى
 أى مرحلة من مراحل ترقيتهم لخدمتها فى الحرم . فقد كان من حق كل منهن
 أن تستخدم كغيرهن من الخصيان . وكان هناك أيضاً عدد من الخصيان السود ،
 يطلق على كل منهم « مصاحب » ومهمة كل منهم مصاحبة السلطان وهو
 ناهب إلى أجنحة الحرم ، وكذلك تلقى أوامر السلطان فى بعض الأحيان
 وحملها إلى القبر لأمامى . وكان عدد المصاحبين يتراوح بين ثمانية وعشرة ،
 يحصل كل اثنين منهم « ما فى وقت واحد » برأسهم جميعاً « مصاحب باشى » .

وكان القصر يهتم اهتماماً بالماً بنظافة الخصيان وقيامهم بواجباتهم الدينية
 وبمراعاتهم لتقاليد المرسوم بها فى القصور السلطانية ويتمسكهم بقواعد
 الإتصاف العسكرية على أكمل وجه . وكان يقوم بمراقبتهم خصيان يطلق
 عليهم « موصلة حية » (٢) برأسهم « موصلة حية باشى »

وكان جميع الخصيان حتى رتبة الخاصلى يعاقبون بالضرب . أما الخصيان
 الذين تقلو مرتبتهم عن مرتبة الخاصلى ، فكان يقتصر على نصبهم ثم زجرهم .

(١) ماينجى مشتقة من كلمتين مريجين ما : ما ، وى : أى فى التراث الوسطى . وكان
 هذا الشخص هو والقرابة الذين يعملون فى هذه الفترة يقومون بخدمة السلطان شخصياً . وكانت
 خدمتهم بها سلسلة ، ويحتاج إلى مهارات خاصة .

(٢) موصلة كلمة تركية مستعارة للتراب أو الصعوى الذى توجد فيه الأشياء الثمينة
 جيداً ، مثل اللؤلؤ والمجوهرات النفيسة والفضة وما إليها .

فإذا تكررت أعطائهم أو كانت أعطائهم جسيمة كان السلطان يصدر خطاً شريفاً بتوجيه إلى مصر .

الخصيان السود :

كان يطلق على رئيس الخصيان السود « دار السعادت أغاسي » أي أها دار السعادة (١) . كما كان يعرف باسم « قيرلر أغاسي » أي أها البيت . وكان هذا الرئيس — كما ذكرنا من قبل — يشغل المركز الثالث في الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . أما أصغر الخصيان السود مركزاً فكان يطلق عليه « إن آشاغي أها » (٢) Es Asagi Agha وهو آخر خصي يلحق بالخدمة في الحرم السلطاني وكان لا يحفظ بهذا اللقب أبداً طويلاً ، لأنه إذا جاء بعده خصي آخر واثبت بحلقة الحرم يتغير تلقائياً لقب الخصي الأول فيصبح « عجمي أها » أي أها ناشي (٣) ، ويترك لقبه القديم للخصي الوافد الجديد .

وكان الخصيان السود في أثناء الفترة التي يتفوق فيها دراساتهم النظرية وتدريبهم العملية يستخدمون أحياناً بمثابة حرس لأبواب أجنحة الحرم . وصلحاً يستكملون دراساتهم وتدريبهم كانوا يمتنون الخدمة التي تبدأ بحراسة أبواب الحرم . ولذلك كانوا ، كما سبق أن ذكرنا ، يعيشون في جناح على مقربة من الحرم السلطاني . وكان الطريق أمامهم ممهداً للتدريج في قيادة حرس الحرم في أربع مراتب . وكان قوام الترقية الأكاديمية المطلقة أحياناً أو الخطوة التي يتفوق بها بعضهم أحياناً أخرى من السلطان أو من إحدى سبلات الحرم (٤) . وعند ترقية الخصي كان عليه أن يلعب في جمعية أحد

(١) دار السعادة اسم يطلق على إستانبول .

(٢) إن آشاغي أها عبارة تركية معناها الأصغر حصة أو الأدنى مرتبة .

(٣) عجمي أها ، وجها عجمي أعوات . ويجب التفريق بين هذا المصطلح الذي يطلق على صغار الخصيان وبين عجمي أولفان ، وجها عجمي أولفانات ، وهو مصطلح يطلق على ناشئ الإنكشارية .

وعمل منذنا المخط الذي يقع فيه بعض القبايعين أن كلا من جنين المصطلحين يبدأ بكتابة « عجمي » لأن الإنكشارية والخصيان قيد جيلوا إلى الحياة غير مسلمين .

(٤) كانوا يرتبون إلى رتبة (مودت قلله سه) ، وبعد سبيل هذه الرتبة صنف سبيلهم

كبار ضباط الحرم إلى « القيزلر آغا » ويشكره ويقبل رداً ، ثم يذهب إلى مسجد الخصيان حيث يصل ركعتين شكرًا لله سبحانه وتعالى ، ثم يوزع هبة من المال على الموسرين في العاصمة .

وجدير بالذكر - وهو ما يهتد إلى أقصى حد في هذه الدراسة - أن الخصيان السود الذين أجريت لهم جراحة الخصاء الكامل ، أي الذين استوصلت من أجسامهم الخصيتان وحصر التناسل ، كانوا لا يمشون لمدى طويلاً حراً على أبواب أجنحة الحرم ، بل كانوا يقفون مراراً إلى الخدمة الداخلية في شتى دوائر الحرم . وكان يشاؤكهم في هذه الخدمة الخصيان البيض من ذات النوعية ، أي الذين أجريت لهم جراحة الخصاء الكامل ، وكانوا يؤدون الخدمة الداخلية في مختلف صورها وأشكالها وأنواعها لبيدات الفخ الأولى من الحرم السلطاني مثل السلطنة الواقعة والباشا قادين والناديات وبنات السلطان بالإضافة إلى فتيات القرف ومن إليهن من الجوارى الحسن دون أن تشعر هؤلاء السيدات بحرج ، ودون أن يشعر السلطان بقلق أو تحوف من أولئك الخصيان ، لأنه كان معلوماً للإطمان كله إلى سلبهم الجنسية . ولذلك يقرر بعض المؤرخين أن أفراد هذا النوع من الخصيان كانوا يشكلون جزءاً من الهيئة النسائية في الحرم السلطاني (١) ، وهو تعبير يفتي عن كل تعليق . ومع ذلك فقد كان الملاطين يملكون الخصيان السود على الخصيان البيض في مجالات الخدمة الداخلية الخاصة .

وكانت الدولة تخصص خصياً أمود أو أكثر من خصي لكل أمير محددة إقامته في مقصورة يطلق عليها القفص ، وعليه أمر القفص (١) وكان هؤلاء الخصيان السود يعملون في خدمته بصفتهم المملوكين أو المشرفين عليه . وكان يطلق على كل منهم كلمة لا لا عطا (٢).

(١) وكان لا يريد أحد شغل هذه الرتبة عن عسة خصيان سود وكان من اختصاصهم وكلفت الإسماء في حراسة السلطان داخل منطقة الحرم السلطاني حين يخرج مع إحدى ما كانت هذه المنطقة الفرة في حلقها . وكان من اختصاصهم أيضاً تلويح الحفلة على طيات الأبراب الأربعة القريبة إلى منطقة الحرم . وقد سيّد أن تعرضت بالشرح إلى هذه الرتبة في هذه الدراسة Gibb Hamilton and Bowen Harold: op. cit. vol. I, Part 1, p. 77. (١)

(٢) سبق أن عرضت معلومات هذا النوع .

انظر من ١٩٥٧ ، ج ٢ ، رقم ٢

وقد بلغ عدد الحصيان السود في الحريم السلطاني في القصر الجديد في القرن الثامن عشر مائتين. ولا يدخل ضمن هذا العدد الحصيان السود الذين كانوا يستخدمون في القصر القديم وفي غيره من القصور السلطانية .

ولكن على قدر هذا النفوذ الواسع المريض الذي تمتع به رئيس الحصيان السود، فإنه كان يتعرض للتمائس والمؤامرات مما حاك له من داخل أجنحة الحريم السلطاني . ولا يلت أن يرى نفسه قد هوى بين عشية وضحاها من قوة النفوذ إلى خضيق الضيق ، إذ يصدر السلطان « إرادة » بيزله من منصبه ونفيه إلى مصر ، ويصادر إستانبول التي شهدت مجده . ويسبقه إلى مصر فرمان سلطاني موجه إلى الباشا العثماني بتقرير مرتب يصرفه «ن ديوان الروزنامة » ، ثم يغادر المعزل . فإذا وصل الأغا إلى مصر واطمأن إلى المورد المالي الذي لا يتوقف عليه في وصمه الجديد ، قام بأداء فريضة الحج في ذات السنة . وكان بعضهم يتفضل الإقامة بقية حياته في مكة المكرمة أو المدينة المنورة . وكان البعض الآخر يعود إلى مصر يقضي بها وحل ثراه ما تبقى له في الحياة من خطوات . وكان هذا الفريق من رؤساء الحصيان السود يشارك في الحياة السياسية المصرية في النطاق الذي يجيد ويرتاح إليه . فكان يسهم مع الأمراء الماليك في حيلك التماس التي تستهدف عزل الباشا العثماني من منصبه وإزاله من قصره في قلعة الجبل وتحلبد إقلعه حتى تتم محاسنة حل تصرفاته المالية . وكان رئيس الحصيان السود يستضيف الباشا العثماني ، أو يحل له شيخ البلد - وهو كبير الأمراء الماليك - مكاناً آخر هو القصر الصغير يقيم فيه حتى يتم ترحيله من مصر . ويجدر بالذكر أن الأخوات الخصيان السود كانوا يعملون معهم من إستانبول إلى القاهرة مدخراتهم المالية ، ويعملون إلى استثمارها في مصر بشراء أراض زراعية أو عقارات مبنية خالصة ، على أن تحول عقب وفاتهم إلى وقف شعري ينفق لإبرائه على أوجه الخير مثل المساجد والكتايا والأسبلة وما إليها. ويذكر أحد المؤرخين السويسريين وهو الأستاذ كومب أن أحد الأخوات الخصيان السود كانت له ممتلكات كثيرة في مدينة رهي بالوجه البحري (١) .

التحصين الأبيض :

كان يطلق على رئيس التحصين الأبيض « باب المحادث أخاى » أى أخا باب السعادة (١) ، كما كان يطلق عليه « بابى أخاى » أى أخا البرابرة (٢) . وكان التحصين الأبيض يتقاسمون في عصر الأحمدين مع زعمائهم للتحصين السود العمل في حراسة وخدمة الحرم السلطاني ونقول « في بعض الأحيان » لأنه كان هناك شد وجذب بين أفراد الطائفتين مرده إلى التماس على الاكتفاء بالنموذ في القصور السلطانية ، وسنشر إليه في موطن قادم في هذا الفصل . وطبقاً لما ذكره أحد المؤرخين الشبانين ، وهو عطا طيار زاده أحمد (٣) ، كان السلطان مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١) أول من استخدم التحصين الأبيض في هذه الخدمة . وكان يوتي بهم من إقام القوقاز ، شخيم في ذلك شأن الجزائر . اللاني كان القصر يحصل عليهم بطريق الشراء من تجار الرقيق بسبب جاهلهم القاتن . وظلت حراسة الحرم السلطاني موطنة بالتحصين الأبيض حتى إذا ارتقى العرش السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) استبدل التحصين السود بالتحصين الأبيض . وحتى ذلك أنه عند أوائل القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السادس عشر كان التحصين الأبيض هم الذين يستأجر بحراسة الحرم السلطاني وبالخدمة الداخلية في القصور السلطانية .

وكان يعاون رئيس التحصين الأبيض خمسة مساعدين من كبار أفراد هذه الطائفة -- التحصين الأبيض -- وكان يطلق على كل منهم لقب معين ، ولكل منهم اختصاصات محددة (٤) . وكان على هؤلاء المساعدين أعداد أخرى من

(١) يطلق عليه أيضاً شايخ باب السعادة .

(٢) يطلق عليه أيضاً شايخ الباب وترد كلمة تقي مكتوبة قير ، وكلاماً كلمة تركية مستعارة باب .

(٣) يسي كتبه . وتلغز على هذه وهو يتبع في حصة أجزله . وقد طبع في إستانبول عام ١٢٩٢ هـ ويأينل عام ١٨٧٦ م . وقد نقل رأيه الذي ذكره في ج ١ ، ص ٢٤ ، ص ٣٦ من Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 76.

(٤) كان هؤلاء المساعدين :

الخصيان البيض كانوا حل شا كلتمن سبقهم ، غطى الأقاب والاختصاصات (١) ،
لهم مجموعات كثيفة المتد من رملاتهم لن تعرضي للكرم اكتفاء بما
حرضناه .

وكان الخصيان البيض يشرفون على تعليم وتدريب التلنان - وهم من
حبيبة ضريبة ديوشمه (٢) - وكان يطلق على هؤلاء التلنان المتدئين والإيج
أوغلان (٣) وكان الخصيان البيض يقومون بهذه المهمة في جلالطسراى ، (٤)

١ - علس آوله يلى ، أى كبير المشرفين على الأوتة أكلمة ، وأوله مناه جناح .

ب - عزوة دار باقى ، أى رئيس عزوة القصر .

ج - كلاوسى وهو المشرف على الكور ، أى متدوع المواد التوبية في القصر .

د - قسرى أغمسى أى أطا أو ضابط القصر . وكان من اختصاصاته تأمين سلامة
سائر القصر . ولذا لقبه كان يعمل تحت قيادة أوسون عسبى .

هـ - قسرى كشمسى أى مفتش القصر . ولستناه من القضاة العامة لم تكن اختصاصاته
محددة .

(١) كان من بينهم :

١ - عسبة يلقب عليهم « كوسه باشى » أى رؤس الركن *Heads of the Corner*
ومهمتهم الإشراف على سلوك مروضهم والاطمئنان إلى قيامهم بواجباتهم
على الوجه الأكمل .

ب - عدد غير محدد من « الهاش إسكبه » أى كبار الرؤساء . وكان يطلق على
أكبرهم لقب « آوله كشمسى » أى مفتش الأوتة .

ج - إثنان من « الأوزنكى أغمسى » أى أخوات الركاب ، وكان يطلق على أحدهما
« القمى » ، وعلى الآخر التلانى أو القسارى ، لأنها كانتا يهران على حالتي
السلطان حين يكون عصبياً صهوبة .

د - عدد من الخصيان البيض الأقل مرتبة ، ويطلق عليهم « سفرة إسكبه » أى
رؤساء المائدة *Seniors of the Table* وكان اختصاصهم الإشراف على
قوائم طعام والإيج أخوات .

(٢) ضريبة التلنان .

(٣) كان يطلق على التلنان الذين تلقوا مدة طويلة في الخدمة « إيج أخوات » أى أخوات
التملح . ومن موثقين في الخدمة الأميراتورية كشمعية . وفي السور المبكرة كان من التلنان
أن يهجو عمر كبار التلنان عسباً وحشرين مع . ولكن بعد إلغاء نظام ضريبة التلنان أصبح
كبار التلنان رجالاً تبلغ أعمارهم في السنة سبعين عاماً أو أكثر ، ولذلك كانوا لا يطلقون في أحوالهم
مصبب محسوبة عليه أكثر من سبع سنوات .

(٤) قصر مقام في جلاله وهي إحدى قسولسى إستانبول .

أو في القصر القديم في أدرة ، أو في قصر إبراهيم باشا الذي أنشئ على عهد السلطان سليمان المشرع في الموضع الذي شيد فيه بعد ذلك مسجد السلطان أحمد . وكان هؤلاء الغلمان ينظمون في مجموعات ، قوام كل مجموعة عشرة ، ويرأس كل مجموعة منها .

وأنشئت إلى اختصاصات رئيس الخصيان اليقضي الإشراف على الأوقاف المرصودة على الأراضي المتصلة في الحجاز . وكان يعملونه في إدارة هذه الأوقاف طائفة من الموظفين من خارج القصر وبعض علماء الدين من أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، ثم استطاع رئيس الخصيان السود انتزاع إدارة الأوقاف من رئيس الخصيان اليقضي وتصادف خوفه بسبب هذا العمل الجليل (١) . وكانت تصرف لروساء الخصيان في مقابل إشرافهم على الأوقاف مرتبات إضافية تسمى ثمن اللبنة - جزمة (٢) - وقيل في تبرير صرف بدل الجزمة لرئيس الخصيان إن إشرافه على إدارة الأوقاف كان يستفيد منه جهداً مالياً ووقتاً طويلاً . وفي القرن الثامن عشر كان رئيس الخصيان السود يشرف على الأوقاف المرصودة على خيالة مسجد . وكان يرأس اجتماعات أسبوعية يحضرها المتولون (٣) بمحتصون بما يسمى « الحرميين ديواني » أي ديوان الحرمين . وكان يساعد رئيس الخصيان عدد من رجال القضاء كان يطلق على أحدهم « حرمين مفتش » أي مفتش الحرمين واثنان من القضاة من فئة نائب يقع أحدهما في روضة والآسر في أدرة . وكان من أسباب اختيار رؤساء الخصيان مشرفين على أوقاف الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ،

(١) ما هو جدير بالذكر أن بعض كبار سلاطين أدرة مثل محمد الثاني وسليم الأول وسليمان المشرع قد ميّزوا الصلوات النظامية نظراً إلى الأوقاف المرصودة على مساجد ، بينما ميّز السلطانين أبوزيد الثاني وأحمد الأول شيخ الإسلام نظراً إلى حل هذه الأوقاف .
(٢) الجزمة كلمة تركية تعني اللبنة ذا قرينة للقرينة أو حلل . وكوب التل . ومنها اشتقت الصلوة التركية جزمة بين الناس أي كبريات الأهمية ، ويتسمى حراس هذه الأوقاف أرباب الحرم .

(٣) للمتولون جميع حقوق وامتيازات مدير إدارة القرب . ويطلق على منصبه في اللغة التركية « توليت » أي تولية ، وهو أمر برتبة من التل ، إذ كان يشرف على أعماله « ذو السكرتير » و « للمصل »

وعلى الأوقاف السلطانية أيضاً العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة بين السلاطين
وبهم .

التنافس على مراكز القوى بين الحمصيان السود والحمصيان الأبيض :

قام تنافس شديداً بين الحمصيان السود والحمصيان الأبيض كان مرده إلى
دحية كل طائفة منها في الاستئثار بالعمود الأعلى في دوائر القصور السلطانية
وفي شئون الدولة . وقد سبق أن ذكرنا أن رئيس الحمصيان السود كان يشغل
المركز الثالث في الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . وكان هذا العبد
المحصى في درجة وزير . ونضيف هنا أن الرسائل التي توجه إليه باللغة التركية
كانت تستهل بهذه العبارة « دولتو عنايتو أفندم حضر تلى » أى حضرة
صاحب الدولة والقضادة والاحترام . أما الرسائل التي توجه إليه باللغة الفرنسية
فكانت تكتب مسبوقه بهذه العبارة الفرنسية . *Votre Altesse* أى « حضرة
صاحب السمو » أسوة بأمراء الأسرة العثمانية الحاكمة . وكانت له هيئة من
المسكرتين الحمصيين يعرضون عليه المراسلات الموجهة إليه . وكان
السلطان يطمئن إلى الحمصيان السود ورئيسهم أكثر من اطمئنائه إلى الحمصيان
الأبيض ورئيسهم عادة . ولنا السبب كانت اتصالات الصدر الأعظم
بالسلطان تتم في معظم الأحيان عن طريق رئيس الحمصيان السود .

وفي أواخر القرن السادس عشر اهتز مركز الحمصيان الأبيض اهتزازاً
حينئذ على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) فقد أصدر هذا
السلطان فرماناً في عام ١٥٨٢ بتعيين أحد كبار السيد الحمصيان السود في منصب
دار المعاديت أغامى . وكان هذا المنصب حتى ذلك الوقت تابعاً إما للخزينة
دار باشي وإما للسراي أغامى . وقد استرد الأخير هذا المنصب بعد قرابة
عشر سنوات ، ثم أعيد هذا المنصب نهائياً إلى الحمصيان السود حين تولى
السلطان محمد الثالث العرش (١٥٩٥-١٦٠٣) وانتقل نهائياً الإشراف على
الحريم وعلى التفتيش على بعض الأوقاف السلطانية من يد القباي أغامى .
وهو رئيس الحمصيان الأبيض - مما أدى إلى إضعاف نفوذ الحمصيان الأبيض

ولتضاملت اختصاصاتهم . وعلى سبيل المثال أصبحت مهام الخصاص أوطة
باشي - وهو أحد كبار الماعدين الخمسة لرئيس الخصيان البيض - مقصورة
على إلباس ملابس التشرقية لكبار الموظفين مثل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام
وبعض موظفي القصر . وبذلك غدا هذا النحى الأبيض الكبير مجرد ترفيقي
للخدمة الداخلية . وأطلق عليه في وضعه الوطني الجديد «أنلون قسرقاغي» (١) .
وانعكس هذا الوضع الوطني المتدهور على كبار الخصيان البيض إذ نجحت
منهم اختصاصاتهم الواسعة ، وانحصرت مهام الخزينة دار باشي والكلارجي
باشي على التفتيش وعلى تزويد حبار نومهم بالطعام ، ولكن ظل السراي
أهمى - أى آغا القصر - وهو من كبار الخصيان البيض يشرف على القصر
في أثناء غياب آل الخان والصباط الذين كانا يرافقه . وكان هناك قصر
إحدى ضواحي إستانبول يسمى «جالاطة سراي» تحت إشراف حصص آيتي ،
ولكن ما بدأ القرن الثامن عشر حتى كان الخصيان البيض قد نقص عددهم
نقصاً كبيراً ونقلوا مركزهم المتنازل السابق إلى الأيد . وقد ذكر المؤرخ الفرنسي
دومو D'Omon أن عدد الخصيان البيض قد هبط في أواخر القرن الثامن
عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلى ثمانين شخصاً ، بينما تجاوز عدد الخصيان
السود مائتي شخصاً (٢) .

محاولة إلغاء نظام الخصيان :

وقد تقلل الخصيان في العديد من وظائف القصور السلطانية وتميزت
خدمتهم في معظم الأوقات بالأمانة والإخلاص والكثافة والطاعة للعباء ،
ولكن يوشك عليهم أنهم أعطوا لأنفسهم تقلاً أكثر من اللازم وسيطر عليهم
الغرور . وقد أدرك بعض كبار رجال الدولة خطورة امتصاص نفوذ الخصيان
في القصور السلطانية وفي أجهزة الحكومة . كانت القصور السلطانية مليئة
بالزوجات والخواري . وكان إشراف الخصيان على شئونهم وقيامهم على
حراسين والاتصال بين اتصالاً مباشراً ودائماً قد أدى إلى نقل شطر كبير

(١) أتت هذه كلمة فارسية أدخلت في اللغة التركية ، واستأما داخل أو في الداخل .

D'Omon; op. cit., Vol 7, p. 57.

(٢)

من السلطة العليا إلى الخصيان ، إذ كانوا يلقون رغبات هؤلاء السيدات إلى الخصيين في الباب العالي وغيره من اللوآثر العليا في الحكومة ، فأصبح الخصيان مركز قوة رهيب في الدولة . وقد جرت محاولة في عام ١٧١٦ لإلغاء استخدام الخصيان البيض والسود على السواء في التصور السلطانية . وكانت هذه المحاولة على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) وأُرسلت إمتاتبول عمليات إلى الباشا العثماني في القاهرة لوقف عمليات خصائه السيد والكف عن إرسالهم إلى السلطان . وكان صاحب الفكرة في إلغاء هذا النظام أحد المصور العظام - وهو جرجر ليل داماد على باشا . ولكن ما لبثت أن حدثت الأمور بعد وفاته إلى أوضاعها السابقة .

محاولة محمد من نفوذ الخصيان :

وجرت محاولة في أثناء حكم السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤) ليعزل من نفوذ الخصيان على الأوقاف خارج التصور السلطانية ، فألقى راجب باشا الصدر الأعظم تنظروشاء الخصيان على الأوقاف ، ووقف مؤقتاً حارماً منهم ، وجعل الإشراف على جميع إيرادات الأوقاف من اختصاص المنفرداد وهو رئيس للشرق المالية في الدولة - وقد نجم عن حركة التطهير التي قام بها راجب باشا أن رادت حصيلة الأوقاف زيادة كبيرة . وانكشف نفوذ الخصيان وروئسهم . ولكن أُنشقت هذه المحاولة ، لأن حركة الإصلاح لم تمر سوى سنوات قليلة العدد ، وعاد نشاط الخصيان خارج التصور إلى وضعه السابق وبجح التنبزلر أغاسي - رئيس الخصيان السود - في حل الحكومة العثمانية على أن تعوضه هو وزعماءه الذين كانوا يعملون معه كعاهدين له في نظارة الأوقاف عن التناثر التي لحقت بهم طوال الفترة التي حرموا فيها من دخلهم من الأوقاف . ودفعت هذه التوضيحات من الريادة التي طرأت على إيرادات الأوقاف .

ولقد زاد الموقف تدهوراً لأن رئيس الخصيان السود معي جامهأ لدمم وترسيع نظام الخصيان ، وأصبح يمارس نفوذاً كبيراً على السلاطين أنفسهم

بصورة غير مسبوقة بمثال ، وغلبنا من أكبر مراكز القوى في الدولة .

تصاعد نفوذ الخصيان :

تصحت مصالح الحرم السلطاني مع مصالح الخصيان وروماهم التحاماً وثيقاً . كانت نساء الحرم يصلون إلى الخصيان حيناً ، وإلى رؤسائهم أحياناً ، ورجالهم التي كانت تأخذ شكل أواميرها رئيس الخصيان إلى الصدر الأعظم أو الوزراء أو غيرهم من كبار الموظفين في أجهزة الدولة . فتأخذ هذه الأوامر طريقها إلى التنفيذ الفوري . وكانت هذه الرغبات أو الأوامر ذات طابع شخصي أحياناً ، وأحياناً أخرى ذات طابع عام تتصل بالأوضاع الوظيفية لكبار رجال الحكومة أو السياسة العليا للدولة . وفضلاً عن ذلك كان الخصيان يسهمون في تنفيذ المؤامرات التي كانت تخاك في داخل القصر . وكان إسمائهم فيها يتم تحقيراً لرغبة الحرم السلطاني . فكان الخصيان يطلقونهم - السود والبيض - هم اليد اليمنى لسيدات القبة الأولى من الحرم السلطاني . وكانت هؤلاء السيدات يفتقرن من وقت لآخر المنع والعطاياف في شتى صورها وأنواعها على الخصيان ، فيزداد الواحد منهم سخاياً في خلعتين . وكلما شعر أنه مؤيد منهن أدى مهمته لدى كبار رجال الدولة في حزم وقوة بل وفي صرامة ، لكنه كان يشعر أنه يتكلم من مركز قوة ، وهو نفسه مركز قوة . ومن هنا تنافس نفوذ الحرم السلطاني والخصيان تنافساً خطيراً في دوائر الحكومة بحيث خلعت هاتان القوتان من أخطر مراكز القوى في الدولة .

والواقع أن ولاء الخصيان للحرم السلطاني كان أعمق من ولاءهم للدولة بدافع المصاحبة الذاتية المشتركة في النطاق الضيق . وكثرتوا يستعملون نفوذهم كمرکز قوة في الدولة من اتصالات الدائم والوثيق بلواتك السيدات . ولذلك كان نفوذهم يزداد ريادة طردية مع نفوذ الحرم السلطاني ، بمعنى أن نفوذ كل من الحرم والخصيان كان يتصاعد معاً بحيث أصبحت هاتان القوتان تشكلان مركزين متساندين متحالفين من أكبر مراكز القوى في الدولة ، بل لعلها كانا يشكلان بعضها بعضاً .

وإذا كان النخعيان قد عمارا لتحقيق رغبات سيئات المحرم الساطين وتفضيل رغباتهم ، فلأنهم لم يفخوا أنفسهم . وعملوا أيضاً من أجل تأليب مصالحهم الشخصية . وحسبهم أنه حيل بينهم وبين إيجاب ذرية تكون عوناً لهم في شيخوختهم الواهنة . ولم تكن لهم حرية رفض أو قبول لإجراء عمادات النخعاء لهم ، إذ كانوا قد فقدوا حريتهم وكرامتهم بل وأدميتهم . ووجدوا في وضعهم الجديد وهم في نهاية المطاف أنهم على قمار من الأهمية ، وأن الطريق أمامهم متشعب ، وأن السبيل إلى المجد ذي البريق المزعج المزعج ينسر ، فإذ عدداً من الوظائف القيادية التي كان النخعيان يتخرجون في الترقية إليها كان يشغل بالأهمية المعلقة ، وكان عدد أكثر من هذه الوظائف يشغل نتيجة الحظرة التي يذخرها النخعيان من لندن المحرم السلطاني ، فضلاً عن أن عدداً من الأخوات النخعيان كانوا يتعرضون للنزول إذا عصيت سيئات المحرم السلطاني عليهم . لذلك كانوا يتعمدون في خدمة هؤلاء السيدات بوجه خاص إثناء من القادس الرابعة فصاعداً حتى السلطنة الثالثة . وكانوا أداة طيعة لنية في ألبين . وعلى الرغم من حظرهم وطاعتهم ، كانوا يتعرضون في بعض الأحيان للمناسخ المحرم السلطاني ، وما كان أكثرها في السراي الجديدة حيث كان الجو موبوءاً في أجنحة المحرم . ويغاجاً كبير الأخوات النخعيان وبعض مساحيته بالنزول . ولذلك كان النخعيان بمثابة وكبارهم بحاجة يعملون حساباً لمواجبة مثل هذا اليوم للعصيب ، وقد جردوا من المنصب والجاه والنفوذ وأهلفت في وجوههم الأبواب بعد أن كانت تقف لهم جباه الجميع ، وأصبحوا بين حشية وضحاها نسباً منسياً .

وهذه تفكير النخعيان إلى تكوين ثروات خاصة بهم جمعوها إما عن طريق المنسخرات المالية للشخصية والمدايا التي يحصلون عليها من سيئات المحرم السلطاني أو من كبار الشخصيات التي كانوا يتقربون بها إليهم ، وقد عملوا على مضاعفة هذه المنسخرات إما من التظفر على الأوقات الحرة أو الأهلية . وإما عن طريق الكسب غير المشروع . وكانت الفرص أمامهم متاحة ومتعاقبة ، لأن شغل المناصب الكبرى في الدولة أو منح الألقاب كان يتم بطريق الوفاة

والنفوذ، وبعبارة أخرى لمن يدفع فيها أغلى ثمن . وكان الأراء يظهر عليهم بعد هزلم من مناصبهم ونفيهم إلى مصر حيث يقتنون العقارات المبنية أو الأرض الزراعية يحصلون على دخلها طوال حياتهم ، وينصبون على تحويلها إلى أوقاف خيرية بعد مماتهم .

وكانت نهاية الخصيان والحرم السلطاني متقاربة إن لم تكن متشابهة . فإذا جاز السلطان إلى ربه انتقلت سائر مميزات الفئة الأولى من الحريم السلطاني من السراى الجليل إلى السراى القديم وحسن على ذكرى مجد ولى . وقصين بقية أمانهن مضمورات أو على هامش الحياة . وقد يسعى أحد القوصوليين من كبار رجال الدولة ليتزوج إحدى القنادينات لسابقات وبخاصة اللاتي لم ينجن من السلطان المتوفى ذكوراً أو إناثاً . ويهدف مثل هذا الوصول أن يصيب من مثل هذه الزيجة منها .

وكان يحدث نفس المصير تقريباً بالنسبة لخصيان ، لأن ارتقاء سلطان جديد للعرش كان يقترن عادة بحركة تغييرات أو تنقلات بين شاغلي المناصب القيادية بين الخصيان . فقد يكون لخل هذا السلطان الجديد نساء ، أو يسارع ليحصل له نساء ويصعبن حلقة الحريم السلطاني، ويقع اختيارهن على خصيان آخرين يتوسمن فيهم الأمانة والإخلاص ويمحو عجم الخصيان السابقين .

ولمحق أن نفوذ الخصيان ، وتسلل هذا النفوذ إلى أجهزة الدولة من أعلى المستويات ، ونجاح هذه الفئة من الصعيد في أن تجعل من أفرادها مركز قوة حطير ، كل أولئك بعد تقلة سوداء في تاريخ دولة إسلامية كبرى مثل الدولة العثمانية .



الفصل الثالث والعشرون

تقييم مراكز القوى في الدولة

عهد على بالمناقشات :

في تاريخ الدولة العثمانية وفي الشطر الأول من عصرها الثاني ظاهرتان تبدوان للبعض أنهما ظاهرتان غريبتان ومتناقضتان تناقضاً صارخاً مع المعالم الرئيسية لتاريخ الدولة في تلك الفترة ، ويقف حيالهما بعض المؤرخين والباحثين حيارى في تفسيرهما . وتتمثل الظاهرة الأولى في أن الدولة حققت انتصارات عسكرية هامة في جهات جلييلة أو في جهات قديمة على عهود مراكز القوى حين كان على رأس الدولة سلاطين ينتمون إلى القصر الثاني عرف بعضهم باسم السلاطين « الثانية » *İkinci* وعرف البعض الآخر باسم السلاطين الذين لا يرأى أحد *Invisibles* لأنهم احتجوا من الشعب والجيش وللمنصور العظام والوزراء ومن إليهم من رجال الدولة ، وآثروا حياة الخج وسط نعماتهم وجوارهم . ثم كان هناك السلطان المقتدر إبراهيم الأول . وقد رزقت الدولة بهم وتعاقدوا على عرشها إما تعاقباً مباشراً ، وإما على فترات متقاربة كأل يفصل بينهم سلطان واحد قدبر قوى الشكيمة لا يلبث أن يحو برين حكمه بولغته ، ثم يتعاقب على العرش سلاطين ضعاف يسرقون إسرافاً بعيداً في الملذات ويبددون أوقتهم وجهودهم في حياة اللهو والمجون مما أتاح مناصاً حصيداً لمراكز القوى عامنترى بعدها وطفليها وجبروتها ، سواء القياقي الإنكشارية أو الخريم السلافي أو الخصيان وروضاء الخصيان . وإذا كانت الدولة على عهد مراكز القوى قد سمت بكوارث عسكرية حيداً وهزائم حرية أحياناً في بعض الجهات إلا أنها أحرزت انتصارات عسكرية وسياسية هامة جداً في ذات الوقت . ونذكر على سبيل المثال ما حدث على عهد السلطان سليم الثاني الذي اشتهر

في تاريخ الدولة باسم السكر ، وبارتكابه الموقفات ، وباتصاله بصحة السود ، فقد تم إبان حكمه إرسال الحملة العسكرية بقيادة ستان بلاطام ١٥٦٩ لإعادة السيطرة الثمانية على اليمن ، وفتح جزيرة قبرص (١٥٧٠-١٥٧١) . أما حلة اليمن فكانت دعماً للإستراتيجية الثمانية في البحر الأحمر وغلقت هذا البحر في مواجهة الغزو البرتغالي الصليبي الاستعماري للبحار الشرقية والأقاليم التي تطل عليها ، لأن اليمن يحكم موقعها في جنوب غرب الجزيرة العربية وإشرافها على باب المندب تعد منطقة دفاع هامة عن حدود الدولة الثمانية من ناحية الجنوب بحيث تستطيع بالسيطرة على اليمن أن تسيطر على سلامة الأراضي المسلمة الإسلامية في الحجاز من الغزو البرتغالي (١) . وكان امتلاء الدولة على قبرص نجاحاً عسكرياً راسخاً إذ انتزعت من جمهورية البندقية هذه الجزيرة التي كانت تتمتعها قاعدة عسكرية صليبية تهدد المواصلات الثمانية البحرية في الحوض لشرق البحر المتوسط . وكانت

(١) انظر كلاين .

دكتور السيد مصطفى سالم : الفتح الميثاق الأول الس ١٥٢٨-١٦٣٥ من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، كالمسلك بنيران : الفتح الميثاق الثاني اليمن ١٥٧١-١٥٧١ ص ٢٣٥-٢٨٦

دكتور فاروق حيان أستاذ : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٢٩-١٩١٨ .
تأثير الحربة المصرية العامة لاكتف ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٨٩

دكتور عبد العزيز عبد الشلبي : الزلزال الأول الوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية وموقف الدول الإسلامية الثلاثة الكبرى منه ، مرجع سبق ذكره . ويلاحظ أن الثمانية أخرجوا من اليمن عام ١٦٣٥ ولم يعودوا إليها إلا في منتصف القرن التاسع عشر ليقيموا حكمهم فيها قرابة نصف قرن تحولت فيها اليمن إلى « مقبرة لأبناء الأتاتورك » حتى تم جلاءهم منها عقب الحرب العالمية الأولى . وكانت طيبة بلاد اليمن حتى أيام الفترات الميثاقية ، لأن بلاد اليمن لا تصبح لحرب ظلمة ، كما أن أهل اليمن كانوا يحسبون بأن يكون حكمهم من يتصورون إلى منسوب ديني معبر عن الإسلامية الربانية . يضاد إلى طين السيف يد اليمن من إسطنبول ومطقة ظل القوات إليها إذ لم تكن قد غشت بعد فتنة السويس . وكان أهل اليمن يطلقون على الحكام الثمانية « ولادة السبع » ومع ذلك فقد أسس الميثاقون عدسات جليلة اليمن .

انظر مرئياً هذه التسميات في :

دكتور السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث اليمن والإمام يحيى (١٩٠٤-١٩٢٨) من مطبوعات معهد الدراسات العربية لثمانية . القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٢٨-٣٠٢٨
§ ٤٢ - الدولة (الثمانية)

العمليات الحربية في اليمن وقبرص تأكيداً على الخصميتين الرئيسيتين للدولة ، وهما الطابع العسكري والطابع الديني في مواجهة الغزو البرتغالي الصليبي والقسطنطيني . ولم يشترك السلطان سليم الثاني في هذه العمليات الحربية ، ولكن أسهم فيها إسهاماً فعلياً رجال أفندي تركهم السلطان سليمان المشرع لآبته سليم الثاني (١) .

وحققت الدولة نصراً عسكرياً كبيراً حين انتزعت تونس في شهر أغسطس - آب - عام ١٥٧٤ من حكم إسبانيا . وكانت أوروبا ترى أن استيلاء الإسبان على تونس من أبهى الصفحات في تاريخ الإمبراطور شارل الخامس - شارلوكان - ومن مقاسم حكمه . ولكن أطمحت الدولة العثمانية بهذه المصخرة وأعدت تونس إلى حظيرة العالم الإسلامي العثماني وحفظت لهذه النهاية (٢) إسلامها وعروبها . وقد تم هذا الانتصار بفضل سنان باشا

(١) تذكر منهم في الحية اليمنية : سنان باشا قائد الحملة ، ومحمد باشا ، ورفيع باشا ، وغفار باشا ، وحسن باشا .
وفي الجبلية القبرصية :

محمد باشا قائد القوات البرية ، وييل باشا قائد الأسطول ، وهدجش باشا والي حلب ، وإسكندر باشا والي الأناضول ، وجرام باشا والي ترمغان .

(٢) دخلت ثلاثة أقاليم في شمال إفريقيا تحت السيادة العثمانية في القرن السادس عشر ، وهي حسب ترتيبها : الجزائر ، وطرابلس الغرب ، وتونس . وقد أطلق الإمبراطور محمد الثاني على هذه الأقاليم ثلاثة أسماء علياً هو «تيايات» . فكان في فصل مناته «الأوضاع الفريدة في دول المغرب البري ما نسه» وأرى أن أسماها «تيايات» تنقل من المصطلح المصري السوي في أيام السلطنة المملوكية «سبا كانوا يطلقون على دمشق أو حلب أو ما مثل اسم التياية» وسماها نائب السلطنة «كأطلق الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكرى على هذه الأقاليم الثلاثة «الأوجيات» نسبة إلى أوچاق السلطان أو أوچاق الإمبراطورية» .

أما حكام أوروبا ومؤرخوها فقد أطلقوا عليها **Les Régences Barbaresques** وهي تسمية تعطي على عبث وتلاعب بالألفاظ ، لأنها تعني أحد حكامين ، أو لها : التيايات المبربرة أو المسبية ، وتلكها تيايات البربر ، وهم القبائل التي تطلق شمال إفريقيا بعبء من السائل . وباعتقاده المصوص الفرنسي أو الإنجليزية التي يرد فيها ذكر هذه البهارة يوضح أن مفلول التيايات المبربرة المسبية هو المقصود . وما طرأ رأينا أن لكورج الفرنسي دوا **Donia** لفر جبرطة من الوثائق الخامسة بخلاف إفريقيا . وجاء في الوثيقة رقم ٢٧ هذه البهارة **Les Etats Barbaresques** أي الدول المبربرة المسبية .

قبل أن يتعمق سليم الثاني للسكر بحجه في اليوم الثاني عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - من ذات السنة إثر غزوة قلبية أصابته نتيجة إسرائفه في المسائل الجسدية وإفراطه في تناول الخمر (١).

ونجحت الدولة أيضاً بحاجاً عسكرياً باهراً على عهد السلطان محمد الرابع حين تم لها في اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦٦٩ احتلال جزيرة كريت على الرغم من المساعدات التي قدمها لويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣-١٧١٥) لجمهورية البندقية. ولكن كان أحد بلايا كوبرلي الصدر الأعظم قد انتقل إلى جزيرة كريت ليكون حل رأس

== وما هو جدير بالذكر أن أهم حكومات أوروبا في القرن التاسع عشر كانت مصابة من الأزمات المالية من أزمات شلال إقليمية حيث كان سكانها المندرية والغرب والامريكانيون ينفذون عمليات الجهاد القوي البحري ضد السفن المسيحية التي تأتي من الممرات بين الإسلامية من غرض ليس المتوسط ومصادرة حمولاتها وأسر ركابها. وكانت السفن الإسلامية تفتل على مياه وراكب الجهاد و تخرج من موطنه شلال إقليمية الفلاح من السفن الإسلامية ولم تكن تخرج للفرنسية. ومع الأسف فالتشدد هذا بين الفرنسيين والبريطانيين العرب سلو للفرنسيين الأوروبيين وأطلقوا على سفن شلال إريقية سفلة القرامسة. ولكن أنهم قاموا بمرور واقع في الفلاح من الإسلام والعروبة أو السيادة العثمانية وفي الكفاح ضد استعمار أوروبا كانت تزايد أعظم يوماً بعد يوم. وقد تولى تصحيح هذه القصة أو التخليق للمسد الفلاح بين الأزمات، لاكر منهم حل منحل المال الأسطخين للكهوين بشلل بحره وسلاح القاد.

انظر المراجع التالية حسب ترتيب ورودها في هذه المقالة :

محمد طهيق خريال ، متلج مقبول الفخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر في مطلع القرن التاسع عشر . ثلاثة أجزاء . مطبعة جامعة

القاهرة ١٩٥٨ ، ج ٢ ، ص ٢٥٥-٢٥٦

Douin George; Mohamed Aly et l'Expédition d'Alger Le Caire, 1930, p. XLIV et P. 108

دكتور جلال يحيى : التسلل إلى تاريخ العالم العربي الحديث . انتشار : دار المنرف ، القاهرة

١٩٦٩ ، ص ٢٦-٣٧

دكتور جلال يحيى : الغرب الكور . القصود الحديثة وحجوب الاستعمار ، مرجع سبق

ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٠-٢١

دكتور صلاح الفقاد : الغرب العربي ، الجزائر - تونس - المغرب الأقصى . مرجع سبق

ذكره ، ص ٢٨

(١) بروكلمان كارل ، الأثر في السكندر أبلغ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٢٧

القوات الثمانية ويستكمل فتحها بعد حرب استطالت عاماً وعشرين سنة (١).
وبين حين الاتصالين الكبيرين وما فتح جزيرة قبرص وفتح جزيرة
كريت (١٥٧١-١٦٦٩) تعرضت الدولة لحزام عسكرية أثمة ورفضت
عليها معاهدات جائرة ، تذكر منها على سبيل المثال أنها قبلت أجراً من أملاكها
مثل البندان وشرطاً من ترسلفانيا . وواجهت الدولة قوات جارة من الألمان
والإيطاليين والمجريين . وتضاعفت الحرب بين الدولة والنمسا التي نجحت في
فرض معاهدة توروك (٢) في الخامس عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان -
عام ١٦٠٦ ، وبعد زهاء نصف قرن أرسلت الدولة قوات كثيفة للحد عام
١٦٩١ إلى ترسلفانيا والمجر . ولكن استطاعت النمسا إزادتها . ولم تمر سنتان
على هذه الكارثة حتى قاد أحمد باشا كوبرلي الصدر الأعظم عام ١٦٩٣ حملة
قوامها ١٢٢,٠٠٠ جندي وانصر على النمسا انتصاراً كان له دوى في أنحاء
أوروبا ، وأعاد إلى الأنحاء انتصارات السلطان سليمان المشرع في العصر النعبي
للدولة . واحتل الثمانيون في ٢٨ من شهر سبتمبر - أيلول - ١٦٩٣ قلعة
نوهزل Neuhauzel وتعد من أروع القلاع في أوروبا واستعصت على كثير
من كبار العسكريين من قبل . ونجحت الدولة في عقد معاهدة لاسفار (٣) في
العاشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٦٩٤ مع النمسا . وكانت أحكام هذه
المعاهدة في مجموعها في صالح الدولة الثمانية أكثر منها في صالح النمسا .
وبالتالي فإن الدولة بعد معركة سان جوتلر Saint Othard (أول أغسطس

(١) دكتور ديلب حسنت رالف . كريت تحت الحكم المصري ، القاهرة ١٩٦١ ،

والتر أيلد :

دكتور عبد العزيز محمد الفتوى . أوروبا في مطلع أثنى ، الطبعة الأولى ص ٥١-٥١٠

(٢) يطلق على هذه المعاهدة أيضاً اسم سيطاتوروك Sivatork وقد أقرنا أن يطلق عليها
هذا التسمية الاسم المختصر ، وهو توروك Torok كما أطلق عليها غيرنا من قبل هذا الاسم المختصر
(٣) يطلق على هذه المعاهدة أيضاً اسم لينزبيرج Hienberg

آب - ١٩٦٤) لم تكن في مركز الدولة المتهمة التي عمل عليها شروط مهينة . ولا يزيد أن نحصى في عرض مزيد من الأمثلة لمزاعم وانتصارات الدولة العثمانية في تلك الفترة لأنها ألصقت بالتاريخ الحربي للدولة . وقد سبق لنا في أحد كتبنا السابقة أن عرضنا لصور من مزاعم وانتصارات الدولة (١) .

والأمر العجيب أن المزاعم العسكرية التي منبت بها الدولة في تلك الفترة قد كشفت عن حقيقة هامة ، هي أن الدولة كانت لاتزال تزخر بطلاقات حيوية تتدفق في أوصالها ، ففي أثناء حكم السلطان سليم الثاني الكبير أصبحت الدولة بكارثة عسكرية ودينية حين تحطم أسطولها في معركة ليبانت Lepanto في السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - ١٥٧١ ، وهي المعركة البحرية التي أطلق عليها المؤرخون الأوروبيون اسم الحرب الصليبية المسيحية كما سبق أن ذكرنا . وتكبدت الدولة حائراً قاصمة فيها . وعلى الرغم من أن الفلوج لويجي مويسنجو Luigi Mocenigo (١٥٧٠-١٥٧٧) رئيس جمهورية البندقية قد خرج هو وحلفاؤه مبتهمين من هذه الصليبية الأوروبية ، فقد رأى أنه لا فائدة ترجى من استمرار حالة الحرب بين جمهورية البندقية وبين الدولة العثمانية . واستقر رأياً على أن إعادة العلاقات السياسية مع الدولة خير وأبقى (٢) . وبذلك انكمشت الحكومة الفرنسية مناهيها المحميدة *mes bons offices* في هذا الصدد . وكان نائب البندقية في إستانبول ، واسمه أنطونيو باربارو Antonio Barbaro لا يزال مقيماً بالعاصمة العثمانية في أحقاب المعركة الصليبية . وطلب مقابلة محمد صوفلو باشا الصدر الأعظم ليسبر غوره ويقف منه على اتجاهات السياسة العليا للدولة تجاه البندقية بعد معركة ليبانت . وقد ياجره الصدر الأعظم قائلا

(١) دكتور محمد حمزة محمد قنناري : أوروبا في مطلع أئمت ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة

الأولى سبتمبر ١٩٥٠-٨١٠

والطبعة أيضاً :

Reddaway W.F.; A History of Europe etc.; op.cit. pp. 236-245.

(٢) كانت في جمهورية البندقية عدة جهات تشترك في الحكم ، منها : المجلس الكبير ، ومجلس الشيوخ ، والمجلس ، ومجلس القضاة وغيرها . وكانت هذه الهيئات تحد من نفوذ الفلوج حتى قيل إنه كان يملك ، ولكن لم يكن يملك .

« إنك جئت بلا شك تنحس شجاعتنا ، وترى أين هي . ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم ونصارتنا . إن إسفلاتنا على جزيرة قبرص كان بمثابة ذراع قنا يكسره ويتره . ويأقبحكم المزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من خلق لحنا . وإن اللحية لتنمو بسرعة ويكتاكتة تفوقان سرعة والكتاكتة التي نبتت بها في الوجه لأول مرة » (١) . وقد قرن الصدر الأعظم قوله بالعمل القوي الجاد . كان يائى باشا القيودان من بين قتلى معركة لپانت ، فهدد محمد صوقلو باشا إلى القبطان باشا الجديد ، وأمنه العليج على ، وعنه السيف على ، ببناء أسطول جديد في الشتاء الذي أعقب هذه المزيمة (١٥٧١ ١٥٧٢) . وانصرف إلى تنفيذ هذا الأمر . ولقى العليج على كل معاونة من الصدر الأعظم في إعادة إنشاء السلاح البحري الجديد لموضع البحر المتوسط وزودته الدولة بكافة الأسلحة والتمنار . وإنصافاً للسلطان سليم الثاني نذكر أنه على الرغم من صحة السيئة أبدى تحملاً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثماني . فقد تبرع بسفاه من ماله الخاص لهذا الغرض ، كما تنازل عن جزء من حدائق القصر السلطاني لتبنى فيه أحواض سفن لتصجيل يلقاه وحدات بحرية جديدة . ويعلق كرزى Creasy على تصرف سليم الثاني في هذا الصدد بقوله إن ذلك التصرف كان الوضبة الوحيدة في حياة هذا السلطان والتي من أجلها يستحق الانتساب إلى بيت آل عثمان (٢) . واستطاع الأسطول الجديد منذ شهر يونيو - حزيران - عام ١٥٧٢ أن يملود جولاه في البحر المتوسط وأن يتعرض بالدول الأوروبية وبالكيناث السياسية المسيحية التي وقعت مؤقتاً حديثاً من الدولة في صليبية لپانت . وأخلعت الوحدات لبحرية العثمانية الجديدة تجوب المياه الإقليمية لسواحل إيطاليا دون أن تجرؤ إحدى الدول أو رؤساء القوسا الإمبراطورية على تعرض لها . واستنتجت الدولة العثمانية إعادة التوازن الدولي لبحري لمصلحتها في حوض البحر المتوسط ، واستطاعت أن تمل معاهدة جائرة على جمهورية البندقية في السابع من شهر مايو - آيار -

(١) ذكر محمد علي محمد في تاريخه : « أوردوا في مطلع ألب » ، مرجع سبق ذكره ج ١ ، ص ٧٧٩

(٢) Creasy, E.B.: History of the Ottoman Turks, from the beginning of their Empire to the present time London, 1877, p. 223.

ثولاً : إن عدداً من سلاطين الفترة الثانية الذين هرفوا بالهون وإدمان الخمر تولوا إنشاء مساجد شائعة بلغت الروعة في الجبال والزخرفة والشموع. نذكر منهم على سبيل المثال السلطان سليم الثاني . فقد أقام في مدينة أدرنة مسجداً كان أعظم مبنى فيها . وقد قام ببنائه سنان باشا كبير المهندسين الممارزين في الفترة من ١٥٦٨ إلى ١٥٧٤ ، وأطلق عليه مسجد السليمية نسبة إلى السلطان سليم الثاني . ويقول سنان باشا إن بناءه هذا الجامع يعد من أعظم أعماله ، وهو يقوم على أعلى بقعة في أدرنة ، وله قبة ضخمة ، وأربع مآذن رفيعة كالعمد ، لكل منها ثلاث طبقات وثلاث من الدرج . والمسجد فناء رحيب . وقد بلغ هذا المسجد من ضخامة البناء والروعة والزخرفة ما يجعله المسجد الرئيسي للسلاطين في أدرنة على الرغم أن في أدرنة أربعين مسجداً كبيراً وصغيراً (١) .

وأمر السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) ببناء المسجد الفخيم الذي يحمل اسمه . واستغرق بناؤه الفترة من عام ١٦٠٩ إلى عام ١٦١٦ وهو يقع في آت ميداني - ميدان الخيل - في إستانبول .

أما السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) الذي كان عميل إلى حياة الهون والبهت والعبث وسط الحرم السلطاني فقد أمر ببناء مسجد لوالده في أسكدار (٢) . وقد تم بناء هذا الجامع عام ١٧٠٨ ويسمى بكى والده جمعى .

ثانياً : إن عدداً من سلاطين الفترة الثانية أدخلوا تحسينات على المسجد الرئيسي في العاصمة .

كان السلطان محمد الفاتح قد حول كاتدرائية القديسة صوفيا في القسطنطينية إلى مسجد عقب فتح هذه المدينة . وقد أضاف السلطان سليم الثاني وخلفاؤه ثلاث مآذن بجانب المآذنة الأولى التي كان السلطان محمد الفاتح قد أقامها .

(١) Mordtmann J.H; En cycl. of Islam. Art. Adriaanoph. (١)

(٢) وردت هذه الكلمة في بعض المراجع مكتوبة على هذا النحو : أسكدار وهو أهم وأكبر سرق في إستانبول في جزئها الواقع على الجانب الجنوبي من البوسفور . ويطلق عليه أيضاً اسم سكوتاري Scutari

وأقام سليم الثاني لحوق القبة الرئيسية خلالاً من البرونز بلغ قطره ثلاثين متراً .
وأضاف السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) نقوشاً ضخمة كتب بعضها
بحروف يبلغ طولها تسعة أمتار . وكانت تنظم اسم الله سبحانه وتعالى ، واسم
الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ولهماء الخلفاء الراشدين .

ثالثاً : مساجد أنشأتها ميديات القبة الأولى من الحرم السلطاني .

وبما هو جدير بالذكر أن عدداً من ميديات القبة الأولى من الحرم السلطاني
اللائي كن يشكلن مركز قوة في الدولة قد تناقسن في إنشاء مساجد زلني إلى
الله . وقد تركزت هذه المساجد في صاحبة واحدة من ضواحي إستانبول ،
هي ضاحية « أسكودلر » أو « سكوتاري » . وقد بنيت قبلها مساجد أخرى
فيها لا تدخل في نطاق هذه الدراسة . ونذكر من تلك التي شيدت في عصر
مراكز القوى .

إسكي والدة جاسي . وقد سبق أن أشرنا إليه .

جامع جنلي . وقد فرغ من إقامته عام ١٦٤٠ في تهنئة حكم السلطان
مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول .

رابعاً : إعداد كسوة الكعبة العريقة في إستانبول :

يجمع مسشرقان ، هما : إيوار ، وماثران ، على أن السلطان أحمد الأول على
الرغم من حيويته الكثيرة مثل القسوة والتقلب وسهولة التأثر عليه والتفكير
لمن أسندوا خطمات جليلة للدولة ، كان يفره الورع والتقوى فكان يجمع
بين المتناقضات . أقام عدة مناسبات دينية وتعبيرية . وكان أول من أمر بأن
تعد في إستانبول كسوة الكعبة للشرعة في المسجد الحرام بمكة المكرمة (١)
وأن ترسل متوجهاً مع قافلة الحج الشامي (٢) . وكانت هذه القافلة تعد القافلة

Huot C.L., Encycl. of Islam. Art. Ahmed I.

(١)

Mantran R., Loc.cit.

(٢) يرد ذكرها في بعض النسخ الرابع كقصة الحج الرومي أي التركي أو الفند ، لأنها أصبحت
تبدأ رحلتها من إستانبول .

الأولى في الدولة وقسم العمل الشريف وحجاج بلاد الشام وحجيج الأناضول والروم إلى (١). ويلاحظ أن إصدار الكسوة الشريفة في إسطنبول وإرسالها لم يمنح الحكومة المصرية من الاستمرار في إصدار الكسوة أيضاً وإرسالها مع قافلة الحج المصري إلى مكة المكرمة. وكان وصول القافلتين الشامية والمصرية بالمسلمين بعد حادثاً عظيماً عند أهل مكة وكانوا يحضرون بمقلتها. وتنصب القافلتان خيمتهما في أماكن معينة خارج مكة المكرمة.

ومعبر هاتين الظاهرتين لا يحتاج إلى عناء فكري كبير. ولا يمكن القول إن مراكز القوى قد أسست إلى الدولة خطمات بطيئة، بل كان العكس هو الصحيح. ولا يمكن القول أيضاً إن مراكز القوى كانت تتميز بالحصانة السياسية أو القدرة الإدارية أو الكفاية الحربية أو التمسك في الثقافة الدينية الإسلامية للعالم. ولكن الصحيح أن الدولة العثمانية كان قد مضى على إنشائها من عهد عثمان الأول حتى عزل السلطان أحمد الثالث أكثر من أربعة قرون (١٢٩٩-١٧٣٠) فلم تكن دولة ناشئة، وإلا كان حكم سلطان واحد من السلاطين «الثابتة» كفيلاً بالإطاحة بها. يضاف إلى ذلك سبب آخر هو أن الدولة كانت دولة عسكرية بكل ما يحمل هذا الوصف من معان. وكانت العسكرية الصارمة هي المهيمنة الأولى من خصائص الدولة. وكان لها قوات عسكرية مسلحة صارية وهيئة كثيفة المولد متعددة الأسلحة، مثل سلاح البادية - المشاة - سلاح الخيالة - الفرسان، وسلاح الطوبجية - المدفعية - بكافة أفرعها. وكانت لها قوات بحرية يصعبها إحدى دول البحر المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر. ويلاحظ أيضاً أن الصحوة التي صادفها رجال الإصلاح في الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر والقرن التالي هي تعويضها من دولة عسكرية إلى دولة مدنية. وفي ظل الدولة العسكرية كان العسكريون -

(٢) كانت قافلة الحج الشامي أو الرومي تسلك الطريق التجاري القديم من إسطنبول إلى دمشق وقرق ما وراء الأردن، وهي موثقة لتقديرة مائة جمان، لذلك صالح، للخدمة المتوردة. ثم سكة المكرمة. وأقيمت الحكومة العثمانية سبيل في المصحات يجد فيها الحجاج طعاماً هنيئاً وحريراً. وكانت الرحلة من إسطنبول إلى مكة المكرمة تستغرق زهاء خمسة وأربعين يوماً.

وهم أهل الثقة بالتعبير المعاصر - يتقلدون المناصب المدنية فضلاً عن الوظائف العسكرية . ولم تجد الدولة رحيماً بشرياً من أصحاب الكفايات المدنية - وهم أهل الخبرة - تفلأ بهم المناصب المدنية لمها على طراز الشريعة من أعضاء هيئة الدينية الحاكمة . وأخيراً كان هناك سيان آخران لم يجيلا لمراكز القوى الأخر السريع في انهيار الدولة . فقد كانت هذه الدولة لا تزال تسير بقوة الدفع التي أودعها فيها سلاطين عصرها الذهبي في الفترة الأولى من تاريخها . وأخيراً كانت الدولة العثمانية من كبرى دول العالم بحيث لم يكن اضمحلالها أو سقوطها أمراً ميسراً يقع بين حشوة وضحاها . وقد كان اضمحلالها حيلة عوامل دنيوية وخارجية عديدة ومتباينة في أصولها ووسائلها وأهدافها ، وظلت تنخر في عظام الدولة أصحراً وأدهاراً وأحقاباً . وكانت مراكز القوى من بين هذه العوامل المبكرة ، ومن بين النثر الأولى لاضمحلال الدولة . ومع ذلك فقد ظلت هذه الدولة قائمة أكثر من ثلاثة قرون ، لأنها كانت دولة شائعة البنيان قوية الدعائم وطويلة الأركان . حاصرت الزحف الاستعماري الأوروبي في أعنف مراحلها ضراوة . نظر إليها على أنها دولة إسلامية دنيوية على أوروبا ، ويجب طردها من هذه القارة ومن شمال إفريقيا وسائر القواعد العسكرية التي تحتلها في حوض البحر المتوسط كقاعدة للقضاء عليها وإزالتها من خريطة العالم السياسية . وكذلك واجهت تكتلات عسكرية صليبية نظمتها الدول الأوروبية الاستعمارية ، وشقت عليها حروباً متصلة بحيث كانت الدولة تخرج من حرب لتغوص حروباً أخرى في جهة أخرى . ولاشكاد الحرب الثانية تضعف أوزارها حتى تواجه للدولة ثورة عارمة في ولاية أو أكثر من ولاية مسيحية في أوروبا تروم الاستقلال بتحريض وتشجيع ومساعدة بعض الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى .

وأخيراً فإن الدولة العثمانية كانت دولة الإسلام الكبرى . وكانت لتوحاتها الحرية وسط شحوب مسيحية تم باسم الإسلام ، وكما سبق أن ذكرنا كان إذا دخل مسيحي أوروبي في الدين الإسلامي قال عنه زملاؤه إنه ضلأ حثانياً ، ولم يقولوا عنه إنه أصبح مسلماً . فاللولة العثمانية كانت الرمز إلى

المعبد للإسلام . وكان للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة مركزها المرموق بين الهيئات الحاكمة في الدولة ونفوذ متشعب في أجهزة الدولة بحيث لم يكن من السهل أن ينكشف نشاطها الخفي .

والمرءى الذي نستخلصه مما سبق أنه من بين الخصائص الجديدة التي تميزت بها الدولة ظلت الخصيختان الأوليان الرئيسيتان ، وهما العسكرية والدينية ، يبرزتن في نشاط الدولة . ولم تتأثرا من وجود مراكز قوى فيها تأثراً خطيراً أو كبيراً ، بل ظلت الدولة محفظة بهما ، ولهما مكان الصدارة مما يعد من دلائل أصالة هذه الدولة ، وأنها كانت ذات وصيد زائر من مجد مؤثر حدثت عليه في أحلك الفترات التي سيطرت فيها على مصارها مراكز قوى لم تكن تروم غير تحقيق مظالم شخصية لها .

ولا يعد هذا التقييم دقاً عن مراكز القوى الثلاثة أو تقليلاً من الأضرار التي لحقت بالدولة من جراءها . فما لاجتال فيه آل القروشي خربت أطناباً في أجهزة الحكومة وساد الاضطراب في الدولة ، كان السلاطين لا يحكمون ، وكان الثمنور العظيم لا يحكمون ، وانتقلت السلطة في الدولة إلى أيدي طوائف غير مسئولة : جوار حسان اشترت غالبيةهم بالمال الوفير ، وعبيد خصيان بيض وسود وأغواتهم ، فضلاً عن أخطا شئ من العسكريين خرجوا على قواعد الانضباط العسكري . ولم يمحروا في المصالح العليا للدولة ، واقتصروا تفكيرهم ونشاطهم على تحقيق مصالح شخصية رعاجلة لهم مثل زيادة مرتباتهم وإجراء ترقية سريعة لهم ومنحهم المزيد من البدلات والامتيازات . ولكن كان العسكريين لا يقصرون ولا يشبهون . ومكر بعضهم في الاستيلاء على المنصب الموجد في القصر السلطاني معتمدين على كثرتهم العددية وأسلحتهم ودرتهم على اقتحام المواقع ، وكان بعض العسكريين يثرون على بعض التصرفات التي تصدر عن السلاطين ولا تروقهم . ومن الأمثلة الصارخة التي تساق في هذا الصدد أن الإنكشارية جلولوا إبان حكم السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥ - ١٧٠٣) إلى سلاحهم الثقيل ، وهو إعلان العصيان العسكري ، بحجة أن السلطان أطلأ إقامته في مدينة أدرنة بدلاً

من إسطنبول . وقد أسفرت حركة التمرد عن خلع السلطان مصطفى الثاني .
ومنذ ذلك الحين تجنب السلاطين زيارة مدينة أدرنة إلا لحماً ثم هجروها
تدريجياً خلال القرن الثامن عشر .

وقد حصص نشوء مراكز القوى الثلاثة ونموها واستفحال خطرها ظهور
عناصر جانبية أخرى تطلعت إلى أن تكون موئلاً للثغور أو بعض النعوذ ،
وأطلت برأسها على مجالات مراكز القوى ، وتزاحمت وتناحست حتى أن
تكون مقابله الأمور في بلها على نحو من الأعمام ، وكان من بين هذه العناصر
الجانبية فرق السياهية أو السباهي ، وكبار أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية
الساكنة بعد أن زجروا بأنفسهم في هذا الملتزم ، ووقعت طوائف الحرف
Trade Guilds (١) تراقب عن كثب تصارع هذه القوى لعلها تصيب منه
مفها . وكان وراء أعضاء طوائف الحرف السلطان يظلب عليه الطابع الديني ،
بينا كان ولاؤهم لطلوئهم ناطع مادي واقتصادي وجهائي .

وعلى تمعد مراكز القوى في الدولة وتباين نفوذها حلواً و هيرماً ،
كانت سيادات الفئة الأولى من الحرفم السلطاني وغيره من الجوارى الحسنان
النفوذ الأول والأعلى بين جميع مراكز القوى في الدولة نظراً لاتصالهم
الوثيق والدائم بالسلطان من ناحية ، وتسلطهم على المصادر النظام من ناحية
أخرى . وقد كن أساس جميع المملوكية أو معظم المملوكية التي تعرضت لها
الدولة في أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر . وفي رأى المؤرخ
الإنجليزي الأستاذ جرات أن سيادات الحرفم السلطاني جعلت ظهور سلطان

(١) كان لأصحاب الحرف في الدولة مهمة وفي المدن الكبرى بمثابة مختل أو هيئة
تسمى طوائف الحرف . وكان لكل طائفة رئيسها ونظما وتلقا لخدمة بها . وكانت الحكومة
تتصل بالمراد كل مرة من طريق رئيس طائفة الذي يطلق عليه شيخ الطائفة . وكان جميع
القضايا والانتخابات للقررة عليهم ويوردها حكومة الحكومة كما يلتزم أربابها وتحت
هذه الطوائف بهبه مستقل ذات في إدارة شئونها . وكان أمثلة كل طائفة ينتخب بولاء هيئة
جدا لطاقتهم إلى حد كان يفوق ولائهم للسلطان . ولما كانت طوائف الحرف تقوم في المدن عند
كان يقاهاها في الرقب مجالس القوى ، أو لجمعية في حالة القهر القوم .

قوى الشبكة أشبه بمعجزة (١). وهو رأى صائب يصدر من مؤرخ عملاق
والحق أن الأمطة الصارخة البديلة التي سقناها في هذه الدراسة عن تساطع
الحريم على السلاطين تؤيد ذلك الرأي وتصور حقيقة الأوضاع في
الدولة .

وكان التوسع في استخدام الحصيان البيض والسود في حزمة وحراسة
الحريم السلطاني دليلاً على اوتياح سلاطين الدولة لنظام الحصيان واطمئنانهم
لخولاء الحصيان من الناحية الثقافية على الأقل . وقد أدى هذا التوسع في
استخدامهم إلى تغلظهم في شتى دوائر الحريم حتى أصبحوا ظاهرة اجتماعية
بارزة في حياة القصور السلطانية ، ومثالا يتلصق إلى الأبدان بكل جوانبه
وصوره ومعانيه بل ومتآبه إذا ذكر اسم دولة في فشرق انحلت بهذا النظام .
أما القصور الكبير التي نجح الحصيان في استقطابهم فكان نتاج عدة
عوامل ، منها : أنهم كانوا الرجال أو أشباه الرجال الوحيدين الذين كانوا
يقبضون أو يمشون في داخل مناطق الحريم السلطاني في القصور السلطانية ،
ولم يحملوا منافسين لهم في هذا الصدد ، وأنهم كانوا على اتصال دائم ووثيق
بسيئات الحريم نتيجة قيامهم بمهامهم بحراستهم وحظمتهم ، وأنهم كانوا موضع
الفتنة الشامة للحريم وأداة الاتصال الوحيد بين الحريم وكبار رجال الدولة في
خارج القصور . فلذا كانت نهاية المطاف بالحصيان أنهم أصبحوا مركزاً
من مراكز القوى فإن هذه النهاية كانت أولاً نتيجة « الوضع » الذي أنشأته
الدولة لهم في داخل مناطق الحريم السلطاني في القصور السلطانية بالإقامة
الدائمة في تلك المناطق المطلقة لتجعل منهم مراكز نموذج وعوة دون قصد منها .
وثانياً نتيجة « الوضع » الذي أنشأته لهم سيئات الحريم السلطاني في جعلهم اليد
اليمى لمن وأداة الاتصال بينهم وبين رجال الدولة على أعلى المستويات .
وكان ثالثاً نتيجة استغلال الحصيان لموضعهم السابقين في ذكاء وفطنة وهذوء
وتفان في الخدمة وأدب بهم مما أضى عليهم العزوة والجلاء . لقد كان الحريم

Graz A.J.; A History of Europe (1494—1610); op. cit., (١)

السلطان والخصيان مركزين حادين من مراكز القويحة يكمل بهما بعضا .
ولذلك كان يقرن ذكر الحرم السلطاني بذكر الخصيان سواء في أذهان
المؤرخين والباحثين أو في كتاباتهم .

حكومة الحرم والخصيان :

وقد وصف بعض المؤرخين والباحثين الحكومة النائية خلال تلك
الفترة بأنها : حكومة السيدات (الحرم) والخصيان : *Gouvernement des Femmes et des Eunuques* (١) وقد يرى البعض في هذا الوصف
نوعاً من المبالغة أو الرغبة في التشهير بالدولة العثمانية . ولكن الزمان
مبدأ الحقيقة المطلقة في هذه الدراسة وفي غيرها من الدراسات يحرص
علينا أن نذكر أن هذا الوصف يصور جانباً كبيراً من الحقيقة .
وبفرض علينا مبدأ الحقيقة أيضاً أن نشير إلى أنه كان هناك جانبان
يتصلان بهذه الحقيقة . الجانب الأول أن ظاهرة تفاقم قنود الحرم
السلطاني والخصيان ورواسمهم قد تمشت في العصر العثماني الثاني أو مايسمى
عصر سلاطين الفترة الثانية ، وإن كانت هذه الظاهرة قد بدأت على وجه
التحديد في أواخر حكم السلطان سليمان المشرع آخر سلاطين الفترة الأولى
أو مايسمى سلاطين العصر الذهبي . وكانت بداية هذه الظاهرة عند ما شرعت
روكسلانة تضع الحيلولة الأولى لمؤامراتها التي استهدفت منها قتل الأمير
مصطفى ولي العهد وتعيين ابنها الأمير سليم مكانه ، أما سلاطين الفترة الثانية
لم تكن لدى معظمهم قوة الخلق أو الشخصية التي تجبرهم يفعلون في وجه
الجيلايات القاتلات من سيدات الحرم السلطاني ويمسحون تدميحهن في شئون
الدولة ، كما أن هؤلاء السلاطين لم يتصدوا للإطاحة بنعوذ العبيد الخصيان

Lavime et Razafindralandy, op. cit., vol. v, p 382.

(١)

محمد جميل بزم : قصة التاريخ العثماني ، الكتاب الثاني ، مرجع سيد ذكره ، ص ١١٠

١٢-١٩

دكتور عبد العزيز عبد الشافي : أودوبان طبع الفخ ، مرجع سيد ذكره ١ ج ١١

الطبعة الأولى ، ص ٧٥٥

وبخاصة الخصيان السود الذين أصبحوا يلبثون حتى القرن الثامن عشر
تقوياً على السلاطين لم تعرف له الدولة من قبل مثلاً :

ويرى المؤرخ الفرنسي رامبو في المباحث التالية الخطوط الرئيسية
لنشأة مراكز القوى في الدولة وتطورها منذ الصراع الذي خاصته روكسلانه
ذات الوجه الباسم من أجل ابنها وتعيينه ولياً للعهد :

«Dès, au temps de Soliman le Grand, il y avait eu conflit entre
le harem et le grand-vizir, et Roussane avait obtenu la mort d'Ibrahim.
déjà, de son temps, le harem avait commencé à se subordonner le Divan:
Roustem n'était devenu grand-vizir que parce qu'il était le gendre de
Roussane et son docile instrument. D'autres catastrophes achevèrent
d'asservir les grands-vizirs de la décadence. Pour se maintenir en
place, ils laissent le harem piller et ruiner l'empire. Le Sultan se
gouvernant plus, le grand-vizir était empêché de gouverner, c'est en
dernière analyse, aux mains nègres eunuques et d'esclaves achetées
qu'est remis le pouvoir absolu. Le sultan de Bayezid l'Eclair et de
Mohammed le Conquérant n'est plus qu'un hochet. Le gouvernement
est tombé en de telles mains que l'on comprend que d'autres prétendent
y avoir leur part. Podjak des janissaires, Podjak des spahis, le corps
des oulémas, bientôt les corps de médecins. L'anarchie militaire ou
cléricale en-elle pire, après tout, que cette anarchie du harem ? Que
de fois les soldats mutins allèguent des griefs légitimes ! que de fois
aussi les oulémas ont eu un sens juste des nécessités de l'empire ! La
domination du harem est le plus mal dont souffre celui-ci il s'attaque
au nerf même de la monarchie, aux sources de sa force, en détruisant
ses finances, ses armées, l'honneur de ses tribunaux et de son Eglise^(١),
la patience et la fidélité de ses sujets^(٢).

(١) انظر كلمة Eglise في هذا لفظ اللغة العلية : أمر الهبة العلية الإسلامية
الملك في سورة البقرة .

Lavisse et Rambaud; op. cit. t. v, p. 323.

(٢)

ولم يستمر طويلا عهد مراكز القوى في الدولة . فقد انتهى نهائيا المركز الأول من هذه المراكز وهو القبائلي الإنكشارية حين نجح السلطان محمود الثاني في إبانة هذه الفئة العسكرية الباغية في الواقعة الكبيرة سنة ١٨٢٦ . أما الحرم السلطاني فقد توارى نفوذ سيده رويشاً رويشاً . وعزل السلاطين حين أن تأخذ هؤلاء السلاطين جميعهم الطبيعي ، وأن يجردوه من النفوذ ويعتوهن من التدخل في شؤون الدولة . أما الأعزات الحصيان فقد قلت الدولة من أعضائهم ، وعملت في ذات الوقت على أن تستبدل بمعظمهم سيدات يشتغلن في خدمة الحرم . وحالت بين الحصيان المتقين وبين التسلل إلى أجهزة الدولة . أما ظاهرة خلع السلاطين فقد استمرت حتى القرن العشرين ومقوط السلطنة الثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وكانت هذه الظاهرة أشد حدة مما كانت عليه على عهد مراكز القوى . لم يكن السلاطين الستة الأواخر الذين بطسوا على عرش الدولة ثم عزل خمسة منهم^(١) . ولم يكن عزلهم نتيجة تسلط مراكز القوى التي كانت قد توارت ، وإنما كان عزلهم يتم نتيجة معارضة خليقة أو صخوط خارجية تمثلت في هيئات وجمعيات من أنماط شتى مارست نشاطها في أقاليم بعيدة عن عاصمة الدولة أو في بعض دول أوروبية ليتسنى لأعضائها حرية التحطيط والحركة وجمع الإنصار والمسلح .



(١) كان هؤلاء السلاطين الذين عزلوا

جباريوز بن محمود (١٨٧٦)

مراد الكاسي بن جباريوز (١٨٧٦)

جباريوز الثاني بن جباريوز (١٩٠٩)

محمد السادس بن جباريوز (١٩٢٢)

أما جباريوز بن جباريوز فقد عيّن سنة ١٩٢٢ بصفته خليفة ، ولم يجد بصفته سلطاناً ربح ذلك فقد تم عزله وترسله مع أفراد أسرته في ظروف ظلمية سنة ١٩٢٨ بعد إلتته الخلافة

فهارس
الأعلام والأماكن والمؤسسات
توجد في نهاية الجزء الثاني

تم بعون الله طبع الجزء الأول
في مطبعة جامعة القاهرة
المراقب العام
البرنسي حموده حسين

رقم الإيداع ٥١٠٨ سنة ١٩٧٨
الترقيم الدولي ٨ - ٢٧٢ - ٢٦٦

THE OTTOMAN EMPIRE

An ISLAMIC MALIGNED STATE

By

Abdel Aziz M. El-Shenawy

Professor of Modern History,

Head of the Department of History,

Faculty of Humanities,

Azhar University, Women's Branch, Cairo.

Volume I

1990

Publisher : Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo

CAIRO UNIVERSITY PRESS

الهدايا ٢٠١٠
أ.د. رشيد سالم الناصري
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

THE OTTOMAN EMPIRE

An ISLAMIC MALIGNED STATE

By

Abdel Aziz M. El-Shawarby
Professor of Modern History,
Head of the Department of History,
Faculty of Humanities,
Ain Helwan University, Women's Branch, Cairo.

Volume I

Publisher : Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo.

CAIRO UNIVERSITY PRESS,

1980